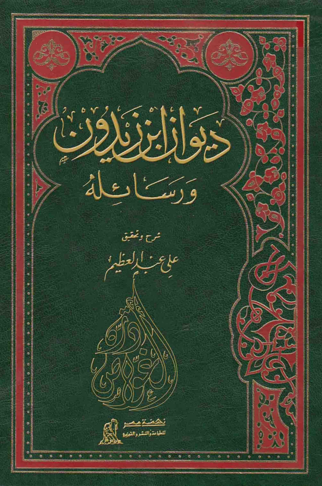
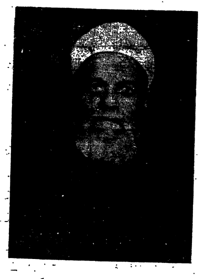

ديوان ابن زيدون
ورسائله
شرح وتحقيق
علي عبد العظيم
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



شرح وتحقيق

علي عبد العظيم





المرحوم الشيخ محمد عبد العظيم والد المصنف

الإهـــــــداء

لروحكَ يا أبي أهديتُ بحثاً ‏ ‏ نوابُك فيه أجزلُ من ثوابي

فأنت أبي ، وأستاذي ، وشيخي ‏ ‏ وخِدْنُ طفولتي ، وهُدَى شبابي

وحادي رحلتي ، ودليلُ ركبي ‏ ‏ وقائدُ زورقي فوق العُباب

وبدرى حين تسْوَدُّ الدياجى   وشمسى حين أخبط فى الضباب

* * *

فما لى بعدك اضطربتْ سفينى   وأغطش منهجى، وخبا شهابى؟

وكنتُ — إذا أساء الدهرُ — أحيا   بظلِّكَ تحت أفياءٍ عِذَاب

إذا ما اليأسُ أغلقَ كلَّ بابٍ   فتحتَ إلى التفاؤل ألفَ باب

* * *

عليكَ درستُ يا أبتى فنونا   من المأثور والأدب اللباب

وعنكَ وَرِثْتُ إيمانًا قويا   يبدِّدُ كلَّ شكٍّ وارتياب

صحائفه مُسَطَّرَةٌ بقلبى   متوّجةٌ بآيات الكتاب

ومنكَ علمتُ كيف أصوغ فنّى   وكيف أجىء بالعجب العُجاب

وكيف أطيع فى الإبداع طبعى   وأرفده بدرس واكتساب

* * *

وكم أرهفتَ فى الأزمات عزمى   وكم سدّدْتَ فى الجُلّى حرابى

وكم قرَّبْتَ لى شُمُسَ الأمانى   وكم ذلَّلْتَ لى شُمَّ الرِّقاب

وكم سدّدتنى نحو المعالى   وكم علّمتنى خوض الصِّعاب

وكم حلّقت بى فبلغت شأوا   يفوق مداه أجواز السحاب

وتقسو تارة فى غير عنف   وتحنو تارة فى غير عاب

مآثرك الخوالد باقيــات   على الدنيا إلى يوم الحساب

* * *

مصابى فيك يا أبتى عظيمٌ!!   وهل فى الناس أفدحَ من مصابى؟

حسبتُ لكل فاجعة حِسابا وما كانتْ وفاتُكِ فى حسابى
دُهيتُ بوقعها ، فانهار عَزْمِى وطاشتْ حكمتى وخبا صوابى
إذا ما أقْتُ معتصما بصبرى تدفّق مدمعى مثل الرباب
وهل تشفى الدموعُ غليلَ قلبٍ يذوب أسًى مع الدمع المذاب ؟

* * *

أبى !! طال الخطابُ ، ولم تجبنى فكيف صرفْتَ سمعكَ عن خطابى؟
وكنتَ تجيبنى فى كل خطب فمالكَ قد عييتَ عن الجواب ؟
كأنك لم تطالعنـــا برأىٍ يكون صدورُه فصْلَ الخطاب

* * *

أبى !! إنى لأسمع منك وحيا يكاد يجيبُ من تحت التراب
وأبصر منك — رغم الموت — ضوءا يكاد يشقُّ أستارَ الحجاب
وأشعر أن روحك فى جوارى تطوف علىَّ من خلف النقاب
وأنّ فؤادكَ الخفّاقَ يهفو إلىّ مع الدعاء المستجـــاب
ولولا أنَّ للأخرى كتابا له أجلٌ لبـــادر بالإياب

* * *

أبى !! كنتَ الملاذَ لكل شاكٍ ومَفْزَعَ كل مكروب مصاب
وكنتَ على العُفاة سحابَ برٍّ يجود لهم بمذخور الطِّــلاب
وتمنح للضعاف حِمًى مصونا يضمّهمُ إلى أحنى جنـــاب
وترفق باليتامى والأيامى فتحميهم مصاولةَ الذئاب

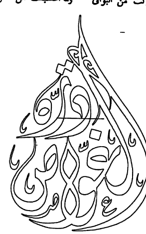
وتبسط فوقهم أفياء أمن ونرشدهم إلى نهج الصواب
خلائقُ كالرياض منوّرات يضوع عبيرُها مثلَ الملاب

* * *

جلالُك يا أبي يسمو بنفسي ويرفعها إلى أسنى الرحاب
فلو أنّ الأبوّة بانتخاب لما آثرتُ غيرَك بانتخاب
ولو لم أنتسبْ لكَ كان أقصى رجائي أن أضمّكَ لانتسابي
رغابُ المرء في دنياه شتّى وأنتَ من المنى أقصى رغابي

* * *

أبي الأَنَمْ في جوار الله ، وانعم بما قدمتَ من حسن الثواب
تبادلك الملائكةُ التحايا وتجهرُ بالثناء المستطاب
وحسبك ما تركتَ من البواقي وما استقبلتَ من حسن المآب



تصدير

بقلم

الأستاذ الجليل عمر الدسوقي
أستاذ الأدب ورئيس قسم الدراسات الأدبية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

صحب الأستاذ علي عبد العظيم ابن زيدون حقبة طويلة من الزمن أخرج فيها بحثاً عظيماً عن عصره وحياته وأدبه نال به درجة الماجستير بتقدير ممتاز من جامعة القاهرة ، ثم تناول ديوانه بالدرس والتمحيص والتحقيق والشرح الدقيق ، بعد أن تكشفت له في دراسته الأولى لأدب ابن زيدون ما امتلأت به الطبعات الثلاث التي ظهرت لديوانه من نقص وتصحيف وتحريف سواء منها ما ظهر في القـــاهرة أو في بيروت ، وبذلك وفى ابن زيدون حقـه وجاء إخراج ديوانه تتمة عظيمة القدر جليلة النفع لذلك البحث الممتع الذي ألقى أضواء ساطعة على حياته وأدبه .

ولست هنا في مقام التعريف بابن زيدون ومكانته الأدبية وأصالة شعره وحلاوة جرسه ودقة معانيه فقد ثبتت مكانته في الأدب العربي وصار له جمهرة كبيرة من المشاق والمحبين ، وإنما الذي كان يحز في نفسي ونفس كل معجب بهذا الشاعر العظيم أنه لم يتح لديوانه من يخرجه إخراجاً فنياً علمياً صحيحاً ، وما أن أطلعت على هذه الطبعة وما فيها من جهد مضن ، وخبرة دقيقة ، حتى قرت عيني بها ، وانشرحت نفسي لها ، واعتقدت أن ديوان ابن زيدون قد خدم خدمة

ممتازة ، ولا عجب ، فالأستاذ على عبد العظيم شاعر ذوّاقة للأدب ، ذو حاسة فنية مرهفة متمكن من اللغة تمام التمكن ، وهذه وحدها ميزة تخوله أن يقدم على هذا العمل الجليل ، ويأتي به على خير ما يكون ، ولكنّ الأستاذ على يتمتع بمزايا أخرى ساعدته على أن يبرز عمله هذا بالغاً من الإتقان الغاية ؛ فهو مدير القسم الأدبي بدار الكتب المصرية ، ورئيس قسم المخطوطات العربية بها ، وناهيك بهذين المنصبين ميسّراً كبيراً لأن يكون تحت يده مختلف الأصول يقابل بينها ، ويصحح ما بها من تصحيف وتحريف ، والرجوع إلى أصول عديدة للديوان والرسائل لم تتيسر من قبل لباحث سواه ، وليس هذا فحسب بل إنه — شأن المحقق الثبت — قد ردّ جميع ما اقتبسه الشاعر فى شعره ورسائله إلى أصولها الأولى ، وإنى لأتصور هذا الجهد الشاق ، والعناء الكبير الذى بذله الأستاذ على فى هذا السبيل ، حيث رجع إلى مئات الدواوين وأسفار التاريخ وكتب الحكم والأمثال وبحث ونقب حتى اهتدى إلى النصوص التى اقتبس منها هذا الشاعر ، وكثيراً ما اقتبس وأشار إشارات واضحة أحياناً وغامضة أحياناً إلى حوادث تاريخية ، وقصص أدبية ، وحكم وأمثال مشهورة وغير مشهورة مما يحمل التتبع له يجد كثيراً من العنت والإرهاق ، ويحتاج إلى صبر طويل وخبرة أدبية دقيقة ، وقد تحقق كل هذا — بحمد الله — فى مخرج هذا الديوان .

ولم يشأ الأستاذ على عبد العظيم أن يترك الديوان والرسائل من غير شرح واف للألفاظ والمعانى ، بكشف عنهما ويلقى ضوءاً ساطعاً عليهما موضحاً أهداف الشاعر وما يرمى إليه من هذا المعنى أو ذاك ، ولم يكن هذا الأمر متيسراً إلا له ، وقد صحب ابن زيدون كما ذكرنا آنفاً زمناً غير قليل ، حتى تشبع بجوه ، ووقف على دخيلة نفسه ، وغوامض حياته كما ظهر ذلك فى بحثه الممتاز عن حياته وأدبه ، بل أذكر أنه عاش مع ابن زيدون قبل أن يخرج هذا البحث حين أخرج لنا منذ سنوات مسرحية شعرية رائعة عن « ولادة » ظفرت بالجائزة الأولى لوزارة

الشئون الاجتماعية ، وقد اضطر قبل أن يصوغ هذه المسرحية شعراً أن يدرس عصر ابن زيدون — عشيق ولادة — وحياته دراسة مستفيضة عميقة حتى يتمكن من إبراز اللون المحلى فى المسرحية ، وحتى لا يقع فى تناقض أو إحالة ، وحتى يترجم عن مكنون عواطفهما وأسرارهما .

وقد وضع هذا كله فى تحقيق هذا الديوان : شاعريته المرهفة ، وأصالته اللغوية والأدبية ، وإحاطته التامة بكل ما يتصل بابن زيدون وعصره ، وصبره الطويل فى مراجعة أصول الديوان والرسائل ، ومراجعة مئات الدواوين وأسفار التاريخ والأدب والحكم والأمثال التى اقتبس منها ابن زيدون ، وبذلك جاءت هذه الطبعة غاية فى الجودة والإتقان ، جديرة بكل ما يتمتع به الأستاذ على من مزايا ، وإنه ليسعدنى أن أقدمها إلى قراء العربية واثقاً أنهم سيجدون فيها كلّ ما ذكرت ، وأنها ستكون نموذجاً يحتذيه من يتصدى لمثل هذا العمل .

لقد صار الأستاذ على عبد العظيم خبيراً بالأدب الأندلسى ، وثمة دواوين كثيرة فى حاجة إلى من يوليها عنايته ويقف عليها جهده خدمة للأدب وطلابه مثل ديوان الأعمى ، وابن سهل الأندلسى حيث لم يسبق نشرهما ، ومثل ديوان ابن حمديس الصقلى ، وابن خفاجه وغيرهما مما نشر من غير شرح أو تحقيق .

وإنى لأرجو أن يتوفر الأستاذ على تلك المكتبة الأندلسية بخبرته وفنه وثقافته الواسعة ويعمل على تحقيقها وإخراجها ، وفقه الله ، ونفع به ،

المعادى فى { ٢٠ شعبان ١٣٧٦ / ٢٢ مارس ١٩٥٧ } عمر الدسوقى



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على جزيل إحسانه ، ونستمد منه التوفيق والتأييد ؛ ونصلى ونسلم على خاتم أنبيائه ، وعلى من اقتدى بسنته واهتدى بهدا

مقدمة

الأندلس أيكة وارفة الظلال ، دانية القطوف ، يانعة الثمار غردت عنادلها فترة من الزمان ، فملأت القلوب والأسماع ، وبهرت النفوس والألباب ؛ ولكن صداها تبدد فى غياهب الزمان وغمار الأحداث ؛ ولم يبق من هذه الألحان الساحرة إلا أنغام شاردة مهومة خلدها الزمن فى طياته ، وسجلها الخلود على صفحاته ، فتهادت إلينا خلال القرون تثير كوامن الوجدان ، وتحرك سواكن الأشجان .

ويمتاز الشعر الأندلسى بأنه — فى الأغلب الأعم — يعبر عن العواطف العميقة والمشاعر القلقة الشبوبة ، ويصور معالم الطبيعة الخلابة الساحرة فى هذه البقعة الرائعة ، متجافيا عن المشكلات الفلسفية ومزالق التفكير العميق .

وقد ظهر بالأندلس شعراء أفذاذ أبدعوا فى الشعر آيات خالدات ، باروا فيها شعراء المشرق فقاربوهم أحيانا ، وكادوا يبزونهم فى بعض الأحايين . ولكن معظم آثارهم تحيفها الزمان ، وطمستها الأحداث ، وبددها التعصب الذميم ؛ وما بقى منها اعتورته عوامل التصحيف والتحريف فغيرت معالمه وشوهت محاسنه ، وكادت تصرف عنه الأدباء والباحثين . ولكن سمو ألحانه ، ورقة أنغامه ، وعلو إلهامه ، تهون ما يبذل فى سبيل كشفها من جهود .

— وإذا درسنا شعراء الأندلس وجدنا ابن زيدون زعيمهم بلا مراء ؛ وهو — إلى هذا — يعد فى الرعيل الأول من شعراء العربية فى جميع المواطن والأزمان . ومكانته

فى النثر قريبة من مكانته فى الشعر فاستحق أن يجذب إليه قلوب الأدباء فى عصره وما تلاه من عصور .

ولكن آثاره الشعرية والنثرية وردت إلينا ناقصة مليئة بالتحريف والتصحيف، على الرغم مما يتمتع به من صوت ذائع ومكان مرموق .

وقد لمسنا هذا فى دراستنا لتاريخ حياته وفنون آدابه ، فاضطررنا قبل هذه الدراسة النقدية المسهبة إلى أن ندرس آثاره باحثين عن أصالة نسبتها إليه ، جامعين ما تبدّد منها فى شتى المصادر ، مصححين ما اعتراها من تشويه وأخطاء ، وقد خرجنا من هذا البحث المجهد بصورة من آثاره قريبة إلى الصحة دانية إلى الصواب بقدر ما وسعه الجهد وأسعفت به الآثار .

وقد رأينا قبل أن نتحدث عن هذه الآثار الفنية ، ووسائلنا لإبرازها ، أن نلقى على عصر الشاعر ثم على حياته بعض الأضواء .

فما لاشك فيه أننا لا نستطيع أن ندرس آثار فنان دون أن ندرس أحداث حياته التى ألهمته ما أبدعه من آيات ؛ كما أننا لا نستطيع أن ندرس حياة عبقرى دون أن ندرس العصر الذى أنبته والبيئة التى نجلته ، فالإنسان من صنع بيئته ، وإن حلّق فى أجواز الفضاء .

وقد لخصنا هذا البحث بإيجاز من كتابنا المسهب « ابن زيدون : عصره وحياته وأدبه . مطبعة الرسالة سنة ١٩٥٥ »[١] .

(١) بحث مسهب فى ٥٧٨ صفحة من الحجم الكبير ، درسنا فيه الأدب الأندلسى بعامة وأدب ابن زيدون بخاصة ، ورجعنا فيه إلى عشرات المراجع المخطوطة ومئات المراجع الأصيلة بالعربية والإنكليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية والتركية . نشرته مكتبة الأنجلو المصرية .

عصر ابن زيدون
« القرن الخامس للهجرة »

ملوك الطوائف :

عاش ابن زيدون فى عصر ملوك الطوائف ، وهو عصر انحدرت فيه الدولة بعد صعود ، وضعفت بعد قوة ، وانكمشت بعد امتداد .

فقد وقعت الأندلس فريسة للعصبية العنصرية بين القبائل العربية ، ثم للعصبية الجنسية بين العرب والبربر والصقالبة[1] ، ثم للمذاهب السياسية ما بين عباسية وعلوية وأموية ، ثم للحزازات الدينية ما بين اليهودية والمسيحية والإسلام ؛ مما أضعف الدولة ، وجعلها فريسة سهلة للأمراء المسيحيين بالشمال ، فاستطاعوا أن يتحيّفوا أطرافها وأن يفرضوا سلطانهم على كثير من حكام الأقاليم .

وانقسمت الأندلس نتيجة لهذه الأحداث إلى أقاليم عديدة يحكمها أمراء عديدون، بأسهم بينهم شديد، يعتدى بعضهم على بعض ، ويستعين كل منهم بحماية الأعداء المتربصين ؛ ولسنا الآن بسبيل تأريخ هذا العصر أو الحديث عن أمرائه المتناحرين ؛ وإنما يعنينا فى هذا المقام التحدث عن إمارتين من هذه الإمارات هما قرطبة وإشبيلية ؛ فقد طوى الشاعر فى الأولى شطر حياته ، وطوى فى الثانية الشطر الأخير .

بنو جهور بقرطبة

سقطت الخلافة الأموية بالأندلس نتيجة لما اعتورها من ضعف وانحلال، وقامت على أنقاضها عدة دويلات ؛ فاجتمع أهل قرطبة سنة ٤٢٢ هـ وأعلنوا الحكم الجمهورى

(١) هم الأرقاء الذين اشتراهم الخلفاء من أنحاء أوربا أو استرقوهم فى غزواتهم المتوالية ؛ وقد استكثر منهم الخليفة الناصر ، ودربهم خير تدريب ، وسما ببعضهم الى أكبر المناصب ؛ فاستشرى أمرهم من بعده ، واستقلوا ببعض الولايات ؛ وهم فى هذا يشبهون عنصر الأتراك بالخلافة العباسية ببغداد ، وعنصر المماليك فى الدولة الأيوبية بالقاهرة .

ونادوا بأبى الحزم بن جهور حاكما لهذا الإقليم ؛ وكان شيخاً وقورا ، وعالما جليلا ، اشتهر بتمسكه بأهداب الدين . فكان يصلى التراويح ويشهد الجنائز ، ويؤذن على باب المسجد وهو حاكم لهذا الإقليم ؛ وكان بعيد النظر فلم يبارح داره إلى قصر الخلافة ؛ ونادى بأنه أمين مؤقت على الحكم حتى يجتمع الناس على إمام ، وأعلن أن الحكم شورى ، ولكنه ضبط الأمور بحزمه ، وساس الرعية بدهائه ؛ وقام بإصلاحات عديدة ، وتحامى أن يشتبك مع حكام الأقاليم المجاورة ، فى المنازعات والحروب ؛ وطالما تحرش به بنو عباد بإشبيلية ، ولكنه كان يتفادى الاشتباك معهم بكل السبل ؛ ولما نادوا بالخليفة هشام الثانى المزعوم واستمدوا لتأييده بقوة السلاح بادر بالاعتراف به ، ولكنه ظل يكشف للناس زيفه حتى تهيأت الأذهان للانصراف عنه ، فأعلن سقوط بيعته ، وجنب بلده التعرض للأخطار .

وكان ابن زيدون من وزرائه المقربين، ثم تنير عليه نتيجة لبعض الدسائس فألقى به فى السجن ، ولكن الشاعر استطاع أن يفر من سجنه بعد أن مكث به خمسمائة يوم وتذرع بولى العهد حتى عفا عنه الأمير ، وسنعرض لهذه المحنة فى دراستنا لحياة الشاعر بالتفصيل ، وتوفى أبو الحزم بن جهور سنة ٤٣٥ هـ .

فتولى الأمر بعده ابنه أبو الوليد ، وكان من أصدقاء الشاعر المقربين ، فأدناه منه وولاه وزارته وناط به السفارة بينه وبين ملوك الطوائف ؛ فخف الشاعر على قلوبهم ؛ وأحضروه مجالس أنسهم ، ورفعوا بينهم وبينه الكلفة ؛ فطالت إقامته لديهم حتى ضاق الأمير بهذا التصرف ، وأصغى إلى دسائس خصوم الشاعر ومنافسيه فعزله من منصبه ، ثم رضى عنه بعد عدة أعوام ؛ ولكن الدسائس عادت ثانية ، فهجر الشاعر أميره وانتقل إلى بنى عباد بإشبيلية ؛ وقد ظل ابن جهور يحكم قرطبة حتى تقدمت به السن وأساء ابنه التصرف فوقعت قرطبة فى أيدى بنى عباد سنة ٤٦٢ هـ فضموها إلى إشبيلية ، وكانت للشاعر مشاركة فى هذا التدبير .

بنو عباد بإشبيلية :—

استقل أبو القاسم بن عباد بحكم إشبيلية سنة ٤١٤ هـ فاستطاع بدهائه وثرائه

وحزمه أن يقوى دعائم الحكم ويوطد أركانه فى هذا الأقليم ، وجه همته إلى تقوية جيشه وضرب بعض أعدائه ببعض مما أضعف شوكتهم وأوقع كثيرين منهم فريسة له . وامتدت مطامعه فوقع على شخص يشبه هشاما الأموى فنادى به خليفة ، ودعا حكام الأقاليم للدخول فى طاعته ، فاستجاب له بعضهم وتأبى عليه الآخرون ، واستطاع من وراء هذه الدعوة أن يضم إليه بعض البلاد ؛ وتوفى سنة ٤٣٣ هـ فخلفه ابنه المعتضد بن عباد ، وكان قوى الشكيمة طاغىَ الإرادة صارم العزمات ميالا لسفك الدماء مشغوفا بالحروب ، فشنّ حروبا متوالية على البلاد المجاورة ، فوسع رقعة إقليمه إلى أضعاف ما كانت عليه ؛ وكان مع قسوته وجبروته شاعراً رقيقا يصوغ الشعر ويجزل عليه الصِّلات فاجتمع فى بلاطه عدد كبير من الشعراء ، كان شاعرنا زعيمهم بلا مراء ؛ وقد استعان الأمير بخبرة الشاعر السياسية فولاّه وزارته ؛ واستعان به فى أهم شئون دولته فساسها أحكم سياسة ودبّرها خير تدبير ، وتوفى المعتضد سنة ٤٦١هـ فخلفه ابنه المعتمد بن عباد ، وكان من أصدقاء الشاعر الحميمين ، فأقرّه فى مناصبه ، وعرف له قدره ، واستطاع أن يفتح بتدبيره قرطبة ، وكانت مطمح أنظار الطامعين من حكام الأقاليم . وكان المعتمد من أرق شعراء الأندلس شعراً ، ومن أبرعهم صياغة، فجمع حوله طائفة كبيرة من الشعراء . وفى عهده اشتد العداء بين الأمراء المسيحيين بالشمال وأمراء المسلمين بالجنوب . وأوشك الأسلام أن يندثر بالجزيرة، فاستغاث المعتمد بن عباد والأمراء المسلمون بيوسف بن تاشفين أمير اللثمين بالمغرب فأغاثهم ؛ ولكنه التهمهم بعد أن ردّ عنهم كيد المسيحيين ؛ فمات المعتمد فى أسره بعد أن قاسى ماقاسى من عذاب وتنكيل .

الحضارة العربية بالأندلس :

بينما كانت الفوضى السياسية منتشرة بالأندلس كانت الحضارة الإسلامية بها قد أينعت وازدهرت وبلغت غاية النماء ، وأصبحت الأندلس مقصد طلاب العلم ومهبط رواد المعرفة من أنحاء أوربا المختلفة ؛ وقامت حركة ثقافية كبرى لترجمة الروائع العربية إلى اللغة اللاتينية (لغة العلم والأدب السائدة بأوروبا فى هذه العصور » وانتشرت التقاليد العربية فى كثير من البقاع الأوربية وكان معظم

الأمراء الغربيين إذا احتاجوا جراحا أو مهندسا أو مغنيا أو خياطة وجهوا طلبهم إلى قرطبة التي ذاع صيتها في أوربا حتى وصفتها راهبة سكسونية بأنها جوهرة العالم .

وكانت خصبة التربة ووفرة المعادن من أسباب الرخاء الشائع في الأندلس ؛ وإلى هذا يشير ابن حوقل بقوله « وأما جزيرة الأندلس فتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر إلى أسباب التملك الفاشية فيهم ؛ لما هو فيه من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته ؛ علا ذلك منهم مهانهم وأرباب صنائعهم لقلة مئونتهم وصلاح معاشهم وبلادهم » ولهذا كانوا يكرهون السائلين فإذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يستعطي سبوه وأهانوه ؛ وازدهرت التجارة تبعا لازدهار الزراعة والصناعة داخليا وخارجيا ؛ فكانت أساطيل الأندلس التجارية تمخر عباب البحر الأبيض والمحيط الأطلسي ، وكانت السلع الأندلسية رائجة بأسواق الإسكندرية والقسطنطينية ودمشق وبغداد

قرطبة :

هي درة الأندلس الوضاءة، وإحدى حواضر العالم المعروف في القرون الوسطى ، افتنّ العرب في تشييدها وعمرانها ، فناهزت قصورها ستين ألف قصر وحماماتها سبعمائة حمام ومساجدها ١٦٠٠ مسجد ، وقارب سكانها المليون ، ولم تكن مدينة بأوربا يأوى إليها في زمن ازدهار قرطبة أكثر من خمسين ألفا ؛ ومن أشهر ضواحيها الزهراء ، وقد افتنّ الخليفة الناصر في بنائها ، وجلب إليها الرخام والتماثيل من القسطنطينية ، وأنفق في زخرفتها ومدّ الماء إليها أموالا طائلة استمرت عشرات السنين ؛ وقد اشتهرت قرطبة بمسجدها الجامع حيث كان موطن عبادة ومجمع سياسة وندوة علوم ، وكان يتسع لثمانين ألف مصل ؛ وقد أفاض المؤرخون في وصف قرطبة وضواحيها ومساجدها ومتنزهاتها وقنواتها وجسورها بما يبهر الخيال ؛ وسنرى في آثار ابن زيدون صدى هذا الجمال الفتان .

إشبيلية :

كانت حاضرة الأندلس قبل قرطبة ، ثم عاد إليها ازدهارها فى عصر بنى عباد ، حيث زاحمت قرطبة فزحمتها ؛ وتقع على شاطىء الوادى الكبير، ولها جميع خصائص الثغور لأن النهر عندها بطىء التيار ، ويصل مد البحر إلى مابعدها ؛ وتقوم فى أجل بقاع الأندلس وأعدلها هواء فى جبل الشرف الدائم الخضرة الممتد مسافة أربعين ميلا فى اثنى عشر ميلا تظللها أشجار التين والزيتون ، ولا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف أشجاره واشتباك غصونه ، وفيه ثمانية آلاف قرية عامرة بالحمامات والديار الحسنة ، وفيها يقول ابن مفلح : « إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس لأن تاجها الشرف،وفى عنقها سمط النهر الأعظم،وليس فى الأرض أتم حسناً من هذا النهر ، يضاهى دجلة والفرات والنيل ، تسير فيه القوارب للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار وتغريد الأطيار ... » وقد اشتهرت بمجالس اللهو والشراب ، ومن آثارها البديعة الباقية من عهد بنى عباد القصر ويسمونه الآن « الكازار » ، ومن أروع مافيه قاعة السفراء ، وارتفاعها عشرون متراً وطول كل ضلع منها اثنا عشر متراً ، وهى من أروع التحف فى جلالها وفخامتها ونقوشها الذهبية الموشاة بالألوان الحمراء والزرقاء والخضراء . وسنرى آثارها الرائعة منبثة فى شعر ابن زيدون حيث طوى فى ظلالها شطر حياته الأخير .

الحياة العقلية :

ازدهرت الحياة العقلية فى عصر الطوائف خير ازدهار ، وفى هذا يقول ترند « لم ينبغ أعلام مفكرى أسبانيا الإسلامية فى عصر خلافة قرطبة الزاهر ، بل فى عصور الفوضى السياسية التى أعقبت ذلك العصر ؛ وكان الطالب الإنجليزى أو الأسكتلندى الذى رغب فى أن يظفر بنصيب من العلم بأرسطو أوفر من غيره يشد رحاله إلى الأندلس حيث يتعلم كيف يقرأ المؤلفين اليونانيين بالعربية » .

أما انتشار التعليم فحسبنا ما قاله دوزى: « كان كل فرد بالأندلس يعرف القراءة والكتابة ، على حين كانت أوربا المسيحية تتخبط فى دياجير الجهالة إذا استثنينا

منها رجال الدين » ولا عجب فقد كان العرب إذا فتحوا بلداً بادروا بإنشاء مسجد ومدرسة فيه، وكان تعليم البنات شائعاً عند الأندلسيين ، وكان كثيرات منهن يحفظن عدة دواوين من شعر العرب وينظمن ويترسّلن ، وبلغ بعضهن درجة الأستاذية فى اللغة والآداب ، وكانت للطب أربع مدارس هامة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والأجناس فى قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية ، أما المدارس العامة فكان بقرطبة وحدها ثمانون مدرسة عامة ، وكان للعلماء والشعراء والمؤرخين مجامع علمية وأدبية أشبه بالأكاديميات فى العصر الحديث ، وكان هناك قول مأثور ينقشونه على أكثر معاهدهم العلمية هو : « إن العالم يقوم على أربعة أمور : علم الحكماء ، وعدل العظماء ، ودعاء الصلحاء ، وشجاعة الشجعان » .

الحركة الفكرية :

نلاحظ فيها أن العلوم الدينية كانت صاحبة المقام الأول ، وكان الفقهاء يتمتعون بمنزلة سامية تقرب من منزلة الأمراء ، بل كانوا كثيراً ما يهددون عروشهم ويؤلبون العامة عليهم إذا آنسوا منهم انحرافاً عن القصد وجنوحاً عن السداد ، وتأتى علوم اللغة وفنون الآداب فى المرتبة الثانية ، وقد ازدهرت بالأندلس ازدهاراً عظيماً لأنها صادفت بيئة صالحة وطبيعة موحية ومواهب ملهمة ، وقد أسهم الأندلسيون بنصيب وافر فى العلوم الماشية من طب وهندسة وفلك ، ولكن عامة الشعب نفروا من العلوم الفلسفية وناهضوا المهتمين بها حتى أحرقوا كتبهم، وإن كانت العقول بدأت تتحرر بعض التحرر من هذا الثقل الثقيل فى عهد الطوائف وما تلاه من عصور ، وقد نبغ فى عصر ابن زيدون عدد كبير من أفذاذ العلماء والشعراء والأدباء ، من أبرزهم ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ ﻫ وكان واسع الثقافة حر الرأى مع تدين وتصون ، ويقال إن مؤلفاته بلغت ٤٠٠ مجلد تناهز ثمانين ألف ورقة فى الفقه والحديث والجدل والنسب والمنطق والفلسفة والشعر ، ومن أشهر كتبه طوق الحمامة وهو أول كتاب فى فلسفة الحب ، وكتاب الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل ، ويؤهله لمقام عال بين العلماء باعتباره أول عالم عنى بدراسة الأديان والموازنة بينها ، وأنه وصل إلى نتائج لم ينتبه إليها أحد حتى ظهور المدرسة

النقدية الحديثة فى القرن السادس عشر . ومن أشهر علماء اللغة ابن سيده التوفى سنة ٤٥٨ ﻫ صاحب المخصص والمحكم . ومن أشهر المؤرخين ابن حيان التوفى سنة ٤٦٩ ﻫ وهو أعظم مؤرخى الأندلس وله فى تاريخها كتاب المبين فى ستين مجلداً ، وقد بقيت من هذا الكتاب آثار متفرقة فى كتب المؤرخين ، ويروى أنه ألف خمسين كتاباً آخر لم يبق منها إلى الآن إلا بعض كتاب المقتبس فى تاريخ الأندلس ، ومن أشهر الأدباء الظفر بن الأفطس حاكم بطليوس التوفى سنة ٤٦٠ ﻫ ألف كتاب المظفرى فى خمسين مجلداً ، ومن أنبغ مؤلفيهم فى الطب الزهراوى التوفى سنة ٥٠٠ ﻫ صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف ، وقد طبع هذا الكتاب باللاتينية فى القرن الخامس عشر ، فأمد أوربا بمرجعها الأكبر فى تجبير العظام والأعمال الجراحية وبخاصة فتح المثانة وإخراج الحصاة ، وله كتيب صغير فى الآلات الجراحية مع توضيحها بالأشكال وطرائق الاستخدام .

وكتب الأدب والتراجم غاصة بالحديث عن وفرة هؤلاء العلماء الأفذاذ فى عصر ملوك الطوائف ، ومن أمتع كتب التراجم الأدبية فى هذا العصر الذخيرة لابن بسام وهو فى أربعة أقسام ضخمة طبع بعضه ومازال معظمه مخطوطا ، ومن كتب التراجم القيمة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى والصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار ، وقد طبعت عدديد ويعاد طبعها الآن بالقاهرة [1] .

المكتبات :

عنى الأندلسيون بالكتب عناية تامة ، وبذلوا جهداً مشكوراً فى التأليف كما بذلوا أموالا طائلة فى نسخ الكتب وتغليفها والرحلة فى طلبها ؛ وقد أنشأ الحكم مكتبة جامعة بقرطبة بلغ عدد كتبها ٤٠٠ ألف كتاب، وكانت فهارسها فى ٤٤ كراسة فى كل كراسة خمسون ورقة ليس بها غير أسماء الكتب وحدها ، ويروعنا هذا إذا علمنا أن عدد الكتب الخطية بدار الكتب المصرية بالقاهرة أقل من مائة ألف كتاب حتى الآن . وأصبح اقتناء المكتبات شارة من شارات الرئاسة والشرف حتى عند الجهال ، ويُروَى أن الأندلس كان بها ستون مكتبة

(١) يقوم بتحقيقها ونشرها صديقنا العلامة السيد عزت العطار الحسينى وتطبعها مطبعة السعادة بالقاهرة .

عامة أنشأها الخلفاء الأمويون ، بل يقال إن غرناطة وحدها كانت تحوى سبعين مكتبة عامة فى عهد الطوائف ، ولما انهارت الخلافة الأموية نهبت خزائن الكتب بقرطبة فبيعت كتبها بأبخس الأثمان ؛ ولكنها انتقلت إلى الحواضر الأندلسية الأخرى فأوجدت بها نهضة علمية أذكتها حركة التنافسة بين الملوك والأمراء ، ويروى المقرى أنّ ما جمعه أحمد بن عباس الوزير بالمرية بلغ أربعمائة ألف مجلد كامل أما الكتب الناقصة فلم يوقف على عددها لكثرتها ؛ وكان محمد بن إبراهيم جدّ أم الشاعر من أضبط الناس لكتبه ، وأجمعهم لذخائر الرواية ، وله تأليف جمع فيه كلام أبى زكريا يحيى بن معين فى ثلاثين جزءاً ؛ ويحدثنا ابن بشكوال أن عبد الرحمن بن فطيس كان جمّاعة للكتب وله ستة من الوراقين ينسخون له دائماً، وقد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً ؛ ومتى علم بكتاب قيم عند غيره طلبه وبالغ فى ثمنه فإن تمسّك به صاحبه انتسخه منه وردّه عليه ؛ حتى النساء كن مشغوفات بجمع الكتب ؛ يقال إن عائشة بنت قادم كانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتعنى بالعلم ولها خزانة كتب عامرة بأعظم المصنّفات .

الحياة الأدبية :

كان الأدباء الأندلسيون يتلقون التوجيه من إخوانهم المشارقة ، فكانوا يشدون إليهم الرحال ، ويستقدمون نابغيهم ، ويبذلون فى الحصول على مؤلفاتهم أغلى الأثمان ؛ ولكنهم فى عصر الطوائف أخذوا يتحررون من هذه التبعية ويشعرون باستقلالهم الفكرى ، وشرعوا فى مباراة المشارقة ومعارضتهم فبزّوهم حيناً وقاربوهم فى معظم الأحايين ؛ وإلى هذا يشير الدكتور فيليب حتى بقوله « كانت الثقافة الشرقية فى القرون الأولى التى مرت على السلطة الإسلامية فى الأندلس ترى إليها من مستوى عال ... غير أن الآية انعكست فى القرن الحادى عشر الميلادى « الخامس الهجرى » والقرون اللاحقة كما يستدل من مسير ابن زهر والباهلى إلى الشرق لإفادة أهله ، وقد فاض سيل المعارف الأندلسية فى القرن الثانى عشر بحيث طما على أوربا نفسها » .

وفى عصر الطوائف ظهرت طائفة من أفذاذ الكتاب والشعراء الخالدين

مثل ابن حزم وابن شهيد وابن دراج وابن برد وابن زيدون والمعتمد بن عباد وابن عمار وابن حمديس وابن خفاجه وابن بسام وغيرهم من أعلام الكتاب والشعراء ؛ وإلى هـذا يشير ليفى بروفنسال بقوله « كان القرن الحادى عشر الميلادى عصر ملوك الطوائف عهـداً عرفت فيه أسبانيا أكبر إشراق شعرى من غير شك » ولا عجب فقـد كان النثر يعبر عن أغراضه بأسلوب مصقول متموج أقرب إلى الأوزان الشعرية منه إلى الانسيابات النثرية ، ويقرر الدكتور أحمد ضيف أنهم وصلوا فى النثر أحياناً إلى درجة لا تفرق بينها وبين الشعر إلا فى الوزن وقواعد العروض ، ولعل هذا ما عناه ابن بسام فى حديثه عن رسائل ابن زيدون ، بأنها كتب هى بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور :

وكثيراً ما كان الشعر يستخدم فى الرسائل بدلاً من النثر ؛ وقد ظهرت فى هذا العصر تجديدات وابتكارات فى الشعر والنثر لا نكاد نجد ما شبهها فى الأدب القديم ؛ منها نظم الأراجيز التاريخية التى اعتمد عليها زيبرا ليقول بوجود أدب قصصى أندلسى سابق على ظهورها ؛ ومنها ازدهار الوشحات التى كان لها فيا بعد صدى بعيد ؛ ومنها الرحلة الخيالية إلى وادى عبقر وهى ملحمة نثرية شعرية أبدعها خيال ابن شهيـد وسماها « التوابع والزوابع » وسبق بها رحلة المعرى فى « رسالة الغفران » كما سبق دانتى فى رحلته السماوية وملتون فى فردوسه المفقود. والإنصاف يقتضينا أن نقرر أن الشعراء والكتاب الأندلسيين لم يتحرروا كل التحرر من الأدب القديم الموروث . شأنهم فى هذا شأن إخوانهم المشارقة ؛ فقد استمر الأدب الجاهلى يهيمن بأوضاعه وتقاليده على الأدب العربى فى شتى العصور . وكانت محاولات التجديد دائماً فى نطاق محدود فقد ظل الشعر غنائياً والنثر معتمداً على الخطب والرسائل ؛ ولم يعرف الأدب العربى القصص أو الملاحم بمعناها الحديث .

—

وكانت محاولات التجديد فى الشعر مقصورة على محاولة التحرر من قيود الوزن والقافية فظهرت الوشحات . وحاول كثيرون أن يفلتوا من قيود العربية الفصحى وحركات الإعراب فظهرت الأزجال .

ونلاحظ أن الشعر الأندلسي خلا من التأملات الفكرية العميقة ، ولعلّ هذا راجع إلى تزمّت الأندلسيين الذهبي، ونفورهم من العلوم الفلسفية ؛ وإنْ كان شعراء الأندلس قد برزوا في وصف الطبيعة، وأبدعوا فيها آيات رائعة جديرة بالخلود؛ وإننا لنلمس الطبيعة حية نابضة في شعر ابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس ، وكان لطبيعة الأندلس الرائعة أثر بارز في هذا الإلهام ، وأروع ما يطالعنا عندهم وبخاصة عند ابن زيدون أنه مزج حبه للطبيعة بحبه للمرأة بحبه للوطن ؛فأبدع في هذا روائع بهرت النفوس وملأت الأسماع .

ولقد افتتن الأندلسيون بالشعر افتتاناً عظيماً فشُغِل به الخاصة والعامة على السواء . فكان الملوك والأمراء وعلية القوم يقرضون الشعر/ ويتساجلونه ويجزلون عليه الصلات ، كما كان العامة يهتزون له وينظمونه على اختلاف مراتبهم وتباين طبقاتهم ، حتى الخدم والجواري وعصابات اللصوص والفتاك كانوا يقرضونه في شتى المناسبات . وكان الأدب كفيلا برفع/صاحبه إلى أسمى الدرجات ؛ وكتب الأدب والتاريخ غاصة بشتى الروايات في هذا المضار ، وحسبنا ما رواه القزويني في حديثه عن مدينة شلب « قلّ أن ترى بمدينة شلب من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعاني أدباً ، ولو مررت بالفلاح خلف فدّانه وسألته عن الشعر لقرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبته منه » واشتهر بعض الأميين بقرض الشعر مثل ابن جامع الصباغ ويحيى القصاب ، وكانت أبيات من الشعر كفيلة بالتجاوز عن كل ذنب ونسيان كل إساءة ، حتى إنهم كانوا أمام روعة الشعر وفتنته يغضّون أحيانا عن إقامة بعض الحدود .

وكان الأندلسيون على تزمتهم الفكري متحررين في حياتهم الخاصة ، وفي بعض فنونهم الأدبية ، فكانوا يعاقرون الراح ويعقدون مجالس اللهو والطرب والغناء ، وظهر أثر هذا واضحاً في مراسلاتهم الشعرية والنثرية وسنرى منه آثاراً رائعة في هذا الديوان .

حياة ابن زيدون

٣٩٤ — ٤٦٣ هـ

١٠٠٣ — ١٠٧٠م

أسرة الشاعر

تمهيد :

ينتمى الشاعر من جهة أبيه إلى بنى مخزوم فهو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى ، وبنو مخزوم بطن من لؤى بن غالب من بطون قريش . وكانت لقريش مكانتها عند العرب فى الجاهلية والإسلام ، وكان بنو مخزوم من بطونها الممتازة ، ومن هاماتهم خالد بن الوليد المخزومى كانت إليه القبّة والأعنة ، أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها مايجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فهى قيادة الفرسان فى الحروب .

ولا نعرف شيئاً عن أجداد الشاعر ولا عن طريق وفودهم إلى الأندلس ، وكل ما نعرفه ما وصفه به ابن حيان المؤرخ الكبير المعاصر له من أنه « ذو الأبوة النبيهة بقرطبة » ؛ وأنه كان «من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة أيام الجماعة والفتنة » ونحن نعلم مكانة الفقهاء فى الأندلس ونفوذهم الخطير وسلطانهم على العامة والأمراء ؛ وكان لايتسم بسمة الفقيه إلا عالم خطير ؛ فقد كان الأندلسيون لا يقدمون أحداً للفتوى حتى يطول اختباره ، وتعقد له مجالس المذاكرة ، ويكون ذا مال حتى لا يميل به الفقر إلى الطمع فيما فى أيدى الناس ؛ وكان الخليفة نفسه لا يستطيع أن يخرق هذه القاعدة ؛ فلا يقدر أن يمنح إنساناً لقب الفقيه أو المفتى إلا بعد موافقة العلماء الأعلام على جدارته لهذا المنصب وثبوت يساره . وحينئذ تباح له الفتوى أو الشهادة ، وتكون له علامة تميزه بين الناس هى لبس القلانس والرداء ، ولا بد من توفر

شروط عديدة فيه إلى جانب علمه وثرائه لا ترى داعياً للإطالة فى سردها ، وهى مسطورة فى كتب الفقهاء . وكان شاعرنا ينتمى إلى هؤلاء الفقهاء من جهتى أمه وأبيه ؛ وسنلقى ضوءاً على كل منهما مع مراعاة الإيجاز .

والده :

كان من فقهاء قرطبة وأعلامها المدودين ؛ وكان إلى هذا ضليعاً فى علوم اللغة بصيراً بفنون الآداب ؛ ويذكر القاضى عياض فى تراجمه لأعلام الفقهاء أن والد الشاعر « كان متفنناً فى ضروب العلم جمّ الرواية والمعرفة فصيحا جميل الأخلاق » ومن هذا يتضح أن ثقافته كانت عميقة متنوعة ؛ وكان على قسط وافر من الثراء ، وهذه الصفات جميعها جعلت له شأناً خطيراً فى حاضرة الخلافة ، فكان الحكام يستشيرونه فى الخطير من أمورهم ، ويستفتونه فى المشكل من شئونهم ؛ وكانت الشورة والفتوى محصورتين فى عدد قليل من أكابر الفقهاء ، وكان وثيق الصلة بالأمراء والعظماء ، وكان أنيقاً فى مظهره ، لبقاً فى تصرفاته ، ولهذا نجا من المحن المتلاحقة والفتن الثائرة التى أودت بكثير من ذوى المكانة فى عصره ، وتوفى أثناء تفقده لضيعة له فى البيرة ، فنقلت جثته إلى قرطبة ودفن بها سنة ٤٠٥ هـ . وقد جاوز الخمسين فرثاه صديقه أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء بأبيات تدل على منزلته العالية ومكانه المرموق .

جده لأمه :

ليس لدينا من الآثار ما يلقى ضوءاً على أم الشاعر ، ولكننا نعرف أن جدّها محمد بن إبرهيم بن سعيد القيسى كان من العلماء المرموقين وأنه ذو بصر بالحديث ورجاله يحسن التقييد والضبط فيا يكتب ، وكان من أضبط الناس لكتبه وأجمعهم لذخائر الرواية ، وله تأليف جمع فيه كلام أبى زكريا يحيى بن معين فى ثلاثين جزءاً وكان يتولى النظر فى الأوقاف بقرطبة ، وظل فى منصبه حتى مات سنة ٣٩١ هـ .

ونعرف أن أباها أبا بكر محمد بن محمد بن إبراهيم ... كان من العلماء المرموقين ، ولى القضاء بمدينة سالم ثم أحكام الشرطة والسوق بقرطبة ، وهو منصب جليل لا يقل عن —

منصب الوزير ، وكان من أهل الصرامة فى أحكامه ، ونستطيع أن نقرر أنه كان ثريا فإننا نعلم أن الثروة من شروط ولاية القضاء ، وكان شديد العناية بالعلوم؛ وقد نعته شاعرنا فى ديوانه بالوزير الفقيه صاحب الأحكام ، وقد أشرف على تربية الشاعر بعد أن ثكل أباه طفلا ، وظل يرعاه حتى جاوز الشاعر الأربعين ؛ فقد توفى أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم سنة ٤٣٢ هـ أثناء محنة سبطه .

ومن هذا نرى الأم سليلة أسرة كريمة لاتقل عراقة عن أسرة الأب ، وهى تنحدر من قبيلة قيس عيلان ، وكان لهذه القبيلة شأن خطير بالأندلس ، وكانت تتولَّى أحياناً زعامة المضريين جميعاً بما فيهم قريش ، مما يدل على ما بلغته هذه القبيلة من عز وشأن فى هذه البلاد ، ومن هنا نستطيع أن نقرر أن الشاعر نجله والدان كريمان ، وأن الجو الذى درج فيه مهّد له عوامل العظمة والنبوغ .

مولده :

ولد شاعرنا فى أوائل سنة ٣٩٤ هـ « أواخر سنة ١٠٠٣ م » بالرصافة من أرباض قرطبة ، وهى ضاحية متصلة بقرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل وسمّاها الرصافة تشبيها لها برصافة جدّه هشام ، واتخذها مَقَرّاً له ومتنزهاً فى معظم أوقاته ، ونقل إليها غرائب وكرائم الشجر من كل ناحية فسار ذكرها فى الآفاق واتصلت عمارتها من بعده ، وقد اشتهرت بجناتها الفيحاء ومياهها الجارية ، وقد لهج بذكرها الشعراء ، وشدا بجمالها شاعرنا فى مواطن عديدات ، وحسبنا أن نشير إلى إحدى مخمساته فيها حيث يقول :

وَيَوْمٍ بِجَـــوْفِ الرُّصَافَةِ مُبْهِـجِ
مَرَرْنَا بِرَوْضِ الأُقْحُوَانِ المُـــدَبَّجِ
وَقَابَلَنَــا فِيــهِ نَسِيمُ الْبَنَفْسَجِ
وَلاحَ لَنَا وَرْدٌ كَخَـــدٍّ مُضَرَّجِ
تَرَاهُ أَمَامَ النَّوْرِ وَهْوَ إِمَامُ

نشأته

تمهيد :

انحدر الشاعر كما ذكرنا من أسرة كريمة مرموقة المكان ؛ وقد فقد أباه وهو فى الحادية عشرة من عمره ، فكفله جده لأمه ، وكان عالماً جليلا تقلب فى مناصب الإدارة الرئيسية من شرطة وقضاء ؛ وكان شديد الصرامة فى أحكامه ؛ ولهذا نعتقد أنه كان حازماً فى تربية سِبْطه ؛ وأن هذا الحزم جنّبه مزالق السقوط التى يتعرض لها الأيتام من ذوى الثراء .

وكان لوالد الشاعر أصدقاء من ذوى المكانة الرفيعة والعلم الغزير ؛ ومثل هؤلاء الرجال الأعلام جديرون أن يرعوا حقوق صديقهم الراحل فى ابنه العزيز ؛ وأن يوالوه بالرعاية والتثقيف .

ولهـــذا تهيأت لشاعرنا عواملُ النبوغ من ثروة مناسبة ، وعقول حانية حازمة ، وبيئة جميلة فتانة ، وعصر مزدهر بالمدنية والحضارة ، حافل بأفذاذ العلماء والأدباء ؛ هذا فضلا عن الموهبة الفطرية والاستعداد الخصب والوراثة الصالحة والتوجيه السديد .

ثقافته :

ليس أمامنا ثبت بالعلوم التى درسها الشاعر فكونت ثقافته وبوأته مكانه الرفيع ؛ ولكننا نعرف « أن مناهج الدراسة الأولى فى التعليم عند الأندلسيين كانت تتناول كتابة الخط وقراءة القرآن وتعلم النحو والصرف ورواية الشعر ؛ أما التعليم العالى عندهم فيقوم على تفسير القرآن الكريم ودراسة علوم الدين والفلسفة وأصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية » ومن الطبيعىّ أن شاعرنا سلك هذه السبل ؛ والدارس لآثاره الأدبية يرى صدًى لشتّى المعارف والفنون فى هـــذه الآثار ؛ فيرى كثيراً من التعبيرات القرآنية وإشعاعاً من

الأحاديث النبوية ؛ كما نرى فيها إلماماً بأصول الفقه والفقه وعلوم الدين . كما يلمس فيها إدراكاً للطب والعلوم الفلسفية ؛ أما التاريخ فقد كان دارساً له مولعاً به يستشهد دائماً بحوادثه ؛ ويرجع دائماً إلى عِبَره ؛ وقد ألف فيه كتاباً لم يبق لدينا منه إلا بعض النصوص ؛ وأما علوم اللغة وفنون الآداب فهى ميدانه الرحب ومجاله الفسيح ؛ ولهذا حقّ له أن يقول :

وَنَجَّذَنِي عِلْمٌ تَوَالَتْ فُنُونُهُ ... كَمَا يتوالَى فى النِّظَامِ سِخَابُ[1]

أساتذته :

نعتقد أن ثقافة الشاعر الواسعة العميقة كانت نتيجة لتتلمذه على أساتذة عديدين ؛ ولكنّ المصادر الباقية بين أيدينا لم تذكر أسماء هؤلاء الأساتذة إلا واحداً سنعرض له بعد قليل ؛ ولكننا نرجح أن أستاذه الأول كان أباه ، وهو أمر طبيعي ، فإن القرائن ترجح أن الشاعر كان وحيده فمن الطبيعي أن يعنى به كل العناية ويهتم به كل الاهتمام ، وبخاصة إذا علمنا أن هذا الوالد كان أستاذاً لبعض الأدباء ؛ كما نرجح أن جدّه لأمه كان من أساتذته الأولين .

ومن آثار الشاعر الخالدة رسالة كتبها إلى أستاذه أبي بكر مسلم وقد بحثنا طويلا عن هذا الأستاذ وانتهى بنا البحث إلى أنه أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى ، يقول ابن بشكوال فى ترجمته «إنه كان رجلا جيِّد الدين ، حسن العقل ، متصاوناً ، لين العريكة ، واسع الخلق ، مع نبله وبراعته وتقدمه فى علم العربية واللغة ، راوية للشعر وكتب الآداب ، كان لتلاميذه كالأب الشفيق ، والأخ الشقيق ، مجتهداً فى تبصيرهم متلطفاً فى ذلك سَنِيّاً ورعا ، وافر الحظ من علم الاعتقادات ـ سالكا فيها طريق أهل السنة ، يقصر اللسان عن وصف أحواله ولد سنة ٣٧٦ وتوفى سنة ٤٣٣ هـ وكان إمام مسجد السقاء ... وكان متمسّكا فاضلا » .

---

(١) نجذنى = حنكنى ؛ السخاب العقد .

ويظهر أن صلات الشاعر به ظلّت وثيقة حتى قارب الأربعين ، ولهذا فزع إليه فى محنته عقب فراره من سجنه . ومن عوامل حبه للشاعر أنّه كان تلميذاً لأبيه معتزاً بهذه التلمذة معترفاً بها ، ولهذا توطدت بينهما الصلات .

ومما لاشك فيه أن الشاعر تأثر فى دراساته بكثير من أعلام عصره كما تأثر بكثير من الأدباء السابقين ، ولعل لوفرة الكتب فى عصره ولسعة ثروته أثراً فى ثقافته العميقة وعلمه الغزير .

صداقات مبكرة :

اتصل الشاعر بكثير من عظماء عصره وأعلامه ، وسنرى هذا ماثلا فى آثاره الشعرية وفنونه النثرية ، ومن أبرز الأدباء الذين توطدت علاقة الشاعر بهم فى سن مبكرة أبو الوليد بن جهور وأبو بكر بن ذكوان .

أما الأول فكان ولياً للعهد ثم حاكما وقد تحدثنا عنه وعن أبيه فيا سبق ، وكان كما قال ابن بشكوال « حافظا للقرآن العظيم مجوّداً لحروفه كثير التلاوة له ، وكان معتنياً بسماع العلم من الشيوخ وروايته عنهم » وكانت فيه رحمة ورقة ولين ظهر أثرها أثناء حكمه فقد كان يدرأ الحدود بالشبهات ، ويبالغ فى ذلك ، حتى لا يكاد يقيمها ارتكاناً على أنه ليس هناك إمام مجمع عليه ، وقد ظهرت آثار هذه الرقة فى معونته للشاعر إبان محنته ، وظات صداقتهما قوية على الدسائس والفتن حتى ناهزا الخمسين ؛ وفى هذه الصداقة يقول ابن خاقان: «وكان له مع أبى الوليد بن جهور تآلف أحرما بكعبته وطافا ، وسقياه من تصافيهما نطافاً » .

وأما الثانى فقد ولى منصب الوزارة واشتهر أمره ، فصار كما يقول ابن بسام « أحوذياً نسيج وحده فى فضله وعلمه وعفته » ثم ولى القضاء بقرطبة وهو منصب كبير جليل يفوق منصب الوزارة ، فأظهر الحق ، ونصر المظلوم ، وقمع الظالم ، وحمد الناس أحكامه ، وكان إلى هذا صلب القناة حمىّ الأنف ، رفض أن يوافق الحاكم على التصرف فى مال الأوقاب لإنفاقه فى المصالح ، واعتزل القضاء ، وتوفى دون

الأربعين لحزن الناس لفقده ، وشيع ابن جهور جنازته ، ورثاه جماعة من الشعراء؛ ولشاعرنا فيه قصيدة تنطق بالبث وتفيض بالأشجان .

وكان لهؤلاء الأصدقاء فى مستهل شبابهم صبوات ونزوات ، يطرحون فيها التزمت والوقار ، ويلقون عن كواهلهم أعباء المناصب فينسى ابن زيدون أنه وزير وينسى ابن جهور أنه ولى للعهد وينسى ابن ذكوان أنه من أعلام القضاة ، فقد سمعوا أن القاضى التنوخى كان ينادم الوزير المهلبى مع القاضيين ابن قريعة وابن معروف ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها فإذا طاب لهم المجلس ولذ السماع وهبوا ثوب الوقار للعقار ، وتناول كل منهم كأساً من الذهب مملوءة خمراً فيغمس فيها لحيته بل ينقعها حتى تتشرب أكثر الشراب ثم يرش بعضهم بعضاً ويرقصون بأجمعهم وعليهم المصبغات ... فإذا أصبح الصباح عادوا إلى عادتهم فى التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء .

سمع الأصدقاء الثلاثة هذه النادرة فاستجابت لها نفوسهم الشابة الفتية فقضوا أمسيات تفيض بالمرح والبهجة والصفاء ، يقول فيها ابن بسام «وكان القاضى أبو بكر ابن ذكوان أجل من اشتمل عليه أوان مجداً وشرفاً ، وتفنناً فى العلم وتصرفاً ، مع دعابة حين خلواته تحل حبا المحتبى ، ورقاعة عند نشواته كالتنوخى والمهلبى ؛ فإذا أصبحوا بكر أبو بكر إلى مصادرة مايتجه عليه الحكم ومواجهته ، وأنكر ما كان عليه من فكاهته فكأنما فى بردية الإمام ... مع عدله فى قضائه . . . . حتى إذا راح الرواح عادوا إلى القصف وتجاوزوا فى ميدانهم كل وصف ، إلى أن اختلس أبو بكر منهما وتقلص ذيل مؤانسته عنهما فاعتاضا عنه بسواه وأقاما فيما كانا فيه وماتعدياه » .

فى غمار الأحداث

رجل ثورات :

لانعرف متى ابتدأ الشاعر يسهم فى أحداث عصره ، ولكننا نعلم أنه كان فى الصفوة المرموقة من شباب قرطبة ، ونعرف أن الرأى العام بقرطبة كان يقظاً

قويا يعزل الحكام ويوليهم ويفرض آراءه ويراقب التنفيذ ؛ أما دور الشاعر فى هذه الأحداث فلا نعلم عنه شيئا بالتفصيل ؛ وإنمـا نعرف أنه قام بدور رئيسى فى إلغاء الخلافة الأموية بقرطبة ، وفى تأسيس حكومة جمهورية بزعامة ابن جهور ؛ وإلى هـذا يشير ابن خاقان فى حديثه عنه بأنه « زعيم الفئة القرطبية ، ونشأة الدولة الجهوَرِيّة » ، ويقرر ابن دحية أنه « زعيم الوزارة القرطبية ونشأة دولتها السنية »؛ ومن الطبيعى أنه لم يشترك بسيفه فى هذه الثورة فإننا لا نعلم عنه أنه رجل حرب وقتال ، وإنما هو رجل سياسة وبيان ؛ ولعله استغل جاهه وثراءه وبيانه ، وهى أسلحة ماضية فى توجيه الرأى العام ؛ ولما وقع الجفاء بين الشاعر وأميره أخذ يذكِّرُه بأياديه السابقة فى تأسيس دولته فى رسالته الجدية حيث يقول: « فهيم عبث الجفاء بأذِمّتى ؟ وعاث المُعقوقُ فى مَواتّى ؟ وتمكن الضَّياع من وسائلى ؟ ولِمَ ضاقتْ مذاهبى ؟ وأكْدتْ مطالبى ؟ وعلام رضيتُ من المَركب بالتعليق ؟ ومن الغنيمة بالإياب ؟ »

نصيب متواضع :

أكرم الحاكم الجديد الشاعر ورفعه إلى منصب الوزارة واعتمد عليه فى السفارة بينه وبين الملوك المجاورين ؛ ولـكن الشاعر لم يقنع بمـا ناله ، ولا ندرى مدى أطماعه ؛ ولعله كان يطمع أن يكون هو الحاكم الفعلى ، أو يكون موقفه من ابن جهور موقف الحُجّاب من الخلفاء .

ولـكن ابن جهور كان حازما بعيد النظر ، يحكم ولا يتظاهر بالحكم ، ويتواضع للعامة ويعلن أنه يباشر الحكم مؤقتا حتى يجمع النـاس على إمام ؛ وإذا درسنا نفسيّة كل من ابن جهور وابن زيدون فاننا نجدهما على طرفى نقيض ؛ فالأمير متواضع متعفف والشاعر مغرور طموح ، والأمير متزمت وقور والشاعر متحرر مثهور ؛ هذا إلى فوارق السنّ بينهما ؛ وقد لعبت الدسائس بينهما دورها ، وكان للشاعر خصوم أقوياء ينفسون عليه مكانته السياسية ، كما ينفسون عليه حظوته

عند ولادة الأميرة الحسناء سليلة البيت الأموى الكريم ؛ فبدأت العلاقات تفتر بين الشاعر والأمير حتى إنتهت إلى مصيرها المحتوم .

حب عاصف

لعب الحب دوراً خطيراً فى حياة الشاعر وفى تلوين فنه ، ولما كان تعلق الشاعر بولادة قد ألهمه أروع ما صاغه من الشعر ، فضلا عن أنه خلق له خصوماً أقوياء شوهوا العلاقات بينـه وبين أميره ، وأفلحوا فى دسائسهم حتى ألقى به الأمير فى السجن ، فقد رأينا أن نلقى ضوءاً على تدرج هذه العاطفة الشبوبة ، وما مرت به من أطوار ؛ ولـكننا نحب أن نتقدم بكلمة عن شخصية حبيبته تـكشف عن نفسيتها وما تفور به من بواعث ونزوات .

ولادة :

زهرة من زهرات البيت الأموى الـكريم فهى ابنة الخليفة محمد بن عبد الرحمن اللقب بالمستكفى بالله ، وكان أبوها ساقط الهمة ضعيف الرأى مشهوراً بالتخلف والضعة والانغماس فى الشهوات ؛ ثار عليه أهل قرطبة ففر متخفياً بين امرأتين إلى مدينة إقليج فدس له أحد ضباطه السم فمات ، وكان قد تزوج من أمة مسيحية حبشية هى بنت سكرى الورورية ، واملها أم ولادة ؛ وجاءت ولادة على العكس من أبيها « وثيسة الطبع كريمة النفس شريفة الأصل جميلة الشـكل ، وكانت لاتترك أحداً يتصرف فى مجلسها ولا بالدرهم الفرد » ومع أن للوراثة أثرها المحتوم فليس من الضرورى أن يرث الابن صفات أبويه بل قد يرث صفات أجداده الأبعدين ، ومما لاشك فيه أن أجداد ولادة كانوا من أفذاذ الرجال على أن للزواج المختلط أثره فى نجابة البنين ، وكانت أمها أجنبية وجدتها لأبيها أجنبية ، فلا عجب إذا جاءت «نادرة زمانها ظرفا وحسنا وأدبا» وفى هذا يقول المقرى « وكان أبوها جاهلا ساقطاً ، وخرجت هى على نهاية الأدب والظرف » ويقول ابن سام إنها «كانت واحدة أقرانها حسن منظر ومخبر » وقد أثنى عبد الله بن مكى — وكان معاصرا

لها — على فصلها وسرعة بادرتها ونباهتها وفصاحتها ، أما مواهبها فيقول فيها الضبى « أديبة شاعرة جزلة القول مطبوعة الشعر ، تحالط الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء » ويقول ابن بسام « وأما ذكاء خاطرها وحرارة نوادرها فآية من آيات فاطرها » ويروى ابن نباته أنها كانت ذات خلق جميل وأدب غض ونوادر عجيبة ونظم جيد ويحدثنا بدر الدين الصديق أنها أجيزت بالإقراء والتدريس؛ أما جمالها ورقتها فحسبنا ما ذكره ابن خاقان « وكانت من الأدب والظرف وتنميم السمع والطرف بحيث تختلس القلوب والألباب وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب » وكانت لها مع هذا موهبة في الموسيقى والغناء ، وكثيراً ما كان العظماء يحضرون مجالسها فينعمون بسمرها ويطربون لأحاديثها ويسكرون بموسيقاها وألحانها .

وكانت قد تحررت من التقاليد بعد سقوط الخلافة الأموية ففتحت أبهاء قصرها للعظماء والأدباء ؛ وبهذا فتحت (صالونا) أدبيا سبقت به شهيرات فرنسا بعدة قرون فتهافت على ندوتها الشعراء والوزراء مأخوذين برقتها المغرية وجمالها الخلاب ، فتعشقها الكبراء منهم ، ولكنها كانت متصاونة فزادتهم انجذاباً إليها ؛ وإلى هذا يشير ابن بسام بقوله « يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها ؛ تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب » وقد أشارت هي إلى ذلك بقولها :

إنى — وإن نظر الأنام لبهجتى — كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام فواحشا وبصدهن عن الخنا الإسلام

وأنشدها أحد زوارها قول بشار :

لا يؤنسنك من مخدرة قول تغلظه ، وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يركب بعد ما جمحا

فقالت إلا من ولادة ؛ ولكنها كانت تبدو منها بوادر تطمع فيها المتهافتين؛ من ذلك ما كتبته على عاتق ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها
وأمكن عاشق من صحن خدى وأعطى قُبلتى من يشتهيها

ومن نزواتها أنها كانت تقول شعراً ما جنا خليعا سنعرض له بعد قليل ؛ ومما يؤخذ عليها تعلقها بمهجة بنت التيانى القرطبية ، وكانت من أجمل نساء زمانها وأخفهن روحا ، فتَعلقت بها ولادة ؛ وكانت مهجة مكشوفة الوجه وقاح اللسان • مما حمل كثيرين من المستشرقين على إساءة الظن بهذه العلاقة المريبة .

ويحدثنا نيكل أن نزواتها لا تكاد تختلف عن النزعات التحريرية بين النساء الجامعيات ونجوم المسرح والخيالة فى العصر الحديث ؛ ويشبهها بجورج صاند فى مغامراتها العاطفية .

على أن بعض معاصريها ضاق بتحررها فقال ابن مكى إنها « لم يكن لها تصاون يطابق شرفها » وقال ابن بسام بعد أن أثنى عليها « على أنها — سمح الله لها وتغمد زللها — اطّرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها ... »

أما صفاتها الجسمية فديوان الشاعر حافل بوصف جمالها الرائع وسحرها الخلاب . كانت بيضاء الوجه صفراء الشعر ؛ وبهذا يصفها فيقول :

أوَسَاغَهُ وَرقاً محْضاً ، وتوّجه من ناصع التبر إبداعاً وتحسيناً

وكانت ممشوقة القوام طويلة العنق بارزة الصدر دقيقة الخصر رابية الردف مع عينين حوراوين وأهداب وُطف : —

وفى السّيراء الرّقم وَسْطَ قبابهم
بعيدُ مناطِ القُرط أحورُ أوطف
— تبابن خَلْقاهُ : فجبلٌ منعّم
تأوّد فى أعلاه لَدْنٌ مُهفهفُ

فالمسك المرتج ما حاز منزره

والغصن المهتز ما ضم مطرفه

وهى إلى هذا رقيقة البشرة لينة اللمس : —

إذا تأود آدته رفاهية

توم العقود ، وأدمته البرى لينا

يا ألين الناس أعطافاً ، وأفتنهم

لحظاً ، وأعطر أنفاساً وأردانا

وكان لها خال أسود بخدها : —

مفضض الثغر له نقطة من عنبر فى خده المذهب

وكانت تجمع إلى جمال الخلقة جمال التزين وعذوبة الحديث :

له خلق عذب وخلق محسن

وظرف كعرف الطيب أو نشوة الخمر

يعلل نفسى من حديث تلذه

كمثل المنى والوصل فى عقب الهجر

ومما روى من خفة روحها أنها مرت يوماً على دار ابن عبدوس فرأته جالساً وأمامه بركة متولدة من كثرة الأمطار ، فلما رأى ولادة « نشر كميه ونظر فى عطفيه وحشد أعوانه إليه ؛ فقالت له : أبا عامر : —

أنت الخصيب ، وهذه مصر فتدفقا ، فكلا كما بحر

فتركته لا يحير حرفا ، ولا يرد طرفا » .

شعرها :

نرى من المناسب هنا أن نسرد ما وصل إلينا من شعرها ومعظمه يدور حول ابن زيدون :

١ — كتبت إلى ابن زيدون :

رَقّبْ إذا جنّ الظلامُ زيارتى فإنى رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسرِّ
وبى منكَ ما لو كان بالشمس لم تَلُحْ وبالبدر لم يطلُعْ وبالنجم لم يَسْرِ

٢ — وكتبتْ إليه — :

ألاهلْ لنا من بعد هـــذا التفرق سبيلٌ فيشكو كلٌّ صبٌّ بما لَقِى ؟
وقـد كنت أوقاتَ التزاور فى الشتا أبيتُ على جمر من الشوق مُحرِقِ
فكيف وقد أمسيتُ فى دار قَطْعة ؟ لقد عجّلَ المقـــدارُ ما كنت أَتّقِى
تمر الليالى ، لا أرى البينَ ينقضى ولا الصبرَ من رقّ التشوقِ مُعْتِقى
سقى اللهُ أرضاً قدْ غدتْ لك منزلاً بكلِّ سكوبٍ هاطلِ الوَدْقِ مُغْدِقِ

٣ — سأل ابن زيدون جاريتها عتبة إعادة الغناء فى مجلسها بغير إذنها ،
ولحظتْ منه بعض الميل إلى هذه القينة فكتبتْ إليه :

وكنتَ تُنصفُ فى الهوى ما بيننا لم تَهْـــوَ جاريتى ولم تتخير
وتركْتَ غُصناً مُثمِراً بجماله وجنحتَ للغُصْنِ الذى لم يُثمر
ولقـــد علمْتَ بأننى بدرُ السما لكن دُهيتُ لشِقْوتى بالمشترى

٤ — وقالت تهجوه : —

إن ابن زيدونَ له فقحـــةٌ تعشـــقُ ... السراويـــل
لو أبصرتْ ... على نخـــلةٍ صـــارتْ من الطيرِ الأبابيل

٥ — ولها فى هجائه وهجاء غلامه على — :

إنّ ابنَ زيدونَ — على جهله — يغتابنى ظلماً ، ولا ذنب لى
يلحظنى شزراً إذا جئتُـــه كأنّما جئتُ لأخصى « على »

٦ — وكانت تلقبه بالمسدس حيث تقول : —

وتثبتَ السدّسَ ، وهو نمتٌ تفارقك الحيــاة ، ولا يفارقْ
فاوطلىٌ ومأبونٌ وزان وديوث وقرنان وســارقْ

٧ — ولما تهجو الأصبحى — :

يا أصبحيُّ اهنأ فــكم نعمـــة جاءتكَ من ذى العرش وربِّ المنَنْ
قد نلتَ ، . . ابنك مالم ينلْ به ... بورانَ أبوها الحسن

ونلاحظ أن ما بقى من شعرها يقل عن مدى شهرتها ؛ وأن فيه إسفافاً قد يقبله عصرها ، ولكننا نضيق به فى العصر الحديث ؛ على أن فى بعضه عاطفة قوية صادقة وإن خلا من التجديد .

منافسة عنيفة : —

ولقد تنافس فى التودد إليها الشعراء والأدباء وكان من أبرز المتوددين إليها أبو عبد الله بن القلاس وأبو عامر بن عبدوس وشاعرنا ابن زيدون ؛ وقد زجر ابن زيدون منافسه الأول بقصيدة لاذعة يقول فيها — :

أعِــدْ نظراً فإن البغىَ مما لم يزلْ يصرعْ
ولا تُطِــع التى تنويك فهى لغيِّهم أطوعْ
ولا تكُ منــكَ تلك الدارُ بالمرأى ولا المسمع
فإن قُصارك الدهليزُ حيثُ سواكَ فى المضجعْ

فما كاد يتلوها حتى ازدجر وانسحب من الميدان ؛ أما ابن عبدوس فقد ظل يزاحم ابن زيدون فى حبهـــا منافسة عنيفة فزجره بقصيدة أخرى قاسية يقول فيها — :

أثرتَ هِزَبْرَ الشَّرى إذْ ربضْ ونبهتَهُ إذْ هَــدا فاغتمض
حــذارِ حــذارِ فإن الكريمَ إذا سِيم خَسْفاً أبى فامتعض
فإن ســكونَ الشجاع الهمو سِ ليس بمانعــه أن يعَضّ

أعيذكَ من أن ترى منْزَعى إذا وترى بالمنايا اقبض

فلم يزدجر ابن عبدوس وغالى فى التودد إليها ، وأرسل إليها امرأة تستميلها إليه ؛ وعلم ابن زيدون بهذه الوفادة فكتب إليه برسالته الخالدة على لسان ولادة وهى الرسالة المعروفة بالهزلية ، مزّقه فيها كل ممزّق ، وجعله مضغة فى الأفواه وسخرية للأنظار ؛ وقد أحدثت هذه الرسالة أثرها . فكفّ ابنُ عبدوس عن ملاحقة ولادّة حتى حين ؛ وانصرف بجهده كله إلى تأليب الأمير على ابن زيدون وأفلح فى إثارة الأمير عليه فقذف به فى السجن ؛ وهنا عاد ابن عبدوس إلى ولادّة فاستبد مودتها وظلت صلاتهما قائمة حتى جاوزا الثمانين وكانت ثروتها قد تبددت فكان يواسيها ماله وتوفى سنة ٤٧٢هـ وتوفيت هى سنة ٤٨٤هـ وقد قاربت المائة .

مد وجزر :

عرف شاعرنا ولادّة بعد أن بلغ أشده وتبوأ منصب الوزارة ونضجت مواهبه ؛ وكان يغشى ندوتها مع من يغشاها من العظماء مُدلاً بمكانة أسرته ووفرة ثروته وعلو منزلته وذيوع شهرته فى فنون الشعر والنثر والشئون السياسية ؛ وكان الشاعر عزبا كما نفهم من رسالته الهزلية ، وصادفت ولادّة فيه فتى وسيم المحيا حلو الحديث قوى العارضة رقيق الشعر نابه المكان ، وصادف هو منها رقة وانطلاقا وأنوثة صارخة وجمالا فتاناً فانبعث فيهما ميل قوى تدرج إلى حب عنيف .

أما الضنَى فجنتهُ لحظةٌ عَننٌ كأنما والرَّدَى جاءا على قدر

فهمتُ معنى الهوى من وحى طَرْفك لى

إن الحوارَ لمفهومٌ من الحَوَر

ولقد قوّى هذه العاطفة اتفاق ميولهما ومشاربهما الفنية وصفاتهما الجسمية . فكلاهما كان شاعراً مفتوناً بالموسيقى والغناء ، ميالا إلى معاقرة الشراب ؛ وكلاهما

كان وسيا ظريفاً حاضر البديهة عـذب الحديث ؛ وكلاهما من صفوة الطبقة الراقية وسنهما متقاربة ؛ وكلاهما عزب ؛ فلا عجب إذا جنب الهوى شبيها إلى شبيه ؛ فاندفعا مع الحب فى تستر وتصَوُّن عبَّر عنهما الشاعر بقوله — :

أصونك من لحظَاتِ الظنون وأعليـك عن خطراتِ الفِكَرْ
وأحذرُ من لحظاتِ الرقيبِ وقد يُستدامُ الهوىَ بالحذَرْ

وقد وصف لنا الشاعر أول لقاء تمّ بينهما ، وسنذكره فى آثاره ؛ ويكفينا الآن أنها كتبت إليـه ليترقب زيارتها فى المساء ، وأنهما قضيا ليلة حافلة فى حديقة غناء تساقيا فيها كئوس الراح ، وأنه بات معها « يجنى أقحوان الثغور ويقطف رُمّان الصدور ... » .

ولـكن هذه العاطفة الشبوبة الثائرة . لم تلبث أن اشتهرت وطار ذكرها على كل لسان ؛ فلم يجد الشاعر بعد هذا حاجة إلى التستر فقال :

يا من غـدوتُ به فى الناس مشتهرا قلبى عليكَ يقاسى الهمّ والفكرا
إن غِبْتَ لم ألق إنساناً يؤانسنى وإن حضرتَ فكلُّ الناس قدحضرا

فضاقت ولاّدة بهذا الإعلان ، ووجد الخصوم الفرصة سانحة فأوغروا صدرها عليه فاعتذر إليها — :

والله ما ساءنى أنى خفيتُ ضنىً بل ساءنى أن سِرِّى بالضنى علنُ
لو كان أمرىَ فى كتم الهوى بيدى ما كان يعلم ما فى قلبىَ البـدنُ

ولـكنَّ خصومَـــه لم يكفّـوا عن إذكاء حفيظتها عليه ، واندفع هو فى مخاصمتهم فمس حبيبته مَسًّا عنيفاً فى قصيدتيه لابن القلاس وابن عبدوس ، ثم ازداد فى اندفاعه فصوّرها بصورة البغىّ الهلوك فى رسالته الهزلية ؛ وهنا ضاقتْ به ولّادة وانـكشف عن عينها النطاء ، فرأت غروره وصلفه ، وتذكرتْ إعجابه

بجاريتها عتبة ، ومرّ بخاطرها نقده لشعرها[1] فصدت عنه — وفى فورة من فورات غضبه الجنونية اعتدى عليها بالضرب ، وإن كان قد ندم على فعلته وحاول عنها الاعتذار :

إن تكن نالتك بالضرب يدى ... وأصابتك بما لم أُرِد
فلقد كنتُ لعمرى فاديًا ... لكِ بالمال وبعض الولد
فتقى منى بعهد ثابت ... وضمير خالص المتقد
ولئن ساءك يومٌ فاعلمى ... أن سيتلوه سرورٌ بغد

والواقع أنهما — على تقاربهما فى الميول والأهواء — كانا على أهبة للجفاء ؛ فكلاهما كان طاغىَ الشخصية عارم الغضب مندفعاً ؛ وهذه الصفات تجعل صاحبيها متوازيين لا متكاملين ؛ ولما زادت فى دلالها عليه ثارت ثورته فكتب إليها — :

قد علقنا سواكِ عِلْقًا نفيسا ... وصرفنا إليه عنكِ النفوسا
ولبسنا الجديدَ من خلَعِ الحُبِّ ... ولم نَأْلُ أن خلعنا اللبيسا
ليس منكِ الهوىَ ولاأنتِ منه ... اهبطى مصرأنتِ من قوم موسى[2]

وهنا نجح خصوم الشاعر فى حمل الأمير على سجنه ؛ فهدأت نفسُه فى السجن وأخذ يناجيها منه بأبيات عاطفية رقيقة ؛ ثم فرّ من سجنه إلى إشبيلية ومنها كتب إليها النونية الخالدة التى مطلعها :

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

---

(١) نقد الشاعر بيتها :

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلا ... بكل سكوب هاطل الودق مغدق

فقال إن هذا أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له ، وأما المستحسن فقول الآخر

فسقى ديارك — غير مفسدها — ... صوب الربيع وديمة تهمى

(٢) كناية عن أنها مبتذلة مباحة ؛ ويشير بهذا الى قول أبى نواس :

أظنك من بقية قوم موسى ... فهم لا يصبرون على طعام

ولما عفا عنه الأمير وعاد إلى قرطبة بالغ فى التودّد إليها ، ويظهر أنها عادت معه إلى مودتهما السابقة ؛ ولكنّ إلى حين . فقد انصرفت عنه بقية الحياة ؛ وإن كان حبه لها ظلّ يتلجلج فى حنايا صدره ؛ ويتردّد فى ألحان شعره زهاء ثلاثين عاما حتى طوته المنون .

دراسة تحليلية :

لا يزال الغموض يحيط بموقف ولّادة من ابن زيدون وموقفها من غيره من المحبين فإنها على جمالها ورقتها ظلّت عانساً طول الحياة ، مع كثرة الراغبين فيها المتهافتين عليها ؛ وإنها لتقبل على ابن زيدون ، ثم تصدّ عنه ، ثم تعود إليه لتنصرف عنه انصرافاً تاماً ؛ وتقبل على ابن عبدوس ، ثم تعبث به وتسخر منه ، ثم تعود إليه عودة أشبه بالصداقة منها بالمحبة . وقد حار فيها معاصروها ، فوصفوها بالتصوّن والعفاف ثم نعتوها « بقلة مبالاتها وبمجاهرتها بلذاتها » كما حار فيها المستشرقون فرموها بالجنسية المثلية Homosexuality وهى ميل المرأة إلى المرأة والرجل إلى الرجل ، واتهموها بمهجة بنت التيانى القرطبية وشبهوها فى هذا بالشاعرة الإغريقية سافو ، ولكن هــذا الاتهام يدفعه أن مهجة هجتْ ولّادة فاتهمتها بالجنسية المغايرة Heterosexuality حيث قالت :

ولادة قـــد صرتِ ولّادةً من غير بَعْـلٍ ، فُضِحَ الكاتمُ
حكتْ لنــا مريمَ ؛ لكنّما نخلــةُ هــذى .... قائمْ

وصلاتها بابن زيدون تقطع بأنوثتها الطبيعية ؛ وحسبنا قراءة وصفه لأول لقاء تمّ بينهما وماحدث فيه .

ولكننا نستطيع أن نجد تعليلا مقنعا لجميع تصرفاتها . هذا التعليل هو أنها مصابة بالسّادية Sadism وهى حب إيقاع التعذيب على الجنس الآخر ؛ وتنغرس بذور هذا المرض فى المرأة منذ الطفولة حين تشعر بأنها تنقص عن الطفل ببعض الأعضاء ، فتشعر بحسد وغيرة يسمى حسد الذكورة Penis Envy ويظل هذا

الحسد ينمو ، حتى يئول إلى مرض خطير بعد البلوغ ، ويرجح بعض الباحثين أن يكون هذا المرض أثرا وراثيا لفساد النطفة الناتج عن التسمم بالخمر ، ونحن نعلم أن أباها كان من المدمنين . . ومن مظاهر السادية أن تنصب المرأة شرا كما للرجل حتى يقع فريسة هواها فتذيقه أنواع الصدود ، وتجلب عليه صنوف الشقاء وضروب الحرمان ؛ وقد اعترفت إحدى السيدات للعالم النفسي اشتكل « Stekl » فقالت « إن اللذة الجنسية ضعيفة إذا قيست باللذة التي أستشعرها من العمل السادي ؛ فهي لذة لا يحدها الوصف ولا تصورها الألفاظ ، فأنني أشعر بشخصي يسمو ويعلو وعلاني الزهو والكبرياء والجلال ؛ وتبلغ بي النشوة أوجها كلما شعرت أنني بسطت سيطرتي على هؤلاء الرجال دون أن أشبع لهم رغبة أو أطفىء لهم شهوة ، فهم عبيدي يظلون يجرون خلفي طمعا في أن يتذوقوا حلاوة وصالي بعد أن ذاقوا مرارة قسوتي وكبريائي ، فهم أتباع لي دائما يحدوهم الأمل في نعيمي فلا يدخلون إلا جحيمي » وفي هذا يقول شاعرنا :—

علقتني بالمنى حتى إذا علقت   بالنفس لم أعط من أسبابها طرفا
تغيرت عن خلق قد لان لي زمنا   لين النسيم ، فلما لذ لي عصفا

وأشعاره حافلة بمثل هذا العتاب

ومن مظاهر السادية حب التلويث ؛ وقد لوثت ولادة سمعة كل من اتصل بها فقد عبثت بابن عبدوس « وكانت كثيرة العبث به » ولوثت سمعة ابن زيدون وقد مر بنا هجاؤها الفاحش له ، ثم لوثت سمعة الأصبحي وابنه ومزقت عرضهما كل تمزيق ، وإلى هذا يشير العمري بقوله « وكانت ولادة ذات نوادر يشيب لها رأس الوليد .... » ويقرر نيكل « Nykl » أن سلوكها كان متسما بالخشونة المتطرفة والاتجاه المادي الطبيعي الذي يذكرنا بجورج صاند ، وأنها ورثت عن أبيها بعض ملامح الخشونة ، والمريضة بهذا المرض لا تدوم صلاتها إلا برجل ذي انحراف مقابل لانحرافها تسيطر عليه نزعة قبول التعذيب Masochism وهي النزعة المقابلة للسادية ؛ ولعل ولادة صادفت هذا الشخص في ابن عبدوس حيث

كانت تكثر من النبث فيرضى بعبثها ، ثم تنصرف عنه إلى ابن زيدون فيظل يترامى على قدميها راضيا منتبطا ، ثم تسخر منه فيرضى عن هذه السخرية ، ولهذا دامت علاقتهما حتى جاوزا الثمانين .

عواصف وأنواء

قاصمه وإتهام :

حشد خصوم الشاعر قواهم ، وأحكموا أمرهم ، فأدخلوا فى روع الأمير أن الشاعر يتآمر على حكمه وأنه ضالع فى الدعوة لهشام الخليفة المزعوم بإشبيلية ، وكان الأمير قد نقض بيعته بعد إبرامها ؛ ثم أوهموه بأن الشاعر أطلق لسانه فى هجائه ؛ وزعموا أن غشيانه مجالس ولادة غشيان مريب قد يخفى خلفه مؤامرات سياسية مع أقاربها الأمويين المخلوعين فاستجاب الأمير لهذه الدسائس ، ولكنه لم يرد تقديمه للمحاكمة بهذه التهم ، فإن من العسير إثباتها عليه بل استطاع الشاعر فى قصائده ورسائله أن يوهن ماقامت عليه من أساس . فأوحى الأمير إلى حاشيته فدبرت له تهمة اغتصاب عقار ، ولما كانت التهمة ملفقة فقد عين الأمير قاضياً خاصاً أعده للحكم فى هذه القضية هو عبد الله بن أحمد بن المكوى ويحدثنا عنه ابن بشكوال : «أنه لم يكن من القضاء فى وِرْدٍ ولاصدر لقلة علمه ومعرفته ، وإنما كانت أثرة أُثِرَ بها » ومن الطبيعى أن تكون هذه الأثرة لهدف خاص يحرص عليه الأمير ، ولم يطلق عليه لقب القاضى لأنه غير جدير به ، ولهذا نعته ابن حيان بأنه أحد حكام قرطبة وقال فيه ابن سعيد «ولم يكن فى نصاب القضاء ، وهو ممن آثر الخمول الدعة ، والفلاحة على الدراسة .... ولم يطلق عليه اسم القضاء » أما صفاته بعد ولاية القضاء فقد « اكتسب صرامة وإعجابا حتى استخف بكثير من وجوه الناس ، فجرت له بذلك خطوب ... من رجل قليل العلم نكد الخلق .. وقد ألح الناس فى صرفه حتى صرفه أبو الوليد بن جهور سنة ٤٣٥ هـ »

محاكمة عاصفة :

ما كاد القاضى يسمع التهمة وشاهد الإثبات حتى أمر بإلقاء الشاعر فى السجن

مخالفاً الإجراءات القانونية المتبعة فى هذا الزمان طبقاً لمذهب الإمام مالك رضى الله عنه ؛ وقد نبه الشاعر دون جدوى إلى هذه المخالفات وأهمها : —

١ — اكتفى القاضى بشهادة شاهد واحد وهو مع هذا غير عدل ، جرّحه ابن زيدون .

٢ — لم يُعطَ ابن زيدون فرصة للدفاع عن نفسه ، وإظهار براءته ؛ مع أن هذا حق معترف به فى جميع الشرائع والقوانين .

٣ — أحس الشاعر بالجوّ المحيط به ؛ فعرض الصلح على الخصوم ؛ وهو جائز بين المسلمين طبقاً للحديث الشريف ، ويندب للقاضى أن يسعى فيه ؛ ولكن القاضى تهرّب من هذا الموقف الحرج .

٤ — على أن التهمة — مع فرض ثبوتها — لا تجيز الحبس ؛ فقد قرر الفقهاء أنه لا يجوز الحبس فى الحقّ إذا تمكن الحاكم من استيفائه ، والشاعر من الأثرياء .

٥ — لم يترك الفقهاء أمر الحبس فوضى ؛ بل حددوا له أمداً لا يتجاوز عاماً واحداً فى أقصى العقوبات ، ولكن حبس الشاعر لم يكن له أمد محدود ، وقد طال حتى فرّ الشاعر من سجنه بعد أن قضى به خمسمائة يوم .

٦ — قدم الشاعر دليلا كتابياً بوثيقة تبرئه من التهمة فلم يلتفت إليها قاضيه .

٧ — طُرحَ الشاعر فى سجنه بين الأوغاد واللصوص بعد أن كان منفرداً بحجرة فيه طبقاً لنظام السجون الذى كان يميز بين طبقات المسجونين ، وقد شكا الشاعر هذا دون فائدة أو غناء .

زمن السجن :

تضاربت أقوال الباحثين فى زمن سجن الشاعر حتى ادعى بعضهم أنه سُجنَ مرتين : مرة قبل الثلاثين فى عهد أبى الحزم بن جهور ، ومرة وقد جاوز الأربعين فى عهد أبى الوليد بن جهور ؛ وكلا الرأيين بعيد عن الصواب ، والذى

أوقع فى الوهم الأول ما ذكره الشاعر فى قصيدته التى استعطف فيها أبا الحزم ابن جهور حيث يقول :

لم تطوِ بُردَ شبابى كِبرةٌ ، وأرى
برقَ الشيب اعترَى فى عارض الشَّعَرِ
قبلَ الثلاثين إذ عهد الصبا كَثَبٌ
وللشبيبة غُصنٌ غيرُ مُنهصر

مع أن المعنى لا يزيد على أن الشيب أدركَ الشاعر دون الثلاثين ؛ وليس هناك ما يمنع من أن الشاعر يتحدث بهذا وهو فى الأربعين ، فكأنه يؤرخ بدء مشيبه ؛ على أن الشاعر ذكر بعد فراره من السجن أن الشيب لم يلمّ بمفرقه ، وإنَّ أَلَمَّ بفؤاده :

هرِمْتُ وما للشيبِ وخطٌ بمَفرقِى
وكائنْ لشيب الهمِّ فى كبدى وخطُ

مما يدل على أن الشاعر لا يقصد ما يقول ، وإنما هى معان شعرية تناسب المقام . على أن هناك استحالة مادية فى دخول الشاعر السجن دون الثلاثين ؛ فإنه بلغ هذه السن بعد ولاية ابن جهور الحكم بثمانين يوماً ؛ وقصيدته فى السجن تقطع بأنه قضى فيه مدة طويلة .

إن طال فى السجن إيداعى فلا عجبٌ
قد يودَعُ الجفنَ حدُّ الصَّارم الذكرِ

وقد عرفنا أن الشاعر ولى منصب الوزارة للأمير ، وقام بالسفارة بينه وبين الملوك المجاورين ، وعلا شأنه فى الدولة ، وكان كما يقول ابن دحية « زعيم الوزارة القرطبية ، ونشأة دولتها السنية ، حتى صار ملهج لسانها ، وحلّ من عينها مكان إنسانها — وكان بينه وبين رئيسها أبى الحزم بن جهور ائتلاف الفرقدين واتصال الأذن بالعين ... » فليس من المعقول أن يتم هذا كله فى فترة ثمانين

يوماً . أما الرأى الثانى الذى ينادى بأنه دخل السجن بعد الأربعين فى زمن أبى الوليد بن جهور فيوهم به ما ذكره ابن خاقان من أنه «كان له مع أبى الوليد بن جهور تألف أحرما بكميته وطافا .... إلى أن وقع له طلب أصاره إلى الاعتقال . . . فاستشفع بأبى الوليد وتوسل .. فما ثنى إليه عنان عطفه...حتى تسلل من حبسه ففر فرار الخائف وسرى إلى إشبيلية سرى الخيال فوافاها غلسا فهشت له الدولة . . . وحصل عند المعتضد كالسويداء من الفؤاد .. وألقى بيده مقاليد ملكه وزمامه.... وما زال يلتحف بحظوته ويقف ربوته حتى أدركه حمامه » وتابعه فى هذه الرواية ابن نباته ؛ والواقع أنهما ينقلان عن ابن حيان ، ويظهر أن السجع والعجلة أسقطتا عبارة لابن حيان هى : « . . . أداه إلى السجن فألقى نفسه على أبى الوليد بن جهور فى حياة والده » فعبارة (فى حياة والده) تزيل كل لبس أو غموض ؛ وجميع الرسائل والقصائد التى كتبها الشاعر من سجنه موجهة إلى أبى الحزم بن جهور لا إلى ابنه أبى الوليد .

والواقع ان الشاعر لم يسجن إلا مرة واحدة فى عهد أبى الحزم بن جهور بعد نقض بيعة هشام بقرطبة سنة ٤٣١ هـ وبعد أن تولى ابن المكوى القضاء — وهو الذى نيط به أمر محاكمته — لسبع خلون من محرم سنة ٤٣٢ هـ ونحن نعلم أن الشاعر فرّ من سجنه وكتب رسالته إلى أستاذه أبى بكر مسلم بن أحمد الذى توفى لثمان خلون من شعبان سنة ٤٣٣ هـ ، ومن هنا نستطيع أن نجزم بأن الشاعر سُجن فى الفترة بين محرم سنة ٤٣٢ وشعبان سنة ٤٣٣ وهى مدة تزيد قليلا عن خمسمائة اليوم التى حدثنا عنها الشاعر فى شعره ونثره ؛ وقد فرّ الشاعر من سجنه فطوى المسافة بين قرطبة وإشبيلية فى ليلة واحدة كما ذكر ابن دحية وابن خاقان ، مع أن المسافة بينهما ثلاثة أيام . ويؤيد هذه الحقيقة أن ابن زيدون اتصل بالمعتضد وهنأه بزواجه من السيدة بنت مجاهد العامرى بقصيدة مطلعها :

اخطبْ فملكك يفتقدُ الإملاكا واطلبْ فسعدك يضمن الإدراكا

ونحن نعلم أن هذا الزواج تمّ بعد أن تولى المعتضد الحكم سنة ٤٣٣ هـ وقبل وفاة مجاهد العامرى سنة ٤٣٦هـ — وهذه الفترة تناسب الزمن الذى حددناه لفرار

الشاعر إلى إشبيلية — وقد يسبق إلى الذهن أن الشاعر أرسل قصيدته من قرطبة إلى المعتضد بإشبيلية ، ولكنْ يدفع هذا الوهم ماقاله الشاعر فى قصيدته :

أسبوع أُنس مُعقبٌ لِيَ وحشة   علماً بأنى فيه لستُ أراكا
فأنا المعنبُ غير أنى مشعرٌ   ثقةً بأنك ناعمٌ فَهَناكا

ويحدثنا ابن بسام أن الشاعر كتب على لسان المعتضد قصيدة إلى صهره الموفق مجاهد ؛ أما هجرة الشاعر الثانية إلى إشبيلية فقد تمت سنة ٤٤١ هـ فى عهد أبى الوليد بن جهور بعد أن فاوض الشاعر المعتضد ووثق بما سوف يكله إليه من مهام رئيسية ؛ وقد هاجر الشاعر من قرطبة . فكثر الأسف عليه كما يقول ابن حيان ولم يتجه إلى إشبيلية مباشرة بل عرج على بطليوس فقضى فيها بضعة أشهر اتصل فيها بأميرها المظفر بن الأفطس ومدحه وأثنى عليه أطيب الثناء .

عهد جـديد

عفو مشكور :

فرّ الشاعر من سجنه بعد أن أخفقت وسائله وتوسلاته فى استعطاف أميره ، ومن المرجح أن ولىّ العهد أبا الوليد بن جهور صديق الشاعر أعانه على الفرار ؛ وقد وجد الشاعر بإشبيلية صدرا رحبا حيث أدناه الحاكم منه وقربه إليه وغمره بإنعامه ؛ ولكن نفس الشاعر كانت تجذبه إلى قرطبة موطن صباه ومَعْنَى عائه ومسرح هواه فكتب إلى حبيبته النونية الخالدة التى استهلها بقوله :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا   وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

وختمها بقوله :

أَوْلِى وَفَاءً ، وإنْ لم تبذلى صلة   فالطيفُ يُقنعُنا ، والذكر يكفينا
وفى الجواب متاعٌ إن شفعتِ به   بيضَ الأيادى التى مازلتِ تولينا

عليك منا سلامُ الله مابقيَتْ   صبابةٌ بك نخفيها فتخفينا

ثم جذبه هواه إلى قرطبة فكرّ إليها مستخفيا بضاحيتها الزهراء ثم أخذ يراسل أصدقاءه مستشفعا بهم لدى الأمير فكتب رسالته الرائعة إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد ؛ وهذه الرسالة تعتبر وثيقة تاريخية تلقى أضواء على محاكمته ومعاملته بالسجن ، ثم أتبعها بقصيدته الطائية البارعة ، ولم يكتف الشاعر بهذا بل واصل مساعيه عند ولىّ العهد ؛ ومن الزهراء كتب إلى حبيبته أبياته العاطفية الممتعة التي استهلّها بقوله :

إني ذكرتك بالزهراء مُشتاقا — والأفقُ طلقٌ ووجه الروض قد راقا

وأخيرا نجح الشاعر في مسعاه فعفا عنه الأمير ، ولم تمض أشهر حتى مات الأمير وتولى الحكم ابنه أبو الوليد بن جهور صديق الشاعر الحميم فبدأت صفحة جديدة من حياة ابن زيدون .

الحاكم الجديد :

قرب الحاكم الجديد شاعره وصديقه إليه « ورفع مكانته ، ونوّه به ، وأسنى خطته واعتمد عليه في السفارة بينه وبين الملوك المجاورين » ورجح أن الشاعر أفلح في استرداد مودة حبيبته في هذه الفترة فصفت نفسُه وتفتحت مواهبه ، وأقبل على عمله بنفس متفتحة ومواهب مشبوبة وقد أكسبته التجارب التي مرت به خبرة ودربة ودهاء نفعته في سفارته لدى ملوك الطوائف ، وأعانه على النجاح ماتحلى به من « الوسامة والدارية وحلاوة المنظوم والمنثور والطلاقة وقوة العارضة والافتنان في المعرفة » وإلى هذا يشير ابن حيان بقوله « ولما ولى أبو الوليد الأمر بعد والده نوه به وأسنى خطته وقدّمه في الذين اصطنعهم لدولته وأوسع راتبه وجلّله كرامة .... » .

سحابة عارضة :

لم يكُفَّ خصوم الشاعر ومنافسوه في حبه وفي مناصبه عن الدس والكيد له

عند حاكمه الجديد ؛ وكثيرا ما ضاق بهم الشاعـــر فهتف بأميره :

فديتُكَ كم ألقى الفواغرَ من عِداً   قرامٌ لنيرانِ الفسادِ تَهابُ
عفا عنهمُ قدرى الرفيعُ فأهجروا   وبابُهم خلقى الجميـــلُ فعابوا
سأبكى على حظى لديكَ كما بكى   ربيعةُ لـمـا ضلّ عنه ذُؤَابُ

ولكن خصوم الشاعر الأقوياء ظلوا يلاحقونه بالوشايات والسعايات ؛ وأتاح هو لهم الفرصة حيث تلبّث الشاعر فى بلاط إدريس بن يحيى بن على بن حمود أثناء سفارته لديه بمالقة فأطال مكثه عنده ، واقترب منه وخفّ على نفسه ، وأحضره مجالس أنسه كما يقول ابن حيان . وكانت فى إدريس صفات تقرب الشاعر منه وتقربه إلى الشاعر ؛ فكلاهما كان شاعرا مولعا بالطرب والشراب والغناء مع ميل إلى الاستهتار ، ويظهر أن ابن جهور استبطأ سفيره فألح عليه فى العودة فلم يلب النداء ، فاهتبل خصوم الشاعر هذه الفرصة وحملوا الأمير على عزله من مَنْصِبه ، وهو تصرف طبيعى من الأمير .

وهنا عاد الشاعر إلى أمـــيره مستغفرا ضارعــــا فأعرض عنه ، فتوسل إليه :

بنيْتَ فلا تَهدِمْ وَرِشْتَ فلا تَبْرِى
وأمرضْتَ حُسّادِى، وحاشاكَ أن تُبْرِى
هَبِ العـزلَ أضحى للولاية غايةً
فما غايةُ الوفى من الظل أن يُكْرِى ؟
ففـيم أرى ردَّ السلام إشـارةً
تسوِّغُ بى إزراءَ من شاء أنْ يُزْرِى ؟
فإن عاقت الأقدارُ فالنفس حـرةٌ
وإن تكن العتبى فأحْرِ بها أحرى

ولكن الأمير ظل معرضا عن توسلاته ، فقام الشاعر بسياحات عديدة لدى الملوك المجاورين فزار بلنسية وطرطوش وبطليوس ، وبدأ يراسل المعتضد بإشبيلية يعرض عليه خدماته . وأخيرا رضى الأمير عن شاعره فأعاده إلى مناصبه حتى حين .

الهجرة الأخيرة :

ولكن خصوم الشاعر لم يكفوا عن الإساءة إليه وملاحقته بالفتن والوشايات وأخيرا قامت فى قرطبة ثورة ضد الأمير تولى كبرها بنو ذكوان فلفحت الشاعر بنيرانها ، واستطاع الأمير أن يتغلب عليها ولكنها تركت فى نفسه أثرا من ابن زيدون ، ففزع الشاعر إليه بقصيدة ضارعة ينحى فيها باللائمة على بنى ذكوان ويتبرأ من عقوقهم ويشفق من مغبة جحودهم .

قل للوزير الذى تأميله وَزَرى	إن ضاق مُضطرَبٌ أو هال مُطَّلَعُ
أصِخْ لهمس عتاب تحته مِقَةٌ	يكف النفسَ منها فوق ما تَسَعُ
ما للمتاب الذى أحصَفْتَ عُقدَتَه	قد خامر القلب من تضييعه جزعُ ؟
لا تستجز وضع قدرى بعد رفعكه	فالله لا يرفعُ القدر الذى تَضَعُ

ولكن الشاعر أدرك أن مقامه بقرطبة خَطِرٌ عليه ففارقها إلى بطليوس ، وترك بها فراغا كبيرا شعر به الأمير وحاشيته وفى هذا يقول ابن حيان : « فخلا بالحضرة مكانه ، وكثر الأسف عليه » وكانت المفاوضات المتصلة بين الشاعر والمعتضد بن عباد بإشبيلية قد لقيت نجاحا كبيرا على يد صديقه الوزير أبى عامر بن مسلمة ، فرحل الشاعر من بطليوس إلى إشبيلية « فهشت له الدولة وتاهت به الجلة فأحمد إليها فراره وأرهفت النكبة غراره » كما يقول ابن خاقان .

فى ظل بنى عباد

لوعة وحنين :

طوى الشاعر بيطليوس بضعة أشهر رتل فيها قصائد تجأر بالشكوى وتفيض بالحنين إلى قرطبة ؛ وصف فيها لوعته لفراق موطنه وأهله وأحبابه وتوجس من إقدامه على عالم جديد مجهول لا يدرى ما يخبئه له القدر فيه ، ومن أروع ما صاغه فى هذه الفترة أرجوزته التى استهلها بقوله :

يادمعُ صُبَّ ما شئتَ أن تَصوبا ويا فـؤادى آنَ أنْ تذوبا

إذ الرزايا أصبحتْ ضـــروبا لم أر لى فى أهلهـــا ضريبا

ونرجح أنه نظم فيها مخمستيه الخالدتين ، وحائيته الثائرة :

خليلىّ لا فطرٌ يسرُّ ولا أضحى فما حالُ من أمسىَ مشوقا كما أضحى ؟

كما نظم كثيراً من القصائد والمقطعات ؛ ومن أشجى ما قاله فى مناجاة حبيبته والشوق إلى مواطنيه :

هـــل تذكرونَ غريباً عاده شجن
من ذكركم ، وجفا أجفانَهُ الوسَنُ ؟

يخفى لواعجهُ ، والشـــوق يفضحه
فقـــد تساوى لديه السرُّ والعَلَنُ

يا ويلتاهُ !! أيبقى فى جوانحــــه
فؤاده ، وهـــو بالأطلال مرتهن ؟

وأرَّق العينَ والظلماءُ عاكـــفةٌ
ورقاءُ قـد شفّها إذ شفّنى حَزَنُ

فبتُّ أشكو وتشكو فوق أيكتها
وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغُصُنُ

* * *

يا هل أجالس أقواماً أحبهمو ؟
كنا وكانوا على عهد ؛ فقد ظعنوا
أو تحفظون عهوداً لا أضيّعُها
إن الكرام بحفظ العهد تمتحن

ومنها :

إنْ كان عادكمو عيدٌ فرب فتى بالشوق قد عاده من ذكركم حزن
وأفردته الليالى من أحبته فبات ينشدها مما جنى الزمن
[بمَ التعلل ؟ لا أهلٌ ، ولا وطنٌ
ولا نديمٌ ، ولا كأسٌ ، ولا سكنُ ! !]

لقاء كريم :

هاجر الشاعر إلى إشبيلية ؛ وقد سبقه إليها كثير من أعلام قرطبة المدودين وكانوا قد فروا منها حينما نقض ابنُ جهور بيعة هشام ، ومن أشهرهم أبو مروان عبد الله بن أحمد وأبو بكر عبد الله القرشى التميمى وأبو عامر بن مسلمة صديق الشاعر الحميم ووسيلته إلى المعتضد بن عباد ، فلما هبط الشاعر إشبيلية نزل فى ضيافة صديقه فأكرم وفادته وأطاب مثواه ؛ وكان أبو عامر يبنى فى داره مجلساً فأنشده ابن زيدون :

عُمِّرَ من يعْمُرُ ذا المجلسا أطولَ عُمْرٍ يُبْهِجُ الأنفسا
وبعد ذا عُوِّضَ عن داره عَدْناً ، ومن ديباجه السندسا
ووُقِّيَ الفوز بها والرضى وَوُقِيَ الأسواءَ والأبؤسا

ودام « عبادٌ » لعهد الهوى يحرص حتى يفنى الأحرسا

أما المتضد فقد لقى الشاعر أكرم لقاء ، وغمره بجفاوته وبره « وجعله من خواصه يجالسه فى خلواته ، ويركن إلى إشاراته ، فى صورة وزير » والواقع أن الأمير عامل الشاعر معاملة صديق ، ورفع بينهما الكلفة وأهدى إليه ، وقبل هداياه ، وأحضره مجالس لهوه ومطارح أنسه ، وعاطاه العقار ، وطارحه الأشعار والأسمار ؛ أهدى إليه الشاعر هدية تفاح وكتب معها :

يامن تزيّنت الرئاسةُ حين ألبس ثوبَها

جاءتك جامدةُ الدام تخدَ عليها ذوبَها

وتلقى منه هدية خمر مشفوعة بأبيات رقيقة فأجاب عنها : —

يشرف مملوكَكَ المسترقّ نظمٌ من الكلم المنتخَلْ

وراحٌ تعيد إلى من أسنّ طيبَ زمانِ الصّبا المقتبَلْ

فأخجلنى البرُّ من فرطه وإن الجوابَ ليبدى الخجل

وكان المتضد يبيح لشاعره دخول حمام قصره ، ويبعث إليه الطيب والبخور فيهتف شاكراً : —

وضاكَ لنا قبلَ الطهور مطهّرُ	وقربك من دون البخور مُعطّرُ
فلو عزّ حمامٌ لأدفأنا ذرًى	يفيض به ماء النّدى المتفجّرُ
ولو لم يكن طيبٌ لأغنت حفاوةٌ	تمسّكُ منها حالنا وتعنبرُ

مناصب خطيرة :

كان بلاط المتضد يغص بالكتاب والشعراء والعلماء ؛ فاستطاع شاعرنا بسهولة أن يشق طريقه إلى أن يكون شيخ الشعراء فى هذا البلاط ، أو شاعر المصر كما يقول منافسه ابن حصن ، ثم أصبح المستشار الأول للأمير « وهو منصب يشبه منصب رئيس الديوان الملكى أو وزير القصر فى العصر الحديث »

وإلى هذا يشير شاعرنا بقوله :

حسبىَ النصحُ والودادُ وشكرٌ عطّر الدهرَ منه مسكٌ فَضيضُ

وقوله : —

شـاورنى فى أمره شيحانٌ لو شاء استبدّ

ثم عهد إليه بالسفارة بينه وبين أمراء الطوائف فى مهمّ رسائله لفضل ما أوتيه من اللَّسَن والعارضة فاستحق بهذا لقب ذى الوزارتين « وهو لقب يختص به الملك أفراداً معدودين يشركونه فى التدبير فضلا عن المشورة » .

ثم جعله رئيساً لوزرائه وفى هذا يقول أوغست كور « وكان كاتم سر المتضد ثم كبير وزرائه » وقد سمّاه صاحب المعجب ذا الرئاستين ؛ وسمّاه الذهبى الصاحب « وهو لقب يطلق عند المشارقة على رئيس الوزراء المطلق التصرف كالصاحب بن عباد » ويذكر ابن نباتة أن المتضد تلقاه بالقبول والإكرام ، وولّاه وزارته وفوّض إليه أمر مملكته ؛ ويقول ابن خاقان فى حديثه عن المتضد إن ابن زيدون « أظهر صولته ، ودبّر دولته ، وأدجى ضحاها ، وأدار بالمكاره رحاها » .

وكان ابن زيدون يطمع فى أن يضم بين يديه القوتين جميع المناصب الخطيرة فى الدولة ، فكانت نفسه تتوق إلى أن يضم إلى مناصبه منصب الكتابة ؛ وكان الكاتب يطلع على جميع أسرار الدولة ، ويتحدث باسمها فى الخطير من الأمور ؛ ولهذا سعى ابن زيدون ليستأثر بهذا المنصب إلى جانب مناصبه ، فحدثت بينه وبين ابن حصن كاتب المتضد جفوة انتهت بهلاك ابن حصن ؛ ولكن المتضد عهد بهذا المنصب إلى الكاتب المشهور أبى محمد عبد الله بن يوسف بن عبد البر ، ثم غضب عليه بعد حين فعزله من منصبه وكاد يفتك به ؛ ويقال إن لشاعرنا أثراً فى هذا الاتجاه ؛ ثم فكّر المتضد فى أن يعهد بهذا المنصب إلى أبى محمد الباجى ؛ ولكن ابن زيدون استطاع أن يظفر بهذا المنصب الجليل بمعونة صديقه

أبى محمد بن الجد ، ووفق فيه خير توفيق ؛ وبهذا استطاع أن يجمع فى يديه أزمة الدولة جميعها .

وكانت التجارب قد حنكته ؛ والأحداث قد صقلته ، فاستطاع أن يتقى فتكات المتضد وغدراته ، وأن يسير بسلام مع هذا الأمير الذى قلما سلم من فتكه أحد من معاصريه حتى لقد فتك بابنه وولىّ عهده ؛ ولما سئل ابن زيدون بعد وفاة المعتضد كيف انفرد بالسلامة منه ؟ « وقد كان غير مأمون على الدماء ، ولا حافظ لحرمة الأولياء ؛ فقال كنت كمن يمسك بأذنى الأسد يتّقى سطوته ، تركه أو أمسكه» . وترجح أنه كان يدخره لفتح قرطبة وهى حلمه العظيم .

سحابات عارضة :

طوى الشاعر فى ظلال المتضد عشرين عاماً ، بلغ فيها أرق المناصب ، وجمع بين يديه أزمة الحكم ، وقاد الدولة قيادة حكيمة اتسمت فيها رقتها إلى أضعاف ما كانت عليه ؛ فهل مرت جميعُها هينة لينة مع ما تزخر به نفس الأمير من نزوات طاغية واندفاعات عاتية ، ومع ما خلقته للشاعر مناصبهُ من حُسَّاد أقوياء وحاقدين طامعين ؟ إن هذا لا يتفق مع طبيعة الحياة وبخاصة فى هذا البلاط الرهيب ؛ وفى هذا يقول أوغست كور : «لم تكن حياة ابن زيدون بإشبيلية هادئة كلَّ الهدوء الذى يشير إليه ابن خاقان ، ولاخالية من المتاعب كما توحى قصائد الديوان » ولم يذكر لنا هذه المتاعب ولا أنواعها ؛ ولكننا نعرف أن ابن زيدون خلق له خصوماً أقوياء « فغدا شجاً فى صدورهم ونكدا فى سرورهم » كما يقول ابن خاقان .

وقد وجدنا فى القسم الثانى المخطوط من الذخيرة فى ترجمة أبى الحسن على بن غالب بن حصن وزير المتضد وكاتبه وشاعره حديثاً عن خصومة عنيفة طاغية بينه وبين ابن زيدون ؛ وكان المتضد يؤجج بينهما نار العداوة والبغضاء إرضاء لنزواته الشريرة ، ويتسلّى بما ينشب بينهما من ملاحاة وعداء ؛ وكانت الأحداث التى مرَّت بشاعرنا قد أكسبته خبرة ودراية بطبائع النفوس فلاذ بالصبر

والأناة ، ودافع خصمه بلين ورفق وأناة ، واحتمله ماوسعه الاحتمال ؛ أما ابن حصن فاندفع في طيش وخفة ونزق يستثير الشاعر ويسخر منه ويهجوه معتمداً على موهبة متحفزة تعينه على ارتجال الشعر والإبداع فيه ؛ ومن قصائده في مدح المتضد ولمز ابن زيدون قصيدة رائية رائعة أسهب فيها في مدح المتضد ، ثم عرّج على هجاء ابن زيدون فقال مخاطباً المتضد :

فدونك عذراء المعاني ابتدعتُها
تساعدني عفواً ولم تتعذّرِ

إذا ما الرواةُ استنشدتها تبرقعتْ
لما أوجهٌ من حشمة وتنيرّ

وينكلُ عنها شاعرُ العصر كلُّه
ألا فاحكُنْ من شاعر العصر والفخر

ثم لم يكتف بهذه السخرية بل أمعن في تحدى ابن زيدون هاتفاً بالأمير :

ودونَك فاحكم بين نظمي ونظمه
بذهن ذكيّ ثم قدِّمْ وأخّرِ

وما أنت مِمَّنْ يُحْمَدُ السيفُ عنده
لجودةِ مقولٍ وهو غيرُ مُذَكَّرِ

وقد لجأ ابن زيدون إلى الحيلة والدهاء والمطاولة حتى استطاع أخيراً أن ينجح في إثارة المتضد على ابن حصن ؛ وأعانه على بلوغ هذا الهدف نزق ابن حصن واندفاعه وتهوّره ؛ وكانت النتيجة أن فتك به الأمير ؛ وإلى هذا يشير ابن سعيد بقوله « إن ابن زيدون لم يزل يسعى في حتف ابن حصن بمكره حتى فتك به المتضد » ويقول ابن بسام « ولم يزل أبو الوليد يطرق ويحلُمُ ، ويسدى في أمره ويُلْحِم ، وابن حصن ينترُ ويتقدم ، فنازَ ابنُ زيدون بحلمه وتوقره ، وهوى بجم ابن حصن بين اغتراره وتهوّره ، فزلتْ قدمُه ، وطاح دمُه ... »

وهناك خصومة ثانية قامت بين ابن زيدون والكاتب المشهور ابن عبد البر ؛ وكان المتضد قد اجتذبه إلى قرطبة بعد أن طارت شهرته فى الآفاق ، ويحدثنا ابن الأبار أنه « تهادته الآفاق ، وامتدت إليه الأعناق ، ففاز به قدحُ عباد[1] بعد طول خصام ، والتفات زحام ؛ فأساخ أبو محمد[2] لمقاله ، وتورط فى حباله ؛ وغص أبو الوليد بن زيدون بمقدمه ، فجهر كل جهر — زعموا — فى إراقة دمه » . ولا نعرف أحداث هذه الخصومة ، ولكن ابن الأبار يذكر أن سبب غضب المتضد على كاتبه ابن عبد البر هو الرسالة التى كتبها الأخير على لسان المتضد بعد فتكه بابنه وولى عهده إسماعيل ، وأنه كتب هذه الرسالة دون روية أو تدبير ؛ ولكننا نعلم أنه كتبها برأى المتضد وإشارته ، وقد رجعنا إلى هذه الرسالة التى نشرها المستشرق دوزى فلم نجد فيها مبرراً لهذا الغضب ؛ ولكنها نزوات المتضد التى قلّما سلم من شرها أحد من حاشيته أو وزرائه ؛ ومما لاشك فيه أن ابن زيدون كان يتطلّع إلى منصب هذا الكاتب الكبير ويسعى إليه ؛ وأنه كانت هناك منافسة قوية بينهما حول النفوذ والسلطان ؛ ومن مظاهر هذه الخصومة أن أبا عبد الله محمد بن شرف القيروانى بعث من القيروان إلى المتضد بخمس قصائد من شعره مع رقعة إلى ابن زيدون سائلا إياه أن يتوسط لعند الأمير وأن يرفع إليه قصائده ؛ وقد لبى ابن زيدون نداءه ورفع القصائد إلى الأمير ؛ فأمر كاتبه ابن عبد البر أن يكتب على لسانه كتاب ترحيب إلى ابن شرف القيروانى فكتب إليه رسالة حشاها بالتعريض بابن زيدون . وانتهت المنافسة أخيراً إلى أن غضب الأمير على ابن عبد البر ، وكاد يفتك به ، ولم ينج من يديه إلا بعد محاولات ووساطات ؛ وبسبب هذه الخصومات كان ابن زيدون يصف بلاط المتضد بأنه جنة حُفّت بالمكاره فيقول :

من لى بشكر نعمة الحرُّ عنها معتَبَد ؟
سُوِّغتُ منها المرَّةَ القَمساءَ فى العَيْشِ الرَّغَدْ

(١) المتضد واسمه عباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد .
(٢) أبو محمد عبدالله بن يوسف بن عبد البر .

حيث استُضيفَ مَنهـــل صفـا إلى ظِـــلٍّ بَردْ
كأنَّها لي جَنّـــةٌ حُفَّتْ بمـــكروه الحَسَد

وقد بقيت لدينا بقايا قصيدة يعاتب فيها الشاعر أميره عتاباً مُرّاً ؛ وما بقى منها هو :

ولما قضَينا من دُوَيرِ إجازةً تحدّر دمعُ المُقلَةِ الترقرقُ

ومنها — :

أعبادُ حيٌّ من هباتك مُخلِصٌ
ودودٌ ؟ ومن عافيك بيداء سَمْلَقُ ؟
تعوّدتَ بذل النفسات ؛ فجُدتَ بى
وإنى بصون منـك أحرى وأخلق

ومنها — :

وما كان ظنىٌّ أنأرى متقحِّماً
مُسنّاةَ محوم أخُبُّ وأُعنِقُ

فالأبيات توحى بأن الأمير أبعد شاعره عن إشبيلية إلى مكان مجدب فتوسل إليه ألا يجود به على الصحراء ، وأخـذ يذكره بما يكنه له من مودة وصفاء ، وأنه جدير منه بالصون والولاء .

ولكن هـذه المتاعب كلّها كانت سحابات عارضة ما تكاد وتظهر حتى تزول ؛ وإلى هذا يشير ابن زيدون :

ضرائبُ جَهْمَةٌ فى العتب تُسلَى
بأخـــلاق لدى المُعتَبى مِلاحِ

وأخيراً توفى المعتضد سنة ٤٦١ هـ بعد أن تهيّأ لفتح قرطبة بتدبير ابن

زيدون ، وكان الأمير يدخره لهذا الفتح المجيد . ولعل هذا من أسباب نجاة الشاعر من فتكات الأمير .

الحاكم الجديد :

ولى المعتمد بن عباد الحكم بعد أبيه ؛ وكانت بينه وبين شاعرنا أوثق صلات المودّة والصداقة والوفاء . كان الأمير الجـــديد مفتوناً بالشاعر ؛ تتلمذ على يديه وهو ولىّ للعهد ، وتدرّب عليه فى صياغة الشعر مدة عشرين عاما دارتْ بينهما فيها أرق القصائد وأعذب الطارحات . أمر المتضد أن يكون مجلس ابنه وولىّ عهده المعتمد مرتفعاً عن مجلس ابن زيدون ، فكتب المعتمد لأستاذه معتذراً :—

أيها المنحـــطُّ عنى مجلساً ... وله فى القلب أعلى مجلس

بفـــؤادى لك حُب يقتضى ... أن تُرى تحمِلُ فوقَ الأروس

فأجابه الشاعر بقصيدة استهلّها بقوله :

أسقيـــطُ الطلِّ فوقَ النرجس

أم نسيمُ الرَّوضِ تحتَ الحِندس ؟

أم قريضٌ جاءنى من ملكٍ

مالِكٍ بالبرِّ رِقَّ الأنفُس

والديوان حافل بما دار بينهما من مطارحات ومراسلات .

وشاية دنيئة :

ظنّ خصوم الشاعر ومنافسوه أن الفرصة أصبحت سانحة لهاجمة الشاعر عند الحاكم الجديد ؛ فنسبوا إليه أنه حينما بلغه نعى المتضد قال :

لقـــد سرَّنا أن النعىَّ مُوكَلٌ

بطاغية قـــد حُمَّ منـــه حِمامُ

تجانف صوبُ الغيث عن ذلك الصدى

ومرّ عليه البرقُ وهـــو جَهام

ثم دسّوا إلى المعتضد قصيــدة يُغرونه فيها بالفتك بالشاعر ؛ استهلوها بقولهم :

يأيها الملكُ العَلِيُّ الأعظمُ اقطعْ وريدَىْ كلَّ باغٍ ينئم

واحسم بسيفك داء كلّ منافق يبدى الجميلَ وضدّ ذلك يكتم

ثم ذكروه بهجاء الشاعر لأبيه ؛ وأن هذا الهجاء أصبح على كل لسان :

لا تحقِرَنَّ من الــكلام قليلَهُ

إنّ الــكلامَ له سيوفٌ تَــكْلِمُ

والملكُ يحمى مُلْكَهُ عن لفظة

تَسرى فتُجْلى عن دواء تَحْسُم

فضلاً عن الــكلم الذى قــد أصبحتْ

غوغاؤنا جهراً به تتــكلّمُ

ثم ذكروه بفتكات أبيه فى سبيل صونه عرشه ، وأن الحزم يقتضيه أن يقتفى آثاره ، ثم ختموا قصيدتهم ببيت المتنبى :

لا يسلم الشرفُ الرفيع من الأذى

حتىَ يُراقَ على جوانبه الدّمُ

ولكنّ الأمير كان أدرى بشاعره ، وأوفى لأستاذه ، وأعرف بالذمام ؛ فوقع على الرقعة بأبيات استهلّها بقوله :

كذبتْ مُناكمْ ؛ صرِّحوا أو جمجموا

الدين أمتنُ ، والمروءة أكرمُ

خُنتمْ ، ورمتم أن أخون ؛ وإنما

حاولتموا أن يستخفَّ يَلَملَمُ

وختمها منذراً محذرا :

كفّوا ؛ وإلا فارقبوا لى بطشةً

يُلْقَى السفيه بمثلها فيُحَلِّمُ

فاهتز الشاعر لهذه الأريحية وصاغ قصيدة مسهبة فى شكر الأمير على

ما غمره به من آلاء ، يقول منها :

لى منكَ — فلْيَذُبِ الحسودُ تلظيا —

لطفُ المـــكانة والمحلُّ الأكرمُ

لم تُلْفَ صاغيتى لديك مُضاعةً

كلا ، ولا خَفِيَ اصطناعى الأقدم

بل أوسعت حِفْظا وصدق رعاية ذممٌ موثّقةُ العُرا لاتَفْصَمُ

فتح قرطبة :

استطاع المعتمد بمعونة وزيره وشاعره وأستاذه ابن زيدون أن يفتح قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ، ودرة الأندلس الفريدة ؛ وكانت قد عزَّت على أبيه وجده مِنْ قبلُ وعلى ملوك الطوائف الآخرين . وعاد الشاعر إلى بلده قرير العين مثلوج الفؤاد ، وما كاد يستقر بها بين أهله وعشيرته حتى ثارت فتنةٌ بإشبيلية ؛ فأرسل المعتمد ولده الحاجب سراج الدولة فى جيش كثيف لإخماد الفتنة ، ولكن ابن مرتين قائد جيش المعتمد بقرطبة وابن عمار وزيره الأثير عنده أشارا عليه بإرسال ابن زيدون مع الجيش إلى إشبيلية لايتمتع به من كياسة ولباقة وحسن تدبير ؛هذا إلى مايظفر به عند أهل إشبيلية من حب وتقدير ؛ وكانا يهدفان من وراء هذه المشورة إلى إقصاء ابن زيدون عن المعتمد ليخلو لهما الجو فيكيدا له حقدا عليه وضيقا بما كان يتمتع به من نفوذ عند الأمير وحب شعبى عظيم ، فأمره الأمير باللحاق

بالجيش فاعتذر بمرضه وشيخوخته ، فلم يقبل الأمير منه الاعتذار ثم أرسل ابنه من خلفه بتدبير القائد والوزير .

خاتمة المطاف :

لبىّ ابن زيدون نداء الأمير « على بقية وَعْك كان متألمًا منه ، ولم يعذره فى التوقف من أجله فمضى لطيّته ، مسوقا إلى منيته » فأخذ الناس يهمسون بضعف مكانة الشاعر عند الأمير ، ويظهر أن المرض والكهولة ومشاق السفر وفداحة المهمة والهواجس النفسية فعلت فعلها فى نفس الشاعر ، فما كاد يتم مهمته حتى ألحّ عليه العلة ، ثم فاضت روحه فى صدر رجب سنة ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ، ولما وصل نعيه إلى قرطبة جاشت نفوس أهلها بالحزن وفاضت بالآلام « وتناعوه وسيئوا لفقده وحزنوا عليه ؛ إذ كان منهم ، متعصبا لهم ، هاويا إليهم ، حدبًا عليهم ، ولجة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية » ولهذا لم يكن عجبا أن ينتقض أهل قرطبة على حكم المعتمد بعد هذا بقليل .

ويظهر أن المعتمد شعر بفداحة ما فعل ، ورأى النذر ماثلة أمام عينيه ، وأشفق من شعور الشعب ، وأحس أنه فقد ركنًا ركينا من أسس دولته ، فبادر بتعيين ابن الشاعر مكان أبيه ، وعهد إليه بالوزارة ، وخصه بولاية إشبيلية حاضرة الملك المعتمد مجموعة إلى الإشراف على دار سك النقود ؛ فنهض بما وكل إليه واضطلع بما عهد إليه ، وواتته الفرصة فانتقم لأبيه ؛ وظل فى خدمة المعتضد حتى قتل سنة ٤٨٤ هـ .

وخير ما نختم به حديثنا عن حياة ابن زيدون ما ذكره ابن حيان فى رثائه : « فقد تولى من أبى الوليد كهل لن يخلف الدهر مثله جمالا وبيانا وبراعة ولسانا وظرفا وحلولا من مراتب البلاغة نظما ونثرا بمراتبة لم يخلف لها بعده عاطيا بقرانه بين الكلامين وبراعته فى الفنين » .

أضواء وظلال

صحبنا ابن زيدون من مهده إلى لحده ، وتتبعنا أحداث حياته ومامرّ عليها من نسائم

عليلة ، أو عصف بها من أعاصير عاتية ؛ والآن حان لنا أن نلقى على شخصيته بعض الأضواء .

بين الخصوم والأنصار :

إن صلات الإنسان بمن حوله واحتكاكه بالمحيطين به تكشف عن جوهر نفسه وتظهر طبيعته للباحثين ؛ وإن العظماء دائماً يشغلون الناس بأنفسهم ، ويثيرون حولهم دائماً أجواء من القدح أو المدح والبغض أو الإعجاب ؛ ومامن شك فى أن رجلاً كابن زيدون ملأ قلوب معاصريه وأسماعهم وزاحم منهم من زاحم ؛ حتى فاز بأسمى المناصب السياسية ، وأرفع المراتب الأدبية ، إن رجلا عظيما كهذا لابد أن يشغل قلوب معاصريه سواء كانوا من مؤيديه أو من معارضيه ؛ وقد ذهبوا فيه شتى المذاهب ، فيقول فيه الحميدى والضبى إنه : « كثير الشعر قبيح الهجاء » ويقول ابن سعيد : « إنه كان ساعه الله ممن لا يُرْجى خيره ، ولا يؤمن شره » ويصفه ابن حيان بسلاطة اللسان ، ولكنه يعود فيصفه بحبه لأهل وطنه وحرصه على نفعهم « إذ كان منهم ، متعصبا لهم ؛ هاوياً إليهم ، حدباً عليهم ، ولجة خير بينهم وبين سلطانهم » ويقول ابن نباتة : إن الشاعر « كان حسن التدبير ، تام الفضل ، متحبباً إلى الناس » .

والحقيقة أن الشاعر لم يكن ملاكا رحيما ولاشيطانا رجيما ؛ وإنما كان إنسانا سويا ، ورجل بلاط محنكا ، يضع الإحسان فى موضعه ، ويقابل الجحود بالجحود ؛ فقد تنكر لابن عبدوس بعد أن نافسه فى حبيبته وهذا أمر مألوف ؛ وكاد لابن حصن وحمل المتضد على الفتك به ، وكان ابن حصن هو المتعدى على الشاعر والمحرض عليه ، ولو وجد فرصة لإهلاكه لفعل ، ونستطيع أن نقول مثل هذا فى ابن عبد البر الكاتب الشهير .

على أننا نجد الشاعر قد أحسن إلى كثيرين ؛ فقد كشف عن موهبة أدبية أصيلة فى أبى بكر محمد بن سليمان بن القصيرة ؛ وكان على فضله منطويا على نفسه

مهيأ الدخول فى خدمة المتضد ؛ فقدّمه ابن زيدون إليه ، وأثنى عليه ، ودفعه إلى أسمى المناصب ، ثم زكاه بعد المعتضد عند ابنه المعتمد حتى « عظمتْ حاله ، واتسع محاله » ولولا ابن زيدون لطواه الخمول . وقد توسط لابن شرف القيروانى عند المعتضد وزكاه ؛ وتشفع لأحد أصدقائه عند الظفر بن الأفطس حاكم بطليوس ، وصاغ فى هذه الشفاعة رسالة مسهبة وقصيدة ممتعة تبدو فيهما حرارة المودة والإخلاص ؛ وإخلاص الشاعر لوطنه ، ووفاؤه لأصدقائه تفيض به صفحات الديوان ؛ وقد لهج كثير من معاصريه بالحديث عن وفائه ومودته . ومن أمثلته قول المعتمد فى وصف شعر ابن زيدون وإخلاصه :

نظمُ درٍّ يستبي القلبَ متى يُنظَمْ ونثرْ
دَلَّنى أنك فى الخلصانِ معقودٌ بخنصرْ

وكتب إليه ابن عمار مستشفعا به لدى المتضد من قصيدة طويلة :

يا غُرّةَ الزمن البهيم وَعِزّةَ الأدبِ الذليلِ
اشفع عنايتك الجليـ لة لى لدىَ الملكِ الجليلِ
ولـئن أجبْتَ لراغبٍ وأقلت عَثْرةَ مستقيـلِ
فلكم أتيتَ بمثلهـا وهى الصنيعـة فى مثيلِ

وخلاصة القول أن شاعرنا كان يضع الإحسان فى مواضعه ، والإساءة فى مواضعها ؛ وقد عبّر عن هذا فى قصيدته لابن عبدوس .

فإنى ألين لمن لان لى وأترك من رام قسرى حَرَضْ

الظرف ورقة الحديث وسرعة البديهة :

وهى صفات متجانسة متقاربة اتصف بها الشاعر ، وقد هيأتها له ذاكرة قوية ، وحافظة مستوعبة ، وفطرة مواتية كل المواتاة ؛ ومنه ابن حيان بأنه : «فتى الآداب وعمدة الظرف... وأنه غلب على قلوب الملوك بفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة ، وبأنه لن يخلف الدهرُ مثله جمالا وبيانا وبراعة ولسانا وظرفا » وفيه يقول ابن بسام « فأما سعة ذرعه ، وتدفق طبعه ، وغزارة بيانه ، ورقة حاشية لسانه : فالصبح الذى لا ينكر ولا يرد ، والرمل الذى لا يحصر ولا يعد »

ويتحدث عنه أبو الطرف بن فتوح بأنه « الحلو الظريف البارع اللطيف » ولهذه الصفات الحلوة نجح فى سفاراته لدى الملوك ، فتحوا له صدورهم ومزجوه بأنفسهم كالمعتضد بن عباد وابنه المعتمد حاكما إشبيلية وإدريس الثانى حاكم مالقة ، وبنى عبد العزيز أصحاب بلنسية ، وفى اتصاله بهم يقول ابن خاقان : « فحل منهم محل الحميا فى الكئوس ، ووقع منهم مواقع البشائر فى النفوس ، وأقام بين مبرة تواصله ، ومسرة تنازله »

أما سرعة بديهته فتتجلى فيما رواه ابن بسام والقرى من أنه وقف يتلقى العزاء فى ابنته ، فقيل إنه ما أعاد فى ذلك الموقف عبارة قالها لأحد ؛ قال الصفدى « وهذا من التوسع فى العبارة والقدرة فى التفنن على أساليب الكلام ، وأقل ما فى تلك الجنازة وهو وزير ألف رئيس ممن يتعين أن يشكر له ، فيحتاج فى هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر ، وهذا كثير إلى الغاية ، لاسيا من محزون فقد قطعة من كبده :

ولكنه صوبُ العقول ، إذا انبرت
سحائبُ منه أُعقِبت بسحائب »

وقد وازن أحمد زكى باشا موقف ابن زيدون بموقف مسيو وآنكاريه الذى استقبل عشرين وفدا من طوائف الانكليز ورد على كلٍّ منهم بعبارة شكر تخالف ما أجاب به الأخرى ، مماجعله موضعاً لإعجاب الناقدين بمقدرته البلاغية . وشتان بين الموقفين ، والحالة النفسية فى كل منهما .

وكثيرا ما تسعفه بديهته على الارتجال الشعرى ، يُروَى أن جارية سألته أن يزيد على بيت قالته :

يامعطشى مِنْ وِصالٍ كنتُ واردَه
هل مِنْكَ لى عَلَّةٌ إن صحت : واعطشى !!!

وكانت تتعشق فتى قرشيا والشاعر يعلم هذا فارتجل سبعة أبيات استهلها بقوله :

كسوني من ثياب السقم أسبغها ظلماً، وصيَّرتَ من لحف الضنى فرشي .

ومنها :

صبَّاً إذا التذَّت الأجفانُ طعم كرَى

جفا المنامَ ، وصاح الليلَ: ياقرشي !!

ولاتخفى وعودة القافية فى الأبيات ، وكثيرا ما كان يرتجل أبياتا فى الرد على المراسلات الشعرية فى نفس قافيتها ووزنها ، كما كان يرتجل فى شتى المناسبات

روى ابن ظافر أنه خرج للنزهة فى إحدى ضواحى إشبيلية ، ومعه الوزيران أبو بكر ابن عمار وابن خلدون[1] وبعثوا صاحبا لهم اسمه خليفة ليأتيهم بنبيذ ، فلما رأوه مقبلا بادروا إلى لقائه ، واتفق أن فارسا ركض فرسه فصدمه فهشّم أعظمه ، وأجرى دمه ، وكسر قِصال النبيذ ، ومضى هاربا ، فأسفوا لما حدث وأفاضوا فى ذكر الزمان وعدوانه فقال ابن زيدون :

أنلهو والحتوف بنا مطيفهْ ونأمن والمنونُ لنا مخيفة ؟

فقال ابن خلدون :

وفى يوم ومـــا أدراك يوم مضَى قُصا لنا ، ومضى خليفهْ

فقال ابن عمار :

هما تخارنا راح وروح تكسرتا ، فأشقاف وجيفهْ

وقد وصف شاعرنا نفسه بالظُّرف ، والافتنان فيه ، وسرعة البديهة فقال :

لافتنـــانٌ كافتنانى فى حُلَى الظَّرف الحنانْ

خصَّنى بالأدب الله فأعـــلى فيـــه شانى

خاطرى أنفذ — مهما قيس — من حد السنانِ

---

(١) ترجح أنه أبو مسلم عمرو بن خلدون الحضرمى من أشراف أهل إشبيلية وعلمائها توفى سنة ٤٤٩ ﻫ ولعله من أجداد ابن خلدون المؤرخ المشهور .

الولع باللذات :

ولى الشاعر مناصب هامة تستدعي الوقار ، وكان ينحدر من سلالة فقهاء مهيبين ونشأ في أحضان أناس متزمتين ، ولكن نشأته المترفة وطبيعة عصره المتحررة وفطرته المرحة ونفسه الحساسة مالت به جميعا إلى مباشرة اللهو ومقارفة اللذات ، فكان يعاقر الراح ويستجيب للهو ويعشق الموسيقى والغناء ، وقد ذكرنا مجالسه اللاهية مع صديقيه أبي الوليد بن جهور وأبي بكر ابن ذكوان ، وكلفته له مع ولادة ليالي حاليات يساقيها الراح ويستمع إلى غناء جاريتها عتبة ، وأعانه على إشباع ميوله أن معظم من اتصل بهم من الملوك أوعاش في ظلالهم كانوا يستجيبون لهذه النزعات مثل أبي الوليد بن جهور في مستهل حكمه ، وإدريس بن حمود ، والمعتضد بن عباد ، وابنه المعتمد ، وكثيرا ما كان يهدى الراح ويستهديها ، وطالما تلمسها من المعتضد في شعر رقيق مثل قوله :

يابانيا كلَّ مجـــد وهادما كل وُجـــد
جسم السرور سوى من صوغ نُعماكَ عندى
فهبْ له روحَ راح ينطقْ بأحفل حمـــد

وطالما حثه على معاقرة الشراب :

فهبَّ إلى اللذات مؤثَر راحةٍ
تُجِمُّ بها النفسَ النفيسةَ للكـــدِّ
ووَالِ بهـا في لؤلؤٍ من حَبابِها كجيد الفتاة الرُّؤد في لؤلؤ العِقْدِ
وإن تدعُنا للأنس عن أريحيّة فقَدْ يأنسُ المولى إذا ارتاح للعبدِ

ولهذا وصف ابن خاقان شعره بأنه «لم يصرفه إلا بين ريحان وراح ، ولم يطلعه إلا في سماء مؤانسات وأفراح» ، أما إشادته بابن جهور حين كسر دنان الخمر فإنه لا يعبر بهذا عن رأيه الخاص ، وإنما يؤدى واجبا يقتضيه منصبه الرسمي ويحتمه المقام .

على أن ابن زيدون لم يكن مجاهراً مستهتراً مثل بشار وأبى نواس وغيرهما من الشعراء الماجنين ، ولـــكنه يستجيب لميوله إذا واتته الفرصة وأسعفته المناسبات ؛ ولم يكن منفردا بهـذا بين معاصريه ؟ فقد كان العصر عصر تحرر وترف وانطلاق ، كما ذكرنا فيما سبق .

وقد خُلِقَ شاعرنا ليكونَ رجلَ بلاط من الطراز الأول يجمع بين الكياسة والدهاء واللباقة والظرف ولطف النادرة وسرعـــة البديهة ومجاراة الحكام فى أهوائهم ، مع الأخذ من متع الحياة بنصيب .

—

عزة النفس والشجاعة والإباء :

نعت ابنُ حيان الشاعرَ بأنه « ذهب به العُجب كلَّ مذهب ، وهَوّن عنده كل مطلب » ولكننا نستطيع أن نعدل هذه الصفة فنقول إنها الإباء لا الكبرياء ، وشتان بين الوصْفَين ، وإن تقاربا فى المظهرين ؛ فالإباء فضيلة مشكورة ، قد تحمل صاحبها على التضحية وإنكار الذات ، والسمو عن الهوان ، وإن كان وراءه ربح أو إحسان .

أما الكبرياء فرض نفسى يستره صاحبه بهـذا المظهر الزائف الخداع ؛ وشاعرنا كان معجباً بنفسه ، معتزاً بمواهبه ، ولا ضير عليه فى هذا ، فإنه نشأ عن طفولته المترفة ، ونبوغه المبكر ، ومكانته التى أحرزها فى مستهل الشباب ، حيث أسهم فى إسقاط دولة وإقامة دولة ، وشرّق ذكره وغرّب ، وخفّ على قلوب الملوك والأمراء فتهافتوا على طلبه ؛ فلا عجب إذا شعر بالعزة والإباء لا بالصلف والكبرياء ؛ ولقد ضحىّ الشاعر بالمكث فى وطنه على شدّة تعلقه به ، وبالقرب من حبيبته على حِدّة شغفه بها ضنا بنفسه عن مواقف الهوان ؛ وفى هذا يقول : « ولم أستجزْ أن أكون ثالث الأذَلّين : العير والوتد ، وبطرتُ فى مفارقة الوطن والبين عن الأحبة فتبيّن لى أن إيحاش نفسى بإيناس أهلى ، وقطعهما فى صلة

وطنى غبْنٌ فى الرأى ، وخورٌ فى العزم ؛ ووجـدت الحرّ ينامُ على الشّكل ، ولا ينام على الذّل ... إن الذى اخترته لنفسى غايةُ ما يسىء العـدوَّ ويساءُ الولىّ منه ؛ فالجلاءُ أخو القتل والغربة أحد السباءين ... وقـد هجرتُ الأرض التى هى ظئرى ، والدارَ التى كانت مهادى ، وغبتُ عن أمّ أنا واحدها تمتدّ أعناقُها شوقاً إلىّ ، وتفيض أجفانها حزناً علىّ ... » ومن هـذا نلمس حرقة الشاعر على وطنه ، وتلهفَه على أهله ، وتلدُّدَه على حبيبته ؛ ولـكنه استجاب لما فطر عليه من عزة وإباء .

أما شجاعته فتتجلى فى أنه قضى حياةً كلُّها كفاح ونضال فى سبيل بلوغ القمة ؛ فإذا صدّمته الأحداث أو قهرته النوائب هبّ إلى النضال ثانياً ، وأبى إلا أن يستردّ مكانته ويسترجع مَنزلته ؛ وكم ناضل خصوماً ألداء ، وكافح منافسين أقوياء من قضاة ووزراء وأمراء ، فلم يفلّ عزمه يأس ، ولم يثلمْ حدهُ قنوط ، حتى تمّ له الانتصار .

وقد صورّ لنا الشاعر موقفه من الأحـداث القاسية المتلاحقة ، وكيف قابلها بالـكفاح والنضال :

فإن يُجدِبْ من الدُّنيـا جنابٌ طالما أمرَعْ
فما إن غاضَ لىِ صبر وما إن فاضَ لى مَدمَعْ
وكائِنْ رامت الأيامُ تُرديني فلم أرتع
إذا ضاقَتْ بِىَ الجُلّى تجلّتْ من فتىً أروع
على ما فات لا يأسى وممّا ناب لا يجزع

صفات جسمية :

للتكوين الجثمانى أثر بالغ فى الاتجاهات النفسية والملكات الفنية ؛ وقلما كان مؤرخو العرب يهتمون بهذه الصفات ؛ وكل ما ذكره الرواة عن شاعرنا أنه كان وسيم الوجه ؛ وقد ردّد ابن حيان وصفه بهذه الصفة عدة مرات منها قوله فى رثائه : « فتولىّ منه كهلٌ لن يخْلِفَ الدهرُ مثله جمالاً وبياناً وبراعة ولساناً وظرفاً ... » فوصفه بالجمال حين كهولته فما بالك به فى شبابه ؛ ولعلّ الشاعر يشير إلى هذا فى رسالته لابن عبدوس على لسان ولاّدة ؛ « ولعلك إنما غرّكَ من علمْتَ صبوتى إليه ، وشهدت ، مساعفتى له ، من أقار العصر وفتيان المصر ، الذين هم الكواكبُ عُلوٌّ همَم ، والرياضُ طيبَ شِيَم » ويظهر أنه كان قوىّ الجسم متين البنيان ، ولعله يشير إلى هذا بقوله فى الرسالة السابقة على لسان ولاّدة: « وكم بين من يعتمدنى بالقوة الظاهرة ، والشهوة الوافرة ... وبين آخر قد نضب غديره ونزحتْ بيره ... »

ولعلّ لمتانة تركيبه ، وقوة بنيانه أثراً فى طول حياته على الرغم مما تعرض له من نكبات وأحداث وما أسرف فيه من شهوات ؛ وكان قوى الأعصاب بدليل موقفه فى جنازة ابنته ، فقد تحمل الصدمة وانصرف إلى مجاملة الرؤساء المعزين ببديهة حاضرة وفى هذا من قوة الاحتمال ماهيه ؛ وروى الصفدى أنه كان يخضب بالسواد ؛ وهذا دليلُ حرصه على أناقته وجمال مظهره .

وكان حسن الصّوتْ رقيق النغمة جيدَ الإنشاد ، وفى هذا يقول ابن حصن فى وصف أشعاره معرضاً بشعر ابن زيدون :

ولستُ بكاسِبها مدى الدهرِ حلْيةً
بنَغْمةِ إنشادٍ ولا بمُكَرَّرِ

ولعل هذه الصفات الجسمية إلى جانب مواهبه العقْليةِ هى التى أعانته على أن يجلّى فى ميادين المنادمة والمسامرة ، كما أبرزته فى مجال السفارات ، ولا تزال

البعثات الدبلوماسية فى العصر الحديث تراعى جمال المظهر وحسن التكوين إلى جانب الكياسة واللباقة والذكاء .

فلسفة فى الحياة :

لا بد لكل شاعر فحل من نظرة شاملة دقيقة فى الحياة تكشف عن مذهب فلسفى يصدر عنه الشاعر فيما ينتج من آثار ، ونحن لا نطلب من ابن زيدون فكراً فلسفياً كالمعرى أو أبى نواس ولا مذهباً خلقياً كأبى العتاهية أو المتنبى أو ابن الرومى ، لأن البيئة الأندلسية تضيق بالمذاهب الفلسفية وما إليها من أفكار ، ولكننا نرى لشاعرنا نظرة فلسفية لوّن بها حياته وصدر عنها فى تصرفاته هى إيمانه بالجبر ، وقد لعبت مسألة الجبر والاختيار دوراً هاماً فى الفلسفة الإسلامية والمذاهب الكلامية ، والشاعر قد درس هذه الأبحاث جميعها ، وتأثر بها ، ووجد لها فى حياته أبلغ الآثار ، فكم مرت بالشاعر من أحداث قاسية ومحن متلاحقة غيرت مجرى حياته ونقلته من حال إلى حال ؛ فالإنسان محدود القدرة أمام سلطة الأقدار ، وهو خاضع لظروف بيئته وتكوينه ووراثته وإن ظن فى نفسه الاختيار ، وكثيرا ما يحشد الأنسان قواه ويدبر أموره لبلوغ هدف من الأهداف فيخطئه التوفيق على حين يظفر به من لم يخطر له على بال .

ولقد يُنْجيك إغفالٌ ويُرديكَ احتراسُ
ولكم أجدى قعودٌ ولكم أكدى التماسُ
كذا الدهر إذا ما عزّ ناسٌ ذلّ ناسُ

وليستْ هذه نظرة عابرة ، ولكنها حقيقة تتردد فى شعره كثيرا ، وتبرز حتى فى رسائله « وما حمّ واقع ، ولاحذر من قدر ، وسبق السيف العذل ، وتقدم من فعلى ماجفّ به القلم » حتى الحب يخضع فى نظره لتصرف الأقدار .

ما كان حبُّك إلا فتنة قُدرت

هل يستطيع الفتى أن يدفع القدرا ؟

والإيمان بالجبر إذا صادف النفوس المنطوية المنكمشة ازدادت انقباضا ولاذت باليأس والقنوط ، ولكنه إذا صادف نفوسا منبسطة فإنها تزداد انبساطا وتتخذ من تصرفات الأقدار عونا ونصيرا ، وشاعرنا من النوع الأخير ، ولعل لنشأته فى بيئة دينية أثرا فى هذا الاتجاه ، فالقوة المهيمنة على الكون لاتفعل إلا خيرا ولاتوصى إلا بخير ، وأن مانظنه نحن شرًا ليس إلا ستاراً يخفى وراءه أحسن العواقب «وعسى أن تكرهوا شيئا وهوخيرلكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهوشرلكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون» وكثيرا ما ينشدُ الانسانُ نفعا فيناله الضرر ، أو يتقى ضرا وفيه كل الخير:

وأن السعْىَ قد يُكْدِى

وأن الظنّ قد يخدَعْ

وكم ضَرّ امرءًا أمرٌ

توهّم أنه ينفعْ

ومادام الشأن كذلك فلا مبرر لليأس ولاداعى للقنوط :

لايأسَ ، ربّ دُنُوٍّ دار جامعِ للشمل قد أدّى إليه بِعادُ

ولهذا فهو يقابل الأحداث بصبر وجلد حتى يتغلب عليها :

ثم لايأسَ ، فكم قد نيل أمرٌ لم يُؤَمَّل

وهو واثق بأن الأقدار ستعينه على بلوغ مناه :

وأصبر مستيقنًا أنه سيحظى بنيل المنى من صَبَرْ

وهو فى هذا الاتجاه يعبر عن النزعة الدينية التى رضع لبانها صغيرا :

ولله فينا عِلْمُ غيبٍ ، وحسْبُنا

به — عند جور الدهر — من حَكَمٍ عَدْل

وإيمانه بالنتيجة المرجوّة من وراء تصرفات القدر لم يدفعه إلى الكسل ، وإنما دفعه إلى العمل ، وحضّه على الكفاح ، واثقا من أنه إذا نجح فقد نال مايشتهي ، وإذا أخفق ففي إخفاقه خير مستور أو شر مدفوع ، ولهذا اندفع إلى النضال والكفاح واثقا من أن قوة خفية ترعاه وتسدّد خطاه :

من كان يجهـــلُ ما البليدُ فإنه
من تطّبيه عن الحظوط بـــلادُ
وفتى الشهـــامة من إذا أملٌ سمـــا
نفثتْ به شورى أو استبـــدادُ

ومن فلسفته العملية أنه — على الرغم من نشأته في بيئة دينية — كان يستجيب لشهواته ويندفع إلى لذّاته ، ولعله كان واثقا في الرحمة آملا في الغفران ، وهذا نتيجة لنظرته التفائلة في الحياة .

نظرته إلى المجتمع :

على الرغم من تفاؤل الشاعر ونظرته الباسمـــة المتفتحة للحياة ، فإنه كان ينظر إلى الناس نظرة تشاؤم وضيق ، فقد كان يسيء بهم الظنون ويندّد بما فطروا عليه من غدر وجحود ، ولا عجب في هذا فقد لقى على أيدى كثيرين منهم أبلغ الإساءات بعـــد أن قدّم إليهم أطيب الودّات ؛ كان صديقا حميا لابن القلاّس وابن عبدوس وابن عمار فلقى منهم أعنف الإيذاء ؛ ووفى لأبي الحزم بن جهور ودعم أساس حكمه ؛ فلما استقر له الأمر بادره بالنكال .

وقد عبر الشاعر عن طبائع هذه النفوس الشرسة بقوله :

أذؤب هـــامت بلحمي فانتهـــاشٌ وانتهـــاسُ
كلهم يسألُ عن حـــا لي ، وللذئب اعتسـاسُ

ثم هو يرى الرجل الكريم هدفا لأسهم الباغين الحاقدين :

وأشدُّ فاجعة الدواهي مُحْصِنُ

يسمى ليملقه الجريمةَ بجرمُ

تلقى الحسودَ أصمُّ عن جرس الوفا

ولقــد يُصيخُ إلى الرُّقاة الأرقمُ

أما نظرته إلى المرأة خاصة فقد كنا نتوقع أن ترتفع منزلتها عنده استجابة لهواه العنيف وحبه القهار ، ولكن نشـأ في حبه جملة يقسو على المرأة ويراها متعة عابرة يلهو بها الإنسان حينا ويقسو عليها في كثير من الأحايين ، فهو يرى أن خير زوج الفتاة هو القبر :

حبذا هَــديُ عَرُوس دفنُها كــان الهــداءَ

ويشبه المرأة بالحذاء يخلعه الرجل ويستبدل به آخر ، ولايتورع من ترديدهذا المعنى في تهنئته للمعتمد بزواجه من بنت مجاهد العامرى بعد أن ماتت زوجته الأولى :

هـ - بالنقيدة كالأديم اخترته

فقددتَ إذ خَلِق الشِّراكُ شراكا

وكان لايتورع عن شتم ولادّة وإيذائها ، حتى لقد استعمل يده في تأديبها وإن كان قدعاد إليها نادما مستغفرا .

إن تكن نالتـك بالضـرب يدى وأصــابتك بمــا لم أُرِدِ

فلقد كنتُ لعمرى فاديًا لك بالمــال وبعض الولدِ

ولئن ساءكِ يومٌ فاعلمى أن سيتلوهُ سرورٌ بغد —

هذه نظرةٌ عابرة ألقينا بها ضوءاً على شخصية الشاعر ، وستعيننا هذه النظرة العابرة على دراسة آثاره وإدراك ما فيها من آراء مُشمّة بالجمال ، ونختم حديثنا عن

حياته بعبارة جامعة لصفاته أوردها في الحديث عنه معاصره ابن حيان حيث سماه «فتى الآداب وعمدة الظرف ، والشاعر البديع الوصف والرصف ، أبا الوليد أحمد بن زيدون ذا الأبوة النبيهة بقرطبة ، والوسامة ، والدراية ، وحلاوة المنظوم ، والسلاطة ، وقوة العارضة ، والافتنان في المعرفة » .

والآن حان لنا أن نلقى نظرة نقـــدية فاحصة على ما خلفه الشاعـــر من آثار .



آثاره الأدبية

فنونه الشعرية

في عصر ملوك الطوائف ظهر في الصياغة الشعرية تياران قويان أحدهما منهجي Classic يتمسك بالأساليب المرونة والتقاليد الأدبية المطروقة التي توارثها الشعراء جيلاً بعد جيل منذ العصر الجاهلي ، والتجديد فيه مقصور على المعاني الفكرية والخطرات النفسية وتصور المظاهر الحضارية التي لم يكن للعرب بها عهد من قبل ، والتيار الثاني إبداعي Romantic يحاول التحرر من الأوضاع والتقاليد المأثورة ، وقد نجح في التحرر من قيود الأوزان القديمة والقافية الملتزمة في فن الموشحات ، كما حاول الانفلات من قيود الفصحى والإعراب في فن الأزجال ، وشاعرنا ينتمي إلى المذهب الأول ، فقد التزم الأوزان العربية المألوفة ، كما التزم القافية إلا في قصيدتيه المخمستين فقد تحرر فيهما بعض التحرر .

ولقد مرت حياته الفنية في ثلاثة أطوار : أولها كان تقليديا محضا امتد إلى الثلاثين من عمره ، ولم يبق من شعره في هذه الفترة إلا آثار قليلة ، والطور الثاني وهو أخصب فترة في حياته الفنية امتد من الثلاثين إلى الخمسين ، وفيه دبج الشاعر أعظم آثاره . وظهرت شخصيته الفنية قوية طاغية ، ولا عجب : ففي هذه الفترة ذاق حلاوة الحب ثم تجرع مرارة الهجر ، وفيها ارتفع إلى أسمى المناصب ثم انحدر إلى قرارة السجن ، وفيها نعم بالأمن والسعادة في ربوع وطنه العزيز ثم شقي بلوعة التشرد والاغتراب ، وظهرت هذه الألوان جميعها في فنه فملأ القلوب وبهرت العقول ؛ وفي هذه الفترة صاغ جميع رسائله الباقية بين أيدينا كما صاغ أبدع القصائد والمقطعات . أما الطور الثالث فقد امتد من الخمسين حتى نهاية

حياته ، وكان فيهـا شيخا يراعي في إنتاجه الأدبي المقتضيات السياسية والواجبات الرسمية ، وقد اختفت شخصيته خلف أعباء منصبه ، وتوارت عاطفته وراء حسن صياغته التي بالغ فيها ليعوض ماينقص فنه من حرارة الوجدان .

وفي هذا الطور الأخير نلاحظ عليه ظاهرة غريبة هي ظاهرة التكرار فقد نقل من قصيدته في مدح ابن جهور ورثاء أمه عشرين بيتاً إلى قصيدته في مدح المعتمد ورثاء أبيه دون تغيير إلا في بعض الأبيات التي اقتضته التفرقه بين ضميرى الذكر والمؤنث ؛ وتراه في قصائد أخرى يكرر بعض الأبيات مع تغيير قافيتها فقط ، وقد أشار إلى هذا ابن بسام بقوله إنه تلاعب في قصيدتي التهنئة والرثاء « تلاعب الحطيئة بنسبه ، وتصرف تصرف أبي حنيفة في مذهبه ، فأنث وذكر ، وقدّم وأخّر ؛ قال أبو العلاء :

ربّ لحد قد صار لحداً مرارا

ضاحك من تزاحم الأضداد »

ولعل مبعث هذا كرة أو إيثار الراحة أو العجلة هي التي حدت الشاعر إلى هذا التصرف الغريب ، وربما كان يحاول أن يسلب بني جهور خير ماصاغه فيهم بعد أن فترت بينه وبينهم الصلات ، ثم يخلعه على بني عباد بعد أن طاب عيشه في ظلالهم ، وزكت أحواله في كنفهم ، وسمد لديهم بأرقى المناصب ، ونال أشهى الأمنيات .

في الغزل :

يستغرق هذا الفن من ديوان الشاعر الثلث تقريبا سواء كان غزلا تقليديا في مقدمة المدائح أم غزلا مستقلا مقصودا لذاته ، وهي نسبة عالية لانكاد نجد لها مثيلا عند غيره من الشعراء إلا المنقطعين للغزل وحده مثل عمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر والعباس بن الأحنف ، وقد تحدثنا في ترجمة الشاعر عن

الحب الذى ألهب عواطفه وأثر فى حياته كل التأثير ، وشاعرنا ينفس فى غزله عن حبه ، ويبث فيه عواطفه الحارة ، ويطلق لوجدانه المنان ، ولو كبتَ فى نفسه هذه العواطف الجياشة لوقع فريسة للمرض أو الجنون ، ولهذا كان غزله يعبر تعبيرا صادقا عن خلجات نفسه وومضات حسه ونفثات غرامه المشبوب ، فإذا نعم بلقاء حبيبه صور لنا هذا النعيم :

كم بات يدرى ليـــله الغربيبا — لمـــا انثنى فى سكره قضيبـــا

تشدو حمـــام حليه تطـــريبا — هصرتُه حلو الجنى رطيبـــا

أرشف منه المبسم الشنيبا

وإذا شقى بصده ودلاله هتف به :

أجدُ ، ومن أهواه فى الحب عابث — وأوفى له بالعهـــد إذ هو ناكثُ

تغيرتَ عن عهدى ، وما زلت واثقا — بعهداكَ ، لكن غيّرتكَ الحوادث

وإذا يئس من وفائه وصلى بغدره صاح به :

يامستخفًا بعـــاشقيه — ومستغشًّا لنـــاصحيه

ومن أطاع الوشاة فينا — حتى أطاعنَا السلوُّ فيه

الحمـــد لله إذ أرانى — تكذيبَ ما كنتَ تدّعيه

وإذا غلبه الحنين عاد إليه ضارعا مستغفرا :

يابائعا حظَّه منىّ ، ولو بُذِلَتْ — لىَ الحيـــاةُ بحظى منه لم أبع

به أحتملْ ، واستطلْ أصبرْ ، وعزَّ أهُنْ
وَوَلِّ أُقْبِلْ ، وقُلْ أَسمعْ ، ومرْ أُطِعْ

ويطالعنا الشاعر أحيانا بنفحات من الغزل العذرى فيقول :

لم أنسَ إذْ باتتْ بدى ليلةً وشاحه اللاصِقَ دون الوشاحْ
ألـمَسْتُ بالألطافِ منـــه ، ولم أجنحْ إلى مافيه بعض الجُنـــاحْ

ويقول :

وَربَّ ظلامِ ليلٍ جنَّ فوق قُبُلتِ عن المســاحِ إلى الصباحِ
فهــل عدَتْ العفافَ هناكَ نفسى فديتُــك أو جنحتُ إلى الجنـــاحِ

ولـكن هذه المعانى العذرية العفيفة لاتمـــدو خطرات شعرية عابرة ، أما معظم غزلهِ الحسّىّ مادىٌّ فقدكان ينظر إلى المرأة نظرة الشهوة الحسية لاالمتعة الذهنية ؛ استمعْ لوصفه لأحدى لياليه التى بات فيها كايقول «يجنى أقحوان الثغور ويقطف رمان الصدور » وأصغِ لوصفه لليلة أخرى :

زارنى بعد هجعة ، والثريا راحة تقــدر الظلام بشبر
فرشفتُ الرضابَ أعذبَ رشفٍ وهصرت القضيب ألطف هصر
ونعمنـــا بلفِّ جسم بجسم للتصافق ، وقرع ثغر بثغر
بالهـــا ليلة تجلى دجاهـــا من سنا وجنتيه عن ضوء فجر
قصر الوصلُ عمرها ، وبودى أن يطول القصير منها بعمرى

وفى أمثال هذه الليالى يقول :

لياليَ نامتْ عيــونُ الوشا
ةِ عنَّا ، وعــينُ الرضا لم تَنَمْ
ومالتْ علينا غصــونُ الهوى
فأجنتْ ثمــارَ المُنَى من أَمَمْ
وأيامُنــا مُذْهباتُ البرودِ
رقاق الحواشي سواق الأدم

فالشاعر مندفع بفطرته إلى الاستمتاع بالحياة، والإقبال على اللذات، فلا تبدو العفة فى ثنايا شعره إلا حين ييأس من اللقاء أو يتقى الشبهات ، وحينئذ يهتف بمثل هذه الأبيات :

لئن فاتنى منك حظُّ النظــر لأكتفــيَنْ بسماع الخــبرْ
وإن عــرضتْ غفــلةٌ للرقيب فحسبيَ تسليمــةٌ تُختصرْ
أحاذر أن تتظنى الوشــاةُ وقد يستدامُ الهوى بالحــذر
وأصــبر مستيقنــاً أنه سيحظى بنيل المنى من صبر

وهناك نوعٌ من الغزل عند شاعرنا نستطيع أن نسميه (غزل المكايدة والعناد) وهو يصوغه حينما يدركه اليأس ، ويلمه انصراف حبيبه عنه إلى خصمه فيصفه بأنه :

أكلَ شهىٌّ أصبنا من أطايبه بعضا ، وبعضا صفحنا عنه للفار

ثم يعلن أنه استجدَّ حباً جديداً أنساه حبه القديم :

عاودتْ ذكرَ الهوى من بعــد نسيان
واستحدثَ القلبُ شوقاً بعــد سُلوانِ
من حبِّ جاريةٍ يبــدو بها صَنَمٌ
من اللجين عليه تاجُ عِقْيان

لأستجِـدَنْ فى عشق لها زمنـا
يُنسِى سـوالفَ أيامى وأزمـانى
حتى نـكونَ لمن أحبَبْتُ خاتمـةً
نسخْتُ فى حُبِّها كـفرا بإيمانِ

ثم يرسـل إلى حبيبه من ينبئه أنه استبدل به خيراً منه وأنه سعيد بهـذا التغيير والتبديل :

وأشعِرهُ أنى انتخبتُ البـديلَ
وأعلِمُهُ أنىَ استَجدتُ العِوَضْ
فـلا مَشرَبى لقِـلاهُ أمرّ
ولا مضجعى لنـواه أقضْ
وأنّ يـدَ البين مشـكورةٌ
لمـا رأماط وَوَسم رحـض

وإذا كان الحبُّ العنيف يرتكز على بعض الغرائز التى ردّها علماء النفس إلى بضع عشرة غريزة فأننا نجد الحب عند شاعرنا يرتكز على هـذه الغرائز جميعها فتبدو غريزة الضحك وغريزة القاتلة فى رسالته الهزلية ، وتبـدو غريزة الخنوع فى قوله :

لم تبق جارحةٌ بالهجر من جسـدى
إلا خلعْت عليها بالضّنى حُلَـلا
فليغْنِ كفَّكِ أنى بعضُ من ملكتْ
وليكف طرفَكِ أنى بعضُ من قَتَـلا

وتبدو غريزة السيطرة فى حرصه على أن يفرض سلطانه على حبيبته ويبعد عنها منافسه فينذره :

أعِد نظراً فإنَّ البنىَ مِمَّا لم يَزَلْ بصرَعْ

ولأنكَ مِنكَ تلكَ الدارُ بالمرأى ولا المسمعْ

فإن قُصاركَ الدهليزُ حيثُ سواكَ في المضجعْ

ولا مجال هنا لتتبع النزعات جميعها في شعره فقد استقصيناها في كتابنا عنه فليرجع إليه من يشاء .

ومع أن النزعات هي المنابع الأولى للطاقة البشرية ، أو هي منشأ العواطف فإنها لا يمكن أن تستقل وحدها بتكوين عاطفة سامية ؛ فالنزعات تتساند فتكون عاطفة فردية مادية ، فإذا سمتْ هذه العاطفة تحولت إلى جماعية معنوية ، فإذا ازدادتْ سمواً أصبحتْ عالية مثالية ، كما تتحلى في الأنبياء وأعلام المصلحين وعباقرة الفنانين ، وفي هذا يقول غوته « عندما يتحرك الحب الإنساني ويسرع الخطا تنفتح بذرة الحب الألهي » :

وعاطفة شاعرنا امتدت من المرحلة الفردية المادية إلى المرحلة الجماعية المعنوية ، فكثيراً ما يهتف بوطنه ، ويحن إلى قومه ، ويناجيهم بعد اغترابه في لوعة وحنين :

يضيق بأنواع الصبابة مذهبي

إلى كل رحب الصدر منكمْ مُهذَّبِ

معمّض لألاء الأسارير مُذهب

ينافس منه البدرُ غُرةَ كوكبِ

درى أنها أبهى سناءً وأصوأ

وكثيراً ما هتف بأيامه ولياليه معهم في لهفة واشتياق :

أين أيامُنا ؟ وأين الليالي

كرياض لبسْنَ أفوافَ زهرِ ؟

وزمـــان كأنّما دبَّ فيـــه وَسَنٌ ، أوهفا به فرطُ سُكْر
حين نندو إلى جداولَ زُرْقٍ يتغلغلْن فى حدائقَ خُضْرِ
فى فُتُوٍّ توشّحوا بالمعـــالى وتردَّوْا بكل مجـــدٍ وفخْرْ
وُضُحٍ تَنْجلى الغياهبُ منهم
عن وجـــوه مثل المصابيح غر
وســجايا كأنهنَّ كئوسٌ
أو رياضٌ قد جادها صوبُ قَطْرِ

بين الطبيعة والحب :

طبيعة الأندلس ساحرة خلابة ، وقد صادفتْ من شاعرنا إحساساً مشبوباً ، وقلباً متفتحاً ، وموهبة مواتية ، فافتتن بها أى افتتان ، وزاد فى ولعه بها أنها ارتبطتْ بذكريات حبيبته أوثق ارتباط ، فكم مال معها كما يحدثنا هو :

« إلى روض مدبج ، وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرّ الطل المنثور ، وجيب الراح مزرور . . . » وكم طوى معها أياماً فى جنبات القصر وشواطىء (البنتى) وبساتين وثنيات (العقاب) وقنوات العقيق :

سقى جنباتِ (القصرِ) صـــوبُ الغمائمِ
وغَنَّى على الأغصانِ وُرْقُ الحــمائمِ
بقرطبـــةَ الغراءِ دارِ الأكارمِ
بلادٌ بها عقَّ الشبابُ تمــائمى
ـــ وأنجبنى قومٌ هنــاكَ كرامُ
فـــكم لِيَ فيها من مَسَاءٍ وإصباح
بكل غزالٍ مشرقِ الوجه وضّاحِ

يُقَدِّمُ أفواهَ الكئوس بتُفّاح

إذا طلعتْ في راحه أنجمُ الراح

فإنّا لإعظام المدام قيامُ

ويوم لدَى (البُنْيَتِيِّ) في شاطىء النهر

تُدار علينا الراحُ في فتيه زُهرِ

وليس لنا فرشٌ سوى يانع الزهر

يدور بها عَذْبُ اللَّمَا أهيفُ الخصْرِ

بفيه من الثغر الشنيب نظامُ

ويوم بجوفيّ (الرصافة) مُبهجِ مررْنا بروض الأقحوانِ الدبَّجِ

وقابلنا فيه نسيمُ البنفسجِ ولاح لنا وردٌ كخدٍّ مُضرَّجِ

تراه أمام النَّوْرِ وهو إمامُ

واكرمْ بأيامِ (العُقَابِ) السوالف

ولهوٍ أزَرْناهُ بتلكَ المعاطفِ

بسود أثيث الشعر بيض السّوالف

إذا رقَلوا في وَشْيِ تلك الطارفِ

فليسَ على خَلْع العِذارِ مَلامُ

وكم مشهدٍ عند (العقيق) وجسره

قعدْنا على حمرِ النبات وصُفره

وظبيٍ يُسقِّينا سلافةَ خمره

حكى جسدي في السُّقمِ رِقَّةَ خصْره

لواحظُه عند الرنوّ سِهامُ

وهذه الروح شائعة عامة فى ثنايا غزله، وحسبنا أن نشير إلى قصيدته التى كتبها إلى حبيبته من الزهراء واستهلّها بقوله :

إنى ذكرتُك بالزهراء مُشتاقا
والأفقُ طلْقٌ ، ووجه الروض قد راقا

وللنسيم اعتلالٌ فى أصائله
كأنما رقّ لى فاعتلّ إشفاقا

والروضُ عن مائه الفضّى مبتسم
كما شققت عن اللّبّات أطواقا

وقد أعجب نيكلسون بهذه القصيدة الرائعة وضربها مثالا لتوضيح الشعور العميق بالطبيعة التى يتميز بها الشعر الأندلسى ، وهذا الشعور القوى بالطبيعة ممتزجة بالحب العنيف نجد له مشابه قوية عند الشعراء الغربيين ، ولهذا قرر بعض المستشرقين أن للأندلس أثرا قويا فى شعر الطبيعة الأوربى، وذكروا أن لابن زيدون تأثيرا واضحاً فى شعر الطبيعة الغربى الذى يربط بين الطبيعة والحب عند الوهويين.

ويكاد شاعرنا ينفرد بين شعراء العربية بأنه مزج حبه للطبيعة بحبه للمرأة ثم بحبه للوطن ثم بحبه لآله وعشيرته ، ولهذا نستطيع أن نطلق عليه (شاعر الحب والطبيعة) وهو بهذا اللقب جدير .

فن الإخوانيات :

وهو عند شاعرنا فن أصيل ، يكاد يسامى غزله فى الرقة والروعة والجلال ، وعاطفة الشاعر فيه عميقة جياشة توشك أن تستحيل إلى نسيب ، وهذا الفن يهدف عنده إلى أربعة أغراض :

١ — المطارحات : وهى المراسلات الشعرية بأن يكتب الشاعر أبياتاً أو يرد عليها من قافيتها ووزنها، وتتجلى فيها الرقة والعذوبة فضلا عن العاطفة القوية التى تذكرنا بحبه العاصف الغلاب وشغفه القوى بالجمال ، وبخاصة جمال الطبيعة الخلاّب .

ومن أمثلته ما أجاب به صديقه أبا عامر بن مسلمة من أبيات يرد بها على عتابه لتخلفه عن زيارته :

وهل أنسى لديكَ نعيم عيشٍ ... كَـوَشْيِ الخدِّ طُرِّزَ بالعِذارِ ؟
وساعات يجول اللهو فيهـا ... مجالَ الطلِّ فى حَدَقِ البَهار
وإن يكُ قرَّ عنك اليوم جسمى ... — فُديتَ — فما لقلبى من قرار

٢ـ الإهداء والاستهداء: وهو فى هذا النوع يصف الهدية ويسجلها المهدى أو المهدى — إليه ، ومن أمثلته قوله مع هدية عنب اسمه «عذارى» أهداها لجده وكتب معها :

اتاك محيياً على اعتمارًا ... عذارَى دُونه ريقُ العذارَى
تخال الشهد منه مستمدًا ... ونفحَ المسك منه مُستعارًا
ولولا أننى قد نِلْتُ منه ... ولمْ أسكر لخلت به عُقارا
بعثْتُ به ، ولو أهديتُ نفسى ... إليكَ لكان منْ برى اقتصارا
فأنعم بالقبول ، فَرُبَّ نُعْمَى ... أعدتَ بها دُجى ليلى نهـارا

٣ـ مجالس الأنس: وفيها تدور الطارحات الشعرية على نغمات الأوتار ورشفات العقار، وتغلب فيها الرقة والعذوبة ووصف المتع والنعيم؛ ومن أمثلتها قوله فى مجلس صديقه أبى عامر :

أدرْها فقد حَسُنَ المجلسُ ... وقد آن أن تُنْزعَ الأكؤسُ
ولا بأسَ إنْ كان وَلّى الربيعُ ... إذا لم تجدْ فقدَهُ الأنفسُ
فإنّ خلالَ أبى عامر ... بهـا يحضُرُ الوردُ والنرجسُ

٤ـ المناجاة: وتكاد تكون عنده ألصق بالنسيب منها بالإخوانيات ، ومن أمثلة مناجاته قصيدة خالدة صاغها فى مناجاة صديقه أبى القاسم بن رفق ،ولا نعرف شيئا عن هذا الصديق ، ونكاد نظنه اسماً مستعارا يكنى به الشاعر عن حبيبته

وهذه القصيدة السمهية : تعد فى نظرنا من أروع قصائد المناجاة فى الشعر العربى استهلّها الشاعر بغزل رقيق وصف فيه حبيبه :

هزّ منه الصّبا قوَامَ شطرا
وتجافى عن الوشاح بشطر

كُسىَ الحسنَ فهو يفتنُّ فيه
ساحبًا ذيلَ بُرده المُتْبَكِّر

أبرز الجيدَ فى غلائلَ بيض
وجلا الخدَّ فى مجاسدَ حُمْر

وتثنّى بمعطفه إذ تهادى
خطرةً تمزج الدلالَ بكبر

ثم انتقل إلى وصف الدهر وكيف فرّق بينه وبين أبى القاسم صديقه الوافى الرقيق :

وترتنى خطوبُه فى سنىٍّ
فاضلٍ نابهٍ من الدهر وتْر

بان عنى ، وكان روضةَ عينى
فغدا اليوم وهو روضةُ فكرى

فكم بهيّجُ الخليلَ بوجه
تردُ العينُ منه ينبوعَ بِشْر

وإذا غازلتْه مُقْلةُ طرفٍ
كاد من رقة يذوب فيجرى

ثم أخذ يناجيه مناجاة تسيل رقة وعذوبة :

يا أبا القاسم الذى كان ردئى
وظهيرى على الزّمان وذُخرى

هل لخالى زماننا من رجوع؟
أم لماضى زماننا من مكرٍّ ؟

أين أيامنا ؟ وأين ليالٍ
كرياض لبسْنَ أفوافَ زهرٍ؟

بقية الفنون :

أما بقية فنون الشاعر فهي صورة من الذوق الشائع في عصره ، ولا نرى داعيا للحديث عنها ؛ فإنه لا يكاد يمتاز فيها عن غيره من الشعراء ؛ ولكن هناك فنّاً غريبا ظهر عنده وسمّاه الطيرات وهو مطارحات شعرية دارت بينه وبين المعتمد بن عباد ثم بينه وبين أبي طالب محمـــد بن مكي ؛ ولم نضمه إلى فن الإخوانيات لأنه قائم على الألغاز والأحاجي التي تدور حول الطيور ؛ وهو أشبه بالنظم العلمي منه بالفن الشعري ؛ ولهذا مات بموت ابن زيدون .



فنونه النثرية

تمهيد :

يشبه نثر ابن زيدون شعره فى صياغته وموسيقاه ، وقد تنبه القدماء إلى هذا فوصف ابن بسام رسائل الشاعر بأنها « بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور » وقد كان أسلوب الكتابة السائد فى عصره هو الأسلوب الزخرف الوشى بالصور البيانية والمحسنات البديعية ، وهو انعكاس لحالة العصر الحافل بأسباب الترف والنعيم ، وقد تجلى هذا فى الأدب كما تجلى فى فنون العمارة وفى الطرز الزخرفية والفنون التطبيقية Minor Arts ، وقد نشأت الكتابة الزخرفية بالشرق ، واستقرت أوضاعها على يدى ابن العميد ، ثم انتشرت عن طريقه وطريق تلاميذه بالشرق ، وانتقلت إلى الأندلس فصادفت هوى فى النفوس وافتتانا من القراء ، ومدرسة ابن العميد تعتمد على الكلام المرصع المصقول المزين بالمقتبسات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار المأثورة والحكم المشهورة والأمثال المضروبة ، مع التزام السجع فى الأغلب الأعم والشغف بالمحسنات البديعية والصور البيانية ، ولقد جرى ابن زيدون على طبيعة عصره ولكن بقدر محدود ، فلم يلتزم السجع فى جميع ما كتب ولم يبالغ فى استعمال المحسنات البديعية ، فسلمت آثاره من التكلف البغيض ، ولكنه أفرط فى الاقتباس من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف ، وبالغ فى الاستشهاد بالأبيات الشعرية أو شطورها دون إشارة إلى قائليها ، ولهج بضرب الأمثال المعروفة والاستئناس بالحكم المأثورة ، وغلى فى سرد الأسماء والأحداث التاريخية مغالاة جاوزت القصد فى رسالتيه الهزلية والجدية ، وأولع بالجمل المترادفة ، ولعل هذا راجع إلى وفرة ماوعته ذاكرته من أساليب الكلام .

والكتاب فى الأدب العربى طائفتان متمايزتان أولاها طبقة الكتّاب الباحثين الذين تتسع ثقافاتهم وتدق أفكارهم فيعالجون مشكلات الحياة العامة

المحيطة بهم ناقدين وموجهين وقائدين ، وهم قليلون وبخاصة فى الأدب العربى القديم ، ومن أشهرهم الجاحظ وأبو حيان بالمشرق ، وابن حزم بالأندلس ، وابن خلدون بالمغرب ؛ ولكل منهم أثره الخالد فى عصره وما تلاه من عصور ، والطائفة الثانية طائفة الكتاب المنشئين الذين تنصرف مواهبهم إلى إتقان وسائل التعبير وصياغة الأساليب اللفظية والمعنوية ، وعنايتهم بالصور فوق عنايتهم بالأفكار ، وهم كثيرون فى الأدب العربى ، ولا نستطيع أن نعتبر ابن زيدون من الطائفة الأولى ، وإنما نستطيع أن نعده فى الرعيل الأول من الطائفة الثانية ، وهى طائفة لها جهدها المشكور فى التلوين والتصوير .

ولم تبق لدينا من آثار ابن زيدون الكتابية إلا طائفة قليلة من رسائله الأدبية ، وسطور من كتابه فى تاريخ بنى أمية ، ومقطوعة وصفية ، ونظرة نقدية ؛ أما رسائله السياسية فقد ضاعت جميعها ، مع أنه قضى أكثر من عشر سنوات يشغل منصب الكاتب الأول للمعتضد ، وصدرت عنه رسائل قوية جابت أنحاء الأندلس ولفتت إليـــه الأنظار كما يحدثنا ابن بسام ، وسنتناول هذه الآثار بالدراسة الوجيزة بحسب ترتيبها الزمنى .

الرسالة الهزلية :

كتبها ابن زيدون على لسان ولادة إلى ابن عبدوس حينما بلغه أنه أرسل إليها امرأة تستميلها إليه ، وقد أوسعه فيها تهكما وأشبعه سخرية ، وخلع عليه ثيابا فضفاضة من الكمال لا يمكن أن تتسق معه لأنه يظهر فيها قزما ضئيلا يثير الاستهزاء .

والدارس لهذه الرسالة يرى ابن زيدون متأثرا فيها برسالة التربيع والتدوير التى صاغها الجاحظ فى السخرية من أحمد بن عبد الوهاب الكاتب البغدادى ، كما أن فيها ملامح من رسالة أبى حيان فى ثلب الوزيرين ؛ والأغراض التى قصدها ابن زيدون فى رسالته محدودة ، ولكنه أسهب فيها إسهابا مملا فى ذكر الأسماء والحوادث التاريخية بمناسبة وبغير مناسبة حتى جاوزت السبعين اسما ، خلط فيها

مشاهير العرب بالعجم ، والقدماء بالمحدثين ، والمعروفين بالمجهولين ، ونابغي فن بنابغي فن آخر ، وبعض هذه الأسماء وهمية ، وبعضها رَمزَ إليه ولم يذكره ، وبعضها مجهول غير مُحدّد ، ولم يكتف بهذا بل أكثر في رسالته من الاقتباس والتضمين ، حتى كادت شخصيته تختفي وراء ما استجلبه من أساليب غيره وبالغ في استعمال المترادفات مبالغة خرجت عن المألوف .

وأقذع في بعض عباراتها ، واندفع في هجومه فمس حبيبته مسًّا عنيفا بحيث أظهرها في صورة البغيّ الهلوك دون مبرر لهذا الهجوم ، وجنى من وراء هذا انصرافها عنه إلى غيره وضيقها وهجاءها إياه ؛ وفي بعض عبارات الرسالة غموض مثل قوله « وفصل بين الاسم والمسمى ، وصرف وقسّم ، وعدل وقوّم ، وصنّف الأسماء والأفعال » حتى إن ابن نباته شارح الرسالة لم يعرف المقصود من قوله « وصرف وقسم وعدل وقوم » ملجأ إلى العلماء يستفتيهم ففسروها له تفسيرا فقهيًّا غير مقنع ونحاسة لوقوعها بين اصطلاحين نحويين .

ولكن الرسالة على الرغم من هذه المآخذ تعتبر في مقدمة الرسائل الخالدة في الأدب العربي ، لأن أسلوبها التهكمي مثير للضحك من جوانب عديدة قلما اجتمعت في رسالة إلا في رسالتي الجاحظ وأبي حيان ؛ وقد عمد ابن زيدون في رسالته إلى طريقة المقابلات وأسلوب المفارقات فمرضه خير عرض وصوره أبدع تصوير ؛ فقد رسم ابن عبدوس قزما ضئيلا تافها ثم خلع عليه حُلَلاً فضفاضة من حلل الجمال والروعة والبهاء ، فتعثر في هذه الثياب ، ثم خلعها عنه بغتة ، وأظهر عوراته ومعايبه مجسمة ، وبالغ فيها مبالغة ساخرة جعلته يبدو في صورة أشبه بما نسميه في عصرنا Caricature فالكاتب يرفعه ثم يخفضه ، ويقدمه ثم يؤخره ، ويدلله ثم يزجره : ولا يتركه إلا بعد أن تخور قواه .

ولقد استطاع الكاتب على الرغم من كثرة اقتباسه وتضمينه أن يوائم بين هذه العبارات المستجلبة موائمة جعلها تبدو من نسيج واحد متلائم الأطراف متوائم الألوان متلاحم في نسق منضود ، حتى يظنها من لا يعرفها أنها جميعها من صياغة الكاتب وحده لما يبدو عليها من اتحاد واتساق .

والرسالة تحمل مع هذا عواطف قوية عنيفة من حب وبغض وغيرة وحقد ، وهى بقوتها تثير فى السامع والقارىء عواطف مماثلة تدعو إلى المشاركة الوجدانية وهذا أعظم مايهدف إليه الكتاب .

والرسالة تدل على ثقافة واسعة واطلاع شامل على جميع المعارف والفنون والعلوم الشائعة فى عصر المؤلف ، وفيها خيال خصب استطاع أن يضم حوادث متفرقة وألوانا متباينة ويؤلف بينها أبدع تأليف ، وقد نجحت الرسالة فى بلوغ هدفها المنشود ، فإن ابن عبدوس انقطع عن زيارة ولادة عدة سنوات حتى هجر ابن زيدون قرطبة وحلا له الجو فعاد إليها لتجديد ماينهما من صلات ، ومن الغريب أن الشاعر كتبها فى حالة شبيهة بالارتجال .

الرسالة الجدية :

كتبها الشاعر فى أخريات أيام سجنه مستعطفا فيها أميره أبا الحزم آملاً أن يثير فى نفسه عوامل الحنان ، مذكرا إياه بخدماته السابقة فى تأسيس ملكه وقصائده السابقة فى الإشادة بذكره ، وقد أفرغ الكاتب فى هذه الرسالة جهده وأودعها أقوى وسائله فى التأثير ، وشفعها بقصيدة عاطفية ضارعة مؤملا أن تنفذ إلى قلب الأمير .

ونستطيع أن نأخذ على هذه الرسالة ما أخذناه على الرسالة السابقة من حشد الأسماء والأحداث ، والمبالغة فى الاقتباس والتضمين وكثرة الترادفات ؛ كما نأخذ عليها أن فيها كثيرا من الإدلال على الأمير بما يشبه المن عليه ، وهو أسلوب غير موفق فى مخاطبة الحكام ، كما نأخذ عليها أن فيها تهديدا باللجوء إلى خصوم الأمير من ملوك الطوائف المجاورين . كما أن فيها ضربا خفيًّا من التأنيب ، وإن كان يسوغ هذا كله فى أساليب لينة وعبارات رقيقة ؛ والكاتب على تمكنه من دراسة الأحداث التاريخية وقع فى بعض الأخطاء مثل قوله « وتأولتُ فى بيعة العقبة » ولم يتأول فيها أحد؛ وقوله « وتخلفتُ عن الصلاة فى بنى قريظة » وليس هذا من الذنوب . وقوله « وكتبت إلى عمر بن سعد أن جعجع بالحسين » والمكتوب

إليه هو الحر بن زيد التميمى لاعمرين سعد ؛ على أن للكاتب بعض العذر فقد كتب رسالته فى السجن وليس بين يديه مراجع تاريخية فضلا عن أنه كتبها وهو فى حالة نفسية سيئة ؛ ومما نأخذ به أنه كان عليه أن يضرب الأمثال بأولى الحلم والعفو عند المقدرة من عظماء الرجال بدلا من أن يضربه بكبار المذنبين أو المجرمين .

وعلى الرغم من هذه المآخذ فإننا نرى الرساله تنبض بعواطف قوية عنيفة تثير كوامن الأشجان ؛ وهى إلى جانب عواطفها القوية تنبض : بالأفكار المنطقية وإن كانت أقيستها مستمدة من الوجدان . ولقد تنوعت معانيها وتعددت أساليبها بين غيبة وخطاب وضرب أمثال واستشهاد بمأثور ، وترجحت بين الضراعة والاعتذار ، واليأس والرجاء ، والتقرب والتلميح بالإيماد ، فى عبارات جزله منتقاة ومعان نابضة بالحياة ، وانتقاله بين هذه الخواطر انتقال طبيعى لا فجوات فيه ؛ بل هو سلسلة مترابطة الحلقات فى تناسق واطراد .

وهى — بالنسبة إلى الرساله الهزلية — أقل استطرادا وأنزر سجعـــــا وأبعد ما تكون عن الإملال . وهى بهذا أقرب إلى الطبع وأبعد عن التكلف ؛ ونلاحظ أن الشاعر استعمل فيها ظلالا من التلميحات أكسبتها حيوية طبيعية ، ففيها تصريح وتلميح ، واستكانة ووعيد ، وبهذا كانت حافلة بشتى الصور والألوان . وكلتا الرسالتين تعتبر دائرة معارف مصغرة ، وتصلح نواة لدراسات متنوعة . ولهذا عنى بهما الشراح ، وأفتنوا فى التعليق عليهما ؛ وأشهر من شرح الرسالة الهزلية ابن نباته الشاعر المعروف فى كتاب سماه سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ؛ وأشهر من شرح الرسالة الجدية صلاح الدين الصفدى الكاتب الشاعر المشهور فى كتاب سماه تمام المتون إلى شرح رسالة ابن زيدون . —

رسالة استعطاف :

كتبها الشاعر بعد فراره من سجنه ، وبعد أن عاد من إشبيلية إلى قرطبة مستخفيا بالزهراء ، ينشد الأمان ويتخذ له الوسائل والشفاعات ؛ وقد أرسل هذه الرسالة إلى أستاذه أبى بكر مسلم بن أحمد وشفعها بقصيدة ضارعة يصور فيها

حالته النفسية ، ويتوسّل به إليه مستشفعا به عند الأمير . وهذه الرسالة أقوى رسائله جميعاً من الناحية الفنية .

وهي إلى هذا أطول أثر مني بقي لديناممن نثره مع أنها لم تصل إلينا كاملة ، وقد تخلّص الكاتب في رسالته هذه من الاستشهاد بالأسماء والأحداث التاريخية وتحلل من قيود السجع إلا في القليل النادر ، أما ضربه للأمثال واستشهاده بالأشعار ، فهي هنا أحكم وألصق بمواضعها من كل أثر سابق ، وفي هذه الرسالة أسلم الكاتب نفسه لعواطفه دون تعمل أو تكلف وصوّر كل ما ينبض به قلبه أو عقله من مشاعر أو أفكار . والرسالة على قوتها الفنية لم تنل من عناية الباحثين ما نالته الرسالتان الأوليان لأنهما لفتتا العلماء، والشارحين لما تحويانه من معارف وفنون .

وهذه الرسالة تلقي ضوءاً على ما قاساه الشاعر في سجنه من إعنات وتصوّر لنا ما اتبع في محاكمته من إجراءات شاذة ، وفيها منطق قوي غلاب وعاطفة مشبوبة ، وهي إلى هذا وثيقة تاريخية قيمة تلقي ضوءاً على النظم القضائية السائدة في عصره ، وتعتبر آية من آيات دفاع المرء عن نفسه وتصلح أن تكون فصلاً هاما من فصول تاريخ المحاماة .

وقد تجلت قوة الشـــاعر وطاقته الفنية في صياغتها فهو فيها فيلسوف منطقي وعالم فقيه وكاتب موهوب وشاعر عاطفي ومحام مدره، فجاءت رائعة الأداء قوية التأثير . وقد نجحت هذه الرسالة في بلوغ هدفها المنشود ، وبخاصة بعد أن تضافرت جهود أستاذ الشاعر مع جهود ولي العهد في استعطاف الأمير .

بقية الرسائل

حفظت لنا الذخيرة ثلاث رسائل موجزة صاغها الشاعر في التودد إلى المتعضد بن عباد ومفاوضته في الرحيل إليه من قرطبة ؛ وجّه الأولى منهما إلى صديقه أبي عامر بن مسلمة وسيطه لدى المتعضد، ووجّه الثانية والثالثة إلى المعضد نفسه، والشاعر في هذه الرسائل يعرض مواهبه على الأمير، ويستدر عطفه ومودته ويسبغ عليه حلل الثناء ، في عبارات موجزة قوية السبك جزلة الرصف بعيدة عن

التكلف أو الاستطراد ، وقد نجحت هذه الرسائل فى توثيق صلاته بالأمير فماش فى كنفه بقية حياته متمتعاً بأكرم محل وأقوى سلطان .

النثر الوصفى

بقيت لدينا مقطوعة وصفية صاغها الكاتب فى تصوير ليلة طواها فى صحبة ولّادة ذاق فيها أفاويق السعادة والنعيم ، ثم أتمها بتصوير موقف مناضبة وعناد ، ويظهر من سياق الوصف أنه صوّر موقفين متنافرين أو ليلتين مختلفتين : أولاهما سعيدة حافلة بالمتع واللذات ، وثانيتهما حافلة بالنيرة والغضب واللاحاة .

وقد صاغ الكاتب هذه المقطوعة استجابة لهواه الغلاب ؛ فكانت تعبيراتها أقرب إلى الشعر منها إلى النثر ، بل إنه كان ينفلت من النثر أحياناً فتتدفق عواطفه منظومة شعرا ؛ والتنغيم الموسيقى شائع فيها جميعها سواء فى عباراتها المنثورة أو أبياتها المنظومة ، وقد التزم الكاتب فى وصفه الفقرات المسجوعة ، وحشد فيها ظلالا من الاستعارات والتشبيهات ، ورصّعها بالمحسنات البديعية ، ومزج فيها بين وصف الطبيعة ووصف الحبيبة فتجلّت فى نثره خصائص شعره فى النسيب ، ويظهر من عباراتها أن الشاعر كتبها فى كهولته ليصوّر فيها ذكريات عزيزة على نفسه ، وليسترجع بها صور الشباب ، على أننا نأخذ عليه فيها أنه تكلف كثيراً فى صياغتها حتى كادت الزخارف اللفظية تطغى على عاطفته الشبوبة وهواه الغلاب

النثر النقدى :

حفظ لنا المقرى نصاً نقدياً لابن زيدون ، وكانت ولّادة قد حتته على أن يبدى لها ما يجد عليها فيه نقداً ، ثم كتبت إليه أبياتاً ختمتها بقولها .

سقى الله أرضاً قد غدت لكَ منزلا

بكل سَكوبٍ هاطِلِ الوَدقِ مُغدِقِ

فنبهها إلى أن هذا أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له ، وأن القدماء نقدو اذا الرمة فى قوله :

ألا يا اسلمي يا دارى على البلا ولازال منهلاً بجرعائك القطرُ

مع أنه قدّم الدعاء بالسلامة ، وأن المستحسن قول الآخر :

فسقى ديارك — غير مفسدها — صوبُ الربيع وديمةٌ تهمى

وابن زيدون هنا متبع لا مبتكر ، وقد أورد العسكرى فى كتابه الصناعتين هذا النقد ، ولكن الشاعر يود أن يبرز سمة معلوماته أمام حبيبته ، وأن يقف منها موقف الأستاذ ، وقد أشفق من إغضابها فقدّم بين يدى نقده اعتذاراً رقيقاً .

وأبياتٍ ولادة فى جملتها لا تحتمل النقد لما فيها من تهافت واختلال .

وإذا أردنا أن نتلمس آراء ابن زيدون فى النقد الأدبى فإننا نجد فى شعره نظرات نقدية سديدة ، فالشعر العذب لا ينبعث إلاّ عن فطرة خصبة موهوبة بعيدة عن التكلف والافتعال ؛ فخير لمن تعوزه هذه الموهبة أن ينصرف عن الشعر فيريح ويستريح .

ما الشعر إلاّ لمن قريحته غريضة النَّوْرِ غضّةُ الثمرِ

تبسم عن كلّ زاهرٍ أرج مثل الكمائم ابتسمن عن زَهَرِ

وخير الشعر عنده ما وضحت معانيه ورقّت ألفاظه بحيث يتلقفه الخاطر بلا كد ولا عناء .

هوى إليه طرباً خاطرى كما تلقّى الوصلَ مهجورُ

تشفُّ عن معناه ألفاظُه كما وشى بالرّاحِ بلورُ

وينبغى فى صياغته أن تكون الألفاظ متجانسة متقاربة تسرى فيها روح واحدة وتحمل تنغيماً موسيقياً متجانساً ، فلا تختلط فيها القوة بالرقة ولا تصطدم البسطة بالانقباض .

من لفظة قارنت نظيرتها قرانَ سَقْمِ الجفون للحَوَرِ

وأعذب الشعر عنده هو السهل الممتنع :

دَلَّهَت فِكْرِىَ من إبداعه حَيْرةٌ فى منطق له مُخْرِس

رِبتُ منه بين سهل مُطمِع خادع يُخْلَى بحَزْنٍ مُونس

ومن سمات الشعر الجيد أنه ينفذ من السمع إلى القلب مباشرة فى سياق مطرد منضود .

غُرَرٌ من بدائع لا يُشكُّ الد هرَ فى أنها قلائد دُرٌّ

تتوالى على النفوس دِراكاً عن فتى مُوسِر من الطبع مُثْرى

النثر التاريخى :

يتجلى شغف الشاعر بالتاريخ فى آثاره الشعرية والنثرية ، ويحدثنا المقرى أنه ألف كتاباً جامعاً فى تاريخ بنى أمية بالأندلس سماه التبيين ، وقد ضاع هذا الكتاب كما ضاعت معظم رسائل الشاعر وطائفة كبيرة من شعره ، ولكن بقيت من هذا الكتاب بضعة سطور رواها المقرى أثناء حديثه عن عبد الرحمن الداخل ومن التأمل فى هذه السطور نلاحظ أن الشاعر التزم فى كتابة تاريخه الإيجاز مع إيضاح ما يحتاج إلى الإيضاح ، وأسلوبه سهلٌ واضح دقيق خال من السجع والمحسنات ،مع أن معاصره ابن حيان كان يسجع فى كتابة التاريخ ؛ وابن زيدون حريص فى كتابه على ذكر الصفات الجسمية وتتبع البواعث النفسية ومحاولة تعليلها ، مما يجعل لكتابه قيمة عظيمة فى نظر المؤرخين

— أسلوبه الفنى

تمهيد :

يقول بوفون Bufon إن الأسلوب هو الرجل نفسه ، وهو تعبير صائب ؛ فلكل منا أسلوبه فى حياته الخاصة أو العامة ، وفى علاقاته بالمجتمع ، ومقابلته

لمشكلات الحياة ، وطرق تفكيره ومزاجه وانفعالاته . . . كما أن لكل فنان أسلوبه الذاتى المعبر عن شخصيته القوية ومواهبه الخلاقة ؛ ولهذا كان واجباً على كل ناقد أو دارس أن يتعرف على خصائص الأسلوب المميزة لمن يتناوله من الكتاب أو الشعراء . وسنحاول أن ندرس عناصر الأسلوب عند شاعرنا بإيجاز :

الفكرة : Thought

يستمد شاعرنا أفكاره من موردين هامين : أولها دراساته الثقافية الأدبية الواسعة لماورف عصره وما سبقه من عصور ؛ وثانيهما تجاربه العديدة المستمدة من وقائع حياته وأحداث عصره ومن احتكّ بهم من أعلام الرجال ؛ وأفكاره تبدو فى ثنايا نثره أكثر مما تبدو فى شعره ، وهو أمر طبيعى يتسق مع طبيعة الفنين ؛ وكثيراً ما يستعير شاعرنا أفكاره من أفكار غيره ويبالغ فى هذا حتى تزحم أفكاره الخاصة وتطغى عليها ، ولكنه يصبغ بصبغته كل ما يستعيره من آراء ، حتى يبدو عليها طابعه الخاص ؛ وكثيرا ما يكرّر أفكاره ويرددها ، ولعله يريد تأكيدها والإقناع بها على طريقة الإيحاء .

وإننا لنلمس أحيانا بعض العمق فى أفكاره مثل قوله فى فلسفة الصبر :

إذا آسفَ الثكلُ اللبيبَ فشفّه

رأى أفدح الثكلين أن يهلك الأجرُ

مصابُ الذى يأسى بميتٍ ثوابه

هو البرح ؛ لاالميتُ الذى أحرز القبرُ

كما نلمس فى بعضها الدقة والتصميم مع الوضوح :

من كان يجهل ما البليد فإنه من تطّبيه عن الحظوظ بلادُ

وفتى الشهامة من إذا أمل سما نفذت به شورى أو إستبدادُ

والحقيقة أن تلون الأفكار — لاجدتها — هو أهم مابرع فيه ابن زيدون ؛ والتلون ينهض عنده على :

١ — المشاكلة : مثل قوله :

لقد جدّ إخلاصٌ ، وحقّ تبتلٌ وبالغ إخلاصٌ ، وصح متاب

٢ — المقابلة مثل قوله :

تعوّضتُ من شدوِ القيان خلالها
صدى فلواتٍ قد أطار الكرى صبحا

ومن تَحسِّيَ الكأسَ للفدّي مديرُها
تَقَحُّمُ أهوالٍ تَحمَّلْتُ لها الرُّمْحَا

٣ — الاقتران ، سواء كان سببيا أم زمانيا أم مكانيا أم عقليا ، فمن أمثلة الاقتران السببي :

سأحب أعدائي لأنك منهمو
يا من يُصحُّ بمقلتيه ويُسقِمُ

ومن أمثلة الاقتران الزماني :

يابهجةَ الدهرِ حيّاً ، وهو — إن فَنيت
حياتُه — زينةُ الآثار والسِّيَر

ومن أمثلة الاقتران المكاني :

ويارب ملهًى بالعقيق ، ومجلس
لدى نُزهة نزنو بأحداق نرجس

ومن أمثلة الاقتران العقلي :

أرى الدهرَ إنْ يبطش فأنتَ يمينه
وإن تضحك الدنيا فأنتَ لها ثغرُ

وكم سائلٍ بالغيب عنك أجبتُه
هناكَ الأيادي الشفع والسؤدد الوترُ

هناكَ التقى والحِـلم والحلم والدُّمى
وبذلُ اللُّـهى والبأس والنظمُ والنثر

العاطفة : Sentiment

يرى فرويد أن الغريزة الجنسية هي المسئول الأول عن كل مايصدر عن الإنسان من نشاط أو تصرف ؛ أما إدلر فيرى أن غريزة حب السيطرة هي أساس تصرفات الإنسان ؛ ويجمع يونج بين النظريتين ، وإذا حللنا عاطفة الحب عند ابن زيدون وجدناها ترتكز على جميع الغرائز البشرية في الكائن الإنساني ، وبخاصة الغريزة الجنسية وغريزة حب السيطرة ، وبهذا كانت عاطفته عميقة قوية جبّلية امتدّت جذورها في أعماق نفسه ، وتفرعت أغصانها فآتت أطيب الثمرات ؛ والحب يزداد قوة وعنفاً إذا حالت الحوائل بين المحبين ؛ وفي هذا يقول هكسلى Huxley « حيثما وجدت القيود وضُيّقتْ على الحب وُجدَ الحب الحقيقي لأنه قائم على الحرمان ، وحيثما كان الوصل خَفّت حدّةُ الحب » . وقد ذاق ابنُ زيدون مرارة الحرمان فرجّع في تغريده أشجى الألحان :

أبديتَ لي من أفانينِ القِلَى عِبَرًا
أرسلْتَني في أحاديث الهوَى مثلَا
لم تبق جارحةٌ بالهجر من جسدى
إلا خلعْتَ عليها بالضنى حُلَلَا
فليُنْسِن كفّكَ أنى بعض من ملكتَ
وليكْـف طرفَكَ أنى بعضُ من قتلَا
ولتقض ماشئت من هجر ومن صلة
لا أقض ما عشتُ سلوانا ولا مَللا
إن كان لى أمل إلا رضـاكَ فلا
بُلِّغْـتُ — ياأملى — من دهرىَ الأملا

وقد ذكرنا فيما سبق أن عاطفة الشاعر كانت تتسع وتسمو فتمتد إلى أصدقائه فيناجيهم مناجاة أقرب إلى النزل منها إلى الطارحات ، ويحن إلى مراتع لهوه ومرابع صباه فيهتف بها كما يهتف المحب بما يثور فى أعماقه من صبابات :

مَعاهدُ لهوٍ لم تزلْ فى ظلالها
تُدار علينا للمجون مُدام
فإن بان منى عهدُها فبلوعةٍ
يُشبُّ لها بين الضلوع ضِرامُ
تذكرتُ أيامى بها فتبادرتْ
دموعٌ كما خان الفريدَ نظامُ
وَصُحْبَةَ قومٍ كالمصابيح ؛ كلّهم
إذا هُزَّ للخطب المُلِمِّ حسام
إذا طاف بالراح المديرُ عليهمُ
أطافَ به بِيضُ الوجوه كِرامُ
محل غنينا بالتصابى خلاله
فأسعدنا ، والحادثاتُ نيامُ
فما لقتْ تلك الليالى ملامةً
ولا ذُمَّ من ذاك الحبيب ذمامُ

الخيال Imagination :

من الخيال ما يكون عامًّا منبسطًا يتناول الحياة جميعها ، ويظهر فى صورة مركبة تفيض بالأضواء والألوان والظلال ، وتصور المظاهر الخارجية كما تنفذ إلى البواطن الخفية والأعماق المستقرة فى الأغوار ، وقد برع شعراء الإغريق فى هذا النوع بما أبدعوه من ملاحم ومسرحيات تدور حول الآلهة والأبطال ،

أما الشعر الغنائى فلا يتسع لإبراز هذا الخيال المركب ، ولهذا كان الأدب العربى فقيراً فيه ، ولا نكاد نجد منه إلا ظلالا فى الأدب الشعبى مثل ملاحم عنترة وبنى هلال وسيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة ، ولكنها لم تظفر بالتفات الباحثين إلا بقدر يسير . أما الأدب العربى فأننا نجد فيه أمثلة للخيال الابتكارى ، ويقوم على اختراع صور طريفة تستمد عناصرها من التجارب السابقة والمشاهد المختزنة والمعارف الشاملة بعد تهذيبها بالأضافة والحذف والتلوين .

كما نجد فيه أمثلة للخيال التأليفى ، ويقوم على استدعاء صور حقيقية واقعية ثم الربط بينها بعد تنظيمها وتنسيقها ويشبه عملية التلوين فى التصوير .

وهناك نوع ثالث من الخيال يسمى الخيال التفسيرى ، وهو لايعنى بتكوين صور جديدة كالابتكارى ، ولا بالتنسيق أو التنظيم كالتأليفى ، وإنما هو تمليلى يدرك الجمال ويحاول أن يفسره بالإشارة إلى مواضع الفتنة فيه والجمال ، ونستطيع أن نجد عند شاعرنا أنماطاً من هذه الأخيلة على اختلاف فى النسب والإبداع :

١ — فمن أمثلة خياله الابتكارى قوله :

كأننا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثُنا
والسعدُ قد غضَّ من أجفانِ واشينا

سِرَّانِ فى خاطرِ الظلماءِ يكتُمنا
حتى يكادَ لسانُ الصبحِ يُفشينا

فقد جعل من الوصل كائناً عاقلا يسعى فى ضمهما كما جعل من السعد حارسا أميناً يطمس أبصار الوشاة وصوّر للظلماء ضميراً يكتمهما فى أعماق أسراره ، وللصباح لساناً ثرثاراً يفضح الأسرار .

٢ — ومن أمثلة خياله التأليفى قوله فى مناجاة قرطبة :

نهارُكِ وَضّاحٌ ، وليلُكِ ضَحيانُ
وتربُكِ مصبوحٌ ، وغصنُكِ نشوانُ

وأرضُـك تَـشكى حين جوُّك عُريان

ورَيّاك رَوحٌ للنفوس وريحان

وَحَسْبُ الأمانى ظِلّك المُتَفَيّأ

فقد جمع صوراً متقابلة ألفها خير تأليف، ونسقها أبدع تنسيق .

٣ — ومن أمثلة خياله التفسيرى قوله فى تعليل نكبته بالسجن على رغم ما يتسم به من عظمة ونبوغ محاولا تبريرها بما يقع فى الحياة من أحداث .

ولايغبط الأعـداءَ كونى فى السجْن

فإنى رأيت الشمسَ تُحضَنُ بالدَّجن

وما كنتُ إلا الصارمَ العَضْبَ فى جَفْن

أو الليثَ فى غابٍ أو الصقر فى وَكْن

أو العِلْقَ يُخفَى فى الصِّوار ويُخبَأ

على أن أقوى ما يمتاز به شاعرنا هو الخيال التأليفى نراه يؤلف فى براعة عجيبة بين الصور الحسية والخواطر المعنوية مثل قوله :

له خُلُقٌ عَـذبٌ وخَلْقٌ مُحَسَّنٌ

وَظَرْفٌ كَعَرف الطيبِ أو نشوة الخمر

يعلِّل نَفْسى من حَـديث تَلَذُّهُ

كمثل المنى والوَصْلِ فى عُقُبِ الهَجْر

وكثيراً ما يستدعى صُوَرَ الأزهار والماء والأنداء والألحان والدام، ثم يؤلف بينها فى نسق عجيب .

نحن من نَمائكُمْ فى زهرة — جـدَّدتْ عهد الربيع المقتَبَلْ

زهرتْ أخلاقُـكم فابتسمت كابتسام الورد عن لؤلؤ طَلّ

وهو ماهر فى تنسيق الصور المتقابلة ، ابتدع إلى موازنته بين مظاهر الطبيعة الرائعة ومفاتن الغيد الساحرة :

بَدَتْ فى لِدَاتٍ كزُهْرِ النجوم ... حِسانِ التحلِّى مِلاحِ العَطَلْ
مشَيْنَ تُهادِينَ زَهْرَ الرُّبَى ... بيانعِ روضِ الصِّبا المقتبَلْ
فمن قُضُبٍ تتثنَّى بريحٍ ... ومن قُضُبٍ تتثنَّى بِدَلْ
ومن زهراتٍ تَنَدَّى بمسكٍ ... ومن زهراتٍ تَنَدَّى بطَلْ

وكثيراً ما يعمد خياله إلى تجسيم الصور سواء كانت حسية أم معنوية :

لبسْنا لديه الأمنَ تَنْدَى ظلالُهُ ... وزهرةَ عيشٍ مثلما أينع الزَّهَرُ
وعادتْ لنا عاداتُ دُنيا ، كأنما ... بها وَسَنٌ أوهَزَّ أعطافها سُكْرُ

وطالما جسم له الوهم ما يشتهى من آمال :

يدنو بوصلكِ حين شطَّ مَزارُهُ ... وهْمٌ أكادُ به أُقبِّلُ فاكِ

وحينما يقاسى مرارة الهجر يهرع إلى خياله الخصب فيستدعى به طيف حبيبته فينعم بوصاله على بعد الديار :

إنْ ألذّ غرورَ الوصلِ يصفح لى
عنـه ، ويقنعنى التعليلُ بالخُدَعِ
تجلو المُنى شخصه لى — وهو محتجبٌ
عنّى — فما شئتَ من مرأى وَمُستَمَعِ

الموسيقى : Music

يرى كولردج أن الوزن ينشأ من توازن فى العقل ناشىء عن الانفعال القهرى والمجهود الاختيارى ، ومن التوازن بين الحالتين المتعارضتين — حالة التأثر الوجدانى وحالة الضبط الإرادى — ينشأ الوزن الشعرى ؛ وينبغى أن

تجتمع هاتان الطاقتان اجتماع تمازج واتحاد لا اجتماع تقارب أو جوار ، وهـذا الاتحاد ينتج من نفسه لغة بديعة الصور محركة للذهن مثيرة للوجـدان . ويتجلى هذا في الشعر، وإن كانت تبدو منه أحياناً في النثر بعض السمات ؛ ولقد حاول بعض الباحثين أن يربط بين وزن الشعر ونبضات القلب التي تبلغ ٧٦ نبضة في الدقيقة في الأنسان السليم ، ويرون صلة وثيقة بين نبضات القلب وما يقوم به الجهاز الصوتي . وقدرته على النطق بعـدد من المقاطع يعادل ثلاثة لكل نبضة قلبية ؛ ومن الممكن الربط بين نبضات القلب وحركات الرقص والموسيقى والغناء ، وهى فنون وثيقة الصلة بالشعر وكثيراً ما تتساند في المسرحيات وبخاصة في الأوبرات .

وبعد هذه المقدمة وفي ضوئها نحاول أن نتعرف الموسيقى التعبيرية عند ابن زيدون إننا نعلم من دراستنا لحياته أنه كان مفتوناً بالموسيقى والغناء ، وكثيراً ما كان الغناء يستخفه فينسى التقاليـد ويغفل عن مقتضيات الذوق في معاملة حبيبته افتتاناً منه بغناء جاريتها عتبة ، وكان يجيـد الإنشاد والتَّرجيع إجادة تامة حتى اتهمه منافسُه ابن حصن بأنه يتخذ منهما ستاراً يخدع به السامعين عما في شعره من ضعف وإسفاف . ونستطيع أن نخرج من دراستنا لأوزانه الشعرية بالملاحظات الآتية :

١ — شعره التقليدى غير متنوع الأوزان فإن ٧٥ ٪ من شعره في المديح تستغرقها ثلاثة بحور هى الكامل والمتقارب والطويل ، وشعره في الرثاء يكاد يستغرقه بحر الطويل .

٢ — ينهج الشاعر في موسيقاه نهج الموسيقى التقليدية المعروفة عند الشعراء الأقدمين ، فأن ٥٠ ٪ من شعره تنتظمها البحور المتـددة : الطويل والبسيط والمتقارب ، ويتألف كل منها من ثمانى تفعيلات .

٣ — نظم الشاعر أغراضه في ١٧ وزناً ما بين كاملة ومجزوءة يستغرق البحر الطويل وحده ثلثها ، وهى نسبة تقارب نسبته عند الشعراء الأقدمين .

٤ — شعره العاطفي يناهز ٦٠ ./. من شعره . أما الشعر الذى تشيع الفكرة فيه كالمدائح أو الطيّريات فيستغرق ما بقى من قصائده .

٥ — ينوّع الشاعر فى أوزانه العاطفية تنويعاً كبيراً ، فالغزل يستغرق ١٤ وزناً من أوزانه السبعة عشر ، والإخوانيات — وهى قريبة عنـده من فن الغزل — تستغرق ١٣ وزناً ؛ وهـذا يدل على خصب عاطفته وتعدد مساربها ووفرة تياراتها ، فـكلما وزت عاطفته فى صورة أعطاها الشاعر الموسيقى اللائقة لها؛ فهى تارة ثائرة، وتارة هادئه ؛ وقد ترد موجزة، وقد ترد مسهبة ؛ وربما كانت مرحة راقصة ، وربما كانت قاتمة مجلّلة بالسواد .

هـذا من حيث الأوزان ؛ أما من حيث ترتيب الألفاظ وتنسيق الجمل بحيث تنتظمها روح موسيقية واحـدة فإن شاعرنا كان حريصاً عليها كل الحرص ؛ وقد استخدم لتنسيقها فنونَ الترصيع والمقابلة والطباق فأمدّنه بأعـذب الألحان ، ولهذا كان يقسم عباراته فى البيت الواحد إلى جمل متموجة تكاد كل موجة منها تعادل زميلتها وتلاءمها كل اللائمة ؛ وهو يضارع البحترى فى هذا التنغيم ، ولهذا لقّبه الرواة ببحترى الأندلس ؛ وقد بلغ التنغيم الوسيقى عنده كل منها أوجه فى الشعر العربى ؛ فأرقص القلوب وشنف الآذان ، استمع إلى قول شاعرنا :

يا قاطعاً حَبْـلَ ودِّى ... وواصلاً حَبْلَ صَـدِّى
لو كان عنـدكَ مِنى ... مثـلَ الذى مِنْك عنـدى
لبتَّ بعـدىَ مِثْلِى ... وَبِتُّ مثلَكَ بعـدى

وكان يهتم بالقافية اهتماماً كبيراً فيمهد لها بلباقة حتى يتوقعها السامع قبل يلفظها الشاعر :

قـل لمن دان بهجرى ... وهَـواه لِىَ دِينُ
يا جـواداً بِىَ ، إنى ... بـكَ والله ضَنينُ
عَجَبًا للقلبِ يقسـو ... منكَ ، والقـدّ يلينُ

الصورة Form :

يرى بعض النقاد أن مقياس الصورة الأدبية هو أن تستطيع — فى دقة وأمانة نقل العواطف والأفكار، ولكننا إذا اكتفينا فى الأسلوب العلمىّ بالدقة والأمانة فاننا لا نستطيع أن نكتفى بهما فى الأسلوب الأدبى، بل نضيف إليهما جمال التّصوير وتعدّد الألوان وعذوبة التنغيم؛ وكان شاعرنا بارعاً فى تلوين صوره وأنغامه وفقاً للتجارب الداخلية والظروف الخارجية التى تدفعه للتعبير؛ فنراه يلجأ إلى الروعة والفخامة والأوزان الممتدّة والقوافى الجزلة فى المواطن الجدية، استمعْ إلى شكواه مايقاسيه من إهمال:

ألا هــــل أنى الفتيانَ أن فتاهمـــو
فريسةُ من يعـــدو، ونهزةُ من يسطو؟
وأن الجـــواد الفائتَ الشّأوِ صافِنٌ
تخوَّنَهُ شـــكلٌ وأزرى به ربطُ
وأن الحسامَ العضْبَ ثاوٍ بجفنـــه
وما ذَمَّ من غرْبَيْه قـــدٌّ ولا قطُّ

أما فى مواطن اللهو والطرب والمناجاة فنراه يطلق نفسه على سجيتها مختاراً البحور القصيرة والقوافى السهلة والتعبير الرشيق:

متى أشـــكو مابى ياراحتى وعـــذابى؟
متى ينـــوب لسانى فى شرحه عن كتابى؟
ما البـــدرُ شفَّ سناه على رقيـــق السحاب
إلا كوجهـــك لمّا أضـــاء تحت النقاب

وصياغة الشاعر تعتمد أحياناً على المحسنات البديعية فى غير تكلف ولا استكراه؛ وهو مشغوف بالمطابقة، وقد يتبسط فيها فيمدها إلى المقابلة مثل قوله:

ماذا يريبك من فتى ، عزّ الهوى
فعنا لنخوته بذلّة خاشع ؟

هل غير أن محض الوفاء لغادر
أو غير أن صدق الوصال لقاطع

ومما يلهج به كثيراً مراعاة النظير :

ودون التى فيهم : جيادٌ صوافنٌ
ومأثورةٌ بيض ، وسمرٌ عواسلُ

نضدْتَ رياحينَ الطلاقة غضّةً
وروقْتَ ماء البرّ وهو سلاسلُ

مسارع هى العقدَ انتظامَ محاسنٍ
تحلّ بها جيدٌ من الدّهر عاطل

ويستهويه الجناس أحياناً سواء كان تاماً أم ناقصاً :

فهمتُ معنى الهوى من وحى طرفكَ لى
إن الحوارَ لمفهومٌ من الحَوَرَ

والصدرُ مُذْ وردتْ رفّها نواحيه
تومُ القلائد لم تجنح إلى صَدَر

رآها لثغرك ثغراً بات يكلؤه
غيرانُ تسرى عواليه إلى الثغر

منزلته الأدبية

على الرغم من شهرة ابن زيدون وافتتان الناس به فإنه لم ينل مكانه الجدير به من التقدير . وإذا كان لامرئين يعرّفُ الشعر بأنه إحلال ضكْلٌ ما فى نفس

الإنسان وقلبه من مشاعر خاصة ، وكل ما فى عقله من تفكير مقدس فى الطبيعة ، ومزج كل أولئك بما فيها من جمال التصور والتوقيع ، فإننا بتطبيق هذا التعريف على ابن زيدون نجده قد بلغ القمة أو هو منها على مدى قريب . فقد امتزج هواه الغلاب بذكريات طفولته العذاب وتدفقا فى تيار شعوره القوى بالطبيعة وهيامه بها هياماً فاق كل تقدير ؛ فعاطفة الحب تجيش فى نفسه مُمتزجة بنبضات الطبيعة المتعددة الصور والألوان ؛ وحسبنا هنا أن ننقل بعض أبياته فى الزهراء لنرى مدى شعوره بالطبيعة ومشاطرتها ما يجيش بصدره من مشاعر وأشجان : —

إنى ذكرتُكِ بالزهراء مُشتاقا
والأفقُ طلقٌ ، ووجهُ الروضِ قد راقا

وللنسيم اعتلالٌ فى أصائله
كأنما رقّ لى فاعتلّ إشفاقا

والروضُ عن مائه الفضى مبتسمٌ
كما شققتَ عن اللَّبات أطواقا

يومٌ كأيام لذات لنا انصرمَتْ
بِتْنا لها حين نامَ الدهرُ سُرّاقا

نلهو بما يستميل العينَ من زَهَرٍ
جال الندَى فيه حتى مال أعناقا

كأنّ أعينَه — إذ عاينتْ أرقى —
بكتْ لِمَا بى ، فجال الدمعُ رَقراقا

وردٌ تألّق فى ضاحى منابته
فازداد منه الضحى فى العين إشراقا

سرى ينـــالحه نَيْلو فَرٌ عبـــقٌ

وسنانُ نبّه منه الصُّبحُ أحـــداقا

كلٌّ يهيـــج لنا ذكرَى تشوُّقنـــا

إليك ، لم يعدُ عنها الصدرُ أن ضاقـــا

لاسـكّنَ الله قلباً عنّ ذكركـو

فلم يَطِرْ بجنـــاحِ الشـــوقِ خفّاقا

والأبيات لا تحتاج منا إلى تعليق .

وشاعرنا لا يكاد ينسى الطبيعة حتى فى سجنه فأنه يمزج شكاته بترنيات يرفعها للطبيعة ممزوجة بذكريات رتاها عن حبيبته . فالقمر يتسلّلُ إلى غرفته بالسجن فيثير فيه كوامنَ الذكريات ، والليل الساجى يبعث فيه أشجى الأنّات . فيكاد يمزج سواده بسواد القلب والبصر لو أسعفته الأمنيات .

استمع إلى قصيدته فى شكواه من سجنه إلى أميره أبى الحزم فقد استهلّها بقوله :

ما جال بعـــدكِ لحظى فى سنا القمر

إلاّ ذكرتُـــكِ ذكرَ العَيْنِ بالأثرِ

ولا استطلتُ ذَماء الليـــل من أسف

إلاّ على ليـــلةٍ سرّتْ مـــع القصر

فى نشوةٍ من سِناتِ الوصلِ مُـــوهمةٍ

ألاّ مسافـــةَ بين الوَهْنِ والسَّحر

ناهيـــكِ من سَهَرٍ بَرْحٍ تألفه

شـــوقٌ إلى ما انقضى من ذلك السَّمر

فليت ذاكَ السوادَ الجَونَ متّصل
لو استعاد سوادَ القلب والبصر

ولا نكاد نجد فى الشعر العربى مثيلا لابن زيدون فى هذا الاتجاه ؛ بل إن الشعر الغربى لم يعرفه إلا فى العصور الحديثة . وقد تنبه إلى هذا أستاذنا الدكتور إبراهيم سلامة حيث قرّر أن الاتجاه العاطفى الرمزى التعلق بالطبيعة والذى اتجه إليه الأدب الأوربى فى القرن التاسع عشر كان معروفاً لدى العرب من يوم أن عرفوا الشعر ، وبخاصة لما شاهدوه رائعاً جيلا فى الأندلس واستشهد على هذا بقصيدة ابن زيدون فى الزهراء ، ثم بمقطوعته البائية التى مطلعها :

متى أبثك ما بى ؟ يا راحتى وعذابى

ثم حلّل هذين الأثرين وعقب عليهما بقوله « هذه الرمزية أو هذا التمثل فى الطبيعة هو ما يريده النقد الأدبى ، وهو بعينه ما فهمه العرب من زمن بعيد ، وهو ما كان واضح الأثر جلياً فى طبيعة الأندلس الواضحة » ومن الغريب أن القدماء على إعجابهم بابن زيدون فضلوا عليه ابن هانئ حيث جعلوه أشعر الأندلسيين ولاوجه للموازنة بين الشاعرين . وقد آن لنا أن نصحح هذه الأحكام فى ضوء موازين النقد الحديث . على أن بعض القدماء افتتنوا بنونية ابن زيدون فقرروا أن « من لبس البياض ، وتختم بالعقيق ، وقرأ لأبى عمرو ، وتفقه للشافعى ، وروى قصيدة ابن زيدون ، فقد استكمل الظرف » وقد حاكوا حولها الأساطير فزعموا أنه ماحفظها أحد إلا مات غريبا ، وحاول كثيرون وما زالوا يحاولون معارضتها فيقصرون سواء منهم من عاصره أو من تلاه ؛ ومن أشهر معارضيه أبو بكر بن الملح وصفى الدين الحلى وابن الوكيل وابن حبينى ؛ وقد عارضه فى العصر الحديث اسماعيل صبرى وشوقى وحافظ ؛ وسيظل مصدر وحى لكثيرين .

أما الباحثون الغربيون فقد أشادوا بعبقرية ابن زيدون ووضعوه فى مكانه الرفيع .

١ — فيقرر كور أن أسلوب ابن زيدون النثيّ النهجى استحق أن يكون المثل الأعلى لمن تلاه من الشعراء .

٢ — ويرى نيكل أن ابن زيدون « كان ممثلا لأنقى أسلوب عربى منهجى فى الأندلس ، وأنه يمكن موازنته بالبحترى أو المتنبى » ثم يقرر أنه « لولا تأثير ولادّة على ابن زيدون لفقد الشعر العربى أعظم جواهره الثمينة » .

٣ — ويذكر جب أنه « يعتبر على الأرجح أعظم شعراء الأندلس بأغانى حبه البكر ورسائله الشعرية فى أخريات حياته » :

٤ — ويقول غومس « إنه أعظم شاعر قديم وحديث أنجبته الأندلس » .

٥ — ويقرر ليڤى بروڤنسال أنه « يعد بحق أكبر شعراء العصر الكلاسيكى الأندلسى الثانى ، والمتنبى بالحب الذى لا يعدله أحد ؛ وقد أوحى إليه اتصاله بولادّة أشعاراً رائعة الجمال متميزة فى أكثر الأحيان بخلوها من البريق الصاخب الذى تميّز به شعر من سبقه من الشعراء ، وشعره إلى ذلك ذو نزعة إنسانية يكاد يشبه شعر الغربيين »

٦ — ويذكر الدكتور فيليب حتىّ أن بعض الدارسين « يعدّ ابن زيدون أعظم شعراء الأندلس على الأطلاق » .

وقد أولع كثير من المستشرقين بموازنته ببعض شعرائهم الغربيين من قدماء ومحدثين مثل أوفيد وتيبولاس وبترارك ، وعقدوا لذلك فصولا مسهبات .

كما شغف كثيرون منهم بترجمة آثاره فقد نشر ريسك الرسالة الهزلية مع ترجمتها إلى اللاتينية فى ليبسك سنة ١٧٥٥ م ، وترجمت هذه الرسالة أيضاً إلى التركية مع شرح ابن نباتة لها .

ونشر بستورن الرسالة الجدية مع ترجمة لا تينية لها فى كوبنهاجن سنة ١٨٨٩م ، وترجم طائفة من شعره كل من نيكل وكور وهنرى بيرز .

أما أثر ابن زيدون فيمن تلاه من الأدباء فقد حدثنا ممّن عارضه من

الشعراء ، ونذكر هنا أن كثيرين من الكتاب تأثروا به ، ومن أشهرهم محيي الدين ابن عبد الظاهر ، فقد قلده فى رسالته الجدية برسالة وجهها إلى الأمير ناصر الدين حسن بن شاور فى شخص تنقصه . وأتبعها بقصيدة جارى فيها قصيدة ابن زيدون يقول فى مستهلها :

العلا فى ارتشاف دُرّ العلوم والحُلى فى انتساخ دُرّ الحُلوم

وقد عارض الصفدى ابنَ زيدون وقلده فى الاستشهاد بالأعلام والأحداث فى ترجمته لأستاذه محمد بن يوسف بن على بن أبى حيان فى كتابه المخطوط « أعيان العصر » .

وكما أولع القدماء بمحاكاة ابن زيدون فى شعره ونثره أولعوا بشرح رسالتيه الجدية والهزلية :

(ا) فن شراح الرسالة الجدية :

١ — صلاح الصفدى فى كتابه تمام المتون .

٢ — عبد القادر البغدادى فى كتابه مختصر تمام المتون « اختصر الشرح السابق وعلّق عليه » .

٣ — الشيخ حمزه فتح الله فى كتابه المواهب الفتحية .

٤ — الشيخ مصطفى عنانى فى كتابه إظهار المكنون

٥ — أبو بكر محمد عليم فى كتاب الدر المخزون .

(ب) ومن شراح الرسالة الهزلية :

١ — جمال الدين بن نباته المصرى فى كتابه « سرح العيون »

٢ — محمد بن البنا المصرى فى كتابه « العيون »

٣ — نصر الهورينى فى كتابه « مسودّة التحريرات النصرية »

وحيه للقصاص المعاصرين :

وكما شغل برسالتيه الشراح والمعقبون شغل بأحداث حياته ونزوعة آثاره

كُتّـاب القصة المحدثون ؛ ولا نـكاد نجد شاعراعربياً قد ظفر بالإيحاء إلى طائفة من القصاص كما ظفر ابن زيدون ؛ وقد تنوعت القصص فيه مابين سرد تحليلى أو حوار مسرحى ، ومابين انسياب نثرى أو نظم شعرى ، وأهم ماعرفناه من ذلك مرتبا بحسب تاريخ ظهوره :

١ — الوزير ابن زيدون مع ولادة : مسرحية من ستة فصول للأستاذ إبراهيم الأحدب الطرابلسى .

٢ — غرام الشعراء : فصل مسرحى شعرى للشاعر أحمد رامى .

٣ — ولادة وابن زيدون : لمؤلف عراقى حدثنا عنه إخواننا العراقيون .

٤ — ولادة : مسرحية شعرية من أربعة فصول وستة مناظر للأستاذ على عبد العظيم .

٥ — هاتف من الأندلس : رواية نثرية تحليلية للاستاذ على الجارم .

٦ — غراميات ولادة : مسرحية شعرية من ثلاثة فصول للشاعر الأردنى حسين سراج باشا .

وستظل حياة ابن زيدون وآثاره وحيا خالدا للقصاص والـكتاب والشعراء مادام لسانٌ يلهج بالشعر وقلبٌ يخفق بالحب وفـكر ينبض بالحياة .

الديوان

فرغنا من الحديث عن عصر الشاعر ومن ترجمتنا المسهبة لحياته ودراستنا النقدية لآثاره ؛ والآن حان لنا أن نعرض آثاره بعد أن نطمئن إلى أصالتها كل الاطمئنان ؛ أما الديوان فليس لدينا مايثبت أن الشاعر جمعه بنفسه ؛ أو أن أحداً جمعه في عصره وإن كان أو غست كور يذكر أن معاصرى الشاعر جمعوا ديوانه وبخاصة ابن حيان ؛ ولكنه لم يذكر لنا المصدر الذى استقى منه هذا الخبر ، ممايجعله محلا للارتياب ، وبخاصة إذا علمنا أن أبا المطاف بن حبى — وكان مولعا بجمع الشعر — سأل ابن زيدون أن يطلعه على نبذة من شعره فمطله حتى توسل إليه بالمعتمد بن عباد ؛ ولم نجد فى المراجع التى عنيت بتسجيل الكتب أى إشارة إلى الديوان ، وأول خبر يصلنا عن ديوان الشاعر ماذكره ابن نباته المتوفى سنة ٧٦٨ هـ من أنه وقف على ديوان شعرى لابن زيدون وعلى كثير من ترسله .

وقد اعتمدنا فى نشر ديوان الشاعر على أربع نسخ خطية هى :

١ — النسخة رقم ٤٩٦ أدب بدار الكتب المصرية وتقع فى ١٧٩ صفحة ، وهى مجهولة الزمن والكاتب ولكن يبدو للدارس أنها أقدم النسخ الخطية الأربعة وأدقها ؛ ونرجح أنها مصدرها وقد رمزنا إليها بحرف ا

٢ — النسخة رقم ٥٥٥ أدب بدار الكتب المصرية كتبها عبد الرحمن ابن عبد الله الحسينى البغدادى سنة ١٢٨٨ هـ فى ١٥٣ صفحة ؛ وليست لقصائدها عناوين تدل الموضوعات أو الأعلام ، بل تركها الناسخ على بياض وقد رمزنا إليها بحرف ب

٣ — النسخة رقم ٧٦ شعر تيمور بالمكتبة التيمورية وهى أجود النسخ خطاً وأحسنها تنسيقا مكتوبة سنة ١٣٠٨ هـ وكاتبها مجهول وقد رمزنا إليها بحرف ت

٤ — النسخة رقم ٤٤٣ أدب بمكتبة الأزهر بخط محمد عبدالله الزمرانى وهى مجهولة التاريخ ، وقد رمزنا إليها بحرف ز وتكاد تكون صورة طبق الأصل من النسخة ب .

والنسخ جميعها متشابهة فى الترتيب وتسقط منها جميعا بعض الأبيات أو العبارات ، مما يرجح أنها من مصدر واحد ، أو أنها اعتمدت على النسخة الأولى مع محاولة بعض التحقيق فى الأخريات .

وقد طبع الديوان مرتين أولاهما بالقاهرة بمطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٢م شرح وتحقيق الأديبين كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة ؛ وقد علمنا من أولهما أنهما اعتمدا على نسختى دار الكتب الخطيتين ا ، ب ؛ وقد بذل الناشران جهدا مشكورا فى تحقيق النصوص وتصحيح التحريفات ، واجتهدا فى ملء بعض العبارات المتروكة ، وشرحا كثيرا من مفرداتها اللغوية ، وأضافا إلى الديوان رسائل الشاعر وتعليقات عديدة من الكتاب القدماء والمحدثين ؛ كما أضافا إليها شعر المعتمد بن عباد وابنه المعتمد وابن عمار وبعض معارضات الشعراء لابن زيدون؛ وقد انتفعنا ببعض ما بذلاه من جهد مشكور .

ولكننا نأخذ على هذه الطبعة :

١ — أنها غير مرتبة على نسق معلوم ، فلا هى اتبعت النسخ الخطية ولا ترتيب القوافى كما كان السابقون يفعلون .

٢ — استطرد الناشران فى الشرح لمناسبة ولغير مناسبة ؛ مما خرج عن القصد إلى حد الإسراف .

٣ — أخطأهما التوفيق فى بعض التصحيحات أو الشروح على الرغم مما بذلاه من جهد مشكور .

٤ — خلط الناشران بين الأسماء خلطا عجيبا ، مثل أبى الحزم بن جهور وأبى الوليد بن جهور والمعتضد والمعتمد؛ وأبهما بعض الأسماء مثل الوزير أبى عامر، وأبى حفص بن برد (يطلق هذا الاسم على شاعرين هما الجد والحفيد) .

٥ — نسبا إلى الشاعر ما ليس له ، وإن كانا قد استدركا فصححا بعض الأخطاء ، ولكن فى مكان غير ظاهر مما ضلل ناشر نسخة بيروت .

٦ — أغفلا بعض قصائد الديوان وبعض أبيات من قصائده .

٧ — أهملا ما عدا الديوان من مصادر لها قيمتها من الأصالة والتقدير .

٨ — لم يشيرا إلى مختلف الروايات الواردة فى نسخ الديوان والمصادر القديمة .

أما الطبعة الثانية فقد قام عليها الأديب كرم البستانى وطبعها بمطبعة المناهل ببيروت سنة ١٩٥١ ، وقد تابع الطبعة الأولى فى التصحيف والتحريف والزيادة والنقصان ، ثم زاد عليها بأن بتر جزءا من الديوان هو فن الطيريات ، وهو خطأ لا يقره البحث العلمى على أى حال .

وقد اعتمدنا على النسخ الخطية الأربعة ، وعارضناها بما حفظته لنا الذخيرة ، وقلائد العقيان ، والمعجب ، والمغرب ، وخريدة القصر ، من قصائد للشاعر أو مقطعات .

ثم أضفنا ما هدانا إليه البحث من شعر الشاعر فى بطون الكتب المعتمدة وأمهات المصادر الأدبية مثل : الكوكب الثاقب ، وتمام المتون ، وسرح العيون ، ونزهة الجلساء ، ونفح الطيب ، وغيرها من الأسفار .

ووضعنا لكثير من القصائد مقدمات تفسر الجو الذى قيلت فيه : وشرحنا ما يحتاج إلى الشرح من مفردات أو أبيات شرحا موجزا آثرنا فيه القصد وعدم الاستطراد ، وقد راعينا فى ترتيبها موضوعات الفنون مع ملاحظة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان وان كان التحديد الدقيق غير ميسور لأن الشاعر كثيرا ما يدخل فنا فى غيره من الفنون ، فاننا نجد فى مدائحه وصفا وشكوى ونسيبا ، وكثير من آثاره غير معروف زمنه . ولكننا اعتمدنا مع هذا ترتيب النسخ المخطوطة غالبا بعد تقسيمها وتنظيمها بحسب منهجنا المرسوم ؛ لأن هذه النسخ المخطوطة تراعى الترتيب الزمنى فى الأغلب الأعم ، وقد نخالفها أحيانا لاقتناعنا بالترتيب الزمنى بعد البحث والتنقيب .

وقد بذلنا جهدا مضنيا نرجو أن نكون قاربنا فيه التمام .

الرسـائل

أما آثار الشاعر النثرية فقد اعتمدنا فيها على المصادر الآتية :

الرسالة الهزلية :

١ — سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون : لجمال الدين بن نباتة المصرى ؛ طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة .

٢ — نهاية الأرب للنويرى الجزء السابع ، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩ .

٣ — مسودة التحريرات النصرية للأديب نصر الهوريني ؛ نسخة مخطوطة رقم ٨٨٤٥ أدب بدار الكتب المصرية .

الرسالة الجدية :

الذخيرة لابن بسام الجزء الأول ؛ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٣٩ .

٢ — تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون نسخة مخطوطة رقم ٢٤٨ أدب بدار الكتب .

٣ — نهاية الأرب للنويرى الجزء السابع ؛ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩

بقية الرسائل :

مصدرها الوحيد هو الجزء الأول من الذخيرة لابن بسام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩ .

نثره التاريخى :

اعتمدنا فيما بقى لدينا منه على نفح الطيب للمقرى ؛ طبع ليدن سنة ١٨٥٥ — سنة ١٨٦١ .

نثره النقدى :

اعتمدنا فيه على المصدر السابق ، وعلى نزهة الجلساء للسيوطى ؛ مخطوط رقم ١٣٨ تيمور بدار الكتب المصرية .

شرح الوصفى :

اعتمدنا فيه على الجزء الأول من الذخيرة ، وعلى تحفة العروس لتيجانى المطبعة الشرقية بالقاهرة سنة ١٣٠١ هـ

وقد أغفلنا ذكر المصادر فى دراستنا الأدبية لعصر الشاعر وحياته وفنه ، لأن من الميسور الرجوع إليها فى كتابنا ، « ابن زيدون : عصره وحياته وأدبه » طبع مطبعة « الرسالة » ونشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

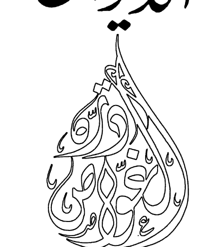
وإننا لنشكر للأستاذ عمر الدسوقى أستاذ الأدب العربى بكلية دار العلوم أن هيأ لنا نشر الديوان كما هيأ لنا نشر بحثنا عن ابن زيدون .

ولعلنا بنشر هذه الآثار الخالدة نشرا علميا نكون قد أدينا خدمة للأدب العربى بعامة ، وللأدب الأندلسى بخاصة ، وأن نكون قاربنا فيما ننشده السداد ؟

القاهرة فى { رمضان سنة ١٣٧٤ هـ
مايو سنة ١٩٥٥ م }

على عبد العظيم
مدرس أول اللغة العربية بالأزهر الشريف


الدّيوان





النسيب

« عرف شاعرنا فنون الحب ، وآثارها فى القلب ؛ فأحس نشوة اللقاء ، كما ذاق مرارة الجفاء ؛ وسعد بالوصال ، كما شقى بالدلال ؛ وتفتحت نفسه للطبيعة وروعتها ، كما انتشت بالصداقة وعذوبتها ؛ وتراوحت حياته بين الإقبال والإدبار ، والسمو والانحدار، والتجنى والملال، وقرب الديار ، وشحط المزار، وحنين الذكريات ، وبريق الأمنيات ؛ فرتل هذا كله أنغاما خالدات ، استطعنا أن نردها إلى سبعة ألحان ، وأن ننسقها فى سبعة ألوان ، وما أشبه القلب الإنسانى فى إبداعه، بالطيف الشمسى فى إشعاعه ».

---

١ - نشوة القرب

بلوغ الأمل (١)

سعد الشاعر بلقاء حبيبته ، وضما إلى نشوة اللقاء ، نشوة الغناء ؛ فترنمت . عتبة وصيفة ولادة بهذين البيتين :

أَحِبَّتَنَا : إِنِّي بَلَغْتُ مُؤَمِّلِي ۔ وَسَاعَدَنِي دَهْرِي وَوَاصَلَنِي حِبِّي (٢)

وَجَاءَ يُهَنِّينِي الْبَشِيرُ بِقُرْبِهِ — فَأَعْطَيْتُهُ نَفْسِي، وَزِدْتُ لَهُ قَلْبِي

ليـــلة وصال (٣)

....

هَزَّ مِنْهُ الصِّبَا فَقَوَّمَ شَطْرًا ۔ وَتَجَافَى - عَنِ الْوِشَاحِ - بِشَطْرِ (٤)

رَشَأٌ أَقْصَدَ الْجَوَانِحَ قَصْدًا ۔ عَنْ جُفُونٍ كُحِلْنَ - عَمْدًا - بِسِحْرِ (٥)

---

(١) المرجح أن البيتين من نظم الشاعر صاغهما لتشدو بهما عتبة وصيفة ولادة فى خلسات اللقاء وقد أثبتناهما عن الذخيرة .

(٢) الحب بكسر الحاء : الحبيب .

(٣) آثرنا نقل هذه الأبيات من قصيدة طويله لأنها تناسب المقام ، أما القصيدة بأكلها فيمكن الرجوع إليها فى الإخوانيات .

(٤) الشطر : النصف ؛ تجافى : تباعد ؛ الوشاح : قطعة من النسيج عريضة مرصعة بالجواهر تشدها المرأة بين عاتقها ووسطها ؛ والمراد أن قدها ممشوق برزت منه بعض الأجزاء وضمر البعض الآخر ، كما قال عروة بن أذينة :

بيضاء باكرها النعيم فصاغها ۔ بلباقة (فأدقها وأجلها)

(٥) الرشأ : الظبى إذا قوى ومشى خلف أمه ج أقصد : طعن طعنة صائبة قاتلة .

كسِيَ الحُسْنَ فَهْوَ يَفْتَنُّ فِيهِ ... ساحِبًا ذَيْلَ بُرْدِهِ المُسْبَكِرِّ (١)

تَحْتَ ظِلٍّ – مِنَ الغَرَارَةِ – فَيْنَا ... نَ ، وَرَوْقٍ مِنَ الشَّبِيبَةِ نَضْرِ (٢)

أَبْرَزَ الجِيدَ فِي غَلَائِلَ بِيضٍ ... وَجَلَا الخَدَّ فِي مَجَاسِدَ حُمْرِ (٣)

وَتَثَنَّتْ بِعِطْفِهِ – إِذْ تَهَادَى – ... خَطْرَةٌ تَمْزِجُ الدَّلَالَ بِكِبْرِ (٤)

* * *

زَارَنِي – بَعْدَ هَجْعَةٍ – وَالثُّرَيَّا ... رَاحَةٌ تَقْدِرُ الظَّلَامَ بِشِبْرِ (٥)

وَالدُّجَى – مِنْ نُجُومِهِ – فِي عُقُودٍ ... يَتَلَأْلَأْنَ مِنْ سِمَاكٍ وَنَسْرِ

تَحْسَبُ الأُفْقَ بَيْنَهَا لَازَوَرْدًا ... نُثِرَتْ – فَوْقَهُ – دَنَانِيرُ تِبْرِ

فَرَشَفْتُ الرُّضَابَ أَعْذَبَ رَشْفٍ ... وَهَصَرْتُ القَضِيبَ أَلْطَفَ هَصْرِ

وَنَعِمْنَا بِلَفِّ جِسْمٍ بِجِسْمٍ ... – لِلتَّصَافِي – وَقَرْعِ ثَغْرٍ بِثَغْرِ

يَا لَهَا لَيْـــلَةً ! تَجَلَّى دُجَاهَا ... – مِنْ سَنَا وَجْنَتَيْهِ – عَنْ ضَوْءِ فَجْرِ

قَصَّرَ الوَصْلُ عُمْرَهَا ، وَبِوُدِّي ... أَنْ يَطُولَ القَصِيرُ مِنْهَا بِعُمْرِي

....

---

(١) المسبكر : الممتد المسترسل

(٢) روق الشبيبة أولها ؛ وفى نسخة ت (رق)

(٣) الجيد : العنق أو مقدمه أو موضع القلادة منه ؛ الغلائل : الملابس الداخلية ؛ والمصبوغة منها بالزعفران أو أى صبغ أحمر تسمى مجاسد .

(٤) العطف بكسر العين: جانب الجسم من أعلاه إلى الوركين .

(٥) تقدر : تقيس .

مساعفة الحظ[١]

....

إذِ الدُّنيَا مَتَى نَقْتَدْ أبِيَّ سُرُورِهَا يَتْبَعْ[٢]

وَإذْ لِلحَظِّ إقْبَالٌ وَإذْ فِي العَيْشِ مُسْتَمْتَعْ

وَإذْ أوْتَارُنَا تَهْفُو وَإذْ أقْدَاحُنَا تُتْرَعْ[٣]

وَأوْطَارُ المُنَى تُقْضَى وَأسْبَابُ الهَوَى تَشْفَعْ

فَمِنْ أدْمَانَةٍ تَعْطُو وَمِنْ قُمْرِيَّةٍ تَسْجَعْ[٤]

....

باقة أزهار

وَرَامِشَةٍ يَشْفِي العَلِيلَ نَسِيمُهَا مُضَمَّخَةِ الأنْفَاسِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ[٥]

---

(١) اخترنا هذه الأبيات من قصيدة طويلة لناسبتها للمقام ، أما القصيدة فقد أوردناها كلها فى فن الهجاء .

(٢) معنى البيت : أن لذات الدنيا — إذا تأبت على الناس — تنقاد إلينا وتتمنا أنى شئنا .

(٣) تهفو : تسرع إلى الحركة ؛ تترع : تملأ .

(٤) الأدمانة : الظبية المشربة بالبياض — والأفصح فيها أدماءة ؛ تعطو : تمدّ عنقها وترفع مقدمتيها لتناول أوراق الشجر ؛ القمرية : نوع من الطيور المغردة تشبه الحمام .

(٥) الرامشة طاقة من الريحان أو الأزهار ؛ مضمخة : معطرة ؛ النشر : الرائحة الذكية .

أَشَارَ بِهَا نَحْوِى بَنَانٌ مُنَعَّمٌ ... لِأَغْيَدَ مَكْحُولِ الْمَدَامِعِ بِالسِّحْرِ[١]

سَرَتْ نَضْرَةٌ مِنْ عَهْدِهِ فِى غُصُونِهَا ... وَعُلَّتْ بِمِسْكٍ مِنْ شَمَائِلِهِ الزُّهْرِ

إِذَا هُوَ أَهْدَى الْيَاسِمِينَ بِكَفِّهِ ... أَخَذْتُ النُّجُومَ الزُّهْرَ مِنْ رَاحَةِ الْبَدْرِ

لَهُ خُلُقٌ عَذْبٌ وَخَلْقٌ مُحَسَّنٌ

وَظَرْفٌ كَعَرْفِ الطِّيبِ أَوْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ

يُعَلِّلُ نَفْسِى مِنْ حَدِيثٍ تَلَذُّهُ

كَمِثْلِ الْمُنَى وَالْوَصْلِ فِى عُقُبِ الْهَجْرِ[٢]

ذكريات حاليات

أَذْكَرَتْنِى سَالِفَ الْعَيْشِ الَّذِى طَابَا ... يَا لَيْتَ غَائِبَ ذَاكَ الْعَهْدِ قَدْ آبَا[٣]

إِذْ نَحْنُ فِى رَوْضَةٍ لِلْوَصْلِ نَعَّمَهَا ... مِنَ السُّرُورِ غَمَامٌ فَوْقَهَا صَابَا[٤]

إِنِّى لَأَعْجَبُ مِنْ شَوْقٍ يُطَاوِلُنِى ... فَكُلَّمَا قِيلَ فِيهِ: «قَدْ قَضَى»، ثَابَا[٥]

كَمْ نَظْرَةٍ لَكِ فِى عَيْنِى عَلِمْتِ بِهَا ... يَوْمَ الزِّيَارَةِ أَنَّ الْقَلْبَ قَدْ ذَابَا[٦]

---

(١) الأغيد : الناعم أو الوسنان المائل العنق ، علت : سقيت ثانياً .

(٢) عقب الهجر : عاقبته

(٣) فى نفح الطيب : ذاك الوقت

(٤) « « « : أنعمها

(٥) « « « : يطالبنى

(٦) « « « : كم نظرة لك عندى قد علمت بها

قَلْبٌ يُطِيلُ مُعَاصَاتِي لِطَاعَتِكُمْ فَإِنْ أُكَلِّفْهُ عَنْكُمْ سَلْوَةً يَأْبَى[١]
— مَا تَوْبَتِي بِنَصُوحٍ — مِنْ مَحَبَّتِكُمْ — لَا عَذَّبَ اللهُ إِلَّا عَاشِقًا تَابَا[٢]

هدية محبوبة

أَهْدَى إِلَيَّ بَقِيَّةَ الْمِسْوَاكِ لَا تُظْهِرِي بُخْلًا بِعُودِ أَرَاكِ[٣]
فَلَعَلَّ نَفْسِي أَنْ يُنَفِّسَ سَاعَةً عَنْهَا بِتَقْبِيلِ الْمُقَبَّلِ فَاكِ[٤]
يَا كَوْكَبًا — بَارَى سَنَاهُ سَنَاءَهُ — تَزْهَى الْقُصُورُ بِهِ عَلَى الْأَفْلَاكِ[٥]
قَرَّتْ وَفَازَتْ — بِالْخَطِيرِ مِنَ الْمُنَى — عَيْنٌ تُقَلِّبُ لَحْظَهَا فَتَرَاكِ

حسن تعليل[٦]

قَالَ لِي: «أَعْتَابُ مَنْ هَوِيتَ» حَسُودٌ قُلْتُ: «أَنْتَ الْعَلِيلُ وَيْحَكَ، لَا هُو»

---

(١) فى نفح الطيب : وخريدة القصر :

قلب يطيـــل معاصاتى لطاعتـكم فإن أكلفه يوما سلوة يأبى

وفى أصول الديوان : (مقاماتى) وقد آثرنا رواية النفح والخريدة لأنها أنسب للمعنى وأقرب إلى صياغة الشاعر الفنية ؛ يابى : يأبى .

(٢) فى الخريدة : فى محبتكم .

(٣) الأراك : شجر يتخذ الناس من فروعه المساويك .

(٤) معنى البيت : أنه يتمنى أن ينفس عنه حزنه تقبيل المسواك الذى قبل فاها .

(٥) السنا : الضوء . والسناء الرفعة . والمعنى أنها اجتمع فيها الجمال الوضاء والحسب الرفيع ، وأن القصور تباهى بها أفلاك النجوم . وفى نسخة (تزهو) .

(٦) ظهرت بمض الحبوب فى وجه حبيبته فصاغ فيها هذه الأبيات .

مَا الَّذِى أَنْكَرُوهُ مِنْ بَثَرَاتٍ ضَاعَفَتْ حُسْنَهُ وَزَادَتْ حُلاَهُ[١]
جِسْمُهُ – فِي الصَّفَاءِ وَالرِّقَّةِ – المَا ءُ ، فَلاَ غَرْوَ أَنْ حَبَابٌ عَلاَهُ[٢]

نور ونار[٣]

وَبِنَفْسِي – وَإِنْ أَضَرَّ بِنَفْسِي – قَمَرٌ لاَ يَنَالُ مِنْهُ السِّرَارُ[٤]
جَالَ مَاءُ النَّعِيمِ مِنْهُ بِخَدٍّ فِيهِ لِلْمُسْتَشِفِّ نُورٌ وَنَارُ[٥]
مُتَجَنٍّ ، يَحْلُو تَجَنِّيهِ عِنْدِى فَهْوَ يَجْنِي ، وَمِنِّيَ الْإِعْتِذَارُ

الظالم المظلوم

سِرِّى وَجَهْرِى أَنَّنِي تَائِمُ قَامَ بِكَ الْعُذْرُ ، فَلاَ لاَئِمُ[٦]
لاَ يَنَمِ الْوَاشِي الَّذِى غَرَّنِي هَا أَنَا – فِي ظِلِّ الرِّضَى – نَائِمُ[٧]
عُدْتُ إِلَى الْوَصْلِ – كَمَا أَشْتَهِي – فَالْهَجْرُ بَاكٍ ، وَالرِّضَى بَاسِمُ

(١) وفى بعض نسخ نفح الطيب : (وزانت حلاه) .
(٢) الحباب بفتح الحاء : الفقاقيع التى تعلو صفحة الماء .
(٣) لم ترد هذه الأبيات بالديوان ، وقد أثبتناها عن كتاب المختار من شعر شعراء الأندلس ، وعن خريدة القصر .
(٤) السرار : الليلة الأخيرة من الشهر .
(٥) المستشف : المتطلع إلى ماوراء الشيء أو ماخفى منه .
(٦) تائم من التيم : وهو فساد العقل وذهابه من الهوى ؛ والمعنى أن جمالك الفتان أذهل عقلي فلا لوم على سواء كتمت حبك أم أعلنته وفى الأصل (نائم) .
(٧) نائم من النوم أى الهدوء والسكينة ؛ أو من النيم بكسر النون : أى النعمة التامة .

حسْبِي ، أَنَا الْمَظْلُومُ فِيمَا جَرَى ، وَإِنْ تَشَأْ قُلْتُ : « أَنَا الظَّالِمْ »
يا سائلاً عمّا بنفسي لهُ - تجنّياً - وهوَ بهِ عالمْ
مَعْنَى الْهَوى أنتَ، وشخصُ المُنى، دعْنِيَ مِمّا يزعمُ الزّاعمْ[١]

الحبية «أسماء»[٢]

إنَّ لِلأَرْضِ وَالسَّماءِ وَلِلْمَا ءِ عَلَيْنَا أَذِمَّةً لَا تُذَمُّ[٣]
هِيَ بَعْضُ اسْمِ مَنْ أُحِبُّ وِلاَءً وَبِتَكْرِيرِ بَعْضِهَا يَتِمُّ[٤]

مفضض الثغر[٥]

أَيَّتُهَا النَّفْسُ إِلَيْهِ اذْهَبِي فَمَا لِقَلْبِي عَنْهُ مِنْ مَذْهَبِ
مُفَضَّضُ الثَّغْرِ لَهُ نُقْطَةٌ مِنْ عَنْبَرٍ فِي خَدِّهِ الْمُذْهَبِ
أَيْسَنِيَ التَّوْبَةَ مِنْ حُبِّهِ طُلُوعُهُ شَمْسًا مِنَ الْمَغْرِبِ[٦]

---

(١) فى الأصل : معى الهوى ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٢) ربط الشاعر بين الطبيعة وبين أسم حبيبته (أسماء) ، فرجع حروف اسمها إلى الأرض والسماء والماء .

(٣) أذمة : جمع ذمام وهو الحق أو الحرمة

(٤) ولاء (بكسر الواو) : متوالية متتابعة .

(٥) لم ترد الأبيات بالديوان ، وقد وردت فى النجوم الزاهرة حـ ٥ ص ٨٨ ، وإن كان ابن سعيد قد نسبها فى كتابه «عنوان المرقصات والمطربات» إلى أبى القاسم ابن طلحة الصقلى .

(٦) يشير إلى الحديث الشريف : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » .

موكب الجمال[1]

....

وَغُصنٍ تَرَشَّفَ ماءَ الشَّبابِ   تَرَاهُ الهَوَى، وَجَنَاهُ الأمَل[2]

تَهادَى لَطِيفَةَ طَيِّ الوِشاحِ   وَتَرْنُو ضَعِيفَةَ كَرِّ المُقَل[3]

وَتَبرُزُ خَلفَ حِجابِ العَفافِ   وَتَسفِرُ تَحتَ نِقابِ الخَجَل[4]

بَدَتْ فِي لِدَاتٍ - كَزُهْرِ النُّجومِ -   حِسَانِ التَّحَلِّي مِلاحِ العَطَل[5]

مَشَيْنَ يُباهِينَ رَوضَ الرُّبا   بِيانِعِ رَوضِ الصِّبا المُقتَبَل -

فَمِنْ قُضُبٍ تَنثَنِي بِرِيحٍ   وَمِنْ قُضُبٍ تَنثَنِي بِدَلّ

وَمِنْ زَهَرَاتٍ تَندَّى بِمِسكٍ   وَمِنْ زَهَرَاتٍ تَندَّى بِطَلّ

تَعاهَدَ صَوبُ العِهادِ الحِمَى   وَلا حَلَّ مَرْبَعَها فِي مَثَل[6]

مَرادٌ - مِنَ الحُبِّ - غَضُّ الجَنَى،   لَدَيهِ - مِنَ الوَصلِ - وِرْدٌ عَلَل[7]

لَيالِيَ ما أنفَكُّ يُهدِي السُّرورَ   حَبِيبٌ سَرَى، وَرَقِيبٌ غَفَل

....

---

(١) أبيات مختارة من قصيدة طويلة أوردناها بتمامها فى فن المديح .

(٢) شبه حبيبته بغرس نما فى ثرى الحب وارتوى بماء الشباب فأثمـــر أعذب الآمال . (٣) تهادى : تتهادى أى تتمايل فى مهل إعجابا بجمالها .

(٤) تظهر فى حجاب من عفافها ؛ وتبرز للعيون ولـكن تحت ستار من الخجل، وفى الأصل (تحت النقاب) .

(٥) لدات زميلات ، والمعنى : ظهرت بين غادات فاتنات مثل النجوم الزهر جملات فى حالتى التجرد أو التحلى .

(٦) صوب العهاد : المطر؛ وفى الأصل (مل مربعها) ولعل الصواب ماذكرناه .

(٧) مراد : موضع الجيئة والذهاب ، ورد علل : منهل مطروق .

٢ — بين روعة الطبيعة ولهفة الهيام —

« فتنت الطبيعة شاعرنا كما فتنته حبيبته ، فخفق قلبه خفقتين ، وهتف بكلا الحبين هتافا رددته الأيام ، وخلده الزمان » .

ليالي قرطبة

سَقَى الْغَيْثُ أَطْلَالَ الأَحِبَّةِ بِالْحِمَى
وَحَاكَ عَلَيْهَا ثَوْبَ وَشْيٍ مُنَمْنَمَا
وَأَطْلَعَ فِيهَا لِلأَزَاهِيرِ أَنْجُمَا
فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الْخَرَائِدُ كَالدُّمَى   إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غُلَامُ(١)

* * *

أَهِيمُ بِجَبَّارٍ يَعِزُّ وَأَخْضَعُ
شَذَا الْمِسْكِ — مِنْ أَرْدَانِهِ — يَتَضَوَّعُ
إِذَا جِئْتُ أَشْكُوهُ الْجَوَى لَيْسَ يَسْمَعُ
فَمَا أَنَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْوَصْلِ أَطْمَعُ   وَلَا أَنْ يَزُورَ الْمُقْلَتَيْنِ مَنَامُ(٢)

* * *

(١) حاك : نسج ؛ الوشى : النسيج المزخرف بالألوان ؛ رفلت : تهادت وتبخترت ؛ الخرائد : الفتيات الحييات أو الأبكار ؛ الدمى : تماثيل صغيرة متقنة الصنع ، وتصنع من الرخام أو العاج غالباً ، ويضرب بها المثل فى الحسن فيقال : أحسن من الدمية .

(٢) شذا المسك : عبيره ، الأردن : أكمام القميص أو أثواب الخز ؛ يتضوع : يفوح .

قَضِيبُ - مِنَ الرَّيْحَانِ - أُثْمِرَ بِالبَدْرِ .
لَوَاحِظُ عَيْنَيْهِ مُلِئْنَ مِنَ السِّحْرِ
وَدِيبَاجُ خَدَّيْهِ حَكَى رَوْنَقَ الخَمْرِ
وَأَلْفَاظُهُ - فِي النُّطْقِ - كَاللُّؤْلُؤِ النَّثْرِ وَرِيقَتُهُ - فِي الْأَرْتِشَافِ - مُدَامُ(١)

* * *

سَقَى جَنَبَاتِ الْقَصْرِ صَوْبُ الْغَمَائِمِ
وَغَنَّى عَلَى الْأَغْصَانِ وُرْقُ الْحَمَائِمِ
« بِقُرْطُبَةَ » الْغَرَّاءِ دَارِ الْأَكَارِمِ
بِلَادٌ بِهَا عَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي وَأَنْجَبَنِي قَوْمٌ - هُنَاكَ - كِرَامُ(٢)

* * *

فَكَمْ لِيَ فِيهَا مِنْ مَسَاءٍ وَإِصْبَاحِ
بِكُلِّ غَزَالٍ مُشْرِقِ الوَجْهِ وَضَّاحِ
يُعَدِّمُ(٣) أَفْوَاهَ الْكُئُوسِ بِتُفَّاحِ
إِذَا طَلَعَتْ - فِي رَاحِهِ - أَنْجُمُ الرَّاحِ فَإِنَّا - لِإِعْظَامِ المُدَامِ - قِيَامُ

---

(١) الديباج : النقش أو الزينة أو نسيج حريرى، والمراد صفحة خديه الناعمين كالمخمل الحريرى .

(٢) عق الشباب تمائمى : شق الشباب العـوذات التى علقت على طفلا ، والمراد : أننى ولدت ونشأت فى هذه المواطن الجميلة .

(٣) يقدم : يعطى ، والمراد التفكه بالتفاح مع الشراب، الراح : جمع راحة وهى الكف .

* * *

وَيَوْمٍ لَدَى «الْبُنْتِيِّ» فِي شَاطِئِ النَّهْرِ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي فِتْيَةٍ زُهْرِ
وَلَيْسَ لَنَا فَرْشٌ سِوَى يَانِعِ الزَّهْرِ
يَدُورُ بِهَا عَذْبُ اللَّمَا أَهْيَفُ الْخَصْرِ بِفِيهِ مِنَ الثَّغْرِ الشَّنِيبِ نِظَامُ[١]

* * *

وَيَوْمٍ «بِجَوْفِيِّ الرُّصَافَةِ» مُبْهِجِ
مَرَرْنَا بِرَوْضِ الْأُقْحُوَانِ الْمُدَبَّجِ
وَقَابَلَنَا فِيهِ نَسِيمُ الْبَنَفْسَجِ
وَلَاحَ لَنَا وَرْدٌ بِخَدٍّ مُضَرَّجٍ تَرَاهُ أَمَامَ النَّوْرِ وَهْوَ إِمَامُ[٢]

* * *

وَأَكْرِمْ بِأَيَّامِ «الْعُقَابِ» السَّوَالِفِ
وَلَهْوٍ أَتَيْنَاهُ بِتِلْكَ الْمَعَاطِفِ
بِسُودِ أَثِيثِ الشَّعْرِ بِيضِ السَّوَالِفِ

---

(١) البنتى : نسبة إلى البنت وهو حصن من أعمال بلنسية ، ولعله نهر صغير ينساب منه إلى ضواحى قرطبة ؛ عذب اللما : طيب الشفتين ؛ الشنب : ماء ورقة وبياض وعذوبة فى الأسنان ؛ والثغر الشنيب : الفم المفتر عن أسنان لؤلؤية .

(٢) الجوف عند الأندلسيين والمغاربة هو الشمال ؛ جوفى الرصافة : شمالها ، وهى ضاحية من ضواحى قرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل وزينها بالحدائق الغناء وزاد فيها خلفاؤه من بعده ، وقد نشأ الشاعر وشب فى ربوعها الغناء ، الأقحوان : زهر طيب الريح ذوورق أبيض مشرشر فى وسطه دائرة صفراء ؛ المدبج : المزين المزخرف .

إذا رفلوا في وَشي تلكَ المطارفِ فليسَ - على خلعِ العِذارِ - ملامُ(١)

* * *

وكمْ مشهدٍ عندَ « العقيقِ » وجسرِهِ
قعدنا على خمرِ النباتِ وصفرِهِ
وظبيٍ يسقّينا سلافةَ خمرِهِ
حكى جسدي في السقمِ رقةَ خصرِهِ لواحظُهُ - عندَ الرنوِّ - سهامُ(٢)

* * *

فقلْ لزمانٍ قدْ تولّى نعيمُهُ
ورثّتْ - على مرِّ الليالي - رسومُهُ
وكمْ رقَّ فيهِ - بالعشيِّ - نسيمُهُ
ولاحتْ لساري الليلِ فيهِ نجومُهُ : « عليكَ منَ الصبِّ المشوقِ سلامُ »

---

(١) أثيث الشعر : غزيره ؛ السوالف : صفحات العنق ؛ رفلوا : تهادوا في تيه وعجب ، الطارف : أردية من الخز مربعة ذات أعلام ، خلع العذار : الاستهتار وعدم المبالاة .

(٢) الرنو : إدامة النظر ، وفي الأصل : الدنو ؛ ومعناه : القرب .

مواكب الذكريات

تَنَشَّقَ - مِنْ عَرْفِ الصَّبَا - مَاتَنَشَّقَا

وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصِّبَا فَتَشَوَّقَا

وَمَا زَالَ لَمْعُ الْبَرْقِ - لَمَّا تَأَلَّقَا

يُهِيبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدَفَّقَا ، وَهَلْ يَمْلِكُ الدَّمْعَ الْمَشُوقُ الْمُصَبَّا ؟[1]

* * *

خَلِيلَيَّ - إِنْ أَجْزَعْ فَقَدْ وَضَحَ الْعُذْرُ .

وَإِنْ أَسْتَطِعْ صَبْراً فَمِنْ شِيمَتِى الصَّبْرُ

وَإِنْ يَكُ رُزْءاً مَا أَصَابَ بِهِ الدَّهْرُ

فَفِي يَوْمِنَا خَمْرٌ ، وَفِي غَدِهِ أَمْرُ وَلَا عَجَبٌ ، إِنَّ الْكَرِيمَ مُرَزَّأُ[2]

* * *

رَمَتْنِي اللَّيَالِي عَنْ قِسِيِّ النَّوَائِبِ

فَمَا أَخْطَأَتْنِي مُرْسَلَاتُ الْمَصَائِبِ

أَقَضِّي نَهَارِي بِالْأَمَانِيِّ الْكَوَاذِبِ

وَآوِي إِلَى لَيْلٍ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ وَأَبْطَأُ سَارٍ كَوْكَبٌ بَاتَ يُكْلَأُ[3]

---

(١) العرف : الطيب ، الصَّبا : ريح الشمال ، أهاب : دعا ، المُصَبَّأ : الذى ثارت به الصبوة .

(٢) « اليوم خمر وغدا أمر » مثل قاله امرؤ القيس حينما بلغه مصرع أبيه، وكان فى مجلس لهو وشراب . ويروى أنه قال أيضاً : «لاصحو اليوم، ولا سكر غداً» .

(٣) ليل بطىء الكواكب : طويل ، يشير إلى قول النابغة .

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

كلأ الكوكب : رعاه وأطال مراقبته .

أَقُرْطُبَةُ الغَرَّاءُ ! هَلْ فِيكِ مَطْمَعُ ؟
وَهَلْ كَبِدٌ حَرَّى لِبَيْنِكِ تُنْقَعُ ؟
وَهَلْ لِلَيَالِيكِ الحَمِيدَةِ مَرْجِعُ ؟
إِذِ الحُسْنُ مَرْأًى فِيكِ وَاللَّهْوُ مَسْمَعُ وَإِذْ كَنَفُ الدُّنْيَا لَدَيْكِ مُوَطَّأُ (١)

* * *

أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ تَشُطَّ النَّوَى بِكِ ؟
فَأَحْيَا كَأَنْ لَمْ أَنْشَ نَفْحَ جَنَابِكِ
وَلَمْ يَلْتَئِمْ شَمْلِي خِلَالَ شِعَابِكِ
وَلَمْ يَكُ خَلْقِي بَدْؤُهُ مِنْ تُرَابِكِ وَلَمْ تَكْتَنِفْنِي مِنْ نَوَاحِيكِ مَنْشَأُ (٢)

* * *

نَهَارُكِ وَضَّاحٌ ، وَلَيْلُكِ ضَحْيَانُ
وَتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ ، وَغُصْنُكِ نَشْوَانُ
وَأَرْضُكِ تُكْسَى ، حِينَ جَوُّكِ عُرْيَانُ
وَرَيَّاكِ رَوْحٌ لِلنُّفُوسِ وَرَيْحَانُ وَحَسْبُ الأَمَانِي ظِلُّكِ المُتَفَيَّأُ (٣)

* * *

أَأَنْسَى زَمَانًا « بِالعُقَابِ » مُنْفَلًا ؟

---

(١) الكنف : الناحية أو الظل ، وكنف الله : إحِرْزُهُ وستره ورحمته ؛ موطأ : ممهد ومهيأ .

(٢) لم أنش : لم أشمّ ، النفح : الرائحة الذكية ؛ الجناب : الفناء ، الشمل : الصدع ، والتأم شملهم : إذا اجتمعوا بعد تفرق ؛ الشعاب : الأحياء العظيمة أو مسايل المياه أو ما بين الجبال .

(٣) نهارك وضاح : مضيء مشرق ؛ ضحيان : بارز للشمس ، ومعنى ليلك ضحيان : أى وضّاء ؛ مصبوح : مسقى فى الصباح .

وَعَيْشًا بِأَكْنَافِ «الرُّصَافَةِ» دَغْفَلَا ؟

وَمَغْنًى ـ إِزَاءَ « الْجَعْفَرِيَّةِ » ـ أَقْبَلَا

لَنِعْمَ مَرَادُ الْأُنْسِ رَوْضًا وَجَدْوَلَا   وَنِعْمَ مَحَلُّ الصَّبْوَةِ الْمُتَبَوَّأُ (١)

* * *

وَيَارُبَّ مَلْهًى « بِالْعَقِيقِ » وَمَجْلِسِ

لَدَى تُرْعَةٍ ، تَرْنُو بِأَحْدَاقِ نَرْجِسِ

بِطَاحُ هَوَاءٍ مُطْمِعِ الْخَالِ مُؤْيِسِ

مَغِيمٍ ـ وَلَكِنْ مِنْ سَنَا الرَّاحِ ـ مُشْمِسِ   إِذَا مَا بَدَتْ ـ فِي كَأْسِهَا ـ تَتَلَأْلَأُ (٢)

* * *

وَقَدْ ضَمَّنَا ـ مِنْ «عَيْنِ شُهْدَةَ» ـ مَشْهَدُ

بَدَأْنَا وَعُدْنَا فِيهِ ، وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ

يَزُفُّ عَرُوسَ اللَّهْوِ أَحْوَرُ أَغْيَدُ

لَهُ مَبْسِمٌ عَذْبٌ ، وَخَدٌّ مُوَرَّدٌ ،   وَكَفٌّ ـ بِحِنَّاءِ الْمُدَامِ ـ تُقَنَّأُ (٣)

* * *

(١) الغَفَل بفتح الغين والفاء : السعة من العيش ومنه قول الشاعر :

إذ نحن فى غَفَلٍ ، وأكثرهمنا   صرف النوى وفراقنا الجيرانا

والمغفل : المستور ، ومعنى الزمان المغفل : الهادىء الناعم ، ومنه غفلات العيش ؛ عيش دغفل : واسع مخصب ؛ المراد بفتح الميم : مكان الجيئة والذهاب .

(٢) الترعة : فوهة الجدول ، أو الروضة فى مكان مرتفع ؛ البطاح : مسايل المياه ، وبطاح هواء : ممرات هواء ؛ وقد تكون (مطاح هواء) أى مساقط هواء ؛ الخال : السحاب الذى لا يخلف مطره أو لا مطر فيه ؛ والمعنى : مساقط هواء عليل ، يطمع فى المطر رقته ويؤيس منه لجفافه ، والجو مقنع بالغيوم ولكنه مضىء من أشعة الخمر .

(٣) تقنأ : تصبغ باللون الأحمر النبعث من أشعة المدام .

وَكَانَ عَدْوُنَا - مُصْعِدِينَ - عَلَى الْجِسْرِ
إِلَى (الْجَوْسَقِ النَّصْرِيِّ) بَيْنَ الرُّبَا الْعُفْرِ
وَرُحْنَا إِلَى الْوَعْسَاءِ مِنْ شَاطِئِ النَّهْرِ
بِحَيْثُ هُبُوبُ الرِّيحِ عَاطِرَةَ النَّشْرِ عَلَى قُضُبِ النُّوَارِ، فَهِيَ تُكَفَّأُ (١)

* * *

وَأَحْسِنْ بِأَيَّامٍ - خَلَوْنَ - صَوَالِحِ
(بِمَصْنَعَةِ الدُّولَابِ)، أَوْ قَصْرِ (نَاصِحِ)
بِهِ الصِّبَا - أَثْنَاءَ تِلْكَ الْأَبَاطِحِ -
صَفِيحَةَ سَلْسَالِ الْمَوَارِدِ سَائِحِ تَرَى الشَّمْسَ تَجْلُو نَصْلَهَا حِينَ تَصْدَأُ (٢)

* * *

وَيَا حَبَّذَا « الزَّهْرَاءُ » بَهْجَةَ مَنْظَرِ
وَرِقَّةَ أَنْفَاسٍ، وَصِحَّةَ جَوْهَرِ
وَنَاهِيكَ مِنْ مَبْدَا جَمَالٍ وَمَحْضَرِ
وَجَنَّةِ عَدْنٍ تَطَّبِيكَ وَكَوْثَرِ بِمَرْأًى يَزِيدُ الْعُمْرَ - طِيبًا - وَيَنْسَأُ (٣)

* * *

(١) كان عدونا: كم جرينا؛ الجسر بفتح الجيم وكسرها: القنطرة الممتدة على مجرى الماء؛ الجوسق: القصر؛ العفر: الرمال البيضاء أو الحمراء؛ الوعساء: رابية من الرمل الندي تنبت أحرار البقول. تكفأ: تمايل.

(٢) المصنعة: الحوض المتسع لجمع الماء، الدولاب آلة للري، مصنعة الدولاب مكان وافر المياه، وهو هنا علم؛ الأباطح: مسايل المياه.

(٣) ناهيك: حسبك؛ تطبيك: تدعوك؛ ينسأ: يؤخر.

مَعَاهِدُ أَبْكِيهَا لِعَهْدِ تَصَرَّمَا
أَغَضَّ - مِنَ الْوَرْدِ الْجَنِيِّ - وَأَنْعَمَا
لَبِسْنَا الصِّبَا فِيهَا حَبِيراً مُنَمْنَمَا
وَقُدْنَا - إِلَى اللَّذَّاتِ - جَيْشاً عَرَمْرَمَا   لَهُ الْأَمْنُ رِدْءٌ، وَالْغَضَارَةُ مَرْبَأُ[1]

* * *

كَسَاهَا الرَّبِيعُ الطَّلْقُ وَشْيَ الْخَمَائِلِ —
وَرَاحَتْ لَهَا مَرْضَى الرِّيَاحِ الْبَلَائِلِ
وَغَادَى بَنُوهَا الْعَيْشَ حُلْوَ الشَّمَائِلِ
وَلَا زَالَ مِنَّا بِالضُّحَى وَالْأَصَائِلِ   سَلَامٌ - عَلَى تِلْكَ الْمَيَادِينِ - يُقْرَأُ[2]

* * *

أَإِخْوَانَنَا لِلْوَارِدِينَ مَصَادِرُ
وَلَا أَوَّلٌ إِلَّا سَيَتْلُوهُ آخِرُ —
وَإِنِّي - لِإِعْتَابِ الزَّمَانِ - لَنَاظِرُ
فَقَدْ يَسْتَقِيلُ الْجَدُّ - وَالْجَدُّ عَاثِرٌ -   وَتُحْمَدُ عُقْبَى الْأَمْرِ مَا زَالَ يُشْنَأُ[3]

* * *

ظَمِئْتُ، وَكَانَ الْحُرُّ يَجْفَى فَيَظْمَنُ

---

(١) الحبير المنمم : الثوب الناعم الموشى ؛ وفى ب ، ت ، ز (حريرا) ؛ رده : ظهير ومعين ، الغضارة : السعة والنعمة والخصب ؛ وفى الأصل (الغداوة) ، المربأ : مكان المراقبة .

(٢) راحت : خفت وطابت .

(٣) إعتاب : إرضاء وصفح ، يستقيل الجد : ينهض من عثاره ؛ يشنأ : يبغض .

وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالْأَسَى حِينَ أَحْزَنُ
وَقَرَّ – عَلَى الْبَأْسِ – الْفُؤَادُ الْمُوَطَّنُ
وَإِنَّ بِلاَدًا هُنْتُ فِيهَا لَأَهْوَنُ وَمَنْ رَامَ مِثْلِى بِالدَّنِيَّةِ أَدْنَا[1]

* * *

وَلاَ يُغْبِطِ الْأَعْدَاءَ كَوْنِىَ فِى السِّجْنِ
فَإِنِّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ تُحْضَنُ بِالدَّجْنِ
وَمَا كُنْتُ إِلاَّ الصَّارِمَ الْعَضْبَ فِى جَفْنِ
أَوِ اللَّيْثَ فِى غَابٍ، أَوِ الصَّقْرَ فِى وَكْنِ أَوِ الْعِلْقَ يُخْفَى فِى الصِّوَانِ وَيُخْبَأُ[2]

* * *

يَضِيقُ بِأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ مَذْهَبِى
إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ مِنْكُمْ مُهَذَّبِ
مُفَضَّضِ لَأْلاَءِ الْأَسَارِيرِ مُذْهَبِ
يُنَافِسُ مِنْهُ الْبَدْرُ غُرَّةَ كَوْكَبِ دَرَى أَنَّهَا أَبْهَى سَنَاءً وَأَضْوَأُ[3]

* * *

---

(١) ظعنت: رحلت، الأسى بكسر الهمزة وضمها جمع أسوة بالكسر والضم: ما يتعزى به الحزين.

(٢) تحضن: تحبس وتمنع: الدجن: الغيم، الصارم العضب: السيف القاطع؛ جفن: غمد؛ وكن: عش؛ العلق: التحفة الثمينة، الصوان والصيان: وعاء الصون والحفظ وفى نسخة ا (الصوار): وهو وعاء المسك.

(٣) الأسارير: جمع أسرار، وهى جمع سرر بكسر السين وفتح الراء، والأسارير: الخطوط الظاهرة فى الجبهة أو الكف، والمعنى: أن وجهه مضىء مشرق متلألىء.

أسِفتُ ، فما أرتاحُ – والرّاحُ تَعمَلُ –

وَلاَ أسمعُ الأوتارَ – وَهِيَ ترسّلُ –

ولاَ أرعوِي عَنْ زفرةٍ – حِينَ أعذَلُ –

وَلاَ لِيَ – مُذْ فارقتُكمْ – مُتَعَلَّلُ   سِوَى خبرٍ مِنكُمْ – عَلَى النَّأيِ – يَطرأُ[1]

* * *

حَمِدتُمْ – مِنَ الأيامِ – لِينَ خِلالِهاَ

وَسَرّتكمُ الدُّنيا بِحُسْنِ دَلالِهاَ –

مُؤَمَّنةً مِنْ عَتْبِها وَمَلالِهاَ

وَلا زالَ مِنكُمْ لاَبِسٌ مِنْ ظِلالِهاَ   يُسَوّغُ أبكارَ المُنَى وَيُهَنَّأُ[2]

---

(١) المعنى : أنه يأسف لفراقهم ، فلا يطرب للخمر حين يسرع دبيبها في الجسم . ولا يهتز للأوتار حين تأسر ألحانها القلوب ؛ ولا يعدل عن الزفرات حين يلام ، ولا يتعلل إلا بتسقط أخبارهم ، وفي ت (مَن زفرة) .

(٢) يسوغ : يهنأ . وسوغه الله النعمى : يسرها وسهلها .

مجالى الزهراء

« عاد الشاعر مستخفيا إلى الزهراء بعد فراره من قرطبة ، ومنها أرسل هذه القصيدة إلى حبيبته .

والزهراء ضاحية من ضواحى قرطبة ، أنشأها الخليفة الناصر بسفح جبل العروس تخليدا لذكرى حظية له ، وسمّاها باسمها ، ورصد لتشييدها ثلث جباية الدولة ، وكانت تلك الجباية تناهز ٤٠ ألف ألف دينار ؛ واستمر فى بنائها عشرات الأعوام ، وجلب إليها الرخام ومهرة الصناع من القسطنطينية ، فجاءت آية من آيات العمارة فى القرون الوسطى » .

إِنِّى ذَكَرْتُكِ « بِالزَّهْرَاءِ » مُشْتَاقَا
وَالْأُفْقُ طَلْقٌ ، وَمَرْأَى الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا(١)

وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ — فِى أَصَائِلِهِ — كَأَنَّهُ رَقَّ لِى ، فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا(٢)

وَالرَّوْضُ — عَنْ مَائِهِ الْفِضِّىِّ — مُبْتَسِمٌ ، كَمَا شَقَقْتَ — عَنِ اللَّبَّاتِ — أَطْوَاقَا(٣)

نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهَرٍ جَالَ النَّدَى فِيهِ ، حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا

كَأَنَّ أَعْيُنَهُ — إِذْ عَايَنَتْ أَرَقِى — بَكَتْ لِمَا بِى ، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقَا

وَرْدٌ تَأَلَّقَ — فِى ضَاحِى مَنَابِتِهِ — فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى فِى الْعَيْنِ إِشْرَاقَا

---

(١) فى تمام المتون (والجو طلق . . .) ، وفى القلائد وبعض نسخ الذخيرة (ووجه الأرض . .) وفى سرح العيون (وماء الروض . . .) .

(٢) فى بعض نسخ الذخيرة والنفح (كأنما رق لى . . .) .

(٣) فى القلائد وبعض نسخ الذخيرة (كما حللت . . .) واللبات جمع لبة : وهى أعلى الصدر أو موضع القلادة منه .

سَرَى يُنَاجِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عَبِقٌ وَسْنَانُ، نَبَّهَ مِنْهُ الصُّبْحُ أَحْدَاقَا[١]

كُلٌّ يَهِيجُ لَنَا ذِكْرَى تَشَوُّقِنَا – إِلَيْكِ، لَمْ يَعْدُهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا[٢]

لَا سَكَّنَ اللهُ قَلْبًا، عَنَّ ذِكْرُكُمُ فَلَمْ يَطِرْ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ خَفَّاقَا[٣]

لَوْ شَاءَ حَمْلِي نَسِيمُ الصُّبْحِ – حِينَ سَرَى – وَافَاكُمُ بِفَتًى أَضْنَاهُ مَا لَاقَى[٤]

يَوْمٌ، كَأَيَّامِ لَذَّاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ، بِتْنَا لَهَا – حِينَ نَامَ الدَّهْرُ – سُرَّاقَا

لَوْ كَانَ وَفَّى الْمُنَى – فِي جَمْعِنَا بِكُمُ – لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقَا

* * *

يَا عِلْقِيَ الْأَخْطَرَ الْأَسْنَى الْحَبِيبَ إِلَى نَفْسِي، إِذَا مَا اقْتَنَى الْأَحْبَابُ أَعْلَاقَا[٥]

كَانَ التَّجَازِي بِمَحْضِ الْوُدِّ – مُذْ زَمَنٍ –

مَيْدَانَ أُنْسٍ جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقَا[٦]

فَالْآنَ – أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمُ – سَلَوْتُمُ، وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَّاقَا!

---

(١) النيلوفر: زهر كبير ينبت فى المياه الراكدة تنطبق أوراقه فى الليل وتتفتح فى النهار.

(٢) المعنى: أن مجالى الطبيعة تهيج فينا الذكريات الماضية فتتوافد وتحتشد حتى يضيق الصدر عن استيعابها.

(٣) فى الذخيرة (عنّ ذكركم..) بمعنى جحد ذكراكم؛ عنّ: عرض؛ وفى تمام المتون (ولم يطر...).

(٤) فى تمام المتون (حين هنا...).

(٥) العلق: الغالى النفيس، الأخطر: الرفيع، الأسنى: الأسمى.

(٦) فى النفح (من زمن...).

(٣) حنين الذكريات

« طوى الشاعر شطرا من حياته ، مشرداً عن وطنه ، نائياً عن أهله ، مفارقاً أحبابه ، فامتزج فى فنه الحنين بالشجن ؛ والتقى الألم بالأمل ، وتزاحمت فى نفسه الذكريات ، مرددة هذه الأنات » .

آمال وآلام

« فر الشاعر من سجنه بقرطبة إلى إشبيلية ، ولكن قلبه جذبه إلى حبيبته بقرطبة ، فأرسل إليها هذه القصيدة الخالدة التى نالت شهرة عظيمة ، وثارت حولها الأساطير حتى قيل: «ماحفظها أحد إلاّ مات غريبا » ولهج كثيرون بأنّ إنسانا لايتم له الظرف مالم يحفظها »

وقد شغف بمعارضتها وتخميسها وتسديسها كثيرون ، ولكنها ظلت سامقة فى مكانها الرفيع[1] » .

أَضْحَى التَّنَائِى بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا[2]

(١) وردت القصيدة فى عدة مصادر قديمة ، وفيها اختلاف فى ترتيب بعض الأبيات وفى بعض العبارات ، كما أن هناك خلافا فى مبدئها ، فيقول ابن نباته : « . . . وله القصيدة النونية التى أولها : [بنتم وبنا . . . . البيت] وقد تداولتها الألسن وزيد فيها ما كانت فى غنى عنه » فكأن الأحد عشر بيتاً الأولى ليست من القصيدة ، ولكن الصفدى يقول « . . . ومن ذلك قصيدته النونية التى أولها : [أضحى التنائى بديلا . . البيت] .

ولكل من الرأيين ما يزكيه ، ونحن نرجح أن الشاعر صاغ قصيدته ، ثم أعاد النظر فيها كعادته ، فزاد فيها وحرص على جعل أولها مصرعا .

(٢) فى نسخة ا ، ب (وبان) وفى ت ، ز (وآن) وكذلك القلائد ، وقد أخذنا رواية نفح الطيب . والمعنى أن الفراق حلَّ محلَّ الوصال ، وأن الجفوة نابت عن طيب اللقاء .

أَلاَّ ـ وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ ـ صَبَّحَنَا حَيْنٌ ، فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا[(١)]
مَنْ مُبْلِغُ الْمُلْبِسِينَا بِانْتِزَاحِهِمُ حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لاَ يَبْلَى ، وَيُبْلِينَا :
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا أُنْسًا بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا[(٢)]
غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى؛ فَدَعَوْا بِأَنْ نَغَصَّ ، فَقَالَ الدَّهْرُ : آمِينَا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِينَا[(٣)]
وَقَدْ نَكُونُ ، وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا فَالْيَوْمَ نَحْنُ، وَمَا يُرْجَى تَلاَقِينَا[(٤)]

* * *

يَالَيْتَ شِعْرِي ـ وَلَمْ نُعْتِبْ أَعَادِيَكُمْ ـ هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ الْعُتْبَى أَعَادِينَا[(٥)] ؟
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلاَّ الْوَفَاءَ لَكُمْ رَأْيًا ، وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
مَا حَقُّنَا أَنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ بِنَا ، وَلاَ أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحًا فِينَا[(٦)]

* * *

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسْلِينَا عَوَارِضُهُ وَقَدْ يَئِسْنَا ، فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا[(٧)] ؟
بِنْتُمْ وَبِنَّا ، فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ ، وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا[(٨)]

(١) فى النفح (ناعينا) — الا : هلاّ ، الحين : الهلاك ، والمعنى : أنه كان يتمنى أن يلاقى مصرعه قبل أن يحم الفراق !

(٢) رواية المغرب (أن الزمان الذى كنا نُسَرُّ به) ، ورواية القلائد (بقربكمو) .

(٣) انبت : انقطع ، والمعنى تفرق شملنا وانقطعت صلاتنا .

(٤) رواية المغرب (من قبل كنا . . . فالآن . . .) ؛ ورواية النفح (بالأمس كنا . . . واليوم . . .) .

(٥) أعتب : أرضى وسَرَّ بعد الإساءة ، والاسم منه العتبى .

(٦) الكاشح : المضمر للعداوة .

(٧) عوارضه : ظواهره أو بوادره ؛ والمعنى : أنه كان ينتظر راحة فى اليأس ، ولكن يأسه زاده شوقا على شوق وحنينا إلى حنين .

(٨) بنتم وبنا : بعدتم وبعدنا .

نَكادُ حِينَ تُناجيكُم ضَمائرُنا ـ يَقضِي عَلَيْنا الأَسَى، لَوْلا تَأَسِّينا(١)

حالَتْ لِفَقدِكُمُ أَيّامُنا ، فَغَدَتْ سُودًا، وَكانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيالِينا(٢)

إذْ جانِبُ العَيْشِ طَلْقٌ مِنْ تَأَلُّفِنا وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صافٍ مِنْ تَصافِينا(٣)

وَإذْ هَصَرْنا فُنونَ الوَصْلِ دانِيَةً قِطافُها ، فَجَنَيْنا مِنْهُ ما شِينا(٤)

* * *

لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرورِ ، فَما كُنْتُمْ لِأَرْواحِنا إلَّا رَياحِينا(٥)

لا تَحْسَبوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنا إنْ طالَما غَيَّرَ النَّأْيُ المُحِبِّينا(٦)

وَاللهِ ما طَلَبَتْ أَهْواؤُنا بَدَلًا مِنْكُمْ،وَلا انْصَرَفَتْ عَنكُمْ أَمانِينا(٧)

---

(١) المعنى : إذا ناجتكم قلوبنا — على البعاد — عصفت بنا الأحزان وكادت تقضى علينا لولا تملئنا بالآمال . وفى جذوة المقتبس وبغية الملتمس (حين تناجينا).

(٢) فى جذوة المقتبس وبغية الملتمس (حارت) .

(٣) رواية الذخيرة والخريدة والمغرب وجذوة المقتبس وبغية الملتمس والمعجب والنفح« ومورد اللهو . . » .

(٤) رواية الذخيرة (غصون الوصل) ، ورواية جذوة المقتبس وبغية الملتمس (فنون اللهو) ، ورواية المعجب والقلائد والخريدة (غصون الأنس) ، وفى الذخيرة والقلائد والنفح والمعجب (دانية قطوفها) ، ما شينا : ما شئنا .

(٥) رواية الذخيرة (كنتم لأبا منا . .) .

(٦) فى إحدى نسخ الذخيرة (إذْ طالما) وفى المغرب (أنْ طالما) .

(٧) آثرنا فى رواية البيت ما أثبتته الذخيرة والقلائد والمغرب والمعجب ونفح الطيب ، أما فى نسخة ا (والله ما أطرفت . . . عنكم) ، وفى نسخ ب ح ت ء ز (والله ما طرفت . . . عنكم) ، وطرف وأطرف بمعنى استحدث .

وَلاَ اسْتَفَدْنَا خَلِيلاً عَنْكِ يَشْغَلُنَا ۞ وَلاَ اتَّخَذْنَا بَدِيلاً مِنْكِ يُسْلِينَا(١)

* * *

يَا سَارِيَ الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرَ وَاسْقِ بِهِ ۞ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَا(٢)

وَاسْأَلْ هُنَالِكَ : هَلْ عَنَّى تَذَكُّرُنَا ۞ إِلْفًا ، تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعَنِّينَا ؟(٣)

وَيَانَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا ۞ مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيَّا كَانَ يُحْيِينَا(٤)

فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً ۞ فِيهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا ؟(٥)

* * *

رَبِيبُ مُلْكٍ كَأَنَّ اللهَ أَنْشَأَهُ ۞ مِسْكًا ، وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا(٦)

أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا ، وَتَوَّجَهُ ۞ مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينَا(٧)

---

(١) لم يرد هذا البيت فى نسخ الديوان، وقد أثبتناه عن القلائد والخريدة .

(٢) فى الذخيرة والقلائد والمغرب والخريدة (فاسق به).

(٣) عَـنّى : آلم وأتعب .

(٤) فى نسخ الديوان (على القرب) وقد آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة والمغرب والمعجب ونفح الطيب لأنها أنسب للمعنى ، فقد كان الشاعر بعيداً عن حبيبته يتمنى منها تحية على البعد ، ويأمل أن يظفر منها بخطاب كما فى ختام القصيدة .

(٥) المعنى : طالما تقاضينا الوصال ، فهل يسمح الدهر به بعد طول المطال ؟ وفى النفح (من لا نرى الدهر . . . وإن لم نكن عنا بقاضينا) .

(٦) المعنى : سليل بيت ملك كأن الله خلق الورى من الطين وخلقه وحده من المسك ، ورواية النفح (من بيت ملك . . . وقد أنشأ الله الورى طيناً) .

(٧) الورق : الدراهم الفضية ؛ والمعنى : أنه أبيض الوجه ذهبيّ الشعر ،

إذَا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفَاهِيَـةٌ   تُومُ العُقُودِ ، وَأَدْمَتْهُ البُرَى لِينَا[١]
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِئْرًا فِي أَكِلَّتِهِ   بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إلاَّ أَحَايِينَا[٢]
كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنِ وَجْنَتِهِ   زُهْرُ الكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَزْيِينَا[٣]
مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا   وَفِي المَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

* * *

يَارَوْضَةً طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظَنَا   وَرْدًا جَلاَهُ الصِّبَا غَضًّا وَنِسْرِينَا[٤]
وَيَا حَيَـاةً تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتِهَا   مُـنًى ضُرُوبًا وَلَذَّاتٍ أَفَانِينَا[٥]
وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ   فِي وَشْيِ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا[٦]
لَسْنَا نُسَمِّيكِ إجْلاَلاً وَتَكْرِمَةً   وَقَدْرُكِ المُعْتَلِي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا

---

(١) تأوّد : تمايل ؛ آدته : أثقلته ؛ تؤم العقود : عقود مزدوجة من اللؤلؤ ؛ البُرَى : الخلاخيل ، جمع برة ؛ والمعنى : إذا تمايل لم يطق حمل الحلى الكثيرة لرقته ولينه .

(٢) الظئر : الحاضنة ؛ أكِلّة : جمع كِلّة ، وهى نسيج رقيق للوقاية من البعوض ، وفى رواية النفح (تكلله) .

(٣) المعنى : كأنما أشرقت النجوم فى محيّاه لتقيه الحسد ، وتردّ عنه العيون.

(٤) النسرين بكسر النون : زهر طيب الرائحة ، وفى المغرب والوافى بالوفيات (جناه الصبا) .

(٥) تملّينا : تمتعنا ، وفى المعجب (تملأنا) ، ضروبا : صنوفا ، والمعنى جنينا من نعيم الحياة شتى المتع واللذات .

(٦) الغضارة : السعة والخصب والنعمة ، وفى القلائد والمغرب (سحبنا ذيلها) .

إِذَا ٱنْفَرَدْتِ وَمَا شُورِكْتِ فِى صِفَةٍ ... فَحَسْبُنَا ٱلْوَصْفُ إِيضَاحًا وَتَبْيِينَا(١)

* * *

يَا جَنَّةَ ٱلْخُلْدِ أُبْدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا ... وَٱلْكَوْثَرِ ٱلْعَذْبِ زَقُّومًا وَغِسْلِينَا(٢)

[إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِى ٱلدُّنْيَا ٱللِّقَاءُ فَفِى ... مَوَاقِفِ ٱلْحَشْرِ نَلْقَاكُمْ، وَيَكْفِينَا(٣)]

كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ، وَٱلْوَصْلُ ثَالِثُنَا ... وَٱلسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا

سِرَّانِ فِى خَاطِرِ ٱلظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا ... حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ ٱلصُّبْحِ يُفْشِينَا

لَا غَرْوَ فِى أَنْ ذَكَرْنَا ٱلْحُزْنَ حِينَ نَهَتْ ... عَنْهُ ٱلنُّهَى، وَتَرَكْنَا ٱلصَّبْرَ نَاسِينَا

إِنَّا قَرَأْنَا ٱلْأَسَى يَوْمَ ٱلنَّوَى سُوَرًا ... مَكْتُوبَةً، وَأَخَذْنَا ٱلصَّبْرَ تَلْقِينَا(٤)

---

(١) معنى البيتين: إننا نصون اسمك عن التصريح به إكباراً لك وإجلالا، فإن انفرادك بالجمال والجلال لا يحوجنا إلا إلى أدنى إشارة، وقد أخذ هذا المعنى البهاء زهير فقال:

أَشِرْ لى بوصف واحد من صفاتها ... تَكنْ مِثْلَ من سمّى وكَنّى ولَقّبا

ستكفيك من ذاك المسمّى إشارةٌ ... ودعه مَصُونًا بالجمال محجّبا

(٢) السدر: شجر النبق؛ والزقوم شجرة خبيثة ذات ثمر مر؛ وقد ورد فى التنزيل أنها (شجرة تخرج فى أصل الجحيم، طلعها كأنه رءوس الشياطين) أما طعامها فهو (طعام الأثيم كالمُهْل يغلى فى البطون كغَلْيِ الحميم):

وفى الذخيرة والقلائد والخريدة والمغرب والمعجب والنفح والوافى بالوفيات (بسلسلها) وقد آثرنا رواية الديوان لأن السدر يقابل الزقوم.

(٣) لم يرد البيت فى الديوان، وقد أثبتناه عن القلائد، وإن كان موضعه فى القلائد بعد البيت: (كأننا لم نبت . . .) وقد أثبتناه هنا لمناسبته للمقام.

(٤) فى الوافى بالوفيات والكوكب الثاقب (واتخذنا).

أمَّا هَواكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ ... شِرْباً، وَإِنْ كانَ يُرْوِينا فَيُظْمِينا[1]

لَمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمالٍ أنْتِ كَوْكَبُهُ ... سالِينَ عَنْهُ، وَلَمْ نَهْجُرْهُ قالِينا[2]

وَلا اخْتِياراً تَجَنَّبْناهُ عَنْ كَثَبٍ ... لٰكِنْ عَدَتْنا ـ عَلَى كُرْهٍ ـ عَوادِينا[3]

* * *

نَأْسَى عَلَيْكِ إذا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً ... فِينا الشَّمُولُ، وَغَنَّانا مُغَنِّينا[4]

لا أَكْؤُسُ الرّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمائِلِنا ... سِيما ارْتِياحٍ، وَلا الأوْتارُ تُلْهِينا

دُومِي عَلَى العَهْدِ ـ ما دُمْنا ـ مُحافِظَةً ... فالحُرُّ مَنْ دانَ إنْصافاً، كَما دِينا

فَما اسْتَعَضْنا خَلِيلاً مِنْكِ يَحْبِسُنا ... وَلا اسْتَفَدْنا حَبِيباً عَنْكِ يَثْنِينا[5]

وَلَوْ صَبا نَحْوَنا مِنْ عُلْوِ مَطْلَعِهِ ... بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ ـ حاشاكِ ـ يُصْبِينا[6]

---

(١) فى النفح (بِشربه) والمعنى : أننا نفضل منهلكم على أىّ منهل آخر ، وإن كان زيدنا عطشاً كلما ازددنا منه شرباً .

(٢) فى نسخة ب ، ت والقلائد (لم يخف) وهو تحريف ؛ قالين : كارهين .

(٣) كثب : قرب ؛ وفى القلائد والخريدة (تجنبناك) ، والمعنى : أنه اضطرنا إلى فراقها مرغماً ، على قرب دارها منه .

(٤) مشعشعة : ممزوجة ؛ الشمول : الخمر ؛ وفى الذخيرة والوافى بالوفيات (وقد حث) وفى الكوكب الثاقب (إذا صُبتْ) .

(٥) فى ب ، ت ، ز (فما استعضنا) وهو بتصحيف ، وفى الذخيرة (فما استعدنا خليلا عنك .. يسلينا) ، وفى القلائد :

(فـــا ابتغينا خليلا منك يحبسنا ولا استفدنا حبيباً عنك يثنينا)

وفى الخريدة (.. ولا استفدنا حما عنك يغنينا) وفى النفح (فما استعضنا خليلا عنك ...) وفى بعض نسخ النفح (.. حبيبا عنك يغنينا) . وفى الوافى بالوفيات

(٦) صبا : مال ؛ يصبينا : يثير صبوتنا ويتمت أشواقنا .

فما استعضنا خليلا عنك يصرفنا ولا استفدنا . حبيباً عنك يسلينا

ومثل هذا رواية الكوكب الثاقب ماعدا (ولا استفدنا) فقد جعلها (ولا اتخذنا) .

أَوْلى وَفَاءً – وَإنْ لَمْ تَبْذُلِى صِلَةً – فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا، وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا(١)

وَفى الْجَوَابِ مَتَاعٌ إنْ شَفَعْتِ بِهِ بِيضَ الْأَيَادِى الَّتِى مَا زِلْتِ تُولِينَا(٢)

عَلَيْكِ مِنَّا سَلَامُ اللهِ مَا بَقِيَتْ صَبَابَةٌ بِكِ نُخْفِيهَا فَتُخْفِينَا(٣)

الأمل المنشود(٤)

يَا نَازِحًا، وَضَمِيرُ الْقَلْبِ مَثْوَاهُ أَنْسَتْكَ دُنْيَاكَ عَبْدًا أَنْتَ دُنْيَاهُ(٥)

أَلْهَتْكَ عَنْهُ فُكَاهَاتٌ تَلَذُّ بِهَا فَلَيْسَ يَجْرِى بِبَالٍ مِنْكَ ذِكْرَاهُ

عَلَّ اللَّيَالِى تُبَقِّينِى إلى أَمَلٍ الدَّهْرُ يَعْلَمُ وَالْأَيَّامُ مَعْنَاهُ(٦)

مقصوص الجناح

إلَيْكِ – مِنَ الْأَنَامِ – غَدَا ارْتِيَاحِى، وَأَنْتِ – عَلَى الزَّمَانِ – مَدَى اقْتِرَاحِى(٧)

وَمَا اعْتَرَضَتْ هُمُومُ النَّفْسِ إلَّا – وَمِنْ ذِكْرَاكِ – رَيْحَانِى وَرَاحِى

---

(١) فى أصول الديوان (أولى)، وفى إحدى نسخ الذخيرة والوافى (أبدى) وقد آثرنا رواية القلائد والمغرب. وفى الوافى (فالذكر يقنعنا، والطيف يكفينا)

(٢) فى القلائد والكوكب (قناع) وفيهما وفى النفح والخريدة (لو شفعت).

(٣) فى الذخيرة والقلائد والخريدة والنفح والكوكب (عليك منى...)، وفى القلائد والكوكب (صبابة منك).

(٤) لم ترد الأبيات بالديوان. وقد نقلناها عن الذخيرة والقلائد والمغرب.

(٥) فى الذخيرة (أنت مولاه).

(٦) فى الذخيرة (إلى أجل)، وفى المغرب (إلى أمد)، وفيه (الله يعلم).

(٧) فى النفح (من الزمان).

فَدَيْتُكِ : إِنَّ صَبْرِي عَنْكِ صَبْرِي ـ لَدَى عَطَشِي ـ عَلَى المَاءِ القَرَاحِ
وَلِي أَمَلٌ ـ لَوِ الوَاشُونَ كَفُّوا ـ لأَطْلَعَ غَرْسُهُ ثَمَرَ النَّجَاحِ
وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ رِضَاكِ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِي ! [١]
وَلَمَّا أَنْ جَلَتْكِ لِيَ ـ اخْتِلَاسًا أَكُفُّ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ المُتَاحِ
رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابٍ وَغُصْنَ البَانِ يَرْفُلُ فِي وِشَاحِ [٢]
فَلَوْ أَسْطِيعُ طِرْتُ إِلَيْكِ شَوْقًا وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الجَنَاحِ ؟
[فُؤَادِي ـ مِنْ أَسَى بِكِ ـ غَيْرُ خَالٍ وَقَلْبِي ـ عَنْ هَوَى لَكِ ـ غَيْرُ صَاحٍ [٣]]
عَلَى حَالَىْ وِصَالٍ وَاجْتِنَابٍ وَفِي يَوْمَىْ دُنُوٍّ وَانْتِزَاحِ
وَحَسْبِيَ أَنْ تُطَالِعَكِ الأَمَانِي بِأُفْقِكِ ـ فِي مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ ـ
وَأَنْ تُهْدِي السَّلَامَ إِلَيَّ ـ غِبًّا ـ وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيَاحِ [٤]

راحة وعذاب

مَتَى أَبُثُّكَ مَا بِي ؟ يَا رَاحَتِي وَعَذَابِي [٥]
مَتَى يَنُوبُ لِسَانِي فِي شَرْحِهِ ـ عَنْ كِتَابِي ؟

---

(١) هكذا في الأصول والنفح ؛ ولعله (رضاك عليه أمضى من سلاحى) ، وقد يكون (من أمضى سلاح) ، والمعنى المقصود : إننى أعجب كيف يغلبنى عدو ولكن رضاك عنه أعطاه سلاحا ماضيا . (٢) فى النفح (فى نقاب) .

(٣) ورد هذا البيت فى الديوان والنفح قبل البيت الأخير من القصيدة ، ولعل موضعه هنا أنسب ، ورواية النفح (من هوى) .

(٤) هذه رواية النفح ، وقد آثرنا إثباتها لأنها أنسب للمعنى ؛ وفى الديوان (وأن تبدى) ، وفى النفح (إلىّ شوقا) .

(٥) رواية النفح (متى أُنَبِّيكِ) .

أَللهُ يَعْلَمُ أَنِّي أَصْبَحْتُ فِيكَ لِمَا بِي[١]
فَلاَ يَطِيبُ مَنَامِي وَلاَ يَسُوغُ شَرَابِي[٢]

* * *

يَا فِتْنَةَ الْمُتَقَرِّي وَحُجَّةَ الْمُتَصَابِي[٣]
الشَّمْسُ أَنْتِ ، تَوَارَتْ — عَنْ نَاظِرِي — بِالْحِجَابِ

* * *

مَا الْبَدْرُ — شَفَّ سَنَاهُ عَلَى رَقِيقِ السَّحَابِ —
إِلاَّ كَوَجْهِكِ ، لَمَّا أَضَاءَ تَحْتَ النِّقَابِ

مرأى ومستمع

أَسْتَوْدِعُ اللهَ مَنْ أَصْفَى الْوِدَادَ لَهُ مَحْضاً ، وَلاَمَ بِهِ الْوَاشِي فَلَمْ أُطِعِ
إِلْفٌ أَلَذُّ غُرُورَ الْوَعْدِ ، يَمْنَحُنِي عَنْهُ ، وَيُقْنِعُنِي التَّعْلِيلُ بِالْخُدَعِ[٤]
يَخْلُو الْمُنَى شَخْصَهُ لِي وَهْوَ مُحْتَجِبٌ عَنِّي — فَمَا شِئْتَ مِنْ مَرْأًى وَمُسْتَمَعِ
يَا بَدْرَ تَمٍّ بَدَا فِي أُفْقِ مَمْلَكَةٍ ، فَرَاقَ مُطَّلِعاً مِنْ خَيْرِ مُطَّلَعِ

---

(١) رواية بعض نسخ النفح (كما بى) .

(٢) رواية النفح (فما يلذ منامى) .

(٣) المتقرّى : أصلها المتقرئ وهو الناسك المتعبد ، ومثلها القارئ ، والقُرَّاء بضم القاف وتشديد الراء .

(٤) المعنى : إننى أقنع منه بوعوده المطولة التى يتنازل بمنحها لى ؛ وأعزى النفس حين يدركها اليأس بالآمال الكواذب .

أَنْدى بَدائِعَ شَكْلٍ مِنْكَ مُبْصِرَةً ... لِقَتْلِ نَفْسِيَ ـ عَمْدًا ـ أَشْنَعَ الْبِدَعِ (١)

* * *

تَاللهِ ـ أُكْرِمُ مَا أَمْضَى الْيَمِينَ بِهِ ... مَنْ دَانَ فِي حُبِّهِ بِالصِّدْقِ وَالْوَرَعِ ـ

مَا لَذَّ لِي قُرْبُ أُنْسٍ أَنْتِ نَازِحَةٌ ... عَنْهُ، وَلَا سَاغَ عَيْشٌ لَسْتِ فِيهِ مَعِي (٢)

عهد لا يحول

عَذِيرِيَ مِنْ خَلِيلٍ يَسْتَطِيلُ ... يَمِيلُ ـ مَعَ الزَّمَانِ ـ كَمَا يَمِيلُ

وَيَرْضَى أَنْ تَضِيعَ كَذَا حُقُوقِي، ... وَبَاعِي فِي الْهَوَى بَاعٌ طَوِيلُ

أَشَمْسًا أَشْرَقَتْ مِنْ (عَبْدِ شَمْسٍ)! ... أَمَالَكَ ـ فِي سِوَى قَلْبِي ـ أُفُولُ؟

أَمَا يُمْحَى عِتَابُكَ كُلَّ يَوْمٍ؟ ... أَمَا يُرْجَى ـ إِلَى وَصْلٍ ـ وُصُولُ؟

وَلَوْ أَجِدُ السَّبِيلَ لَطِرْتُ وَجْدًا، ... وَلٰكِنْ مَا إِلَى هٰذَا سَبِيلُ

كِتَابِي ـ عَنْ وِدَادِكَ ـ لَا يَزُولُ، ... وَعَهْدِي ـ مِثْلَ عَهْدِكَ ـ لَا يَحُولُ

عيون الحساد

لَوْ تُرِكْنَا بِأَنْ نَعُودَكِ عُدْنَا ... وَقَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا وَعَدْنَا (٣)

---

(١) مبصرة: موضحة مظهرة أو مضيئة، ومنه قوله تعالى (والنهار مبصرا)؛ (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة)، أو ناظرة. والمعنى أن جمالك الفتان مظهر أشنع البدع، لأنه قتلني متعمداً.

(٢) يقسم بالله — وإنه لقسم عظيم من رجل يؤمن فى حبه بالورع والتقوى — أنه لا يطيب له عيش بدونها مهما طاب العيش ولذت الحياة.

(٣) عدنا: من العياده وهى زيارة المريض؛ وعدنا. (فى آخر البيت) من من المودة؛ وفى ا، ب، ز (وقضينا الذى علينا وزدنا).

غَيْرَ أَنَّ الْهَوَى اسْتَفَاضَ حَدِيثاً ، فَأَنَحْتَنَا الْعُيُونُ لَمَّا حُسِدْنَا[١]
عَلَّ أَنَّ النُّفُوسَ تُقْبَلُ مِنَّا ، لَسَمَحْنَا بِهَا ـ فِدَاءً ـ وَجُدْنَا

معاهد صبوات[٢]

عَلَى (الثَّغْبِ الشَّهْدِيِّ) مِنِّى تَحِيَّةٌ زَكَتْ،وَعَلَى(وَادِي الْعَقِيقِ) سَلَامُ[٣]
وَلَا زَالَ نَوْرٌ(فِي الرُّصَافَةِ)ضَاحِكٌ بِأَرْجَائِهَا يَبْكِى عَلَيْهِ غَمَامُ[٤]
مَعَاهِدُ لَهْوٍ لَمْ تَزَلْ فِي ظِلَالِهَا تُدَارُ عَلَيْنَا ـ لِلْمُجُونِ ـ مُدَامُ[٥]
زَمَانَ: رِيَاضُ الْعَيْشِ خُضْرٌ نَوَاضِرٌ تَرِفُّ، وَأَمْوَاهُ السُّرُورِ جِمَامُ[٦]
فَإِنْ بَانَ مِنِّى عَهْدُهَا ، فَبِلَوْعَةٍ يُشَبُّ لَهَا ـ بَيْنَ الضُّلُوعِ ـ ضِرَامُ
تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِهَا ، فَتَبَادَرَتْ دُمُوعٌ ، كَمَا خَانَ الْفَرِيدَ نِظَامُ[٧]
وَصُحْبَةِ قَوْمٍ كَالْمَصَابِيحِ ، كُلُّهُمْ ـ إِذَا هُزَّ لِلْخَطْبِ الْمُلِمِّ ـ حُسَامُ
إِذَا طَافَ بِالرَّاحِ الْمُدِيرُ عَلَيْهِمُ أَطَافَ بِهِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، كِرَامُ

---

(١) المعنى : أن الهوى لما ذاع أمره أحاطت بنا العيون حسداً وحقداً .
(٢) ساغ الشاعر هذه القصيدة في الشوق إلى مراتع لهوه وملاعب هواه بقرطبة .
(٣) في الذخيرة (على دارة الشرق) .
(٤) النور : الزهر ، وفي الذخيرة (روض) .
(٥) في الذخيرة (للسرور) .
(٦) في الذخيرة (خضر نواعم) ، (أمواه النعيم) ؛ جمام : غزيرة .
(٧) في الذخيرة (بموعى) والمعنى : تساقطت دموعى مع الذكريات كما تتساقط حبات العقد .

وَأَحْوَرَ سَاجِي الطَّرْفِ، حَشْوُ جُفُونِهِ سَقَامٌ، بَرَى الْأَجْسَامَ مِنْهُ سِقَامُ[(١)]
تَخَالُ قَضِيبَ الْبَانِ طَيَّ بُرُودِهِ إِذَا اهْتَزَّ مِنْهُ مِعْطَفٌ وَقَوَامُ
يُدِيرُ عَلَى رَغْمِ الْعِدَا مِنْ وِدَادِهِ سُلَافًا، كَأَنَّ الْمِسْكَ مِنْهُ خِتَامُ
فَمِنْ أَجْلِهِ أَدْعُو لِقُرْطُبَةَ الْمُنَى بِسُقْيَا ضَعِيفِ الطَّلِّ وَهْوَ رِهَامُ[(٢)]
مَحَلٌّ غَنِينَا بِالتَّصَابِي خِلَالَهُ فَأَسْعَدَنَا، وَالْحَادِثَاتُ نِيَامُ
فَمَا لَحِقَتْ تِلْكَ اللَّيَالِي مَلَامَةٌ، وَلَا ذُمَّ مِنْ ذَاكَ الْحَبِيبِ ذِمَامُ[(٣)]

لوعة الغريب[(٤)]

غَرِيبٌ بِأَقْصَى الشَّرْقِ يَشْكُرُ لِلصَّبَا تَحَمُّلَهَا مِنْهُ السَّلَامَ إِلَى الْغَرْبِ[(٥)]
وَمَا ضَرَّ أَنْفَاسَ الصَّبَا فِي احْتِمَالِهَا سَلَامَ هَوًى يُهْدِيهِ جِسْمٌ إِلَى قَلْبِ[(٦)]

---

(١) فى الأصل تَـرِى) ولعلها من ورى النار: أى قدحها، ساجى الطرف: ساكنه.

(٢) فى الذخيرة (ومن أجلها) ؛ الرهام : جمع رهمة ، وهى المطر الخفيف الدائم الذى لا يؤذى .

(٣) فى نسخة ت (رم . . زمام) ، وفى الذخيرة (ولاذم . . . حمام) .

(٤) صاغ الشاعر هذين البيتين فى طرطوشة من أعمال بلنسية قرب الساحل الشرقى للأندلس على البحر الأبيض المتوسط ، وتقع على صخرة منبسطة فى سفح جبل الكهف على نهر إبرة ، وقد اشتهرت بوفرة سلعها فأمها التجار من كافة الأصقاع ، وهى قلعة حصينة يقول فيها عبد الملك بن إدريس الجزيرى حين سجنه بها المنصور بن أبى عامر من قصيدة :

فى رأس أجرد شاهق عالى الذرا ما بعده لمؤمل من مبصر
ويكاد من يرق إليه مرة من دهره يشكو انقطاع الأبهر

وتقع طرطوشة إلى الشرق من قرطبة .

(٥) فى بعض نسخ الذخيرة (منى) وفى بعضها (منا) .

(٦) فى الذخيرة والقلائد (سلام فتى) وفى نسخة ب ، ز (إلى القلب) .

زفرة الشريد(١)

يا دمعُ صُبَّ ما شئتَ أن تصوبا(٢)
ويا فؤادي آن أن تذوبا
إذ الرزايا أصبحت ضروبا(٣)
لم أرَ لي – في أهلها – ضريبا
قد ملأ الشوقُ الحشا ندوبا
في الغرب إذ رحت به غريبا(٤)
عليلَ دهرٍ سامني تعذيبا(٥)
أدنى الضنى إذ أبعد الطبيبا

* * *

ليت القبولَ أحدثت هبوبا(٦)
ريحٌ يروح عهدُها قريبا(٧)

---

(١) صاغ الشاعر هذه الأرجوزة أثناء لجوئه إلى بطليوس قاعدة ملك بني الأفطس وتقع على نهر آنة في الشمال الغربي من قرطبة .

(٢) صاب المطر . انصب بغزارة .

(٣) في الذخيرة (إنّ) بتشديد النون .

(٤) في الذخيرة (أنْ) بفتح الهمزة وسكون النون .

(٥) في بعض نسخ الذخيرة (رامني) وفي بعضها (ضامني) .

(٦) القبول : ريح الصبا ، وهي ريح طيبة تهب من الشرق ، والمعروف أن قرطبة تقع إلى الجنوب الشرقي من بطليوس حيث لجأ الشاعر إليها .

(٧) العهد : المطر التوالي ، أو هو أوائل المطر ، والمعنى ريح مؤذنة بالمطر ، و أن عهد هذه الرياح بقرطبة قريب .

بِالْأُفْقِ الْهَـــدِى إِلَيْنَا طِيبَـــا
تَعَطَّرَتْ مِنْـــهُ الصَّبَا جُيُـــوبَا
يُبْرِدُ حَرَّ الْكَبِدِ الْمَشْبُوبَا[١]

* * *

يَا مُتْبِعًا إِسْـــآدَهُ التَّـــأْوِيبَا[٢]
مُشَرِّقًا قَدْ سَـــئِمَ التَّغْـــرِيبَا
أَمَا سَمِعْتَ الْمَثَـــلَ الْمَضْرُوبَا :
« أَرْسِلْ حَكِيمًا ، وَاسْتَشِرْ لَبِيبًا »

* * *

إِذَا أَتَيْتَ الْوَطَنَ الْحَبِيبَـــا
وَالْجَانِبَ الْمُسْـــتَوْضَحَ الْعَجِيبَا
وَالْحَاضِرَ الْمُنَفَّـــحَ الرَّحِيبَا
فَحَيِّ مِنْـــهُ مَا رَأَى الْجُنُوبَا[٣]

* * *

مَصَـــانِعًا تُجَاذِبُ الْقُـــلُوبَا[٤]

---

(١) برده جعله بارداً ؛ وأبرده لغة رديئة

(٢) إسآده : مواصلته السفر ليلا ؛ التأويب : مواصلة السير بالنهار ·

(٣) رأى : أوقد ؛ والمعنى : حى من هذا الوطن ما أشعل جذوة الشوق بين الجوانح ؛ وفى بعض نسخ الذخيرة (أرى) وعلى هذه الرواية تكون الجنوب بفتح الجيم ، وحينئذ يصبح المعنى : حىّ من هذه المواطن ما جعلنى أبصر الجنوب ماثلا أمام عينى لشدة تعلق به ؛ والمعروف أن قرطبة تقع إلى الجنوب الشرقى من بطليوس

(٤) المصانع : القرى أو الحصون أو القصور ·

حَيْثُ أَلِفْتُ الرَّشَأَ الرَّبِيبَا(١)

مُخَالِفًا فِي وَصْلِهِ الرَّقِيبَا(٢)

كَمْ بَاتَ يَدْرِي لَيْلَهُ الْغِرْبِيبَا(٣)

لَمَّا انْثَنَى فِي سُكْرِهِ قَضِيبَا

تَشْدُو حَمَامُ حَلْيِهِ تَطْرِيبَا(٤)

هَصَرْتُهُ حُلْوَ الْجَنَى رَطِيبَا

أَرْشُفُ مِنْهُ الْمَبْسِمَ الشَّنِيبَا(٥)

حَتَّى إِذَا مَا اعْتَنَّ لِي مُرِيبَا(٦)

شَبَابُ أُفْقٍ هَمَّ أَنْ يَشِيبَا

بَادَرْتُ سَعْيًا ، هَلْ رَأَيْتَ الذِّيبَا ؟(٧)

* * *

(١) الرشأ : الظبي الصغير حين يقوى على المشي والعَدْوِ خَلْفَ أمه ؛ والربيب : الناشيء في النعمة .

(٢) في الذخيرة (مخالساً) .

(٣) يدري : يختال ، الغربيب : الشديد السواد ؛ والمعنى أنه طالما خدع الرقباء وتحين الفرص تحت جنح الظلام القاني ؛ ولعله يشير بهذا إلى قول ولادة في خطابه :
ترقب إذا جنَّ الظلامُ زيارتي   فإني رأيت الليلَ أكتم للسرّ

(٤) المعنى أن وسوسة حُليِّه ترن كما يغرد الحمام .

(٥) الشنيب : من الشنب وهو عذوبة الأسنان وبردها .

(٦) اعتنّ : اعترض .

(٧) المعنى حتى إذا ما آذن الليل بالزوال ، وسرت أشعة الضياء في غلس الظلام انسللتُ من مخدعها كما ينسل الذئب الحذر الحريص .

أَهَاجِرِى أَمْ مُوسِــعِى تَأْنِيبَا
مَنْ لَمْ أُسِغْ مِنْ بَعْدِهِ مَشْرُوبَا ؟
مَاضَرَّهُ لَوْ قَالَ : لَا تَثْرِيبَـا
وَلَا مَلَامَ يَلْحَقُ الْقُـلُوبَا(١)
قَدْ طَالَ مَا تَجَــرَّمَ الذُّنُوبَا(٢)
وَلَمْ يَدَعْ فِي الْعُـذْرِ لِي نَصِيبَا

* * *

إِنْ قَرَّتِ الْعَــيْنُ بِأَنْ أَءُوبَا(٣)
لَمْ آلُ أَنْ أَسْــتَرْضِىَ الْغَضُوبَا(٤)
حَسْــبِىَ أَنْ أُحَرِّمَ الْمَغِيبَا
قَدْ يَنْفَعُ الْمُذْنِبَ أَنْ يَتُــوبَا

---

(١) فى بعض نسخ الذخيرة (فلا ملام لحق القلوبا) وفى بعضها (لحق القلوبا).
(٢) تجرم: ادّعى الذنوب. ومنه قول الشاعر:
تعـدّ علىّ الذنب إن ظفرتْ به   وإلّا تجـد ذنباً علىّ تجرّم
(٣) أءوب: أعود، يعنى عودته إلى قرطبة.
(٤) فى ب، ز (لم آن).

أنة الطريد

عرّج الشاعر على بطليوس أثناء هجرته من قرطبة إلى إشبيلية ، فطوى بها بضعة أشهر دامِيَ القلب ، مشرَّد اللب ؛ وطالعه الميدان ، فزاداه شجنا على أشجان ؛ وتذكر مواطن لهوه ومرابع أنسه بقرطبة ، فهاجته الذكريات ، وأرسل هذه الزفرات — :

خَلِيلَيَّ لاَ فِطْرٌ يَسُرُّ وَلاَ أَضحى ... فَماحالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقاً كَمَا أَضْحَى[1] ؟

لَئِنْ شاقَنِي (شَرْقُ الْعُقَابِ) فَلَمْ أَزَلْ ... أُخُصُّ بِمَمْحُوضِ الْهَوَى ذٰلِكَ السَّفْحَا[2]

وَمَا انْفَكَّ جُوفِيُّ (الرُّصَافَةِ) مُشْعِرِى ... دَوَاعِيَ ذِكْرَى تُعْقِبُ الْأَسَفَ الْبَرْحَا[3]

وَيَهْتَاجُ (قَصْرُ الْفَارِسِيِّ) صَبَابَةً ... لِقَلْبِيَ ، لاَ تَأْلُو زِنَادَ الْأَسَى قَدْحَا[4]

---

(١) المعنى : لا عيد الفطر يسرّني ، ولا عيد الأضحى يسعدني ، فكيف ينعم قلب يؤرقه الشوق فى المساء ويثيره فى الصباح ؟ وقريب من هذا قول المتنبي :

عيدٌ !! بأية حالٍ عدتَ يا عيد ؟ ... بما مضى ؟ أم لأمر فيك تجديدُ ؟

أما الأحبةُ فالبيداءُ دونهـــمُ ... فَلَيْتَ دونكَ بيداً ، دونها بيد

(٢) فى ب ، ت (ولم أزل) وفى الذخيرة (بمخصوص الهوى) وفى القلائد (بمحوص) ومعنى المحوص : الخالص ، مِنْ « محص الصائغ الذهب بالنار : أخلصه مما يشوبه » .

(٣) جوفى الرصافة : شمالها حيث نشأ الشاعر ؛ وفى الذخيرة والقلائد (دواعى بث) والبث : أشد الحزن أو الحال ؛ والبرح : الشدة ، والأسف البرح : الحزن البرح العنيف .

(٤) المعنى : أن ذكريات هذا القصر تبعث فى النفس أشواقا لا تفتأ تقدح فيها زناد الأسى ، وتثير جذوة الأحزان .

وَلَيْسَ ذَمِيا عَهْدُ (مَجْلِسِ نَاصِحٍ) فَأَقْبَلَ فِي فَرْطِ الْوَلُوعِ بِهِ نُصْحَا

كَأَنِّيَ لَمْ أَشْهَدْ لَدَى (عَيْنِ شَهْدَةٍ) نِزَالَ عِتَابٍ كَانَ آخِرُهُ الْفَتْحَا[١]

وَقَائِعُ جَانِيهَا التَّجَنِّي، فَإِنْ مَشَى سَفِيرُ خُضُوعٍ بَيْنَنَا أَكَّدَ الصُّلْحَا[٢]

وَأَيَّامُ وَصْلٍ (بِالْعَقِيقِ) اقْتَضَيْتُهُ فَإِلَّا يَكُنْ مِيعَادُهُ الْعِيدَ فَالْفِصْحَا[٣]

وَآصَالُ لَهْوٍ فِي (مُسَنَّاةِ مَالِكٍ) مُعَاطَاةَ نَدْمَانٍ إِذَا شِئْتُ أَوْ سَبْحَا[٤]

لَدَى رَاكِدٍ تُصْبِيكَ مِنْ صَفَحَاتِهِ قَوَارِيرُ خُضْرٌ خِلْتَهَا مُرِّدَتْ صَرْحَا[٥]

---

(١) المعنى : كم تعاتبنا فى عين شهدة ، ثم انتهى العتاب بالإعتاب ، وانطوى اللام بالإنعام .

(٢) المعنى : كم جنى على تجنيها وادعاؤها مالم أجترحه من الذنوب ، فإذا توسلت إليها بالخشوع والتودد لان جانبها ، ورق قلبها ، وأنعمت بالرضى ؛ وقريب منه قول الشاعر :

فقمت أفرش خدى فى الطريق له ذلا ، وأسحب أذيالى على الأثر

(٣) فى الذخيرة (اقتضيتها) ، والمعنى كم سعدت بالوصال سواء تم لى فى عيد المسلمين أم عيد المسيحيين .

(٤) الآصال : جمع أصيل وهو مابعد العصر إلى المغرب ، مسناة مالك : اسم مكان ؛ وأصل المسناة : السد المائى ، وكان شاعرنا مولعا بالغياض الشذية والجداول الندية ؛ فكان يتعاطى بها الشراب مع ندمانه ، أو يسبح بها مع خلانه .

(٥) راكد : ساكن ، مُرِّدَتْ : سُوِّيَتْ ؛ صرحا : قصراً ؛ والمعنى : أنه طوى أوقاتا سعيدة فى مسناة مالك على جدول هادىء ساكن كأن صفحة مياهه من بلور أخضر مصقول ، يخاله الناظر معداً وممهداً لبناء قصر شامخ .

مَعَاهِدُ لَذَّاتٍ وَأَوْطَارُ صَـبْوَةٍ   أَجَلْتُ الْمُعَلَّى فِي الْأَمَانِي بِهَا قِدْحَا[١]

* * *

أَلَا هَلْ إِلَى (الزَّهْرَاءِ) أَوْبَةُ نَازِحٍ   تَقَضَّى تَنَائِيهَا مَدَامِعُهُ نَزْحَا[٢]؟

مَقَاصِيرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَبَاتُهَا   فَخِلْنَا الْعِشَاءَ الْجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحَا[٣]

يُمَثِّلُ قُرْطَيْهَا لِيَ الْوَهْمُ جَهْرَةً   فَقُبَّتَهَا، فَالْكَوْكَبَ الرَّحْبَ، فَالسَّطْحَا[٤]

---

(١) فى ب، ز (أوطان صبوة)، المعلى: سابع سهام الميسر وهو أوفرها حظاً لأن الثلاثة الباقية من السهام العشرة لا نصيب لها. والقِدْح بكسر القاف: السهم قبل أن يراش وينصل، وكان العرب فى الجاهلية يستعملون هذه الأسهم فى لعب الميسر فنهاهم عنه الإسلام.

(٢) أوبة: عودة، نازح: بعيد؛ تقضى: بلغ النهاية، تنائيها: بعدها؛ نزحا: جفافا (من نزح البئرَ: أخرج ماءها كله) والزهراء: من أجمل ضواحى قرطبة، تفنن الخليفة عبدالرحمن الناصر فى تشييدها لعشرات الأعوام، وأنفق عليها آلاف الآلاف حتى جاءت أعجوبة فى فن البناء، وقد شيدها تخليداً لحظيته وسماها باسمها؛ وجعلها حاضرة لخلافته، فتغنى بذكرها الشعراء والأدباء، وطالما ترنم شاعرنا بذكرها؛ وهو هنا يتمنى أن يعود إليها بعد أن برّح به الشوق ونزفت مدامعه الذكريات. وفى القلائد (تقضت مبانيها)، وفى ت (نوبة نازح) ومعنى النوب: القرب.

(٣) المعنى: هذه القصور الملكية الباذخة بالزهراء أضاءت رحابها وأشرقت أرجاؤها، فأحالت الليل المظلم إلى صباح وضاء. والجون: من أسماء الأضداد فتطلق على الأبيض والأسود؛ والمراد بها هنا السواد.

(٤) المعنى: إننى — على الرغم من البعاد — أراها بعين الوهم، وأبصر ملاعبها ماثلة أمامى، فأرى القرطين والقبة والكوكب الرحب والسطح فتبهج نفسى وتقر عينى.

تَحُفُّ ارْتِيَاحٍ يُذْكِرُ الْخُلْدَ طِيبُهُ ... إِذَا عَرَّأَنْ يَصْدَى الْفَتَى فِيهِ أَوْ يَضْحَى (١)

هُنَاكَ الْجِمَامُ الزُّرْقُ تَنْدَى حِفَافُهَا ... ظِلَالٌ عَهِدْتُ الدَّهْرَ فِيهَا فَتًى سَمْحَا (٢)

تَعَوَّضْتُ مِنْ شَدْوِ الْقِيَانِ خِلَالَهَا ... صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الْكَرَى ضَبْحَا (٣)

وَمِنْ حَمْلِيَ الْكَأْسَ الْمُفَدَّى مُدِيرُهَا ... تَقَحُّمَ أَهْوَالٍ حَمَلْتُ لَهَا الرُّمْحَا (٤)

أَجَلْ إِنَّ لَيْلِي فَوْقَ شَاطِئِ نِيطَةٍ ... لَأَقْصَرُ مِنْ لَيْلِي بِآنَةَ فَالْبَطْحَا (٥)

---

(١) فى أصول الديوان (إذا عَنَّ) بمعنى اعترض أو ظهر ؛ وقد آثرنا رواية الذخيرة والقلائد لأنها أنسب للمعنى .

يصدى : يظمأ : يضحى : يبرز للشمس . والمعنى : أن الزهراء تذكرنا بجنات الخلد حيث أكلها دائم وظلها ، فلا يصيب المؤمنين فيها ظمأ ولا يتعرضون للفحات الشمس ، والله تعالى يقول عنها لآدم عليه السلام « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » .

(٢) الجمام: المياه الغزيرة، وزرقتها ناجمة عن غزارتها وانعكاس زرقة السماء عليها، تندى : تجعل الشيء نديا، الحفاف: الجانب، والمعنى أن هذه الربوع تتدفق فيها المياه ، وتندّى الظلالُ جوانبهـا ؛ وقد أسعدنا الزمان بنفحاته فكأنه فتى سمح كريم .

(٣) شدو القيان : غناء الجوارى ، الصدى : رجع الصوت. فلوات : صحارى الضبح : صوت الخيل في غير صهيل أو حمحمة ، أو عدوها . والمعنى: أننى استبدلت بغناء الجوارى أصواتاً مبهمة مخيفة تنبعث من جوف الصحراء تشبه عدو الخيل أطارت من عينى النوم .

(٤) المعنى : إننى حرمت من الاتئناس بالنعيم ومعاقرة الشراب يديره غلام جميل تفديه الأرواح ، وتعرضت لاقتحام أخطار حملت لها الرمح بدلا من الكأس.

(٥) المعنى : نعم كانت ليالى أنسى على شاطىء نيطة قصيرة لأنها حافلة بالنعيم ، أما ليالىّ فى آنة والبطحاء فطويلة لأنها حافلة بالمتاعب والأخطار .

لا أهل ولا وطن(١)

حلّ العيد فأنس كلّ إلى أهله ، وسعد بوطنه ؛ ونظر الشاعر فرأى نفسه نازحا عن وطنه ، نائيا عن أهله ، فناجاهم على البعد بهذه الأبيات .

هَلْ تَذْكُرُونَ غَرِيبًا عَادَهُ شَجَنُ — مِنْ ذِكْرِكُمْ — وَجَفَا أَجْفَانَهُ الْوَسَنُ؟(٢)

يُخْفِي لَوَاعِجَهُ وَالشَّوْقُ يَفْضَحُهُ — فَقَدْ تَسَاوَى — لَدَيْهِ — السِّرُّ وَالْعَلَنُ

يَا وَيْلَتَاهُ ، أَيَبْقَى فِي جَوَانِحِهِ — فُؤَادُهُ ، وَهْوَ بِالْأَطْلَالِ مُرْتَهَنُ؟

وَأَرَّقَ الْعَيْنَ — وَالظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ — وَرْقَاءُ ، قَدْ شَفَّهَا — إِذْ شَفَّنِي — حَزَنُ(٣)

فَبِتُّ أَشْكُو وَتَشْكُو فَوْقَ أَيْكَتِهَا — وَبَاتَ يَهْفُو ارْتِيَاحًا بَيْنَنَا الْغُصُنُ(٤)

* * *

يَا هَلْ أُجَالِسُ أَقْوَامًا أُحِبُّهُمُ؟ — كُنَّا وَكَانُوا — عَلَى عَهْدٍ — فَقَدْ ظَعَنُوا(٥)

أَوْ تَحْفَظُونَ عُهُودًا لَا أُضَيِّعُهَا — إِنَّ الْكِرَامَ — بِحِفْظِ الْعَهْدِ — تُمْتَحَنُ(٦)

---

(١) لم ترد هذه القصيدة بالديوان ، وقد أثبتناها عن المجب .

(٢) الشجن : الحزن ، الوسن : النوم .

(٣) ورقاء : حمامة ، شفها الحزن : أضعفها وأنحلها .

(٤) الأيكة : الشجرة الضخمة ، أو الأجمة بجوار المياه ، يهفو : يتحرك ويتمايل .

(٥) ظعنوا : رحلوا .

(٦) تمتحن : تختبر .

وَمِنْهَا :

إِنْ كَانَ عَادَكُمْ عِيدٌ ، فَرُبَّ فَتًى ... بِالشَّوْقِ قَدْ عَادَهُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - حَزَنْ

وَأَفْرَدَتْهُ اللَّيَالِي مِنْ أَحِبَّتِهِ ... فَبَاتَ يُنْشِدُهَا - مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ - :

«بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لاَ أَهْلٌ ! وَلاَ وَطَنٌ ! ... وَلاَ نَدِيمٌ ! وَلاَ كَأْسٌ ! وَلاَ سَكَنٌ ! »[١]



(١) اقتبس الشاعر هذا البيت من مطلع قصيدة للمتنبي ، والتّعلّل : التسلي والعزاء ، السكن : ما يسكن إليه الإنسان من أهل ومال وغير ذلك ، ويطلق في الغالب على الزوجة أو الحبيبة .

(٤) بين اليأس والأمل

ترجح قلب الشاعر بين الرجاء والقنوط ، فناجى حينا ، وعتب حيناً ، وهو فى نجواه أقرب إلى الشكاة ، وفى عتابه أدنى إلى الغفران ».

خطرات الظنون

بَاعَدْتِ بِالإِعْرَاضِ غَيْرَ مُبَاعِدِ . وَزَهِدْتِ فِيمَنْ لَيْسَ فِيكِ بِزَاهِدِ

وَسَقَيْتِنِي مِنْ مَاءِ هَجْرِكِ مَالَهُ أَصْبَحْتُ أَشْرَقُ بِالزُّلَالِ الْبَارِدِ

هَلاَّ جَعَلْتِ - فَدَتْكِ نَفْسِي - غَايَةً لِلْعَتْبِ ، أَبْلُغُهَا بِجُهْدِ الْجَاهِدِ ؟

لاَ تُفْسِدَنَّ - مَا قَدْ تَأَكَّدَ بَيْنَنَا مِنْ صَالِحٍ - خَطَرَاتُ ظَنٍّ فَاسِدِ

حَاشَاكِ مِنْ تَضْيِيعِ أَلْفٍ وَسِيلَةٍ - شَجِيَ الْعَدُوُّ لَهَا - بِذَنْبٍ وَاحِدِ

إِنْ أَجْنِهِ خَطَأً ، فَقَدْ عَاقَبْتِنِي ظُلْمًا ، بِأَبْلَغَ مِنْ عِقَابِ الْعَامِدِ

* * *

عُودِى لِمَا أَصْفَيْتِنِيهِ مِنَ الْهَوَى بَدْءًا ، فَلَسْتُ - لِمَا كَرِهْتِ - بِعَائِدِ

وَضَعِي قِنَاعَ السُّخْطِ عَنْ وَجْهِ الرِّضَا كَيْمَا أَخِرَّ إِلَيْهِ أَوَّلَ سَاجِدِ

النائى القريب

هَلْ لِدَاعِيكَ مُجِيبُ ؟ أَمْ لِشَاكِيكَ طَبِيبُ ؟

يَا قَرِيبًا حِينَ يَنْأَى حَاضِراً حِينَ يَغِيبُ !

كَيْفَ يَسْلُوكَ مُحِبٌّ زَانَهُ مِنْكَ حَبِيبُ ؟

إنَّمَا أنْتَ نَسِيمٌ تَتَلَقَّاهُ القُلُوبُ
قَدْ عَلِمْنَا عِلْمَ ظَنٍّ ، هُوَ – لاَ شَكَّ – مُصِيبُ
أنَّ سِرَّ الحُسْنِ مِمَّا أضْمَرَتْ تِلْكَ الجُيُوبُ[١]

العهد المصون

أبِي أُضَيِّعُ عَهْدَكْ ؟ أمْ كَيْفَ أُخْلِفُ وَعْدَكْ ؟
وَقَدْ رَأتْكَ الأمَانِي رِضًى ، فَلَمْ تَتَعَدَّكْ

* * *

يَا لَيْتَ مَالَكَ عِنْدِي ! – مِنَ الهَوَى – لِيَ عِنْدَكْ
فَطَالَ لَيْلُكَ بَعْدِي كَطُولِ لَيْلِي بَعْدَكْ[٢]
سَلْ[٣] حَيَاتِي أهَبْهَا ، فَلَسْتُ أمْلِكُ رَدَّكْ
الدَّهْرُ عَبْدِيَ ، لَمَّا أصْبَحْتُ فِي الحُبِّ عَبْدَكْ

إرضاء الحبيب

لَمْ يَكُنْ هَجْرُ حَبِيبِي عَنْ قِلًى لاَ ، وَلاَ ذَاكَ التَّجَنِّي مَلَلاَ[٤]

---

(١) فى نفح الطيب (تلك القلوب) .
(٢) فى الذخيرة (وطال) وقد ورد البيتان فى نفح الطيب بهذه الرواية :
يا ليت شعري ، وعندي ما ليس فى الحب عندك
هل طال ليلك بعدي كطول ليلي بعدك ؟
(٣) فى الأصل (سلني) وقد آثرنا رواية الذخيرة .
(٤) القلى : البغض ؛ الملل : السآمة .

سَرَّهُ شُكْرِيَ – إذْ عَاقَ – وَلَمْ ... يَدْرِ مَا غَايَةُ صَبْرِى فَابْتَلَى[1]

أنَا رَاضٍ بِالَّذِي يَرْضَى بِهِ ... لِيَ، مَنْ لَوْ قَالَ: «مُتْ» مَاقُلْتُ: «لَا»

مَثَلٌ فِي كُلِّ حُسْنٍ، مِثْلَمَا ... صَارَ ذُلِّي، فِي هَوَاهُ مَثَلَا

يَا فَتِيتَ الْمِسْكِ، يَاشَمْسَ الضُّحَا ... يَا قَضِيبَ الْبَانِ، يَا رِيمَ الْفَلَا[2]

إنْ سَكَنْ لِي أَمَلٌ غَيْرُ الرِّضَا ... مِنْكَ، لَا بُلِّغْتُ ذَاكَ الْأَمَلَا!!

خداع الأمانى

تِقِى بِي – يَا مُعَذِّبَتِي – فَإِنِّي ... سَأَحْفَظُ فِيكِ مَا ضَيَّعْتِ مِنِّي

وَإِنْ أَصْبَحْتِ قَدْ أَرْضَيْتِ قَوْمًا ... بِسُخْطِي، لَمْ يَكُنْ ذَا فِيكِ ظَنِّي

وَهَلْ قَلْبٌ كَقَلْبِكِ فِي ضُلُوعِي، ... فَأَسْلُو عَنْكِ حِينَ سَلَوْتِ عَنِّي؟

تَمَنَّتْ أَنْ تَنَالَ رِضَاكِ – نَفْسِي، ... فَكَانَ مُنِيَّةً ذَاكَ التَّمَنِّي

وَلَمْ أَجْنِ الذُّنُوبَ فَتَحْقِدِيهَا، ... وَلٰكِنْ عَادَةٌ مِنْكِ التَّجَنِّي[3]

الكوكب المستقيم

أَنْتِ مَعْنَى الضَّنَى وَسِرُّ الدُّمُوعِ، ... وَسَبِيلُ الْهَوَى، وَقَصْدُ الْوَلُوعِ[4]

(١) رواية النفح (سره دعوى ادّعائى، ولم)، ابتلى: اختبر:

(٢) الرِّيم: الظبى الخالص البياض؛ ومثله الرِّئم وقد تخفف الهمزة فيصبح الرِّيم: الفلا: جمع فلاة وهى البادية.

(٣) فى أصول الديوان (ولم أجز) وقد تكون من الجزاء بمعنى أننى لم أقابل إساءاتك إلا بمثلها، وقد تكون من الجواز بمعنى لم أبْرَز أخطائى فى حقك.

(٤) فى النفح (معنى الهوى) وفى ز (الضيا) وفى الذخيرة (وسر الضلوع، وقصد الدموع).

أَنتِ وَالشَّمسُ ضَرَّتانِ، وَلٰكِن ... لَكِ عِندَ الغُروبِ فَضلُ الطُّلوعِ

لَيسَ بِالمُؤنِسي تَكَلُّفُكِ العَتـ ... ـبَ دَلالاً مِنَ الرِّضى المَطبوعِ [1]

إِنَّما أَنتِ ـ وَالحُسودُ مُعَنًّى ـ ... كَوكَبٌ يَستَقيمُ بَعدَ الرُّجوعِ

مرارة الوداع

وَدَّعَ الصَّبرَ مُحِبٌّ وَدَّعَك ... ذائِعٌ مِن سِرِّهِ ما استَودَعَك [2]

يَقرَعُ السِّنَّ عَلى أَن لَم يَكُن ... زادَ في تِلكَ الخُطا إِذ شَيَّعَك

يا أَخا البَدرِ سَناءً وَسَنًا ... حَفِظَ اللَهُ زَماناً أَطلَعَك [3]

إِن يَطُل بَعدَكَ لَيلي فَلَكَم ... بِتُّ أَشكو قِصَرَ اللَيلِ مَعَك

بعض الوصل

أَغائِبَةً عَنّي، وَحاضِرَةً مَعي ... أُناديكِ ـ لَمّا عيلَ صَبري ـ فَأَسمِعي

أَفي الحَقِّ أَن أَشقى بِحُبِّكِ، أَو أَرى ... حَريقاً بِأَنفاسي، غَريقاً بِأَدمُعي؟

أَلا عَطفَةٌ تُحيا بِها نَفسُ عاشِقٍ ... جَعَلتِ الرَّدى مِنهُ بِمَرأًى وَمَسمَعِ

صِليني ـ بَعضَ الوَصلِ ـ حَتّى تَبَيَّني ... حَقيقَةَ حالي، ثُمَّ ما شِئتِ فَاصنَعي

---

(١) في النفح (ليس بالمؤنسي ... الرضى المطبوع) والمعنى: لا أيأس من عتبك ودلالك فإنك تتكلفين العتاب والدلال على حين ينطبع في حناياك قلبك حبك لي وشغفك بي. فدلالك تكلف وحبك طبع.

(٢) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة والمغرب وفي الديوان. (ودع الحسن ... ضائع من عهده ...).

(٣) في بعض نسخ الذخيرة (رحم الله).

الروح والجسد

لمّا اتصلت اتصال الخلب بالكبدِ
ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد[1]

ساء الوشاة مكاني منك، واتّقدت ... في صدر كل عدوّ جمرة الحسدِ
فليسخط الناس لا أهل الرضى لهمُ، ... ولا يضيع لك عهدٌ آخر الأبدِ
لو استطعت - إذا ما كنت غائبةً - ... غضضت طرفي، فلم أنظر إلى أحدِ

غفلة الرقيب

لئن فاتني منك حظ النظر ... لأكتفين بسماع الخبر
وإن عرضت غفلة للرقيب ... فحسبي تسليمةٌ تختصر
أحاذر أن تتظنى الوشاةُ، ... وقد يستدام الهوى بالحذر[2]
وأصبر مستيقنا أنه : ... سيحظى - بنيل المنى - من صبر[3]

اختلاس النظر

سأقنع منك بلحظ البصر ... وأرضى بتسليمك المختصر
ولا أتخطى التماس المنى ... ولا أتعدى اختلاس النظر
أصونك من لحظات الظنون ... وأعليك عن خطرات الفكر
وأحذر من لحظات الرقيب ... وقد يستدام الهوى بالحذر

(١) الخلب: حجاب رقيق للكبد، أو شيء أبيض رقيق لازق بها.
(٢) في النفح (أن يتجنى).
(٣) « » (فأصبر).

القلب الرحيب

لَئِنْ كُنْتَ — فى السِّنِّ — تِرْبَ الْهِلَالِ ،
لَقَدْ فُقْتَ — بِالْحُسْنِ — بَدْرَ الْكَمَالِ [١]

أَنَا وَالذى نَكَدَ الحظَّ فِى دُنُوِّ الْمَكَانِ بِبُعْدِ الْمَنَالِ
لَقَدْ بَلَّغَتْنِى دَوَاعِى هَوَاكَ إِلَى غَايَةٍ مَا جَرَتْ لِى بِبَالِ
فَقُلْ لِلْهَوَى : « يَجْرِ مِلْءَ الْعِنَانِ » فَمَيْدَانُ قَلْبِى رَحِيبُ الْمَجَالِ [٢]

عتب وإعتاب

يَا قَمَرًا مَطْلَعُهُ الْمَغْرِبُ قَدْ ضَاقَ بِى — فى حُبِّكَ — الْمَذْهَبُ [٣]
أُعْتِبُ — مِنْ ظُلْمِكَ لِى — جَاهِدًا ، وَيَغْلِبُ الشَّوْقُ فَأَسْتَعْتِبُ [٤]
أَلْزَمْتَنِى الذَّنْبَ الَّذِى جِئْتَهُ . صَدَقْتَ !! فَاصْفَحْ أَيُّهَا الْمُذْنِبُ
وَإِنَّ مِنْ أَغْرَبِ مَا مَرَّ بِى أَنَّ عَذَابِى فِيكَ مُسْتَعْذَبُ [٥]

السر المصون

بَيْنِى وَبَيْنَكَ — مَا لَوْ شِئْتَ لَمْ يَضِعِ — سِرٌّ إِذَا ذَاعَتِ الْأَسْرَارُ لَمْ يَذِعِ [٦]

---

(١) ترب الهلال : أى فى سِنِّه ، والمعنى أنك بلغت أربعة عشر عاما ، وفى ب ، ت ، ز (فى الحسن) .

(٢) العنان : اللجام ؛ وجرى ملء عنانه أى إلى أقصى ما يستطيع .

(٣) فى المغرب (أطلعه الغرب) . (٤) أستعتب : أسترضى .

(٥) البيت ناقص فى الديوان ، وقد أثبتناه عن القلائد والخريدة والمغرب ؛ ورواية الخريدة (من أعجب) .

(٦) فى بعض نسخ الذخيرة (إذا ضاعت الأسرار) .

يَا بَائِعاً حَظَّهُ مِنِّي ، وَلَوْ بُذِلَتْ لِيَ الْحَيَاةُ - بِحَظِّي مِنْهُ - لَمْ أَبِعِ
يَكْفِيكَ أَنَّكَ إِنْ حَمَّلْتَ قَلْبِيَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ قُلُوبُ النَّاسِ يَسْتَطِعِ[١]
تِهْ أَحْتَمِلْ ، وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ ، وَعِزَّ أَهُنْ ،
وَوَلِّ أُقْبِلْ ، وَقُلْ أَسْمَعْ ، وَمُرْ أُطِعِ[٢]

عِلَّةُ العطشان[٣]

أحبت جارية فتى قرشياً فألهمها حبها هذا البيت :

يَا مُعْطِشِي مِنْ وِصَالٍ كُنْتُ وَارِدَهُ
هَلْ مِنْكَ لِي عِلَّةٌ إِنْ صِحْتُ أَوَ عَطَشِي!!؟

ولم تستطع أن تزيد عليه ، فلجأت إلى الشاعر تستزيده ،
وكان يعلم قصتها فأنشدها :

يَا مُعْطِشِي مِنْ وِصَالٍ كُنْتُ وَارِدَهُ
هَلْ مِنْكَ لِي عِلَّةٌ إِنْ صِحْتُ : «وَا عَطَشِي» !!؟[٤]
كَسَوْتَنِي - مِنْ ثِيَابِ السُّقْمِ - أَسْبَغَهَا ظُلْماً وَصَيَّرْتَ مِنْ لِحْفِ الضَّنَى فُرُشِي

(١) فى الجذوة (حسبي بأنك) ، وفى الوافى وتمام المتون وسرح العيون (لو حملت) وفى الجذوة والذخيرة والمعجب وسرح العيون وتمـــام المتون (لا تستطيع قلوب الناس) .

(٢) فى ز (وامتطل أصبر) .

(٣) راجع قصة الفتاة والشاعر فى نفح الطيب (طبع ليدن) جـ ٢ ص ١٩٤ .

(٤) علة : شربة ثانية ، مأخوذة من العلل وهو الشرب الثانى ويقال : علل بعد نهل ، وفى النفح (عن وصال) .

أَنَّى بَصُرْفِ الْهَوَى،عَنْ مُقْلَةٍ كُحِلَتْ ... بِالسِّحْرِ مِنْكَ،وَخَدٍّ بِالْجَمَالِ وُشِي؟[١]

لَمَّا بَدَا الصُّدْغُ مُسْوَدًّا بِأَحْمَرِهِ ... أَرَى التَّشَاكُلَ بَيْنَ الرُّومِ وَالْحَبَشِ[٢]

أَوْفَى إِلَى الْخَدِّ، ثُمَّ انْصَاعَ مُنْعَطِفًا ... كَالْعُقْرُبَانِ انْثَنَى مِنْ خَوْفِ مُحْتَرِشِ[٣]

لَوْ شِئْتَ زُرْتَ - وَسِلْكُ النَّجْمِ مُنْتَظِمٌ ... وَالْأُفْقُ يَخْتَالُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْغَبَشِ -[٤]

صَبًّا - إِذَا الْتَذَّتِ الْأَجْفَانُ طَعْمَ كَرًى - ... جَفَا الْمَنَامَ، وَصَاحَ اللَّيْلُ: «يَا قُرَشِي»![٥]

هَذَا وَإِنْ تَلِفَتْ نَفْسِي، فَلَا عَجَبٌ !!

قَدْ كَانَ مَوْتِيَ - مِنْ تِلْكَ الْجُفُونِ - خَشِي[٦]

فنون الحسن

يَا غَزَالًا جُمِعَتْ فِيـــهِ - مِنَ الْحُسْنِ - فُنُونُ

أَنْتَ فِي الْقُرْبِ وَفِي الْبُعْــدِ - مِنَ النَّفْسِ - مَكِينُ

بِهَوَاكَ الدَّهْرَ أَلْهُو ، وَبِحُبَيِّــكَ أَدِينُ

---

(١) المعنى : كيف أصرف قلبي المتعلق بك عن طرفك الساحر ، وخدك المزين بالجمال ؟

(٢) رواية النفح (أرى التشاكل) ، الصدغ : مابين العين والأذن : أو الشعر المتدلي عليه وهو المقصود هنا ؛ يشبه انسدال الشعر الأسود على الخد الأحمر بمجاورة الحبشي الأسود للرومي الأصهب .

(٣) العقربان : ذكر العقرب . والمعنى : مالت خصلة شعره على خده ثم انعطفت مستديرة كما تستدير العقرب على نفسها إذا خشيت الأذى

(٤) رواية النفح (وسلك الليل) ؛ الغبش : ظلمة آخر الليل .

(٥) رواية النفح (جفا إذا التذت .... جفني المنامُ) .

(٦) رواية النفح (قَتْلِيَ) .

مُنْيَةَ الصَّبِّ : أَغِثْنِي ، قَدْ دَنَتْ مِنِّي الْمَنُونُ
وَاحْفَظِ الْعَهْدَ ، فَإِنِّي لَسْتُ - وَاللهِ - أَخُونُ
وَارْحَمَنْ صَبًّا شَجِيًّا قَدْ أَذَابَتْهُ الشُّجُونُ
لَيْلُهُ هَمٌّ وَغَمٌّ ، وَسَقَامٌ ، وَأَنِينُ
شَفَّهُ الْحُبُّ فَأَمْسَى - سَقَمًا - لَا يَسْتَبِينُ
صَارَ - لِلْأَشْوَاقِ - نَهْبًا ، فَقَنَتْ عَنْهُ الْعُيُونُ

المؤنس الوحيد

يَا مَنْ غَدَوْتُ بِهِ - فِي النَّاسِ - مُشْتَهِرًا قَلْبِي عَلَيْكَ يُقَاسِي الْهَمَّ وَالْفِكَرَا
إِنْ غِبْتَ لَمْ أَلْقَ إِنْسَانًا يُؤَنِّسُنِي
وَإِنْ حَضَرْتَ ، فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ حَضَرَا(١)

الشكاة المأمولة

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُصَادِفُ خَلْوَةً لَدَيْكِ ، فَأَشْكُو بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِدُ ؟
رَعَى اللهُ يَوْمًا فِيهِ أَشْكُو صَبَابَتِي وَأَجْفَانُ عَيْنِي - بِالدُّمُوعِ - شَوَاهِدُ

رق الغرام

يَا سُؤْلَ نَفْسِي - إِنْ أَحْكُمْ - وَاخْتِيَارِي إِنْ أُخَيَّرْ
كَمْ لَامَنِي فِيكَ الْحَسُو دُ ، وَفَنَّدَ الْوَاشِي فَأَكْثَرْ

(١) في ا (يونسني) وهي بمعنى يؤنسني أى يزيل وحشتي .

قَالُوا : « تَغَيَّرَ بِالسُّلُوِّ وَبِالمَلَامَةِ قَدْ تَغَيَّرْ »[(١)]

وَتَوَهَّمُوكَ جَنَيْتَ ذَنْباً بِالتَّجَنِّي لَيْسَ يُغْفَرْ

وَيَزْعُمِهِمْ أَنْ لَيْسَ مِثْلِي فِي الرِّضَى بِالدُّونِ يُعْذَرْ

لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الهَوَى رِقٌّ . وَأَنَّ الحُسْنَ أَحْمَرْ[(٢)]

ضحك وبكاء

مَا ضَرَّ لَوْ أَنَّكَ لِي رَاحِمُ وَعِلَّتِي أَنْتَ بِهَا عَالِمُ

يَهْنِيكَ يَا سُؤْلِي وَيَا بُغْيَتِي أَنَّكَ مِمَّا أَشْتَكِي سَالِمُ

تَضْحَكُ فِي الحُبِّ وَأَبْكِي أَنَا اللهُ - فِيمَا بَيْنَنَا - حَاكِمُ

أَقُولُ لَمَّا طَارَ عَنِّي الكَرَى قَوْلَ مُعَنًّى قَلْبُهُ هَائِمُ :

« يَا نَائِماً أَيْقَظَنِي حُبُّهُ هَبْ لِي رُقَاداً أَيُّهَا النَّائِمُ »

(١) تغير المتاع والقماش وتموره : استعاره وعلى هذا يكون المعنى أنه تغير بالسلوان واستعار حبيبا آخر نتيجة اللام ؛ وربما كانت (قد تغير) أي تكدر صفاؤه ، وربما كانت (تغير) بمعنى تبدل في الشطر الأول، ولحقته الغيرة في الشطر الثاني .

(٢) الحسن أحمر : قال ابن الأثير : معناه شاق أي : من أحب الحسن احتمل المشقة ؛ وقال ابن سيده : معناه أن يلقى العاشق منه ما يلقى صاحب الحرب من الحرب ، وقال ابن الأعرابي : يقال للرجل يميل إلى هواه ويختص بمن يحب ، كما يقال الهوى غالب . وهذا ما عناه الشاعر هنا حيث يريد أن الهوى أسر لا فكاك منه والحسن قهار غالب لا سبيل إلى مقاومته . وينسب إلى بشار :

تخفي محاسن زينة ومعصفرات عن أخضر

فإذا بلغنا قادخلي في الحسن ، إن الحسن أحمر

المؤرق الكئيب(١)

كتبت ولادة إلى الشاعر : —

أَلاَ هَلْ لَنَا مِنْ بَعْدِ هَذَا التَّفَرُّقِ … سَبِيلٌ؛ فَيَشْكُو كُلُّ صَبٍّ بِمَا لَقِي؟
وَقَدْ كُنْتُ أَوْقَاتَ التَّزَاوُرِ فِي الشِّتَا … أَبِيتُ عَلَى جَمْرٍ مِنَ الشَّوْقِ مُحْرِقِ
فَكَيْفَ؟ وَقَدْ أَمْسَيْتُ فِي حَالِ قَطْعَةٍ … لَقَدْ عَجَّلَ الْمِقْدَارُ مَا كُنْتُ أَتَّقِي
تَمُرُّ اللَّيَالِي : لاَ أَرَى الْبَيْنَ يَنْقَضِي … وَلاَ الصَّبْرَ مِنْ رِقِّ التَّشَوُّقِ مُعْتِقِي
سَقَى اللهُ أَرْضاً قَدْ غَدَتْ لَكَ مَنْزِلاً … بِكُلِّ سَكُوبٍ هَاطِلِ الْوَدْقِ مُغْدِقِ

فأجابها بقوله :

لحا اللهُ يَوْماً لَسْتُ فِيهِ بِمُلْتَقٍ … مُحَيَّاكِ مِنْ أَجْلِ النَّوَى وَالتَّفَرُّقِ
وَكَيْفَ يَطِيبُ الْعَيْشُ دُونَ مَسَرَّةٍ؟ … وَأَيُّ سُرُورٍ لِلْكَئِيبِ الْمُؤَرَّقِ؟

الفتنة المحتومة

يَا مُخْجِلَ الْغُصْنِ الْقَيْنَانِ إِنْ خَطَرَا … وَفَاضِحَ الرَّشَأِ الْوَسْنَانِ إِنْ نَظَرَا
يَفْدِيكَ مِنِّي مُحِبٌّ شَأْنُهُ عَجَبٌ … إِمَّا جِئْتَ بِالذَّنْبِ إِلاَّ جَاءَ فَاعْتَذَرَا
لَمْ يُنْجِنِي مِنْكَ مَا اسْتَشْعَرْتُ مِنْ حَذَرٍ … هَيْهَاتَ!! كَيْدُ الْهَوَى يَسْتَهْلِكُ الْحَذَرَا(٢)
مَا كَانَ حُبُّكَ إِلاَّ فِتْنَةً قُدِرَتْ … هَلْ يَسْتَطِيعُ الْفَتَى أَنْ يَدْفَعَ الْقَدَرَا؟

---

(١) لم ترد الأبيات والرد عليها فى الديوان . وقد أثبتناها عن نفح الطيب وزهة الجلساء .

(٢) فى ز (من نظر) .

الحبيب السالى

يا قاطعاً حَبْلَ وُدِّى	وَوَاصِلاً حَبْلَ صَدِّى
وَسالِياً ، لَيْسَ يَدْرِى	بِطُولِ سُقْمِى وَوَجْدِى
لَوْ كانَ عِنْدَكَ مِنِّى	مِثْلُ الَّذِى مِنْكَ عِنْدِى
لَبِتَّ بَعْدِى مِثْلِى .	وَبِتُّ مِثْلَكَ بَعْدِى

فى ثورة غضب[1]

أعجب الشاعر بغناء عتبة وصيفة ولادة ، فاستعاد غناءها بغير استئذان حبيبته ، فأدركتها الغيرة وضربت الوصيفة ، فدافع عنها الشاعر ثم أنشد هذين البيتين :

وَمَا ضَرَبَتْ عُتْبَى لِذَنْبٍ أَتَتْ بِهِ	وَلٰكِنَّمَا وَلَّادَةُ تَشْتَهِى ضَرْبِى
فَقَامَتْ تَجُرُّ الذَّيْلَ عَاثِرَةً بِهِ	وَتَمْسَحُ طَلَّ الدَّمْعِ بِالْعَنَمِ الرَّطْبِ[2]

خطا واعتذار

إِنْ تَكُنْ نَالَتْكِ بِالضَّرْبِ يَدِى	وَأَصَابَتْكِ بِمَا لَمْ أُرِدِ
فَلَقَدْ كُنْتُ - لَعَمْرِى - فَادِيًا	لَكِ بِالْمَالِ وَبَعْضِ الْوَلَدِ
فَثِقِى مِنِّى بِعَهْدٍ ثَابِتٍ	وَضَمِيرٍ خَالِصِ الْمُعْتَقَدِ
وَاَنْ سَاءَكِ يَوْمٌ فَاعْلَمِى	أَنْ سَيَتْلُوهُ سُرُورٌ بِغَدِ

(١) لم يرد البيتان بالديوان ، وقد أثبتناها عن الذخيرة ؛ وسنورد قصتهما بنصها فى آثار الشاعر النثرية .

(٢) العنم : شجر لين الأغصان تشبه به أصابع الحسان ؛ والمعنى : أنها مسحت أصابعها بأطراف بنانها .

- (٥) لوعة الهجران

« ذاق الشـــاعر مرارة الهجر ، ولمس ضيق حبيبته به ، وانصرافها عنه ؛ ولـكنّ بقية من الأمل ما زالت تراوده فيستجيب لها حينا بعد حين » .

موت ونشور [1]

أَخَذَتْ ثُلْثَ الْهَوَى غَصْبًا، وَلِيَ ثُلُثُ ... وَلِلْمُحِبِّينَ - فِيمَا بَيْنَهُمْ - ثُلُثُ

تَاللهِ ، لَوْ حَلَفَ الْعُشَّاقُ : أَنَّهُمُ ... مَوْتَى مِنَ الْوَجْدِ - يَوْمَ الْبَيْنِ - مَا حَنِثُوا

قَوْمٌ - إِذَا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا وُصِلُوا - ... مَاتُوا ، فَإِنْ عَادَ مَنْ يَهْوَوْنَهُ بُعِثُوا

تَرَى الْمُحِبِّينَ صَرْعَى - فِي عِرَاصِهِمُ - ... كَفِتْيَةِ الْكَهْفِ ، مَا يَدْرُونَ مَا لَبِثُوا

فنون المعاذير

وَضَحَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ... وَنَفَى الشَّكَّ الْيَقِينُ [2]

وَرَأَى الْأَعْدَاءُ مَا غَرْ ... رَهُمُ مِنْـــهُ الظُّنُونُ [3]

أَمَّلُوا مَا لَيْسَ يُمْنَى ... وَرَجَوْا مَا لَا يَكُونُ [4]

---

(١) لم ترد الأبيات بالديوان ، وقد أثبتناها عن المعجب .

(٢) فى النفح (وضح الصبح) .

(٣) فى الذخيرة (ورأى الواشون) وفى النفح (منك الظنون) .

(٤) يُمْنَى : يقدّر . أى رجوا ما لا يمكن وقوعه .

وَتَمَنَّوْا أَنْ يَخُونَ الـــعَهْدَ مَوْلًى لاَ يَخُونُ(١)
فَإِذَا الْغَيْبُ سَلِيمٌ وَإِذَا الْعَهْدُ مَصُونُ(٢)

* * *

قُلْ لِمَنْ دَانَ بِهَجْرِي وَهَوَاهُ لِيَ دِينُ(٣)
يَا جَوَادًا بِيَ ؛ إِنِّي بِكَ وَاللّٰهِ ضَنِينُ
أَرْخَصَ الْحُبُّ فُؤَادِي لَكَ وَالْعِلْقُ ثَمِينُ(٤)

* * *

يَا هِـــلاَلاً تَتَرَاءَا هُ نُفُوسٌ لاَ عُيُونُ
عَجَبًا لِلْقَلْبِ يَقْسُو مِنْكَ ، وَالْعِطْفُ يَلِينُ(٥)
مَا الَّذِي ضَرَّكَ لَوْ سُـــرَّ بِمَرْآكَ الْحَزِينُ ؟
وَتَلَطَّفْتَ لِصَبٍّ حَيْنُهُ فِيكَ يَحِينُ(٦)
فَوُجُوهُ اللُّطْفِ شَتَّى وَالْمَعَاذِيرُ — فُنُونُ(٧)

---

(١) فى الذخيرة (العهد) .

(٢) فى الذخيرة (وإذا الود) .

(٣) فى النفح (وهو انى إذ يدين) .

(٤) العلق : الغالى الثمين .

(٥) فى الذخيرة (والقد يلين) .

(٦) فى بعض نسخ الذخيرة (وتلطفت بصب) الحين : الهلاك . يحين : يحل

(٧) آثرنا رواية الذخيرة وفى أصول الديوان :

فوجوه اللطف شتى والمقـــادير فنون

الدلال القاتل

كَمْ ذَا أُرِيدُ وَلاَ أُرَادُ ؟ يَا سُوء مَالَقِيَ الْفُؤَادُ ! (١)
أُصْفِي الْوِدَادَ مُدَلَّلاً ، لَمْ يَصْفُ لِي مِنْهُ الْوِدَادُ (٢)
يَقْضِي عَلَيَّ دَلاَلُهُ – فِي كُلِّ حِينٍ – أَوْ يَكَادُ
كَيْفَ السُّلُوُّ عَنِ الَّذِي مَثْوَاهُ – مِنْ قَلْبِي – السَّوَادُ ؟ (٣)
مَلَكَ الْقُلُوبَ بِحُسْنِهِ ، – فَلَهَا – إِذَا أَمَرَ – انْقِيَادُ

* * *

يَا هَاجِرِي كَمْ أَسْتَفِيدُ الصَّبْرَ عَنْكَ ، فَلاَ أُفَادُ
أَلاَّ رَثَيْتَ لِمَنْ يَبِيتُ وَحَشْوُ مُقْلَتِهِ السُّهَادُ ؟ (٤)
إِنْ أَجْنِ ذَنْبًا فِي الْهَوَى خَطَأً فَقَدْ يَكْبُو الْجَوَادُ
كَانَ الرِّضَى ؛ وَأُعِيدُهُ أَنْ يُعْقِبَ الْكَوْنَ الْفَسَادُ

لقاء المكاره

أَسْلُبُ مِنْ وِصَالِكِ مَا كُسِيتُ ؟ وَأُعْزَلُ – عَنْ رِضَاكِ – وَقَدْ وَلِيتُ ؟
وَكَيْفَ ؟ وَفِي سَبِيلِ هَوَاكِ طَوْعًا لَقِيتُ مِنَ الْمَكَارِهِ مَا لَقِيتُ !
[فَدَيْتُكِ !! لَيْسَ لِي قَلْبٌ فَأَسْلُو وَلاَ نَفْسٌ فَآنَفُ إِنْ جُفِيتُ
فَإِنْ يَكُنِ الْهَوَى دَاءً مُمِيتًا لِمَنْ يَهْوَى فَإِنِّي مُسْتَمِيتُ] (٥)
أُسِرُّ عَلَيْكِ عَتْبًا لَيْسَ يَبْقَى ، وَأُضْمِرُ فِيكِ غَيْظًا لاَ يَبِيتُ

---

(١) في النفح (لله ما لقي ...) (٢) في النفح (أصفي الوداد إلى الذي) .
(٣) سواد القلب : حبته. (٤) في النفح (أفلا رثيت)
(٥) لم يرد هذان البيتان في الديوان وقد أثبتناهما عن الذخيرة .

وما رَدّى على الواشين ، إلاّ : « رَضِيتُ بجَوْرِ مَالِكَى رَضِيتُ »

سوء الجزاء

حَارَبْتَنِي ـ عَنْ تَمَادِي الوَصْلِ ـ هِجْرَانَا ... وَعَنْ تَمَادِي الأَسَى وَالشَّوقِ سُلْوَانَا

بِاللهِ هَلْ كَانَ قَتْلِي فِي الهَوَى خَطَأً ... أَمْ جِئْتَهُ عَامِدًا ظُلْمًا وَعُدْوَانَا ؟

عَهْدِي كَعَهْدِكَ ، مَا الدُّنْيَا تُغَيِّرُهُ ... وَإِنْ تَغَيَّرَ مِنْكَ العَهْدُ أَلْوَانَا[1]

مَا صَحَّ وُدِّي إِلاَّ أَعْتَلَّ وُدُّكَ لِي ، ... وَلاَ أَطَعْتُكَ إِلاَّ زِدْتَ عِصْيَانَا

يَا أَلْيَنَ النَّاسِ أَعْطَافًا ، وَأَفْتَنَهُمْ ـ ... لَحْظًا ، وَأَعْطَرَ أَنْفَاسًا وَأَرْدَانَا

حَسُنْتَ خَلْقًا، فَأَحْسِنْ لاَ تَسُؤْ خُلُقًا ، ... مَا خَيْرُ ذِي الحُسْنِ إِنْ لَمْ يُولِ إِحْسَانًا ؟[2]

الحكم الجائر

لَوْ كَانَ قَوْلُكَ : « مُتْ » مَا كَانَ رَدِّى : « لاَ »

يَا جَائِرَ الحُكْمِ ، أَفْدِيهِ بِمَنْ عَدَلاَ

أَبْدَيْتَ لِي ـ مِنْ أَفَانِينِ القِلَى ـ عِبَرًا ، ... أَرْسَلْتَنِي ـ فِي أَحَادِيثِ الهَوَى ـ مَثَلاَ

لَمْ تُبْقِ جَارِحَةً بِالهَجْرِ مِنْ جَسَدِي ... إِلاَّ خَتَمْتَ عَلَيْهَا ـ لِلضَّنَى ـ حُلَلاَ

فَلَيْتَنِي كُنْتُ أَنِّي بَعْضُ مَنْ مَلَكَتْ ، ... وَلَيْتَ كَفَّ طَرْفَكَ أَنِّي بَعْضُ مَنْ قَتَلاَ

وَلْتَقْضِ مَا شِئْتَ مِنْ هَجْرٍ وَمِنْ صِلَةٍ ... لاَ أَقْضِ مَا عِشْتُ سُلْوَانًا وَلاَ مَلَلاَ

سَقْيًا لِعَهْدِكَ وَالأَيَّامُ تُقْبِلُنِي ... وَجْهَ السُّرُورِ بِهِ جَذْلاَنَ مُقْتَبِلاَ

إِذِ الزَّمَانُ يَلِيغُ فِي مُسَاعَدَتِي ... يُهْدِي إِلَيَّ تَفَارِيقَ المُنَى جُمَلاَ

إِنْ كَانَ لِي أَمَلٌ إِلاَّ رِضَاكَ ، فَلاَ ... بُلِّغْتُ ـ يَا أَمَلِي ـ مِنْ دَهْرِيَ الأَمَلاَ !!!

---

(١) فى ز (لا الدنيا) . (٢) فى ز (إذ لم يدل) .

سوء العذاب

أتهجرني وتنصبني كتابي ؟ وما في الحق غضبي واجتنابي
أيجمل أن أبيحك محض ودّي؟ وأنت تسومني سوء العذاب(١)
فديتك ، كم تغض الطرف دوني وكم أدعوك من خلف الحجاب
وكم لي من فؤادك — بعد قرب — مكان الشيب في نفس الكعاب(٢)
أعذ — في عبدك الظلوم — رأيا تنال به الجزيل من الثواب
وإن تبخل عليه فرب دهر وهبت له رضاك بلا حساب

السر الذائع

أما رضاك فملك ماله ثمن لو كان ساعفني في وصله الزمن(٣)
تبكي فراقك عين أنت ناظرها قد لج في هجرها عن هجرك الوسن(٤)
إن الزمان الذي عهدي به حسن
قد حال مذ غاب عني وجهك الحسن(٥)

---

(١) المحض : الخالص ؛ تسومني : توليني وتجشمني .

(٢) الكعاب : الفتاة التي برز ثديها ، والمراد أنك أصبحت تنظر إلى بجفاء كما تنظر الفتاة الغضة إلى الرجل الكهل ، وطالما كنت قريبا إلى فؤادك .

(٣) العلق : النفيس ؛ وفي الذخيرة ومسالك الأبصار وتمام المتون (فشيء) ؛ وفي مسالك الأبصار (لو كان ساعفني في ملكه) وفي الذخيرة (ساعفني في ملكه) وفي تمام المتون (ملكك) .

(٤) الناظر : سواد العين وفي تمام المتون (من هجرك) .

(٥) حال : تغير .

أنتِ الحياةُ، فإنْ يُقدرْ فِراقُكِ لي   فليحفرِ القبرُ أو فليحضُرِ الكفَنُ
وَاللهِ ما ساءني أنّي خفيتُ ضَنًى   بل ساءني أنّ سِرّي بالضنى عَلَنُ[1]
لو كانَ أمريَ – في كتمِ الهوى – بيدي
ما كانَ يعلمُ – ما في قلبيَ – البدنُ

يا ليتني

أرخصتِني مِنْ بعدِ ما أغليتِني   وحططتِني، ولطالما أعليتِني
بادرتِني بالعزلِ عنْ خططِ الرضى،   ولقدْ محضتُ النصحَ إذْ ولّيتِني
هلّا – وقدْ أعلقتِني شركَ الهوى –   علّلتِني بالوصلِ، أو سلّيتِني[2]؟
الصبرُ شهدٌ – عندَ ما جرّعتِني –   والنارُ بردٌ، عندَ ما أصليتِني
كنتُ المُنى، فأذقتِني غُصَصَ الأذى،   يا ليتني ما فُهتُ فيكِ: بليتني

الحبيب الظالم

صاحبْ أعداني لأنّكَ منهمُ   يا مَنْ يصحُّ – بمُقلتيهِ – ويَسقمُ
أصبحتَ تُسخطني فأمنحكَ الرّضى   – محضًا – وتظلمُني، فلا أتظلّمُ[3]
يا مَنْ تألّفَ ليلُهُ ونهارُهُ،   فالحسنُ بينهما مُضيءٌ مُظلِمُ
قدْ كانَ في شكوى الصبابةِ راحةٌ،   لو أنّني أشكو إلى مَنْ يرحمُ

(١) في الذخيرة وتمام المتون (أن سرى بالهوى)، وفي بعض نسخ الذخيرة (العلن)
(٢) علّلتني بالوصل: ألهيتني به.
(٣) في الذخيرة (وأمنحك .. ولا أتظلم)

غدر الحبيب

يا ليلُ طُلْ ، لا أشتهي — إلا بوصْلٍ — قِصَرَكْ[1]
[يا ليلُ طُلْ ، أو لا تَطُلْ — لا بُدَّ لي أنْ أسْهَرَكْ][2]
لو بات عندي قمري ، — ما بتُّ أرْعَى قَمَرَكْ
يا ليلُ خَبِّرْ ؛ إنَّني — ألتذُّ عَنْهُ خَبَرَكْ
بالله قل لي : هل وفى ؟ — فقال : « لا ، بل غَدَرَكْ »

تباريح الدلال

أيُّها البــدرُ الذي — يملأ عيني من تأمُّلْ
حُمِّلَ القلبُ تباريحَ التجنِّـ — ـي فتحمَّلْ
ليس لي صبرٌ جميلٌ ، — غيرَ أنِّي أتجمَّلْ
ثُمَّ لا بأسَ ! فكم قد — نِيلَ أمرٌ لم يُؤمَّلْ

لوعة الجفاء

أأُجْفَى بلا جُرْمٍ ، وأُقْصَى بلا ذنبٍ — سِوَى أنني مَحضُ الهوى صادقُ الحُبِّ ؟
أُغاديك بالشكوى ، فأُضحي على القِلَى — وأرجوك للعُتْبَى ، فأظفرُ بالعتبِ[3]
فديتُك ، ما للماءِ عذباً على الصَّدَى — وإنْ سُمْتَني خسفاً ، محلُّك من قلبي[4]

(١) في بعض نسخ الذخيرة (إلا كمد) وفي بعضها (كمرى) .
(٢) البيت زيادة عن النزهة .
(٣) القلى : البغض ، العتبى : الصفح والمغفرة .
(٤) سامه الخسف : أولاه الذل وأراده عليه .

وَلَوْلاكِ ، مَاضَافَتْ حَشَاىَ - صَبَابَةً -
جَعَلْتُ قِرَاهَا الدَّمْعَ سَكْبًا عَلَى سَكْبِ (١)

كواذب الآمال

قَدْ نَالَنِى مِنْكِ مَا حَسْبِى بِهِ ، وَكَفَى !! يَا مَنْ تَنَاهَيْتُ فِى أَلْطَافِهِ فَجَفَا -
عَلَّمْتَنِى بِالْمُنَى ، حَتَّى إِذَا عَلِقَتْ بِالنَّفْسِ لَمْ أُعْطَ مِنْ أَسْبَابِهَا طَرَفَا
غَيَّرْتَ عَنْ خُلُقِى قَدْ لَانَ لِى زَمَنًا - لِينَ النَّسِيمِ ، فَلَمَّا لَذَّ لِى عَصَفَا
لَا يَحْبَطَنْ عَمَلٌ أَرْضَاكَ صَالِحُهُ !! فَفِى سَبِيلِكَ أَنْفَقْتُ الْهَوَى سَرَفَا (٢)

نقض العهود

أُحِبُّ ، وَمَنْ أَهْوَاهُ - فِى الْحُبِّ - عَابِثٌ وَأُوفِى لَهُ بِالْعَهْدِ ، إِذْ هُوَ نَاكِثُ
حَبِيبٌ نَأَى عَنِّى - مَعَ الْقُرْبِ - وَالْأَسَى - مُقِيمٌ لَهُ فِى مُضْمَرِ الْقَلْبِ مَاكِثُ (٣)
جَفَانِى بِأَلْطَافِ الْعِدَا ، وَأَزَالَهُ - عَنِ الْوَصْلِ - رَأْىٌ فِى الْقَطِيعَةِ حَادِثُ
تَغَيَّرْتَ عَنْ عَهْدِى ، وَمَا زِلْتُ وَاثِقًا بِعَهْدِكَ ، لَكِنْ غَيَّرَتْكَ الْحَوَادِثُ

---

(١) ضاف الرجلَ : نزل به ، والمعنى : لولاك ما استقر الحب فى أحشائى ولا عصف بجوانحى ، وإذا كان قرى الضيف الشراب والطعام فإن هذا الغرام يتغذى بدمى ويروى بدموعى .

(٢) حَبِطَ العملُ : بطل ثوابه ؛ السرف مجاوزة القصد ، والمعنى : أننى أسلمت نفسى للهوى فجاوز بى الحد وأشفى بى على القبر ، ولكننى غير آسف على هوى يرضيك ، وإن لقيت منه الأهوال .

(٣) المعنى : كان حبيبى مخلصا لى ؛ ثم تحول عن حبى ومال إلى جانب الأعداء .

وَمَا كُنْتُ ـ إِذْ مَلَّكْتُكَ الْقَلْبَ ـ عَالِمًا بِأَنِّيَ ـ عَنْ حَتْفِي ـ بِكَفِّيَ بَاحِثُ

فَدَيْتُكَ ، إِنَّ الشَّوْقَ لِي ـ مُذْ هَجَرْتَنِي ـ

مُمِيتٌ ؛ فَهَلْ لِي ـ مِنْ وِصَالِكَ ـ بَاعِثُ؟(١)

سَتَبْلَى اللَّيَالِي ـ وَالْوِدَادُ بِحَالِهِ

جَدِيدٌ ـ وَتَفْنَى ، وَهْوَ لِلْأَرْضِ وَارِثُ(٢)

وَلَوْ أَنَّنِي أَقْسَمْتُ : أَنَّكَ قَاتِلِي

وَأَنِّيَ مَقْتُولٌ ، كَمَا قِيلَ : «حَانِثُ . »(٣)

قطع الصلات

يَا نَاسِيًا لِي عَلَى عِرْفَانِهِ تَلَفِي ذِكْرُكَ مِنِّيَ بِالْأَنْفَاسِ مَوْصُولُ(٤)

وَقَاطِعًا صِلَتِي مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبٍ تَاللّٰهِ إِنَّكَ عَنْ رُوحِي لَمَسْئُولُ(٥)

مَا شِئْتَ فَاصْنَعْهُ ، كُلٌّ مِنْكَ مُحْتَمَلٌ وَالذَّنْبُ مُغْتَفَرٌ ، وَالْعُذْرُ مَقْبُولُ

لَوْ كُنْتَ حَظِّيَ ، لَمْ أَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا ، أَوْ نِلْتُ مِنْكَ الرِّضَا ، لَمْ يَبْقَ مَأْمُولُ

---

(١) المعنى ما كنت أعلم حين أسلمتك زمام قلبي أنني أسعى بنفسي إلى إهلاك نفسي ، وفى المثل « كالباحث عنه حتفه بظلفه » يقال إن جزارا أراد ذبح عنزة فافتقد المدية فلم يجدها ، ثم فحصت العنزة برجلها الأرض فظهرت المدية .

(٢) فى النفح (جديد وغض)

(٣) فى النفح (وأنى لمقتول)

(٤) فى الأصول (ذكراك) ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٥) فى النفح (بالله) .

كما تشاء

ناه فكن لي !! لستُ مُنتقلاً لا تخشَ منّي نِسياناً ولا بدلا
بنفسك من لم يدر بعدك : ما طَعمُ الحياة ، ولا بالبعد منك سلا ؟
ي كلفاً ! أبليتني أسماً ! قطّعتني شغفاً ! أورثتني عللا

* * *

ئت خُنت وأضمرت السلوّ فلا بلغت - يا أملي - من قربك الأملا !!
لا علقت نفسي بغيركم ولا اتخذت سواكم منكم بدلا

وحشة الزمان

شني الزمان وأنت أنسي ؟ ويظلم لي النهار وأنت شمسي ؟[١]
س في محبتك الأماني فأجني الموت من ثمرات غرسي ؟[٢]
جازيت غدراً عن وفائي وبعت مودتي ظلماً ببخس[٣]
نّ الزمان أطاع حكمي فديتك - من مكارهه - بنفسي

القلب الجماد

ن علمت حظك من ودادي ولم تجهل محلك من فؤادي
إلى الهوى فاتقدت طوعاً وما سكنت غيرك من قيادي
بت لي السقام لباس جسم كحلت الطرف منه بالسهاد ؟

(١) في النفح (أيوحش لي) وفي الخريدة (ويظلم بي)
(٢) في النفح (وأجني)
(٣) في الذخيرة (جازيت هجرا) وفيها وفي النفح (عن وفاء)

* * *

أجِلْ عَيْنَيكَ فى أسْطارِ كُتْبِى   تَجِدْ دَمْعِى مِزَاجاً لِلْمِدادِ
فَدَيْتُكَ !!! إنَّنِى قَدْ ذَابَ قَلْبِى   مِنَ الشَّكْوَى إلَى قَلْبٍ جَمَادِ

فى الوثاق

يَا غَــزَالاً أَصَارَنِى   مُوثَقًا فى يَدِ الْمِحَنْ
إنَّنِى - مُذْ هَجَرْتَنِى -   لَمْ أَذُقْ لَذَّةَ الْوَسَنْ —
لَيْتَ حَظِّى إشَارَةٌ   مِنْكَ ، أوْ لَحْظَةٌ عَنَنْ(١)
شَافِنِى يَا مُعَــذِّبِى   فى الْهَوَى وَجْهُكَ الْحَسَنْ
كُنْتُ خِلْوًا مِنَ الْهَوَى   فَأَنَا الْيَــوْمَ مُرْتَهَنْ(٢)
كَانَ سِرِّى مُكَتَّمًا   وَهُوَ الآنَ قَدْ عَلَنْ
لَيْسَ لِى عَنْكَ مَذْهَبٌ   فَـكَمَا شِئْتَ لِى فَكُنْ!!!

بذل الحياة

بِاللهِ خُذْ مِنْ حَيَاتِى   يَوْمًا ، وَصِلْنِى سَاعَهْ
كَيْمَا أَنَالَ بِقَرْضٍ   مَا لَمْ أَنَلْ بِشَفَاعَهْ

ذوب النفس

لَعَمْرِى لَئِنْ قَلَّتْ إلَيْكَ رَسَائِلِى   لأَنْتَ الَّذِى نَفْسِى عَلَيْهِ تَذُوبُ
فَلاَ تَحْسَبُوا أَنِّى تَبَدَّلْتُ غَيْرَكُمْ   وَلاَ أَنَّ قَلْبِى مِنْ هَوَاكَ يَتُوبُ

---

(١) نظرة عَنَن : نظرة عارضة ، وفى النفح (نظرة ثَمَن) .

(٢) فى النفح (وأنا اليوم) ، مرتهن : محبوس وموقوف على هذا الحب لا يستطيع الفكاك منه .

٦ ـ مرارة الهجران

« غمر ظلام اليأس صفحة الرجاء ، وحجبت سحائب الحرمان أشعة الحنان ، فرتل الشاعر أشجى الألحان »

سلام الوداع

لَئِنْ قَصَّرَ الْيَأْسُ مِنْكِ الْأَمَلْ ... وَحَالَ تَجَنِّيكِ دُونَ الْحِيَلْ[١]

وَنَاجَاكِ ـ بِالْإِفْكِ ـ فِيَّ الْحَسُودُ ... فَأَعْطَيْتِهِ ـ جَهْرَةً ـ مَا سَأَلْ[٢]

وَرَاقَكِ سِحْرُ الْعِدَا الْمُفْتَرَى ... وَغَرَّكِ زُورُهُمُ الْمُفْتَعَلْ

وَأَقْبَلْتِهِمْ فِي وَجْهِ الْقَبُولِ ... وَقَابَلْتِهِمْ بِشْرِكِ الْمُقْبِلْ[٣]

فَإِنِّي ذِمَامَ الْهَوَى لَنْ أَزَالَ ... أُبَقِّيهِ حِفْظًا كَمَا لَمْ أَزَلْ[٤]

* * *

فَدَيْتُكِ !!! إِنْ تَعْجَلِي بِالْجَفَا ... فَقَدْ يَهَبُ الرَّيْثَ بَعْضُ الْعَجَلْ[٥]

---

(١) فى الذخيرة (قهر اليأس فيك) (٢) الأفك : الزور .

(٣) أقبله الشيء : قابله به ؛ القبول : المحبة والرضا بالشيء ، وانجذاب النفس إليه .

(٤) فى أصول الديوان (لم أزل أبكيه حفظا) ، وفى أصول الذخيرة (لن أزال أبليه حفظك) وفى ت (كما لم يزل) ولعل الصواب ما أثبتناه والمعنى ، ما زلت ولن أزال محافظا على عهود المودة والهيام .

٥ — فى الذخيرة (إن تعجلى بالوفاه) ؛ والمعنى لا تعجلى بالقطيعة فكثيرا ما توقع العجلة فى أخطار جسيمة تعوق الإنسان عن بلوغ أهدافه التى كان يتعجل بلوغها ، والمثل « رب عجلة تهب ريثا » والريث : البطء .

عَلَامَ أَطَبْتَكِ دَوَاعِي التِّلَى ؟ ... وَفِيمَ تَنَتْكِ نَوَاهِي العَذَلْ ؟[1]
أَلَمْ أَلْزَمِ الصَّبْرَ كَيْمَا أَخِفَّ ؟ ... أَلَمْ أُكْثِرِ الهَجْرَ كَيْ لَا أَمَلْ[2]
أَلَمْ أَرْضَ مِنْكِ بِغَيْرِ الرِّضَى ... وَأُبْدِي السُّرُورَ بِمَا لَمْ أَنَلْ ؟
أَلَمْ أَغْتَفِرْ مُوبِقَاتِ الذُّنُو ... بِ ؟ عَمْداً أَتَيْتِ بِهَا أَمْ زَلَلْ ؟
وَمَا سَاءَ ظَنِّيَ بِي أَنْ يُسِيءَ ... بِيَ الفِعْلَ حُسْنُكِ حَتَّى فَعَلْ
عَلَى حِينِ أَصْبَحْتِ حَسْبَ الضَّمِيرِ ... وَلَمْ تَبْغِ مِنْكِ الأَمَانِي بَدَلْ
وَصَانَكِ مِنِّي وَفِيٌّ أَبِيٌّ ... لِعِلْقِ العَلَاقَةِ أَنْ يُبْتَذَلْ

* * *

سَعَيْتِ لِتَكْدِيرِ عَهْدٍ صَفَا ... وَحَاوَلْتِ نَقْضَ وِدَادٍ كَمَلْ
فَمَا عُوفِيَتْ مُقْلَةٌ مِنْ أَذًى ... وَلَا أُغْفِيَتْ نِيَّةٌ مِنْ خَجَلْ
وَمَهْمَا هَزَزْتُ إِلَيْكِ العِتَا ... بَ ظَاهَرْتِ بَيْنَ ضُرُوبِ العِلَلْ[3]
كَأَنَّكِ نَاظَرْتِ أَهْلَ الكَلَامِ ... وَأُوتِيتِ فَهْماً بِعِلْمِ الجَدَلْ
وَلَوْ شِئْتِ رَاجَعْتِ حُرَّ الفَعَالِ ... وَعُدْتِ لِتِلْكَ السَّجَايَا الأُوَلْ[4]
فَلَمْ يَكُ حَظِّي مِنْكِ الأَخَسَّ ... وَلَا عُدَّ سَهْمِيَ فِيكِ الأَقَلْ[5]

---

(١) طباه عن الأمر : صرفه عنه ، واطباه الشئ استماله إليه ؛ وفى الذخيرة (علام أطعت ... وفيم نهتك)

(٢) فى الذخيرة (ألم أوثر الصبر) .

(٣) فى الذخيرة (صروف العلل)

(٤) الفَعال : اسم للفعل الحسن والكرم ، وقيل للخير والشر ، ولايكون إلا لفاعل واحد فإذا كان لجمع كُسِرَت فاؤه يقال : هو حسن الفَعال وهم حسان الفِعال .

(٥) فى الذخيرة (ولاعهد سهمى)

* * *

عَلَيْكِ السَّلَامُ !! سَلَامُ الْوَدَاعِ   وَدَاعِ هَوًى مَاتَ قَبْلَ الْأَجَلْ

وَمَا بِاخْتِيَارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكِ   وَلَكِنَّنِي مُكْرَهٌ لَا بَطَلْ[1]

وَلَمْ يَدْرِ قَلْبِيَ كَيْفَ النُّزُوعُ   إِلَى أَنْ رَأَى سِيرَةً فَانْتَثَلْ[2]

وَلَيْتَ الَّذِي قَادَ عَفْواً إِلَيْكِ   أَبِيَّ الْهَوَى فِي عِنَانِ الْغَزَلْ

يُحِيلُ عُذُوبَةَ ذَاكَ اللَّمَا   وَيَشْفِي مِنَ السُّقْمِ تِلْكَ الْمُقَلْ[3]

شماتة الأعداء

أَشْمَتَّ بِي فِيكِ الْعِدَا   وَبَلَغْتِ مِنْ ظَلْمِي الْمَدَى

لَوْ كَانَ يُمْلِكُ ـ فِدْيَةً   مِنْ حُبِّكِ ـ الْقَلْبُ افْتَدَى

كُنْتِ الْحَيَاةَ لِعَاشِقٍ   ـ مُذْ خُلْتِ ـ أَيْقَنَ بِالرَّدَى

لَمْ يَسْلُ عَنْكِ ، وَلَوْ سَلَا   لَعَذَرْتِهِ ؟ قَبْلَكِ اقْتَدَى

ضَيَّعْتِ عَهْدَ مُحِبِّـةٍ   كَالْوَرْدِ سَامَرَهُ النَّدَى

---

(١) في الذخيرة (وما باختيارى) ؛ «مكره أخوك لابطل» مثل لمن يُرْغَمُ على القيام بأمر فيؤديه وهو كاره .

(٢) النزوع عن الشيء : الإقلاع عنه ، امتثل الأمر : احتذاه وسلك سبيله ؛ والمعنى لم يدر قلبي كيف يكف عن حبك حتى فجأته بالهجر فقلدك فيه .

(٣) يحيل : يغير ، ومعنى البيتين : أتمنى على الله الذى جذب قلبى الأبى إلى حسنك الفتان ، أن يشوه جمالك : فيغير رضابك العذب ، ويستل تأثير طرفك الساحر الوسنان .

أين ادّعاؤك للوفا ء ؟ وما عدا مما بدا ؟ [١]

الادعاء الكاذب

يا مُستخفًا بعاشقه ومُستغشًا لناصحِه
ومَن أطاع الوشاة فينا حتى أطعنا السّلوَ فيه
الحمدُ لله إذ أراني تكذيبَ ما كنتَ تدّعيه [٢]
من قبلِ أن يَعزم التسلّي ويَغلب الشوقُ ما يليه [٣]

دعوة المظلوم

إن ساء فعلُك بي ، فما ذنبي أنا ؟ حسبُ المتيّم أنه قد أحسنا
لم أسلُ حتى كان عذرك ـ في الذي أبديته ـ أخفى ، وعذرى أبينا

(١) المعنى : كيف تدعين الوفاء مع تبدلك وتحولك ؟ وما تحوّل هو عن عهدك ، ولا تبدل عما بدأه من حبك . وهو يشير بهذا إلى قول الإمام على رضى الله عنه لطلحة يوم الجمل « عرفتنى بالحجاز ، وأنكرتنى بالعراق ، فما عدا مما بدا ؟ » وذلك أنه كان قد بايعه بالمدينة ، وجاء يقاتله بالبصرة ؛ أى ما الذى صرفك عنى وحملك على التخلف بعد ما ظهر منك من التقدم فى الطاعة والتابعة ؟ وقيل معناه : ما بدا لك فصرفك عنى ؟ ؛ وقيل معناه : ما عداك مما كان بدالنا من نصرك ؟ أى ما شغلك ؟

(٢) فى المغرب (قد بدا لى تكذيب)

(٣) يعزم : يشتد ويشرس ؛ والمعنى يحمد الله أنه أظهر له تلونها وخداعها قبل أن يسيطر الحب على قلبه فلا يستطيع منه فكاكا ، ويفر منه السلوان فلا يجد إليه سبيلا ، وفى القلائد والنفح (من قبل أن يهزم)

وَلَقَدْ شَكَوْتُكَ – بِالضَّمِيرِ – إِلَى الْهَوَى ،
وَدَعَوْتُ – مِنْ حَنَقٍ – عَلَيْكَ فَأَمَّنَا
مَنَّيْتُ نَفْسِي – مِنْ وَفَائِكَ – ضَلَّةً وَلَقَدْ تَغُرُّ الْمَرْءَ بَارِقَةُ الْمُنَى(١)

جسم عليل

عَلَامَ صَرَمْتَ حَبْلَكَ مِنْ وَصُولِ فَدَيْتُكَ وَاعْتَزَزْتَ عَلَى ذَلِيلِ ؟
وَفِيمَ أَنِفْتَ مِنْ تَعْلِيلِ صَبٍّ صَحِيحِ الْوُدِّ ذِي جِسْمٍ عَلِيلِ
فَهَلَّا عُدْتَنِي – إِذْ لَمْ تَعَوَّدْ بِشَخْصِكَ – بِالْكِتَابِ أَوِ الرَّسُولِ(٢)
لَقَدْ أَعْيَا تَلَوُّنُكَ احْتِيَالِي وَهَلْ يُغْنِي احْتِيَالٌ فِي مَلُولِ ؟

غبن الزمان

خُنْتَ عَهْدِي وَلَمْ أَخُنْ بِعْتَ وُدِّي بِلَا ثَمَنْ
قَائِلاً : « هَلْ مُزَايِدٌ رَابِحاً ؟ ثُمَّ مَنْ يَزِنْ ؟ »
عُدَّنِي كُنْتُ لِلزَّمَا نِ ، فَقَدْ حُلْتَ وَالزَّمَنْ !!
أَرْخِصِ الْبَيْعَ كَيْفَ شِئْتَ ؛ وَذُدْنِي لَتَنْدَمَنْ !!(٣)
سَوْفَ تُبْلَى بِغَيْرِنَا جَرِّبِ النَّاسَ وَامْتَحِنْ

(١) فى الذخيرة (من هواك بضلة) ، وفى القلائد والخريدة والوافى والمسالك (من صفائك ضلة) .

(٢) تَعَوَّدْ : أصلها تتعود ومعناها الاعتياد أو عيادة المريض ، والمعنى : إذا كنتَ لم تعتد زيارتى أو عيادتى بشخصك فهلا أرسلتَ إلىَّ خطابا أو رسولا ؟

(٣) ذدنى : اطردنى ، وفى أصول الديوان (رُدَّنى) والرود هو الطلب ، ويكون المعنى على هـــذا : بعنى بما شئت ثم اطلبنى فلن تحصل علىَّ بأى ثمن . وحينئذ تدرك الندم ؛ ولعل الصواب ما أثبتناه .

٧ - كيد وعناد

« صارحته بالمداء ، واستبدلت به سواه ؛ فثارت ثائرته ، واندفع محاولا تحطيمها ومن يحيط بها ، مملنا أنه استعاض حبا بحب وسلوانا بسلوان ؛ ولكن هيهات هيهات !!! فلن يخفى الغرام ، وإن أغاظ الأقسام » .

حب جديد

أَوْدَتْ ذِكْرَى الْهَوَى - مِنْ بَعْدِ نِسْيَانِ
وَاسْتَحْدَثَ الْقَلْبُ شَوْقاً بَعْدَ سُلْوَانِ(١)

مِنْ حُبِّ جَارِيَةٍ ، يَبْدُو بِهَا صَنَمٌ مِنَ اللُّجَيْنِ ، عَلَيْهِ تَاجُ عِقْيَانِ(٢)

غَرِيرَةٌ لَمْ تُفَارِقْهَا تَمَائِمُهَا تَسْبِي الْعُقُولَ بِسَاجِي الطَّرْفِ وَسْنَانِ(٣)

لَأَسْتَحِدَّنَّ - فِي عِشْقِي لَهَا - زَمَناً يُنْسِي سَوَالِفَ أَيَّامِي وَأَزْمَانِي(٤)

حَتَّى تَكُونَ لِمَنْ أَحْبَبْتُ خَاتِمَةً ، نَسَخْتُ - فِي حُبِّهَا - كُفْراً بِإِيمَانِ(٥)

(١) فى النفح (نسيانى ... سلوانى)

(٢) فى النفح (عليها)؛ اللجين : الفضة ، العقيان : الذهب الخالص ، والمعنى: لقد تيّمني حب جارية حسناء مصقولة كالدمية الفنية المنحوتة من الفضة المتوجة بتاج ذهبي ، والمقصود أنها ناصعة البياض صفراء الشعر .

(٣) غريرة : ساذجة ؛ لم تفارقها تمائمها : لم تزل فى دور الطفولة تحمل الرُّقى والتعاويذ ، ساجي : هادىء وديع ، والمراد : تسبي العقول بنظراتها الوادعة الحالمة ، وفى النفح (تسبي القلوب)

(٤) المعنى : لأستحدثنّ فى حبها عهداً جديداً يفوق عهد حبي القديم حتى يطغيه بيريقه ولألائه . وفى النفح (يحيى)

(٥) ستكون هذه الفتاة الغريرة آخر من شغفت بهن من الحسان؛ وسأمحو بحبي لها جميع ما سبق لى من صبوات؛ فهى بالقياس إليهن كالأيمان بعد الجحود والكفران .

اختيار البديل[1]

... ...

وَغَرَّكَ مِنْ عَهْدِ « وَلَّادَةٍ » سَرَابٌ تَرَاءَى وَبَرْقٌ وَمَضْ[2]
تَظُنُّ الْوَفَاءَ بِهَا ؛ وَالظُّنُو نُ فِيهَا تَقُولُ عَلَى مَنْ فَرَضْ[3]
« هِيَ الْمَاءُ يَأْبَى عَلَى قَابِضٍ وَيَمْنَعُ زُبْدَتَهُ مَنْ مَخَضْ »[4]
وَنُبِّئْتُهَا بَعْدِيَ اسْتَحْمَدَتْ بِسِرِّي إِلَيْكَ لِمَعْنًى غَمَضْ[5]

* * *

وَأَنْذِرْ خَلِيلَكَ مِنْ مَاهِرٍ بِطِبِّ الْجُنُونِ إِذَا مَا عَرَضْ
وَأَشْعِرْهُ أَنِّي انْتَخَبْتُ الْبَدِيلَ وَأَعْلِمْهُ أَنِّي اسْتَجَدْتُ الْعِوَضْ
فَلَا مَشْرَبِي ـ لِقِلَاهُ ـ أَمَرَّ وَلَا مَضْجَعِي ـ لِنَوَاهُ ـ أَقَضْ[6]

(١) سترد القصيدة بتمامها فى فن الهجاء، ولكننا اخترنا منها هذه الأبيات لمناسبتها للمقام .

(٢) فى الديوان (عهد فتّالة) وقد آثرنا رواية الذخيرة .

(٣) فى ب ، ت (تمول) .

(٤) المعنى : أنها خداعة غدارة لا وفاء لها ، فهى كالماء لا تستطيع اليد أن تمسكه ، ولا أن تستخرج منه زبدا .

(٥) فى الذخيرة (بسيرإليك) وفى ب، ت، ز (بسر)، والمعنى: أنها أذاعت سرّى إليك لتظفر بالثناء منك ، وهى بهذا ترمى إلى هدف خاص تحاول كتمانه .

(٦) يقول : أنبئ صاحبك (الخاطب ابن عبدوس ، والحديث عن شخص ولّادة) أننى اصطفيت بنفسى حبيباً خيراً منه ، ووجدت لها خليلا عوضا عنه ؛ فما تكدّر صفائى لبعده لم يخشن مضجعى لصدّه .

وَأَنْ يَدَ الْبَيْنِ مَشْكُورَةٌ لِعَارٍ أَمَاطَ وَوَصْمٍ رَحَضْ[1]
وَحَسْبِيَ أَنِّي أَطِبْتُ الْجَنَى لِإِبَّانِهِ ، وَأَبَحْتُ النَّفَضْ[2]
وَيَهْنِيكَ أَنَّكَ يَا سَيِّدِي غَدَوْتَ مُقَارِنَ ذَاكَ الرَّبَضْ[3]

لذة التبديل

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّيَ الْبَدْرَ الَّذِي كَمُلَا
ـ فِي مَطْلَعِ الْحُسْنِ ـ وَالْغُصْنَ الَّذِي اعْتَدَلَا :
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي أَهْدَى مَوَدَّتَهُ إِلَيَّ مُرْتَهِنٌ شُكْرِي بِمَا فَعَلَا[4]
أَمَّا الْحَبِيبُ الَّذِي أَبْدَى اجْتِنَاءً لَنَا ، فَمَا رَأَيْنَا تَلَاهُ حَادِثًا جَلَلَا[5]
وَلَمْ نَزِدْ أَنْ ظَفِرْنَا مِلْءَ أَعْيُنِنَا بِالْمُشْتَرِي ، فَتَجَنَّبْنَا لَهُ زُحَلَا[6]

---

(١) أماط العار : أزاله ، ورحض الوصم : غسل العيب ومحا العار ، فهو يشكر للفراق أنه أزال النشاوة عن عينيه ، فأراه من حب دنس وهوى ذميم .

(٢) الجنى : الثمر ؛ النفض : ما تساقط من الورق والثمر ؛ والمعنى أنه تمتع من حبيبته بأطايب الثمر ثم ترك هشيمها لغيره ممن يقمون بالتوافه .

(٣) الربض : مأوى الماشية ، أو أحشاء الناقة أو ما تحويه البطن والمصارين ؛ والشاعر هنا يسخر من خصمه فيهنئه بما تركه له من فضلات .

(٤) مرتهن : مستحق ؛ والمعنى : إن حبيبي الجديد الذي كملت محاسنه ، وأسعدتني مودته جدير بأن يطلق لساني بالثناء على مساعفة الزمان لي بحبه وحسنه

(٥) في تمام المتون (أبدى الجمال) .

(٦) والمعنى : أما الحبيب القديم الذي هجرنا فإننا لم نحفل بهجره ، ولم نهتم بإعراضه ، فقد استبدلنا به خيراً منه ، مثل من انصرف عن زحل ونحسه إلى المشتري في لألائه وعنه .

أَنْتَ الحَبِيبُ الَّذِى مَا زِلْتُ أُلْحِفُهُ ظِلَّ الهَوَى ، وَأَسْقِيهِ الرِّضَا عَلَلاَ
هٰذِى الحَقِيقَةُ ، لاَ قَوْلِى مُخَادَعَةً :
لَوْ كَانَ قَوْلُكَ « مُتْ » مَا كَانَ رَدِّىَ « لاَ »(١)

نبذ القديم(٢)

قَدْ عَلِقْنَا سِوَاكَ عِلْقًا نَفِيسًا وَصَرَفْنَا إِلَيْهِ عَنْكَ النُّفُوسَا(٣)
وَلَبِسْنَا الجَدِيدَ مِنْ خِلَعِ الحُـ ـبِّ ، وَلَمْ نَأْلُ أَنْ خَلَعْنَا اللَّبِيسَا(٤)
لَيْسَ مِنْكَ الهَوَى ، وَلاَ أَنْتَ مِنْهُ اهْبِطِى مِصْرَ ، أَنْتِ مِنْ قَوْمِ مُوسَى(٥)

---

(١) معنى البيتين : أنه يؤكد لحبيبه الجديد أنه ملك عليه قلبه كله ، فمنحه حبه الصادق ، وفرش له ظلال مودته ، وسقاه عذب محبته ، أما نسيبه فى الحبيب القديم فقد كان ضربا من الخداع .

(٢) هذه الأبيات ليست بالديوان ، وقد نقلناها عن (الكوكب الثاقب) .

(٣) علق بالشىء : أحبه : العلق النفيس .

(٤) اللبيس : الثوب الذى كثر لبسه حتى أخلق .

(٥) أشار إلى قول أبى نواس :

ومظاهرة لخلق الله نسكا وتلقانى بدلّ وابتسام
أتيتُ فؤادها أشكو إليه فلم أخلص إليه من الزحام
فيا من ليس يكفيها خليلٌ ولا ألفا خليل كلَّ عام
أظنُّك من بقية قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

وهو يرمز بهذا إلى ما حكاه القرآن الكريم عن بنى إسرائيل : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ . . . » سورة البقرة ٦١ .

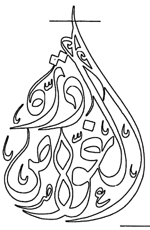
نفاية الطعام[1]

أَكْرِمْ بِوَلَّادَةٍ ذُخْرًا لِمُدَّخِرٍ ... لَوْ فَرَّقَتْ بَيْنَ بَيْطَارٍ وَعَطَّارِ[2]

قالوا : أَبُو عَامِرٍ أَضْحَى يُلِمُّ بِهَا ... قُلْتُ : الْفَرَاشَةُ قَدْ تَدْنُو مِنَ النَّارِ

عَيَّرْتُمُونَا بِأَنْ قَدْ صَارَ يَخْلُفُنَا ... فِيمَنْ نُحِبُّ ، وَمَا فِي ذَاكَ مِنْ عَارِ

أَكْلٌ شَهِيٌّ أَصَبْنَا مِنْ أَطَايِبِهِ ... بَعْضًا ، وَبَعْضًا صَفَحْنَا عَنْهُ لِلْفَارِ



(١) انصرفت ولادة عن الشاعر إلى خصمه ابن عبدوس ؛ وكان يلقب بالفار، فوجّه الشاعر إليه هذه الأبيات ، ولم ترد هذه المقطوعة بالديوان ، وقد أثبتناها عن (تمام المتون) و (سرح العيون) .

(٢) البيطار : طبيب الدواب ؛ والعطّار : تاجر العطر .

الإخوانيات

« كما خفق قلب الشاعر بحبه النلاّب ، ولهج بجمال الطبيعة الخلاّب ؛ شنف بعذوبة الصداقة وحلاوة الإخاء ·

وتدور إخوانياته حول أربعة أغراض » .



١ - المطارحات

«داعب الشاعر أصدقاءه وداعبوه ؛ وتلقّى رسائلهم وأجاب عنها ملتزما أوزانهم وقوافيهم ؛ وهو فى ردّه يؤثر البديهة والارتجال» .

حسن العقاب

أرسل الشاعر هذه الأبيات إلى صديقه أبى حفص بن برد الأصغر عاتبا بصديقهما أبى صفوان :

قُلْ لِأَبِى حَفْصٍ وَلَمْ تَكْذِبِ : يَا قَمَرَ الدِّيوَانِ وَالْمَوْكِبِ
مَا لِأَبِى صَفْوَانَ تَأْلُوفُنَا أَبْرَقَ فِى الْأُلْفَةِ عَنْ خُلَّبِ ؟[1]
وَلَمْ يَعُدْ إِلَّا كَمَا يَتَّقِى مُسْتَرِقُ السَّمْعِ مِنَ الْكَوْكَبِ[2]

* * *

عَنِّفْهُ بِاللهِ عَلَى فِعْلِهِ ، وَأَشْتِمْ ؛ وَإِنْ لَمْ يَنْتَقِمْ فَاضْرِبِ
وَعَاطِهِ صَهْبَاءَ مَشْمُولَةً يَرَى بِهَا الْمَشْرِقَ فِى الْمَغْرِبِ[3]
وَلْيَشْرَبِ الْأَكْثَرَ مِنْ كَأْسِهِ وَأَعُدْ - إِلَى فَضْلَتِهِ - فَاشْرَبِ

(١) الخلب : السحاب لا مطر فيه ، أبرق عن خلب : أظهر برقا لا مطر بعده ، بمعنى أنه تكشّف عن وعود زائفة .

(٢) المعنى : قلما يتصل بنا إلا خلسة فى خوف ورقبة وعلى عجل ، كما تفعل الشياطين حينما تحاول استراق السمع من الكواكب فتتوقع أن يصيبها شهاب راصد يحيلها إلى رماد .

(٣) الصهباء : الخمر أو المعصورة من عنب أبيض ؛ مشمولة : خمر باردة .

عُقُوبَةٌ ، أَحْسِنْ بِهَا سُنَّةً — فِى مِثْلِهِ — مِنْ حَسَنٍ مُذْنِبِ
وَبَاكِرَا الطِّيبَ ، وَرُوحَا لَهُ ، فَأَنْتُمَا فِى زَمَنٍ طَيِّبِ

دعابة بريئة

داعب الشاعر صديقه الوزير أبا العباس بن حاتم بن ذكوان بهذه الأبيات ؛ وكان ابن جهور قد أمر بإراقة الخمر ومنع شربها :

أَنْتَ مِنْ بَابَةِ الْمُلُوكِ أَبَا العَبَّاسِ ، دَعْهُمْ ، فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَانِكْ(١)
مَا جَزَاءُ الْوَزِيرِ مِنْكَ — إِذَا اخْتَصَّكَ — أَنْ تَسْتَمِرَّ فِى إِدْمَانِكْ
أَتُرَاهُ لَا يَسْتَرِيبُ لِإِمَّا كِكَ سُعْدَ الْعِرَاقِ تَحْتَ لِسَانِكْ؟(٢)
مُذْ نَهَانَا عَنِ الْمُدَامِ انْتَهَيْنَا مَعَ أَنَّا نُعَدُّ مِنْ صِبْيَانِكْ

(١) البابة : الحدود أوالناية ، ويقال هذا بابته أى يصلحله ، أو هو شرطه ؛ والمعنى : لستَ ممن يصلح لمجالسة الملوك أو تتوافر فيه شروطهم ، فلا تتوهّم أنك غاية لهم .

(٢) سعد العراق : نبات طيب الريح يطيِّبُ رائحةَ الفم من الثوم والبصل والكرات والشراب . والمعنى : ألا تظنّ أن الوزير يشك فى أمرك حينما يراك واضعاً سعد العراق تحت لسانك فيعلم أنك تستر به رائحة الخمر وفى ب ، ت ، ز (لايستعد) .

عتب وإخاء

كتب الوزير أبو بكر بن الطُّبيبى إلى شاعرنا هذه الأبيات :

[أَبَا الوَلِيدِ، وَمَا شَطَّتْ بِنَا الدَّارُ — وَقَلَّ مِنَّا وَمِنْكَ اليَوْمَ زُوَّارُ
وَبَيْنَنَا كُلُّ مَا تَدْرِيهِ مِنْ ذِمَمٍ — وَلِلصِّبَا وَرَقٌ خُضْرٌ وَنُوَّارُ
وَكُلُّ عَتْبٍ وَإِعْتَابٍ جَرَى فَلَهُ — مَوَاقِعٌ حُلْوَةٌ عِنْدِي وَآثَارُ(١)
فَاذْكُرْ أَخَاكَ بِخَيْرٍ كُلَّمَا لَعِبَتْ — بِهِ اللَّيَالِي، فَإِنَّ الدَّهْرَ دَوَّارُ]

فأجابه الشاعر على البديهة فى ظهر رقعته :

لَوْ أَنَّنِي لَكَ فى الأَهْوَاءِ مُخْتَارُ — لَمَا جَرَتْ بِالَّذِى تَشْكُوهُ أَقْدَارُ
لَكِنَّهَا فِتَنٌ فى مِثْلِ غَيْهَبِهَا — تَعْمَى البَصَائِرُ إِنْ لَمْ تَعْمَ أَبْصَارُ
فَأَحْسِنِ الظَّنَّ لَا تَرْتَبْ بِمُعْتَرِفٍ — تَعْفُو العُهُودُ وَتَبْقَى مِنْهُ آثَارُ
لَوْ كَانَ يُعْطَى المُنَى فى الأَمْرِ يُمْكِنُهُ
لَمَا أَغَبَّكَ — يَوْمًا — مِنْهُ زُوَّارُ(١)
لَا [يُكْثِرُ العَتْبَ] فى ذِكْرِ الصَّدِيقِ بِهِ
مَنْ لَيْسَ يَجْهَلُ أَنَّ الدَّهْرَ دَوَّارُ

---

(١) العتب : اللوم . الإعتاب : الصفح والرضاء .

(٢) ما بين القوسين غير موجود بالأصول ، وقد أكملناه بما يناسب السياق؛ والمعنى : لا يكثر لوم الأصدقاء من يعرف قسوة الدهر وتقلباته وإرغامه الناس على مخالفة ما يحبون .

ذكريات بلنسية[1]

جاشت بنفس الشاعر أطياف أيامه ولياليه الحلوة ببلنسية مع صديقه الوفي أبي عبد الله بن عبد العزيز فكتب إليه :

رَاحَتْ فَرَاحَ بِهَا السَّقِيمْ ... رِيحٌ مُعَطَّرَةُ النَّسِيمْ[2]

مَقْبُولَةٌ هَبَّتْ قَبُو ... لاً ، فَهْيَ تَعْبَقُ فِي الشَّمِيمْ[3]

أَفَضِيضُ مِسْكٍ أَمْ بَلَنْ ... سِيَةٌ لِرَيَّاهَا نَمِيمْ[4]

بَلَدٌ حَبِيبٌ أُفْقُهُ ... لِفَتًى يَحُلُّ بِهِ كَرِيمْ

* * *

إِيهِ أَبَا عَبْدِ الإِلَـ ... ـهِ ، دُعَاءَ مَغْلُوبِ الْعَزِيمْ[5]

---

(١) بلنسية : مدينة على الساحل الشرقي للأندلس على بعد ثلاثة أميال من البحر الأبيض المتوسط ، وتقع على نهر جار تدخل إليه السفن البحرية ، فهي برية بحرية تحيط بها الحدائق الغناء والمروج الناضرة ، وكانت حاضرة ملك بني عبد العزيز. وقد تفنن في وصفها الشعراء .

(٢) راحت : طابت ؛ راح السقيم : أخذته خفة ، وفي الذخيرة (صحت فصح) وفي القلائد والمغرب والنفح (راحت فصح) .

(٣) القبول : ريح الصبا وتهب من الشرق ، تعبق : تفوح ؛ وفي ت (في النسيم) . (٤) رياها : رائحتها الطيبة ، نميم : انتشار وذيوع .

(٥) هذا البيت ناقص من نسختي ب ، ت ، إيه يا فلان : زدنا من أي حديث تشاء ؛ وقد آثرنا رواية القلائد والمغرب والنفح ؛ وفي أصول الديوان والذخيرة (إيها) ومعناها : اسكت وكف أو (أيها) بمعنى هيهات ، وفي المسالك (أباعبد الكريم) وفي النفح (نداء مغلوب) ؛ مغلوب العزيم : مغلوب على أمره . وفي المسالك (العريم) ولعلها (مفلول العزيم) .

إنْ عِلَ صَبْرِى مِنْ فِرَا قِكَ فَالْعَذَابُ بِهِ أَلِيمْ
أَوْ أَتْبَعَتْكَ حَنِينَهَا نَفْسِى فَأَنْتَ لَهَا قَسِيمْ[1]
ذِكْرِى لِعَهْدِكَ كَالْعِدَا دِ سَرَى فَبَرَّحَ بِالسَّلِيمْ[2]
مَهْمَا ذَمَمْتُ فَمَا زَمَا نِي فِى ذِمَامِكَ بِالذَّمِيمْ

• • •

زَمَنٌ كَمَأْلُوفِ الرَّضَا عِ تَشُوقُ ذِكْرَاهُ الْفَطِيمْ[3]
أَيَّامَ أَعْقِدُ نَاظِرَ يَّ بِذَلِكَ الْمَرْأَى الْوَسِيمْ[4]
فَأَرَى الْفُتُوَّةَ غَضَّةً فِى ثَوْبِ أَوَّاهٍ حَلِيمْ[5]

• • •

أَللهُ يَعْلَمُ أَنَّ حُبَّكَ مِنْ فُؤَادِى بِالصَّمِيمْ[6]
وَلَئِنْ تَحَمَّلَ عَنْكَ لِى جِسْمٌ فَمِنْ قَلْبٍ مُقِيمْ[7]

• • •

قُلْ لِى بِأَىِّ خِلَالِ سِرْ رِكَ قَبْلُ أُفْتَنُ أَوْ أَهِيمْ ؟[8]

---

(١) القسيم : الشطر ، والمراد أنك شطر نفسى .

(٢) العِدادُ : مس من الجنون أو وقت الموت ، أو اهتياج وجع اللديغ بعد سنة . قال الشاعر :

ألاقى من تذكر آل ليلى كما يلقى السليمُ من العِداد

والمعنى: إن حنينى إلى ذكرياتك المذبة يتمادى حينا بعد حين ؛ ويثير آثارا هواجس مُلحَّة فى عقلى تكاد تدفعنى من شدة الوجد إلى الجنون . وفى القلائد والمترب (كالسهاد) . (٣) فى المسالك (عهد) .

(٤) فى بعض نسخ النفح (أعقد ناظرى فى ..)

(٥) فى النفح (وأرى الفتوة ..) . (٦) والقلائد والمترب (فى الصميم) .

(٧) فى القلائد والمترب (عنك بى) . (٨) فى النفح (فبك أفتن) .

أَبِمَجْـــدِكَ الْعَمَمِ الَّذِى نَسَقَ الْحَدِيثَ مَعَ الْقَدِيمْ؟[1]
أَمْ ظَرْفِكَ الْحُـــلْوِ الْجَنَى أَمْ عِرْضِكَ الصَّافِى الْأَدِيمْ؟[2]
أَمْ بِرِّكَ الْعَـــذْبِ الْجِمَا مِ ، وَبِشْرِكَ النَّضْرِ الْجَمِيمْ؟[3]
إِنْ أُشْمِمَتْ تِلْكَ الطَّلَا قَةُ فَالنَّـــدَى مِنْهَا شَمِيمْ
أَمْ بِالْبَـــدَائِعِ كَاللَّآ لِئِ مِنْ نَثِيرٍ أَوْ نَظِيمْ؟
لِبَلَاغَةٍ إِنْ عُدَّ أَهْـــلُوهَا فَأَنْتَ لَهُمْ زَعِيمْ[4]
قُرُبٌ تَسُـــوغُ بِهَا الْمُدَا مُ إِذَا تَكَرَّرَهَا النَّـــدِيمْ[5]

* * *

إِنَّ الَّذِى قَسَمَ الْحُظُو ظَ حَبَاكَ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمْ
لَا أَسْـــتَزِيدُ اللّٰهَ نُعْــمَى فِيكَ ، لَا بَلْ أَسْتَدِيمْ
فَلَقَدْ أَقَرَّ الْعَـــيْنَ أَنَّكَ غُرَّةُ الزَّمَـــنِ الْبَهِيمْ
حَسْبِى الثَّنَاءُ الْجَزْلُ بَرْ قُكَ مَا بَدَا بَرْقٌ فَشِيمْ[6]

---

(١) فى النفح (أمجدك . .) .

(٢) فى النفح (النفض الجنى) .

(٣) الجمام : المياه المجتمعة ؛ الجميم : الغزير أو النبات الكثير .

(٤) فى النفح (فأنت بها) .

(٥) فى النفح (يكررها) والمعنى : مُجَمَل عذبة تستلذ مقارعة الكئوس عليها كالنقل مع الشراب .

(٦) البرق : اللمعان ، برقت المرأة تحسنت وتزينت ، شام الرجل البرقَ : تشوف ببصره وتطلع إليه مرتقبا للمطر . والمعنى : يكفينى أن ألهج بالثناء على مظهرك الوضاء ما دام الناس يتطلعون إلى البروق ويرتقبون نزول الغيث ؛ فى النفح (. . وشيم) .

ثُمَّ الدُّعَاءُ بِأَنْ تَهَنَّأَ طُولَ عَيْشِكَ فِى نَعِيمِ
ثُمَّ السَّلَامُ تُبَلِّغَنَّهُ ، فَعَيْبُ مُهْدِيهِ سَلِيمِ (١)

قرب وابتعاد

كتب ذو الوزارتين أبو عامر بن مسلمة إلى صديقه ابن زيدون معاتبا مترددا :

[تُبَاعِدُنَا عَلَى قُرْبِ الْجِوَارِ ... كَأَنَّا ضَدُّنَا شَحْطُ الْمَزَارِ (٢)
تَطَلَّعَ لِى هِلَالُ الْهَجْرِ بَدْراً ... وَصَارَ هِلَالُ وَصْلِكَ فِى سِرَارِ (٣)
وَشَاعَ شَنِيعُ وَصْلِكَ لِى وَهَجْرِى ... فَهَلَّا كَانَ ذٰلِكَ فِى اسْتِتَارِ
أَيَجْمُلُ أَنْ تُرَى عَنِّى صَبُوراً ... وَأُصْبِحُ مُولَعاً دُونَ اصْطِبَارِ ؟ (٤)

* * *

وَلَمَّا أَنْ هَجَرْتَ وَطَالَ غَفْرِى ... عَقَرْتُ هُمُومَ نَفْسِى بِالْعُقَارِ (٥)
وَكُنْتُ أَزِيدُ سُمْعَكَ مِنْ عِتَابِى ... وَلٰكِنْ عَاقَنِى قُرْبُ الْخُمَارِ (٦)

---

(١) فى القلائد (بقلب مهديه السليم) . (٢) فى النفح (شط المزار) .
(٣) السِّرار : آخر الشهر ؛ والمعنى : أن هجرك كامل ووصالك ناقص .
(٤) فى النفح (فأصبح) .
(٥) الغَفْر : الستر أو انتكاس المرض أو استثارة الشوق ، يقال غفر العاشق : عاد عيده بعد سلوان ؛ ومنه قول الشاعر :
لعمرك إن الدار تَغْفِرُ لذى الهوى ... كما يغفر المحموم أو صاحب الكَلْمِ
والمعنى لما طال هجرك لى واستبد بى الشوق إليك لم أجد لنفسى مسلياً عنك إلا معاقرتى للشراب .
(٦) الخمار : صداع الخمر أو أذاها .

فَراعِ تَوَدُّدِى ، وَاحْفَظْ جِوَارِى   فَإِنَّ اللهَ أَوْصَى بِالْجِوَارِ
وَزُرْنِى مُنْعِماً مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ   وَآنِسْ مُوحَشاً مِنْ عُقْرِ دَارِ]

فأجابه ابن زيدون :

هَوَاىَ – وَإِنْ تَنَاءَتْ عَنْكَ دَارِى –   كَمِثْلِ هَوَاىَ فى حَالِ الْجِوَارِ
مُقِيمٌ لاَ تُغَيِّرُهُ عَوَادٍ   تُبَاعِدُ بَيْنَ أَحْيَانِ الْمَزَارِ
رَأَيْتُكَ قُلْتَ : « إِنَّ الْهَجْرَ بَدْرٌ »   مَتَى خَلَتِ الْبُدُورُ مِنَ السِّرَارِ ؟(١)
وَرَابَكَ أَنَّنِى جَلْدٌ صَبُورٌ   وَكَمْ صَبْرٍ يَكُونُ عَنِ اضْطِبَارِ(٢)
وَلَمْ أَهْجُرْ لِعَتْبٍ غَيْرَ أَنِّى   أَضَرَّتْ بِى مُعَاقَرَةُ الْعُقَارِ
وَأَنَّ الْخَمْرَ لَيْسَ لَهَا خُمَارٌ   تُبَرِّحُ بِى، فَكَيْفَ مَعَ الْخُمَارِ؟(٣)

* * *

وَهَلْ أَنْسَى لَدَيْكَ نَعِيمَ عَيْشٍ   كَوَشْىِ الْخَدِّ طُرِّزَ بِالْعِذَارِ ؟
وَسَاعَاتٍ يَجُولُ اللَّهْوُ فِيهَا   مَجَالَ الطَّلِّ فى حَدَقِ الْبَهَارِ ؟(٤)

---

(١) فى الأصول (إن الوصل بدر) وقد آثرنا رواية النفح لاتفاقها مع بيت ابن مسلمة (تطلع لى هلال الهجر بدرا ...) .

والمعنى إنك تقول: إن الهجر صار بدرا مكتملا ؛ والبدور لا بُدّ أن تتعرض للنقصان فى أواخر الشهر ، ولكنها تعود بعد ذلك إلى كمالها .

(٢) اضطبار : تجلد وتكلف للصبر .

(٣) المعنى إذا كانت الخمر دون صُداع تؤثر فىّ ، فكيف إذا كانت مع الصداع .

(٤) فى النفح (مجال الظل فى حدق النهار) ، والبهار : عين البقر وهو زهر أصفر لنبات طيب الريح ويسمى العرار .

وَإِنْ يَكُ قَرَّ عَنْكَ الْيَوْمَ جِسْمِى ـ فُدِيتَ ـ فَمَا لِقَلْبِى مِنْ قَرَارِ (١)
وَكُنْتَ عَلَى الْبِعَادِ أَجَلَّ عِلْقٍ لَدَىَّ، فَكَيْفَ إِذْ أَصْبَحْتَ جَارِى؟! (٢)

باقة أشعار

وفد أبو المطاف بن حي إلى إشبيلية ، فرغب إلى الشاعر أن يريه طائفة من شعره ، فطله ، فتوسّل إليه بالمعتمد عبّاد في رسالة شعرية ، فأجاب الشاعر على رويّ أبياته ووزنها بهذه القصيدة :

أَفَذَتَنِى مِنْ نَفَائِسِ الدُّرَرِ مَا أَبْرَزَتْهُ غَوَائِصُ الْفِكَرِ
مِنْ لَفْظَةٍ فَارَقَتْ نَظِيرَتَهَا قِرَانَ سُقْمِ الْجُفُونِ لِلْحَوَرِ
أَبْدَعَهَا خَاطِرٌ ، بَدَائِعُهُ ـ فِى النَّظْمِ ـ حَازَتْ جَلَالَةَ الْخَطَرِ
ـ أَعْطَرُ ـ مَهْمَا سَرَى لَهُ نَفَسٌ ـ مِنْ نَفَسِ الرَّوْضِ رَقَّ فِى السَّحَرِ (٣)

° ° °

يَا رَاقِمَ الْوَشْيِ زَانَهُ الذَّهَبُ الْـــرَقْرَاقُ إِذْ رَفَّ مِنْهُ فِى الطُّرَرِ (٤)

(١) فى النفح ونسخة ز (قرّ عنك .. من فرار) .

(٢) فى النفح (أجلّ شئ) والعلق : النفيس .

(٣) المعنى : إن خاطرك يسحّ بالنفحات العطرية ؛ فأثره أعطر من نفحات الروض فى مستهل الصباح ؛ ومهما كان للروض من أريج فإنه لا يفوق ما أبدعته من روائع القصائد .

(٤) راقم الوشى : مزخرف النقش ، الرقراق : الشديد اللمعان ، الطرر : الحواشى ، والمعنى : أنك تزين كلامك وتزخرفه كما يزخرف النساج الثوب بالنقوش البديعة ويطرّز حواشيه بالذهب الوهّاج المتلألئ .

وَنَاظِمُ الْعِقْدِ نَظْمَ مُقْتَدِرٍ يَفْصِلُ بَيْنَ الْعُيُونِ بِالْغُرَرِ (١)
لِى بِالنِّضَالِ الَّذِى نَشِطْتَ لَهُ عَهْدٌ قَدِيمٌ مُسْتَعْجَمُ الْأَثَرِ (٢)
هَلْ أَنْصِلُ السَّهْمَ فِى الْجَفِيرِ وَقَدْ تَعَلَّقَتْ فُوقُهُ مِنَ الْوَتَرِ ؟ (٣)

• • •

مَا الشِّعْرُ إِلَّا لِمَنْ قَرِيحَتُهُ غَرِيضَةُ النَّوْرِ غَضَّةُ الثَّمَرِ (٤)
تَبْسِمُ عَنْ كُلِّ زَاهِرٍ أَرِجٍ مِثْلَ الْكِمَامِ ابْتَسَمْنَ عَنْ زَهَرِ (٥)
إِنَّ الشَّفِيعَ الْهُمَامَ سَوَّغَهُ اللَّـــهُ اتِّصَالَ التَّأْيِيدِ بِالظَّفَرِ
الْفَاضِلَ الْحِبْرَ فِى الْمُلُوكِ إِذَا قَصَّرَ خُبْرٌ عَنْ غَايَةِ الْخَبَرِ (٦)

---

(١) عيون الشىء : خياره ، أو الذهب المضروب ؛ الغرة : البياض فى الجبهة ، والمراد : أنه يؤلف عقد الكلام فيجمع فيه بين الذهب والدرر .

(٢) مستعجم الأثر : مبهم غير واضح .

(٣) نصل الرجلُ السهمَ وأنصله : جعل فيه نصلا ؛ الجفير : الجعبة ، الفوُق : مَشَقُّ رأس السهم التى تثبت فى الوتر قبل جذبه . والمعنى : لقد بعد عهدى بصياغة الكلام البليغ حتى قلّت دربتى على المصاولة فيه ؛ فكيف أُعِدُّ سهماً للرمى به ، وأضعه فى جعبته ، وليس هناك وتر ولا قوس للرماية ؟

(٤) غريض : غض طرى ، والمعنى : لا يسوغ الشعرَ إلا من كانت قريحته خصبة قوية .

(٥) أَرِج : ذو رائحـــة ذكية ؛ الكمام : جمع كِمّ ، وهو الغلاف المحيط بالزهرة .

(٦) الحِبْر : الرجل الصالح من العلماء ، والخُبْر : العلم بالشىء أو التجربة أو الاختبار . والمعنى : الفاضل الفذ من الملوك تسمع عنه أفضل النعوت ، فإذا خبرته صدق الخُبْرُ الخَبَرَ .

نَجَلُ الَّذِى نُصْحُهُ وَطَاعَتُهُ كَالحَجِّ تَتْلُوهُ بَرَّةُ العُمَرِ (١)
شَاهِدُ عَهْدِى لَكَ الصَّحِيحِ وَإِخْلَاصٍ نَأَى صَفْوُهُ عَنِ الكَدَرِ (٢)

* * *

مَشَيْتَ فِى عَذْلِىَ البَرَازَ لِمَنْ لَمْ يَرْضَ فِى العُذْرِ مِشْيَةَ الخَمَرِ (٣)
وَقُلْتَ: مَطْلُ الغَنِىِّ وِرْدٌ مِنَ الظُّلْمِ، يُلَقَّى مَلَاوِمَ الصَّدَرِ (٤)
وَلِى مَعَاذِيرُ لَوْ تَطَلَّعُ فِى لَيْلِ سِرَارٍ أَغْنَتْ عَنِ القَمَرِ (٥)
مِنْهَا اتِّقَائِى لِأَنْ أَكُونَ أَنَا الْجَالِبَ مَا قُلْتُهُ إِلَى هَجَرِ (٦)

---

(١) العُمَر: جمع عُمْرة، والعمرة: الطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة وتسمى الحج الأصغر، والمعنى إن النصح والطاعة للملك الذى أنجب هذا الأمير واجبان مقدّسان مثل الحج والعمرة.

(٢) معنى البيت والأبيات السابقة: إن الشفيع الهمام الفاضل الحبر نجل الملك ... شاهدٌ لى عندك بالعهد الصحيح والإخلاص النقى مما يكدّره.

(٣) البَراز: الأرض الفضاء الفسيحة الخالية من الشجر. الخمر: ماوارى الصيدَ من شجر وغيره. والمعنى: لقد وجّهتَ إلىّ اللوم صريحا، وأنا أوضحت عذرى لك صريحا لأننى لا أرضى التستر وراء المعاذير الكاذبة.

(٤) المَطْل: التسويف؛ وفى الأثر «مَطْلُ الغنىّ ظلم»؛ الوِرْد: موردُ الماء، والصدر: الصدور عنه، الملاوم: جمع ملامة أو ملومة؛ والمعنى: إنك لمتنى لأنك أحسنت بموهبتى الظن وحسبتنى مثل الغنى الماطل وأننى لهذا جدير بالعتاب على حين أن لى شتّى المعاذير.

(٥) المعنى إن لى معاذير جمة فى التقصير عن إجابة طلبك؛ وهى معاذير ظاهرة واضحة لو برزت فى الليالى المظلمة آخر الشهر لأضاءت إضاءة القمر.

(٦) من معاذيرى الواضحة أننى أخجل أن أقدم إليك بعض ما أعتز به أنت مثل جالب التمر إلى (هجر) المشهورة بتمرها الجيد؛ وفى المثل «كمستبضع التمر إلى هجر».

لـكِنْ سَيَأْتِيكَ مَا يَحُوزُهُ ... سَرْوُكَ دَأْبَ الْمُسَامِحِ الْيَسَرِ (١)

فَاكْتَفِ مِنْهُ بِنَظْرَةٍ عَنَنٍ ... لاَ حَظَّ فِيهِ لِكَرَّةِ النَّظَرِ (٢)

دواء وشفاء

كتب الوزير الكاتب أبو بكر بن القصيرة إلى الشاعر حينما بلغه مرضهُ وتناوله الدواء :

[مَوْلاَيَ نَفْسِي إِلَى مُطَالَعَةِ الْـ ... ـحُسْنَى بِعُقْبَى الدَّوَاءِ مُطَّلِعَهْ

وَكَيْفَ ذَاكَ الْحِسُّ الذَّكِيُّ ، وَقَدْ ... بَاشَرَ تِلْكَ الْمَذَاقَةَ الْبَشِعَهْ ؟ (٣)

وَدِدْتُ لَوْ أَنَّنِي خُصِصْتُ بِمَا أَنْـ ... ـتَبَشَّمْتَ مِنْهُ ، وَحُزْتَ مُنْتَجَعَهْ (٤)

أَعْقَبَكَ اللّهُ مِنْ فَظَاعَتِهِ ... أَسْوَغَ صُنْعٍ فِي مِثْلِهِ صَنَعَهْ

مَصَحَّةً تَصْحَبُ الزَّمَانَ فَتُبْـ ... ـلِيهِ ، وَتَبْقَى جَدِيدَةً نَصَعَهْ (٥)

---

(١) السَّرْو : الفضل والسخاء فى المروءة ؛ الْيَسَر : السهل .

(٢) نظرة عَنَن : نظرة عارضة غير فاحصة ؛ أى أرجو أن تكتفى بالقاء نظرة عارضة على شعرى ولا تدقق فى نقده فإنه لا يحتمل النقد .

(٣) معنى البيتين : ياسيدى إننى مترقب فى إشفاق لحسن عاقبة هذا الدواء ؛ فكيف يطيق حسُّك الرهف الرقيق مذاق الدواء الكريه ؟

(٤) المعنى : تمنيتُ أن أحتمل عنك مرارة الدواء ، وأن تفوز أنتَ بعاقبته الطيبة .

(٥) مصحّة : مجلبة للصحة وحافظة لها ، ومنه « الصوم مصحّة » ؛ والنَّصِع : ثوب شديد البياض ، أو جلد أبيض . ومعنى البيتين : أسأل الله أن يعقبك من مرارة الدواء أحسن عاقبة الشفاء ، ويمدك بصحة قشيبة تُبلى الزمان وتظلّ جديدة ناصعة البياض .

فَأَنْتَ رُوحُ الْعَلَاءِ نَسَّأَهُ اللَّــــه ، وَشَمْلُ الْوَفَاءِ ، لَا صَدَعَهْ [1]

فأجابه ابن زيدون :

قَدْ أَحْسَنَ اللهُ فِي الَّذِي صَنَعَهْ عَارِضُ كَرْبٍ بِلُطْفِهِ رَفَعَهْ
تَبَارَكَ اللهُ ، إِنَّ عَادَةَ حُسْـ ـنَاهُ – مَعَ الشُّكْرِ – غَيْرُ مُنْتَزَعَهْ

* * *

يَا سَيِّدِي الْمُسْتَبِدَّ مِنْ مِقَتِي بِخِطَّةٍ فَاتَتِ الْحِسَابَ سَعَهْ [2]
وَافَانِيَ الْعِقْدُ – زِينَ نَاظِمُهُ – وَالْوَشْيُ لَا رَاعَ حَادِثٌ صَنَعَهْ [3]
بَثَثْتَ فِيــــهِ الْبَدِيعَ مُنْتَقِياً كَالرَّوْضِ إِذْ بَثَّ فِي الرُّبَا قِطَعَهْ
أَزَاحَ كَرْبَ الدَّوَاءِ مَطْلَعُهُ لَمَّا بَدَا طَالِعُ السُّرُورِ مَعَهْ
كَمْ دَعْوَةٍ – قَدْ حَوَاهُ – صَالِحَةٍ ، مِنْ أَمَلِي أَنْ تَكُونَ مُسْتَمَعَهْ
جُمْلَةُ مَا نَفْسُكَ السَّرِيَّةُ مِنْ حَالِي إِلَى عِلْمِ كُنْهِهِ طَلِعَهْ :
أَنَّ الدَّوَاءَ الْتَذَّتْ عَوَاقِبُهُ مِنِّيَ نَفْسٌ تَجَشَّمَتْ جُرَعَهْ
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ إِنْ بَدَأَ الطَّوْلَ مُنْعِماً شَفَعَهْ [4]

(١) نسّأه : أبقاه ومدّ فى أجله .

(٢) السَّعة : الحب ، الخِطّة : الأرض التي تنزلها ولم ينزلها أحد قبلك ، والمعنى لقد استوليت من قلبي على مكان فسيح غير محدود لم يحتله أحد من قبلك ولك فيه الحكم وحدك .

(٣) رجل صَنَع اليدين : حاذق ، وصَنَع اللسان : بليغ . المعنى : وافانى شعرك المنضّد كالعقد النظيم ، أسأل الله أن يجمل ناظمــــه ، وأن يقىَ من الأحداث صانعه

(٤) معنى الأبيات الثلاثة : إن ما كانت نفسك تتطلع إلى معرفته وتأمل أن تكون ، قد تم على أحسن حال ، فقد كانت عاقبة الدواء المرّ طيبة حسنة ، فشكراً لله فإنه إذا بدأ الخير أتمه .

سخرية الأقدار[1]

قصد ابن زيدون وابن عمار وابن خلدون إلى متنزه لبنى عبـــاد خارج إشبيلية ناوين قضاء يومهم فى اللهو والطرب والمسرات ؛ وأرسلوا صاحباً لهم اسمه خليفة لإحضار النبيذ ؛ فلما عاد إليهم خفوا إلى لقائه ، ولكن فارساً عابراً صدمه فهشم أعظمه وكسر آنية النبيذ وفر هارباً ، فتبدد سرورهم ، وضاقت صدورهم ؛ فتطارحوا هذه الأبيات :

ابن زيدون :

أَنَلْهُو ، وَالْحُتُوفُ بِنَا مُطِيفَهْ ؟ وَتَأْمَنُ وَالْمَنُونُ لَنَا مُخِيفَهْ ؟

ابن خلدون :

وَفِي يَوْمٍ ، وَمَا أَدْرَاكَ يَوْمٍ ؟ مَضَى مَمْوُلُنَا ، وَمَضَى خَلِيفَهْ[2]

ابن عمار :

هُمَا فَخَّارَتَا رَاحٍ وَرُوحٍ تَكَسَّرَتَا ، فَأَشْقَافٌ وَجِيفَهْ

مجلس رفيع

أمر المعتضد بن عباد أن يكون مجلس ابنه وولى عهده المعتمد مرتفعاً عن مجلس كبير وزرائه ابن زيدون ، فكتب المعتمد إليه معتذراً :

أَيُّهَا الْمُنْحَطُّ عَنِّي مَجْلِساً وَلَهُ فِي الْقَلْبِ أَعْلَى مَجْلِسِ[3]

بِفُؤَادِي لَكَ حُبٌّ يَقْتَضِي أَنْ تُرَى تَحْمِلُ فَوْقَ الْأَرْؤُسِ

---

(١) لم ترد هذه المحاورة بالديوان ، وقد أوردناها نقلاً عن بدائع البدائه ونفح الطيب ؛ وإن كان صاحب فوات الوفيات قد نسبها إلى المعتمد وابن عمار وابن وهبون.

(٢) الممول والقممل : القدح الضخم أوقعب صغير ، وفى الأصلين القمال ، وهو تحريف لأن القمال هو سيد القوم أو رئيس الرعاء .

(٣) فى المطرب « وله فى النفس » .

فأجابه ابن زيدون :

أَسَقِيطُ الطلِّ فَوْقَ النَّرْجِسِ أَمْ نَسِيمُ الرَّوْضِ تَحْتَ الْحِنْدِسِ؟[1]

أَمْ نِظَامٌ لِلآلِ نَسَقِ جَامِعٍ كُلَّ خَطِيرٍ مُنْفِسِ؟[2]

أَمْ قَرِيضٌ جَاءَنِي عَنْ مَلِكٍ مَالِكٍ بِالْبِرِّ رِقَّ الأَنْفُسِ؟

دَلَّهَتْ فِكْرِيَ مِنْ إِبْدَاعِهِ حَيْرَةٌ فِي مَنْطِقِي لِي مُخْرِسِ

بِتُّ مِنْهُ بَيْنَ سَهْلٍ مُطْمِعٍ خَادِعٍ يُتْلَى بِجَزْءٍ مُونِسِ[3]

* * *

يَا نَدَى يُمْنَى « أَبِي الْقَاسِمِ » غِمْ يَا سَنَا شَمْسِ الْمُحَيَّا أَشْمِسِ[4]

يَا بَهِيجَ الْخُلُقِ الْعَذْبِ ابْتَسِمْ يَابَهِيجَ الأَنْفِ الصَّعْبِ أَعْبِسِ[5]

يَا جَمَالَ الْمَوْكِبِ الْغَادِي إِذَا سَارَ فِيهِ ، يَابَهَاءَ الْمَجْلِسِ

أَنْتَ لَمْ يُقْنِعْكَ أَنْ أَلْبَسْتَنِي نِعْمَةً تُذْكِرُ عَهْدَ السُّنْدُسِ

---

(١) الحندس : الليل الشديد الظلمة .

(٢) أم هو عقد منظوم بضم لآلئ منسقة أبدع تنسيق من كل غال نفيس .

(٣) الجزء : البعض ومثله الجُزْء ؛ ومعنى البيتين : لقد استبدت بفكرى الدهشة من هذا المنطق البليغ الذى أخمنى ، وبت أنظر فيه فتروعنى سلاسته السهلة التى تطمعنى فى تقليده ، ثم تطالعنى منه عبارات جزلة تؤنسنى من محاكاتها ؛ وهو ينظر فى هذا إلى تعريف الكلام البليغ بأنه السهل الممتنع . وفى ب ، ت ، ز (بتّ منه . . .) والمعنى : أن الشاعر بث فى ثنايا كلامه السهل المطمع والجزل المؤنس . ولعلها (يُتلى بحزن مونس) والحزن هو ما غلظ من الأرض .

(٤) فى النفح « بشر المحيا » .

(٥) فى ت « الخلق المزم » ، والآنف : ذو الأنفة والحمية .

فتَلَطَّفتَ لأَنْ حَلَّيْتَنِي _ مُولِيًا طُولَى مُحَلَّ مُلْبِسِ (١)
ذَاكَ تَنْوِيهٌ ثَنَائِي فَخْرُهُ سَامِيَ اللَّحْظِ أَشَمَّ المَعْطِسِ

* * *

شَرُفَتْ بِكْرَ المَعَالِي خِطْبَةٌ مِنكَ ، فَانْعَمْ بِسُرُورِ العُرُسِ (٢)
تُمنح التَّأْييدَ يُجْلَى لكَ عَنْ ظَفَرٍ حُـلْوٍ وَعِزٍّ أَقْعَسِ
—وَارْتَشِفْ مَعْسُولَ نَصْرٍ أَشْنَبٍ تَجْتَنِيهِ مِنْ عُجَاجِ أَلْعَسِ (٣)
وَارْتَقِ بِالسَّعْدِ فِي دَسْتِ المُنَى يُصْبِحِ الصُّنْعُ دِهَاقَ الأَكْؤُسِ (٤)
فَاعْتِرَاضُ الدَّهْرِ فِيمَا شِئْتَهُ مُرْتَقًى فِي صَدْرِهِ لَمْ يَهْجِسِ (٥)

(١) معنى البيتين : لم تكتف أيها الأمير بما أليستنى من حلل نعماك السابقة حتى حليتنى بدرر شعرك التالية ، فأكرم بك من مُحَلٍ مُلبس .

(٢) العُرس : التزوج [ويظهر أن الأمير فتح حصنا فهنأه الشاعر به وجعله بمنزلة الحليلة علك الزوج أمرها ؛ أو لعله تزوج حقيقة فهنأه بالزواج ، فاختلاف الروايات فى الأبيات الآتية يحتمل المعنيين] ؛ وفى المطوب
(شَرُفَتْ بِكْرُ المعالى خطبة بك فانعم بسرور العُرس) .

(٣) الشنب : بياض الأسنان أو رقتها أو عذوبتها . وفى القلائد (من مُجاج اللَّعَس) المجاج : الريق ، اللعس : الشفة تضرب حمرتها إلى السواد قليلا، وهو مستملح .

(٤) الدّست : صدر المجلس أو الوسادة ؛ الصُّنع : المعروف والإحسان [ولعلها الصُّنع بمعنى البُسْر، وكان العرب يتخذون منه الخمر] دهاق الأكؤس: تتابعها أو امتلاؤها ؛ والمعنى : اعتل أيهـا الأمير عرش الآمال يصبح ، حسانك متواليا كما تتوالى الكئوس أو فائضاً كما تفيض ؛ أو يتسنّ الطرب فتفيض الكئوس من عصير البسر وتتوالى تباعا .

(٥) المعنى : لايستطيع الدهر أن يرقى إلى منزلة يعترض فيها مشيئتك ، ولم يهجس له هذا الاعتراض فى خاطر .

مطل واعتذار

كتب المعتمد بن عباد إلى الشاعر بعد أن فك مُعَمَّمى

تلقاه منه :

[العَيْنُ بَعْدَكَ تَقْذَى بِكُلِّ شَيْءٍ تَرَاهُ
فَلْيُجْلِ شَخْصُكَ عَنْهَا مَا بِالمَغِيبِ جَنَاهُ]

وأبطأ الشاعر فى الرد ، فكتب إليه المعتمد :

[وَعَدْتَ وَأَخْلَفْتَنِي المَوْعِدَا وَخَالَفْتَ بِالمُنْتَهَى المُبْتَدَا
وَأَطْمَعْتَنِي ، ثُمَّ آيَسْتَنِي وَيَمْنَعُنِي الوُدُّ أَنْ أَحْقِدَا
وَأَضْعَفْتَ بِالمَطْلِ حَبْلَ الرَّجَاءِ فَرَثَّ ، وَأَعْهَدُهُ مُحْصَدَا[1]
وَعَادَ ضِيَاءُ ارْتِقَابِي ظَلَامًا وَأَصْبَحَ مِصْبَاحُهُ أَرْمَدَا
وَكَانَ فَعَالُكَ قَبْلَ المَقَالِ فَمَاذَا عَدَا الآنَ فِيمَا بَدَا ؟[2]
وَقَدْ كَانَ ظَنِّي فِيمَا رَأَيْتُ بِهِ أَنَّهُ الشَّيْءُ بَلْ الْيَدَا[3]
وَكَمْ قَدْ تَوَكَّفْتُهَا رَوْضَةً تُقَرِّبُ لِي الأَمَلَ الأَبْعَدَا[4]
يُنَوِّرُ عِلْمُكَ أَرْجَاءَهَا وَيَقْطُرُ طَبْعُكَ فِيهَا نَدَى

---

(١) حبل محصد : مفتول فتلا جيدا .

(٢) المعنى : كان فعلك يسبق قولك ، فماذا جدّ حتى تغيرت الأوضاع ؟ وهو ينظر فى هذا إلى قول الإمام على بن أبى طالب لطلحة رضى الله عنهما يوم الجمل : « عرفتنى بالحجاز ، وأنكرتنى بالعراق ، فما عدا مما بدا ؟ » .

(٣) هكذا بالأصل ولعله (النتح بل اليدا) والنتح هو العرق أو خروجه من الجلد ؛ أو لعلها السّقى أى الحظ من الشرب ، أو الحِسْى أى منقع الماء ؛ والمعنى : لقد أوليتنى جميلا أطمعنى فى الزيادة فاعتقدت أن ما تلقيته منك قطرة سيعقبها المطر الغزير .

(٤) توكفتها : توقعتها .

تُوَكِّلُهَا زَمَنًا نَاظِرِي ... إذَا مَرَّ يَوْمٌ تَمَادَى غَدَا
عَلَى ذَاكَ أَفْدِيكَ مِنْ مَاجِدٍ ... تَشَبَّثَ بِالظَّرْفِ فِيهِ الْهُدَى
فَحِينًا أَزُورُ بِهِ رَوْضَةً ... وَحِينًا أُحَيِّي بِهِ مَسْجِدَا

* * *

لَكَ الْعِلْمُ مَهْمَا أَرِدْ بَحْرَهُ ... لأَرْوَى بِهِ أَحْمَدُ الْمَوْرِدَا
وَفِيكَ تَجَمَّعَتْ الْمَأْثُرَا ... تُ طُرًّا، فَصِرْتَ بِهَا مُفْرَدَا
شَمَائِلُ تَنْشُرُ مَثَلَ الْهُمُو ... مِ تَتْرُكَ بِالرَّأْيِ مَثَلَ الْعِدَا
فَمَتِّعْنِي اللهُ بِالْحَظِّ مِنْكَ ... وَلاَ زِلْتَ لِي مُؤْنِسًا سَرْمَدَا
وَدُمْتَ وَدُمْنَا عَلَى حَالِنَا ... كَمَا يَصْحَبُ الْفَرْقَدُ الْفَرْقَدَا[1]
فَلَوْلاَكَ كَانَتْ رُبُوعُ السُّرُو ... رِ مِنِّي تَجَاوَبُ فِيهَا الصَّدَى]

فأجابه ابن زيدون :

أَفَاضَ سَمَاحُكَ بَحْرَ النَّدَى ... وَأَقْبَسَ هَدْيُكَ نُورَ الْهُدَى
وَرَدَّ الشَّبَابَ اعْتِلاَقِيكَ بَعْدَ ... مُفَارَقَتِي ظِلَّهُ الأَبْرَدَا[2]
وَمَا زَالَ رَأْيُكَ فِي الْجَمِيلِ ... يُفَتِّحُ لِي الأَمَلَ الْمُوصَدَا
وَحَسْبِيَ مِنْ خَالِدِ الْفَخْرِ أَنْ ... رَضِيتَ قَبُولِي مُسْتَعْبَدَا
وَيَا فَرْطَ بَأْوِي إِذَا مَا طَلَعْتَ ... فَقُمْتُ أُقَبِّلُ تِلْكَ الْيَدَا[3]

(١) في الأصول (ودمت ودمت) ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٢) اعتلاقيك : اعتلاقي إياك أي حبي لك ، ومنه : اعتلق المرأة وتعلقها وتعلق بها : أحبها .

(٣) البأو : الفخر ؛ والمعنى ما أكثر فخري بتقبيل يدك حينما تهل على بطلعتك الوضاءة .

وَرَدَدْتُ لَحْظِي فِي غُرَّةٍ إِذَا اجْتُلِيَتْ شَفَتِ الْأَرْمَدَا

* * *

وَطَاعَةُ أَمْرِكَ فَرْضٌ أَرَا هُ مِنْ كُلِّ مُفْتَرَضٍ أَوْكَدَا

هِيَ الشَّرْعُ أَصْبَحَ دِينَ الضَّمِيرِ فَلَوْ قَدْ عَصَاكَ لَقَدْ أَلْحَدَا

وَحَاشَايَ مِنْ أَنْ أَضِلَّ الصِّرَاطَ فَيَعْدُونِي الْكُفْرُ عَمَّا بَدَا[1]

وَأُخْلِفَ مَوْعِدَ مَنْ لَا أَرَى لِدَهْرِيَ إِلَّا بِهِ مَوْعِدَا

* * *

أَتَانِي عِتَابٌ مَتَى أَدَّكِرْ هُ فِي نَشَوَاتِ الْكَرَى أَسْهَدَا[2]

وَإِنْ كَانَ أَعْقَبَهُ مَا اقْتَضَى شِفَاءَ السَّقَامِ وَنَقْعَ الصَّدَى[3]

ثَنَاءٌ ثَنَى فِي سَنَاءِ الْمَحَلِّ زُهْرَ الْكَوَاكِبِ لِي حُسَّدَا

قَرِيضٌ مَتَى أَبْغِ لِلْقَرْضِ مِنْهُ أَدَاءً أَجِدْ شَأْوَهُ أَبْعَدَا

لَوِ الشَّمْسُ مِنْ نَظْمِهِ حُلِّيَتْ أَوِ الْبَدْرُ قَامَ لَهُ مُنْشِدَا

لَضَاعَفَ مِنْ شَرَفِ النَّيِّرَيْ نِ حَظًّا بِهِ قَارَنَ الْأَسْعُدَا

* * *

فَدَيْتُكَ مَوْلَى : إِذَا مَا عَثَرْتُ أَقَلَّ ، وَمَهْمَا أَزِغْ أَرْشَدَا

رَكَنْتُ إِلَى كَرَمِ الصَّفْحِ مِنْهُ فَأَمَّنَنِي ذَاكَ أَنْ يَحْقِدَا

---

(١) فيعدوني : فيصرفني · بدا : ظهر من صحة إيماني بك واعتقادي فيك

(٢) ادّكَرْهُ : أتذكره ؛ والمعنى : كلما تذكرت عتابك جلب عليّ الأرق لشدة ألمي وخجلي منه .

(٣) المعنى : سهّل عليّ عتابك أنك أعقبته بالثناء عليّ ممـــا خفّف ألمي ونقع غلتي .

وَأَنْتُ سُوقَ احْتِيَالِ أَبِي | لِمُسْتَبْضِعِ الْعُذْرِ أَنْ يَكْسُدَا[١]
شَفِيعِي إِلَيْهِ هَوًى مُخْلِصٌ | كَمَا أَخْلَصَ السَّابِكُ الْعَسْجَدَا
وَمِنْ وُصْلَتِي هِجْرَةٌ لَا أَعُدُّ | لَيَالِي سِوَى يَوْمِهَا مَوْلِدَا[٢]
وَيُمْنَى تَقَيَّأَتْهَا أَيْكَةً | فَشُكْرِي حَمَامٌ بِهَا غَرَّدَا
تَبَارَكَ مَنْ جَمَعَ الْخَيْرَ فِيكَ | وَأَشْرَكَ الْخَلْقَ الْأَنْجُدَا
مَضَاءَ الْجَنَانِ، وَظَرْفَ اللِّسَانِ | وَجُودَ الْبَنَانِ بِسَكْبِ الْجَدَا
رَأَى شِيمَتَيْكَ لِمَا تَسْتَحِقُّ | وَتُقًى فَأَظْفَرَ إِذْ أَيَّدَا[٣]
لِيَهْنِكَ أَنَّكَ أَزْكَى الْمُلُوكِ | بِفَيْءٍ وَأَشْرَفُهُمْ سُـــؤْدُدَا
سِوَى نَاجِلٍ لَكَ سَامِي الْهُمُو | مِ دَانِي النَّوَافِلِ نَائِي الْمَدَى[٤]
هُمَامٍ أَغَرَّ وَجَدْنَا الْفَخَارَ | حَدِيثًا إِلَى سَرْوِهِ مُسْنَدَا[٥]
سَلَكْتَ إِلَى الْمَجْدِ مِنْهَاجَهُ | فَقَدْ طَابَقَ الْأَطْرَفُ الْأَتْلَدَا[٦]

---

(١) مستبضع العذر : جالبه ، والمعنى وجدت عنده صدراً رحبا يأبى أن رد عذر معتذر .

(٢) المعنى إنني هجرتُ وطنى هجرة وصلتنى بك فبدأت بهذه الهجرة عمرا جديدا كأنما ولدت يوم اتصالى بك .

(٣) من ألقاب أبي القاسم محمد المعتمد على الله : الظافر بحول الله ، والمؤيد بالله .

(٤) معنى البيتين : هنيئا لك ما اتصفت به من طهارة اليد فيما تغنمه من فتوحاتك ، وما اتسمت به من الشرف والرفعة ، ففُقْتَ الملوك جميعاً عدا والدك العظيم البعيد الهمة الجزيل العطايا السامى الطامح

(٥) السَّرْو : المروءة والشرف ؛ حديث مسند : متصل بقائله .

(٦) الأطرف : الأحدث ؛ الأتلد : الأقدم ؛ والمعنى طابقَ مجدُه التليد مجدكَ الطريف .

هُوَ اللَّيْثُ قَلَّدَ مِنْكَ النِّجَادَ ... لِيَوْمِ الْوَغَى شِبْلَهُ الْأَنْجَدَا[1]

يُمِدُّكَ صَارِمَ عَزْمٍ وَرَأْيٍ ... فَتَرْضِيهِ جُرِّدَ أَوْ أُغْمِدَا[2]

وَمَا أَسْتَبْهَمَ الْقُفْلُ فِى الْحَادِثَا ... تِ إِلَّا رَآكَ لَهُ مِقْـلَدَا[3]

فَأَمْطَاكَ مَنْكِبَ طَرْفِ النُّجُومِ ... وَأَوْطَأَ إِخْمَصَكَ الْفَـرْقَدَا[4]

فَلَا زِلْتُمَا يَرْفَعُ الْأَوْلِيَا ... ءُ مُلْكَكُمَا وَيَحُطُّ الْعِدَا

وَتَمْشِى لِنَفْسَيْكُمَا الْبَرِّيَّتَيْـ ... ـنِ مِنْ كُلِّ مَا يُتَوَقَّى الْفِدَا

فَمَنْ قَالَ: «أَنْ لَسْتُمَا أَوْحَدَيْـ ... ـنِ فِى الصَّالِحَاتِ» فَمَا وَحَّدَا

---

(١) النجاد: حمائل السيف، الأنجد: الأشجع. والنَّجدُ هو الشجاع الماضى فيما يُعجز غيرَه؛ والشبل: ولد الأسد.

(٢) يستمين برأيك كما يستعين بقوتك فيرى منك ما يرضيه فى الحالين.

(٣) المِقْلد والمقلاد والإقليد: المفتاح، والمعنى أن فيك تفريجا لكل كرب وحلاً لكل إشكال.

(٤) المنكب: مجمع عظم الكتف والعضد، الأخمص: تجويف باطن القدم، والمعنى أنك سموت فوق النجوم.

٣ - إهداء واستهداء

« بعث الشاعر إلى خلّانه بالهدايا ، وتقبّل هداياهم ، وبادلهم تحية بتحية ، وقارضهم ثناء بثناء ، فى عبارات رقيقة تنبض بالود وتُشيحّ بالوفاء » .

ريق العذارى

أهدى الشاعر صنفاً من العنب اسمه « أطراف المذارى » إلى إلى جده الوزير صاحب الأحكام أبى بكر محمد بن محمد بن إبراهيم ، وكتب معه :

أتاكَ مُحَيِّيًا عَنِّى اعْتِبَارًا . عَذَارَى دُونَهُ رِيقُ الْعَذَارَى(١)
تَخَالُ الشَّهْدَ مِنْهُ مُسْتَمَدًّا وَنَفْحَ الْمِسْكِ مِنْهُ مُسْتَعَارَا
يَرُوقُ الْعَيْنَ مِنْهُ جِسْمُ مَاءٍ غَدَا ثَوْبُ الْهَوَاءِ لَهُ شِعَارَا(٢)
وَلَوْلَا أَنَّنِى قَدْ نِلْتُ مِنْهُ ـ وَلَمْ أَسْكَرْ ـ خِلْتُ بِهِ عُقَارَا(٣)

(١) الاعتبار : الاعتداد بالشىء فى ترتيب الحكم مثل « والمعتبرةُ بالعقب » أى : والاعتداد فى التقدم بالعقب » . والمعنى قدمتُ لك هذا الصنف من العنب فتقدم إليك بالتحية نائباً عنى معتزا بك مقدما لك ؛ وهوأعذب من ريق العذارى .

(٢) المعنى : هذا العنب رقيق الجلد شفاف النظر كأنه قطرات ماء مغلفة بالهواء ، وقد ورد هذا المعنى فى بيت لأبى تمام :

يخفى الزجاجة لونُها فكأنَّها فى الكفِّ قائمةٌ بغير إناء

(٣) المعنى : مذاق هذا العنب يبعث فى النفس نشوة ، ولولا أننى لم أسكر منه لحسبته خمراً .

بِمَنْتُ بِهِ ، وَلَوْ أَهْدَيْتُ نَفْسِي   إِلَيْكَ لَكَانَ مِنْ بِرِّي اقْتِصَارَا
فَأَنْعِمْ بِالْقَبُولِ ، فَرُبَّ نُعْمَى   أَعَدْتَ بِهَا دُجَى لَيْلِي نَهَارَا

غذاء ودواء[1]

أهدى الشاعر هدية أخرى إلى جده وكتب معها :

قَدْ بَعَثْنَاهُ يَنْفَعُ الْأَعْضَاءَ   حِينَ يَجْلُو ـ بِلُطْفِهِ ـ السَّحْنَاءَ[2]
جَاءَ يُزْهَى بِمُسْتَشَفٍّ رَقِيقٍ   يَخْدَعُ الْعَيْنَ رِقَّةً وَصَفَاءَ[3]
تَنْفُذُ الْعَيْنُ مِنْهُ فِي ظَرْفِ نُورٍ   مَلَأَتْهُ أَيْدِي الشُّمُوسِ ضِيَاءَ
أَكْسَبَتْهُ الْأَيَّامُ بَرْدَ هَوَاءٍ   فَهْوَ جِسْمٌ قَدْ صِيغَ نَاراً وَمَاءَ
مَنْظَرٌ يُبْهِجُ الْقُلُوبَ ، وَطَعْمٌ   تَشْكُرُ النَّفْسُ عِنْدَهُ اسْتِمْرَاءَ[4]

---

(١) فى الأصول المخطوطة « وكتب إليه فى مثل ذلك » وربما كانت الهدية صنفاً آخر من العنب .

(٢) السحناء : الهيئة أو اللون أو النعمة أو لين البشرة ؛ والمعنى : هذه الهدية غذاء ودواء، فهى تنفع الأعضاء وتصقل البشرة وتزين هيئة الإنسان .

(٣) المعنى جلد هذا العنب رقيق شفاف حتى تظن العين أنه هواء ؛ وقريب من هذا قول الصاحب بن عباد :

رقّ الزجاجُ وراقت الخمرُ   وتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ   وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

(٤) المعنى : منظره يمنح القلوب بهجة، ومذاقه الحلو يهب القلوب لذة، فتهتف بالثناء عليه ؛ وهى لفتة دقيقة من الشاعر أناب فيها القلوب عن العيون، والنفوس عن المذاق .

لَذَّةَ الوَصْلِ نَالَهُ ـ بَعْدَ يَأْسٍ ـ كَلِفٌ طَالَمَا تَشَكَّى الجَفَاءَ
يَفْضَحُ الشَّهْدَ طَعْمُهُ ـ كُلَّمَا قِيـ ـسَ إِلَيْـهِ ـ وَيُخْجِلُ الصَّهْبَاءَ
فَضَلَ السَّابِقَ المُقَدَّمَ ـ فِى النُّضْـ ـجِ ـ فَأَزْرَى بِطَعْمِهِ إِزْرَاءَ
غَـيْرَ أَنِّى بَعَثْتُ هٰذَا غِذَاءً ـ يَشْتَهِيهِ الفَتَى ـ وَذَاكَ دَوَاءَ
مُلْطِفٌ يُبْرِدُ المِزَاجَ إِذَا جَا شَ الْتِهَابًا ، وَيَقْمَعُ الصَّفْرَاءَ(١)
وَمُبِينٌ لِوَاصِلِ الصَّوْمِ ، يَسْرِى بَرْدُهُ فِى الحَشَا فَيُرْوِى الظَّمَاءَ(٢)
[فَتَقَبَّلْهُ] شَاقِيًا لِأَيَادِيـ ـكَ الَّتِى بَعْضُهَا يَفُوتُ الثَّنَاءَ(٣)

ذوب المدام

أهدى الشاعر إلى المتضدبن عباد هدية من التفاح وكتب معهـا :

يَا مَنْ تَزَيَّنَتِ الرِّيَا سَةُ حِينَ أَلْبِسَ ثَوْبَهَا
وَلَهُ يَدٌ يَئِسَ النَّمَا مُ مِنَ أَنْ يُعَارِضَ صَوْبَهَا(٤)

(١) مزاج الجسم : طبيعته واستعداده . جاش : اضطرب ، الصفراء : مرض يصيب الكبد فيكسو البشرة لوناً أصفر ؛ والمعنى : إنه يهدئ التهاب المزاج ويشفى حدة الصفراء .

(٢) الظماء : الظمأ .

(٣) ورد البيت ناقصاً فى أوله ، فأ كلناه بين القوسين بما يناسب التمام .

(٤) الصواب: زول المطر . والمراد به هنا الكرم ؛ ولعل الأوفق من حيث الصياغة أن يصير البيت :

وله يـد يئس الحيـا من أن يعارض صوبها

جاءتكَ جامِدةُ المُدا مِ فخُذْ علَيْها ذَوْبَها[1]

نفحات الراح

أهدى المعتضد إلى الشاعر هدية من الراح والفاكهة ، وبعث معها بأبيات أجاب عنها الشاعر بقوله :

أمَوْلايَ بُلِّغْتَ أقصَى الأمَلْ وسُوِّغْتَ دَأْبًا نَسَاءَ الأجَلْ[2]
وعُمِّرْتَ – ما شِئْتَ – في دَوْلَةٍ تُقَصِّرُ عَنْها طِوالُ الدُّوَلْ
فأنْتَ الَّذي غُرُّ أفْعالِهِ تَحَلَّى بِها الدَّهرُ بعدَ العَطَلْ
لَشَرَّفْتَ مَمْلوكَكَ المُسْتَرَقَّ نَظْمًا مِنَ الكَلِمِ المُنْتَخَلْ[3]
وَراحٌ تُعِيدُ إلَى مَن أَسَنَّ طِيبَ زَمانِ الصِّبا المُقْتَبَلْ
أَتَتْ مَعَ أمْرَإِ ما يُغْتَذَى وأَغْرَبِ باكُورةٍ تُنْتَقَلْ[4]
فأخْجَلَني البِرُّ مِن فَرْطِهِ وإنَّ الجَوابَ لَيُبْدي الخَجَلْ
وقد يَقْبَلُ – الدَّهرَ – مَوْلَى الأنَا مِ جُهْدَ العَبيدِ إذا ما أقَلّْ
سَعِدْتَ كَما سَعِدَ المُشْتَري ونِلْتَ عُلاً لَمْ يَنَلْها زُحَلْ

---

(١) المقصود بجامدة المدام : التفاح ؛ وبذوبها : الخمر .
(٢) نَسَاءُ الأجل : امتداد العمر .
(٣) المنتخل : المفضل المختار .
(٤) أمرأ ما يُغتذى : أعذب غذاء وألذه وأطيبه ، الباكورة : أول ما يدرك من الفاكهة . تنتقل : تطلب .

نعمة سائغة

أجاب الشاعر من رسالة المتضد شاكراً :

هَلْ يَشْكُرَنَّ «أَبُو الْوَلِيدِ» إِدْنَاءَكَ الْأَمَلَ الْبَعِيدَ[١]

أَوْ أَنْ تُسَوِّغَ نِعْمَةً لِلدَّهْرِ أَسْهَرَتِ الْحَسُودَ

إِنْ لَمْ يَدِنْ بِنَصِيحَةٍ تُرْضِيكَ فَهْوَ مِنَ الْيَهُودْ

لاَ زِلْتَ رَافِعَ رَايَةٍ تُضْحِي السُّعُودُ لَهَا جُنُودْ

رُوح المدام

استهدى الشاعر المتضد خمراً فكتب إليه :

بَابَأَبِي كُلُّ مَجْدِ وَهَادِماً كُلَّ وَجْدِ[٢]

جِسْمُ السُّرُورِ سَوِيٌّ مِنْ سَوْغِ نُعْمَاكَ عِنْدِي

فَهَبْ لَهُ رُوحَ رَاحٍ يَنْطِقْ بِأَحْفَلِ حَمْدِ[٣]

عطر وطهور

دعا المتضد الشاعر إلى حمّام قصره، وبعث إليه بطيب وبخور فكتب إليه شاكراً :

رِضَاكَ لَنَا ـ قَبْلَ الطَّهُورِ ـ مُطَهِّرٌ وَقُرْبُكَ ـ مِنْ دُونِ الْبَخُورِ ـ مُعَطِّرُ

(١) أبو الوليد : كنية ابن زيدون .

(٢) الوَجد : الحزن .

(٣) معنى البيتين : لقد تمّ جسم السرور ، واستوى بفضل نعمك السابغة عليّ ، فإذا نفختَ في هذا الجسم من روح الخمر فإنه يصبح حيّاً ناطقاً يترنم بالثناء عليك .

فَلَوْ عَزَّ حَمَّامٌ لَأَدْفَأَنَا ذَرًا يَفِيضُ بِهِ مَاءُ النَّدَى الْمُتَفَجِّرُ(١)

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ طِيبٌ لَأَغْنَتْ حَفَاوَةٌ تُمَسِّكُ مِنْهَا حَالَنَا وَتُعَنْبِرُ(٢)

فَلَا فَارَقَ الدُّنْيَا سَنَاءٌ مُقَدَّسٌ بِعَيْشِكَ فِيهَا أَوْ ثَنَاءٌ مُجَمَّرُ(٣)

وَدُمْتَ مُلَقًّى — كُلَّ يَوْمٍ — صَبِيحَةً يُنَادِيكَ فِيهَا بِالْفُتُوحِ مُبَشِّرُ

وافدة الشمول

أهدى الشاعر إلى المتمد هديّة وكتب معها :

دُونَكَ الرَّاحَ جَامِدَهْ وَفَدَتْ خَيْرَ وَافِدَهْ(٤)

وَجَدَتْ سُوقَ ذَوْبِهَا — عِنْدَ تَقْوَاكَ — كَاسِدَهْ(٥)

فَاسْتَحَالَتْ إِلَى الْجُمُو دِ وَجَاءَتْ مُكَايِدَهْ(٦)

ثم عدل عن الأبيات السابقة وكتب الأبيات الآتية :

جَاءَتْكَ وَافِدَةُ الشَّمُولِ فِى الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ الْجَمِيلِ(٧)

لَمْ تَحْظَ ذَائِبَةً لَدَيْكَ وَلَمْ تَنَلْ حَظَّ الْقَبُولِ

---

(١) الذَّرا : كل ما استذريت به ، فتقول أنا فى ذرا فلان ، أى فى ظله وكنفه وستره .

(٢) فى ب ، ز « تمسك منه » والمعنى : حفاوة الأمير تغنينا عن كل طيب من مسك وعنبر .

(٣) السناء : الرفعة ، والثناء : الحمد ؛ مجمّر : مجمّع .

(٤) فى ت « غير وافدة » .

(٥) فى النفح « عندك اليوم كاسدة » .

(٦) فى الأصول « الجوم » والتصويب عن النفح .

(٧) الشمول : الخمر . وفى نسخة ت « البهج الجميل » .

فَتَحَامَدَتْ مُخْتَـالَةً وَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لَا الْحَوِيلُ[1]
لَوْلَا انْقِلَابُ الْعَيْنِ سُـدَّتْ دُونَ بُغْيَتِهَا السَّبِيلُ[2]
لَهَجَرْتُهَا صَـفْرَاءَ فِي بَيْضَاءَ ، هَاجِرُهَا قَلِيلُ
الْكَأْسُ مِنْ رَأْدِ الضُّحَى وَالرَّاحُ مِنْ طَفَلِ الْأَصِيلِ[3]
آثَرْتُ عَائِدَةَ التُّـقَى وَرَغِبْتُ فِي الْأَجْرِ الْجَزِيلِ

* * *

يَأَيُّهَـا الْمَلِكُ الَّذِي مَا فِي الْمُلُوكِ لَهُ عَدِيلُ
يَا مَاءَ مُزْنٍ ، يَا شِهَا بَ دُجُنَّةٍ ، يَا لَيْثَ غِيلُ[4]
يَا مَنْ عَجِبْنَا أَنْ يَجُو دَ بِمِثْـلِهِ الزَّمَنُ الْبَخِيلُ

---

(١) الحويل : الحذق وجودة النظر والقدرة على التصرف ، والاسم من حاول ؛ والمعنى : المرء عاجز بقدرته وحدها ، ولكنه بحيلته وحذقه يستطيع بلوغ أهدافه ، ولما رأت الخمر أنها لا تستطيع الحظوة عندك لتقواك وورعك استحالت من السيولة إلى الجمود فصارت تفاحا ؛ وفي المثل : المرء يعجز لا المحالة أو لا محالة ، ومنه قول دؤاد لزوجه :

حاولتُ حين صرمتني والمرء يعجز لا المحالة

(٢) العين : الذات ؛ والمعنى : لو لا انقلاب طبيعة الخمر من سائلة إلى جامدة لانسدّتْ في وجهها الطرق فلم تصل إليك لورعك وزهدك .

(٣) رأد الضحى ورائده : ارتفاعه ، والطفَل : احمرار الشمس عنـد الغروب ؛ الأصيل : الوقت بعد العصر إلى المغرب ؛ والمعنى : زجاج الكأس وضّاء شفاف ، والخمر حمراء مائلة للصفرة .

(٤) دجنة : ظلام . ليث غيل : أسد غابة .

بُشْرَاكَ دُنيا غَضَّــةٌ ‌ ‌ فى ظِلِّ إِقْبالٍ ظَلِيلْ

رَقَّتْ كَمَا سَالَ المِذَا ‌ ‌ رُ بِجانِبِ الخدِّ الأَسِيلْ

وَتَأَوَّدَتْ كَالغُصْنِ قَا ‌ ‌ بَلَ عِطْفَهُ نَفَسُ القَبُولْ[1]

يُصْــبِى مُقَبَّلُهَا الشهِىُّ وَلَحْظُهَا السَّادِى العَلِيلْ[2]

فَتَمَلَّهَا فى العِــزَّةِ الْــقَعْسَاءِ وَالعُمُرِ الطَّوِيلْ[3]



(١) تأودتْ : مالت ؛ عِطْفه : جانبه ؛ القَبول : ريح الصبا .

(٢) السادى : مأخوذ من سَدِىَ البُسر أى استرخت تفَاريقه ؛ والمعنى : اللحظ المسترخى الفاتر ، وفى الأصول «الشاذى» ومعناها المؤذى، ولعل الصواب ما ذكرناه ، أو لعله الساجى بمعنى الهادئ الوادع .

(٣) تملّها : استمتع بها ؛ القعساء : الثابتة ؛ وفى ت ، ز « بالمزة » .

٣ - مجالس الشراب

طوى شاعرنا مع أصدقائه أياما باسمة، وليالىَ حالة، يعاقرون فيها الصهباء، ويسمعون الغناء، بين الزهر والماء؛ فتجاوبت ألحانه مع الأوتار والعقار، مرتلة أعذب الأشعار.

ضيف كريم

لما وفد الشاعر على إشبيلية نزل بدار صديقه ذى الوزارتين أبى عامر بن مسلمة(١) وهو يبنى فيها مجلسا، فصنع هذه الأبيات لتكتب فيه:

عُمِّرَ مَنْ يَعْمُرُ ذَا الْمَجْلِسَا ... أَطْوَلَ عُمْرٍ يُبْهِجُ الْأَنْفُسَا

وَبُدِّلَ ذَا عُوِّضَ عَنْ دَارِهِ ... عَدْنًا، وَمِنْ دِيبَاجِهِ السُّنْدُسَا

وَوُقِّيَ الْفَوْزَ بِهَا وَالرِّضَا ... وَوُقِّيَ الْأَسْوَاءَ وَالْأَبْؤُسَا(٢)

وَدَامَ عَبَّادٌ لِمَهْدِ الْهُدَى ... يَحْرُسُ حَتَّى يُفْنِيَ الْأَحْرُسَا(٣)

* * *

مُعْتَضِدٌ بِاللهِ، إِحْسَانُهُ ... جَمٌّ، إِذَا مَا الدَّهْرُ يَوْمًا أَسَا(٤)

---

(١) فى الأصول « أبى على بن جبلة » ولكنها عادت فى المقطوعات التالية مكنتة بأبى عامر؛ وقد صححنا الاسم من نفح الطيب.

(٢) فى النفح « ولُقِّىَ النور ».

(٣) فى النفح « لمضد المدى » أى لمونة المدى.

الأحْرُس: جمع حَرس وهو الدهر، والمعنى: عاش عباد يحرس الهدى مدى الزمان.

(٤) المعنى: إذا أساء الزمان يوماً فإن إحسان الأمير جَمٌّ متصل.

لَلمَلِكُ الغَمْرُ النَّدَى ، المُقْتَنِي مِنْ كُلِّ حَمْدٍ عِلْقَهُ الأَنْفَسَا[1]

إِنْ رَامَ يَوْماً وَصْفَ عَلْيَائِهِ مُفَوَّهٌ مُقْتَدِرٌ أُخْرِسَا

لاَ زَالَ بَدْراً طَالِعاً نَيِّراً يَكْشِفُ عَنْ آمَالِنَا الحِنْدِسَا[2]

حث الكئوس

طاب للشاعر الشراب فى المجلس السابق فأنشد :

أَدِرْهَا فَقَدْ حَسُنَ المَجْلِسُ وَقَدْ آنَ أَنْ تُتْرَعَ الأَكْؤُسُ

وَلاَ بَأْسَ إِنْ كَانَ وَلَّى الرَّبِيعُ إِذَا لَمْ تَجِدْ فَقْدَهُ الأَنْفُسُ[3]

فَإِنَّ خِلاَلَ أَبِي عَامِرٍ بِهَا يَحْضُرُ الوَرْدُ وَالنَّرْجِسُ[4]

دعوة كريمة[5]

دعا الشاعر صديقه أبا عامر بن مسلمة لقضاء ليلة ممتعة :

طَابَتْ لَنَا لَيْلَتُنَا الخَالِيَهْ فَلْتُنْسِنَاهَا هٰذِهِ التَّالِيَهْ[6]

---

(١) المعنى : الملك الكثير الجود الذى يحرز من كل مجد أنفسه وأغلاه .

(٢) الحندس : الظلام ؛ وفى الأصول من آمالنا ، والتصحيح عن نفح الطيب .

(٣) فى بعض نسخ النفح « ولا تنس أن أوان الربيع .. » وفى بعضها الآخر « ولا نفس إن أوان الربيع .. » .

(٤) فى النفح « بها يحقر » .

(٥) وردت هذه المقطوعة مرتين فى نفح الطيب ، وقد وردت فى الوضع الأول مصدرة بهذه العبارة « وكتب إلى الوزير أبى المال المهلب بن عامر » وفى الموضع الثانى مصدرة بهذه العبارة « وكتب إلى أبى عامر يستدعيه » والمقصود هو أبو عامر بن مسلمة كما ذكرنا سابقاً .

(٦) فى بعض نسخ النفح « فلتنسنها هذه الثانية » وفى بعضها الآخر « فلتنسبهنها » .

أَبَا المَعَالِى نَحْنُ فِى رَاحَةٍ • فَانْقُلْ إِلَيْنَا القَدَمَ العَالِيَهْ[1]

لَيْلَتُنَا عَاطِلَةٌ إِنْ تَغِبْ • عَنَّا ، فَزُرْنَا كَىْ تُرَى حَالِيَهْ[2]

أَنْتَ الَّذِى لَوْ تُشْتَرَى سَاعَةٌ • مِنْهُ بِدَهْرٍ لَمْ تَكُنْ غَالِيَهْ[3]

بين الرياض

قضى الشاعر فترة صفاء مع المعتضد بن عباد بين المياه الجارية والأزهار العاطرة فرتل هذه الأبيات :

يَا أَيُّهَا المَلِكُ الجَلِيـــلُ يُكِلُّ أَلْسُنَنَا جَلاَلُكْ[4]

انْظُــرْ إِلَى مُحْتَلِّنَا • قَدْ زَانَ سَاحَتَهُ احْتِلاَلُكْ

نَهْرٌ وَرَوْضٌ نَحْنُ بَيْنَهُمَا • تُؤَلِّفُنَا ظِلاَلُكْ

قَدْ فَاضَ فِى هٰذَا نَدَا • كَ ، وَنَعَّمَتْ هٰذَا خِلاَلُكْ

---

(١) فى إحدى روايتى النفح « فى راحة » وفى الرواية الثانية « فى روضة » ؛ وفى الخريدة « القدم التالية » .

(٢) فى النفح « لأنها عاطلة » .

(٣) فى إحدى روايتى النفح « لو تُشترى » وفى الرواية الثانيـــة « لو نشترى » .

(٤) يكلُّ : يضعف ؛ والمعنى : إن جلالك يخرس ألسنتنا فى الثناء عليك .

٤ – لذة المناجاة

« رق العتاب فأصبح مناجاة ، وطابت المناجاة فصارت نسيباً ؛ ولا عجب! فالصداقة عند شاعرنا يمتزج فيها الود بالهيام »

خلع العذار

كتب الشاعر هذه القصيدة فى معاتبة أو مناجاة صديقه أبى القاسم بن رفق ، ولعلها شخصية رمزية يكن وراءها مصدر حب وإلهام.

عُذْرِى– إنْ عَذَلْتَ فى خَلْعِ عُذْرِى – غُصُنٌ أَثْمَرَتْ ذُرَاهُ بِبَدْرِ[1]

هَزَّ مِنْـــهُ الصَّبَا قَوَامَ شَطْراً وَتَجَافَى – عَنِ الوِشَاحِ – بِشَطْرِ[2]

رَيّاً أَقْصَـــدَ الْجَوَانِحَ قَصْداً عَنْ جُفُونٍ كُحِلْنَ عَمْداً بِسِحْرِ[3]

كُسِيَ الْحُسْنَ فَهْوَ يَفْتِنُ فِيهِ سَاحِباً ذَيْلَ بُرْدِهِ الْمُسْبَكِرِّ[4]

---

(١) العُذْر : العُذْر، وهو مايحتج به الإنسان فى الدفاع عن نفسه ، خلع عُذْرى : خلع حيائى واستهتارى ، وأصله : عذر : جمع عذار بمعنى الحياء يقال خلع فلان عذاره : ترك حياءه واستهتر فى تصرفاته كما يخلع الفرس لجامه ويجمح .

(٢) المعنى : أبرز الشباب منه بعض الأعضاء وأضمر بعضها ، ومن مقاييس الجمال عند العرب أن يبرز الصدر والردف ويدق الخصر، وفى هذا يقول الشاعر :

أبت الروادف والثُدِىُّ لقُمصها مسَّ البطون وأن تمسَّ ظهورا

(٣) أقصد : أصاب المقتل .

(٤) المسبكرّ : المسترسل الممتد .

تَحْتَ ظِلٍّ - مِنَ الْغَرَارَةِ - فَيْنَا نَ وَرَوْقٍ مِنَ الشَّبِيبَةِ نَضْرِ [١]

أَبْرَزَ الْجِيدَ فِى غَلَائِلَ بِيضٍ وَجَلَا الْخَدَّ فِى مَجَاسِدَ حُمْرِ [٢]

وَتَثَنَّتْ بِعِطْفِهِ - إِذْ تَهَادَى - خَطْرَةٌ تَمْزُجُ الدَّلَالَ بِكِبْرِ

* * *

زَارَنِى بَعْدَ هَجْعَةٍ ، وَالثُّرَيَّا رَاحَةٌ تَقْدِرُ الظَّلَامَ بِشِبْرِ [٣]

وَالدُّجَى مِنْ نُجُومِهِ فِى عُقُودٍ يَتَلَأْلَأْنَ مِنْ سِمَاكٍ وَنَسْرِ

تَحْسَبُ الْأُفْقَ بَيْنَهَا لَازَوَرْدًا نُثِرَتْ - فَوْقَهُ - دَنَانِيرُ تِبْرِ [٤]

فَرَشَفْتُ الرُّضَابَ أَعْذَبَ رَشْفٍ وَهَصَرْتُ الْقَضِيبَ أَلْطَفَ هَصْرِ [٥]

وَنَعِمْنَا بِلَفِّ جِسْمٍ بِجِسْمٍ لِلتَّصَافِى ، وَقَرْعِ ثَغْرٍ بِثَغْرِ

يَا لَهَا لَيْلَةً تَجَلَّى دُجَاهَا - مِنْ سَنَا وَجْنَتَيْهِ - عَنْ ضَوْءِ فَجْرِ

قَصَّرَ الْوَصْلُ عُمْرَهَا ، وَبِوُدِّى أَنْ يَطُولَ الْقَصِيرُ مِنْهَا بِعُمْرِى [٦]

* * *

---

(١) الغرارة : قلة الخبرة ؛ الروق : الفسطاط ؛ وروق الشباب أوله ؛ والمعنى : إنها تعيش فى سذاجة حلوة محببة ، وتخطر فى شبيبة ناضرة .

(٢) الجيد : العنق ؛ المجاسد : جمع مُجْسَد ، وهو الثوب المصبوغ بالجِساد أى الزعفران .

(٣) راحة : كف ؛ تقدر : تقيس .

(٤) تظن الأفق بساطاً أزرق نثرت فوقه دنانير ذهبية .

(٥) الرضاب . الريق ؛ هصر : جذب أو أمال ؛ القضيب : المقصود به القدّ المشوق .

(٦) المعنى : إن الوصل جعل ليلتى قصيرة ؛ وإننى لأتمنى أن أطيلها بشطر من عمرى .

مَنْ عَذِيرِى مِنْ رَيْبِ دَهْرٍ خَئُونٍ ؟ — كُلَّ يَوْمٍ — أُرَاعُ مِنْهُ بِغَدْرِ[(١)]

كُلَّمَا قُلْتُ : « حَاكَ فِيهِ مَلَامِى » — نَهَسَتْنِى مِنْهُ عَقَارِبُ تَسْرِى[(٢)]

وَتَرَتْنِى خُطُوبُهُ فِى صَفِىٍّ — فَاضِلٍ نَابِهٍ — مِنَ ٱلدَّهْرِ — وِتْرِ[(٣)]

بَانَ عَنِّى — وَكَانَ رَوْضَةَ عَيْنِى — فَغَدَا ٱلْيَوْمَ وَهُوَ رَوْضَةُ فِكْرِى[(٤)]

فَكِهٌ يُبْهِجُ ٱلْخَلِيلَ بِوَجْهٍ — تَرِدُ ٱلْعَيْنُ مِنْهُ يَنْبُوعَ بِشْرِ

لَوْذَعِىٌّ — إِنْ يَبْلُهُ ٱلْخُبْرُ يَوْمًا — أَخْجَلَ ٱلْوَرْدَ عَنْ خَلَائِقَ زُهْرِ[(٥)]

وَإِذَا غَازَلَتْهُ مُقْلَةُ طَرْفٍ — كَادَ — مِنْ رِقَّةٍ يَذُوبُ — فَيَجْرِى[(٦)]

* * *

يَا « أَبَا ٱلْقَاسِمِ » ٱلَّذِى كَانَ رِدْئِى — وَظَهِيرِى — عَلَى ٱلزَّمَانِ — وَذُخْرِى[(٧)]

يَا أَحَقَّ ٱلْوَرَى بِمَحْضُوضِ إِخْلَا — صِى ، وَأَوْلَاهُمْ بِغَايَةِ شُكْرِى[(٨)]

(١) مَن عذيرى : من يعذرنى منه ؟ أى من يلومه على فعله وينحى عليه باللائمة ؟

(٢) حاك القولُ فى القلب : أخذ ، وحاك السيفُ : أثّر ، والشفرة : قطعت ؛ نهس : عض ، أو أخذ الشئ بمقدم أسنانه .

(٣) وترنى : ظلمتنى وأصابتنى بما يستدعى الثأر ، وتر : مفرد لانظير له .

(٤) بان عنى : فارقنى ؛ والمعنى : كان ماثلا أمام عينى ، فأصبح ماثلا فى خواطرى .

(٥) لودعى : ظريف أو شجاع ؛ والمعنى : إنه نابه شجاع إذا جرّبته تكشفتْ طباعُه عن شمائل رقيقة تخجل الورود .

(٦) المعنى : يكاد يسيل رقة وعذوبة إذا غازلته العيون . وفى نسخ ب، ت ، ز «فإذا غازلته مقلة طرفى» .

(٧) الرده : العون ؛ الظهير : المساعد والمعين ، وفى ت « كان ردفى » .

(٨) محوض : خالص ، وفى نسخة ا محوص : مِنْ محصَ الذهبَ بالنار : أخلصه .

طَرَقَ الدَّهْرُ سَاحَتِي مِنْ تَنَائِـ ـيكَ بِجَمْعٍ مِنَ الْحَوَادِثِ نُكْرِ

* * *

لَيْتَ شِعْرِي ! وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنْ لَيْـ ـسَ بِمُجْدٍ عَلَى الْفَتَى: «لَيْتَ شِعْرِي» (١)

هَلْ لِحَالِي زَمَانِنَا مِنْ رُجُوعٍ ؟ أَمْ لِمَاضِي زَمَانِنَا مِنْ مَكَرِّ ؟ (٢)

* * *

أَيْنَ أَيَّامُنَا ؟ وَأَيْنَ لَيَـالٍ كَرِيَاضٍ لَبِسْنَ أَفْوَافَ زَهْرِ ؟

وَزَمَانٌ كَأَنَّمَا دَبَّ فِيـهِ وَسَنٌ أَوْ هَفَا بِهِ قَرْطُ سُكْرٍ (٣)

حِينَ نَغْدُو إِلَى جَدَاوِلَ زُرْقٍ يَتَغَلْغَلْنَ فِي حَدَائِقَ خُضْرِ

فِي هِضَابٍ مَجْلُوَّةِ الْحُسْنِ حُمْرٍ وَبِرَاثٍ مَصْقُولَةِ النَّبْتِ عُفْرٍ (٥)

نَتَعَاطَى الشَّمُولَ مُذْهَبَةَ السِّرْ بَالِ ، وَالْجَوُّ فِي مَطَارِفَ غُبْرٍ (٦)

---

(١) ليت شعرى : ليتنى أعلم ، ومثله قول ابن الرومى :

يا ليت شعرى ، وليتٌ غير مجدية إلا استراحة قلب وهو أسوان

لأىّ أمرٍ مُرادٍ بالفتى جُمِعَتْ تلك الفنونُ فضمَّتْهُنَّ أفنانُ ؟

(٢) مَكَرّ : رجوع ؛ والمعنى: هل تعود أيامنا الحلوة؟ وهل ترجع ليالينا السالفة؟

(٣) وَسَنٌ : نوم ؛ هفا : مال (٤) فى ب ، ت ، ز « غلائل زرق » .

(٥) براث : جمع بَرْث وهى الأرض السهلة اللينة من غير بلل ، أو أسهلُ الأرض وأحسنُها ، وفى الأساس: حبَّذا تلك البِرَاثُ الحُمْرُ والدَّمَاثُ العُفْرُ: أى الأراضى السهلة الحمر والبقاع ذات الرمال البيض ، عُفْرٌ : مائلات للبياض ، وفى أصول الديوان (بداة مصقولة) والبداة هى البادية ، ولا يتفق معناها مع البيت السابق ؛ ولعل الصواب ما أثبتناه ، وقد تكون (غداة) وهى الأرض الطيبة التربة ، الكريمة النبت ، البعيدة عن الوباء .

(٦) المطارف : أردية من خز مربعة لها أعلام ؛ والمعنى : نتعاطى الخمر الذهبية فى اليوم الطير .

فى فُتُوٍّ تَوَشَّحُوا بِالمَعالِى وَتَرَدَّوْا بِكُلِّ مَجْدٍ وفَخْرِ (١)

وُضَّحٍ تَنْجَلِى الغَياهِبُ مِنْهُمْ عَنْ وُجوهٍ - مِثْلِ المَصابِيحِ - غُرِّ (٢)

كُلُّ خِرْقٍ يَكادُ يَنْهَلُّ ظَرْفًا زانَ مَرْآتَهُ بِأَكْرَمِ خُبْرِ (٣)

[ذِى سِماتٍ تَشِفُّ عَنْ] مَحْضِ خالٍ نَفَحَ المِسْكَ عَرْفُها طِيبَ نَشْرِ (٤)

وسَجايا كَأَنَّهُنَّ كُئُوسٌ أَوْ رِياضٌ قَدْ جادَها صَوْبُ قَطْرِ (٥)

يَتَلَقَّى القَبُولَ مِنِّى قَبُولٌ كُلَّما راحَ نَفْحُها أَرْتاحَ صَدْرِى (٦)

فَهْوَ يَسْرِى مُحَمَّلًا - مِنْ سَجايا كَ - نَسِيماً يُزْهَى بِأَفْوَحِ عِطْرِ (٧)

* * *

يا خَلِيلِى ، وَواحِدِى ، وَالمُعَلَّى مِنْ قِداحِى ، وَالمُنْتَقَى بِبِرِّى (٨)

---

(١) فُتُوٌّ : فتيان. والمعنى : نلهو مع فتيان يرتدون أثواب العلا والمجد والفخار.

(٢) المعنى : مع فتيان مشرقو الوجوه ، لا تنال منهم الأحداث بل تتكشف عن شبان متهللى الأسارير مثل المصابيح .

(٣) خرق : سخى ظريف ، أو حسن الوجه كريم الخليقة ؛ ينهل : يسيل ؛ مرآته : منظره الجميل ؛ وفى ب ، ت ، ز « مرأى به » .

(٤) المحض : الخالص ؛ الخال : الرجل الذى يُتَوسَّمُ فيه الخير ؛ والمعنى : إنه يتسم بملامح تشف عن شمائل طيبة يستعير المسك منها رائحته الذكية ؛ وقد ورد البيت ناقصا بأصول الديوان ، فأكملناه بما يناسب المقام بين القوسين .

(٥) فى ب . ت . ز « طيب قطر » .

(٦) القبول : ريح الصبا ؛ قبول : موافقة ، راح نفحها : طاب ريحها .

(٧) فى ب . ت . ز « زهو ... » ؛ ومعنى البيتين : إننى أتلقى ريح القبول بيشر وارتياح ، لأنها تهب من جهتك حاملة نفحاتك الطيبات .

(٨) المُعَلَّى : سابع سهام الميسر ، وهو أوفرها حظاً .

لاَ يَضِعْ وُدُّىَ الصَّرِيحُ الَّذِى أَزْ ... ضَاكَ مِنْهُ أَسْتِوَاءُ سِرِّى وَجَهْرِى
وَتَوَالِى أَذِمَّـــةٍ نَظَمَتْنَا ... نَظْمَ عِقْدِ الْجُمَانِ فِى نَحْرِ بِكْرِ(١)
لاَ يَكُنْ قَصْرُكَ الجَفَاءَ ، فَإِنَّ الْــوُدَّ إِنْ سَاعَدَتْ حَيَاتِى قَصْرِى(٢)
وَأَعِدْ ـ بِالْجَوَابِ ـ دَوْلَةَ أُنْسٍ ... قَدْ تَقَضَّتْ إِلاَّ عُلاَلَةَ ذِكْرِ(٣)
وَأْكْسُ مَتْنَ الْقِرْطَاسِ دِيبَاجَ لَفْظٍ ... يَبْهَرُ الْفِكْرَ مِنْ نَظِيمٍ وَنَثْرِ
غُرَرٍ مِنْ بَدَائِعٍ لاَ يُشَكُّ الدَّهْرُ ... فِى أَنَّهَا قَلاَئِدُ دُرِّ
تَتَوَالَى عَلَى النُّفُوسِ دِرَاكاً ... عَنْ فَتًى مُوسِرٍ مِنَ الطَّبْعِ مُثْرِى(٤)
شَدَّ فِى حَلْبَةِ الْبَـلاَغَةِ حَتَّى ... بَانَ فِيهَا عَنْ شَأْوِ «سَهْلٍ» وَ«عَمْرٍو»(٥)
وَإِذَا أَنْتَ لَمْ تُعَجِّلْ جَوَابِى ... كَانَ هَذَا الْكِتَابُ بَيْضَةَ عُقْرِ(٦)

(١) أذمّة : حقوق وحرمات ، وفى ت « أزمة » .

(٢) قَصْرُكَ وقُصاراك : غاية جهدك ؛ والمعنى : لاتحرص على جفائى فإننى حريص على مودتك .

(٣) علالة ذكر : ذكريات يُتَعَزَّى بها .

(٤) دراكا : متوالية متتابعة ، موسر من الطبع : ذو موهبة خصيبة غنية .

(٥) سهل بن هرون : من أشهر كتاب الدولة العباسية ، وكان الجاحظ يفضله ويصف براعته وفصاحته وروى عنه ؛ وقد ضاعت آثاره ولم يبق منها إلا بعض آثار رواها الجاحظ فى كتبه ، وأوسعها رسالة فى تفضيل البخل والاحتجاج له وقد رواها الجاحظ فى كتابه البخلاء ؛

وعمرو : هو عمرو بن بحر الجاحظ شيخ كتّاب العربية ، ومابقى من آثاره يغنى عن التنويه .

ـ (٦) بيضة عقر : آخر بيضة للدجاجة ، أو بيضة الديك ، يزعمون أنه يبيضها فى السنة مرة ، والمراد إن أنت لم تعجّل بالردّ على كتابى كانت هذه القصيدة آخر رسالة منى إليك .

فابقَ فى ذِمّةِ السّلامة ما أنجا ... بَ عن الأفقِ عارضٌ مُتَسَرِّى (١)
وعليكَ السّــلامُ ما غنّتِ الوُرْ ... قُ ومالتْ بها ذَوائبُ سِدْرِ (٢)

الذكرى الباقية (٣)

كتب الشاعر الأبيات الآتية على لسان المتضد بن عباد فى الشوق إلى صهره أبى الجيش الموفق مجاهد بن عبد الله العامرى أمير دانية (٤) :

عَرَفَتْ عَرْفَ الصَّبَا إذْ هَبَّ عاطِرُهْ ... مِنْ أُفْقِ مَنْ أنا فى قلبى أشاطِرُهْ (٥)

(١) عارض : سحاب ؛ متسر : ملقح الأرض بمطره مأخوذ من تسرّى الرجلُ الجارية : عاشرها .

(٢) الورق : الحمام ، سدر : شجر النبق .

(٣) لم ترد هذه القطوعة بالديوان ، وإنما وردت بذيله منسوبة إلى المتضد بن عباد ، وقد نسبها صاحب القلائد إلى الشاعر ، كما نسبتها الذخيرة فى موضع إلى الشاعر أيضا وفى موضع آخر إلى المتضد ، ونسبها صاحب المطرب إلى المتضد ، ونرجح أنها كانت ضمن رسالة كتبها الشاعر على لسان المتضد إلى صهره . ومن المناسب التى تولاها أخيرا الكتابة للمتضد فى هجرته الثانية إليه .

(٤) دانية : مدينة بشرق الأندلس على البحر الأبيض المتوسط ، وهى حاضرة إمارة أبى الجيش الموفق مجاهد العامرى ، وتحيط بها البساتين وبجود بها التين والكروم ، وبها مصانع لبناء السفن « ترسانة » وكان الأسطول الإسلامى يخرج منها لغزو شواطئ فرنسا وإيطاليا وجزر البحر الأبيض ؛ وكانت فرضة تجارية هامة فى أوقات السلام .

(٥) العَرف : الرائحة الذكية ، أو الرائحة مطلقا ؛ الصبا : ريح عليلة تهب من الشرق ، ودانية : تقع إلى الشرق من إشبيلية .

أَرَادَ تَجْدِيدَ ذِكْرَاهُ عَلَى شَحَطٍ ... وَمَا تَيَقَّنَ أَنَّ الدَّهْرَ ذَاكِرُهُ (١)

يَنْأَى الْمَزَارُ بِهِ ، وَالدَّارُ «دَانِيَةٌ» ... يَاحَبَّذَا الْفَأْلُ لَوْ صَحَّتْ زَوَاجِرُهُ !! (٢)

* * *

ذُخْرِى أَبَا الْجَيْشِ هَلْ يُقْضَى اللِّقَاءُ لَنَا ... فَيَشْتَفِي مِنْكَ طَرْفٌ أَنْتَ نَاظِرُهُ ؟ (٣)

قُصَارُهُ قَيْصَرٌ إِنْ قَامَ مُفْتَخِراً ... لِلَّهِ أَوَّلُهُ مَجْداً وَآخِرُهُ (٤)

---

(١) فى القلائد « أرى تجدد ذكراه » ؛ على شحط : على بعد .

(٢) المعنى: بعد عهدى بزيارته مع دنوّ داره، وأرجو أن يتحقق الفأل الحسن بوجوده فى دانية ، وفى « دانية » تورية بديعة نعنى علم للمدينة ، وتأتى بمعنى قريبة . وفى الذخيرة « نأى المزار .. » ، وفى الطرب « شط المزار » .

(٣) فى الذخيرة والطرب والقلائد « خلىّ أبا الجيش .. » وفى بعض نسخ الذخيرة « فيشتفى منك قلب أنت هاجره » .

(٤) لم يرد البيت بالذخيرة ، وورد بالديوان والقلائد .

الوصفُ

« أحبّ الشاعِرُ الطبيعةَ ممتزجة بذكريات هواه ، كما شُغِفَ بحبيبته بين مجالى الطبيعة الباسمة ؛ فامتزج الوصف عنده بالنسيب ؛ ولهذا أوردنا باقة يانعة من شعره الوصفى فى فن النسيب ؛ ونورد هنا باقة أخرى خالصة للوصف وحده ، وإن كانت وثيقة الصلة بفن الديع » .

تمثال رائع

أباح المتضد للشاعر النزهة مع بعض نسائه فى إحدى حدائقه، فوقع نظر الشاعر على حمّام رخامى مفعم بالماء الحار، وإلى جانبه تمثال مصقول لغادة هيفاء، فراعه النظر، فصاغ فيه هذه القصيدة : —

عَمَرَتْنِى لَكَ ٱلْأَيَادِى الْبِيضُ : نَشَبٌ وَافِرٌ، وَجَاهٌ عَرِيضُ(١)
كُلَّ يَوْمٍ يَجِدُّ مِنْكَ ٱعْتِبَالٌ : عَهْدُ شُكْرِى عَلَيْهِ غَضٌّ غَرِيضُ(٢)
بَوَّأَتْنِى نُعْمَاكَ جَنَّـةَ عَدْنٍ : جَالَ فِى وَصْفِهَا فَضَلَّ الْقَرِيضُ(٣)
مُجْتَنًى مُدْنٍ، وَظِلٌّ بَرُودٌ، : وَنَسِيمٌ يَشْفِى النُّفُوسَ مَرِيضُ(٤)
وَبَيَاضٌ قَدْ أَخْجَلَ الْوَرْدَ أَنْ عَا : رَضَ تَذْهِيبَهُ لَهَا تَفْضِيضُ
كُلَّمَا غَنَّتِ الْحَمَائِمُ قُلْنَا : «مَعْبَدٌ إِذْ شَدَا أَجَابَ الْغَرِيضُ»(٥)
جَاوَرَتْ حَمَّةً مُشَيَّدَةَ الْمَبْـنَى، لِبَرْقِ الرُّخَامِ فِيهِ وَمِيضُ(٦)

---

(١) الأيادى : الإنعام والإحسان · النشب · المال ·

(٢) اعتبال : اغتنام ، وفى الحديث « من اهتبل جوعة مؤمن كان له كَيْتَ وكَيْتَ » أى من تحيّنها واغتنمها كان له أجر عظيم ، والمعنى يتكرر إنعامك على كل يوم ، فيتجدد شكرى بتجدد النعم ·

(٣) المعنى : أدخلتنى جنة عدن فأردت شكرك فعجز القريض عن أن يفيك حقك من الثناء · وفى ت ، ز « فضل المريض » ·

(٤) مجتنى مدن : ثمر غض قريب التناول ، برود : رطب طيب ·

(٥) معبد والغريض : من أعلام الغناء فى الدولة الأموية كانا متعاصرين ومعظم إقامتهما بالحجاز ·

(٦) الحمة : العين الحارة الماء يستشفى بها المرضى ·

مَرْمَرٌ أَوْقَدَ الفِرِنْدَ عَلَيْـــهِ سَلْسَلٌ بَحْرُهُ الزُّلاَلُ يَفِيضُ(١)

وَسْطَهَا دُمْيَةٌ يَرُوقُ أَجْتِلاَءُ الْـــكُلِّ مِنْهَا وَيَفْتِنُ التَّبْعِيضُ(٢)

بَشَرٌ نَاصِعٌ، وَخَدٌّ أَسِـــيلٌ وَمُحَيًّا طَلْقٌ، وَطَرْفٌ غَضِيضُ(٣)

وَقَوَامٌ كَمَا أَسْتَقَامَ قَضِيبُ الْـــبَانِ إِذْ غَذَّهُ ثَرَاهُ الأَرِيضُ(٤)

وَابْتِسَامٌ لَوْ أَنَّهَا أَسْتَغْرَبَتْ فِيـــهِ أَرَاكَ اتِّسَاقَهُ الإِغْرِيضُ(٥)

وَالتِفَاتٌ كَأَنَّمَا هُوَ بِالإِيـــحَاءِ مِنْ فَرْطِ لُطْفِهِ تَعْرِيضُ(٦)

* * *

لُمَعٌ طَلَّةٌ مِنَ الْعَيْشِ مَا إِنْ لِلْهَوَى عَنْ مَحَلِّهَا تَقْوِيضُ(٧)

(١) الفرند: صفحة السيف أو وشيه أو جوهره، أو الورد الأحمر، أو حب الرمان؛ والمعنى: إن هذا الحوض مصنوع من المرمر المصقول ينصب عليه الماء الزلال فينعكس له بريق ولألاء مثل لمان الحسام.

(٢) وسط هذه البركة يقوم تمثال رائع فتان فى جملته وفى تفصيلاته.

(٣) بشرة ناصعة البياض وخد أملس ناعم ووجه طلق بسام وعين فاترة متكسرة.

(٤) وقوام معتدل اعتدال غصن أنبتته تربة طيبة زكته وسقته مرارا حتى استوى واستقام.

(٥) استغرب «بالبناء للمعلوم أو المجهول» بالغ فى الضحك، الإغريض: الطلع أو كل أبيض طرى، والمعنى: تفترّ عن ابتسامة لو بالغت فيها لتكشف ثغرها عن أسنان لؤلؤية متسقة بيضاء كالطلع.

(٦) لها لفتات رقيقة توحى إلى النفس بمعان لطيفة كأنها تعرّض بأمور لا تستطيع التصريح بها.

(٧) اللمع: جمع لمعة، وهى القليل من الطعام، أو بريق لون الجسد، تقويض: هدم وارتحال. والمعنى: لمحات ندية طيبة ظفرت بها تحت ظلاله مقرونة دائما بنفحات الهوى ولذات الهيام.

سَــوَّغَتْنِي نَعِيمَهَا نَفَحَاتٌ لِلْمُنَى - مِنْ سَحَابِهَا - تَرْوِيضُ(١)

ثَابِتَتْهَا يَدُ الهُمَامِ أَبِي عَمْــرٍو ، فَمَا غَمْرُهَا لَدَيَّ مَغِيضُ(٢)

مَلِكٌ ذَادَ عَنْ حِمَى الدِّينِ مِنْهُ مَنْ إِلَيْهِ فِي نَصْرِهِ التَّفْوِيضُ(٣)

وَسَمَا نَاظِرٌ مِنَ المَجْدِ فِي دُنْــيَاهُ قَدْ كَانَ كَفَّهُ التَّغْمِيضُ(٤)

إِنْ أَسَاءَ الزَّمَانُ أَحْسَنَ دَأْبًا مِثْلَمَا بَايَنَ النَّقِيضَ النَّقِيضُ(٥)

* * *

يَا مُعِزَّ الهُدَى الَّذِي مَا لِسَمْتٍ مُهُ إِلَى غَيْرِ سَمْتِهِ تَعْرِيضُ(٦)

يَا مُحِلِّي بِيَفَاعِ حَالٍ ، مَكَانُ النَّــجْمِ - مَهْمَا يُقَسْ إِلَيْهِ - حَضِيضُ(٧)

إِنْ أَنَلْ أَيْسَرَ الرَّغَائِبِ فِيــهِ يَرْضَ فَوْزَ القِدَاحِ مِنِّي مُفِيضُ(٨)

(١) ترويض : من روض الطرُّ الأرضَ جعلها كالروض ؛ والمعنى : نفحتني بهذه النعم يدُ الأمير ، فازدهرتْ آمالي وأينعتْ من فيض سحابها الماطر .

(٢) في ت (لديه) ؛ والمعنىَ : تابعتْ يدُ الأمير هذه النعم عليَّ ، وسيظل إنعامها متواصلا لانقص فيه .

(٣) المعنى : فوض الله إليه نصرة دينه فدافع عن حماه .

(٤) المعنى : استيقظ المجد على يديه ، وتفتح ناظره بعد أن اغتمض طويلا .

(٥) « : كلما أساء الزمان بادر بالإحسان ، كما يفعل المتناقضان .

(٦) السمت : الطريق أوالسير عليه أو الاتجاه إلى الشيء . التعريض : أخذ الشيء أو اجتنازه طربا ؛ والمعنى : يا ناصر الدين الذى قصر مسماه على الاتجاه إلى إعلاء شأنه .

(٧) اليفاع : ما ارتفع من الأرض ؛ والمعنى : يامن سموت بحالى إلى مكان رفيع ينحط النجم إلى الحضيض إذا قيس به .

(٨) أفاض القداح : ضرب بها ؛ والمعنى : إنك رفعتني إلى مكان إذا ظفرت بأمل متعة منه كانت غاية الرضى ، مثلما يسعد الحظُّ نادرَ قداح الميسر فيظفر منها بنصيب موفور .

لوْ بِقاعِ المَجَرَّةِ اعْتَضْتُ مِنْهُ   راحَ يَدْعُو ثُبُورَهُ المُتَمِيضُ[١]

حظُّ سِنِّ أمرىءٍ نَأَى منكَ قَرْعٌ   وقُصارَى بنانِهِ تَعْضِيضُ[٢]

* * *

حَسْبِيَ النُّصْحُ والوِدادُ وَشُكْرٌ   عَطَّرَ الدَّهْرَ مِنْهُ مِسْكٌ فَضِيضُ

دُمْ مُوَقًّى ، وَلِيُّكَ الدَّهْرُ ، تَجْبُو   رُ مَساعِيكَ ، وَالعَدُوُّ مَهِيضُ[٣]

فاعْتِرافُ المُلُوكِ أنَّكَ مَوْلاً   هُمْ حَدِيثٌ ما بَيْنَهُمْ مُسْتَفِيضُ

وصيفة وكأس

أنا ظَرْفٌ لِلَّهْوِ كُلِّ ظَرِيفِ   أنا مُسْتَوْدَعٌ لِعِلْقٍ شَرِيفِ[٤]

أنا كالصَّدْرِ فِي الإحاطَةِ بالرَّا   حِ، إذا الرَّاحُ كالضَّمِيرِ اللَّطِيفِ[٥]

سَلْ عَنِ الطَّيِّبَاتِ فَهْيَ فُنُونٌ   أَلِفَتْ فِيَّ أحْسَنَ التَّأْلِيفِ

أيُّ حُسْنٍ يَقِي بِحُسْنِيَ تَحْظُو   لا بِكَفَّيْ وَصِيفَةٍ أوْ وَصِيفِ؟[٦]

---

(١) لم يرد هذا البيتُ في نسخة ت ، والمعنى لو اعتضت من هذا المكان أعلى مكان في المجرة لكنتُ خاسرا ، فإن المكان الذى أحلني به لايدانيه مكان .

(٢) كل امرىء يبعد عنك سيقرع سنه ويعض بنانه على ما فاته منك من آمال .

(٣) جعل دعائية : دمت محفوظا ، والدهر ناصرك ، ومساعيك محققة ، وعدوك مكسور الجناح .

(٤) الحديث على لسان الكأس ؛ والمعنى : أنا وعاء جامع للهو الظرفاء ، ومستودع حاو لكل غال ثمين .

(٥) المعنى : أنا مثل الصدر ، والخمر فى داخلى كالروح الخفى الرقيق .

(٦) فى ز « يقى بحسنك »

لهو وشفاء[1]

أهدى الشاعر إلى صديقه الأمير أبي الوليد بن جهور هدية تفاح، وكتب معها هذه القصيدة التي زاوجت بين الأوصاف الحسية والمعنوية ، وأبرزت المؤثرات الجمالية في جميع الحواس الإنسانية :

أَتَتْكَ بِلَوْنِ الحبيبِ الخَجِلْ	تُخالِطُ لَوْنَ المُحِبِّ الوَجِلْ[2]
ثِمارٌ تَضَمَّنَ إِدْراكَها	هَواءٌ أَحاطَ بِها مُعْتَدِلْ[3]
تَأَنَّى لإِلْطافِ تَدْرِيجِها	فَمِنْ حَرِّ شَمْسٍ إِلَى بَرْدِ ظِلْ[4]
إِلَى أَنْ تَناهَتْ شِفاءَ العَلِيلِ	وَأُنْسَ المَشُوقِ وَلَهْوَ الغَزِلْ[5]
فَلَوْ تَجْمُدُ الرَّاحُ لَمْ تَعْدُها	وَإِنْ هِيَ ذابَتْ فَخَمْرٌ تَحِلْ[6]
لَهَا مَنْظَرٌ حَسَنٌ فِي العُيُونِ	كَذُبْيَاكَ لٰكِنَّهُ مُنْتَقِلْ[7]

---

(١) كان موضع هذه القصيدة جديراً بأن يكون مع طاقة « إهداء واستهداء » من باب الإخوانيات ، ولكن ما فيها من وصف رائع جعلها أجدر بهذا المكان

(٢) اجتمعت في هذا التفاح الحمرة بالصفرة ، فحمرتها مثل خد الحبيب إذا ضرجه الحياء ، وصفرتها مثل لون المحب إذا برح به الوجد واستبد به الخوف .

(٣) أنضج الهواء المعتدل هذه الثمار فجاءت غضة الجنى عذبة المذاق .

(٤) تأنى : ترفق وتهيأ ، والمعنى إن الهواء حنا عليها وتعهدها في درجات نموها بعناية ورفق ، فأمدها حينا بحرارة الشمس وحينا ببرد الظل .

(٥) مازال الجو الناسب يتعهدها بحنوه حتى نضجت واستوت ، فأصبحت شفاء المريض ، وبهجة المشتاق ، ولهوا للمحب الغزل .

(٦) إذا تجمدت الخمر فهي التفاح ، وإذا ذاب التفاح كان خمرا ، ولكنها حلال .

(٧) منظر هذا التفاح جميل يشبه منظر دنياك الرائعة ، ولكنه زائل وهي باقية

وَطَعْمٌ يَـــلَذُّ لِمَنْ ذَاقَهُ كَلَذَّةِ ذِكْرَاكَ لَوْ لَمْ يُمَلْ[١]
وَرَيًّا إِذَا نَفَحَتْ خِلْتَهَا تُمِلُّ ثَنَاءَكَ أَوْ تَشْتَمِلْ[٢]
يُمَثِّـــلُ مَلْمَسُهَا لِلأَكُفِّ لِينَ زَمَانِكَ أَوْ يَمْتَثِلْ[٣]
صَفَوْتُ فَأَدْلَلْتُ فِى عَرْضِهَا وَمَنْ يَصْفُ مِنْهُ الْهَوَى فَلْيُدِلْ[٤]
قَبُولُـكَهَا نِعْمَةٌ غَضَّـــةٌ وَفَضْلٌ - بِمَا قَبْلَهُ - مُتَّصِلْ
وَلَوْ كُنْتُ أَهْدَيْتُ نَفْسِي اخْتَصَرْ تُ ، عَلَى أَنَّهَا غَايَةُ الْمُحْتَفِلْ[٥]

نهر وزهر[٦]

كَأَنَّا - عَشِيَّ الْقَطْرِ فِى شَاطِئِ النَّهْرِ
وَقَدْ زَهَرَتْ فِيهِ الْأَزَاهِرُ كَالزُّهْرِ -[٧]

---

(١) هذا التفاح لذيذ المذاق يشبه ذا كراك العذبة الحلوة ؛ ولـكنّ حلاوته تملُّ بعد حين ، أما ذ كراك فعذوبتها مشتهاة على الدوام .

(٢) رائحته الشذية تهب فتحسبها قد اكتسبت طيبها من الثناء عليك، فهى تمليه أو ترتله .

(٣) امتثل أمره: احتذاه ؛ والمعنى: ملمسه الناعم المصقول يشبه زمنك الرقيق الندى أو يقلده ..

(٤) المعنى : لقد صفا لك ودى وعظم لك حبى فحملنى الإدلالُ عليك على أن أقدم هذه الهدية إليك، مع أن قدرك فوقها بكثير ، ولا عجب فالحب يتبعه الدلال

(٥) هذه الهدية متواضعة، بل إن حياتى أقل من أن تهدى إليك ، ولـكننى بذلتُ غاية الجهد وأقصى الاحتفال .

(٦) هذان البيتان لم يردا بالديوان وقد اثبتناها عن القلائد والمغرب .

(٧) زهرت: أخرجت زهرها أولمت وتلألأت ، الأزاهر: الأزهار (لم نجد=

نُرَشُّ بِماءِ الْوَرْدِ رَشًّا ، وَنَنْثَني لِتَغْليفِ أَفْواهٍ بِطَيِّبَةِ الْخَمْرِ[١]

ليلة حافلة[٢]

طوى الشاعر ليلة حافلة بالمسرات فى إحدى جنات إشبيلية وسجّل وصفها فى هذه الأبيات :

وَلَيْلٍ أَدَمْنا فيــــه شُرْبَ مُدامَةٍ
إِلَى أَنْ بَدا لِلصُّبْحِ ـ فى اللَّيْلِ ـ تَأْشِيرُ[٣]

وَجاءَتْ نُجُومُ الصُّبْحِ ـ تَضْرِبُ فى الدُّجَى ـ
فَوَلَّتْ نُجُومُ اللَّيْـلِ ، وَاللَّيْـلُ مَقْهُورُ[٤]

فَحُزْنا مِنَ اللَّذّاتِ أَطْيَبَ طِيبِها
وَلَمْ يَعْرُنا هَمٌّ ، وَلاعاقَ تَكْديرُ[٥]

خَلا أَنَّهُ لَوْ طالَ دامَتْ مَسَرَّتى ،
وَلٰكِنَّ لَيالِىَ الْوَصْلِ فِيهِنَّ تَقْصِيرُ[٦]

= فى كتب اللغة هذا الجمع وإنما وجدنا الزهرة جمعها زهر وأزهار وجمع الجمع أزاهير) الزُّهر جمع زهراء وهى المرأة المشرقة الوجه ، أو صفة للنجوم يقـال : «كأن زَهر النجوم زُهر النجوم» أى زهر النبات يشبه النجوم المضيئة ، والزَّهر بكسر الزاى : الوطر .

(١) معنى البيتين : نعمنا فى المجلس الندى على شاطىء النهر الذى أينعت أزهاره — كأننا فى هذا المجلس نستقبل رذاذ الندى المطر بمـاء الورد ، ونغلف أفواهنا بالخمر الطيبة .

(٢) لم ترد هذه المقطوعة بالديوان ، وإنما وردت بذيله منسوبة إلى المعتضد ، وقد صححنا نسبتها نقلا عن القلائد والمطرب ومسالك الأبصار .

(٣) التأشير : التحزز فى الأسنان وحدّة أطرافها .

(٤) فى مسالك الأبصار « جاءت بوادى ... مقمور » .

(٥) فى ز « ولم يعدنا » .

(٦) فى ز « دامت مسرة » .

الشكوى والعتاب

أسهم الشاعر فى تأسيس الدولة الجمهورية بقرطبة، ونال فيها أسنى المناصب ؛ ولكن الدسائس أفسدت ما بينه وبين رئيسها أبى الحزم بن جهور ، فسجنه ؛ وأصم أذنيه عن توسلاته ؛ ثم فر الشاعر من سجنه وظفر أخيرا بالعفو عنه .

ولم تسكت الدسائس عن الشاعر فى عهد الحاكم الجديد أبى الوليد بن جهور ، ولا فى عهد المعتضد بن عباد، ولا فى عهد ابنه المعتمد . على الرغم من صداقة الشاعر لهؤلاء الحكام وصلاته الوثيقة بهم .

وهكذا يكون العظماء دائما أهدافا للحقد والبغضاء .

وسنذكر أنات الشاعر مرتبة بحسب الترتيب الزمنى لهذه النفثات .

١ - فى عهد أبى الحزم بن جهور

ضراعة وتوسلات

أَمَا وَأَلْحَاظٍ مِرَاضٍ صِحَاحْ ... تُصْبِي، وَأَعْطَافٍ نَشَاوَى صَوَاحْ[1]

لِبَانَ بِالْحُسْنِ ، فى خَدِّهِ ... وَرْدٌ ، وَأَثْنَاءَ ثَنَايَاهُ رَاحْ[2]

لَمْ أَنْسَ إِذْ بَاتَتْ يَدِى لَيْلَةً ... وِشَاحَهُ اللَّاصِقَ دُونَ الْوِشَاحْ

أَلْمَمْتُ بِالْأَلْطَفِ مِنْــهُ ، وَلَمْ ... أَجْنَحْ إِلَى مَا فِيهِ بَعْضُ الْجُنَاحْ[3]

لَأُصْفِيَنَّ الْمُصْطَفَى « جَهْوَرًا » ... عَهْدًا الرَّوْضِ الْحُسْنِ عَنْهُ افْتِضَاحْ[4]

---

(١) فى بعض نسخ الذخيرة « تَسْبى » ؛ والشاعر يقسم بالعيون الفاترة المثيرة للصبوة ، والقدود المتمايلة كأنها سكرى ، وما هى بسكرى ، ولكنها مترنحة من الدلال .

(٢) بانَ : فائق فى الفضل والمزية مِن بان بيون أو ناء بعيد من بان يبين ، وفى بعض نسخ الذخيرة « لَفَاتِن » .

(٣) الجناح : الإثم ، والمعنى : تمتعت متعة يسيرة بحسنه الفتان ، وتعففت عن الآثام .

(٤) افتضاح : ظهور ، ومنه افتضح الصبح : ظهر ، وفى الذخيرة « المرتضى جهوراً » ؛ وفى أصول الديوان « لروض الحزن عنه انتضاح » والحزن : ما غلظ من الأرض ، وهو موضع لبنى يربوع فيه رياض وقيعان ؛ وقيل من تربع بالحزن ، وتشتى بالصمان . وتغيظ الشرف فقد أخصب ، وانتضاح : تفتح ، ومنه نضح الشجر : تفتح ليخرج ورقه ، وتفتح الزرع : ابتدأ الدقيق فى حبه ؛ وقد آثرنا رواية الذخيرة لسلاستها .

جَزَاءَ مَا رَفَّهَ شُرْبَ الْمُـــنَى ... وَأَذَّنَ السَّمْيُ بِوَشْكِ النَّجَاحْ[١]

يَسَّرْتُ آمَالِي بِتَأْمِيـــلِهِ ... فَمَا عَدَانِي مِنْهُ فَوْزُ الْقِدَاحْ[٢]

لَمْ أَشِمِ الْبَرْقَ جَهَامًا، وَلَمْ ... أَقْتَدِحِ الصُّمَّ بِبِيضِ الصِّفَاحْ[٣]

مَنْ مِثْلُهُ؟ لَا مِثْـلَ يُلْفَى لَهُ ... إِنْ فَسَدَتْ حَالٌ فَمَرُّ الصَّلَاحْ[٤]

يَا مُرْشِدِي جَهْـلًا إِلَى غَـــيْرِهِ ... أَغْنَى عَنِ الْمِصْبَاحِ ضَوْءُ الصَّبَاحْ

رَكِينُ مَا تُثْنَى عَلَيْـــهِ الْحُبَا ... يَهْفُو بِهِ نَحْوَ الثَّنَاءِ ارْتِيَاحْ[٥]

ذُو بَاطِنٍ أُقْبِسَ نُورَ التُّقَى ... وَظَاهِرٍ أُشْرِبَ مَاءَ السَّمَاحْ[٦]

أُنْظُرْ تَرَ الْبَـــدْرَ سَنًا، وَاخْتَبِرْ ... تَجِدْهُ كَالْمِسْكِ إِذَا مِيثَ فَاحْ[٧]

* * *

---

(١) رفّه الأبل: أوردها الماء متى شاءت.

(٢) يسّر: لعب بالقداح، والمعنى: خاطرت بتأميله ففزت بأحسن الحظوظ.

(٣) المعنى: لم أتطلع إلى البرق الخالى من المطر، ولا حاولتُ قرع الحجارة الصماء بالسيوف لاقتباس جذوة نار، لم أتمنى بهذا العيش لأملك حققت آمالي فيك، وفى الذخيرة وتمام المتون «أقتدح النار بزند شحاح».

(٤) المعنى: أين مثله في الناس؟ هيهات إيجاد نظير له فى وقت الشدائد والمحن.

(٥) المعنى: إنه إذا عقد حبوته فقلما تحركه الأحداث لرزانته ووقاره، ولكنه يهتز للشعر ويطرب للثناء.

(٦) المعنى: لقد امتلأ قلبه بالتقوى والصلاح، وأشعّ وجهه نورَ السماح.

(٧) ماث المسكَ: دعكه بأصابعه؛ والمعنى إذا نظرته بهرك ضوؤه وسناه، وإذا اختبرته تضوع شذاه.

إيه « أبا الحزم » اهتبل غرّة ألسنة الشكر عليها فصاح[1]

لا طار لي حظٌّ إلى غاية إن لم أكن منك مريش الجناح[2]

عُتباك — بعد العتب — أمنية مالي على الدهر سواها اقتراح[3]

لم يثنني عن أمل ما جرى قد يرقع الخرق وتؤسى الجراح

فاشحذ بحسن الرأي عزمي يرع — مني العدا — أليس شاكي السلاح[4]

واشفع فللشافع نُعمى بما سنّاه من عقد وثيق النواح[5]

---

(١) اهتبل : اغتنم ، غرّة : غفلة « والمقصود هنا فرصة » ومنه « النهزة تجلب الدرة » أى اغتنام الفرص يجلب الرزق ؛ والمعنى : اغتنم أيها الأمير فرصة تطلق لسانى عليك بأعذب الثناء .

(٢) فى تمام المتون « لا طار بى . . . ما لم أكن » ؛ والمعنى : إن لم أستمد منك القوة فلا كانت لى قوة ، وإن لم أظفر منك بأمنية فلا كانت الأمنيات .

(٣) العُتبى : الرضا ، يقال أعطاه العتبى أى أرضاه ؛ والمعنى : إذا تحقق رضاك عنى—بعد عتابى لك—فقد تحقق لى أمل عظيم هو أقصى ما أرجو من الدهر تحقيقه .

(٤) الأليس : الشجاع الذى لا يبالى هولا ، ولا يردعه شىء ، أو الأسد ؛ والمعنى : قوّ بحسن رأيك عزمى حتى يصبح مرهفاً بتاراً ، فيباغت العدوُّ منى بفارس جبار لا يخشى هولا ولا يرهب أمراً ، مستعد لأعدائه بأكمل عدة وأمضى سلاح ؛ وفى الذخيرة « يرع .·. منه العدا بكل شاكى السلاح » .

(٥) فى الذخيرة « بما .·. تمرّ . . . » أى بما تحكمه ، وفى تمام المتون « بما .·. بناه من عهد . . . » ، سنّى : يسرّ ، ومنه :

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا الله سنّى عقد أمر تيسرا

إنَّ سَحَابَ الْأُفْقِ مِنْهَا الْحَيَا وَالْحَمْدُ فِى تَأْلِيفِهَا لِلرِّيَاحْ[1]
وَقَاكَ مَا تَخْشَى مِنَ الدَّهْرِ مَنْ تَعِبْتَ فِى تَأْمِينِهِ وَاسْتَرَاحْ[2]

فى غيابة السجن

مَا جَالَ بَعْدَكَ لَحْظِى فِى سَنَا الْقَمَرِ إِلَّا ذَكَرْتُكَ ذِكْرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ[3]
وَلَا اسْتَطَلْتُ ذَمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسَفٍ إِلَّا عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقِصَرِ[4]

= والمعنى : أرجو منك الشفاعة ، فللشافع أكبر الفضل بما يدبره من وسائل الصفح والغفران . بقى أن تعرف عند مَن يشفع الأمير ؟ إن الذى يبدو لنا من دراسة تاريخ الشاعر أنه يطلب من الأمير أن يتوسط فى الصلح بينه وبين خصمه الذين لفقوا له تهمة اغتصاب عقار ، واستصدروا حكما من القاضى بسجنه «راجع المقدمة ص ٤٠ ، ٤١ » .

(١) فى الخريدة «سحاب الجو». الحيا : النبات أو الخصب أو المطر ؛ والمعنى: إذا تم الصلح بينى وبين خصمى وترتب على هـذا خلاصى من محنتى فإنك أنت صاحب الفضل الأول فى تفريج كربتى كما أن الرياح هى صاحبة الفضل فى تكوين السحاب المنتج للخصب والنماء .

(٢) المعنى : أسأل الله أن يجعلنى وقاية لك من كل سوء ، فقـد سعيت فى أمنى وكفلت لى سبل الراحة من كل عناء .

(٣) المعنى : ما تطلعت إلى وجه القمر إلا ذكرتك ، لأن فيـه ملامح من طلعتك الوضاءة ، فكل غائب عن العين تجلبه إلى الذاكرة آثاره .

(٤) الذماء : بقية الروح ، والمعنى : ما تمنيت أن تطول البقية اليسيرة من الليل إلا لأنها تذكرنى بليلة باسمة سعدت فيه بوصل الحبيب وإن كانت مرت مسرعة كلمح البصر ، وفى نسخة ت « دماء العين » وفى ذ « دماء الليل » وفى سرح العيون « ليلة مرت » .

[فِى نَشْوَةٍ مِنْ سِنَاتِ الْوَصْلِ مُوهِمَةٍ
أَلَّا مَسَافَةَ بَيْنَ الْوَهْنِ وَالسَّحَرِ](١)

نَاهِيكَ مِنْ سَهَرٍ بَرْحٍ تَأَلَّفَهُ
شَوْقٌ إِلَى مَا انْقَضَى مِنْ ذَلِكَ السَّمَرِ(٢)

فَلَيْتَ ذَاكَ السَّوَادَ الْجَوْنَ مُتَّصِلٌ
لَوِ اسْتَعَارَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ(٣)

* * *

أَمَّا الضَّنَى فَجَنَتْهُ لَحْظَةٌ عَنَنٌ
كَأَنَّهَا وَالرَّدَى جَاءَا عَلَى قَدَرِ(٤)

فَهِمْتُ مَعْنَى الْهَوَى مِنْ وَحْىِ طَرْفِكِ بِى
إِنَّ الْحِوَارَ لَمَفْهُومٌ مِنَ الْحَوَرِ(٥)

---

(١) هذا البيت زيادة من الذخيرة وتمام المتون وقلائد العقيان؛ الوهن: منتصف الليل؛ والمعنى: مرت ليلة الوصال قصيرة كأنها سِنَةٌ من النوم قضيناها فى نشوة أوهمتنا أن الليل فى منتصفه قد اتصل بالصباح فانعدمت بينهما المسافات.

(٢) ناهيك: حسبك؛ بَرْحٌ: شدة؛ والمعنى: حسبك بما لقيته من سهر مضن أثاره الشوق إلى ما انطوى من السمر اللذيذ فى ليلة الوصال.

(٣) فى الذخيرة والقلائد وتمام المتون وسرح العيون « ياليت ذاك السواد » قد استعار »؛ الجون: الأبيض أو الأسود وهو من الأضداد؛ والمعنى: تمنيت أن يدوم سواد ليلة الوصال ولو أمددتها بسواد قلبى وبصرى.

(٤) لحظة عَنَنٌ: نظرة عارضة؛ والمعنى: إن هذا الهوى المبرّح جنته علىّ نظرة عارضة. كأنها صحبت معها المنية فنزلا بى على قدر محتوم.

(٥) فى سرح العيون « جمتُ معنى الهوى »، وفى الذخيرة « وحى طرفك لى »، وفى تمام المتون وسرح العيون « فى لحظ طرفك لى »، والمعنى: أدركتُ سر الهوى من لحظات طرفك، فما بعينيك من الحور يغنى عن حوار الكلمات.

وَالصَّــدْرُ مُذْ وَرَدَتْ رِفْهاً نَوَاحِيَهُ
نُومُ القَــلَائِدِ لَمْ تَجْنَحْ إِلَى صَدَرِ (١)

حُسْنٌ أَفَانِينُ، لَمْ تَسْتَوْفِ أَعْيُنُنَا غَايَاتِهِ بِأَفَانِينَ مِنَ النَّظَرِ (٢)

وَاهاً لِثَغْرِكَ ثَغْراً بَاتَ يَكْلَؤُهُ غَيْرَانُ تَسْرِي عَوَالِيهِ إِلَى الثُّغَرِ (٣)

يَقْظَانُ لَمْ يَكْتَحِلْ غَمْضاً مُرَاقَبَةً
رَابِطِ الجَأْشِ مِقْدَامٍ عَلَى الغَرَرِ (٤)

---

(١) فى نسخ ب، ت، ز «لم تحتج إلى الصدر»، الرفه: أن ترد الإبل الماء متى شاءت؛ نوم القلائد: العقود المزدوجة، لم تجنح: لم تمل، الصَّدَر: الرجوع عن الماء بعد الرى؛ والمعنى: لقد تعلقت هذه القلائد بصدرك الجميل فلم تشأ مبارحته لأنها لن تجد أجمل منه موضعا ولا آمن موقعا.

(٢) المعنى: حسنك رائع متعدد الشاهد متجدد الفاتن، كلما تم نظراتنا إليه كشفت فيه ألوانا جديدة من الجمال لا يستطيع النظر ملاحقتها، وهو فى هذا ينظر إلى قول أبى نواس:

يزيدك وجهُــه حسنا إذا ما زدته نظــرا

(٣) يكلؤه: يحفظه ويرعاه؛ غيران: شديد الغيرة؛ العوالى: صدور الرماح؛ الثغر: جمع ثغرة وهى النقرة التى فى النحر؛ والمعنى: واها لثغرك العذب يحرسه محب شديد الغيرة يسرع إلى الفتك بمن يتطلع إليك، فما أروع الخطر حول جمالك الفتان.

(٤) الغَرَر: الخطر، الغِرَر: جمع غِرّة وهى الفرصة، والمعنى الأول أنسب للمقام؛ والمعنى: هذا الرقيب متيقظ حذر لا يغفل عن مراقبتك لأنه يعلم أن لك محبا رابط الجأش مولعا باقتحام الأخطار أو بانتهاز الفرص السانحة للوصول إليك.

لاَ لَهْوُ أَيَّامِهِ الخالي بِمُرْتَجَعٍ . وَلاَ نَعِيمُ لَيَالِيهِ بِمُنْتَظَرِ[1]

إِذْ لاَ التَّحِيَّةُ إِيمَاءٌ مُخَالَسَةً وَلاَ الزِّيَارَةُ إِلْمَامٌ عَلَى خَطَرِ[2]

مَتَى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ تَذَكُّرُهَا إِنَّ الغَرَامَ لَمُمْتَادٌ مَعَ الذِّكَرِ[3]

* * *

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدُهَا
مَحْضُ العِيَانِ الَّذِي يُغْنِي عَنِ الخَبَرِ[4]

لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِي كَبْرَةٌ ، وَأَرَى
بَرْقَ المَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعَرِ[5]

قَبْلَ الثَّلاَثِينَ ، إِذْ عَهْدُ الصِّبَا كَثَبٌ وَلِلشَّبِيبَةِ غُصْنٌ غَيْرُ مُهْتَصَرِ[6]

---

(١) المعنى : لقد أدركه اليأسُ من رجوع ماضيه الحافل بالمسرات ، وانقطع أمله من المستقبل المنشود .

(٢) كانت أيامنا حافلة بالسعادة والنعيم ، نتلاقى فى علانية دون رقيب أو غيور ، أما اليوم فتحياتنا مخالسة فى ريبة وعلى خوف ؛ وزيارتنا مخاطرة غير مأمونة العواقب .

(٣) المعنى : مضت هذه الآمال سراعا ، ولم تبق منها إلا ذكرياتٌ مثيرة تبعث فى النفس أعنف البث وأشجى الهيام .

(٤) فى الذخيرة « يُغنى » والمعنى : لا داعى لاستطلاع أنبائى ؛ فإن حالى الحاضرة بما تحمله من آلام وأشجان تغنى السائل عن السؤال وتطالعه بالأنباء .

(٥) المعنى : ما زلتُ شابا لم يلحقنى الكبر، وعلى الرغم من هذا فقد وخط الشيبُ عارضىَّ .

(٦) المعنى : لحقنى الشيب قبل سن الثلاثين، وأنا غض الشبيبة بض الإهاب قريب العهد بالشباب .

هَا إِنَّهَا لَوْعَةٌ فِى الصَّدْرِ قَادِحَةٌ   نَارَ الأَسَى، وَمَشِيبِى طَائِرُ الشَّرَرِ [١]

{ يَا لَلرَّزَايَا !! لَقَــدْ شَافَهَتْ مِنْهَلَهَا

- غَمْرًا ، فَمَا أَشْرَبُ الْمَكْرُوهَ بِالْغُمَرِ]‏[٢]

حَوَادِثُ اسْتَعْرَضَتْنِى، مَا نَذِرْتُ بِهَا   غِرَارَةً [ثُمَّ نَالَتْنِي عَلَى غِرَرِ]‏[٣]

* * *

لَا يَهْنِئُ الشَّامِتَ الْمُرْتَاحَ خَاطِرُهُ   أَنِّى مُعَنَّى الأَمَانِي ضَائِعُ الْخَطَرِ [٤]

هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الأَرْضِ عَاصِفَةٌ ؟

أَمِ الْكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ؟[٥]

---

(١) المعنى : اشتعلت نار الأسى فى صدرى فطار الشرر إلى رأسى فاشتعلت بالشيب .

(٢) البيت زيادة من الذخيرة وإعتاب الكتاب وتمام التون ، شافه : وافى – وقارب ، الغَمْرُ : الماء الكثير ، الغُمَر : القدح الصغير ؛ والمعنى لقد غمرتنى الرزايا وجرعتنى غصصها بالأقداح الكبار لا بالصغار .

(٣) ورد البيت ناقصا فى الديوان ، وقد أكملناه بما بين القوسين وأبناه مناسبا للمقام ؛ استعرض القائد القوم : تفاهم ولم يسأل عن حال أحد منهم ، ونذر بالشىء: علمه فحذره. الغِرر : جمع غِرّة وهى الغفلة ؛ والمعنى: دهمتنى الحادثات دون ارتقاب ، ونالتنى لخطمتنى وأنا فى غفلات الدهر آمن قرير .

(٤) فى إعتاب الكتاب « لا يهنأ »–وفى سرح العيون « المرتاح ناظره » ؛ والمعنى : على الشامت الهانى ألا يسعد إذا رآنى مبدد الآمال ضائع المكانة؛ فإنها أقدار تبدل الأوضاع والأحوال .

– (٥) النجم : مالا ساق له من النبات ؛ والمعنى : إن الحوادث لا تعصف إلا بالعظماء كما أن الرياح تتجاوز النبات اللاصق بالأرض وتحطم الأشجار الضخمة ، والكسوف يعترى الشمس والقمر ولا يعترى النجوم .

إنْ طَالَ فِي السِّجْنِ إيدَاعِي فَلَا عَجَبٌ
قَدْ يُودَعُ الجَفْنَ حَدُّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ[1]

وَإنْ يُثَبِّطْ - « أَبَا الحَزْمِ » الرِّضَى - قَدَرٌ
عَنْ كَشْفِ ضُرِّي فَلَا عَتْبٌ عَلَى القَدَرِ[2]

* * *

مَا لِلذُّنُوبِ - الَّتِي جَانِي كَبَائِرِهَا غَيْرِي - يُحَمِّلُنِي أَوْزَارَهَا وَزَرِي؟[3]

مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأَنِّيهِ عَلَى ثِقَةٍ وَلَمْ أَبِتْ مِنْ تَجَنِّيهِ عَلَى حَذَرِ[4]

[الكَاظِمُ الغَيْظَ يَنْسَابُ الضَّمِيرُ لَهُ لَوْلَا الأَنَاةُ سَقَاهُ مِنْ دَمٍ هَدَرِ][5]

---

(١) المعنى : إذا طال مكثى فى السجن فلا داعى للعجب فإننى كالحسام الصقيل يقر فى غمده حينا ، ثم لا يلبث أن يُسَلّ عند الشدائد والأهوال .

(٢) المعنى : إذا أخر القدر أبا الحزم بن جهور عن إنقاذى من محنتى فلست عاتبا على القدر ، فقد يشتد الخطب ثم يهون .

(٣) الأوزار : الأعباء الثقيلة ، الوَزَر : الظهير والمعين ؛ والمعنى : ما بال ناصرى ومعينى ينقلب علىّ ويحملنى أخطاء لم أجنها ، فيهمل الجناة ويبادرنى أنا بالعقاب ؟

(٤) تأنّى : رفق أو تثبت أو انتظر ، وتأنّى له : ترفق وأتاه من وجهه . فيجوز أن يكون : من تأنيه أو تأتيه ، وفى سرح العيون « من تدانيه » ، والمعنى على الرغم من أن الأمير حمّلنى أوزارا لم أجنها فإننى ما زلت واثقا من رفقه ، آمنا من عقابه .

(٥) هذا البيت زائد من الجريدة ، ومعناه : إن الأمير يكظم غضبه لأن له ضميرا يقظا يحميه من الظلم ، ولو انقاد الأمير لغضبه لأهدر الدماء وسلب الأرواح .

ذُو الشِّيمَةِ الرَّسْلِ إنْ ـ هيجتْ ـ حَفيظتُهُ ـ

وَالجَانِبِ السَّهْلِ وَالْمُسْتَعْتَبِ اليَسَرِ [١]

مَنْ فِيهِ لِلْمُجتلِي وَالْمُبتَلِي نَسَقَا جَمَالُ مَرْأًى عَلَيْهِ سَرْوُ مُخْتَبَرِ [٢]

مُذَلِّلٌ لِلْمَسَاعِي ، حُكْمُهَا شَطَطٌ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ النَّفْسِ وَالنَّفَرِ [٣]

وَزِيرُ سِـــلْمٍ كَفَاهُ يُمْنُ طَائِرِهِ شُومَ الحُرُوبِ وَرَأْيٌ مُحْصَدُ المِرَرِ [٤]

أَغْنَتْ قَرِيحَتُهُ مُغْنَى تَجَارِبِهِ وَنَابَتِ اللَّمْحَةُ الْمُجَلِّي عَنِ الفِكَرِ [٥]

كَمْ أَشْتَرَى ـ بِكَرَى عَيْنَيْهِ ـ مِنْ سَهَرٍ ،

هُدُوءَ عَيْنِ الهُدَى فى ذٰلِكَ السَّهَرِ [٦]

---

(١) الشيمة الرّسل : الخلق السمح ، الحفيظة : الغضب أو الحمية ، اليسر : اللين والانقياد ؛ والمعنى : إنه سمح الأخلاق لا ينقاد للغضب ، سهل الرضا سريع الصفح والنفران .

(٢) المجتلي : الناظر ، المبتلي : المختبر ، النسق : النظام ؛ والنسقان : كوكبان ؛ السرو : المروءة والسخاء ؛ والمعنى : يرى الناظر فيه جمال مظهر ويلمس المختبر فيه أكرم طبع وأشرف خلال .

(٣) المساعي : المآثر والمكرمات ، شطط : جائر مجاوز للحد ؛ والمعنى : إنه خاضع للمجد سهل الانقياد للمكارم ، مع أنه أبي النفس عزيز العشيرة .

(٤) محصد : محكم ، المرر : جمع مرة وهى القوة أو حدة الذكاء ؛ والمعنى : إنه وزير مسالم أغناه حظه السعيد ورأيه الحكيم الحازم عن خوض الحروب وما تجلبه من نحس وشؤم وتدمير .

(٥) المعنى : أغناه ذكاؤه الوقاد عن الاتعاظ بالتجارب ، وأغنته بديهته اللماحة عن إدمان الفكر وتقليب النظر فى الأمور .

(٦) فى تمام التنوين « عين الورى » ؛ والمعنى : كم كابد السهر ليريح أمته ، وكم أذبل اسهد عينيه لينام الهدى قرير العين مثلوج الفؤاد .

فى حَضْرَةٍ غَابَ صَرْفُ الدَّهْرِ - خَشْيَتَهُ -

غَنْهَا ، وَنَامَ القَطَا فِيهَا فَلَمْ يَثُرِ (١)

مُمَتَّعٍ بِالرَّبِيعِ الطَّلْقِ نَازِلُهَا يُلْهِيهِ عَنْ طِيبِ آصَالٍ نَدَى بُكَرِ (٢)

مَا إِنْ يَزَالُ يَبُثُّ النَّبْتَ فِى جَلَدٍ

- مُذْ سَاسَهَا - وَيُفِيضُ المَاءَ مِنْ حَجَرِ (٣)

* * *

أَحُرِمْتُ مِنْهُ ، وَحَظُّ النَّاسِ كُلِّهِمُ لَهَذِهِ العِبْرَةُ الكُبْرَى مِنَ العِبَرِ (٤)

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي وَالنَّجْمَ فِى قَرَنٍ فَفِيمَ أَصْبَحْتُ مُنْحَطًّا إِلَى العَفَرِ ؟ (٥)

---

(١) المعنى : سهر الأمير لينام قومه وتعب ليرتاحوا . فلم تحاول صروف الدهر أن تمسهم ، ونام القطا مطمئنا فى حمايته فلم يثر من مكامنه ؛ وفى نسخ ب ، ت ، ز والذخيرة « ولم يثر » .

(٢) المعنى : تمتع قومه بالرفاهية والنعيم تحت ظلاله ، فكأن أيامهم كلها ربيع دائم يسعدون فيها ما بين رقة الأصيل ونفحات البكور ، فينصرفون عن هذا إلى ذاك فى غبطة وسرور .

(٣) الجلد : الأرض الصلبة المستوية المتن ، ومنه قول النابغة الذبيانى .

إلا الأوارىَّ لأيا ما أبينها والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

أى عفت الديار وخفيت آثارها فلا تظهر معالمها إلا بعد جهد وعناء .

والمعنى : ما زال يجهد فى إسعاد قومه حتى أنبت الزرع فى الجلد وفجر الماء من الحجر .

(٤) البيت زيادة من الذخيرة ، ومعناه : ما بالى شقيت فى ظل الأمير على حين سعد به جميع الناس ؟ أليست هذه كبرى العجائب ؟

(٥) القرن : البعير المقرون بآخر ، أو حبل يجمع به البعيران ؛ العفر : وجه الأرض ، وفى الذخيرة « وكنت أحسبنى » ؛ والمعنى : كنت أحسبنى فى أوج العلا تحت رعايته ، فما بالى أصبحت ملتصقا بالتراب ؟

أحينَ رَفَّ عَلَى الآفاقِ مِنْ أدَبِي غِرَاسُهُ مِنْ جَنَاهُ يَانِعُ الثَّمَرِ؟[1]
وَسِيلةٌ سَبَبًا ـ إلاَّ تَكُنْ نَسَبًا ـ فَهُوَ الوِدَادُ صَفَا مِنْ غَيْرِ مَا كَدَرِ[2]

* * *

وَبَائِنٌ مِنْ ثَناءٍ حُسْنُهُ مَثَلٌ وَشْيُ المَحَاسِنِ مِنْهُ مُثْلِمُ الطُّرَرِ[3]
يُشْتَوْدَعُ الصُّحْفَ لاَ تَخْفَى نَوَافِحُهُ إلاَّ خَفَاءَ نَسِيمِ المِسْكِ فِي الصُّرَرِ[4]
مِنْ كُلِّ مُخْتَالَةٍ بِالْحِبْرِ رَافِلَةٍ —
فِيهِ اخْتِيَالَ الكَعَابِ الرُّودِ بِالحِبَرِ[5]

(١) فى تمام المتون « أحين رفت ... غرائس من جناها » ؛ والمعى : كيف أقامى الجحود والنكران بعد أن أينع أدبى وازدهر وأتى بأطيب الثمرات ؟

(٢) المعنى : إن لم تجمعنى بالأمير صلات النسب فقد جمعتنى به صلات الأدب وعلاقات الحب النقى الخالص من الشوائب والأكدار .

(٣) بائن : فائق فى الحسن والزينة ، مأخوذة من بانه يبونه : فاقه فى الفضل والمزية ، الوشى : الثوب الملون المنقوش ، الطرر : الأطراف أو النواصى أو عصائب الرءوس ؛ والمعنى : من وسائلى إليه ثناء فائق ممتاز تضرب بروعته الأمثال ، وترفل المحاسن منه فى برود موشاة الأطراف أو الذيول .

(٤) المعنى : يستقر ثنائى عليه فى بطون الصفحات فتنبعث نفحاته الذكية كما يتضوع شذا المسك من خلال الصرر ؛ ولعلها « نوافحه » جمع نافحة : وعاء المسك .

(٥) الحِبْر : البهاء والحسن أو الوشى أو المداد ؛ وفى الأصول « الخبر » ومعناه العلم بالشىء ، ولعل ما أثبتناه هو الصحيح ؛ الكعاب : الفتاة الناهد ؛ الرُّود : الشابة الحسنة ، الحِبَر : ثياب موشاة من برود اليمن ؛ والمعنى : أسطار فى مدح الأمير كل قصيدة تختال فى مدادها أو حسنها وبهائها كما تختال الناهد الحسناء فى غلائلها الموشاة .

تجنى لها الرَّوضةُ الفيْنَاء أضحكها مجَالُ دَمْع النَّدى فى أعْيُنِ الزَّهَرِ (١)

يا بهجةَ الدهر حيًّا ، وهو ـ إن فنيتْ حيَاتُهُ ـ زينةُ الآثارِ والسِّيَرِ (٢)

لى فى أعتبادِكَ بالتأميلِ سابقةٌ وهجرةٌ فى الهوى أولى من الهجَرِ (٣)

فقيم غضَّتْ همُومى من عُلا همَمى ؟ وحاصَ بى مَطْلبى عن وجهةِ الظفرِ ؟ (٤)

هلْ من سبيلٍ فماء العتبِ لى أسِنٌ إلى الذوبةِ من عُتباكَ والخَصَرِ (٥)

نذرتُ شكرَكَ لا أنسى الوفاء به إن أسفرتْ لى عنها أوجهُ البشرِ (٦)

* * *

---

(١) المعنى : ينصرف الناظر إليها قائماً بجمالها عن جمال الروضة المتفتحة التى يفتر حسنها ابتساما من قطرات الطل المتحدرة من عيون الزهر .

(٢) فى الذخيرة « يازهرة الدهر » ، والمعنى : أنت بهجة الدهر فى حياتك ، وحديث طيب وذكر عاطر بعد مماتك .

(٣) المعنى . لقد تحققت آمالى فيك أولا ، فأولى أن تتحقق ثانيا ، وقد هاجر قلبى إليك متعلقا بك ، وهجرة القلوب أحق بالرعاية من هجرة الجسوم . وفى الذخيرة « فى التأميل » .

(٤) حاص . مال وحاد ؛ والمعنى . ما الهموم العاتية أصابت همتى العالية ؟ وما الآمال الفسيحة أحرمتْ بى عن الظفر ؟

(٥) أسِن : آجن راكد ، العتبى : الرضا ، الخصر : البرد ؛ والمعنى : هل من سبيل إلى أن أتذوق رضاك العذب السلسل بعد أن تكدر صفو العتاب ؟

(٦) المعنى : لله على نذر أن أقوم بشكرك والثناء عليك إذا جاءنى البشير بصفحك عنى وإقبالك على .

لاَ تَلُمْ عَنِّي ، فَلَمْ أَسْأَلْكَ مُمْتَنِعًا ... رَدَّ الصِّبَا بَعْدَ إِيفَاءٍ عَلَى الْكِبَرِ (١)

وَاسْتَوْفِرِ الحَظَّ مِنْ نُصْحٍ وَصَافِيَةٍ ... كِلاَهُمَا العِلْقُ لَمْ يُوهَبْ وَلَمْ يُعَرِ (٢)

هَبْنِي جَهِلْتُ فَكَانَ العِلْقُ سَيِّئَةً ... لاَ عُذْرَ مِنْهَا سِوَى أَنِّي مِنَ الْبَشَرِ (٣)

إِنَّ السِّيَادَةَ بِالإِغْضَاءِ لاَبِسَةٌ ... بَهَاءَهَا ، وَبَهَاءُ الْحُسْنِ فِي الْخَفَرِ (٤)

قَدْ الشَّنَاعَةُ ، لاَ تُثْنَى أَعِنَّتُهَا ... دُونَ الْقَبُولِ بِمَقْبُولٍ مِنَ الْعُذُرِ (٥)

---

(١) فى تمام المتون « ممتنا » رد الصبا بعد إشفاء » وفى الذخيرة والخريدة وإعتاب الكتاب «بعد إيفاء» ؛ والمعنى : لاتتشاغل عنى فإننى لا أطلب مستحيلا أو شيء مستحيل مثل رد الشباب بعد الإشراف على الهرم .

(٢) الصافية : الخالصة أو الميل ؛ العلق : النفيس ؛ والمعنى : بادر بالصفح والمغفرة لتستكثر من نصحى لك وميلى إليك ، فالنصح الخالص والود المتين كلاهما ثمين لا يوهب ولا يعار .

(٣) فى الخريدة « وكان الجهـل سيئة » ومعناها ظاهر ؛ العلق : الميل والحب ، ومنه علقه وعلق به ؛ والعلق أيضاً : الشتم ، ومنه علقه بلسانه ؛ والمعنى : هبنى أخطأت فإن عذرى فى جهالتى أننى من البشر ، أو إن عذرى عن هيامى وحبى « ولعل فى هذا إشارة لاستهتاره بحب ولادة » أننى بشر مرهف الإحساس ، أو إن عذرى فى إزلاق لسانى بالذم « ولعل فى هذا إشارة إلى ماينسب إليه من هجاء ابن جهور » أننى بشر عرضة للأخطاء .

(٤) فى الخريدة « وبهاء الخود » ؛ الخود . الشابة الناعمة ، الخفر الحيـاء ؛ والمعنى : إن السيادة تزدان بالصفح والغفران ، كما يزدان الحسن بالحياء .

(٥) العـذُر والعُـذْر بمعنى ؛ والمعنى : لك أيهـا الأمير الشنـاعة المطلقة التى لايقف فى سبيلها أى سبب من الأعذار .

[فَاشْفَعْ أَكُنْ مِثْلَ مَمْطُورٍ بِبَــلْدَتِهِ
جَذْلَانَ بِالْوَطَنِ الْمَأْلُوفِ وَالْوَطَرِ](١)

وَالْبَسْ مِنَ النِّعْمَةِ الْخَضْرَاءِ أَيْكَتَهَا
ظِلًّا حَرَامًا عَلَى [الْإِرْمَاضِ وَالْخَدَرِ](٢)

نَعِيمَ جَنَّــةِ دُنْيَا ، إِنْ هِيَ انْصَرَمَتْ
نَعِمْتَ بِالْخُــلْدِ فِى الْجَنَّاتِ وَالنَّهَرِ(٣)

مرارة الاعتقال

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِى الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِى ؟
وَيَطْلُبَ ثَأْرِى الْبَرْقُ مُنْصَلِتَ النَّصْلِ ؟(٤)

---

(١) البيت زيادة فى الذخيرة وتمام المتون ؛ والمعنى . شفاعتك ستجلب علىّ الأمان . فأكون مثل من يأتيه الخصب والنماء فى وطنه دون اغتراب ، فيسعد بالإقامة فى وطنه والثروة السابغة فيه . ولعله ينظر فى هذا إلى قول ابن الرومى :

أيعرب عنك الرأى فى أن تبيني مقيما مصونا من عناء المطالب ؟
وأحسن عرفا موقما ما تناله يدى ، وغرابى بالنوى غير ناعب

(٢) ورد عجز البيت ناقصا ومحرفا فى أصول الديوان هكذا [ظلا حراما على الارمات ...] وقد أكملناه بما يناسب المعنى ؛ الإرماض . اشتداد الحر ومنه أرمض الحر الخشب : أحرقه ، والخدر : اشتداد البرد ، أو البرد مع المطر ؛ والمعنى : تمتع بظلال النعيم آمنا من لفحات الحر ولذعات البرد .

(٣) المعنى : أتمنى لك النعيم فى الدنيا حتى إذا رحلت عنها نعمت بجنة الخلد

(٤) فى أصول الديوان « يبكى الحمام على قتلى » وقد آثرنا رواية الذخيرة =

وَهَلَّا أَقَامَتْ أَنْجُمُ اللَّيْـــلِ مَأْتَمًا

لِتَنْدُبَ فِى الآفَاقِ مَا ضَاعَ مِنْ تَبْلِي[١]

وَلَوْ أَنْصَفَتْنِى - وَهْىَ أَشْكَالُ هِمَّتِى -

لأَلْقَتْ بِأَيْدِى الذُّلِّ لَمَّا رَأَتْ ذُلِّى[٢]

وَلَافْتَرَقَتْ سَبْعُ الثُّرَيَّا وَغَاضَهَا . بِمَطْلَعِهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَمْلِى[٣]

* * *

=وتمام المتون والواقى لأن البكاء يناسب النمام والبرق بوائمه ؛ والمعنى : لقد حان للنمام أن يندبنى ، وللبرق أن يسل سيفه مطالبا بثأرى ، والشاعر يهيب بالطبيعة — ناطقة وصامتة ، حية وجامدة — أن تشاركه فى نكبته وتهتم بمصيره .

(١) التبل : ضرب من الطيب ، وفى الفعل « ضاع » تورية لطيفة ، فإنه يأتى بمعنى هلك ، أو فاح عبيره ؛ والمعنى : هلا أقامت النجوم مأتما تندب فيه ذكرى الحسن وآثارى الطيبة التى بددتها الأحداث ؟ وفى نسختى ا ، ت والذخيرة وتمام المتون « ضاع من نبلى » ونوهن هذه الرواية أن كلمة « النبل » وردت فى القافية بعد هذا بيتين ؛ ولا يمكن لشاعرنا أن يقع فى هـذا العيب الذى يسميه العروضيون الإيطاء ، وهو إعادة اللفظة بنطقها ومعناها فى القافية قبل مرور سبعة أبيات على الأقل ؛ وفى نسختى ب ، ز « ضاع من تبلى » والتبل : المداوة أوالثأر أو الأسقام ، ولا تتسق مع المعنى فى هذا المقام .

(٢) المعنى : لو أنصفتنى النجوم — وهى عالية مثل همتى — لهوت ذليلة حينما أبصرت ذلى وهوانى . وفى الذخيرة « فلو أنصفتنى »

(٣) غاض : نقص وقل ؛ والمعنى : لو أنصفتنى نجوم الثريا السبع لتفرقت بعد ائتلافها ، ونقصت بعد تمامها ، حزنا على ما فرقه الدهر من شملى ؛ وفى بعض نسخ الذخيرة « وغاظها * بمجمعها » .

لَعَمْرُ اللَّيَالِي إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا
لَقَدْ قَرْطَسَتْ بِالنَّبْلِ فِي مَوْضِعِ النُّبْلِ[(١)]

تَمَلَّتْ بِآدَابِي ، وَإِنْ مَآرِبِي
لَسَانِحَةٌ فِي عَرْضِ أُمْنِيَّةٍ عُطْلِ[(٢)]

أَخَصُّ لِفَهْمِي بِالْقِلَى ، وَكَأَنَّمَا
يَبِيتُ لِذِي الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى ذَحْلِ[(٣)]

وَأَجْفَى عَلَى نَظْمِي لِكُلِّ قِلَادَةٍ
مُفَصَّلَةِ السِّمْطَيْنِ بِالْمَنْطِقِ الْفَصْلِ[(٤)]

وَلَوْ أَنَّنِي أَسْطِيعُ كَيْ أُرْضِيَ الْعِدَا
شَرَيْتُ بِبَعْضِ الْحِلْمِ حَظًّا مِنَ الْجَهْلِ[(٥)]

* * *

(١) النَّبل : السهام، النُّبل : الفضل والمروءة ؛ النزع : جذب وتر القوس للرمى ؛ قرطست : أصابت ؛ والمعنى : لقد بالغت الحادثات فى رميى فأصابت مقتل النبل منى بسهامها .

(٢) فى إعتاب الكتاب «تجات بآدابى» ؛ والمعنى : لقد تزينت الليالى بآدابى ولكنها حاربت مواهبى ؛ فكلما اتسعت مطامحى صادفت آمالا مخيبة للرجاء قاتلة للذكاء .

(٣) القلى : الكره ؛ الذحل : الثأر ؛ وفى إعتاب الكتاب « على دخل » والدَّخل : العيب أو الريبة ، والمعنى : لقد كان ذكائى حربا علىّ ، فإن الدهر مولع بحرب الأكفاء ، كأن بينه وبينهم ثارا مبيّتا .

(٤) السِّمط : الخيط ما دام فيه الخرز ، وإلا فهو السلك ؛ والمعنى ما زالت البغضاء تلاحقنى حقدا على لإبداعى فى نظم قلائد الشعر المنسّقة بالآراء الحكيمة التى تحسم معضل المشكلات .

(٥) المعنى : أبغضنى الأعداء ، وحقدوا علىّ لنزارة علمى ، ولو استطعت أن أتنازل عن قسط من علمى وأشترى به جهلا — لأبدّد بذلك غيظهم وأنال رضاءهم — لفعلت .

أَمَقْتُولَةَ الأَجْفَانِ مَالَكِ وَالِهًا ؟ أَلَمْ تَرَكِ الأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي[١]

أَقِلِّي بُكَاءً ، لَسْتِ أَوَّلَ حُـــرَّةٍ
طَوَتْ بِالأَسَى كَشْحًا عَلَى مَضَضِ الثُّـكْلِ[٢]

وَفِي « أُمِّ مُوسَى » عِبْرَةٌ إِذْ رَمَتْ بِهِ
إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ ، فَاعْتَبِرِي وَأْتَلِي[٣]

لَعَلَّ الْمَلِيكَ الْمُجْمِلَ الصُّنْعِ قَادِرًا لَهُ بَعْدَ يَأْسٍ سَوْفَ يُجْمِلُ مُنْعَلِي[٤]

وَلِلَّهِ فِينَا عِـــلْمُ غَيْبٍ ، وَحَسْبُنَا
بِهِ ـ عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ ـ مِنْ حَكَمٍ عَدْلِ[٥]

* * *

---

(١) مقتولة الأجفان : واهية الجفون كأنها قد نضبت فيها الحياة لغزارة ما ذرفته من الدموع ، الوله : ذهاب العقل أو الحيرة من شدة الوجد .

والشاعر هنا يناجي أمه داعيا إياها إلى الصبر ، مناشدا لها أن تتأسّى بما أصاب غـــيره من أرزاء .

(٢) الكشح : الجانب ما بين الخاصرة إلى الضلع ؛ وطوى كشحه على الأمر : أضمره وستره ؛ المضض : الوجع ؛ الثكل : فقد الولد ؛ والمعنى : قلِّلي يا أماه من بكائك ، فلست أول أم ضمّت جوانحها على آلام الثكل .

(٣) آثرنا رواية الذخيرة والوافى وتمام المتون ، وفى الأصول « أن رمت » ؛ والمعنى : لك أسوة بأم النبي موسى عليه السلام حينما قذفت به في اليم امتثالا لأمر الله جل شأنه .

(٤) المعنى : إننى لآمل فى أن الملك الصفوح الحليم القادر للصنيعة سيشملنى بعطفه ويسدى إلىّ أياديه .

(٥) المعنى : لله تعالى حكمة فيما يقضيه من أحداث قد يتكشف غيبها عن خير عميم ، وحسبنا عدالته وإنصافه إذا عضنا الدهر بنابه وجار علينا فى أحكامه .

[وَإِنَّ رَجَائِى فِى الْهُمَامِ ابْنِ جَهْوَرٍ
لَمُسْتَحْكِمُ الْأَسْبَابِ مُسْتَحْصِدُ الْحَبْلِ](١)

هُمَامٌ عَرِيقٌ فِى الْكِرَامِ ، وَقَلَّمَا
تَرَى الْفَرْعَ إِلَّا مُسْتَمِدًّا مِنَ الْأَصْلِ(٢)

نَهُوضٌ بِأَعْبَــاءِ الْمُرُوءَةِ وَالتُّقَى   سَحُوبٌ لِأَذْيَالِ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ(٣)

إِذَا أَشْكَلَ الْخَطْبُ الْمُلِمُّ فَإِنَّهُ   وَآرَاءَهُ كَالْخَطِّ يُوضَحُ بِالشَّكْلِ(٤)

* * *

وَذُو تُدْرَإٍ ، لِلْعَزْمِ تَحْتَ أَنَاتِهِ
كُمُونُ الرَّدَى فِى فَتْرَةِ الْأَعْيُنِ النُّجْلِ(٥)

---

(١) البيت زيادة فى الذخيرة ، وفى بعض نسخها « مستحصد الفتل » ؛ الأسباب : الحبال أو الوسائل الموصلة إلى غاية ، استحصدَ الحبل : فُتِل فتلا محكما ؛ والمعنى : إن آمالى فى الأمير قوية الوسائل متينة الصلات .

(٢) المعنى : ينحدر الأمير من أصل كريم ، والفرع قلما يشذ عن الأصل ، ومن المعروف أن ابن جهور ينحدر من سلالة وزراء وشعراء كبار، وإن كان أصله غير عربى « من الموالى » .

(٣) المعنى : يبادر الأمير بالأعمال النبيلة متصفا بالتقوى والصلاح ، ويحتل مكانة سامية يجرر فيها ذيول السيادة والمروءة .

(٤) المعنى : إذا أبهمت الأمور واستعصى كشفها فإن آراءه تبدِّدُ غموضها ؛ وتوضح مشكلاتها ، كما تتضح معانى الكتابة بوضع الشكل على الحروف .

(٥) التُّدْرَأُ والتُّدْرَأَة : العزة والمنعة ؛ والمعنى : الأمير ذو همة عالية وعظمة سامية ، يكمن العزم والحزم تحت هدوئه واتزانه كما يكمن التأثير النافذ فى انكسار العيون الساحرة .

نَ عَلَى التَّأْبِيــــلِ لَأْلَاءَ بِشْرِهِ

كَمَا رَفَّ لَأْلَاءُ الْحُسَامِ عَلَى الصَّقْلِ[1]

مَحَاسِنُ مَا لِلْحُسْنِ فِي الْبَدْرِ عِلَّةٌ سِوَى أَنَّهَا بَانَتْ تُزِلُّ فَيَسْتَمْلِي[2]

تُنِصُّ تَنَائِي مِثْلَمَا غَصَّ جَاهِدًا سِوَارُ الْفَتَاةِ الرُّوْدِ بِالْمِعْصَمِ الْخَدْلِ[3]

وَتُغْنِي عَنِ الْمَدْحِ - اكْتِفَاءً بِسَرْوِهَا -

غِنَى الْمُقْلَةِ الْكَحْلَاءِ عَنْ زِينَةِ الْكُحْلِ[4]

* * *

« أَبَا الْحَزْمِ » إِنِّي - فِي عِتَابِكَ - مَائِلٌ

عَلَى جَانِبٍ - تَأْوِي إِلَيْهِ الْعُلَا - سَهْلِ[5]

---

(١) رفّ : يلمع ويتلألأ ؛ والمعنى : إذا قصد العفاة الأمير ارتاحت نفسه وتلألأت قسماتُ وجهه كما يلمع السيف القاطع عند صقله .

(٢) أملّ الكتابَ : أملاه ؛ والمعنى : إن محاسن الأمير تُمِدّ البدر بالحسن والبهاء ، ولا عيب في البدر إلا أنه يقتبس جماله من بهاء الأمير .

(٣) الرؤد : الشابة الحسناء ؛ الخدْل : الممتلئ ؛ والمعنى : يضيق تنائي عن استيعاب محامده كما يضيق السوار بالمعصم الممتلئ من الغادة الحسناء .

(٤) السرو : السخاء والمروءة ؛ والمعنى : مآثر الأمير ليست بحاجة إلى الثناء ، فإن محامده في غنى عن مدائح الشعراء ، بما تحمله من مروءة وسخاء ، كما تستغنى المقلة الكحلاء بزينتها الطبيعية عن زينة الكحل ؛ وفي الذخيرة « ويغني عن المدح اكتفاء بسروه » .

(٥) في القلائد « إلى جانب ... » ؛ وفي إعتاب الكتاب « على جانب .. مثل » ؛ والمعنى : أيها الأمير إنني في عتابك معتمد على حظ منك سهل الخليقة سمح الجانب .

حمائمُ شكوَى صبّحتْكَ هَوَادِلاً ... تُنَادِيكَ مِنْ أفنَانِ آدابِيَ الهُدْلِ (١)

جَوادٌ إذا استنّ الجيادُ إلى مَدًى ... تمطّرَ فاستولَى عَلَى أمَدِ الخصْلِ (٢)

ثوى صافِناً فِي مَرْبطِ الهُونِ يشتَكي ... بتَحْمَالِهِ ما نالَهُ مِنْ أذَى الشّكْلِ (٣)

* * *

أفِي العَدْلِ أنْ وَافَتْكَ تترَى رسَائِلِي ... فلَمْ تترُكْ وَضْعاً لها فِي يَدَيْ عَدْلِ؟ (٤)

أُعيذُكَ لِلْجُلَّى ، وَآمُلُ أنْ أرى ... بِنُعْمَاكَ مَوْسُوماً، وَمَا أنَا بِالْغُفْلِ (٥)

---

(١) فى القلائد « .. من أفنانها دانى الهدل » ، وفى إعتاب الكتاب « أفنان آدابى المزل » ؛ المديل : صوت الحمام ؛ الأفنان الهدل : الأغصان المتدلية ، والمعنى لقد ضجّ شعرى بالشكوى إليك نادبا كما تندب الحمام ، هاتفاً بك من أيكة آدابى متطلعا إلى ما أحرزته من مروءة وسماح .

(٢) استنت الجياد : أمعنت فى الجرى فى حلبة السباق ؛ المدى : الغاية ؛ تمطّر : أسرع ؛ الخصل : بلوغ الهدف ؛ المعنى : إننى سباق إلى الغايات أبذ غيرى من الشعراء ، وأحوز قبلهم قصب الرهان .

(٣) الصافن : القائم على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر ؛ الهُون : الذل ؛ شكلُ الدابة : شدّ قوائمها بالحبل ؛ والمعنى : إننى مثل الجواد المربوط فى مكان ضنك وقد شدّت قوائمه بالأغلال فشكا بصهيله ما أصابته به القيود والأغلال ، وفى مثل هذا يقول عنترة :

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمى

(٤) المعنى : أفى شريعة العدل أن أفزع إليك متوسلا بالرسائل المتوالية فتصم أذنيك عن سماعها ، وتضعها فى يد عدالة ؟ ولعله يقصد بهذا ابن السكوى الذى حاكمه فظلمه وزج به فى السجن .

(٥) الجُلّى : الأمر العظيم ؛ موسوما : مُعلَما أى مميزا ؛ الغفل : الذى لا علامة أو ميزة فيه ؛ والمعنى : إننى أدخرك للأمور الجليلة آملا أن أتميز عن الجميع بآثار نعمتك علىّ ، وإن كنتُ ممتازا بمواهبى وآثارى .

وما زالَ وَعْدُ النَّفْسِ لي منكَ بالمُنَى   كأنّي بهِ قد شِمْتُ بارِقةَ الخُلْبِ[1]

* * *

أَئِنْ زَعَمَ الواشونَ ما ليسَ مَزْعَمًا   تُقَصِّرُ في نَصْري وتَعْذِرُ في خَذْلي؟[2]

وأَصْدَى إلى إسعافِكَ السائغِ الجَنَى؟   وأَضْحَى لدى إنصافِكَ السابغِ الظِّلِّ؟[3]

[وَعَيْرُكَ] رامَ العُذْرُ إبلاغَ سَمْعِهِ   فَصَمَّ [وأَصْغَى لِلْوَقِيعَةِ والعَذْلِ][4] —

---

(١) المنى : لا أزال متعلقاً بآمالى فيك ، على الرغم من إعراضك عنى ، كأنى متعلق بالسراب الخادع والسحاب الكاذب .

(٢) فى نسختى ب ، ز (وإن زعم الواشون) وفى ت (لأن) وفى ا (أن زعم) وفى الذخيرة ومسالك الأبصار « أأنْ زعم » ؛ زعم : قال حقاً أو قال باطلا ضد ، وأكثر ما يقال فيما يشك فيه أو يعتقد أنه كذب ؛ وقد ورد فى كل موضع من القرآن ذمّاً ؛ المزعم : الزعم أو الطمع ، ومنه زعم فلان فى غير مطمع ؛ عذّر فى الأمر : قصر فيه ؛ أعذر : التمس عذرا ؛ والمعنى ؛ مابالك أيها الأمير تصغى لأكاذيب الوشاة الواضحة البطلان فتقصر فى شد أزرى ؟ وما لك تلتمس الأعذار فى التخلى عنى ؟

(٣) أصدى : أظمأ ؛ السائغ : السهل الحلو ؛ الجنى : الثمار ؛ أضحى : من الفعل ضحا يضحى إذا برز للشمس ؛ السابغ : الواسع الممتد ؛ والمعنى : كيف أظمأ وعندك أعذب الرى؟ وكيف تلفحنى الشمس وعندك أسبغ الظل؟

(٤) ورد البيت فى الأصول محرفا وناقصا هكذا :

وحاشاك رام العـذر إبلاغ سمعه   فصم . . . .

وقد أكملنا . بما يناسب المقام ؛ والمعنى إن غيرك هو الذى يصم أذنيه عن الأعذار ويستمع للوشاة والحساد ؛ وأما مثلك فى منزلتك ومروءتك فهو فوق هذا بكثير .

- وَلَوْ أَنَّنِي وَاقَعْتُ عَمْـداً خَطِيئَةً
لَمَا كَانَ بِدْعاً مِنْ سَجَايَاكَ أَنْ تُمْلِي⁽¹⁾

فَلَمْ أَسْتَثِرْ حَرْبَ « الفِجَارِ » وَلَمْ أُطِعْ
« مُسَيْلِمَةً » إِذْ قَالَ : إِنِّي مِنَ الرُّسْلِ⁽²⁾

وَمِثْلِيَ قَدْ تَهْفُو بِهِ نَشْوَةُ الصِّبَا وَمِثْلُكَ مَنْ يَعْفُو، وَمَالَكَ مِنْ مِثْلِ⁽³⁾

وَإِنِّي لَتَنْهَانِي نُهَايَ عَنِ الَّتِي أَشَادَ بِهَا الوَاشِي، وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي⁽⁴⁾

* * *

(١) أملى : أطال ؛ وأملى الله له : أمهله وطوّل له ، وأملاه عمره : متعه به ؛ والمعنى : لو كنت مخطئا حقا لما كان غريبا من سجاياك الجيدة أن ترجئ عقوبتى أولا عتمنى بعفوك .

(٢) حرب الفجار : حرب فجر فيها العرب لأنهم قاتلوا فيها فى الأشهر الحُرُم وقد حدث هذا أربع مرات فى الجاهلية آخرها حرب الفجار بين قريش وكنانة من جانب وقيس عيلان من جانب آخر ، وشهدها النبى صلوات الله عليه فى مستهل شبابه قبل البعثة ؛ مسيلمة : زعيم بنى حنيفة ادّعى النبوة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وزعم أنه شريك له فى الولاية على الأمة ، وقد استفحل شره فى بدء خلافة أبى بكر حتى قضى عليه بعد معركة دامية قادها خالد بن الوليد ؛ والمعنى مهما كان لى من ذنب فإنه موضع العفو لأننى لم أثر حرب الفجار ، ولم أتابع مسيلمة الكذاب فى دعواه ؛ وفى الذخيرة وإعتاب الكتاب «ولم أستثر» .

(٣) فى نسخة ا (ومثلك قد يعفو) والمعنى : إذا دفعتنى نزوة الصبا إلى الهفوات فإن مثلك جدير بالعفو والغفران ، وإن كنت فى السمو والمروءة فوق المثيل والنظير .

(٤) فى الذخيرة (أشار بها) ، وفى إعتاب الكتاب (الذى.. أشاد به) النهى : العقل ؛ يعقلنى : يمسكنى ؛ والمعنى : إن عقلى ليمنعنى من الاندفاع إلى الأخطاء التى اخترعها على الوشاة .

أأنكثُ فيكَ المَدْحَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ   وَلاَ أَقْتَدِى إلا بِنَاقِضَةِ الْغَزْلِ ؟(١)

ذَمِمْتُ إذًا عَهْدَ الحَيَاةِ ، وَلاَ يَزَلْ   مُمِرًا عَلَى الأيَّامِ طَعْمُهَا الحُلْوِ(٢)

وَمَا كُنْتُ بِالْمُهْدِى إلَى السُّوددِ الخَنَا

وَلاَ بِالْمُسِيءِ القَوْلَ فِى الحَسَنِ الفِعْلِ(٣)

وَمَا لِىَ لاَ أُثْنِى بِآلاَءِ مُنْعِمٍ   إذَا الرَّوْضُ أَثْنَى بِالنَّسِيمِ عَلَى الطَّلِّ ؟(٤)

هِىَ النَّعْلُ زَلَّتْ بِى ، فَهَلْ أَنْتَ مُكْذِبٌ

لِقِيلِ الأَعَادِى إنَّهَا زَلَّةُ الحِسْلِ(٥) ؟

---

(١) فى الذخيرة والمسالك (أأنقض فيك المدح .. فلا) وفى المسالك (ملا أقتفى) ؛ أنكث : أحل ما أبرمته ، ناقضة الغزل : هى ريطة بنت عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم القرشية كانت خرقاء تحل ما غزلته ، وقد أشارت إليها الآية الكريمة (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) . ومعنى البيت : كيف أهجوك بعد المدح فأكون مثل ناقضة الغزل الحمقاء ؟ .

(٢) أمر الشيءُ : صار مرا ؛ أحلى الشيءَ : جعله حلوا ؛ والمعنى : إذا كنت قد هجرتك فإننى أستحق أن يجعل الله حياتى الجيدة ذميمة ، وطعم إياديك الحلوة مرا ، وفى أصول الديوان (طعمها الحلى) ولعل الصواب ما أثبتناه . لأن الضمير لا يستقيم مع رواية الديوان .

(٣) السؤدد : المجد والسيادة ؛ الخنا : الفحش ؛ والمعنى : ما كنت لأهجوك فأسب المجد والكرم فيك ، وما كنت لأسىء القول فى صاحب الفعال الطيبات ومانح المكرمات .

(٤) الآلاء : النعم ؛ والمعنى : كيف أسكت عن شكر أياديك ذات الطول والإحسان ؟ وكيف لا أقتدى بالروض حينما يثنى على الطل بنفحات النسيم ؟

(٥) الحسل : الرذل الخسيس ، أو السوق الشديد ؛ والحِسل : ولد=

وَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَنْفَعَ الطَّوْلَ شَائِياً فَتَنْجَحَ مَيْمُونَ النَّقِيبَةِ أَوْ تُبْلِي (١)

أَجِرْ أَعْدِ آمِنْ أَحْسِنِ ابْدَأْ عُدِ اكْفِ حُطْ

تَمَحَّ ابْسُطِ اسْتَأْنِفْ صُنْ أَحِمْ اصْطَنِعْ أَعْلِ (٢)

= الصب ، ويقال إن الضب تأكل صغارها ؛ ومن الممكن توجيه المعنى على هذه الوجوه الثلاثة :

ا — لقد زلّتُ رغماعى ، وعثرات الكرام قليلة وهى أهل للغفران ، فلا تستمع لنبيل حسادى أنها زلة خسيس لئيم ؛ وهو لهذا جدير بالعقاب .

ب — لقد زلّتُ مع احتراسى ، فلا تصدق قول خصمى : إنها زلة مندفع متهور لا قيام له من سقطته .

ح — لقد زلّتُ وإننى لأرجو النهوض من عثرتى ، وأعدائى يزعمون أنها سقطة قاتلة لا نجاة منها كما يسقط الحِسْل فتلهمه أمه ، فلا تصدّقهم فيما يزعمون .

(١) الطَّوْل : الإنعام والإحسان ؛ ميمون النقيبة : مبارك النفس أو الأمر؛ أبلاه عذرا : أداه إليه فقبله ؛ والمعنى : أعنى أن تضم إلى أفضالك السابقة فضل الشفاعة لى فتشُلّ أحقاد خصمى ، أو تبلى عذرا بما بذلته من مساعيك الجيدة .

(٢) أجر : ابسط حمايتك على من يستجير بك ؛ أعد : أعِنْ ؛ اكف : أعط كفاية ؛ حط : تَعَهَّد ؛ تَمَحَّ : تحبب ؛ اصطنع : اتخذ الصنائع التى تجذب بها القلوب إليك ؛ أعل : أرفع من تشاء .

وقد تنافس بعض الشعراء فى حشد أكبر مقدار من الأفعال فى البيت الواحد، فأسفّوا كما فعل شاعرنا ابن زيدون فى هذا البيت ، ولعله ينظر فيه إلى قول المتنبى :

أَقِلْ ، أَنِلْ ، أَقطع ، احمل ، علّ ، سلّ ، أعِدْ .

زِدْ ، هشّ ، بشّ ، تفضّلْ أَدْنِ ، سُرَّ ، صِل

ولعل المتنبى نظر فيه إلى قول أبى العميثل فى عبد الله بن طاهر .

اصدق وعف وجد وأنصف واحتمل واصفح وكاف ودار واحلم واشجع

مُنًى - لَوْ تَسَنَّى عَقْدُهَا بِيَدِ الرِّضَا - تَيَسَّرَ مِنْهَا كُلُّ مُسْتَصْعَبِ الحَلِّ[١]

* * *

أَلَا إِنَّنِي ظَمْآنُ - بَيْنَ فِعْلَيْكَ - وَاقِفٌ
وُقُوفَ الْهَوَى بَيْنَ الْقَطِيعَةِ وَالْوَصْلِ[٢]

فَإِنْ تُمْنَ لِي مِنْكَ الْأَمَانِي فَشِيمَةٌ لِذَاكَ الْفَعَالِ الْقَصْدِ وَالْخُلُقِ الرَّسْلِ[٣]

وَإِلَّا جَنَيْتُ الْأُنْسَ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى
وَهَوْلِ السُّرَى بَيْنَ الْمَطِيَّةِ وَالرَّحْلِ[٤]

* * *

---

(١) تسنّى : تيسر ؛ والمعنى : هذه الآمال لو تيسر وصلها بأسباب القبول لسهلت تيسير كل أمر عسير .

(٢) المعنى : انني واقف مترقب ما تفعله من عتاب أو صفح جميل ، كما يقف المحب المغرم مترقبا من حبيبته الصد أو الإقبال .

(٣) تُمْنَى : تُقدَّر ، مأخوذ من مُنِيَ له ، أى قُدِّر ؛ الفَعال : الكرم ؛ القصد : العدل ؛ الرَّسل : السير اللين السهل ، والرِّسل : الرفق والتؤدة ؛ والمعنى ؛ إذا حققت آمالى فيك فهذا جدير بمآثرك القائمة على العدل ، وأخلاقك المتسمة بالرفق والفضل .

(٤) السرى : السير ليلا ؛ المطية : الركوبة المسرعة ؛ الرَّحل : مسكن الرجل أو ما يستصحبه من الأثاث، أو رحل البعير وهو أصغر من القتب؛ والمعنى: إذا لم أحظ منك بالصفح الجميل فسوف أرحل ، وأحتمل مرارة الفراق لأظفر بحلاوة الأمان ، وأكابد مشقة الأسفار فى وحشة الظــــلام لأظفر بالسكينة والاستقرار بعيداً عن الذل والهوان .

تَـــــيُعْنَى بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّى حَافِظٌ
وَيُلْفَى لِمَا أَرْخَصْتَ مِنْ خَطَرِى مُغْلِى[1]

وَأَيْنَ جَوَابٌ مِنْكَ تَرْضَى بِهِ الْعُــــلاَ
إِذَا سَأَلَتْنِى عَنْكَ أَلْسِنَةُ الْحَفْلِ[2]

طبائع النفوس[3]

« أرسل الشاعر هـذه النفثة الحارة من سجنه إلى صديقه أبي حفص بن برد الأصغر » :

مَا عَلَى ظَــــنِّىَ بَاسُ يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو[4]

---

(١) فى نسخ ب ، ت ، ز « بما أرخصت » ؛ والمعنى : إذا ضيعتنى فسأجد من يحفظنى ، وإذا أرخصت مكانى فسأجد من يعرفه ويقدره حق قدره .

(٢) آثرنا رواية القلائد والذخيرة ، وفى أصول الديوان .

وأين جوابٌ عنك ... إذا سألتْنى بعد ...

والمعنى : إذا سألنى الناس عنك فماذا أجيب ؟ وهل من سبيل لأن أذكر لهم ما يتسق مع مجدك وعلاك ؟

(٣) وردت القصيدة فى الذخيرة والقلائد مع حذف بعض الأبيات واختلاف فى ترتيب الباقى منها ؛ وقد التزمنا رواية أصول الديوان .

(٤) بَاسُ : بأس سُهلت همزته ؛ ياسو : يأسو أى يداوى ؛ والمعنى : لا بأس علىّ إن أصابنى الدهر ، فمن شيمته أن يجرح ثم يداوى الجراح .

رُبَّمـــا أَشْرَفَ بِالْمَرْ ءِ عَلَى الآمالِ يَاسٌ(١)

وَلَقَدْ يُنْجِيــكَ إِغْفَا لٌ وَيُرْدِيكَ احْتِرَاسُ(٢)

وَالْمَحَــاذِيرُ سِــهَامٌ وَالمَقَادِيرُ قِيَــاسُ(٣)

وَلَكَمْ أَجْــدَى قُعُودٌ وَلَــكَمْ أَكْدَى الْتِمَاسُ(٤)

وَكَذَا الدَّهْرُ ، إِذَا مَا عَزَّ نَاسٌ ذَلَّ نَاسُ(٥)

وَبَنُــو الأَيَّامِ أَخْيَا فٌ : سَرَاةٌ وَخِسَاسُ(٦)

---

(١) المعنى : قد يفتح اليأس أبواب الرجاء ، فإذا اشتد الخطب هان . وشبيه به قول الشاعر :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القـــوم بالنعم

(٢) فى الذخيرة والقلائد وتمام المتون « ويؤذيك احتراس » ؛ والمعنى : قد يكون قعود المرء سببا فى نجاته ، وقد يكون احتراسه سبباً فى هلاكه .

(٣) البيت زيادة من الذخيرة ؛ المحاذر : الأمور المخيفة المفزعة ؛ قياس : جمع قوس ؛ والمعنى : إن المقادير هى التى تسبب النكبات كما ترسل الأقواس السهام

(٤) أكدى الرجل : قلّ خيره أو قطع عطاءه ؛ والمعنى : ربمـــا نفع القعود وربما ضرّ السعى ، فالأقدار بيد الله يصرّفها كيف شاء .

(٥) فى القلائد والخريدة « وكذا الحكم » ؛ والمعنى : من شيمة الدهر أن يرفع اقواما ليذلّ آخرين ؛ وقد نظر فى هذا إلى قول البحترى :

إذا ما نسبتَ الحادثات وجدتها بناتِ زمان أرْصدَتْ لبنيهِ

متى أرت الدنيـــا نباهة خامل فلا ترتقبْ إلاّ خمولَ نبيـهِ

(٦) أخياف : مختلفون ، وإخوة أخياف : إذا كانت أمهم واحدة والآباء شتىّ ؛ سراة : جمع سرىّ وهو الماجد السخى ؛ والمعنى : طباع الناس — على تشابههم فى الخلقة — متباينة ، فنهم الأشراف ؛ ومنهم السفلة والأوغاد .

نَلبَسُ الدُّنيا ، وَلٰكِنْ مُتْعَةٌ ذَاكَ اللِّبَاسُ(١)

* * *

يَا أبَا حَفْصٍ وَمَا سَا وَاكَ فِي فَهْمٍ إِيَاسُ(٢)

مِنْ سَنَا رَأْيِكَ لِي فِي غَسَقِ الخَطْبِ اقْتِبَاسُ(٣)

وَوِدَادِي لَكَ نَصٌّ لَمْ يُخَالِفْهُ القِيَاسُ(٤)

أنَا حَيْرَانُ ، وَلِلأَمْـ ـرِ وُضُوحٌ وَالْتِبَاسُ

مَا تَرَى فِي مَعْشَرٍ حَا لُوا عَنِ العَهْدِ وَخَاسُوا(٥) ؟

وَرَأَوْنِي سَامِرِيًّا يُتَّقَى مِنْهُ المِسَاسُ(٦)

---

(١) المعنى : نلبس الدنيا ولكن إلى حين ، فهي متعة إلى زوال .

(٢) إياس بن معاوية تولّى قضاء البصرة فى زمن عمر بن عبد العزيز وكان مضرب المثل فى الذكاء ، وقد عناه أبو تمام فى قصيدته التى مدح بها أحمد ابن المعتصم بقوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

(٣) سنا : ضوء ؛ غسق : ظلام ؛ وفى بعض نسخ الذخيرة « ظلم الخطب »

(٤) النص : القول المحكم من قرآن كريم أو حديث شريف ، ولا مجال للرأى معه ؛ فإذا لم يوجد نص قاطع استعمل الفقهاء القياس ، وهو أن يقيسوا المشكلة الحاضرة إلى مثيلاتها مما ورد فيها نص صريح ؛ والمعنى : حبى لك توافرت عليه الأدلة النقلية والعقلية ؛ وقد آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة وفى الأصول «قياس»

(٥) خاس : غدر ونكث .

(٦) السامرى : أحد زعماء بنى إسرائيل ؛ لما ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه أضل السامرىُّ بنى إسرائيل ودعاهم إلى الشرك بالله ، فعاقبه الله بالوحشة والانفراد فلا يمس إنسانا إلا أدركتهما الحمّى معا ، فكان يتحاشى=

أَذُوبُ هَامَتْ بِلَحْمِي فَانْتِهَاشٌ وَانْتِهَاسُ(١)

كُلُّهُمْ يَسْــأَلُ عَنْ حَا لِي ، وَلِلذِّئْبِ اعْتِسَاسُ(٢)

* * *

إِنْ قَسَا الدَّهْرُ فَلِلْمَا ءِ مِنَ الصَّخْرِ انْبِجَاسُ(٣)

وَلَئِنْ أَمْسَيْتُ مَحْبُو سًا فَلِلْغَيْثِ احْتِبَاسُ(٤)

يَلْبَــدُ الْوَرْدُ السَّبَنْتَى وَلَهُ بَعْــدُ افْتِرَاسُ(٥)

* * *

= الناس ويناديهم إذا رآهم « لامساس » ، وفى هذا إشارة إلى قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: « فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس ، وإنّ لك موعدا لن تُخلفه » .

(١) فى الذخيره « فالتهام وانتهاس » ، وفى القلائد والخريدة « فانتهاب » الانتهاش : القضم بالأضراس ؛ الانتهاس : القضم بأطراف الأسنان .

(٢) إعتساس : تَسلُّل فى الظلام ؛ والمعنى : إن الناس ذئاب تحاول أن تفترسنى وتتسلل لتنتهز فرصة لالتهامى كما يتسلّل الذئبُ لفريسته فى الظلام .

(٣) انبجس : تفجّر ؛ والمعنى : إذا قسا الدهر فقد ينجم عن قسوته النعيم كما يتفجر من الصخر الماء الزلال .

(٤) فى الذخيرة « إن أ كن أمسيتُ .. » ؛ والمعنى : لا عجب إن كنت مطروحا فى السجن ، فالغيث قد يحتبس حينا عن السقوط ، ثم لايلبث أن يهطل فيسقى النبات .

(٥) يلبد : يقيم بمكانه لايبرحه ، الورد : من أسماء الأسد ؛ السبنتى : الأسد او النمر أو الجرئ ؛ والمعنى : يسكن الأسد حينا ثم يثب على فريسته ، ومثله قول ابن الرومى :

سكنت سكونا كان رهنا لوثبة عماس ، كذاك الليث للوثب يلبد

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ يَغْشَى مُقْلَةَ الْمَجْدِ النُّعَاسُ
وَيُفَتُّ الْمِسْكُ فِي التُّرْ بِ فَيُوطَا وَيُدَاسُ[١]

* * *

لاَ يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْداً إِنَّ عَهْدِي لَكَ آسُ
وَأَدِرْ ذِكْرِيَ كَأْساً مَا امْتَطَتْ كَفَّكَ كَاسُ[٢]
وَاغْتَنِمْ صَفْوَ اللَّيَالِي إِنَّمَا الْعَيْشُ اخْتِلاَسُ
وَعَسَى أَنْ يَسْمَحَ الدَّهْـ ـرُ فَقَدْ طَالَ الشِّمَاسُ[٣]

---

(١) معنى البيتين : انظر كيف أغلق الدهر عين المجد بالنماس ؟ وكيف أصبح المسك مطروحا فى التراب تحت النمال ؟ وكيف هان مثلى بعد إعزاز ؟ الورد مشهور بسرعة الذبول ، والآس مشهور بطول احتماله ، والمعنى : أرجو أن يكون ودك ثابتا دائما مثل ودى ، ومثل هذا قول العباس بن الأحنف :

لا تجعلى ودنا كالورد حين مضى ذا طلمة ، وأديمى الود كالآس

(٢) المعنى : تذكرنى كلما صفت لك الحياة ، وطاب لك الشراب .

(٣) سمح الرجل وأسمح : اتصف بالجود والسهولة واليسر ؛ الشماس : الجماح والعصيان ؛ وفى الذخيرة والقلائد « فعسى أن يسمح »

عتب ورجاء(١)

« كتب الشاعر فى أخريات أيام سجنه رسالته الجدّيّة وأودعها ما أودعها من عتب وشكوى ورجاء ، ثم شفعها بهذه القصيدة الضارعة » :

لِهَوًى فِى طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ وَالْمُنَى فى هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ(٢)

سَرَّنَا عَيْشُنَا الرَّقِيقُ الْحَوَاشِى لَوْ يَدُومُ السُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ

ومنها(٣) :

وَطَرٌ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقَضَّى زَمَنٌ مَا ذِمَامُهُ بِالذَّمِيمِ(٤)

إِذْ خِتَامُ الرِّضَا الْمُسَوَّغِ مِسْكٌ وَمِزَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ(٥)

---

(١) يظهر أن القصيدة لم تصلنا بتمامها كما نفهم من الذخيرة .

(٢) المنى : الهوى معقود بظهور هؤلاء الغيد الحسان الضيئات إضاءة النجوم . والآمال منوطة بهبوب النسيم الذى يحمل إلينا نفحاتهن العطرات .

(٣) وردت هذه الكلمة بالذخيرة مما يوحى بأن هناك أبياتا محذوفة .

(٤) وطر : أمل مرتقب ، الذمام : العهد ؛ والمعنى : لم نظفر بآمالنا حتى انطوى عهدنا السعيد ، ومثل هذا قولنا من قصيدة :

حــلم هنىء مرحنا تحت أيكـته وما ظفرنا به حتى فقدناه

(٥) المسوّغ : الهنىء ؛ التسنيم : عين فى الجنة ؛ وفى البيت إشارة إلى الآية الكريمة « يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون » .

* * *

وَغريضِ الدَّلالِ غَضٍّ جَنَى الصَّبْـــوَةِ نَشْوَانَ مِنْ سُلافِ النَّعِيمِ (١)

طَالَمَا نَافَرَ الْهَوَى مِنْــــهُ غِرٌّ لَمْ يَطُلْ عَهْدُ جِيدِهِ بِالتَّمِيمِ (٢)

[زَارَ مُسْتَخْفِيًا ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يَخْ

فَى سَنَا الْبَــــدْرِ فِي الظَّلامِ الْبَهِيمِ] (٣)

[فَوَشَى الْحَلْيُ إِذْ مَشَى ، وَهَفَا الطِّيـ بُ إِلَى حِسِّ كَاشِحٍ بِالنَّمِيمِ] (٤)

* * *

(١) الغريض : كل أبيض لين الملمس ؛ غض : ناضر طريء ؛ الجنيّ : الثمر ؛ الصبوة : غرة الشباب ، نشوان : سكران ، السلاف : ما تحلّب وسال قبـــل العصر ، وهو أفضل الخمر ؛ والمعنى : هذا الحبيب رقيق لموب ناضر الصبا غض الإهاب سكران من حياته المترفة وعيشه اللذيذ الخصيب .

(٢) غرّ : ساذج ؛ التميم : مأخوذة من تميمة الوالدة المولود إذا علّقت عليه التميمة وهي عوذة تعلق على الصبيّ مخافة العين ، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي في رثاء بنيه :

وإذا المنية أنشبت أظفارهـــا ألفيت كلّ تميمة لا تنفع

والمعنى : هذا الحبيب اللعوب الذي ما زال قريب العهد بالطفولة طالما تأبّى وتدلّل في هواه فأثار القلوب وألهب الوجدان .

(٣) هذا البيت والتالي له زيادة من الذخيرة وتمـام المتون ونهاية الأرب ، وفي الذخيرة « سُرَى البدر » وفي نها الأرب « يختفيَ البدر » ؛ البهيم : الشديد الظلمة ؛ والمعنى : زارني الحبيب متسترا تحت أذيال الظلام ، ولكنّ أضواء وجهه كشفته للعيان ، فمن العسير أن يتخفى البدر في ألفاف الظلام .

(٤) الكاشح : العدو الحاقد ، والمعنى : أراد الحبيب أن يزورني مستخفيا ولكن وسواس حليه ، ونفحات طيبه نمّت عليـــه ، ونبهت الرقيب إليه ؛ وفي نهاية الأرب « إلى حِسِّ كاشحٍ » .

أيُّها المُؤذِني بظلم اللَّيالي   لَيْسَ يَوْمِي بِوَاحِدٍ مِنْ ظَلُومِ[1]

ما تَرَى البَدْرَ - إنْ تأمَّلْتَ - والشَّمْـ   ـسَ هُمَا يُكْسَفَانِ دُونَ النُّجُومِ[2]

وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُّ يَنْحُو   بِالمُصَابِ العَظِيمِ نَحْوَ العَظِيمِ[3]

* * *

بَوَّأَ اللّهُ « جَوْهَراً » أشْرَفَ السُّو   دَدِ فِي السَّرْوِ وَالْلُّبَابِ الصَّمِيمِ[4]

وَاحِدٌ سَـلَّمَ الجَمِيعُ لَهُ الأَمْـ   ـرَ ، فَكَانَ الخُصُوصُ وَفْقَ العُمُومِ[5]

---

(١) فى تمام التون « ليس دهرى » ؛ والمعنى : ليست هذه الكارثة بفريدة عندى فلدىّ من أمثالها الكثير؛ وهو فى هذا ينظر إلى قول العباس بن الأحنف :

ليس يومى بواحد من ظلوم   وابلائى من حادث وقديم

ليتها تشكر التحول لمثلى   جسدى مبتلى بقلب مشوم

وفى رواية تمام التون « ليس يستكثر التحول امثلى » .

(٢) آثرنا رواية الذخيرة وتمام التون . وفى أصول الديوان « قر الأفق إن تأملت » والمعنى : إن الأحداث لاتصيب إلا العظماء ، كما أن الكسوف لايصيب النجوم ، وإنما ينال الشمس والقمر .

(٣) المعنى : لايفتأ الدهر يرمى العظماء بأحداثه العظام .

(٤) فى نسخة ب والذخيرة « شرف السؤدد » ؛ وفى الذخيرة وتمام التون « فى البر » ؛ والمعنى : وهب الله الأمير أعز مكان فى المجد والمروءة وأنبته من أصل كريم .

(٥) فى بعض نسخ الذخيرة « فوق العموم » وفى نهاية الأرب « له الفضل » ؛ والمعنى ألقى إليه الجميع زمام أمورهم ، واعتمدوا عليه فى تدبير شئونهم ، خاصتهم وعامتهم على السواء .

قَلَّدَ الغمرُ ذا التّجارِبِ فيـــهِ   وَاكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ[1]

خَطَرٌ يَقْتَضِي الْكَمَالَ بِنَوْعَيْ   خُلُقٍ بَارِعٍ وَخَلْقٍ وَسِيـمِ[2]

[أُسْوَةُ الرَّوْضِ تَطَّبِيكَ بِحَظَّيْ   نَظَرٍ - مَا اعْتَمَرْتَهُ - وَشَمِيمِ][3]

* * *

أَيُّهَذَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو   وَالْعَصَا بَدْءُ قَرْعِهَا لِلْحَلِيمِ[4]

---

(١) الغمر « بضم الغين وفتحها وكسرها » : الساذج الجاهل ؛ والمعنى : اعتمد الجميع على الأمير فبايعه الخاصة عن خـــبرة وتجربة ، وتابعهم العامة فى هـذا التقليد .

(٢) خطر : شرف وفخار ؛ وسيم : جميل ؛ والمعنى : إن الأمير بلغ أقصى غايات المجد وفاق الجميع بأخلاقه السامية وتكوينه الجميل . وفى تمـــام المتون « بارع باهر » .

(٣) هذا البيت زيادة من تمام المتون ؛ أسوة : قدوة ومثال ، تطبيكَ : تدعوك ، اعتمر المكان : قصده ؛ والمعنى : فُقتَ الناس بجلالك وجمالك مثل الروض يدعو قاصديه ويمنحهم متعة النظر الجميل والنفح الطيب العبِر .

(٤) فى البيت إشارة إلى المثل « إن العصا قرِعَتْ لذى الحـــلم » ومنه قول المتلمس :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا   وما عُـــلم الإنسان إلا ليعلما

وذو الحلم : هو عامر بن الظرب كان من حكماء العرب لاتعدل بفهمه فهما ، فلما تقدمتْ به السنّ أنكر من عقله شيئا ، فقال لبنيه : قد كبرت سنى فإذا رأيتمونى خرجتُ عن كلامى فاقرعوا لى المجنّ بالعصا ، وقيل : إن ذا الحـــلم هو عمرو بن حُمَمَة الدوسى الذى عناه الحارث بن وعلة بقوله :

وزعمتمُ ألاّ حـــلوم لنـــا   إن العصا قرعت لذى الحلم=

مَا عَسِيٌّ أَنْ يَأْنَفَ السَّابِقُ المَرْ بَطَ فِى العِتْقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ [١]

وَبَقَاءُ الحُسَامِ فِى الجَفْنِ يُثْنِي مِنْـــهُ بَعْدَ المَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ [٢]

أَفَصَبْرٌ مِئِينَ خَمْسًا مِنَ الأَيَّــــامِ ؟ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمِ !! [٣]

وَمُعَنًّى مِنَ الضَّـــنَى بِهَنَاتٍ نَـكَأَتْ بِالـكُلُومِ قَرْحَ الـكُلُومِ [٤]

= وقيل هو قيس بن خالد الشيبانى ، والمثـــل يضرب لمن يتنبه إذا نُبّـه . والمعنى : أيها الوزير لقد ضرعتُ إليك بالشكوى لأنبهك إلى ما وقع عليّ من ظلم ، وآمل أن تتنبّه إليه فتزيله .

(١) ورد البيت ناقصا فى نسخة ا (.. يأنف المربط فى العتق منه والتطهيم) وفى تمام المتون (ما غناءٌ أن ...) وفى نسخة ب « أن يأنف .. » وقد اعتمدنا روايتى نسختى ت ، ز ، عَسِيٌّ : جدير ؛ السابق : الجواد ؛ العتق : الحسن ؛ التطهيم : الجمال البارع ؛ والمعنى : إن الجواد السابق المطهم غـير جدير بالحبس والتقييد فى مربطه ؛ ومثل هذا قول المتنبى :

يقول لىَ الطبيبُ : أكلت شيئا وداؤك فى شرابك والطعام

وما فى طِبّه أنّى جوادٌ أضرّ بجسمه طولُ الجَمام

والجَمام : الراحة .

(٢) فى تمام المتون « وثواء الحسام » ؛ والمعنى : إن بقـاء الحسام فى جفنه يوهيه بعد أن كان مرهفا بتارا .

(٣) المعنى : لقد صَبرتُ على محنتى خمسمائة يوم ، وحسبك بما أصابنى من عذاب أليم .

(٤) معنًّى : متعَب ؛ الضنى : المرض ؛ هنات : دواهى ؛ الـكلوم : الجروح ؛ والمعنى : وأنا مصاب من الأمراض بنكبات أدمت جروحى قبل أن تلتئم . وفى ت « قلب الـكلوم »

سَتَمٌ لاَ أُعادُ فِيهِ ، وَفِي الْعَا نَدِ أُنْسٌ يَنْفِي بِبُرْءِ السَّقِيمِ (١)

نَارُ بَثِّي سَرَى إِلَى جَنَّـــةِ الْأَمْـــنِ لَظَاهَا، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢)

* * *

بِأَبِي أَنْتَ !! إِنْ تَشَأْ تَكُ بَرْداً وَسَـــلاَماً كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ (٣)

لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءُ ، وَالْحَمْدُ فِي صَوْ بِ الْحَيَا لِلرِّيَاحِ ، لاَ لِلْغُيُومِ (٤)

وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذَلِّلَ لِي الصَّعْـــبَ مَتَابِي إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ (٥)

---

(١) في الذخيرة وتمام المتون ونهاية الأرب ونسخة ز «لا أعاد منه»، والمعنى: اجتمع على المرض والوحشة فما يجوز زائر على عيادتي ، وطالما خفف العائد آلام المريض.

(٢) الصريم : الزرع المحصود أو الليل المظلم ، والمعنى : إن نار الظلم أصابت جنة أمني واطمئناني فأحالتها إلى هشيم ، وفي البيت إشارة إلى قصة أصحاب الجنة الأشحاء الواردة في سورة ن وقد حاولوا الاستئثار بثمار جنتهم «فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم» . وفي تمام المتون «نار بغي سعى..»

وفي نهاية الأرب «سرت إلى جنة الأرض بيانا» وفي الذخيرة «نار بغي سرت ... الأمن بيانا ... »

(٣) المعنى : أفديك بأبي ، إن شئت الإحسان إليّ استطعت أن تحول نكبتي إلى جنة وارفة الظلال ، وفي هذا إشارة إلى الآية الكريمة «قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم» .

(٤) المعنى : إن شفعت لي فأنت جدير بالحمد، حريّ بالثناء ، فالشافع هو أصل النعمة وسببها، كما أن الرياح هي باعثة السحاب وحاملته من مكان إلى مكان؛ وفي الذخيرة و ت «للشفيع الثناء» .

(٥) المعنى : إن لجوئي إلى الهمام الزعيم كفيل بأن يذلل أمامي العقبات ، وأن ينيلني أطيب الأمنيات وفي تمام المتون «يذل لي الصعب» .

[أَمَلٌ يَرْغَمُ الْجَفَاءُ إِلَيْـــهِ وَهُوَ ثَبْتُ الْمَقَامِ مَاضِي الْعَزِيمِ](١)

وَوِدَادٌ يُغَـيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَا ءَ وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْـدِ الْكَرِيمِ (٢)

وَثَنَاءٌ أَرْسَلْتُهُ سَـلْوَةَ الظَّا عِنِ عَنْ شَوْقِهِ وَلَهْوَ الْمُقِيمِ (٣)

فَهْوَ رَيْحَانَةُ الْجَلِيسِ ــ وَلاَ فَخْـرَ ــ وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ (٤)

لَمْ تَزَلْ مُغْضِيًا عَلَى هَفْوَةِ الْجَا نِي مُصِيخًا إِلَى اعْتِذَارِ الْكَرِيمِ (٥)

وَمَــتَى تَبْدَأِ الصَّنِيعَةَ يُولِعْــكَ تَمَامُ الْخِصَالِ بِالتَّتْمِيمِ (٦)

---

(١) رغم الشيء رغما : رعاه وراقبه ، ورغم الشمس : رقب مغيبها ، العزيم : العزم والتصميم ؛ والمعنى : إن رجائى فيك ثابت لايتغير وإن تطلع الجفاء إليه ارتكانا على إبطائك فى نصرتى .

(٢) المعنى : حبى لك باق على الدهر مهما تغيرت القلوب وتبدلت الأحوال وفى تمام المتون « وودادى يغير الدهر » .

(٣) المعنى : إن ثنائى عليك يتسلى به عن شوقه الراحلُ ويسمد به المقيم .

(٤) المعنى : مدائحى فيك يتسامر بهـا السامرون ، فهى ريحان للأصدقاء ومزاج لكئوس الندماء ، وفى تمام المتون « ومنه مزاج » .

(٥) أغضى على هفوته : أعرض عن زلته ؛ مصيخا : مستمعاً ؛ والمعنى : لم تزل أيها الأمير صفوحا عن زلات العاثرين ، مصغيا إلى اعتذار الكرماء ، وفى تمام المتون اعتذار «اللئيم» واللئيم من ألام الرجل : أتى ما يلام عليه ، أو الكليم : المكلوم : الذى وقع عليه اللوم .

(٦) الصنيعة : الإحسان ؛ والمعنى : متى بدأت الإحسان فإن مروءتك توجب عليك أن تتمم ما بدأت به ، ومثله قول أبى تمام فى مدح محمد بن أبى ربعى :

هذا سحاب أنت سقت غمامه فمليك بمـد الله فيض غمامه

إن ابتداء العرف مجـد باسق والمجد كل المجد فى استتمامه

شفاعة مرجوّة

« فرّ الشاعر من سجنه بقرطبة لاجئا إلى إشبيلية، ولكنّ هواه إلى حبيبته وحنينه إلى وطنه جذباه إلى قرطبة فرجع إليها مستخفيا بضاحيتها « الزهراء » . ومنها كتب إلى أستاذه أبى بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى رسالة مسهبة شرح فيها حالته . ثم أتبعها بهذه القصيدة ملتمسا شفاعته » .

شَحَطْنَا ، وَمَا لِلدَّارِ نَأْيٌ وَلَا شَحْطُ ‏ ‏ وَشَطَّ بِمَنْ نَهْوَى المَزَارُ، وَمَا شَطُّوا[1]

أَأَحْبَابَنَا أَلْوَتْ بِحَادِثِ عَهْدِنَا ‏ ‏ حَوَادِثُ لَا عَقْدٌ عَلَيْهَا وَلَا شَرْطُ[2]

لَعَمْرُكُمُ إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِى قَضَى ‏ ‏ بِشَتِّ جَمِيعِ الشَّمْلِ مِنَّا لَمُشْتَطُّ[3]

---

(١) فى القلائد والخريدة وتمام المتون «وما بالدار» ؛ شحطنا : بعدنا ؛ نأى : بعد ؛ وفى نسخة ت « وشط بما نهوى » وفى الخريدة « وشط عن أهوى » ؛ والمعنى : نأينا عن أحبابنا وإن كانت ديارهم قريبة منا ، وتعسر مزارهم وإن لم يبعدوا عنا .

(٢) ألوت بحادث عهدنا : ذهبت به ؛ العقد : العهد الوثيق ؛ والمعنى أيها الأحباب لقد بدد الزمان عهد نعيمنا القريب ، وما لأحكام الدهر عقد تلزمه ولا شرط يُرعاه . وفى الذخيرة « أأحبابنا ولّت ... » وفى الذخيرة والقلائد « لا عهدٌ عليها » .

(٣) شتّ الشمل : تفريق الجمع ؛ مشتط : موغل فى الجور ؛ والمعنى : وحقك إن الزمان الذى فرق شملنا لغاشم ظلوم .

وَأَمَّا الْكَرَى مُذْ لَمْ أَزُرْكُمْ فَهَاجِرٌ زِيَارَتُهُ غِبٌّ ، وَإِلْمَامُهُ فَرْطُ[1]

وَمَا شَوْقُ مَقْتُولِ الْجَوَانِحِ بِالصَّدَى إِلَى نُطْفَةٍ زَرْقَاءَ أَضْمَرَهَا وَقْطُ[2]

بِأَبْرَحَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكُمْ ، وَدُونَ مَا أُدِيرُ الْمُنَى عَنْهُ الْقَتَادَةُ وَالْخَرْطُ[3]

وَفِي الرَّبْرَبِ الْإِنْسِيِّ أَحْوَى ، كِنَاسُهُ

نَوَاحِي ضَمِيرِي ، لَا الْكَثِيبُ وَلَا السِّمْطُ[4]

---

(١) الكرى : النوم ، زيارته غب : متفرقة قليلة ، ومنه « زُرْ غِبًّا تزدد حبا » ؛ الإلمام : الزيارة الخفيفة ومنه قول . جعفر بن علبة الحارثي :

ألمَّتْ فحيَّتْ ، ثم قامت فودَّعت فلما تولت كادت النفس تزهق

الفرط : التقصير ، أو الحين ، أو ألا تزور إنسانا إلا بعد أيام لا تزيد عن خمسة عشر يوما ولا تقل عن ثلاثة ؛ والمعنى : لقد هجرني النوم منذ هجرتكم فما يزورني إلا لمَاما .

(٢) في تمام المتون « بالظما » ؛ نطفة : ماء صاف قليل أو كثير ؛ وقط : حفرة في الصخر يجتمع فيها ماء المطر ، والمعنى مرتبط بالبيت التالي .

(٣) بأبرح : بأشد إيلاما ؛ القتادة : شجرة متشابكة الأغصان مليئة بالأشواك الحادة ، وخرطُ القتاد : جذب شوكه بالأيدى وهو عسير مؤذ ، وفي المثل « دونه خرط القتاد » ، ومعنى البيتين ، إن شوقي إليكم أعنف من شوق الصادى الذى برح به الظمأ إلى نهلة من الماء العذب النمير ، ولكن بيني وبين تحقيق آمالي فيكم أهوال وأهوال ، ودونها جنى الأشواك ، وفي الذخيرة « أريد المنى عنه » وفي تمام المتون « شوك القتادة والخرط » .

(٤) في القلائد « أهوى كناسه . نواحي » ، وفي تمام المتون « ظبي كناسه ... » الربرب : سرب البقر الوحشي ؛ أحوى : في شفتيه حمرة ضاربة للسواد ، كناس الظبي : مأواه في الشجر يكتن فيه ويستتر ، الكثيب : الرمل =

غَرِيبُ فُنُونِ الحُسْنِ يَرْتَاحُ دِرْعُهُ مَتَى ضَاقَ ذَرْعاً بِالَّذِي حَازَهُ المِرْطُ(١)

كَأَنَّ فُؤَادِي يَوْمَ أَهْــوَى مُوَدِّعاً
هَوَى خَافِقاً مِنْهُ بِحَيْثُ هَوَى القُرْطُ(٢)

إِذَا مَا كِتَابُ الوَجْدِ أَشْكَلَ سَطْرُهُ
فَمِنْ زَفْرَتِي شَكْلٌ وَمِنْ عَبْرَتِي نَقْطُ(٣)

أَلَا هَلْ أَتَى الفِتْيَانَ أَنَّ فَتَاهُمُ
فَرِيسَةُ مَنْ يَعْدُو وَنُهْزَةُ مَنْ يَسْطُو ؟(٤)

وَأَنَّ الجَوَادَ الفَائِتَ الشَّأْوِ صَافِنٌ تَخَوَّنَهُ شَكْلٌ وَأَزْرَى بِهِ رَبْطُ ؟(٥)

= الكدس ؛ السقط : رقة الرمل حتى ينقطع ؛ والمنى : في هذا السرب من الأناسي ظبي لا يحتل البيداء وإنما يحتل جوانب قلبي الرحيب .

(١) في الخريدة «فنون السحر» ؛ درع المرأة : قيمصها ؛ المرط : كساء من صوف أو خز تأتزر به النساء ، وهو ما نسميه الآن « جونلة » ويشمل الجزء الأسفل من الجسم ؛ والمنى : لقد رق خصره فجال فوقه القميص ، وثقل ردفه فضاق به الإزار .

(٢) المنى : سقط قلبي خافقا مضطربا كما يضطرب قرطه حينما مال على الوداع .

(٣) أشكل : التبس ؛ والمنى : إذا كان كتاب الحب عسير القراءة فإن حالتي توضحه كل الوضوح فإن لحروفه من زفراتي شكلا يوضح حركاتها ونقطا تميز الحروف المعجمة عن المهملة فيها .

(٤) يعدو : يعتدى ؛ نهزة : فرصة ؛ والمنى : أيعلم الفتيان أن الفتى المرموق فيهم أصبح فريسة لكل معتد أثيم ؟

(٥) الشأو : الغاية والأمد ، صافن : قائم على ثلاث قوائم ولامس بحرف=

وَأَن الْحُسَامَ الْعَضْبَ ثَاوٍ بِجَفْنِهِ ... وَمَاذَمَّ مِنْ غَرْبَيْهِ قَدٌّ وَلاَ قَطُّ(١) ؟

* * *

عَلَيْكَ (أَبَا بَكْرٍ) بَكَرْتُ بِهِمَّةٍ ... لَهَا الْخَطَرُ الْعَالِي، وَإِنْ نَالَهَا حَطُّ(٢)

أَبِي بَعْدَ مَا هِيلَ التُّرَابُ عَلَى أَبِي ... وَرَهْطِي فَذَا حَيْثُ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطُ(٣)

لَكَ النِّعْمَةُ الْخَضْرَاءُ تَنْدَى ظِلاَلُهَا ... عَلَيَّ، وَلاَ جَحْدٌ لَدَيَّ وَلاَ غَمْطُ(٤)

وَلَوْلاَكَ لَمْ تَثْقُبْ زِنَادُ قَرِيحَتِي ... فَيَنْتَهِبُ الظَّلْمَاءَ مِنْ نَارِهَا سِقْطُ(٥)

= الرابعة الأرض؛ تخونه: ذمه وعابه؛ الشكل: القيد، من شكل الدابة إذا شد قوائمها؛ والمعنى: وهل عرفوا أن الجواد السباق كبلته القيود وأذلته الأغلال؟

(١) العضب: القاطع؛ ثاو: مستقر؛ غربيه: حديه؛ قد: قطع طولى؛ قط: قطع عرضى؛ والمعنى: وهل علموا أن الحسام المرهف مستقر فى غمده مع أنه قاطع بتار، والمراد: إنه جواد سباق، لكن لاينتفع به فى الميدان، وسيف بتار ولكن لاينتضى فى القتال. وفى الخريدة «ولا ذم».

(٢) المعنى: لقد قصدتك يا أبا بكر متجها إليك بهمة عالية رفيعة، وإن هوت بها الأحداث الجسام، وفى تمام المتون «لها الخطر التالى».

(٣) آثرنا رواية الذخيرة والخريدة والقلائد وتمام المتون، وفى أصول الديوان «ورهطى مدا حين لم يهونى» والمد: هو المدد؛ وفى الذخيرة والقلائد «حين لم يبق لى» وفى أصول الديوان «حين لم يهونى رهط»؛ والمعنى: أنت أبى بعد وفاة أبى وأنت أهلى حين فقدت أهلى.

(٤) الجحد: الإنكار؛ الغمط كفران النعمة واحتقارها؛ والمعنى: لك أياد سابغة ونعم عديدة ترف ظلالها على فلا أستطيع إنكارها أو بخسها حقها، فإننى أهل للإحسان وجدير بأن أشكر مسديه.

(٥) فى الذخيرة «تقدح زناد» تثقب: اتقد؛ سقط: شرر؛ والمعنى: لولاك ما ذكت قريحتى فبددت غواشى الجهل وهتك نورها أستار الظلام.

وَلاَ أَلْقَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ بِدَائِنِي ... فَمِنْ خَاطِرِي نَثْرٌ وَمِنْ رَوْضِهِ لَقْطُ(١)

هَرِمْتُ وَمَا لِلشَّيْبِ وَخْطٌ بِمَفْرِقِي ... وَلَـكِنْ لِشَيْبِ الْهَمِّ فِي كَبِدِي وَخْطُ(٢)

وَطَاوَلَ سُوءُ الْحَالِ نَفْسِي فَأَذْكَرَتْ ... مَنِيَ الرَّوْضَةِ الْغَنَّاءِ طَاوَلَهَا الْقَحْطُ(٣)

مِئِينٌ مِنَ الْأَيَّامِ خَمْسٌ قَطَعْتُهَا ... أَسِيراً، وَإِنْ لَمْ يَبْدُ شَدٌّ وَلاَ قَمْطُ(٤)

أَتَتْ بِي كَمَا مِيصَ الْإِنَاءُ مِنَ الْأَذَى ... وَأَذْهَبَ مَا بِالثَّوْبِ مِنْ دَرَنٍ مَشْطُ(٥)

---

(١) فى الخريدة « ... الربيع بدائنى » وفى القلائد « فمن خاطرى نظم » ؛ اللقطُ : تناول الشيء بلا مشقة ؛ والمعنى : لولاك ما أبدعتُ آثارا فاضت بها خواطرى فالتقطها الربيع فأبرزها للأعين نوّارا وأزهارا .

(٢) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة وتمام المتون ، وفى الأصول «وكائن لشيب الهم » ؛ الوَخط : انتشار الشيب؛ المفرق «بفتح الراء وكسرها»: وسط الرأس الذى يفرق منه الشعر ؛ والمعنى : لقد ضعفتُ ولحق الشيب قلبى ، وإن لم يلحق بشعري .

(٣) فى الخريدة «.. نفسى فأدركت » ، المَنَى : الموت أو القدر . والمعنى : لقد طالت المصائب علىّ فذكرتنى هلاك الروضة الغناء إذا طال عليها القحط ، وفى الأصول « من الروضة الغناء » ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٤) فى القلائد والخريدة «مئون» ومع أنها تعرب إعراب المذكر السالم فقد أجاز النحويون إعرابها بالحركات مع التزام الياء ، وأجاز المبرد التزام الواو؛ وفى القلائد « عن الأذى ... شد ولا ربط» وفى الخريدة « سر ولا نشط » ؛ القَمْط : ربط يدى الأسير ورجليه ، والقِمط : حبل تُشَدّ به قوائم الشاة للذبح ؛ والمعنى : طويت خمسمائة يوم سيدا بالسجن وإن لم تلتفّ حولى القيود والأغلال .

(٥) فى القلائد والخريدة « كاميط الإناء » وفى الخريدة «من دنس»؛ مِيصَ : غُسِلَ برفق؛ مِيطَ : أُبعِد؛ الدَّرَن : الوسخ؛ مَشْط : بلّ الثوب وعصره لتنظيفه ؛ والمعنى : لقد نقّتنى هذه المحنُ وأخلصتْ نفسى من شوائبها كما يُنقّى الوعاء من القذى والثوب من الأقذار . ولعل صحة البيت « .. كاميص الإناء من القذى » .

أَتَدْنُو قُطُوفُ الْجَنَّتَيْنِ لِمَعْشَرٍ وَغَايَتِيَ السِّدْرُ الْقَلِيلُ أَوِ الْخَمْطُ؟[1]

وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنْ تُغَرِّرَ بِي الْمُنَى وَلِلْغِرِّ فِي الْعَشْوَاءِ مِنْ ظَنِّهِ خَبْطُ[2]

أَمَا وَأَرَتْنِي النَّجْمَ مَوْطِئَ أَخْمَصِي

لَقَدْ وَطَّأَتْ خَدِّي لِأَخْمَصِ مَنْ يَخْطُو[3]

وَمُسْتَبْطِئٍ لِلْعُتْبَى إِذَا قُلْتَ قَدْ أَنَى

رِضَاهُ تَمَادَى الْعَتْبُ وَاتَّصَلَ السُّخْطُ[4]

وَمَا زَالَ يُدْنِينِي وَيُنْئِي قَبُولَهُ هَوًى سَرَفٌ مِنْهُ وَصَاغِيَةٌ فُرْطُ[5]

---

(١) قطوف : ثمار . السدر : النبق ، الخمط : المرّ أو الحامض أو شجر كالسدر ؛ والمعنى : أيظفر بالثمار اليانعة الحلوة قوم لا يستحقونها ، ولا أظفر إلا بالنبق أو بكل مر حامض من الثمار ؟

(٢) في أصول الديوان والقلائد « أن تغرّ بي المنى » وفى الجريدة « أن تغرّقَ المنى » ولعل الأصح ما أثبتناه ؛ غرّر فلان بنفسه وماله : عرّضهما للهلاك ؛ الغر : الأحمق أو قليل التجربة ؛ العشواء الناقة التي لا تبصر فتتخبط في سيرها؛ والمعنى : ما كنت أظننى أنخدع بالآمال الكاذبة ، وأتخبط في شئونى كما يتخبط الأعمى في الظلام .

(٣) في الجريدة « أوطات » ؛ الأخمص : باطن القدم ؛ وطّأت : مهدت وهيأت ؛ والمعنى : لقد خدعتنى الآمال فخلقت بى فى عنان السماء ثم هبطت بى إلى الحضيض ، فجعلت خدّى موطئا للأقدام .

(٤) في القلائد « أنى رضاه » العتبي : الرضا ؛ أنى : حان ؛ المعنى : إن صفح الأمير بطىء القدوم ، وكلما توقعت حدوثه أمعن فى البعاد فاتصل عتابي وتمادى غضبه .

(٥) فى القلائد «فينئى قبوله »؛ وفى الجريدة «فيأبى قبوله» ؛

وَنَظْمُ ثَنَاءٍ فِي نِظَامِ وَلَائِهِ   تَحَلَّتْ بِهِ الدُّنْيَا، لَآلِئُهُ وَسْطُ(١)
عَلَى خَصْرِهَا مِنْهُ وِشَاحٌ مُفَصَّلٌ   وَفِي رَأْسِهَا تَاجٌ، وَفِي جِيدِهَا سِمْطُ(٢)
عَدَا سَمْعَهُ عَنِّي ، وَأَصْغَى إِلَى عِدًا   لَهُمْ فِي أَدِيمِي كُلَّمَا اسْتَمْكَنُوا عَطُّ(٣)
بَلَغْتُ الْمَدَى – إِذْ قَصَّرُوا – فَقُلُوبُهُمْ   مَكَامِنُ أَضْغَانٍ أَسَاوِدُهَا رُقْطُ(٤)
يُوَلُّونَنِي عُرْضَ الْكَرَاهَةِ وَالْقِلَى   وَمَا ذَنْبُهُمْ إِلَّا النَّفَاسَةُ وَالْغَمْطُ(٥)

= سرّف : مبالغ ؛ صاغية : حاشية وبطانة ، فرْط : مجاوز الحد ؛ والمعنى : حب الأمير يقربنى منه ويطمعنى فيه ، ولكن حاشية الأمير وبطانته يدسّون لى عنده فيتنكر لى ويبادرنى بالعقاب .

(١) فى أصول الديوان « ولاية » وقد آثرنا رواية القلائد ، وفى نسخة ز والخريدة « تجلت به الدنيا » ؛ لآلائه وسط : كل لؤلؤة منه جديرة أن تكون واسطة العقد أو خير مافيه ؛ المعنى : أبعدنى الأمير عنه استجابة للوشاة والحساد مع أننى نظمت أبدع القصائد منسقة فى ولائى له ، فكانت حلية على جيد الزمان .

(٢) وشاح : قلادة مرصعة بالجواهر تشدها المرأة بين عاتقها وكشحها ؛ سمط : عقد ؛ والمعنى : تحلّت الدنيا بقصائدى فى مدحه ، فهى وشاح يضم خصرها وتاج يزين رأسها وعقد يحلّى عنقها .

(٣) الأديم : الجلد ، عط : تمزيق ؛ والمعنى : أصم سمعه عن عتابى وأصغى إلى وشايات الأعداء الذين يمزقون سمعتى كلما وجدوا إليها سبيلا .

(٤) المدى : الغاية ؛ الأضغان : الأحقاد ؛ الأساود : جمع أسود وهو الحية العظيمة ؛ رقط : جمع رقطاء وهى الحية المختلطةالسواد بالبياض وتعد من أخبث الحيات .

(٥) القِلَى : الكره ، الغبط : الحسد ، وقيل أن يتمنى الإنسانُ الحصولَ على مثل نعمة غيره دون أن تزول عن صاحبها ، والمعنى : أولانى الحاسدون جانب البغض ، ولا عجب فإن حياتهم قائمة على الحقد والحسد .

وَقَدْ وَسَمُونِي بِالَّتِي لَسْتُ أَهْلَهَا ... وَلَمْ يُمْنَ أَمْثَالِي بِأَمْثَالِهَا قَطُّ[1]

فَرَرْتُ ، فَإِنْ قَالُوا الْفِرَارُ إِرَابَةٌ ... فَقَدْ فَرَّ مُوسَى حِينَ هَمَّ بِهِ الْقِبْطُ[2]

وَإِنِّي لَرَاجٍ أَنْ تَعُودَ كَبَدْئِهَا

لِيَ الشِّيمَةُ الزَّهْرَاءُ وَالْخُلُقُ السَّبْطُ[3]

وَحِلْمُ امْرِئٍ تَعْفُو الذُّنُوبُ بِعَفْوِهِ ... وَتُمْحَى الْخَطَايَا مِثْلَ مَا يُمْحَى الْخَطُّ[4]

فَمَا لَكَ لَا تَخْتَصُّنِي بِشَفَاعَةٍ ... يَلُوحُ عَلَى دَهْرِي لِمِيسَمِهَا عَلْطُ ؟[5]

---

(١) فى الذخيرة والقلائد والخريدة وتمام المتون « ولما اتسمونى بالتى ... » ؛ لم يُمْنَ : لم يُخْتَبَر ؛ والمعنى : وقد نعتونى بالخيانة ولستُ لها أهلا ؛ وليس من شأن أمثالى أن يُرْمَوا بهذا الخلق الذميم .

(٢) فى تمام المتون «فإن قيل...أرابه» ، وفى الخريدة «أرى به» ؛ إرابة: اتهام وشك ؛ والمعنى : فررتُ مضطرا ، فإن جعلوا فرارى مُثبتا للشك فى أمرى فقد وهموا لأن سيدنا موسى عليه السلام فرّ من مصر خوفا من فتك الأقباط .

(٣) السّبط : السهل أو الحسن أو الكريم ؛ المعنى : إننى آمُلُ أن أسترد مكانتى عنده فتزدهر طباعى وتكرم خلائقى .

(٤) فى القلائد « تمنى الذنوب » وفى الخريدة « وحكم ..... بعفوه » ؛ وفى الأصول « لمفوه » ؛ تعفو : تزول ؛ المعنى : أرجو أن يشملنى الأمير بعفوه فيمحو ذنوبى كما تُمحى الكتابة من الصحف .

(٥) الميسم : المكواة ؛ علط : كيّ فى العنق ؛ وفى الخريدة « بميسمها غبط » ؛ والمعنى : ما بالك أيها الأمير لا تشملنى بشفاعة تردّ عنى غوائل الدهر ، وتذل لى قياده وتسمُه بسِمَة الذل والهوان ؟

يفي بِنَسِيمِ العَنْـــبرِ الوَرْدِ نَفْحُهَا
إذا شَعْشَعَ المِسْكَ الأَحَمَّ بِهِ خَلْطُ(١)

فإنْ يُسْعِفِ المَوْلَى فَنُعْمَى عَنِيَّةٌ
تُنَفِّسُ عَنْ نَفْسٍ أَلَظَّ بِهَا ضَغْطُ(٢)

وإنْ يَأْبَ إلاَّ قَبْضَ مَبْسُوطِ فَضْـــلِهِ
فَفِي يَدِ مَوْلَى فَوْقَهُ القَبْضُ وَالبَسْطُ(٣)

---

(١) في الخريدة « ... الورد ريحُها » ؛ العنـــبر : الطيب المعروف ، أو الزعفران ؛ الورد : الأحمر ؛ شعشع : مزج ؛ الأحمّ : الأسود ؛ والمعنى : أتمنى أن تخصنى بشفـاعة يفوح أريجها كما يفوح أريج العنبر إذا اختلط به المسك الأسود .

(٢) فى القلائد « فنعمى كريمة » وفى الخريدة « لنفسى عن نفس » ؛ وفى نسخة ز « ألظّ بها ضغط » ؛ ألظّ بالأمر : لزمه ، وألظ : دام وأقام ومنه قول المعرى :

ألظّوا بالقبيـــح وتابعـــوه ولو أمِروُا به لتجنبـــوه

نهاهم عن طـــلاب المال زهدٌ ونادى الحرص : ويحكم اطلبوه

ضغط : ضيق ؛ والمعنى : إذا أسعفنى المولى بشفاعته ، فهى نعمى كريمة منه تفرّج عن نفسى ما لازمها وبرح بها من ضيق .

(٣) المعنى : أمّا إذا أصرّ الأمير على أن يبخل علىّ بالشفاعة — وهو الجواد الـكريم — فإننى سأسلم أمرى إلى خالقى فهو الذى بيده الضر والنفع .

٣ - فى عهد أبى الوليد بن جهور

إعراض بعد إقبال(١)

ذهب الشاعر إلى إدريس الثانى الملقب بالعالى سفيرا لابن جهور ، فأطال المكث عنده ، وخف على نفسه ، وأحضره مجالس أنسه ؛ واستحث الأمير سفيره على المودة فطله ؛ فمزنه الأمير ، وأعرض عنه عند عودته؛فتزلف إليه الشاعر بهذه الأبيات : —

بَنَيْتَ فَلَا تَهْدِمْ ، وَرِشْتَ فَلَا تَبْرِى
وَأَمْرَضْتَ حُسَّادِى ، وَحَاشَاكَ أَنْ تُبْرِى(٢)

أَرَى نَبْوَةً لَمْ أَدْرِ سِرَّ اعْتِرَاضِهَا
وَقَدْ كَانَ يَجْلُو عَارِضَ الْهَمِّ أَنْ أَدْرِى(٣)

---

(١) هذه القصيدة ساقطة فى نسخة ب .

(٢) راش الصديقَ : أطعمه وكساه وأصلح حاله ، وراش السهمَ : ركب عليه الريش ، وبراه : حدّده ونحته ، براه السفر : هزله وأنحله ؛ وحاشاك أن تبرى : أنزهك أن تبرىء حُسّادى وتشفيهم من مرض الحقد علىّ ؛ والمعنى : لقد بنيت مجدى فلا تهدمه ، وأصلحت حالى فلا تفسده ، وأشقيت حسادى بعطفك علىّ فلا تسعدهم بالإساءة إلىّ ؛ ومثله قول عمير بن حباب :

فريشنى بخير طالما قد بريتنى   وخير الموالى من يريش ولا يبرى

(٣) نبوة : جفوة وبعد ؛ عارض : سحاب معترض فى الأفق ؛ والمعنى : أرى منك جفاءً لا أعرف له سبباً ، ولو عرفت سببه لاسترحتُ من الهواجس والظنون .

جَفَاءٌ هُوَ اللَّيْـــلُ أَدْلَهَمَّ ظَلَامُهُ
فَلَا كَوْكَبٌ لِلْعُذْرِ فِي أُفْقِهِ يَسْرِى(١)

ذَهَبِ العَـــزْلُ أَضْحَى لِلْوِلَايَةِ غَايَةً
كَمَا غَايَةُ المُوفِي مِنَ الظِّلِّ أَنْ يُكْرِى(٢)

فَفِيمَ أَرَى رَدَّ السَّـــلَامِ إِشَارَةً
تُسَـــوِّغُ بِي إِزْرَاءَ مَنْ شَاءَ أَنْ يُزْرِي؟(٣)

أُنَاسٌ هُمُ أَخْشَى لِلَذْعَةِ مِقْـــوَلِي
إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّا فَعَلْتَ لَهُمْ مُغْرِ(٤)

---

(١) فى الأصل « حياء هو الليل ... » وقد تكون محرفة عن « خفاء » بمعنى غموض موقف الأمير . وقد يكون الصواب ما ذكرناه ؛ والمعنى : إعراضك عنى جعل حياتى مظلمة كالليل ولا مجال للعذر أن يشرق فى هذا الظلام كما تشرق النجوم فتبدد الظلمات .

(٢) يُكْرِى : ينقص أو يزيد ضد ، والمقصود هنا هو المعنى الأول ؛ والمعنى : إذا كانت الولايات تنتهى بالعزل فهذا أمر متوقع ، ولكن ما بال ظلال نعمك السابغة تنحسر عنى دون ذنب او تقصير ؟

(٣) فى الأصول « تسوّغ بى الإزراء » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ تسوّغ : تجيز ؛ والمعنى ، أراك تتثاقل فى ردّ تحيتى فتتيح بهـذا لخصومى أن يتناولونى بالزراية والاستخفاف .

(٤) فى نسخة ت « فيما فعلت » ؛ مغرى : مغرى مأخوذة من أغراه بالصيد إذا أغراه به ؛ والمعنى : لقد أغريتَ بى حسادى وأتحتَ لهم فرصة النّيل منى ، مع أنهم يرهبون بأسى ويخشون لذعات لسانى .

فَإِنْ عَاقَتِ الْأَقْدَارُ فَالنَّفْسُ حُـــرَّةٌ
وَإِنْ تَـكُنِ الْعُتْبَى فَأَحْرِ بِهَا أَحْرِ (١)

رجاء وإشفاق

ثارت بقرطبة فتنة ضد أبي الوليد بن جهور سنة ٤٤٠ ﻫ تولى كبرها أحمد بن محمد بن ذكوان وأسرته وابن حذام ؛ وقد لفحت جذوتُها ابنَ زيدون ، ففزع إلى الأمير متبرئا من هذه الفتنة معلنا ما يضمره له بنو ذكوان من البغض والشنآن .

هَلِ النِّدَاءُ ـ الَّذِي أَعْلَنْتُ ـ مُسْتَمَعُ؟ أَمْ فِي الْمِئَاتِ الَّتِي قَدَّمْتُ مُنْتَفَعُ؟ (٢)
إِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْ حَظٍّ يُسَوِّفُ بِي كَالْيَأْسِ مِنْ نَيْلِهِ أَنْ يَجْذِبَ الطَّمَعُ (٣)

---

(١) العتبي : الرضاء ؛ أحر بها : أجدرْ بها ؛ والمعنى : إذا أصررتَ أيها الأمير على موقفك مني فإنني لن أقبل الضيم والإذلال لأنني حرٌّ أبيٌّ ؛ وإذا بادرت بالصفح والغفران فأنت أجدر بهما من كل إنسان .

(٢) المعنى : هل تصغى أيها الأمير إلى ندائي فتستجيب له ؟ وهلا ترى نفعاً لى فى مئات الأبيات التى صغتُها فى الثناء عليك أو فى مئات الخدمات التى قدمتها لك ؟

(٣) المعنى : حظى من رضاء الأمير مضطرب مبهم لا يكاد يجذبنى الطمع إليه حتى يصدّنى اليأس عنه ، فلا أجد راحة اليأس،ولا برد الرجاء .

تَأْبَى الشُّكُونَ إلى تَعْلِيلِ دَهْرِيَ بِي
نَفْسٌ - إذَا خُودِعَتْ - لَمْ تُرْضِهَا الْخُدَعُ(١)

لَيْسَ الرُّكُونُ إلى الدُّنْيَا دَلِيلَ حِجاً فَإنَّهَا دُوَلٌ أَيَّامُهَا مُتَعُ(٢)

تَأْتِي الرَّزَايَا نِظَاماً مِنْ حَوَادِثِهَا إذِ الْفَوَائِدُ في أَثْنَائِهَا لُمَعُ(٣)

أَهْلُ النَّبَاهَةِ أَمْثَالِي لِدَهْرِهِمُ يَقْصُرِهِمْ دُونَ غَايَاتِ الْمُنَى وَلَعُ(٤)

* * *

لَوْلاَ بَنُو «جَهْوَرٍ» مَا أَشْرَقَتْ هِمَمِي غِيدَ السَّوَالِفِ، في أَجْيَادِهَا تَلَعُ(٥)

(١) فى نسخة ت « تعليل دهرىَ بى » ؛ والمعنى : إننى لا أغتر بالآمال الكاذبة ، ولا تنخدع نفسى بما ينخدع به غيرى من معسول الوعود .

(٢) المعنى : لاينخدع العاقل الحكيم بإقبال الأيام عليه ، فإنها لا تلبث أن تدبر عنه ؛ فلكل زمان دولة ورجال ؛ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

(٣) المعنى : تأتى الرزايا متوالية متتابعة وتأتى النعم فى أثنائها كالومضات الخاطفة فى سواد الليل البهيم ، ومثله قول الشاعر :

تأتى المصائبُ – حين تأتى – جملةً وارى السرورَ يجىءُ فى الفلتات

(٤) يقصرهم : يحبسهم ويمنعهم ؛ والمعنى : لقد شُغِفَ الدهر بأن يحول بين النابهين وبين بلوغ ما يحبون .

(٥) ورد هذا البيت والبيت التالى له فى أصول الديوان بهذا الترتيب :

لولا بنو جهور ما أشرقت هممى كمثل بيض الليالى دونها الدرع

هم الملوك ملوك الأرض دونهمو غيـد السوالف فى أجيادها تلع

وبهذا الوضع يضطرب المعنى ؛ وقد أصلحنا ترتيبهما بما ينتظم به السياق ؛ وقد ورد البيت الأول فى الذخيرة كما أصلحناه ، أما البيت الثانى فلم يرد بها ؛ وفى الذخيرة «ما أشرقت هممُ» ، غيد : جمع غيداء وهى الوسنى المائلة العنق ؛ ==

هُمُ المُلُوكُ ، مُلُوكُ الأَرْضِ دُونَهُمُ كَمِثْلِ بِيضِ اللَّيَالِى دُونَهَا الدُّرَعُ(١)

مِنَ الوَرَى ، إِنْ يَفُوقُوهُمْ فَلَا عَجَبٌ لِذَلِكَ الشَّهْرُ مِنْ أَيَّامِهِ الجُمَعُ(٢)

قَوْمٌ مَتَى يَحْتَفِلْ فِى وَصْفِ سُؤْدَدِهِمْ

لا يَأْخُذِ الوَصْفُ إِلَّا بَعْضَ مَا يَدَعُ(٣)

تَجَهَّمَ الدَّهْرُ فَانْصَاتَتْ لَهُمْ غُرَرٌ مَاءُ الطَّلَاقَةِ فِى أَسْرَارِهَا دُفَعُ(٤)

بِأَهَتْ وُجُوهُهُمُ الأَعْرَاضَ مِنْ كَرَمٍ فَكَمْ تَرَاقَ مَرْأًى طَابَ مُسْتَمَعُ(٥) .

= السالفة : جانب العنق من موضع القرط إلى الترقوة ، التّلع : طول العنق ؛ والمعنى : لولا بنو جهور ما ظهرت آثارى رائعة فتانة مختالة كما تختال النيداء بجيدها الطويل ، وتميل بعنقها فى تيه ودلال .

(١) الدرَع : سواد الليلة حتى يطلع القمر فى أخرياتها ؛ والمعنى : يمتاز بنو جهور عن ملوك الأرض كما تمتاز الليالى القمرة من أولها إلى آخرها على ليالى السرار التى لايظهر القمر إلا فى أخرياتها .

(٢) المعنى : لقد فاقوا البشر وإن كانوا منهم ، كما تفوق أيام الجمع باقىَ أيام الشهر ؛ ومثل هذا قول المتنبى :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإنّ المسكَ بعض دم الغزال

(٣) فى الذخيرة « متى تحتفل » ؛ والمعنى : مهما تفنن الواصفون فى الثناء عليهم فإنهم لا يستطيعون أن يتناولوا إلا بعض مايستحقونه من حمد وثناء .

(٤) فى الأصول « فانصات لهم غدر » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ تجهّم : عبس ؛ انصات : أجاب وأقبل ؛ الغُرَر : جمع غُرّة وهى الجبين ؛ أسرار : جمع سِرّ وهو الخط بالكف أو الجبهة وجمع الجمع أسارير ؛ دُفَع : جمع دفعة أى دفقة من الماء أو المطر ؛ والمعنى : تجهّم الدهر فتبلجت أسارير وجوهم وترقرق فيها ماءُ السماحة والجود .

(٥) المعنى : طابت أخلاقهم كما ازدانت وجوههم ، فزكت أخبارهم فى المسامع وراقت مشاهدهم للأبصار .

سَرْوٌ تَزَاحَمُ فى نَظْمِ المَدِيحِ لَهُ ... مَحَاسِنُ الشِّعْرِ ، حَتَّى بَيْنَهَا قُرَعُ (١)

* * *

« أبو الوَليد » قَدِ اَسْتَوفَى مَنَاقِبَهمْ ... فَلِلتَّفَارِيقِ مِنْهَا فِيــهِ مُجْتَمَعُ (٢)

هُوَ الكَرِيمُ الَّذِى سَنَّ الكِرَامُ لَهُ ... زُهْرَ المَسَاعِى فَلَمْ تَسْتَهْوِهِ البِدَعُ (٣)

مِنْ عِتْرَةٍ أَوْهَمَتْهُ فى تَنَاقُبِهَا ... أَنَّ المَكَارِمَ إيصَاءٌ بِهَا شِرَعُ (٤)

مُهَــذَّبٌ أَخْلَصَــتْهُ أَوَّلِيَّتُهُ ... كَالسَّيْفِ بَالَغَ فى إخْلَاصِهِ الصَّنَعُ (٥)

---

(١) سرْو : شرف ، قُرَع : جمع قُرْعة ، وهى السهمة التى يقترع عليها لاستخراج النصيب فى الميسر وأمثاله ؛ والمعنى : تتزاحم القصائد فى الثناء على مكارمه ، فإذا اشتدّ بينها الزحام اقترعتْ فيما بينها على من يفوز به .

(٢) فى الذخيرة « استوفى مناقبه » ؛ والمعنى : إن المكارم المتفرقة فى شتى الملوك قد اجتمعت فيه وحده فاستوفى جميع المكرمات .

(٣) البدع : المستحدثات المخالفة للتقاليد ؛ وفى الحديث الشريف «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » ؛ والمعنى : لقد تابع الأمير — فى الحرص على المآثر والمكرمات — ما سنّه له آباؤه السابقون ، فلم يندفع وراء المستحدثات التى تستهوى بمظاهرها السطحيين .

(٤) العترة : الأهل الأقربون ؛ شرَع : جمع شِرْعة أى مذهب أو مُنهج ؛ والمعنى : لقد انحدر هذا الأمير من سلالة كريمة لقنته أن أداء المكرمات واجب لايقل عن أداء مناسك الدين .

(٥) الصَّنَع : الماهر الحاذق ؛ والمعنى : إن آباءه هذبوه وربوه على أنبل الطباع وأجــل السجايا كما يتفنن الصانع الماهر فى صياغة السيف نقيا من الشوائب والعيوب .

إنَّ السُّيُوفَ إذَا ما طَابَ جَوْهَرُهَا ... فى أوَّلِ الطَّبْعِ لم يَعْلَقْ بِهَا طَبَعُ[(١)]

جَذْلَانُ يَسْتَضْحِكُ الأيَّامَ عَنْ شِيَمٍ

كَالرَّوْضِ تَضْحَكُ مِنْهُ فى الرُّبَا قِطَعُ[(٢)]

كَالْبَارِدِ العَذْبِ لَذَّتْ مِنْ مَوَارِدِهِ

لِشَارِبٍ — غِبَّ تَبْرِيحِ الصَّدَى — جُرَعُ[(٣)]

* * *

قُلْ لِلْوَزِيرِ الَّذِى تَأْمِيلُهُ وَزَرِى ... إنْ ضَاقَ مُضْطَرَبٌ أَوْ هَالَ مُطَّلَعُ[(٤)]

أَصِخْ لِهَمْسِ عِتَابٍ تَحْتَهُ مِقَةٌ ... تَكَلَّفَ النَّفْسُ مِنْهُ فَوْقَ مَا تَسَعُ[(٥)]

---

(١) الطبْع : الصَّنم مأخوذ من طبع الصانع السيفَ والدرهمَ عملهما ؛ الطَبَع : الصدأ أو العيب والشين ؛ والمعنى : إن ابن جهور كريم الأصل عريق النسب ، لاتلحق به شائبة ، كالسيوف النقية العنصر ، تأتى عندتمام صناعتها بديمة الجوهر صقيلة الحد ؛ وفى الذخيرة « متى ماطاب » .

(٢) المعنى : متهلل الوجه ضاحك الأسارير يهزّ الأيامَ بأريحيته فتفترّ عن خلائق باسمة كما تفتر الرُّبا عن أزهار الرياض .

(٣) غِبّ : عقب ، الصدَى : الظمأ ؛ المعنى : أفعال الأمير تشارف النفوس الوالهة فتسعدها كما ينقع الماء العذب الزلال غلة العطشان .

(٤) الوَزَر : الملجأ ؛ مضطرب : مكان السير فى الأرض ، مطّلَع مكان الصعود أو موضع عال ؛ المعنى إن الوزير هو ملجئى ومفزعى إذا اكتنفتنى الأحداث وزوّعتنى الخطوب .

(٥) أصِخْ : أصغِ ؛ مِقَة : حُبّ ، فى الأصول « وكلّف النفس منها » وقد آثرنا رواية الذخيرة ؛ وفى بعض نسخ الذخيرة « تكلف النفس فيه » ؛ والمعنى : آمل أن تستمع أيها الأمير إلى عتابى المنبعث عن حبى لك وإعجابى بك هذا الحب الذى يحملنى أحتمل فى سبيلك فوق ما أطيق من كيد الحاسدين .

مَا لِلْعِتَابِ – الَّذِى أَحْصَفْتَ عُقْدَتَهُ –
قَدْ خَامَرَ الْقَلْبَ مِنْ تَضْيِيعِهِ جَزَعُ ؟ (١)

لِى فى الْمُوَالَاةِ أَتْبَاعٌ يَسُرُّهُمُ أَنِّى لَهُمْ فى الَّذِى نُجْزَى بِهِ تَبَعُ (٢)

أَلَسْتُ أَهْلَ اخْتِصَاصٍ مِنْكَ يَلْبَسُنِى جَمَالَ سِيمَاهُ ؟ أَمْ مَا فِىَّ مُصْطَنَعُ ؟ (٣)

لَمْ آوِتَ فى الْحَالِ – مِنْ سَعْيِى لَدَيْكَ – وَنًى
بَلْ بِالْجُدُودِ تَطِيرُ الْحَالُ أَوْ تَقَعُ (٤)

لَا تَسْتَجِزْ وَضْعَ قَدْرِى بَعْدَ رَفْعِكَهُ فَاللَّهُ لَا يَرْفَعُ الْقَدْرَ الَّذِى تَضَعُ (٥)

---

(١) فى الذخيرة « ما للعتاب ... » العتاب : الرابطة أو الصلة أو النسبة ؛ أحصف : أحكم ؛ والمعنى : لقد عقدتُ توبتى على يديك فتوثقتْ بيننا العهود ، ولكننى أصبحت أشفق من أن تنفصم ما بيننا من صلات .

(٢) المعنى : لقد سبقتُ كثيرين فى خدمتك والولاء لك ، وهم يجدون السرور البالغ فى أن يسبقونى فى نيل برك والظفر بنمائك فيكيدون لى عندك لتنصرف عنى إليهم .

(٣) السيا والسيماء : المظهر والعلامة ؛ مصطنع : موضع للإحسان ؛ المعنى : كيف تنصرف عنى إلى هؤلاء الحاسدين ؟ ألست من خاصتك المتميزين بجمال موالاتك ؟ أم أنا غير جدير منك بالرعاية والإحسان ؟

(٤) الونى : الفتور أو التوانى أو الكلال ؛ الجدود : الحظوظ ؛ المعنى : لم أقصر فى سعيى إليك ولا توانيت فى خدمانك ؛ ولكنّ الحظوظ ترفع من ترفع وتخفض من تخفض دون تقدير أو حساب .

(٥) المعنى : لقد رفعتَنى إليك وقربتَنى منك فلا تبدّلْ إحسانك إلىّ ، فإن الله لا يرفع من تخفضه ولا يقرب من تبعده .

تَقَدَّمَتْ لَكَ نُعْمَى رَادَهَا أَمَلِي ... فِي جَانِبٍ هُوَ لِلْإِنْسَانِ مُنْتَجَعُ(١)

مَا زَالَ يُونِقُ شُكْرِي فِي مَوَاقِعِهَا ... كَالْمُزْنِ تُونِقُ فِي آثَارِهِ التُّرَعُ(٢)

شُكْرٌ يَرُوقُ وَيُرْضِي طِيبُ طُعْمَتِهِ ... فِي طَيِّهِ نَفَحَاتٌ بَيْنَهَا خِلَعُ(٣)

ظَنَّ العِدَا — إِذْ أُغِبَّتْ — أَنَّهَا انْقَطَعَتْ ... هَيْهَاتَ لَيْسَ لِمَدِّ البَحْرِ مُنْقَطَعُ(٤)

لَا بَأْسَ بِالْأَمْرِ — إِنْ سَاءَتْ مَبَادِئُهُ ... نَفْسَ الشَّفِيقِ — إِذَا مَاسَرَّتِ الرُّجَعُ(٥)

* * *

إِنَّ الأُلَى كُنْتَ — مِنْ قَبْلِ افْتِضَاحِهِمِ — ... مِثْلَ الشَّجِي فِي لَهَاهُمْ لَيْسَ يَنْتَزِعُ(٦)

---

(١) رادها : تقدمها مأخوذة من راد المكان حاول كشفه ومعرفة ما به من الكلأ ؛ منتجع : مكان النجعة وهى المرعى ؛ والمعنى : لقد قادنى أملى إليك فصادفتُ عندك مكانا مأهولا ومرتعاً خصيبا .

(٢) يونق : يعجب ، المزن : السحاب أو المطر ؛ الترع : جمع تُرعة وهى الروضة فى المكان العالى ، أو فوهة الجدول ؛ والمعنى : كلما غمرنى إحسانك أينع شعرى فى الثناء عليك كما تونق الرياض فى أعقاب الأمطار .

(٣) المعنى : رقَّ شكرى وراق لأفضالك السابغة علىّ ، فأصبح طيّب المذاق عذب النفحات ، يخلع على الممدوح حُللاً فاخرة من الثناء لا يبليها الزمان .

(٤) أغبّت : تأخرت حينا ؛ المعنى : إذا أعرضْتَ عنى حينا فلا يظنّن الأعداء أنها جفوة منك ؛ فإن إحسانك إلىّ سيتصل كما يتصل المدّ بعد الجزر على ساحل البحار .

(٥) المعنى : قد تسوء البادى، ثم تحسن الخواتم ، ولا بأس فى هذا فالعبرة بحسن الخواتم .

(٦) يُعَرِّضُ فى هذا البيت ببنى ذكوان ويذكر أنه كان موضع عداوتهم أو كالغصة فى حلوقهم قبل أن يفتضح أمرهم ويجاهروا الأمير بالعداء .

لَمْ أَحْظَ - إِذْ هُمْ عِداً بَادٍ نِفَاقُهُمُ - إِلاَّ كَمَا كُنْتُ أَحْظَى إِذْ هُمُ شِيَعُ(١)

مَا غَاظَهُمْ غَيْرُ مَا سَيَّرْتُ مِنْ مِدَحٍ

فِي صَائِكِ الْمِسْكِ مِنْ أَنْفَاسِهَا كَنَعُ(٢)

كَمْ غُرَّةٍ لِي تَلَقَّتْهَا قُلُوبُهُمُ كَمَا تَلَقَّى شِهَابَ الْمُوقِدِ الشَّمَعُ(٣)

إِذَا تَأَمَّلْتَ [نُصْحِي] غِبَّ غِشِّهِمُ

لَمْ يَخْفَ مِنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ مُنْصَدِعُ(٤)

تِلْكَ الْعَرَانِينُ لَمْ يَصْلُحْ لَهَا شَمَمٌ فَكَانَ أَهْوَنَ مَا نِيلَتْ بِهِ الْجَدَعُ(٥)

---

(١) المعنى : مالى لا أظفر بالحظوة عندك بعد انكشاف أمر بنى ذكوان ؟ فإن حظى منك بعد افتضاح أمرهم هو حظى منك قبل تظاهرهم لك بالمحبة والولاء

(٢) صائك : لاصق ؛ كَنِع المِسكُ بالثوب : لزق به ؛ والمعنى : إن بنى ذكوان يحسدوننى على ما أبدعتُ فى مدحك من قصائد طيبة النفحات تنفح أنفاسُها المسك فتمنحه أذكى العبير .

(٣) المعنى : إن قلوبهم تتلظى بالحقد علىّ فكلما أبصروا طلعتى ذابت قلوبهم حسداً وضغينة كما يذوب الشمع فى النار .

(٤) المعنى : إذا تأملك ولائى لك بعد انكشاف نفاقهم وغشهم أدركت من هو الجدير بالرعاية والتكريم ، فهيهات يخفى انبلاج الصباح ؛ وكلمة « نصحى » وردت ناقصة فى الأصول

(٥) العرانين : جمع عِرْنين ، وهو أعلى الأنف أو ما صلب منه ؛ الشمم : ارتفاع قصبة الأنف ، الجدَع : القطع ؛ والمعنى : إن أنوفهم لم تُخْلَق لترتفع فى شمم وإباء ، فإذا حاولوا هذا فإن أخف عقاب يستحقونه هو قطع هذه الأنوف

أَوْدَعْتَ نُعْمَاكَ مِنْهُمْ شَرَّ مُفْتَرَسٍ
لَنْ يَكْرُمَ الْغَرْسُ حَتَّى تَكْرُمَ الْبُقَعُ[١]

لَقَدْ جَزَتْهُمْ جَوَازِى الدَّهْرِ عَنْ مِنَنٍ
عَفَتْ ، فَلَمْ يَثْنِهِمْ عَنْ غَمْطِهَا وَرَعُ[٢]

لاَ زَالَ جَدُّكَ بِالْأَعْدَاءِ يَصْرَعُهُمْ
إِنْ كَانَ بَيْنَ جُدُودِ النَّاسِ مُصْطَرَعُ[٣]

---

(١) مفترَس : مكان الغرس ؛ المعنى : لقد غرَست جميلك منهم فى أرض خبيثة غير صالحة للإنبات ؛ ولن يثمر الغرس إلا إذا طابت التربة والمناخ .

(٢) عفت : كثرت وطالت ، أو درست وبليت ، والمقصود هنا هو المعنى الأول ؛ غمطها : بخسها ؛ والمعنى : لقد استحقوا شر الجزاء لأنهم كفروا بأنعمك السابغة عليهم ، ولم يحجزهم عن جحود إحسانك إليهم ورع أو تقوى أو ضمير .

(٣) جَدّك : حظك ؛ المعنى : أسأل الله أن ينصرك على أعدائك ويرفع حظك فوق جميع الحظوظ .

٣ - في عهد المعتضد بن عباد

نفي وإعراض

على الرغم من مكانة الشاعر عند المتضد فقد افتحه إحدى نزواته، فأقصاه إلى مكان مقفـــر ، فعاتبه الشاعر بقصيدة ضاع معظمها، ولم يبق منها إلا هذه الأبيات :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ « دُوَيْرٍ » إِجَازَةً تَحَدَّرَ دَمْعُ القَلِقِ الْمُتَرَقْرِقُ(١)

ومنها :

أَعَبَّادُ حَتَّى مِنْ هِبَاتِكَ مُخْلِصٌ وَدُودٌ ؟ وَمِنْ عَافِيكَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ ؟(٢)

تَعَوَّدْتَ بَذْلَ الْمُنْفِسَاتِ فَجُدْتَ بِي وَإِنِّي بِصَوْنٍ مِنْكَ أَحْرَى وَأَخْلَقُ(٣)

ومنها :

وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنْ أَرَى مُتَقَحِّمًا مُسَنَّاةَ مَحْمُومٍ أَخُبُّ وَأُعْنِقُ(٤)

---

(١) المعنى : حينما اجتزنا دويرا — لعله النهر الصغير الموجود بالشمال الغربى لشبه جزيرة إيبيريا — فاضت دموعى .

(٢) العافى : الفقير السائل ؛ بيداء سملق : صحراء مقفرة ؛ والمعنى : لقد تعوّدت أيها الأمير الكرم والسخاء ؛ ولكن أيبلغ بك السخاء أن تجود بتابعك المخلص الوفىّ على الصحارى المجدبة ؟

(٣) المعنى : لقد اعتدت أن تهب كل غال ثمين، وجريت على عادتك فجدت بى على الصحراء مع أننى جدير منك بالحفظ والصيان .

(٤) التقحم : الدخول فى الأمر دون رويّة أو تفكير؛ المسناة : السد المائى ؛ الخبب والإعناق ضربان من السير السريع ؛ والمعنى : ما كنتُ أتوقع أن تبعدنى عنك فأجد نفسى أتخبط فى الوادى متنقلا منها إلى « مسناة محموم » مسرعا فى السير فى عجلة وإشفاق .

٤ – في عهد المعتمد بن عباد

انتهز حساد الشاعر فرصة موت المعتضد بن عباد وولاية ابنه المعتمد الحكم ، فنسبوا إلى الشاعر بيتين فى هجاء المعتضد ، ثم دسوا إلى المعتمد رقعة حرضوه فيها على الفتك بشاعره ووزيره وكانت الرقعة تحمل هذه الأبيات :

[يَأَيُّهَا المَلِكُ العَــلِيُّ الأَعْظَمُ ... إِقْطَعْ وَرِيدَىْ كُلِّ بَاغٍ يَنْئِمُ][1]

وَاحْسِمْ بِسَيْفِكَ دَاءَ كُلِّ مُنَافِقٍ ... يُبْدِى الجَمِيلَ ، وَضِدُّ ذَلِكَ يَكْتُمُ[2]

* * *

لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الكَلَامِ قَلِيــلَهُ ... إِنَّ الكَلَامَ لَهُ سُيُوفٌ تَــكْلِمُ[3]

وَالمَلِكُ يَحْمِى مُلْــكَهُ مِنْ لَفْظَةٍ ... تَسْرِى فَتَجْلِى عَنْ دَوَاءٍ تَعْظُمُ[4]–

---

(١) فى الإحاطة «الأعز الأعظم» ؛ الوريدان : عرقان فى العنق ، باغ : ظالم ينئم وينأم : يئن أو يصوت ؛ والمعنى : أيها الملك السامى الرفيع اضرب عنق كل ظالم دساس .

(٢) احسم : اقطع ؛ والمعنى : عالج بسيفك أمراض المنافقين الذين يظهرون الود ويخفون ألد العداء .

(٣) تكلم : تجرح ؛ والمعنى : لاتستخفن بالكلام اليسير ، فمن الكلام ما يقود إلى الهلاك والوبال .

(٤) المعنى : إن الملك الحصيف العاقل هو الذى يحمى عرشه من كلمة تذاع وتنتشر بين الرعية فتكشف عن أخطار جسيمة لم تكن فى الحسبان ؛ وفى الإحاطة « عن لفظة » .

فَضلاً عن الكَلِم الّذِي قَدْ أَصْبَحَتْ ... غوغاؤُنا جَهراً بِهِ تَتَكلّمُ (١)
فَاللهُ يَعلَمُ أنّ كُلّ مُؤمِّلٍ ... مِثْلي عَلَى حَذَرٍ وَخَوفٍ مِنهُمُ (٢)
فَالدَّمْعُ مِنْ أَجْفانِنا مُتَهلِّلٌ ... وَالنّارُ في أَحْشائِنا تَتَضَرّمُ (٣)

* * *

وَلَقَدْ عَلِمْتَ ـ وَلَنْ يُبَصِّرَكَ الهُدَى ... فَلأَنْتَ أَهْدَى في الأُمُورِ وأَحْزَمُ ـ
أَنّ المُلُوكَ تَخَافُ مِنْ أَبْنائِها ... فَتَحِلُّ مِنْ مُهَجاتِهِمْ ما يَحْرُمُ (٥)
وَلِذاكَ قِيلَ: «المُلْكُ أَعْقَمُ»، لَمْ يَزَلْ ... فِيهِ الوَلِيُّ يُدِيرُ حَرْباً تُضْرَمُ » (٦)

---

(١) يشيرون بهذا إلى ما نسبه الرواة إلى ابن زيدون في هجاء المعتضد إذ يقول:

لقد سرّنا أن النعيّ موكّل ... بطاغية قد حُمَّ منه حِمام
تجانف صوب الغيث عن ذلك الصدى ... ومرّ عليه البرق وهو جهام

ويذكرون أن هذا الهجاء ذاع على ألسنة العامة والغوغاء ؛ والكَلِم : جمع كَلِمة ولا يقل عن ثلاث كلمات ، ويجوز فيه التذكير والتأنيث .

(٢) المعنى : يعلم الله أن كل محب لكم أصبح يشفق من تداول هذا الهجاء على ألسنة الغوغاء .

(٣) المعنى . لقد فاضت أجفاننا بالدموع والتهبت قلوبنا بالآلام حذرا على هذا المُلْك الشامخ وغيظا من الشاعر الجاحد للجميل .

(٤) في القلائد والإحاطة « أهدى في الأمور وأعلم » .

(٥) المعنى : كثيرا ما يبطش الملوك بأبنائهم إذا رأوا في بقائهم خطرا على عروشهم ؛ وهم في هذا يرمزون بفتكة المعتضد بابنه وولي عهده إسماعيل بن عباد

(٦) في القلائد « يثير حربا » ؛ الملك أعقم : في الأمثال « الملك عقيم » أي لاينفع فيه نسب لأنه يقتَل في طلبه الأبُ والولد والأخ والعم ؛ والمعنى : =

فَاحْسِمْ دَوَاعِيَ كُلِّ شَرٍّ دُونَهُ فَالدَّاءُ يَسْرِي إِنْ غَدَا لاَ يُحْسَمِ[1]

كَمْ سَقْطِ زَنْدٍ قَدْ نَمَا حَتَّى غَدَا بُرْكَانَ نَارٍ كُلَّ شَيْءٍ يَحْطِمِ[2]

وَكَذَلِكَ السَّيْلُ الْجُحَافُ، فَإِنَّمَا أُولاَهُ طَلٌّ ثُمَّ وَبْلٌ يُسْجِمِ[3]

وَالْمَالُ يُخْرِجُ أَهْلَهُ عَنْ حَدِّهِمْ فَافْهَمْ فَإِنَّكَ بِالْبَوَاطِنِ أَفْهَمِ[4]

وَاذْكُرْ صَنِيعَ أَبِيكَ أَوَّلَ أَمْرِهِ فِي كُلِّ مُنْهَمٍ فَإِنَّكَ تَعْلَمِ[5]

= لا تُرعَى في المحافظة على ملكك روابط الصداقة والمودة ؛ فإن حماية الملك تستدعي أن يتنكر الإنسان في سبيلها لأقرب القربين إليه من ولده وعشيرته، فكيف بالأصدقاء ؟

(١) احسم : اقطع ؛ والمعنى : بادر بحسم الداء قبل أن يستحكم ويستشرى فيعز الدواء .

(٢) السقط : ما يتطاير من الشرر ، الزَّند : العود الذى تقدح به النار؛ والمعنى كم تنبعث النيران اللافحة من شرارة صغيرة يستهين بشأنها الإنسان ؛ « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

(٣) آثرنا رواية القلائد والإحاطة وفى الأصول « ولذلك السيل » ، السيل الجحاف : الذى يجرف فى سبيله كل شيء ؛ الطل : أضعف المطر ؛ الوبل والوابل : المطر الشديد ؛ أسجمت السماء : أسرع مطرها ودام ، وفى القلائد والإحاطة «وبل يَسْجُمُ» من سجم الدمعُ أو السحابُ إذا سال ؛ والمعنى : إن المطر الخفيف إذا دام أصبح سيلا جارفا ؛ وكذلك المطر يبدأ خفيفا ثم يهطل غزيرا ، فلا تستهن بكلمات قليلة تجر بلاءً كثيرا .

(٤) المعنى : لقد غمرتَ الشاعر بنعمائك فكفر بها ، ولا عجب فوفرة الأموال تدفع الإنسان إلى الغرور وتنبرّ طبائعه فتورده موارد الهلاك .

(٥) فى القلائد « أول مرة » ؛ والمعنى : اقتد بأبيك فى تمسكه بحاشيته فى ...

لَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّعَ شَرَّهُ فَصَفَتْ لَهُ الدُّنْيَا ، وَلَذَّ الْمَطْعَمُ[(١)]

فَعَلاَمَ تَنْـكُلُ عَنْ صَنِيعٍ مِثْلِهِ وَلَأَنْتَ أَمْضَى فِي الْخُطُوبِ وَأَشْهَمُ[(٢)]

وَجَنَانُكَ الثَّبْتُ الَّذِي لاَ يَنْثَنِي

وَحُسَامُكَ الْعَضْبُ الَّذِي لاَ يَـكْهَمُ[(٣)]

وَالْخَالُ أَوْسَعُ ، وَالْعَوَالِي جَمَّةٌ وَالْمَجْدُ أَشْمَخُ ، وَالصَّرِيمَةُ ضَيْغَمُ[(٤)]

لاَ تَتْرُكَنْ لِلنَّاسِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ

وَاحْزِمْ ، فَمِثْلُكَ فِي الْعَظَائِمِ أَحْزَمُ[(٥)]

بده ولايته ؛ فقد فتك بوزير أبيه حبيب كما قضى على كثير من بطانته وأقاربه ، وأخبار فتكاته مشهورة «راجع كتابنا : ابن زيدون ، عصره وحياته وأدبه ص ٤١ — ٤٣»

(١) المعنى : لم يترك أبوك أحداً من حوله يخشى انتقاضه عليه ؛ ولهـــذا صفت له الدنيا واستقرّ السلطان .

(٢) تنكل : تجبن أو تتأخر ، والمعنى : كيف تتأخر عن الاقتداء بأبيك ؟ مع أنك أمضى عزما وأشجع قلبا .

(٣) الجَنان : القلب ؛ العضب : القاطع ؛ يكهم : يكلّ ؛ والمعنى : كيف يفلت منك هذا الجاحد ؟ مع أن قلبك شجاع لا ينثنى ، وسيفك قاطع بتار لا يكل ولا ينثنى ولا يلين .

(٤) العوَالى : جمع عالية وهى أعلى القناة أو رأسها أو النّصف الذى يلى السنان ؛ أشمخ : أعلى ؛ الصريعة : العزيمة ؛ الضيغم : الأسد ؛ والمعنى : كيف تقرّ هذا وملكك أوسع مدى ، وسلاحك أكثر عددا ، ومجدك أرفع منزلة ، وعزيمتك كعزيمة الأسد فى المضاء ؟

(٥) فى الذخيرة « لا تتركن للنشء » ، وفى القلائد « موضع تهمة » ، وفيهـا وفى الإحاطة « فمثلك فى العظائم يحزم » ؛ والمعنى : لا تبق للنفوس مجالا للشك فى عزمك ومضائك ، وخذ الأمور بالحزم فأنت بالحزم جدير .

قَدْ قَالَ شَاعِرُ كِنْدَةٍ فِيمَا مَضَى بَيْتًا عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي يُعْلَمُ[١]

« لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى

حَـــتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ »[٢]

فَاسْمَعْـــهُ قُدْوَتَكَ الَّتِي تَعْتَادُهَا

فِي كُلِّ مَنْ يَبْغِي ، وَرَأْيُكَ أَحْكَمُ[٣]

وَاسْلَمْ عَلَى الأَيَّامِ ، إِنَّكَ زَيْنُهَا وَجَمَالُهَا ، وَالدَّهْرُ دُونَكَ مَأْتَمُ[٤]

* * *

لَا زِلْتَ بِالنَّصْرِ العَزِيزِ مُهَنَّأً وَالدِّينُ عَنْ مَحْمُودِ سَنِيكَ يَبْسِمُ[٥]

وَعَدَتْ عَلَى الأَعْدَاءِ مِنْكَ رَزِيَّةٌ لَا يُسْتَقَلُّ بِهَا ، وَخَطْبٌ صَيْلَمُ[٦]

---

(١) في الذخيرة « إذ قال شاعر كندة » وفي الإحاطة « قولاً على مر الليالي » ؛ وشاعر كندة هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ، منسوب إلى المحلة التي ولد بها « كندة » قرب الـكوفة .

(٢) البيت من قصيدة للمتنبي، في هجاء ابن كيغلغ ومدح أبي العشائر؛ ومعناه: لا يسلم الشريف من ملاحاة الأعداء حتى يريق منهم في سبيل المحافظة على شرفه الدماء .

(٣) المعنى : اقتد بهذا البيت الحكيم، واتبعه في تأديب كل باغ أثيم .

(٤) المأتم كل مجتمع في حزن أو فرح ، أو خاص بالنساء أو الشواب ، وقد أصبح يستعمل في المناحات ؛ والمعنى : نرجو لك السلامة من الفتن والدسائس مدى الحياة فإنك بهجتها وجمالها ، والدهر مثل المأتم إذا خلا منك .

(٥) آثرنا رواية القلائد وفي الأصول « فالدين عن محمود سميك » ؛ المعنى: ندعو لك بأن تظل أبداً مهنأً بالنصر على الأعداء ، حاميا للدين معززاً له حتى يزدهر في عهدك السعيد .

(٦) في القلائد : لاتستقل بها ؛ الصيلم : الداهية أو الأمر الشديد؛ والمعنى : نسأل الله أن يجعلك نكبة على الأعداء لا يستطيعون النهوض بعدها ، وأن يرميهم منك بداهية تقضي عليهم كل القضاء .

وَوُقِيتَ مَكْرُوهَ الْحَوَادِثِ، وَاغْتَدَتْ طَيْرُ السُّعُودِ بِأَيْكِكُمْ تَتَرَنَّمُ[1]

فلما قرأها المعتمد أبي عليه نبله ووفاؤه لشاعره وأستاذه ووزيره أن يتأثر بهذه الدسيسة ؛ ووقع على ظهر الرقعة بهذه الأبيات :

[كَذَبَتْ مُنَاكُمْ، صَرِّحُوا أَوْ جَمْجِمُوا الدِّينُ أَمْتَنُ، وَالسَّجِيَّةُ أَكْرَمُ[2]

خُنْتُمْ، وَرُمْتُمْ أَنْ أَخُونَ، وَإِنَّمَا حَاوَلْتُمُو أَنْ يُسْتَخَفَّ يَلَمْلَمُ[3]

وَأَرَدْتُمُو تَضْيِيقَ صَدْرٍ لَمْ يَضِقْ وَالسُّمْرُ فِي ثُغَرِ الصُّدُورِ تُحَطَّمُ[4]

وَزَحَفْتُمُو بِمِحَالِكُمْ لِمُجَرِّبٍ مَا زَالَ يَثْبُتُ لِلْمِحَالِ فَيَهْزِمُ[5]

---

(١) الأيك : الشجر الكثير الملتف ؛ والمعنى : ندعو الله أن يحميك من الحوادث المكريهة؛ وأن يجعل طيور السعادة تشدو فى رياضك الفيحاء .

(٢) فى بعض نسخ الذخيرة « والمروءة أكرم » ؛ وفى الإحاطة « فالدين أمتن » ؛ جمجمَ الكلامَ . لم يبيِّنه ؛ المعنى : لقد خابت آمالكم فى حملى على الغدر بالصديق سواء صرحتم بأهدافكم أو أخفيتموها ، فإن لى دينا يعصمنى من الظلم ومروءة تحمينى من الغدر .

(٣) فى القلائد « وربما .·. حاولتمو » ؛ يلملم : جبل على مرحلتَيْن من مكة ؛ المعنى : جاهرتم بالخيانة ، وحاولتم حملى عليها دون جدوى فهيهات أن تخفّ الجبال الراسيات .

(٤) القلائد والإحاطة « والسمر فى ثغر النحور » ؛ السُّمْر : الرماح؛ المعنى: حاولتم إثارتى مع أن صدرى واسع وحلمى راسخ وجنانى ثابت إذا قامت الحروب وأزهقت فيها النفوس .

(٥) آثرنا رواية القلائد والإحاطة وفى الأصول « وزحفتم بمحالكم » ؛ فى الذخيرة « ورجمتمو بمحالكم .. فى المحال فيهزم » المحال: الكيد والمكر والدسّ؛ أو القوة والشدة ؛ المعنى: لقد حشدتم كيدكم وحاولتم التأثير فىّ بمكركم ودسائسكم ، وفاتكم أننى خبرت الدهر وتمرّست بالشدائد فلا تؤثر فى نفسى المكائد والوشايات .

أَنَّى رَجَوْتُمْ غَدْرَ مَنْ جَرَّبْتُمُو ... مِنْهُ الْوَفَاءَ . وَظُلْمَ مَنْ لاَيَظْلِمُ ؟[1]

أَنَا ذٰلِكُمْ ، لاَ الْبَغْيُ يُثْمِرُ غَرْسُهُ ... عِنْدِي ، وَلاَ مَبْنَى الصَّنِيعَةِ يُثْلَمُ[2]

كُفُّوا ، وَإِلاَّ فَارْقُبُوا لِيَ بَطْشَةً ... يَلْقَى السَّفِيهُ بِمِثْلِهَا فَيُحَلَّمُ[3]

فلما علم ابن زيدون بهذا الموقف النبيل من صديقه وأميره اهتزت نفسه لهذه الأريحية العظيمة وصاغ فيه هذه القصيدة :

الدَّهْرُ - إِنْ أَمْلَى - فَصِيحٌ أَعْجَمُ ... يُعْطِي اُعْتِبَارِي مَاجَهِلْتُ فَأَعْلَمُ[4]

إِنَّ الَّذِي قَدَرَ الْحَوَادِثَ قَدْرَهَا ... سَاوَى لَدَيْهِ الشُّهْدُ مِنْهَا الْعَلْقَمُ[5]

---

(١) في الذخيرة « وجور من لايظلم » ؛ المعنى : لقد جربتم وفائي وعدلي فكيف تحاولون حملي على الغدر والظلم وأنا منهما بعيد ؟

(٢) آثرنا رواية القلائد والإحاطة وفي الأصول «أنا ذا كم » وفي بعض نسخ الذخيرة والقلائد والإحاطة «ولا مبنى الصنيعة يهدم» ؛ الصنيعة : الإحسان ؛ المعنى : أنا الوفي العادل لا أصغي للدسائس ولا أهدم ماشيدت من إحسان .

(٣) في الإحاطة « يبقى السفيه بمثلها يتحلم » ؛ المعنى : كفوا عن دسائسكم وإلا فترقبوا مني عقابا صارما يردع عن غيه كل جاهل غشوم .

(٤) الاعتبار : الاتعاظ أو القياس العقلي ؛ المعنى : الدهر أبلغ الحكماء وإن كان صامتا ، فإن أحداثه وعظاته تنير أمامي السبل وتعلمني ما لم أكن أعلم ؛ وفي القلائد « الدهر إن أملى » ...

(٥) المعنى : إن الذي يتعمق في فهم الأمور ويدقق النظر في فلسفة الحياة يجد الحلو فيها مثل المر ، والشقاء كالنعيم ؛ فكثيرا ما تتكشف بواطن الأمور عما يناقض ظواهرها ، فمن الحكمة ألا يغتر الإنسان بالظواهر ؛ وفي القلائد « وإذا الفتى ... »

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَلَا أَغْتِرَارُ يَقِفُنِي ... كَدَرَ الْمَآلِ وَلَا تَوَقٍّ يَعْصِمُ[١]

كَمْ قَاعِدٍ يَحْظَى تَعَجُّبُ حَالَهُ ... مِنْ جَاهِدٍ يَصِلُ الدُّءُوبَ فَيُحْرَمُ[٢]

وَأَرَى الْمَسَاعِيَ كَالسُّيُوفِ تَبَادَرَتْ ... شَأْوَ الْمَضَاءِ ، فَمُنْثَنٍ وَمُصَمِّمُ[٣]

وَلَكَمْ تَسَامَى بِالرَّفِيعِ نِصَابُهُ ... خَطَرٌ فَنَاصَبَهُ الْوَضِيعُ الْأَلْأَمُ[٤]

وَأَشَدُّ فَاجِعَةِ الدَّوَاهِي مُحْسِنٌ ... يَشْقَى لِيُمْلِقَهُ الْجَرِيمَةَ مُجْرِمُ[٥]

تَلْقَى الْحَسُودَ أَصَمَّ عَنْ جَرْسِ الْوَفَا

وَلَقَدْ يُصِيخُ — إِلَى الرُّقَاةِ — الْأَرْقَمُ[٦]

* * *

---

(١) الاغترار : عدم الاحتراس ؛ المعنى : لقد تدبرت الامور فوجدت أنّ عدم الحذر لايجلب المعطب، وأن الاحتراس لايكفل السلامة ولا يعصم من الأقدار ؛ وفى القلائد « وإذا نظرت ... كنه المآل »

(٢) فى القلائد « .. تعجّل حظه ... يصل الدروب » ؛ والمعنى : كم قاعد ينال أوفر الحظوظ ؛ وكم مكافح مجاهد تكون نتيجة سعيه الحرمان .

(٣) المعنى : قدتصيب المساعى الخبيثة ، وقد تخيب ، شأنها فى هذا شأن السيوف المرهفة ؛ فمنها ما ينفذ فى الجسوم ومنها ماينثنى أو يصيبه الكلال .

(٤) الخطر : الشرف وارتفاع القدر ؛ والمعنى : كم ارتفع شأن الرجل الخطير فنافسه الوضيع اللئيم ، وربما امتاز عنه لاختلال موازين الحظوظ .

(٥) فى القلائد « فيملقه الجريمة » ؛ والمعنى : أفدح المصائب الباغتة هى التى يرمى المجرمُ فيها المحسنَ بأشنع الجرائم زورا وبهتانا .

(٦) فى القلائد « جرْس الرُّقى » ، يصيخ : يستمع ؛ الرقاة : الذين يتلون التعاويذ ويملقون التمائم ؛ الأرقم : حية فى جلدها بياض وسواد ، وهى أخبث الحيات ؛ والمعنى : قد تستمع الحيات إلى صاحب التعاويذ ، ولكن الحسود يصم أذنيه عن الاستماع إلى أصوات الوفاء .

قُلْ لِلْبُغَاةِ الْمُنْبِضِينَ قِسِيَّهُمْ سَتَرَوْنَ مَنْ تُصْمِيهِ تِلْكَ الْأَسْهُمُ (١)

أَمْرَرْتُمُ فَرَأَى نَجِيَّ عُيُوبِكُمْ شَيْحَانُ مَدْلُولٌ عَلَيْهَا مُلْهَمُ (٢)

وَعَبَأْتُمُ لِلْفِسْقِ ظُفْرَ سِعَايَةٍ لَمْ يَعْدُكُمْ أَنْ رُدَّ وَهْوَ مُقَلَّمُ (٣)

وَنَبَذْتُمُ التَّقْوَى وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ فَغَدَا نَقِيضَكُمُ التَّقِيُّ الْأَكْرَمُ (٤)

مَا كَانَ حِلْمُ « مُحَمَّدٍ » لِيُحِيلَهُ عَنْ عَهْدِهِ دَغَلُ الضَّمِيرِ مُذَمَّمُ (٥)

مَلِكٌ تَطَلَّعَ لِلْخَوَاطِرِ غُرَّةً زَهْرَاءَ يُبْدِيهَا الزَّمَانُ الْأَدْهَمُ (٦)

---

(١) أنبض الرامى القوس وعن القوس : جذب وترها لتصوّت ؛ تصميه : ترميه رمية قاتلة ، وفى الذخيرة « المتضين قسيهم » مأخوذه من انتضى السيف: سلّه ، والمعنى : قل للذين يعدون أسهمهم لقتلى سترون كيف ترتد إليكم سهامكم.

(٢) فى الأصول « أمر تمّ فرأى ... عيوبكم » وقد آثرنا رواية القلائد؛ وفى الذخيرة « رأى نجى عيونكم » ، أى مناجاة لحاظكم ، وفى القلائد «ملوم عليها » ؛ الشيحان : الحازم ؛ والمعنى : أخفيتم مكركم ودبرتم المكائد فكشفها الأمير بفطرته الملهمة وتدبيره الحكيم .

(٣) فى القلائد « إذ رُدّ » ؛ والمعنى : أعددتم للفجور مخلب كيد ودسائس ولم يلبث الأمير أن قطع هذا المخلب الغدار .

(٤) فى نسخة ز « فغدا بنيضكم » ؛ وفى القلائد « التقىّ المسلم » ؛ والمعنى: طرحتم التقوى وراء ظهوركم وناقضتم الأتقياء الكرماء.

(٥) دغل الضمير : فاسد القلب حقود النفس ؛ والمعنى : ما كان حلم الأمير ليتغير نتيجة لسعاية حاقد لئيم .

(٦) فى القلائد « زينّ بها الزمان الأدهم » ؛ والمعنى : لقد طلع الأمير غرة زهراء فى وجه الزمان الأدهم .

يَغْشَى النَّوَاظِرَ مِنْ جَهِـــيرِ رُوَائِهِ
خَلْقٌ – يُرَى مِلْءَ الصُّدُورِ – مُطَهَّمُ[1]

وَسَـــنَا جَبِينٍ يَسْتَطِيرُ شُعَاعُهُ يُغْنِي عَنِ الْقَمَرَيْنِ مَنْ يَتَوَسَّمُ[2]

صَلْتٍ تَوَدُّ الشَّمْسُ لَوْ صِيغَتْ لَهُ تَاجاً تُرَصِّعُ جَانِبَيْهِ الْأَنْجُمُ[3]

فَضَحَتْ مَحَاسِنُهُ الرِّيَاضَ بَكَى الْحَيَا وَهْناً عَلَيْهَا فَاغْتَدَتْ تَتَبَسَّمُ[4]

بِالْقَدْرِ يَبْعُدُ ؛ وَالتَّوَاضُعِ يَدَّنِي وَالْبِشْرِ يُشْمِسُ، وَالنَّدَى يَتَغَيَّمُ[5]

---

(١) الجهير : الجليل ؛ الرواء : ماء الوجه أو حسن النظر ؛ المطهم : التام من كل شيء أو البارع الجمال ؛ والمعنى : يطالع الأميرُ الأنظار بجماله الرائع فيملأ العيون والصدور .

(٢) فى القلائد « يستبين شعاعه » ؛ يستطير : ينتشر ، يتوسم : يتطلب ويتعرف ؛ والمعنى : للأمير وجه طلق وضاء تنتشر أشعته فتغنى الناظرين عن ضوء الشمس والقمر .

(٣) فى القلائد «خلق تود الشمس .. » ؛ الصلت : الجبين الواضح البارز؛ المعنى : للأمير جبين مشرق وضّاح تتمنى الشمس أن تكلله بتاج منها مزين بدرارى النجوم .

(٤) فى القلائد « وهمى عليها » ؛ الحيا : المطر ؛ الوهن : نحو نصف الليل أو بعد ساعة منه ، وقال الأصمعى : هو حين يدبر الليل ؛ والمعنى : محاسن الأمير تفوق الرياض التى سقاها المطر فى ظلام الليل وطلعت عليها الشمس فنعشتها بأشعتها الدافئة فازهرت وأينعت وجادت بالثمار .

(٥) فى القلائد « فالقدر يبعد » ؛ والمعنى : ترتفع مكانة الأمير فلا يلحقه إنسان ، ولكنه بتواضعه يهبط إلى مستوى الناس فيقترب منهم ، ويشرق وجهه كالشمس ، ويفيض جوده كالسحاب .

جذلانَ – فى يومِ الوَغى – مُتطلِّقٌ وجهاً إليها ، والرَّدى مُتجهِّمُ[1]
بأسٌ كما صالَ الهِزبرُ ، إزاءهُ جُودٌ ، كما جاشَ الخِضَمُّ الخِضْرِمُ[2]

* * *

نفسى فداؤكَ أيُّها المَلِكُ الذى كلُّ المُلوكِ لهُ العَلاءَ تُسلِّمُ[3]
سُدتَ الجميعَ ، فليسَ منهمْ مُنكِرٌ أنْ صِرتَ فذَّهمُ الذى لا يُتأمُ[4]
لا غرْوَ أنَّ المجدَ – فى حُكمِ الحجَا مِنْ أنْ يُضافَ إليكَ صِنوٌ – أعقمُ[5]
ما إنْ لهمْ كخِصالكَ الزُّهرِ التى مِنها على زُهرِ الكواكبِ مِيسَمُ[6]

---

(١) المعنى : يتهلل وجه الأمير بالبشر فى أحرج ساعات القتال على الرغم من تكشير الموت عن أنيابه وعصفه بالجسوم .

(٢) الهزبر : الأسد أو الغليظ الضخم أو الشديد الصلب ؛ جاش : هاج واضطرب ؛ الخضم : البحر أو الجم الكثير ، الخضرم ؛ البحر العظيم أو البئر الكثيرة الماء أو الكثير من كل شىء ؛ والمعنى : يصول الأمير فى شجاعة كالأسد ويجود فى غزارة كالبحر المتلاطم الأمواج .

(٣) المعنى : أفديك بنفسى أيها الملك العظيم الذى ينقاد له الملوك جميعهم ويسلمون إليه مقاليد الزعامة وا ار .

(٤) الفذ : الفرد القليل النـ ـر ؛ يتأم : يكون له نظير أو عديل ؛ والمعنى : أقرّ لك جميع الملوك بالسيادة واعترفوا بألاّ نظير لك بينهم فى المجد والفخار .

(٥) آثرنا رواية القلائد ، وفى الأصول « أم المجد فى بكر الحجا » وفى نسخة ت « .. . صنف أعقم » والصنو : الأخ الشقيق أو الابن ؛ والمعنى : لاعجب فى أن يعقم المجد فلا يجد لك نظيرا فى شريعة العقول .

(٦) فى القلائد « ما إن يُرَى ... » ؛ والمعنى : ليس لهؤلاء الملوك أخلاق وضاءة كأخلاقك التى لها آثار على النجوم الساطعة الضياء .

الْمَحْتِدُ الزَّاكِي الثَّرَى ، وَالسُّؤْدُدُ السَّـــامِي الذَّوَائِبِ، وَالْفَخَارُ الْأَعْظَمُ[(١)]
وَالْحِلْمُ يَرْسَخُ هَضْبُهُ ، وَالْعِلْمُ يَزْ خَرُ بَحْرُهُ، وَلَظَى الذَّكَا يَتَضَرَّمُ[(٢)]

* * *

دَعْ ذِكْرَ صَخْرٍ وَابْنَ صَخْرٍ قَبْلَنَا ... أَنْتَ الْحَلِيمُ وَغَيْرُكَ الْمُتَحَلِّمُ[(٣)]
لَكَ عَفْوُ شَهْمٍ لاَ يَضِيعُ حَزَامَةً ... وَلَئِنْ بَطَشْتَ فَبَطْشُ مَنْ لاَ يَظْلِمُ[(٤)]
إِنَّ الْكَمَالَ شَرَحْتَ مَعْنَى لَفْظِهِ ... وَلَكَانَ وَهْوَ الْمُشْكِلُ الْمُسْتَبْهِمُ[(٥)]

* * *

---

(١) المحتد : الأصل أو الطبع ؛ الزاكى : الطاهر ؛ وزكت التربة : صلحت وأخصبت ؛ والمعنى : ينتمى الأمير إلى أصـل عريق ؛ ويتصف بأمجاد رفيعة سامية ، ويتسم بفخار لا يدانيه فخار .

(٢) المعنى : وهو إلى هذا راسخ الحلم رحب الأناة ، كما أنه واسع الثقافة غزير العلم ، وفيه ذكاء وقاد يكاد يلتهب من حدة التفـكير .

(٣) فى القلائد « وابن صخر بعده » ؛ صخر: هو الأحنف بن قيس سيد من سادات بنى تميم ؛ وابن صخر : هو معاوية بن أبى سفيان (صخر) بن حرب وكان يضرب به وبالأحنف المثل فى الحلم ؛ والمعنى : لقد حزت أشرف غاية فى الحلم لم ينلها أحد سواك ممن اشتهروا بالصفح والغفران ، فأنت الجدير بوصف الحليم وغيرك متكلف متصنع لا يصدر عن طبع أصيل .

(٤) الحزم والحزامة : ضبط الأمور وإحكام التدبير ؛ والمعنى : إنك تعفو عفوَ مقتدر حازم يصدر فى حلمه عن حكمة لا عن ضعف ؛ وإذا حقّ العقاب فإنك تعاقب بقدر لا تتجاوز فيه الحد إلى الظلم والإجحاف .

(٥) المشكل المستبهم : الغامض الملتبس ؛ والمعنى : كان معنى الـكمال خافيا على الناس حتى أبرزته أنت للعيان فشرحت معناه بفعالك الجيدة شرحا عمليا محسه الناظرون .

أَللهُ قَدْ أَرْضَاهُ مِنْكَ تَحَرُّجٌ ثَقِفٌ، وَعَقْدٌ فِي التُّقَى مُسْتَحْكِمُ[1]
لَمَّا اعْتَمَدْتَ عَلَيْهِ كَانَ بِنَصْرِهِ دَأْبًا مُؤَيِّدَكَ الَّذِي لَا يُسْلِمُ[2]

* * *

أَنَّى أُؤَدِّي فَرْضَ أَنْعُمِكَ الَّتِي وَبَلَتْ كَمَا وَبَلَ السَّحَابُ الْمُثْجِمُ[3]
أَمْطَيْتَنِي ثَبَجَ السِّمَاكِ بِرُتْبَةٍ عَلْيَاءَ، مَنْكِبُ عِزِّهَا لَا يُزْحَمُ[4]
وَتَرَكْتَ حُسَّادِي عَلَيْكَ، وَكُلُّهُمْ شَاكِي حَشًا يَدْوَى وَأَنْفٍ يُرْغَمُ[5]

---

(١) التحرّج : التأثم ؛ ثَقِف : حاذق فطن ؛ والمعنى : لقد أرضيت ربك بتصونك عن مقارفة الذنوب ، وكان تصونك قائما على الفهم ودقة الفطنة لا على النظر السطحى أو الفهم الضيق للأمور ؛ كما أطعت الله بالمحافظة على عهدك الوثيق بمراعاة التقوى والتمسك بالصلاح .

(٢) من ألقاب الأمير : المعتمد على الله ، والمؤيد بالله ؛ والمعنى: لما اعتمدت على الله فى كل شئونك أيدك على الأعداء ولم يخذلك فى مواقف الضنك والشدائد والملمات .

(٣) فى القلائد « فتى أؤدى ... يبل السحاب المسجم » ، وبل : أمطر ؛ المثجم : السريع المطر ؛ والمعنى : كيف أقوم بشكر أياديك الكريمة التى غمرتنى بالنعم كما يغمر السحاب الأرض بالمطر ؟

(٤) الثبج : الوسط ؛ السماك : أحد نجمين نيرين هما السماك الرامح والسماك الأعزل ؛ المنكب : مجمع عظم العضد والكتف ؛ والمعنى : لقد رفعت قدرى فوق النجوم بما منحتنى من رتبة لا تساميها فى عزتها الرتب والألقاب ؛ وفى القلائد « أمطيتنى مَتْنَ السماك »

(٥) دَوِيَ : مرض ؛ يرغم : يلتصق بالتراب ؛ والمعنى : تركت حسادى أذلاء تتفطر قلوبهم من الحقد والحسد وأنوفهم معفرة بالتراب .

نَصَحَ العِدَا فِي زَعْمِهِمِ ، فَوَقَمْتَهُمْ وَالغِشُّ فِي بَعْضِ النَّصَائِحِ مُدْغَمُ[١]

وَثَنَاهُمُو ثَبْتٌ ، قَنَاةُ أَنَاتِهِ خَلْقَاءُ ، يَصْلُبُ مَتْنُهَا إِذْ يُعْجَمُ[٢]

وَزَهَاهُمُو نَظْمُ الهُرَاءِ ، فَبَكَّتَهُمْ نَظْمٌ عُقُودُ السِّحْرِ مِنْهُ تُنْظَمُ[٣]

أَشْرَعْتَ مِنْهُ إِلَى الفُؤَادِ أَسِنَّةً نَفَذَتْ ، وَقَدْ يَنْبُو الطَّرِيرُ اللَّهْذَمُ[٤]

* * *

فَرَتْ عَوَتْ ، فَزَأَرْتَ زَأْرَةَ زَاجِرٍ —

رَاعَ الكُلَيْبَ بِهَا السَّبَنْتَى الضَّيْغَمُ[٥]

---

(١) وقم الرجلُ عدوَّه : قهره وأذلّه ، أورده أقبح الرد ، وحزّنه أشد الحزن ؛ مدغم : مختلط ؛ والمعنى : حاول العدا الظهور أمامك بمظهر الناصحين فرددتهم أعنف الرد لأنهم مخادعون غدارون يبطنون الغش وإن أظهـروا الإخلاص والوفاء .

(٢) الثَّبْت : الشجاع الثابت فى مواقف البأس ، ومنه قول العجاج « ثبت إذا ما صِيحَ بالقوم وقر » أو عاقل متماسك ، أو الحجة الثقة فى روايته ؛ الخلقاء : المصمتة الملساء الخالية من الكسور أو الشقوق ؛ المتن : الظهر أو مابرز من الأداة ؛ عجم العودَ : اختبره بأسنانه ليعرف مدى صلابته ؛ والمعنى : لقـد رددتَ الحاسدين عنى ، ورأوا فيك رجلا حازما متثبتا فى أموره لا تلين قناته لغامز ولا يستجيب عقله لحاسد أو حقود .

(٣) زهاهم : استخفهم ؛ والمعنى : لقـد نظموا فى إثارتك شعرا تافها ركيكا فصدتّهم بشعرك الرائع الساحر .

(٤) الطرير : المحدّد المسنون أو ذو المنظر الجميل ؛ اللهذم : الحاد القاطع من السيوف أو الأسنة أو الأنياب ؛ والمعنى : سددتَ من شعرك أسنّة حادة نفذت فيهم ، وقد يرتد الرمح المسنون ولكن شعرك لاترتد له سهامه .

(٥) السنتى : الجرى ، المقدام ، أو النمر ، أو الأسد ؛ والمعنى : لقد عوى الحاسدون كالذئاب فزأرت فيهم كالأسد الكاسر يرهب زئيره الكلاب .

يا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ يَعُودُ سَنِيهُمُ؟	أَمْ قَدْ حَماهُ النَّبْحُ ذَاكَ الْمُكْعَمُ [(١)]
لِى مِنْكَ ـ فَلْيَذُبِ الْحَسُودُ تَلَظِّيًا ـ	لُطْفُ الْمَكَانَةِ وَالْمَحَلُّ الأَكْرَمُ [(٢)]
وَشُفُوفُ حَظٍّ لَيْسَ يَفْتَأُ يُجْتَلَى	غَضَّ الشَّبَابِ؛ وَكُلُّ حَظٍّ يَهْرَمُ [(٣)]
لَمْ تُلْفَ صاغِيَتِى لَدَيْكَ مُضاعَةً	كَلَّا؛ وَلَا أَخْفَى اصْطِناعِى الأَقْدَمُ [(٤)]
بَلْ أَوْسَعَتْ حِفْظًا وَصِدْقَ رِعايَةٍ	ذِمَمٌ مُوَثَّقَةٌ العُرَا لا تُفْصَمُ [(٥)]

(١) كعم البعيرَ : شدّ فاه لئلا يعض أو يأكل ، وكعمه الخوفُ : أسكته ، قال ذو الرمة :

بين الرجا والرجا من جيب واسبة … بهماء ، خابطُها بالخوف مكعوم

« أى بين الناحية والناحية من مداخل هذه الصحراء الواسعة مفازة لا يهتدى فيها السائر ، ويخرس الخوفُ فيها المسافرين » ؛ والمعنى : لست أدرى أيسود هؤلاء الحاقدون إلى الوقيعة والدسائس أم أنهم أخذوا على يديك درسا قاسيا يشل ألسنتهم ويخرس أفواههم مدى الحياة ؟

(٢) المعنى : لى عنـدك مكانة عالية ومنزلة كريمـة ، فليذب الحاسدون وليموتوا بغيظهم .

(٣) الشفوف : الأستار أو الثياب الرقيقة التى تظهر ما وراءها ، أو الأرباح ، أو الفضل ؛ والمعنى : حظى لديك وافر متجدد مثل الشباب الغض مع أن كل حـظّ يدركه الشيب أو الفناء ؛ وفى القلائد « وكل غض يهرم » .

(٤) صاغية الرجل : قومه الذين يميلون إليه ؛ والمعنى : لم تضيع صلاتى الوثيقة بك منذ كنت فى حاشيتك ، ولم تُغْـفِلْ إخلاصى لك وحبك لى ؛ وفى الذخيرة « ضاع اصطناعى » وفى القلائد « حق اصطناعى » .

(٥) المعنى : لم تتأثر بكلام الحاقدين بل رعيت الصداقة الوثيقة وحفظت الذمام الوثيق الذى لا تنفصم عراه .

فَلْيَخْرِقَنَّ الْأَرْضَ شُكْرٌ مُنْجِدٌ مِنِّى تَنَاقَلُهُ الْمَحَافِلُ مُتْهِمُ[1]

عِطْرٌ — هُوَ الْمِسْكُ الشَّطُوعُ — يَطِيبُ فِى شَمِّ الْعُقُولِ أَرِيجُهُ الْمُتَنَسِّمُ[2]

وَإِذَا غُصُونُ الْمَكْرُمَاتِ تَهَدَّلَتْ كَانَ الثَّنَاءُ هَدِيلَهَا الْمُتَرَنِّمُ[3]

الْفَخْرُ ثَغْرٌ — عَنْ حِفَاظِكَ — بَاسِمٌ وَالْمَجْدُ بُرْدٌ — مِنْ وَفَائِكَ — مُعْلَمُ[4]

فَاسْلَمْ مَدَى الدُّنْيَا، فَأَنْتَ جَمَالُهَا وَتَسَوَّغِ النُّعْمَى، فَإِنَّكَ مُنْعِمُ[5]

---

(١) خرقَ المفازةَ : قطعها ؛ منجد : أى نجدا ؛ مُتْهِم : أى تهامة (وهى مكة أو شمالى الحجاز) ؛ والمعنى : سأصوغ فيه قصائد إطراء تجوب الأرض فى شتى الأقطار ؛ وتتحدث بها جميع محافل الأدباء.

(٢) المعنى : قصائدى فيك يفوح شذاها مثل المسك فتنتشى بنسيمه العقول.

(٣) فى الخريدة « كان الهديلَ » ؛ والمعنى : إذا ازدهرت مكارمك كالروضة الفيحاء، ترنمت قصائدى بالثناء عليها كما يسجع الحمام على الأغصان.

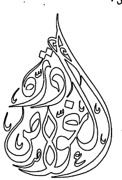
(٤) فى الخريدة «الفجر ثغر ..» ؛ الحِفاظ : الحمية والأنفة ؛ بُرْدٌ مُعْلَم ثوب مزيّن مرقّم ؛ والمعنى : يبتسم الفخر مزدهيا بعزتك وحميتك ؛ ويتزين المجدُ بوفائك ومودتك.

(٥) المعنى : دُمْ على الأيام فإنك جمالها وزينتها ، وتَهنأ بالسعادة والنعيم فإنك مصدر للسعادة والنعيم.



المدائح

طوى الشاعر جُلّ حياته سفيرا أو وزيرا أو كبيرا للوزرا ، فلم يمدح إلا الملوك الذين خالطوه فصادقوه « فجاء من القول بسِحْر ، وقلده أبهى نحر ، لم يصرفه إلا بين ريحان وراح ، ولم يُطلعه إلا فى سماء مؤانسات وأفراح ، ولا تعدّى به الرؤساء والملوك ، ولا تردى منه إلا حُظوة كالشمس عند الدلوك » كما قال ابن خاقان .



١ - مع أبي الحزم بن جهور بقرطبة

ثناء وعتاب

هٰذَا الصَّبَاحُ عَلَى سُرَاكِ رَقِيبَا ... فَصِلِي بِفَرْعِكِ لَيْلَكِ الْغِرْبِيبَا[١]

وَلَدَيْكِ - أَمْثَالَ النُّجُومِ - قَلَائِدٌ ... أَلِفَتْ سَمَاءَكِ لَبَّةً وَتَرِيبَا[٢]

لِيَنُبْ عَنِ الْجَوْزَاءِ قُرْطُكِ كُلَّمَا ... جَنَحَتْ تَحُتُّ جَنَاحَهَا تَغْرِيبَا[٣]

وَإِذَا الْوِشَاحُ تَعَرَّضَتْ أَثْنَاؤُهُ ... طَلَعَتْ ثُرَيَّا لَمْ تَكُنْ لِتَغِيبَا[٤]

وَلَطَالَمَا أَبْدَيْتِ إِذْ حَيَّيْتِنَا ... كَفًّا - هِيَ الْكَفُّ الْخَضِيبُ - خَضِيبَا[٥]

* * *

(١) السرى : السير ليلا ؛ الفرع : الشَّعر التام ؛ الغربيب : الشديد السواد ؛ والمعنى : كاد الصباح يفضح سُراك فى الظلام ، فصِلى سواد الليل بسواد شعرك الحالك حتى يطمس الظلامُ صفحةَ الضياء .

(٢) اللَّبَّة : النحر أو موضع القلادة فى الصدر؛ التريب : مكان القلادة جمعها ترائب ؛ والمعنى : عندك قلائد مضيئة كالنجوم تجول فوق صدرك كما تجول النجوم فى صفحة السماء .

(٣) الجوزاء : نجم أو برج فى السماء ؛ جنحت : مالت ؛ والمعنى : ينوب قرطك الوضاء مناب الجوزاء إذا مالت للغروب .

(٤) الوشاح : نسيج عريض مزين بالجواهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها كالوسام ؛ تعرضت : تثنت ؛ أثناؤه : طياته (جمع ثِنْى)؛ والمعنى : إذا تثنى الوشاح على صدرك أبرز منك كوكبا وضاء لا يغرب ضوؤه إذا غربت النجوم .

(٥) الكف الخضيب : نجم ؛ والمعنى طالما حييتنا بيد خضيب وضيئة كالنجم اللامع ؛ وفى بعض نسخ الذخيرة « واطالما حيَّيت »

أظَنِينةً ، دَعْوى البَرَاءةِ شأنُها   أنتِ العَدُوُّ فلِمْ دُعيتِ حَبيبا(١)

ما بالُ خدِّك لا يزالُ مُضرَّجاً   بدمٍ ، ولحظُكَ لا يزالُ مُريبا ؟(٢)

لو شئتَ ما عذَّبتَ مهجةَ عاشقٍ   مُستعذِبٍ في حُبِّكَ التَّعذيبا(٣)

ولَزُرتَهُ بل عُدتَهُ ؛ إنّ الهوى   مرضٌ يكونُ له الوِصالُ طبيبا(٤)

ما الهجرُ إلا البينُ ، لولا أنّهُ   لم يشحْ فاهُ به الغرابُ نعيبا(٥)

ولقد قضى فيكَ التجلّدُ نحبَهُ   فثوى ، وأعقبَ زفرةً ونحيبا(٦)

---

(١) ظنينة : متهمة ، ومنه أظنّه وأطنّه : اتهمه ؛ والمعنى : أيتهـا المتهمة بسفك دماء العاشقين مع أن مظهرك برىء ، وديع مثل الأطفال ، لقد دعوناك حبيبا وكان الأولى أن نحشرك فى زمرة الأعداء .

وفى بعض نسخ الذخيرة « أضنينة »

(٢) المعنى : لازال خدك مضرجا بدماء العشاق، ولا زال لحظك يدعو إلى الريبة فى فتكه بالقلوب ، ومثله قول الحصرى :

يا من جحدتْ عيناه دمى   وعلى خـدّيه توردُهُ

خدّاك قد اعـترفا بدمى   فعـلام جفونك تجحده ؟

(٣) المعنى : لو شئت الإنصاف لرحمت مهجة عاشق يستلذ العذاب فى سبيل هواك .

(٤) فى نسخة ت «أوعدته» ؛ والمعنى : لو رحمته لبادرت بزيارته أو على الأصح بعيادته لأنه مريض بحبك وأنت له الطبيب الآسى .

(٥) فى الذخيرة « إلا أنه » ؛ شحا فمه : فتحه ؛ النعيب : صوت الغراب؛ والمعنى : ليس الهجر إلا الفراق ، ولا فرق بينهما إلا أن الغراب ينذر بالفراق ولا ينذر بالهجران .

(٦) المعنى : لقد تجلدت فى هواك حتى وهى جلدى وفنى صبرى وأعقب لى البكاء والزفرات .

وَأَرَى دُمُوعَ الْعَيْنِ لَيْسَ لِفَيْضِهَا غَيْضٌ إِذَا مَا الْقَلْبُ كَانَ قَلِيبَا[1]

* * *

مَالِي وَلِلْأَيَّامِ ؟ لَجَّ مَعَ الصِّبَا عُدْوَانُهَا فَكَسَا الْعِذَارَ مَشِيبَا[2]

مَحَقَتْ هِلَالَ السِّنِّ قَبْلَ تَمَامِهِ وَذَوَى بِهَا غُصْنُ الشَّبَابِ رَطِيبَا[3]

لِأَلَمَّ بِي مَا لَوْ أَلَمَّ بِشَاهِقٍ لَانْهَالَ جَانِبُهُ فَصَارَ كَثِيبَا[4]

فَلَئِنْ تَسُمْنِي الْحَادِثَاتُ فَقَدْ أَرَى

لِلْجَفْنِ فِي الْعَضْبِ «الصَّقِيلِ نُدُوبَا»[5]

وَلَئِنْ عَجِبْتُ لِأَنْ أُضَامَ «وَجَهْوَرٌ» نِعْمَ النَّصِيرُ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيبَا[6]

---

(١) غيض : نضوب ؛ القَليب : البئر ؛ والمعنى : لا تجفُّ دموع العين إذا كان القلب بعدها بفيضه المعيم .

(٢) لجّ : تمادى فى العناد ؛ العِذار : منبت شعر اللحية ؛ والمعنى : مالى وللدنيا أسرفت فى الإساءة إلىّ فعجلت بالشيب علىّ ؟

(٣) المعنى : أساءت إلىّ الدنيا فجنت على شبيبتى قبل استوائها فأذبلت غصنها الرطيب .

(٤) المعنى : لقد نزل بى من الآلام ما لو نزل بجبل عال أشم لانهدم وتحول إلى كثيب مهيل .

(٥) ورد آخر البيت ناقصا فى الأصول وقدأ كملناه بما يناسب المقام ؛ والمعنى : إذا أساءت إلىّ الحادثات وأصابتنى بالوهن فلا عجب ، فكثيرا ما يترك الجفن آثارا فى صفحة السيف البتار .

(٦) المعنى : إذا عجبتُ من إساءة الدهر إلىّ وأنا فى حماية ابن جهور فقد حق لى العجب .

مَنْ لاَ تَعَدَّى النَّائِبَاتُ بِجَارِهِ ... زَحْفاً، وَلاَ تَمْشِي الضَّرَاءَ دَبِيبَا[1]

مَلِكٌ أَطَاعَ اللهَ مِنْهُ مُوَفَّقٌ ... مَا زَالَ أَوَّاباً إِلَيْهِ مُنِيبَا[2]

يَأْبَى رِضَاهُ مُعَادِياً وَمُوَالِياً ... وَيَكُونُ فِيهِ مُعَاقِباً وَمُثِيبَا[3]

مُتَمَرِّسٌ بِالدَّهْرِ، يَقْعُدُ صَرْفُهُ ... إِنْ قَامَ فِي نَادِي الْخُطُوبِ خَطِيبَا[4]

لاَ يُوهِمُ الرَّأْيُ الْفَطِيرُ بِهِ، وَلاَ ... يَعْتَادُ إِرْسَالَ الْكَلاَمِ قَضِيبَا[5]

تَأْبَى ضَرَائِبُهُ الضُّرُوبُ نَفَاسَةً ... مِنْ أَنْ تَقِيسَ بِهِ النُّفُوسُ ضَرِيبَا[6]

---

(١) الضراء : الاستخفاء ، ويمشي الضراء : يسير مستخفيا فيما يواريه من الشجر ، ويقال لمن يخدع صاحبه : هو يدب له الضراء ويمشي له الخَمَر ، والخمر : الشجر الكثيف ؛ والمعنى : لا تصيب النائبات جار ابن جهور ولا تدبر له الكيد والخصام .

(٢) أوّاب : تائب ، ومنه قوله تعالى « إنه كان للأوابين غفورا » ؛ منيب إلى الله : مقبل عليه وراجع إليه .

(٣) المعنى : لا يعادي الأمير أحدا ولا يصادق أحدا إلا في سبيل الله كما أنه لا يعاقب ولا يثيب إلا في الله .

(٤) تمرس بالشيء : احتكّ به أو درسه وخبره ؛ والمعنى : الأمير عنك خبير يرد بيأسه صروف الدهر مفلولة السلاح .

(٥) الرأي الفطير : الذي يُرسل على البديهة دون رويّة أو تمحيص .

(٦) الضرائب : الطبائع ؛ الضّروب : الأشباه والأمثال جمع ضَرْب ؛ الضريب : الشبيه والمثيل ؛ والمعنى : تأبى طبائعه السامية أن يكون لها مثيل أو شبيه في السموّ والجلال .

بَسَّامُ ثَغْرِ الْبِشْرِ إِنْ عَقَدَ الْحُبَا ... فَرَأَيْتَ وَضَاحًا هُنَاكَ مَهِيبَا[1]

مَلَأَ النَّوَاظِرَ صَامِتاً ، وَلَرُبَّمَا ... مَلَأَ الْمَسَامِعَ سَائِلاً وَمُجِيبَا[2]

* * *

[إِنَّ الْجَهَاوِرَةَ الْمُلُوكَ تَبَوَّءوا ... شَرَفاً جَرَى مَعَهُ السِّمَاكُ جَنِيبَا][3]

عِقْدٌ تَأَلَّفَ فِي نِظَامِ رِيَاسَةٍ ... نَسَقَ اللآلِي مُنْجِباً وَنَجِيبَا[4]

يَقْضِي التَّجَارِبَ كَهْلُهُمْ مُسْتَغْنِياً ... بِقَرِيحَةٍ هِيَ حَسْبُهُ تَجْرِيبَا[5]

---

(١) عقد حُبوته : ضمّ رجليه إلى بطنه في جلوسه وجمعهما مع ظهره بثوب يلفه حوله ، وقد يكتفى عن الثوب بيديه ، ويكنون بهذه الجلسة عن الوقار والهيبة ؛ والمعنى : يتهلّل وجه الأمير بالسماحة فإذا عقد حبوته لحظت فيه الجلال ممزوجا بالجمال .

(٢) في الأصول « ساما ومجيبا » وقد آثرنا رواية الذخيرة ؛ والمعنى : إن الأمير يملأ النواظر بهيبته ووضاءته إذا صمت ، كما يملأ السامع ببلاغته إذا تحدث سائلا أو مجيبا .

(٣) البيت زيادة في الذخيرة ؛ تبوءوا : احتلوا ؛ السماك : أحد نجمين نيرين : الأعزل والرامح ؛ جنيبا : تابعاً من "جَنَبَهُ" إذا قاده إلى جنبه ؛ والمعنى : إن بني جهور احتلوا مكانة سامية تحتذيهم فيها النجوم .

(٤) المعنى : لقد تابع الأبناء في السؤدد والرياسة الآباء ، كما تتسق عقود اللآلئ المنظومة في نسق متساوق بديع .

(٥) المعنى : للكهول في هذه الأسرة أذهان متوقدة تغنيهم عن التجارب في معالجة مشكلات الأمور .

وَإِذَا دَعَوْتَ وَلِيدَهُمْ لِعَظِيمَةٍ ... لَبَّاكَ رَقْرَاقَ السَّمَاحِ أَرِيبَا[١]

هِمَمٌ تُنَافِسُهَا النُّجُومُ، وَقَدْ تَلاَ ... فِي سُؤْدُدٍ مِنْهَا الْعَقِيبُ عَقِيبَا[٢]

وَمَحَاسِنٌ تَنْدَى رَقَائِقُ ذِكْرِهَا ... فَتَكَادُ تُوهِمُكَ الْمَدِيحَ نَسِيبَا[٣]

كَالآسِ أَخْضَرَ نَضْرَةً، وَالْوَرْدِ أَحْـمَرَ بَهْجَةً، وَالْمِسْكِ أَذْفَرَ طِيبَا[٤]

وَإِذَا تَفَنَّنَ فِي اللِّسَانِ ثَنَاؤُهُ ... فَافْتَنَّ لَمْ يَكُنِ الْمُرَادُ غَرِيبَا[٥]

---

(١) فى الذخيرة « فإذا دعوت .. » ؛ وقد آثرنا روايتى مسرح العيون والوافى، أما الأصول فتروى « ورقراق السماح أديبا » ؛ الرقراق : المتلألئ الوضاء ؛ والمعنى : إذا دعوت الناشىء فى هذه الأسرة المجيدة لأمر خطير بادر بالإجابة متهللا فى حكمة واتزان .

(٢) المعنى : لأفراد هذه الأسرة المجيدة همم عالية تتنافس النجوم فى سبيل بلوغها يتوارثها الآباء عن الأجداد ويورثونها الأبناء .

(٣) فى مسرح العيون « تندى دقائق » ؛ المعنى : ولهم محاسن عظيمة يطيب ذكرها على الأفواه وفى الآذان فإذا رتلنا مدائحهم توهم السامع أننا نرتل آيات النسيب . وشبيه بهذا قول أبى تمام :

طاب فيكَ المديحُ والتذَّ حتى ... فاق وصفَ الديار والتشبيبا

(٤) مسكٌ أذفر : شديد الطيب ؛ والمعنى : بانت محاسنهم أبعد الغايات فهى تشبه الآسَ فى نضرته ورقته ، والوردفى حمرته وبهجته ، والمسك فى عبيره الفواح .

(٥) المعنى : إذا افتنّ اللسان فى الثناء على الأمير وجد مجال القول واسعا وميدان الثناء رحيب المجال .

غَالٍ بِمَا فِيــهِ فَغَيْرُ مُوَاقِعٍ سَرَفًا ، وَلاَ مُتَوَقِّعٍ تَكْذِيبَا(١)

* * *

كَانَ الوُشَاةُ ـ وَقَدْ مُنِيتُ بِإِفْكِهِمْ ـ

أَسْبَاطَ يَعْقُوبٍ وَكُنْتُ الذِّيبَا(٢)

وَإِذَا المُنَى بِقَبُولِكَ الغَضِّ الجَنَى هُزَّتْ ذَوَائِبُهَا فَلاَ تَثْرِيبَا(٣)

أَنَا سَيْفُكَ الصَّدِئُ الَّذِى مَهْمَا نَشَا

تُعِدِ الصِّقَالَ إِلَيْهِ وَالتَّذْرِيبَا(٤)

---

(١) المعنى : بالغ اللسانُ فى مدحه ما وسعته المبالغة آمناً أن يكون مسرفاً فى مدحه أو متهماً فيه ، فمآثر الأمير فوق المغالاة والإسراف .

(٢) مُنيتُ بكذا : ابتليت به ، الإفك : الكذب ؛ السبط : ولد الولد أو إحدى قبائل اليهود الاثنى عشرة ، وفيهم يقول الله تعالى « وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً » ؛ والمراد هنا أبناء يعقوب لا أسباطه كما ذكر الشاعر ؛ والمعنى لقد اتهمنى الوشاة ظلماً وبهتاناً كما اتهم أبناء يعقوب الذئب بافتراس أخيهم يوسف عليه السلام وجاءوا على قميصه بدم كذب .

(٣) الغض : الطرىّ ؛ الجنى : الثمار ؛ الذوائب : الأعالى أو الأطراف ؛ التثريب : اللوم ؛ والمعنى : إذا جادت الآمال برضاك عنى واهتزت أريحيتك بالسماح فلن أخشى ملاماً أو عقاباً ، وهو ينظر فى هـــذا إلى الآية الكريمة « لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » .

(٤) الصقال : الجلاء ؛ التذريب : التحديد والإرهاف ؛ والمعنى : أنا سيف من سيوفك أهملته حيناً فعلاه الصدأ واعتراه الكلال ، فإذا شئت صقلته وسنّنته وجدت فيه لألاء ومضاء .

كَمْ ضَاقَ بِي مِنْ مَذْهَبٍ فِي مَطْلَبٍ ... فَشَأَيْتَهُ فُسُحَ الْمَجَالِ رَحِيبَا[1]

« وَزَ كَا » جَنَابُ الشُّكْرِ ـ حِينَ مَطَرْتَهُ ... بِسَحَائِبِ النُّعْمَى ـ فَرِدُهُ خَصِيبَا[2]

* * *

وَتَهَنَّأَ الْأَعْيَادَ عَادَةَ لَابِسٍ ... يُبْلِي الدَّرِيسَ فَيَسْتَجِدُّ قَشِيبَا[3]

وَمَتَى سَعَيْتَ لِنَازِحٍ مُتَعَذِّرٍ ... فَوَجَدْتَهُ سَهْلَ الْمَرَامِ قَرِيبَا[4]

وَأَرَادَ فِيكَ مُرَادَكَ الْقَدَرُ الَّذِي ... لَا تَسْتَطِيعُ لِحُكْمِهِ تَعْقِيبَا[5]

---

(١) فُسُحُ : فسيح أى واسع منبسط ؛ والمعنى : كم ضاقت فى وجهى سبل ، وتعذرت المسالك ، حتى فتحتَ أمامى كل طريق وذللتَ كل صعب تسعتَ مسالكى وزالتْ صعابى .

(٢) ورد أول البيت ناقصا فى الأصول فأكملناه بما يناسب المقام؛ زكا : نما؛ جناب : الناحية ، فردْه خصيبا : أى فاطلب فيه الخصب والنماء ؛ والمعنى : د أمطرتنى بسحائب جودك فنما شكرى وأزهر فانشد فيه الروعة والازدهار .

(٣) الدريس : الخلق البالى ؛ القشيب : الجديد ؛ والمعنى : اهنأ بالأعياد توالية المدينة تودع عيدا وتستقبل عيدا كما يخلع اللابس الأثواب البالية يلبس الجديدة .

(٤) نازح : بعيد ؛ المرام : المطلب ؛ والمعنى : إذا اردت مطلبا بعيدا متعذرا أسألُ اللهَ أن يسهله لك وأن يقربه منك .

(٥) المعنى : وأدعو الله أن يجرى القدر فى أمورك قبل نفاذه بما تحبه تشتهيه فإن الاقدار لا يمكن تغيير أحكامها بعد إمضائها .

شكاة ورجاء

«إبائى» فى جوارِكُمُ الذليلُ ... وَحَدِّى فى رَجَائِكُمُ الكَليلُ[1]

تُختلفانِى مِن حالٍ، مَهْمَا ... أجالَ الفِكْرَ بينَهُما مُجِيلُ[2]

مَصِيبٌ مِنْ وِلاَيَتِكُمْ كَثِيرٌ ... وَحَظٌّ مِنْ عِنايَتِكُمْ قَلِيلُ[3]

أتحيا أنفسُ الآمالِ فيكم ... وَلِى - أثناءها - أمَلٌ قَتِيلُ؟[4]

وأعجبُ حادثٍ نظرى لديكم ... إلى عَلَلِ النِّجاحِ وَبِى غَلِيلُ![5]

وَقِدْحِى فى وِدادِكُمُ مُعَلًّى ... وباعِى فى اعْتِيادِكُمُ طَوِيلُ[6]

---

(١) ورد أول البيت ناقصا فى الأصول وقد أكلناه بما يناسب المقام؛ والمعنى: مالى اعترانى الذل على الرغم من إبائى واعتصامي بجواركم؟ وما بال مضائى إصابه الكلال مع تعلق آمالى بكم؟

(٢) المعنى: مهما تأمل المتدبرون فأنهم سيجدون تناقضا فى موقفكم منى يدعو إلى الدهشة والعجب.

(٣) المعنى: مما يثير الغرابة فى نظرتكم إلىّ أنكم تحملوننى أعباء مرهقة من ولايتكم، ومع هذا فإن حظي من عطفكم نزر قليل.

(٤) المعنى: ما بال آمال الناس تحيا فى ظلالكم وتزدهر على حين تذبل آمالى ويعتريها الفناء؟

(٥) النَّعَل: الماء الجارى بين الأشجار؛ الغليل: العطش؛ المعنى: ومن أعجب الأمور أننى شديد الظمأ وأتطلع إلى منهلكم العذب الزلال؛ فلا أنال منه ما يشفى الغليل.

(٦) القدح: السهم، المعلى: أوفر الأسهم نصيبا فى الميسر؛ والمعنى: أعجب لحرمانى من عطفكم مع أن حبى لكم عظيم وجهدى فى خدمتكم كبير.

وَكَائِنْ لِي ثَنَاءٍ رَاحَ يَثْنِي ... إِلَيْهِ العِطْفَ مَجْدُكُمُ الأَثِيلُ(١)

تُنَافِسُهُ الرِّيَاضُ مُنَوِّرَاتٍ ... تَنَفَّسَ عَنْ نَوَافِحِهَا الأَصِيلُ(٢)

* * *

«أَبَا الحَزْمِ» الزَّمَانُ بِأَنْ تُثَنَّى ... إِذَا عُدَّتْ فَوَاضِلُكُمْ - بَخِيلُ(٣)

عَلَوْتَ النَّجْمَ إِذْ مَلَّ السَّاعِي ... وَحُزْتَ الخَصْلَ إِذْ كَلَّ الرَّسِيلُ(٤)

---

(١) كائن بمعنى كم الخبرية وهي مركبة من كاف التشبيه وأيّ المنونة ، وفيها عدة لغات ، ويندر ورودها للاستفهام ، ومميزها مجرور بمِن في الغالب وبه ورد القرآن الكريم ، وزعم ابن عصفور أنه لازم ، وإن كان سيبويه أجاز نصبه على ندرة ومنه قول الشاعر :

وكائن لنـــا فضـلا عليكم ومنـة ... قديما ؛ ولا تدرون ما من منعم

وقد جرى ابن زيدون على هذا الرأى النادر فنصب كلة ثناء ؛ العطف : الجانب ، وثنى إليه عطفه : مال إليه ، وثنى عنه عطفه : أعرض عنه ؛ الأثيل : الأصيل ؛ والمعنى : كم من القصائد البارعة صغتها فى الثناء عليكم فاهتز طربا لها مجدكم الأصيل .

(٢) النوافح : جمع نافحة وهى الهبّة الذكية التى يحملها النسيم ؛ ولعلها « نوافجه » والنافجة : وعاء المسك ؛ والمعنى : إن الرياض المزدهرة الشذية التى تهبّ أنسامها المعطرة فى الأصيل تنافس قصائدى فى التنويه بمآثركم والإشادة بأمجادكم .

(٣) الفواضل : النعم الجسيمة ؛ المعنى : أيها الأمير إن الزمان بخيل بأن يأتى لكم بمشابه أو نظير فى مآثركم الباهرة ونعمكم العظيمة .

(٤) السّاعى : المغالب مأخوذ من ساعانى فلان فسعيته أى غلبته ؛ الخصل : إصابة الهدف أو نيل الرهان ؛ الرسيل : المرافق فى السباق ؛ والمعنى : سبقت جميع المنافسين ونلت هدفك بأيسر سبيل .

رَأَيْتُ النَّاسَ - مَا أَصْبَحْتَ فِيهِمْ - بِلَاءُ اللَّهِ عِنْدَهُمُ جَمِيلُ[1]
وَمَاءُ الْعَيْشِ بَيْنَهُمُ فَضِيضٌ وَظِلُّ الْأَمْنِ فَوْقَهُمُ ظَلِيلُ[2]
وَلَوْ فَقَدُوكَ - لَا فَقَدُوا - حَوَامٌ مَرَادٌ مِنْ زَمَانِهِمُ وَبِيلُ[3]
وَشَاقَ نُفُوسَهُمْ رَسْمٌ مُحِيلٌ - مِنَ الدُّنْيَا - وَعَهْدٌ مُسْتَحِيلُ[4]
فَخَاصِرْ دَوْلَةً تَفْنَى اللَّيَالِي وَلَمْ يُلْمِمْ بِسَاحَتِهَا مُدِيلُ[5]
وَلَا زَالَتْ يَنَالُ الدَّهْرِ تُصْمِي عُدَاتَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّبِيلُ[6]
أَيْأَسُ مِنْ مُسَاعَفَةِ اللَّيَالِي وَأَنْتَ - إِلَى نِهَايَتِهَا - سَبِيلُ ؟[7]

---

(١) المعنى : إن الناس يستعذبون جميع الآلام مادمتَ مقيا بينهم ، فإنَّ بقاءك فيهم يعوضهم عن كل مصاب .

(٢) الفضيض : الماء العذب ؛ والمعنى : تبتسم الدنيا لهم مادمتَ قائما فيهم فتعذب لهم الموارد ويستقر فيهم الأمن والاطمئنان .

(٣) المَرَاد : مكان الارتياد وهو الطلب ؛ والمعنى : ولو فقدوك — لاقدّر الله — لحاولوا في مرتع وخيم وعاشوا في زمن ملىء بالمتاعب والهموم .

(٤) الرسم المحيل : الأثر البالى القديم ، عهد مستحيل : زمن متغيّر معوج؛ والمعنى : لو فقدوك لتنكرت لهم الحياة فتعلقوا بالأطلال الدّارسة والعهود السيئة المنكرة .

(٥) خاصر إنسانا : أخذ بيده فى المشى ؛ يُلمم : ينزل ؛ مُديل : قاهر متغلب ؛ والمعنى : أسأل الله أن تصاحب هذه الدولة القوية التى تطوى الليالى ولا يطويها الزمان .

(٦) المعنى : أتمنى أن تصيب سهام الدهر أعداءك فتصرعهم أيها الملك الجليل .

(٧) المعنى : كيف أيأس من نعيم الحياة وأنت سبيلى إلى هـــذا النعيم ووسيلتى إليه ؟ والبيت ناقص فى نسخة ت .

وفادة موفقة[1]

« وردت هذه القصيدة بالديوان فى مدح أبى الوليد بن جهور ؛ ولكنّ روح القصيدة توحى بأن الشاعر صاغها فى مدح أبى الحزم ابن جهور وابنه أبى الوليد حينما أوفد أبو الحزم ابنه أبا الوليد إلى باديس بن حبوس أمير البربر بغرناطة ليتعاقدا على صدّ بنى عباد عن قرطبة » .

سَلِ المَشْرَ الأَعْدَاءَ ـ إِنْ رُمْتَ صَرْفَهُمْ ـ
عَنِ القَصْدِ ، إِنْ أَعْيَاكَ مِنْهُ مَرَامُ[2]

أَتَوْكَ كَآسَادِ الشَّرَى فَرَدَدْتَهُمْ
كَمَا أَجْفَلَتْ وَسْطَ الفَلَاةِ نَعَامُ[3]

مَضَوْا يَسْأَلُونَ النَّاسَ عَمَّا وَرَاءَهُمْ
فَيُخْبِرُهُمْ ـ بِالْمُبْكِيَاتِ ـ عِصَامُ[4]

---

(١) وردت القصيدة ناقصة كما يُفهم من العنوان الذى صُدرت به القصيدة فى أصول الديوان « وقال من قصيدة طويلة يمدحه بها » .

(٢) المعنى : سل الأعداء عن هدفهم الغامض من حروبهم ، فقد ينصرفون إذا عجزوا عن معرفة مصلحتهم من هذه الحروب الطاحنة التى يساقون إليها كالأغنام .

(٣) الشرى : طريق كثيرة الأسود ، أجفل : هرب مسرعا فى ذعر؛ والمعنى : وافد الأعداء متنمرين كالآساد فصددتهم ففروا مذعورين كالنعام .

(٤) فى نسخة ز «فخبّرهم بالمبكيات» ؛ عصام : سيدة عاقلة أرسلها الحارث ابن عمرو ملك كندة لتستطلع شأن بنت عوف بن علم الشيبانى تمهيدا لخطبتها فلما عادت إليه بادرها بقوله : ما وراءك يا عصام ؟ فذهبت مثلا راجم القصة =

وَمَا ضَاقَ عَنْهُمْ جَانِبُ الْعُذْرِ إِنَّهُمْ   كَمِثْلِ الْقَطَا ، لَوْ يُتْرَكُونَ لَنَامُوا(١)

* * *

فِدَاءٌ « لِبَادِيسَ » النُّفُوسُ ، وَجَادَهُ   مِنَ الشُّكْرِ ـ فِي أُفْقِ الْوَفَاءِ ـ غَمَامُ(٢)

فَمَا لَحِقَتْ تِلْكَ الْعُهُودَ مَلَامَةٌ   وَلَا ذَمَّ ـ مِنْ ذَاكَ الْحِفَاظِ ـ ذِمَامُ(٣)

وَمِثْلُكَ وَالَى مِثْلَهُ فَتَصَافَيَا   كَمَا صَافَقَتْ ـ الْمَاءَ الْقَرَاحَ ـ مُدَامُ(٤)

رَسِيلُكَ فِي شَأْوِ الْمَعَالِي ، كِلَا كُمَا   بَعِيدُ الْمَدَى صَعْبُ الْهُمُومِ هُمَامُ(٥)

* * *

= بتمامها فى الجزء الثانى من كتاب مجمع الامثال للميدانى ص ١٨٠،١٨١؛ والمعنى : مضوا يتساءلون مما ينتظرهم فينبئهم الخبر الصادق بما سوف يلقونه من أحداث جسام .

(١) يشير إلى المثل « لو تُرِكَ القطا ليلا لنام » بمعنى أن يُحْمَلَ الانسان على المكروه مضطرا ، ومثله « مكره أخوك لا بطل » ؛ والمعنى : إن جيوش الاعداء مسوقة إلى القتال مكرهة مضطرة ولولا ذلك ما باشرت القتال .

(٢) المعنى : إنّ باديس أمير البربر جدير بأن تفديه النفوس وأن يُزَفَّ الوفاء إليه آيات الثناء .

(٣) المعنى : إن بيننا وبينه عهودا مرعية لايلحقها اللام وأذمة محفوظة لايعتريها عتاب .

(٤) المعنى : إن ما بينك أيها الامير وبين باديس من مودة وصفاء أصبح مثلا فى الولاء كما يمتزج الخمر بالماء الزلال .

(٥) فى نسخة « وسلمك فى شأو المعالى » ؛ الرسيل : القارن فى النضال ؛ الشأو : الغاية أو المسافة ؛ والمعنى : شبيهك فى السمو إلى غايات المعالى فكلا كما بعيد الآمال عظيم الهمم سخى شجاع .

لَعَمْرِى لَقَدْ أَحْظَيْتَهُ بِوِفَادَةٍ ... لِأَسْنَى كَرِيمٍ أَنْجَبَتْهُ كِرَامُ[1]

فَمَا ابْنُكَ إِلَّا عِدْلُ نَفْسِكَ، إِنْ يَسِرْ ... فَلِلْجِسْمِ لَا لِلنَّفْسِ مِنْكَ مُقَامُ[2]

حُسَامُكَ مَهْمَا تَخْتَرِطْهُ لِمِثْلِهَا ... فَقَلَّ غَنَاءُ السَّيْفِ حِينَ يُشَامُ[3]

---

(١) المعنى : لقد أكرمت ابنك بأن أوفدته إلى باديس الكريم المنحدر من سلالة كرماء .

(٢) فى ب ، ز « فما ابنك إلا عِدُّ نفسك » والعِدّ : القِرْن ؛ والعِدْل : المُمَاثل والنظير ، قال مهلهل بن ربيعة التغلبي فى رثائه لأخيه كليب من قصيدة :

على أنْ ليس عِدْلاً من كليب ... إذا ما ضِيمَ جيرانُ المجيرِ

على أنْ ليس عِدْلاً من كليب ... إذا برزتْ مخبَّأةُ الخدورِ

والمعنى : ليس ابنك إلا مماثلا لك ، فإذا سار عنك فإن نفسك تتابعه وتسير خلفه وإن كان جسمك مقيما .

(٣) اخترط السيفَ : استلّه ؛ شام الشىءَ . تطلع إليه ؛ والمعنى : ابنك هو سيفك أعددته لمثل هذه الامور الجسيمة ، فهو يغنى فيها مالا يغنى فى مثلها الحسام .

٣ - إلى أبي الوليد بن جهور

« صاغ الشاعر قصائده في مدح صديقه الأمير أبي الوليد بن جهور قبل ولايته للحكم وبعدها » .

شكر وثناء

هَلْ عَهِدْنَا الشَّمْسَ تَعْتَادُ الكِلَلْ ؟ أَمْ شَهِدْنَا الْبَدْرَ يَجْتَابُ الْحُلَلْ ؟[1]

أَمْ قَضِيبَ الْبَانِ يَعْنِيهِ الْهَوَى ؟ أَمْ غَزَالَ الْقَفْرِ يُصْبِيهِ الْغَزَلْ ؟[2]

خَرَقَ الْعَادَاتِ مُبْدِي صُـــورَةٍ حَشَدَ الْحُسْنُ عَلَيْهَا فَاحْتَفَلْ[3]

---

(١) الكِلَل : جمع كِلّة وهى نسيج رقيق يسمح بدخول الهواء ويمنع الحشرات ينصب فوق الأسرّة ويسميه العامة (ناموسية) ؛ يجتاب : يلبس ؛ والمعنى : هى مشرقة كالشمس وضاءة كالقمر ؛ وإن كنّا لا نعهد الشمس تستتر خلف الكِلَل ، ولا القمر يرتدى الحلل .

(٢) يعْنيه : يسترعى اهتمامه ؛ يصبيه : يثير صبونه وهيامه ؛ والمعنى : هى ممشوقة القد كقضيب البان . رشيقة القوام كالغزال الشارد فى الصحراء ؛ وإن كُنّا لم نشاهد قضيبا يجذبه الهوى ، ولا غزالاً يستميله الغزل ؛ وفى نسخ ب ، ت ، ز « يمليه الهوى » .

(٣) خرقَ العاداتِ : تجاوزها ونقضها ، ولهذا تدّعى المعجزات بالخوارق؛ حشد : جمع ؛ احتفل القوم : اجتمعوا ؛ والمعنى : هذا الحبيب الجميل تجاوز الحدّ فى حسنه بإبدائه صورة رائعة فتانة وفدعليها الجمال من كل صوب فاجتمع فيها من أفانينه ما لم يجتمع لإنسان . وفى نسخ ب ، ت ، ز « حسد الحسن » .

مُشْرَبُ الصَّفْحَةِ مِنْ مَاءِ الصِّبَا ... مُشْبَعُ الْوَجْنَةِ مِنْ صِبْغِ الْخَجَلْ[1]

مَنْ عَذِيرِى مِنْهُ ؟ إِنْ أَغْبَبْتُهُ ... نَسِىَ الْعَهْدَ، وَإِنْ عَاوَدْتُ مَلّ[2]

قَاتِلٌ لِى بِالتَّجَنِّى خَالُهُ ... لَيْتَ شِعْرِى أَحَلَالٌ مَا اسْتَحَلّ[3] ؟

* * *

أَيُّهَا الْمُخْتَالُ فِى زِينَتِهِ ... أَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْخَالِ فَخَلّ[4]

لَكَ إِنْ أَدْلَلْتَ عُذْرٌ وَاضِحٌ ... كُلُّ مَنْ سَاعَفَهُ الْحُسْنُ أَدَلّ[5]

---

(١) المعنى : ترقرق ماء الصبا فى صفحة وجهه ، وصبغ الخجل وجنتيه بحمرة الورود .

(٢) العذير : النصير ؛ أغبّ الزائرُ القومَ : جاءهم يوما وترك يوما ؛ والمعنى : من يعيننى ويرشدنى فى معاملة هذا الحبيب ؟ فقد حِرْتُ فى أمره ، فإننى إذا قللتُ زيارته نسينى ؛ وإذا وصلتها ملنى .

(٣) فى الأصول « قاتلٌ لى بالتجنىّ ماله » ولعل الصواب ما أثبتناه ، ويرجحه البيت التالى ؛ التجنى : أفتعال التهم ؛ ليت شعرى : ليتنى أعلم ؛ الخال : الكِبْرُ والتِّيه ؛ والمعنى : غروره هذا الحبيب وإعجابه بنفسه حمله على أن يتدلل علىّ ويتصيّد التهمَ الكاذبة ليلصقَها بى تبريرا لهجره لى ، فمن ذا أحلّ له قتل المحبين ؟

(٤) المختال : المتكبّر ؛ الخال : الإعجاب بالنّفس ؛ خالَ الرجلُ : تكبّر وتاه على غيره فهو خائل ، ومنه قول الشاعر الحماسى :

فإن كنتَ سيّدنا سُدتَنا ، وإن كُنتَ للخال فاذْهبْ فَخل

والمعنى : أيها المعجب بنفسه الزهوّ بزينته أنت أحق الناس بالاختيال والفخر بما أحرزْتَه من جمال فاخْتَلْ ما شاء لك الحسنُ الاختيالَ .

(٥) أدلّ على صديقه أو حبيبه : وثق بمحبته فتجنى عليه ؛ ومنه المثل : « أدَلّ فأمَلّ » ؛ والمعنى : لك عذرك فى الدلال على أحبابك ، ولا عجب فكلُّ موسوم بالجمال خليقٌ بالدلال .

سَبَبُ السُّقْمِ الَّذِى بَرَّحَ بِى صِحَّةٌ كَالسُّقْمِ فِى تِلْكَ الْمُقَلْ[١]
إِنَّ مَنْ أَضْحَى أَبَاهُ « جَهْوَرٌ » قَالَتِ الْآمَالُ عَنْــهُ فَعَلْ[٢]
مَلِكٌ لَذَّ جَــنَى الْعَيْشِ بِهِ حَيْثُ وِرْدُ الْأَمْنِ لِلصَّادِى عَلَلْ[٣]
أَحْسَنَ الْمُحْسِنُ مِنَّا فَجَزَى مِثْلَمَا لَجَّ مُسِيءٌ فَاحْتَمَلْ[٤]
سَــعْيُهُ فِى كُلِّ بِرٍّ مَثَلٌ إِذْ مَسَاعِى مَنْ يُنَاوِيهِ مَثَلْ[٥]
لَا يَزَلْ مِنْ حَاسِدِيهِ مُكْثِرٌ أَوْ مُقِلٌّ ، سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلْ[٦]

* * *

---

(١) المعنى : إن المرض الذى نهكنى ناشىءٌ عن فتور لحاظ هــذا الغزال الساحر الفتان .

(٢) المعنى : إنّ من ينتسب إلى جهور لجدير ٌبالفخار، وحرىّ بأن يحقّق فيه أ كبر الآمال .

(٣) الجَــنَى : الثمر الغض ؛ الصادى : الظمآن ؛ العَــلَل : تكرار الشراب؛ والمعنى : طابتْ الحياة فى ظلّ الأمير حيثُ استقرّ الأمان وتعدّدتْ مواردُ السعادة والنعيم .

(٤) المعنى : كافأ الأميرُ المحسنين على إحسانهم كما قابل إساءة المسيئين بالصفح والغفران .

(٥) مَثَل ٌ(الأولى) : مِثالٌ مضروب للقدوة والاحتذاء ؛ ناوأ : عادى؛ مَثُل ٌ(الثانية) : جمع مائل (مِثل : خَادِم وخَدَم) والمائل هو اللاصق بالأرض ؛ والمعنى : إن فعال الأمير أصبحت مثالا للاقتداء فى السمو والجلال . أما أفعال أعدائه فهى وضيعة لاصقة بالتراب .

(٦) « سبق السيفُ العذل » مثل يضرب لما فات تداركه ولا سبيل لتعديله ؛ والمعنى : للحساد والحاقدين أن يكثروا من ذم الأمير أو يقلّــلوا ، فقد تم له الــكمال ولن يضيره ذمٌ حاقدٍ أو حسود .

« يا بَنِي جَهْوَرٍ » الدُّنيا بِكُمْ حَلِيَتْ أَيَّامُهَا بَعْدَ العَطَلْ[(١)]
إنما دَوْلَتُكُمْ وَاسِطَةٌ أَهْدَتِ الحُسْنَ إلى عِقْدِ الدُّوَلْ[(٢)]
نَحْنُ مِنْ نَعْمَائِكُمْ فِي زَهْرَةٍ جَدَّدَتْ عَهْدَ الرَّبِيعِ المُقْتَبَلْ[(٣)]
طَابَ كَانُونٌ لَنَا أَثْنَاءَهَا فَكَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ بِالْحَمَلْ[(٤)]
زَهَرَتْ أَخْلَاقُكُمْ فَابْتَسَمَتْ كَابْتِسَامِ الوَرْدِ عَنْ لُؤْلُؤِ طَلّْ[(٥)]

* * *

أَيُّهَا البَحْرُ الذي مَهْمَا نَقَصْ بِالنَّدَى يُمْنَاهُ فَالبَحْرُ وَشَلْ[(٦)]

---

(١) حَلِيَتْ : تَزَيَّنَتْ ؛ العطل : التجرُّد من الزينة ؛ والمعنى : لقد ازدانت بكم الدنيا بعد أن تجرَّدتْ من الزينة فيما سلف من العصور .

(٢) واسطة العِقْد : هي الدرَّة التي تتوسطه وهي في العادة أنفس ما فيه ؛ والمعنى : دولتكم يابني جهور بين الدول كالجوهرة الثمينة التي تمتاز عن غيرها من الجواهر .

(٣) زهرة الدنيا : غضارتها وحسنها ؛ والمعنى : نعيش من نعمكم في حياة مزدهرة ناعمة تذكرنا بعهود الربيع الجميلة المقبلة .

(٤) كانون الأول والثاني شهران من شهور الشتاء يقابلان ديسمبرويناير ؛ الحَمَل : برج من أبراج السماء الربيعيَّة يطيب فيه الهواء . والمعنى : طابت الحياة في ظلالكم حتى إنَّ جوَّ الشتاء القارس تحوَّل إلى جوّ معتدل محبوب .

(٥) زَهَرتْ : أضاءت ؛ والمعنى : أضاءت أخلاقكم وطابت وابتسمت كما تفترّ الورود مبتسمة عن الطلّ المنثور كاللؤلؤ الثمين .

(٦) في الأصول « نقص » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ الندى : الكرم ؛ وشل : ماء قليل ينحدر من صخرة أو جبل ؛ والمعنى : لقد بلغتَ الغاية في السخاء ، فالبحر ضحل صغير إذا قسناه إلى فيضك الغزير .

مَنْ لَنَا فِيكَ بِعَيْبٍ وَاحِدٍ ؟ تُحْذَرُ الْعَيْنُ إِذَا الْفَضْلُ كَمَلْ[1]
شَرَفٌ تَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ بِهِ مِثْلَمَا يَغْنَى عَنِ الْكُحْلِ الْكَحَلْ[2]

* * *

أَنَا غَرْسٌ فِي ثَرَى الْعَلْيَاءِ، لَوْ أَبْطَأَتْ سُقْيَاكَ عَنْهُ لَذَبَلْ[3]
لِيَ ذِكْرٌ بِالَّتِي أَسْدَيْتَهُ نَابِهٌ، وَدَّ حَسُودٌ لَوْ خَمَلْ[4]
فَلْيَمُتْ بِالدَّاءِ مِنْ حَالِ فَتًى أَدَّبَتْهُ سِيَرُ النَّاسِ الْأُوَلْ[5]
فَوَعَى الْحِكْمَةَ عَنْ قَائِلِهِمْ : « إِلْزَمِ الصِّحَّةَ يَلْزَمْكَ الْعَمَلْ »[6]

* * *

(١) المعنى : حاولنا أن نجد فيك عيبا واحدا يردُّ عنك عيون الحاسدين ، فإن الكمال مجلبة للحساد .

(٢) الكَحَل : سواد طبيعيّ في العين يغنيها عن التزين بالكُحل ؛ والمعنى : إن ما أحرزته من مجد وفخار يغنيك عن المديح والإطراء ، مثلما يغني الحسنُ الطبيعي عن الحسن المجلوب .

(٣) المعنى . إنّني نبات يانع في روضة العلياء يرتوي من مَنهلك العذب ولو أبطأ عنه ريّك لأدركه الذبول .

(٤) أسديت : أعطيت ؛ نابه : مشهور ؛ خمل : أدركه النسيان أو لم يلتفت إليه إنسان ؛ والمعنى : لقد طار ذكري بإحسانك إليّ حتى تمنى الحساد أن ينقطع إحسانك عني فيدركني الخمول ويطويني النسيان .

(٥) المعنى : ليمتْ الحاقدون الحاسدون بغيظهم من سُمُوِّ مكاني وارتفاع شأني ؛ فإني مقتد بأخلاق السابقين العالية وحكمهم الغالية .

(٦) اقتنعتُ بحكمة السابقين القائلة : « إلزم الصحة يلزمك العمل » وهو =

أقبلت نُعماك تُهدى نفسها   لم أُرِغْ حظِّىَ منها بالحِيَلْ(١)
قُبِّلَتْ اليدُ من بطنٍ يدٍ   ظهرُها ـ الدهر ـ محلٌّ للقُبَلْ(٢)
كلُّنا بُلِّغَ ما أمَّله   فأبلُغِ الغايةَ من كلِّ أمَلْ(٣)
وإذا ما رامكَ الدهرُ فقُلْ   وإذا رُمتَ الأمانيَّ فنَلْ(٤)

آمال عريضة

« هذه القصيدة توحى بأن الشاعر صاغها فى تهنئة أبى الوليد بن جهور بولايته الحكم »

ما للمُدام تديرُها عيناكِ   فيَميلُ فى سُكرِ الصِّبا عِطفاكِ ؟(٥)

= مثلٌ معناه . واع الصوابَ والزمْهُ تجد أحسن تقدير من الحكام وتتفتح أمامك أبواب الأعمال .

(١) لم أُرِغْ : لم أطلب ؛ والمعنى : لم أطلب منك نعماً ، وإنما هطلتْ على مثلك دون طلب أو رجاء .

(٢) اليد : النعمة والإحسان ؛ والمعنى : تقبّلتُ الإحسان الصادرَ إلىَّ من يدك السخية التى خُلِقَتْ للتقبيل على مدى الأيام .

(٣) المعنى : لقد بلغنا بكَ أسمى آمالنا ونسأل الله أن يبلغك أقصى غاياتك من الآمال .

(٤) المعنى : نسأل الله أن ينجيك من غدرات الزمان وأن يُنيلك أكرم الآمال .

(٥) فى الخريدة « فيميل فى نشوانها » ؛ المدام : الخمر ؛ عِطفاك : جانباك ؛ والمعنى : ما بال عينيك تفيضان بالنشوة المؤثرة تأثير الخمر فيهتزّ من تأثيرها جانباك فى نشوة الصِّبا كما يهتز السكران ؟

هَلاَّ مَزَجْتِ لِعَاشِقِيكِ سُلاَفَهَا ... بِبَرُودِ ظَلْمِكِ أَوْ بِعَذْبِ لَمَاكِ؟[1]

بَلْ مَا عَلَيْكِ ـ وَقَدْ مَحَضْتُ لَكِ الْهَوَى ـ

فِي أَنْ أَفُوزَ بِحُظْوَةِ الْمِسْوَاكِ؟[2]

نَاهِيكِ ظُلْمًا أَنْ أَضَرَّ بِيَ الصَّدَى ... بَرْحًا، وَنَالَ الرِّيَّ عُودُ أَرَاكِ[3]

* * *

وَاهًا لِعَطْفِكِ!! وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا ... صُبِغَتْ غَضَارَتُهُ بِبُرْدِ صِبَاكِ[4]

---

(١) السُّلاف: ما تحلَّب وسال قبل عصر الثمار، وهو أجود الخمر؛ البَرُود: العذب البارد؛ الظَّلْم: ماء الأسنان أو بريقها؛ اللَّمى: سمرة الشفة ولعلها ناشئة من شدة الاحمرار؛ والمعنى: أتمنى أن تمزجي لعاشقيك كئوس الراح بريقك العذب البرود.

(٢) مَحَضَ: أخلص؛ الحظوة: المنزلة القريبة الطيبة؛ المعنى: ماذا يضيرك في أن أفوز من ريقك العذب بما يفوز به المسواك، وقد أخلصت لك الحب والهيام؟

(٣) آثرنا رواية الجريدة وفي الأصول «ونال البره»؛ ناهيك: حسبك؛ برْحاً: جهداً ومشقة؛ الأراك: شجر تتخذ منه المساويك؛ والمعنى: حسبك في وصف ما ألاقيه من عذاب أنني ظمآن إلى رشفة من ريقك العذب فلا أظفر بها على حين يظفر بهـا عود الأراك.

(٤) واهاً: كلمة تلهف أو تعجب، تقول واهاً على مافات!! أي أسف عليه، وواهاً له أو به!! أي ما أطيبه؛ الغضارة: الخصب والنعمة؛ البُرْد: ثوب مخطط؛ والمعنى: أتحسر على ما مضى من أيام وصالك حين أقبل علينا الدهر وخلع علينا من السعادة حللاً كأنها مصبوغة من شبابك النضير.

وَاللَّيْلُ مَهْمَا طَالَ قَصَّرَ طُولَهُ ... هَاتِي وَقَدْ غَفَلَ الرَّقِيبُ وَهَاكِ[1]

وَلَطَالَمَا أَعْتَلَّ النَّسِيمُ ، فَخِلْتُهُ ... شَكْوَايَ رَقَّتْ فَاقْتَضَتْ شَكْوَاكِ[2]

إِنْ تَأْلَفِي سِنَةَ النُّؤُومِ خَلِيَّةً ... فَلَطَالَمَا نَافَرْتِ فِي كَرَاكِ[3]

أَوْ تَجْتَنِبِي بِالْهَجْرِ فِي نَادِي الْقِلَى ... فَلَكَمْ حَلَلْتُ إِلَى الْوِصَالِ حُبَاكِ[4]

—

* * *

أَمَّا مُـــنَى نَفْسِي فَأَنْتِ جَمِيعُهَا ... يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ بَعْضَ مُنَاكِ!![5]

---

(١) المعنى مهما طال ليل الوصال فإنه قصير، وقد طويناه في مقارعة الأكواب، أسقيك وتسقينني الراح، وأناولك وأتناول منك الكئوس .

(٢) المعنى : طاب ليل اللقاء ، وصفت فيه النعمة ورق النسيم ، حتى حسبته شكوى رقيقة سرت مني إليك فقابلت رقتها بالرقة والحنان .

(٣) في الخريدة « فلطالما نافرتُ في ذكراكِ » أي ناضلتُ في سبيلك ؛ المعنى : إذا كنتِ الآن هاجرة لي خالية من مَحبتي نائمة بالرقاد فطالما مرت عليك ليال كابدتِ فيها السهر ودافعت عن عينيك الكرى من الشوق إليّ والهيام بي .

(٤) احتبى بالثوب : لفّه حوله وهو جالس ضامّ فخذيه إلى بطنه ، وحلّ حبوته : فكّ ثوبه ونهض قائماً ؛ القِلَى : الكره ؛ والمعنى : إذا كنتِ الآن منصرفة عني كارهة لي فطالما جذبتُكِ إلى اللقاء فلبّيتِ دعوة الوصال .

(٥) في تمام المتون « أما مُنَى قلبي فأنت جميعه » ؛ وفي سرح العيون «أما رجا نفسي ... بعض رجاك» ؛ المعنى : إن جميع ما تشتهيه نفسي من الآمال يحوم حولك ، ولا أتمنى إلا أن أكون أنا بعض ما يجوس بخاطرك من الآمال .

يَدْنُو بِوَصْلِكَ حِينَ شَطَّ مَزَارُهُ وَهْمٌ أَكَادُ بِهِ أُقَبِّلُ فَاكَ[1]
وَلَئِنْ تَجَنَّبْتُ الرَّشَادَ بِغَدْرَةٍ لَمْ يَهْوِ بِي فِي الْغَيِّ غَيْرُ هَوَاكَ[2]

* * *

لِلْجَوْهَرِيِّ أَبِي الْوَلِيـــدِ خَلَائِقٌ كَالرَّوْضِ أَضْحَكَهُ الْغَمَامُ الْبَاكِي[3]
مَلِكٌ يَسُوسُ الدَّهْرَ مِنْهُ مُهَذَّبٌ تَدْبِيرُهُ لِلْمُلْكِ خَيْرُ مِلَاكِ[4]
جَارَى أَبَاهُ بَعْدَ مَا فَاتَ الْمَدَى فَتَلَاهُ بَيْنَ الْفَوْتِ وَالْإِدْرَاكِ[5]
شَمْسُ النَّهَارِ وَبَدْرُهُ وَنُجُومُهُ أَبْنَاؤُهُ مِنْ فَرْقَدٍ وَسِمَاكِ[6]

(١) فى تمام المتون « يدنى مزارك حين شطّ به النوى » ؛ والمعنى : إن شدة تعلقى بك توهمنى بقُربك فأراك على بعد الديار دانية منى ، حتى أوشك أن أقبل فاك وإن كنت نائية المزار .

(٢) المعنى : إذا كنت قد غدرتِ بى وتنكرتِ لمودتى ، فإنك سبب شقوتى وبلائى ، وأنت التى شغلتِنى بك عن معالى الأمور وأوقعتنى فى الغىّ بعد الرشاد .

(٣) المعنى : شمائل الأمير رقيقة عذبة طيبة كأنها الروض يفترّ عن أطيب الجنىّ وأينع الأزهار حينما ينسكب عليه الغمام .

(٤) مِلَاكُ الأمر (نفتح الميم وكسرها) : قوامه الذى ينهض عليه ؛ والمعنى : إنه ملك مهذب حكيم يستقرّ المُلْكُ بإحكام تدبيره وحسن سياسته .

(٥) المعنى : سما أبوه لمعالى الأمور فنال أقصى غاياتها ، وتلاه الأمير فأدركه وكاد يفوته فى السباق .

(٦) المعنى : وكما أن الأمير تابع أباه فى أمجاده فإن أبنـاء الأمير تابعوه وأشرقوا فى سمائه إشراق القمرين والنجوم .

بِتَوْضِيحُ السَّارُونَ زُهْرُ كَوَاكِبٍ مِنْهُمْ تُنِيرُ غَيَاهِبَ الْأَحْلَاكِ[١]

بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا ، وَبُشْرَانَا مَعًا هَذَا الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَتَاكِ[٢]

[يَنَعَتْ جِنَانُكِ تَحْتَ صَوْبِ غَمَامِهِ]

وَصَفَتْ جِمَامُكِ وَاسْتُلِذَّ جَنَاكِ[٣]

* * *

تُلْفِي السِّيَادَةَ ثَمَّ إِنْ أَضْلَلْتَهَا وَمَتَى فَقَدْتَ السَّرْوَ فَهْوَ هُنَاكِ[٤]

وَإِذَا سَمِعْتَ بِوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ فِرَقُ الْمَحَاسِنِ فِى الْأَنَامِ فَذَاكِ[٥]

صَمْصَامُ بَادِرَةٍ ، وَطَوْدُ سَكِينَةٍ وَجَوَادُ غَايَاتٍ ، وَجِذْلُ حِكَاكِ[٦]

---

(١) الغياهب : الظلمات ؛ الأحلاك : السواد ؛ والمعنى : يقتدى السارون فى الظلمات بالكواكب الوضاءة من هذه الأسرة المجيدة فتنير لهم حوالك الظلمات

(٢) المعنى : هنيئاً لك أيتها الدنيا بالأمير وهنيئاً لنا به ، فهو فتاك الفتى وأميرنا المحبوب .

(٣) ورد البيت فى الأصول ناقصا شطره الأول وقد أكلناه بما يناسب المعنى؛ صوب الغمام : هطول المطر ؛ الجمام : المياه الغزيرة ؛ الجنى : الثمار الغضة الناضجة؛ والمعنى : لقد ارتويت أيتها الدنيا من سحبه الهاطلة فازدهرت خمائلك وصفت مواردك وطاب ثمرك الحلو اللذيذ .

(٤) فى الأصول « تلق » وهو تحريف ؛ ثَمَّ : هناك ؛ السرو : الشرف والمروءة ؛ والمعنى : إذا افتقدت أيتها الدنيا شمائل السيادة وإذا أعوزتك خلائق السؤدد والمروءة فإنك تجديها متمثلة فيه وحده .

(٥) المعنى : إذا كان هناك إنسان تجمعت فيه أشتات المحاسن فهو الأمير .

(٦) الصمصام : السيف الصارم الذى لاينثنى ؛ البادرة : الحدة ؛ الطود : الجبل ؛ جذل حكاك : غصن شجرة تحتك به الإبل الجربى لتبرأ ، ولعل فيه مادة=

طَلْقٌ يُفَنِّدُ فى السَّماحِ ، وَجاهِلٌ مَنْ يَسْتَشِفُّ النَّارَ بِالمِحْراكِ(١)

* * *

صَنَعُ الضَّمِيرِ ، إِذا أَجالَ بِمُهْرَقٍ يُمْناهُ فى مَهَلٍ وَفى إِيشاكِ(٢)

نَظَمَ البَلاغَةَ فى خِلالِ سُطُورِهِ نَظْمَ اللآلِى التُّومِ فى الأَسْلاكِ(٣)

نادَى مَساعِيَهُ الزَّمانُ مُنافِساً : أَحْرَزْتِ كُلَّ فَضِيلَةٍ ، فَكَفاكِ(٤)

ما الوَرْدُ فى مَجْناهِ سامَرَهُ النَّدَى مُتَحَلِّياً إِلاَّ بِبَعْضِ حُلاكِ(٥)

= كبريتية ، ومنه : قول الحباب بن المنذر الأنصارى يوم سقيفة بنى ساعدة: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجّب أى أنا شفاء المرض وغذاء للصحة ، ومنه قول الشاعر :

وإنى لأَقْوامٍ جُذَيْلٌ مُحَكَّكٌ وإنى لأَقْوامٍ عُذَيْقٌ مُرَجَّبُ

العذيق المرجب : الغصن الحامل للثمار الذى يُشدُّ ويسند لئلا يكسره حَمْلُه؛ والمعنى : الأمير كالسيف البتار فى الشدة ، والجبل الراسخ فى الوقار ، والجواد السبّاق فى حلبة الرهان ، والشفاء الشافى من كل داء .

(١) الطلق : المتهلل السمح ؛ يفنّد : يلوم ؛ يستشف الشيء : يستطلع ما وراءه ؛ والمعنى : إن الأمير كريم يهتز للسماح ويتهلل للجود ، ولا يزيده اللوم إلا إمعانا فى الكرم كما تزداد النار اشتعالا عند تحريكها .

(٢) صَنَعٌ : حاذق ماهر ؛ مهرق : صحيفة ؛ إيشاك : إسراع .

(٣) التُّوم : المزدوجة ؛ ومعنى البيتين : إن الأمير فطن حاذق ، إذا أجال قلمه فى صحيفة فاضت بلاغته وتدفّقت معانيه فنظمها كما ينظم الصائغ اللآلىء المزدوجة فى الأسلاك .

(٤) المعنى : صاح الزمان هاتفا بمآثر الأمير: لقد نلت كلّ الفضائل ، فحسبك ما أحرزت من أمجاد .

(٥) المعنى : إن الوردَ اليانع تحت قطرات الندى لا يتحلّى إلاّ ببعض ما يتحلّى به الأمير من آلاء .

كَلاَّ وَلاَ المِسْكُ النَّمُومُ أَرِيجُهُ مُتَعَطِّرًا إِلاَّ بِوَسْمِ ثَنَائِكِ[١]
اللَّهْوُ ذِكْرُكَ، لاَ غِنَاءُ مُرَجِّعٍ يَفْتَنُّ فِي الإِطْلاَقِ وَالإِمْسَاكِ[٢]
طَارَتْ إِلَيْكَ بِأَوْلِيَائِكَ هِزَّةٌ تَهْفُو لَهَا أَسَفًا قُلُوبُ عِدَاكِ[٣]

* * *

يَأَيُّهَا القَمَرُ الَّذِي لِسَنَائِهِ وَسَنَاهُ تَعْنُو السَّبْعُ فِي الأَفْلاَكِ[٤]
فَرِحَ الرِّيَاسَةُ إِذْ مَلَكْتَ عِنَانَهَا فَرَحَ العَرُوسِ بِصِحَّةِ الإِمْلاَكِ[٥]
مَنْ قَالَ: إِنَّكَ لَسْتَ أَوْحَدَ فِي النُّهَى وَالصَّالِحَاتِ فَدَانَ بِالإِشْرَاكِ[٦]

---

(١) النموم: المذيع الناقل الإشاعات؛ الأريج: توهّجُ ريح الطيب؛ الوسم: العلامة والصفة؛ الثنا: مقصور الثناء وهو المدح، وقد يكون « ثنائك » والنثا: ذِكْرُ الصفات حميدة أو ذميمة؛ والمعنى: لا يطيب عبير المسك إلا متعطرا بسرد محاسنك والثناء عليك.

(٢) الترجيع: ترديد الصوت فى التلحين؛ والمعنى: إن ذكرك يشيع فينا الطرب، فيغنينا عن تفنّن المغنين فى الترجيع والتنغيم والوقوف والانطلاق.

(٣) الهزة: النشاط والارتياح؛ تهفو: تخفق وتضطرب؛ والمعنى: خفّ إليك أنصارُكَ فى بشر وارتياح، فذابتْ قلوب الأعداء من الآلام والأشجان.

(٤) السناء: الرفعة؛ السنا: الضوء؛ تعنو: تذل وتخضع؛ والمعنى: أيها الأمير الجليل بزغْتَ فى آفاقنا كالبدر فدانتْ لرفعتك وأضوائك الكواكب السبع السيارة.

(٥) العنان: اللجام؛ الإملاك: عقد الزواج؛ والمعنى: فرحتْ الرياسةُ بإسنادها إليك كما تفرح العروس بالزواج.

(٦) دان بكذا: اعتقده؛ والمعنى: من اعتقد وجود شريك لك فى ذكائك الوقاد فقد أشرك فى الرأى وأصبح كالمشرك فى العقائد.

قَلَّدَتْنِيَ الرَّأْيَ الجَلِيلَ ، فَإِنَّهُ حَسْبِي لِيَوْمَيْ زِينَةٍ وَعِرَاكِ[(١)]
وَإِذَا تَحَدَّتْنِي الحَوَادِثُ بِالرَّنَا شَزْراً إِلَيَّ فَقُلْ لَهَا : إِيَّاكِ !![(٢)]
هُوَ فِي ضَمَانِ العَزْمِ يَعْبِسُ وَجْهُهُ لِلْخَطْبِ وَالخُلُقِ النَّدِى الضَّحَّاكِ[(٣)]

* * *

وَأَحَمَّ دَارِيٍّ تَضَاعَفَ عِزُّهُ لَمَّا أُهِينَ بِمِسْحَقٍ وَمَدَاكِ[(٤)]
وَالدَّجْنُ لِلشَّمْسِ المُنِيرَةِ حَاجِبٌ وَالجَفْنُ مَثْوَى الصَّارِمِ الفَتَّاكِ[(٥)]
هَنَأَتْكَ صِحَّتُكَ الَّتِي لَوْ أَنَّهَا شَخَصَتْ أُحَاوِرُهُ لَقُلْتُ : هَنَاكِ !![(٦)]

---

(١) المعنى : ولّنى وزارة الرأى (الشورة) فإنّ هذا المنصب يرضينى فى أيام الحروب والسلام .

(٢) رنا : أدام النظر ؛ نظر إليه شزرا : نظر إليه بمؤخر عينه فى غضب ؛ والمعنى : إذا تجهمت لى الأحداثُ فازجرها وادفعها قبل أن تنالنى بسوء .

(٣) المعنى : قل للحوادث إننى فى ظل حمايتك وعزمك الدافع للخطوب ، وتحت رعاية كرمك السخى المتهلل المطوف .

(٤) أحم : أسود ؛ دارىّ : عطار منسوب إلى دارين ، وهى فرضة بالبحرين فيها سوق للمسك الوارد إليها من الهند ، وفى الحديث « مثل الجليس الصالح مثل الدارىّ ، إن لم يُحْذِك (أى يعطيك) من عطره علقك من ريحه» ؛ مسحق : آلة لسحق المسك ؛ المداك : حجر يسحق عليه الطيب ؛ والمعنى : إذا كانت الأحداث قد أساءت إلىّ حتى بسطت حمايتك علىّ فإن الشدائد تظهر عزمات الرجال وتكشف عن معادنهم النقية ، شأنهم فى هذا شأن المسك يفوح أريجه وينتشر عبيره حينما يدقه ويفتته العطار .

(٥) يشير الشاعر فى هذا البيت والبيت السابق لأيام محنته ؛ والمعنى إذا كنت قد سُجِنْتُ فالشمس يحجبها السحاب ، والسيف يحويه القراب .

(٦) المعنى : هنيئاًلك أيها الأمير بالصحة ولوأنها تمثلت إنساناً لهنأتها بك

دامَتْ حياتُكَ ما استُدِمْتَ، فلم تزَلْ   تحيا بكَ الأخطارُ بعدَ هلاكِ (١)

يد مشكورة

أصدر الأمير أمراً بكسر دنان الخمر ، ولعله أراد بهـذا أن يقضى على ما شاع عنه وعن أصدقائه من تورط فى الشراب أيام الشباب ، فمدحه الشاعر بهذه القصيدة :

أجَلْ ، إنَّ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاؤُهَا الأُسْدُ
مَهَاةٌ حَمَتْهَا — فى مَرَاتِعِهَا — أُسْدُ (٢)
يَمَانِيَةٌ تَدْنُو ، وَيَنْـأى مَزَارُهَا
فَسِيَّانِ مِنْهَا فِى الْهَوَى القُرْبُ وَالبُعْدُ (٣)

(١) الخطر : المنزلة والقدر ؛ والمعنى : أسأل الله أن يطيل حياتك ما دمنا نطلب دوامها ، فلن نكُفَّ عن هذا الطلب مدى الحياة ؛ فإنك تقدر أخطار الناس وتعرف منازلهم وترجمها لتفسيرها بعد الدول ؛ وفى نسخة ا « فانها تحيا بك » .

(٢) الأَسد أو الأزد (والسين أفصح) بن الغوث : أبو حيّ باليمن ، ومن أولاده الأنصار ، ويقال أزْد شنوءة وأزدعمان ؛ المهاة : البقرة الوحشية ؛ أُسدٌ : جمع أَسد ؛ والمعنى : إنّ هذه الفتاة التى تنتمى لأَسْد هى ظبية يحيط بها من قومها الأسود الكواسر .

(٣) المعنى : تنتمى إلى اليمن وهى على قربها بعيدة المنـال ، لا سبيل للوصول إليها ؛ فيستوى منها القرب والبعاد ، ومثله قوله من قصيدة سابقة (ص ٢٨٥) :

شحطنا ، وما بالدار نأىٌ ولاشحطُ
وشطّ بمَنْ نهوى المزارُ ، وما شطُّوا

والنسبة إلى اليمن : يَمَنِىٌّ ، وكذلك يمانٍ على غير قياس .

- إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهَا تَمَرَّدَ « مَارِدٌ »
وَعَزَّ - فَلَمْ نَظْفَرْ بِهِ - « الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ »[1]

تَحُولُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ اجْتِيَادِهَا وَخَيْلٌ تَمَطَّى نَحْوَ غَايَاتِهَا جُرْدُ[2]

لِحَيٍّ لَقَاحٍ ، تَأْنَفُ الضَّيْمَ مِنْهُمُ جَحَاجِحَةٌ شِيبٌ وَصُيَّابَةٌ مُرْدُ[3]

---

(١) تمرّد : عتا وتجبر ؛ مارد : حصن بدومة الجندل ؛ الأبلق : حصن بتيماء ، قصدتهما الزباء ملكة تدمر فعجزت عن فتحهما فقيل : « تمرّد مارد ، وعزّ الأبلق » ؛ وهو حصن السموءل الذى يقول فيه :

لنـــا جبلٌ يحتلُه من نجيره منيعٌ يردّ الطرفَ وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذى سار ذكره، يعـــزّ على من رامه ويطول

وفيه يقول الأعشى :

بالأبلق الفرد من تيماء منزلة حصنٌ حصينٌ وجارٌ غير غدار

والمعنى : إن هذه النادة فى مكان منيع لاسبيل إلى اقتحامه .

(٢) الخط (بفتح الخاء وكسرها) : موضع باليمامة تنسب إليه الرماح الخطية لأنها تحمل من الهنـد فتقوّم فيه ؛ الخيل الجرد : التى قصر شعرها ورق ؛ والمعنى : من العقبات التي تحول دون الوصول إلى هذه الفتاة الكتائبُ الملتفة حول خبائها حاملة الرماح الخطية مستعدة بالجياد الطهلة .

(٣) حيٌّ لقاح : لايخضعون لحاكم أو أمير ؛ جحاجحة : سادة كرماء ؛ صيّابة وصوّابة القوم : خلاصتهم ولبابهم ؛ مُرْد : جمع أمرد وهو الذى لم تنبت لحيته ؛ والمعنى : إن حول هذه الفتاة عشيرة عزيزة أبتْ أن تخضع لحاكم أو أمير ، وهى مكوّنة من شيوخ سادة حكماء كرماء وشبان من صفوة الشبان المتصفين بالعزة والإباء .

أبٌ ذو اعتزام ، أو أخٌ ذو تَسَرُّعٍ   فَشَيْحانُ ماضِي الهَمِّ أوفاتِكٌ جَلْدُ[1]

فمَا شِيمَ – مِنْ ذِي الهِبَّةِ الصَّارِمِ – الشَّبَا

وَلاَ حُطَّ عَنْ ذِي اليَمْةِ السَّابِحِ اللِّبْدُ[2]

* * *

وَفي الـكِلَّةِ الحَمْرَاءِ وَسْطَ قِبَابِهِمْ   فَتَاةٌ كَمِثْلِ البَدْرِ قَابَلَهُ السَّعْدُ[3]

عَقِيلَةُ سِرْبٍ لاَ الأَرَاكُ مَرَادُهُ   وَلاَ قَمِنٌ مِنْهُ البَرِيرُ وَلاَ المَرْدُ[4]

---

(١) شيحان : غيور أو طويل ؛ ماضى الهم : صارم العزم ؛ فاتك : مقدام جسور ؛ جلد : صلب متين ؛ والمعنى : هذه العشيرة تتكون من أب قوى العزيمة شديد النيرة أو أخ قوىّ الشكيمة صلب العود مندفع إلى النضال .

(٢) شام الشىءَ : تطلّع نحوه ببصره منتظراً له ، وشام البرقَ : نظر إلى سحابته أين تمطر ؛ الهِبّة (بفتح الهاء وكسرها) : مضاء السيف ؛ الصارم : القاطع المرهف ؛ الشبا : الحدّ ؛ اليمة : الجرى ؛ السابح : الجواد السريع كأنه يسبح فى الهواء ؛ اللّبد : الجلد أو الشعر المصنوع منه السرج ؛ والمعنى : لم تحتج هذه العشيرة إلى سلّ سيوفها لأنها مرهوبة الجانب ، ولكنها مع هذا متهيئة مستعدّة ، فخيولها مسرجة ملجمة متأهّبة للجلاد .

(٣) الكِلّة : الستر الرقيق الذى يسمح بدخول الهواء ويمنع الهوام ويتخذ وقاية للأسرّة عند النوم ؛ السعد : أحد نجوم كثيرة تبلغ العشرة ؛ والمعنى : هذه الفتاة مصونة بين عشيرتها وضاءة كالبدر المنير .

(٤) العقيلة : الكريمة المخدرة ؛ الأراك : شجر تتخذ من أغصانه المساويك ؛ المراد : مكان الارتياد وهو طلب الكلأ ؛ قمِن : خليق أو جدير ؛ البرير : أول ثمار الأراك ؛ المرد : الناضج من ثمــر الأراك ؛ والمعنى : هى فتاة كريمة مصونة نشأت فى مهاد الترف والنعيم ، فليست بحاجة إلى جنى الثمار ، ولا السعى فى فى سبيل نيلها ، لا هى ولا أسرتها ، بل تحصل على ماتشاء دون مشقة أو عناء .

تَهَادَى فَيُضْنِيهَا الْوِشَاحُ غَرِيرَةٌ تَأَوَّهُ مَهْمَا نَاسَ فِى جِيدِهَا الْعِقْدُ[1]

إِذَا اسْتُخْفِيَتْ سِرَّ السُّرَى جُنْحَ لَيْلِهَا تَنَاثَى النُّمُومَانِ : الْأَلُوَّةُ ، وَالنَّدُّ[2]

لَهَا عِدَةٌ بِالْوَصْلِ ، يُوعِدُ غِبَّهَا

مَصَالِيتُ ، يَقْضِى - فِى وَعِيدِهِمُ - الْوَعْدُ[3]

عَزِيزٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعُودَ خَيَالُهَا

فَيُسْعِفَ مِنْهَا نَائِلٌ فِى الْكَرَى ثَمْدُ[4]

كَفَى لَوْعَةً أَنَّ الْوِصَالَ نَسِيئَةٌ يُطِيلُ عَنَاءَ الْمُقْتَفِى ، وَالْهَوَى نَقْدُ[5]

(١) الوشاح : وسام من نسيج محلى بالجواهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها ؛ ناس : تحرّك واضطرب ؛ والمعنى : تمايل فى سيرها فى رقة وسذاجة فيثقلها حمل الوشاح المرصع بالحلىّ ، وإذا تحرّك العقد حول جيدها تأوهتْ لرقة بشرتها ونعومة أديمها .

(٢) تناثى : تحدّث من ثنا الحديثَ أى حدّث به وأشاعه ، وتناثوا الحديث : تذاكروه ؛ الألُوّة : عود يُتبخرُ به ؛ النَّدّ : ضرب من الطيب ؛ والمعنى : إذا سرَتْ متخفية للقائى تحت أستار الظلام نمّ عليها عبيرها الطيب .

(٣) غِبّها : بعدها ، مصاليت : ذَوُو عزم ومضاء ؛ الوعد يستعمل فى الخير ، والوعيد فى الشر ؛ والمعنى : قد تمدنى بالوصال ولكن وعيد أهلها أولى العزم والمضاء يقضى على وعدها المنشود .

(٤) يعود : يزور ، نائل : عطاء ، الثَّمْدُ والثَّمَدُ : الماء القليل ؛ والمعنى : يعز على أهلها أن ترسل إلينا طيفها فى المنام فتسعفنا بالقليل من الوصال ، ولو فى عالم الخيال .

(٥) بيع النسيئة : ما تأجل فيه دفع الثمن ، وضدّه بيع النقد ؛ المقتفى ـ الطالب بالثمن ؛ والمعنى : كفانا ألمًا وحُزنًا أنّنا لا نظفر من الوصال إلا بوعود آجلة مع أننا نمنحها الهوى عاجلين .

سَتُبْلِغُهَا عَنَّا الشَّمالُ تَحِيَّـةً نَوافِحُ أَنْفاسِ الجَنُوبِ لَهَا رَدٌّ[(١)]

فَمَا نُسِيَ الإِلْفُ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا لِطُولِ تَنَائِينَا وَلاَ ضُيِّعَ العَهْدُ[(٢)]

* * *

أَمِنْ قِيلَ: «فِي الجِدِّ النَّجَاحُ لِطَالِبٍ» لَقَلَّ غَنَاءُ الجِدِّ مَا لَمْ يَكُنْ جَدُّ[(٣)]

يَنَالُ الأَمَانِي بِالخَطِيرَةِ وَادِعٌ

كَمَا أَنَّهُ يُكْدِي الَّذِي شَأْنُهُ الكَدُّ[(٤)]

* * *

---

(١) الشمال: الريح التي تهبّ منها؛ والجنوب: الريح المقابلة للشمال؛ النوافح: جمع نافحة وهي النسمة الهابة، وقد تكون النوافح: جمع نافجة وهي وعاء المسك؛ والمعنى: ستبلغها عنا الرياح الشمالية أنباء لوعتنا وهيامنا فتردّ عليها نفحات الرياح الجنوبية.

(٢) الإلف: الأنس والمحبة؛ تنائينا: تباعدنا؛ والمعنى: على الرغم من طول البعاد وشدة الرقابة فإننا مازلنا منطوين على الحب متمسكين بالعهد.

(٣) الجِدُّ: الكدح والاجتهاد؛ الجَدُّ: الحظ؛ المعنى: إذا كان النجاح في الأمور مرتبطاً بالسعي والكد في سبيله فقلما يغني السعي إذا لم يصادف الحظ الحسن، كلّ كادح مجاهد.

(٤) الخطيرة: الأموال المقصورة على صاحبها المحظورة على غيره، وفي هذا يقول العرب للرَّجل القليل الخَيْر: إنه لنكد الحظيرة؛ أكدى: أخفق ولم يظفر بحاجته؛ والمعنى: قد يظفر الوادع المادي بما يتمناه من آمال مجموعة وأموال محشودة دون مشقة أوعناء، وقد يبوء بالخيبة والفشل من يعنيه الجد والكفاح.

هُوَ الدَّهْرُ مَهْمَا أَحْسَنَ الفِعْلَ مَرَّةً فَمَنْ خَطَإٍ ، لَكِنْ إِسَاءَتُهُ عَمْدُ[1]

حَذَارَكَ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهُ بِجَانِبٍ فَفِي كُلِّ وَادٍ مِنْ نَوَائِبِهِ «سَعْدُ»[2]

وَلَوْلَا السَّرَاةُ الصِّيدُ مِنْ آلِ « جَهْوَرٍ »

لَأَعْوَزَ مَنْ يُعْدِي عَلَيْهِ مَتَى يَعْدُو[3]

مُلُوكٌ لَبِسْنَا الدَّهْرَ فِي جَنَبَاتِهِمْ

رَقِيقَ الحَوَاشِي مِثْلَمَا فُوِّفَ البُرْدُ[4]

بِحَيْثُ مَقِيلُ الأَمْنِ ضَافٍ ظِلَالُهُ وَفِي مَنْهَلِ العَيْشِ العُذُوبَةُ وَالبَرْدُ[5]

---

(١) المعنى: من شيمة الدهر الإساءة ، فالشر طبيعة فيه يجرى فيه على فطرته ؛ أما إذا أحسن فإن إحسانه عارض غير مقصود .

(٢) «فى كل واد سعد بن زيد» : مثل يضرب فى أن الشر منتشر فى كل مكان وأصله أن الأضبط بن قريع بن عوف بن سعد بن زيد مناة رأى من أهله وقومه أموراً كرهها ففارقهم ، فرأى من غيرهم مثلما رأى منهم ، فقال : « فى كل أرض سعد بن زيد » ؛ والمعنى : احترس أن تغترّ بجانب من جوانب الدهر فكل جانب من جوانبه مصدر للأذى والشرور .

(٣) أعدى فلاناً على فلان : نصره وأعانه وقوّاه ؛ المعنى : لولا السادة الأشراف من بنى جهور لأعوزنا من ينصرنا على عدوان الزمان .

(٤) برد مفوّف : ثوب رقيق أو فيه خطوط بيض ؛ الحواشى : الذيول أو الأطراف ؛ والمعنى : عشنا فى ظل هؤلاء الملوك فصفت لنا الحياة وطاب العيش وازدانت الدنيا كأنما لبست أرق الغلائل وأنعم الأبراد .

(٥) المعنى : استقرّ لنا الأمنُ فى ظلالهم السابغة، وطاب لنا منهل العيش فى عذوبة وصفاء .

هُمُ النَّفَرُ الْبِيضُ الَّذِينَ وُجُوهُهُمْ
تَرُوقُ فَتَسْتَشْفِي بِهَا الْأَعْيُنُ الرُّمْدُ[١]

كِرَامٌ يَمُدُّ الرَّاغِبُونَ أَكُفَّهُمْ إِلَى أَبْحُرٍ مِنْهُمْ لَهَا بِالْغُهَا مَدُّ[٢]

فَلَا يَنْعَ مِنْهُمْ هَالِكٌ، فَهُوَ خَالِدٌ بِآثَارِهِ، إِنَّ الثَّنَاءَ هُوَ الْخُلْدُ[٣]

« أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ — لَا أَبَا لِأَبِيكُمُ !! —
مِنَ اللَّوْمِ، أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا[٤] »

أُولَئِكَ إِنْ يَمْنَا سَرَى فِي صَلَاحِنَا
سِجَاحٌ عَلَيْنَا كُحْلُ أَجْفَانِهِمْ سُهْدُ[٥]

* * *

(١) المعنى : إنهم يشرقون علينا بوجوههم المتبلجة البيضاء فيزيلون عن العيون ما يصيبها من رمد أو عياء .

(٢) الْمُهَا: جمع مُهْيَة وهي المطية أو أفضل العطايا وأجزلها ؛ والمعنى : هم في السخاء كالبحار الزاخرة تمتد أيدى الراغبين إلى مدها الغزير الحافل بالعطايا والهبات .

(٣) المعنى : ينبغى ألا ننعى أحدهم إذا هلك ، فإن آثاره الباقية وما صيغ فيه من آيات الثناء يكفل له الخلود .

(٤) ورد البيت مضطربا ناقصا في الأصول ، وهو بيت للأعشى في مدح آل شماس بن لأى ؛ اقتبسه ابن زيدون ، وقد أصلحناه بالرجوع إلى أصله وبايه هذا البيت :

أولئك قوم إن بنَوا أحسنوا البِنَى
وإن عاهدوا أوفَوا ، وإن عقدوا شدُّوا

والمعنى : أيها اللاغون كفوا عن لومهم أو انهضوا بأمجادهم إذا استطعتم .

(٥) رجل سَجِحٌ : لين سهل حسن الخلق ، وقد جمعه الشاعر على سجاح=

أَلَيْسَ «أَبُو الحَزْمِ» الَّذِي غِبَّ سَعْيِهِ ... تَبَصَّرَ غَاوِينَا فَبَانَ لَهُ الرُّشْدُ(١)

أَغَرُّ تَمَهَّدْنَا بِهِ الخَفْضَ بَعْدَ مَا ... أَقَضَّ عَلَيْنَا مَضْجَعٌ وَنَبَا مَهْدُ(٢)

تَشَمَّرَ حَتَّى انْجَابَ عَارِضُ فِتْنَةٍ ... تَأَلَّقَ مِنْهَا البَرْقُ وَاصْطَخَبَ الرَّعْدُ(٣)

فَسَالَمَ مَنْ كَانَتْ لَهُ الحَرْبُ عَادَةً ... وَوَافَقَ مَنْ لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ ضِدُّ(٤)

هُوَ الأَثَرُ المَحْمُودُ، إِنْ عَادَ ذِكْرُهُ ... تَطَلَّعَتِ العَلْيَاءُ وَاسْتَشْرَفَ المَجْدُ(٥)

تَوَلَّى، فَلَوْلَا أَنْ تَلَاهُ «مُحَمَّدٌ» ... لَأَوْطَأَ خَدَّ الحُرِّ أَخْمَصَهُ العَبْدُ(٦)

* * *

= والأقضّ مُتَجَشِّبُ ؛ والمعنى : إذا تمتنا مهر على مصالحنا هؤلاء الملوك الأسخياء فإن مصالح الرعية تؤرق أجفانهم .

(١) غِبّ : عقب ؛ الغاوى : الضال ؛ والمعنى : إن مآثر أبي الحزم بن جهور أنارت لنا الطريق ، فاهتدى بها الضالون واحتذاها المحتذون .

(٢) أغرّ : شريف أو أبيض ، تمهد : تهيأ ؛ الخفض : الدعة ؛ أقض المضجع : تخشن ؛ نبا المهد : تجافى ولم يلن للراقد ؛ والمعنى : إنه ملك شريف مهد لنا العيش الرغد بعد أن اضطربت الأمور وساءت الأحوال .

(٣) انجاب : زال ؛ العارض : السحاب المترض الأفق ؛ والمعنى : شمّر الأمير عن ساعديه فى مقاومة الفتن والثورات حتى صفا الجوّ لرعيته بعد اضطراب.

(٤) المعنى : كانت خطة الأمير أن تنعم رعيته تحت ظلال السلام ؛ فسالم الملوك الذين اعتادوا الحرب ؛ وتعاهد معه من كانوا له ضدا .

(٥) استشرف الشيء : رفع البصرَ ناظرا إليه ؛ والمعنى : إن آثار أبي الحزم فينا خالدة ، كلما عاد ذكرها تطلعت إليها المعالى ورنتْ إليها الأمجاد .

(٦) الأخمص : مالم يمس الأرض من باطن القدم ؛ والمعنى : مضى أبو الحزم ولولا أن ابنه محمدا أبا الوليد ولىَ الأمر من بعده لفسدت أحوال الرعية وانتكست أمورها فداس العبيدُ بأقدامهم وجوه الأحرار .

مَلِيكٌ يَسُوسُ المُلْكَ مِنْهُ مُقَلَّدٌ رَوَى عَنْ أَبِيهِ فِيهِ مَا سَنَّهُ الْجَدُّ[١]
سَجِيَّتُهُ الْحُسْنَى ، وَشِيمَتُهُ الرِّضَى ، وَسِيرَتُهُ الْمُثْلَى ، وَمَذْهَبُهُ الْقَصْدُ[٢]
هُمَامٌ إِذَا زَانَ النَّدِيَّ بِحَبْوَةٍ تَرَجَّحَ فِي أَثْنَائِهَا الْحَسَبُ الْعِدُّ[٣]
زَعِيمٌ لِأَبْنَاءِ السِّيَادَةِ بَارِعٌ عَلَيْهِمْ ، بِهِ تُثْنَى الْخَنَاصِرُ إِنْ عُدُّوا[٤]
بَعِيدُ مَنَالِ الْحَالِ ، دَانِي جَنَى النَّدَى إِذَا ذُكِرَتْ أَخْلَاقُهُ خَجِلَ الْوَرْدُ[٥]
تَهَلَّلَ فَانْهَلَّتْ سَمَاءُ يَمِينِهِ
عَطَايَا ، تَرَى الْآمَالَ — مِنْ صَوْبِهَا — جُعْدُ[٦]

---

(١) المعنى : إنه ملك عظيم يسير فى أمجاده متبعا ما سنّه له آباؤه وأجداده السابقون .

(٢) سجيته : طبيعته ؛ المثلَى : المُفْضلَى ؛ القصد : العدل أو الاعتدال .

(٣) النديّ : مجلس القوم أو مكان حديثهم ومثله الندوة والنادى والمنتدى. والمنتدى ؛ الحبوة : جِلْسَةٌ يجمع الجالسُ فيها فخذيه إلى بطنه ويلف حوله ثوبا أو يسندها بيديه ويكنى بها عن الوقار ؛ الحسب : الفخر الموروث : العدّ : العديد ؛ والمعنى : إذا زان الأميرُ المجالسَ محتبيا فيها ظهرتْ فيه مآثر آبائه وأجداده .

(٤) المعنى : هو زعيم السادة الأشراف لتفوّقه عليهم بمآثره ؛ وإذا عددتَهم كان هو أولَ المعدودين » والمعروف أن الإنسان إذا عدّ شيئا بأصابعه ثنى خنصره أولا » .

(٥) الحال : الصفة ، الجَنَى : الثمر الغض ؛ والمعنى : لايستطيع أحدأن يرتفع إلى صفاته ، فهو سامى الشمائل ، وهو مع هذا قريب السخاء ، ترق سجاياه حتى يخجل الورد إن قسناه به .

(٦) الصوب : نزول المطر ؛ جعدٌ : ندٍ ؛ والمعنى : تهلّلَ وجهُ الأمير بالسماح ، ففاضت يمينه بالعطايا حتى أصبح الأمل به خصيبَ التربة يانع الثمار .

مُرٌّ لِمَنْ عَادَاهُ ، إِذْ أَوْلِيَاؤُهُ   يَلَذُّ لَهُمْ كَالْمَاءِ شِيبَ بِهِ الشَّهْدُ[1]

إِذَا اعْتَرَفَ الْجَانِي عَفَا عَفْوَ قَادِرٍ   عَلَاقَدْرُهُ عَنْ أَنْ يَلِجَّ بِهِ حِقْدُ[2]

وَمُتَّئِدٌ لَوْ زَاحَمَ الطَّوْدَ حِلْمُهُ   لَحَاجَزَهُ رُكْنٌ مِنَ الطَّوْدِ مُنْهَدُّ[3]

لَهُ عَـــزْمَةٌ مَطْوِيَّةٌ فِي سَكِينَةٍ

كَمَا لَانَ مَتْنُ السَّيْفِ وَاخْشَوْشَنَ الْحَدُّ[4]

يُوَكِّلُ بِالتَّـــدْبِيرِ خَاطِرَ فِكْرَةٍ

إِنِ اقْتَدَحَتْ فِي خَاطِرٍ أَثْقَبَ الزَّنْدُ[5]

ذِرَاعٌ ـ لِمَا يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ ـ وَاسِعٌ   وَبَاعٌ ـ إِلَى مَا يُحْرِزُ الْفَخْرَ ـ مُمْتَدُّ[6]

---

(١) مُمِرٌّ : مُرَّ من أمرَّ الشيءُ : صار مرا ؛ شِيبَ : مُزِج ؛ والمعنى : الأمير مُر على أعدائه حـــلو لأوليائه كحلاوة الشهد الممزوج بالمــاء العذب الزلال .

(٢) المعنى : الأمير قوى قادر ، ولـكنه يعفو عن المسيء إذا اعترف بذنبه، فهو أرحب صدرا وأوسع عفوا من أن يسيطر عليه الحقد فيدفعه إلى التمادى فى العقاب .

(٣) متئد : متمهل ؛ الطود : الجبل العظيم ؛ حاجزه : مانعه ؛ والمعنى :الأمير وقور مهيب كالطود الراسخ ، ولو حاول الطودُ أن يجارىَ حلمه لانهار جانبه أمام حلم الأمير .

(٤) المعنى : للأمير عزمات قوية رهيبة ، ولـكنها محجوبة بهدوئه وسكينته ووداعته مثل السيف البتار تلين صفحته ويقطع حدُّه .

(٥) المعنى : للأمير بديهة لماحة يكل إليها تدبير الحلول للمشكلات ، فتحكم تدبيرها وتـكاد تقدح فى الأذهان من توقدها نارا كما يقدح الزناد .

(٦) المعنى : للأميرذراع واسعة فى مقابلة أحداث الزمان ، وله يد طويلة ممتدة إلى المفاخر والأمجاد .

إِذَا أَسْهَبَ الشُّتُونَ فِيـــهِ شَأْنَهُمْ
مَرَاتِبُ عُلْيَا كَلَّ عَنْ عَفْوِهَا الْجَهْدُ(١)

هُوَ الْمَلِكُ الْمَشْفُوعُ بِالنُّسْكِ مُلْـكُهُ
فَيَا فَضْلَ مَا يُخْفِي وَيَا سَرْوَ مَا يَبْدُو(٢)

إِلَى اللَّهِ أَوَّابٌ، وَلِلَّهِ خَائِفٌ
وَبِاللَّهِ مُعْتَدٌّ، وَفِي اللَّهِ مُشْتَدُّ(٣)

* * *

لَقَدْ أَوْسَعَ الْإِسْلَامَ بِالْأَمْسِ حِسْـبَةً
نَحَتْ غَرَضَ الْأَجْرِ الْجَزِيلِ فَلَمْ تَعْدُ(٤)

---

(١) شأى: سبق؛ كلّ: عجز وضعف؛ العفو: ما يأتي بسهولة دون مشقة ومنه أعطيته عفواً أي بدون سؤال، أو هو خيار الشيء وأجوده، أو الفضل؛ والمعنى: إذا أطال المادحون في إطراء مناقبه لم يستطيعوا إدراكها، فإن مآثره السامية يعجز الفكر عن حصر ما تأتى به عفواً دون مشقة أو مجهود.

(٢) في بعض نسخ الذخيرة «... قلبه فلله ما يخفَى ولله ما يبدو»؛ السرو: المروءة والسخاء؛ والمعنى: مزج الأمير حزمه في حكمه بالتقوى والصلاح، فما أعظم مايخفيه من مساعيه الحميدة!! وما أشرف مايظهره من نعمه الجسام!!

(٣) أوّاب: تائب؛ ومنه قوله تعالى «فإنه كان للأوّابين غفورا»؛ معتدّ: معدود، وقد تأتي بمعنى مُهيَّأ، ولعله مُعتزّ؛ والمعنى: الأمير توّابٌ من الذنوب خائف من عقاب الله معتز بتأييده قوى بنصرته؛ يلين في الله ويشتد فيه.

(٤) الحسبة: الأجر والثواب أو التدبير؛ نحَتْ: اتجهت؛ لم تعدُ: لم تتجاوز؛ والمعنى: لقد أسدى الأمير إلى الإسلام يداً بيضاء اتجهت إلى إرضاء الله ونيل ثوابه فلم تتجاوزه.

أباحَ حِمى الخمرِ الخبيثةِ ، حائطاً حِمى الدِّينِ مِنْ أن يُستباحَ لَهُ حَدُّ[1]
فطوّقَ باستئصالها المِصرَ مِنّـةً
يكادُ يؤدّى شكرَها الحَجَرُ الصَّلْدُ[2]
هِيَ الرِّجْسُ، إنْ يُذهِبْهُ عنهُ فَمُحْسِنٌ شَهِيرُ الأيادِى ما لآلائهِ جَحْدُ[3]
مَظِنَّةُ آثامٍ ، وأُمُّ كبائرٍ يُقَصِّرُ عن أدنَى مَعايبِها العَدُّ[4]
رأى نقصَ ما يَجْبِيهِ منها زيادةً
إذِ الحَوضُ المَرْضِىُّ إلّا يَرُحْ يَغْدُو[5]

* * *

(١) المعنى : اقتحم الأمير حصنَ الخمر فهدمه حافظا لحرمة الدين القويم، مانعا أن يستبيح حرمته الفساقُ الماجنون .

(٢) المعنى : طوّق الأمير عنق العاصمة بمكرمة عظيمة هى استئصال شرب الخمر فيها ، فاستحقّ أن يشكره الجميع حتى الحجارة الصماء .

(٣) المعنى : الخمر رجس وآثام ، والأمير جدير بالقضاء عليها ، فإن آلاءه وآثاره فى خدمة الدين لايستطيع إنكارها الجاحدون .

(٤) مظنَّة : موضع الظن ، ومنه إنه لمظنة خير؛ والمعنى: إن الخمر مجلبة للذنوب وهى أم الكبائر يقصر العدد عن إحصاء عيوبها .

(٥) المعنى : رأى الأمير أن النقص فى الضريبة التى كانت تجبى على الخمر هى زيادة له فى الأجر والثواب عند الله ، فإذا نقصت الجباية فى الدنيا فستزيد الحسنات فى الآخرة ، فما ينقص فى الروحات يزيد فى الغدوات .

غنيٌّ ، فَحُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ مالُهُ   عَزيزٌ ، فَصُنْعُ اللهِ مِن حَوْلِهِ جُندُ[١]

أنيمٌ حديثُ البِرِّ أوْضَعَتِ الصَّبَا   تَبُثُّ ثَنَاهُ حَيْثُ لاَ تُوضِعُ البُرْدُ[٢]

تَقَلْقَلَ فى مَسَامِعِ الرَّبَابِ ، وَطَالَعَتْ   لَهُ صُورَةٌ لَمْ يَعْمَ ـ عَنْ حُسْنِهَا ـ الْخُلْدُ[٣]

مَسَاعٍ أَجَدَّتْ زِينَةَ الْأَرْضِ ، فَالْحَصَى   لَآلِئُ نَثْرٌ ، وَالثَّرَى عَنْبَرٌ وَرْدُ[٤]

---

(١) ورد البيت فى الذخيرة هكذا :

عزيز بحسن الظن بالله ، ماله   عرين ، فصنع الله من حوله جند

والمعنى : إن الأمير غنى ، ولكن أمواله الكثيرة هى حسن ظنه بالله ؛ وهو عزيز الجانب ، ولكن عزته قائمة على أن حوله من تأييد الله ونصره جيشا كثيفا

(٢) آثرنا رواية الذخيرة وفى الأصول « توضعه الصبا » ؛ أوضع : أسرع ؛ الثنا : الخبر المنقول عن إنسان حسنا كان أم سيئا ، البُرْد : جمع بريد ، والمقصود به هنا حملة الرسائل ؛ والمعنى : ما أطيب حديث بره وعطفه تنشره الصبا فى كل مكان ، وتنقله إلى حيث يتعذر وصول البريد .

(٣) الرَّباب : السحاب الرقى أو السحاب الأبيض القريب ؛ أو آلة موسيقية ، والرِّباب : العهد أو الأصحاب ، والرُّباب : الإحسان أو النعمة أو الحاجة ؛ الخلد : الخلود أو الجنة ؛ والمعنى : إن أحاديث بره وسماحته نقلتها الصبا إلى مسامع السحاب ، وطالعتها جنة الخلد فقدّرت حسنها ؛ أو سجّل الخلود صورتها على صفحات الزمان .

(٤) العنبر الورد : الزعفران ، أو العنبر المائل للحمرة ؛ والمعنى : إن آثاره المجيدة زينت الأرض فأصبح حصاها كاللآلئ المنثورة وثراها كالعنبر الورد المسحوق .

لدى زَهَرَاتِ الرَّوْضِ — عَنَّا — بِشَارَةٌ
وَفِي نَفَحَاتِ المِسْكِ — مِنْ طِيبِهَا — وَفْدُ[1]

* * *

فَدَيْتُكَ ، إِنِّي قَائِلٌ فَمُعَرِّضٌ بِأَوْطَارِ نَفْسٍ مِنْكَ لَمْ يَقْضِهَا بَعْدُ[2]

مُنًى كَالشَّجَا دُونَ اللَّهَاةِ تَعَرَّضَتْ فَلَمْ يَكُ لِلْمَصْدُورِ — مِنْ نَفْثِهَا — بُدُّ[3]

أَمِثْـــلِيَ غُفْلٌ خَامِلُ الذِّكْرِ ضَائِعٌ —
ضَيَاعَ الحُسَامِ العَضْبِ أَصْدَأَهُ الغِمْدُ ؟[4]

أَبَى ذَاكَ أَنَّ الدَّهْرَ قَدْ ذَلَّ صَعْبُهُ فَسُنِّيَ مِنْهُ — بِالَّذِي نَشْتَهِي — العَقْدُ[5]

* * *

---

(١) فى نسخ ب ، ت ، ز « ... عنَّا بشارة » ؛ البشَـارة : الجمال ، والبِشارة والبُشارة : البشرى أو الهدية المقدمة المبشرين ؛ والمعنى : مساعيه جعلتْ الدنيا مزدهرة فتانة تقتبس الأزهار منها نضرتها وينقل المسك عنها أطيبَ النفحات .

(٢) التعريض : التلميح ؛ أوطار : آمال ؛ والمعنى : أيها الأمير إن لى فيك آمالا كبيرة أرقتها ، وأ كتفى الآن بالتلميح إليها دون التصريح .

(٣) المُـنَى : الآمال ؛ الشجا : الغصة أو مايعترض الحلق من عظم وغيره ؛ اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق أو أول المرىء ؛ المصدور : الذى يشكو ألما فى الصدر ؛ والمعنى : إن آمالى فيك ظلتْ عالقة بصدرى مثيرة لنفسى كأنها غصة معترضة فى حلقى أحاول أن أ كتمها فلا أطيق ، فلم يكن هناك بد من أن أنفس عن نفسى بنفثها إليك .

(٤) غُـفْل : مهمل متروك لاميزة له ؛ الخامل : الساقط الذى لانباهة له ؛ العضب : الحاد القاطع ؛ والمعنى : أمثلى على سمو نفسه ونباهة شأنه وحدة ذكائه يُترَكُ مهملا منبوذا ضائعا كما يضيع الحسام الصدئ إذا طال لُبثهُ فى القراب ؟

(٥) سُنـِّيَ العقد : تيسر الصعب ؛ والمعنى : يقانى ضائعا فى ظلالك يأباه==

أَنَا السَّيْفُ لَا يَنْبُو مَعَ الْهَزِّ غَرْبُهُ
إِذَا مَا نَبَا السَّيْفُ الَّذِى تَطْبَعُ الْهِنْدُ(١)

بَدَأْتَ بِنُعْمَى غَضَّةٍ، إِنْ تُوَالِهَا فَحُسْنُ اللَّآلِى أَنْ يُوَالِيَهَا سَرْدُ(٢)

لَعَمْرُكَ مَا لِلْمَالِ أَسْــعَى، فَإِنَّمَا
يَرَى الْمَالَ أَسْنَى حَظِّهِ الطَّبِــعُ الْوَغْدُ(٣)

وَلَـكِنْ لِحَلْيٍ - إِنْ لَبِسْتُ جَمَالَهَا -
كَسَوْتُكَ ثَوْبَ النُّصْحِ أَعْلَامُهُ الْحَمْدُ(٤)

* * *

=عليك بجدك وأن الدهر قد أسلم إليك أمره ودان للتصعبه وسهل أمامك عسيره.

(١) فى الخريدة « لاينبو مع الهز ضربه » ؛ نبا السيف : ارتدّ ولم يقطع ؛ غربُه : حدّه ؛ والمعنى : إنى سيف ماض بتّار لايرتد حدّه عن الضريبة إذا نبت السيوف الهندية عن الضرائب .

(٢) المعنى : بدأتَ بنعمى شهية لذيذة ، فأتبعها بأمثالها من النعم فإن اللآلئ يجمل منظرها إذا اتسقت وانتظمت فى عقدها النظيم .

(٣) فى الخريدة « الطامع الرغد » ، الطبعُ : الدّنِس ؛ الوغد : الدنىء الذى يخدم بطعام بطنه ؛ والمعنى : وحقك ما أسعى إلى مال أكسبه ، فإنّ المال هو أقصى غايات السفلة الأوغاد .

(٤) المعنى : لا أسعى لكسب مال وإنما أسعى إلى بلوغ منزلة سامية إذا نلتها أخلصتُ لك النصيحة وخلعت عليك حُلَلَ الثناء ؛ ولعله يقصد أن يكون وزيرا للرأى والمشورة .

أَتتكَ القَوَافِي شَاهِدَاتٍ بِمَا صَفَا — مِن الغَيْبِ ، فاقْبَلْهَا فَمَا غَرَّكَ الشُّهدُ[1]

لِيَحْظَى وَلِيٌّ سِرُّهُ وَفْقَ جَهْرِهِ — فَظَاهِرُهُ شُكْرٌ ، وَبَاطِنُهُ وُدُّ[2]

يُمَيِّزُهُ مِمَّنْ سِوَاهُ وَفَاؤُهُ — وَإِخْلَاصُهُ ، إِذْ كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ[3]

مودة وعتاب

« أحاطت الفتن والدسائس بالشاعر ففزع إلى الأمير راجيا ضارعا مهنئا إياه بعيد الفطر » .

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّفِيعَ شَبَابُ ؟ — فَيَقْصُرُ عَنْ لَوْمِ المُحِبِّ عِتَابُ[4]

---

(١) الشُّهدُ : جمع شاهد ؛ والمعنى : وافتك قصائدى فى الثناء عليك والتنويه بك شاهدة بما أكنه لك فى قلبى من حب وولاء فاقبل شهادتها فهى أعدل الشهود .

(٢) المعنى : اقبل شهادة شعرى فى تقديرى لك وتعلقى بك ، فإنه ينطق بولائى لك وأن سرى مثل جهرى فى محبتك ، فظاهره إطراءك وباطنه معبر عن هيامى بك وإخلاصى لك .

(٣) كل غانية هند : مثل يضرب للتساوى فى الشر ؛ والمعنى : لا تغتر بالظاهر ، ولا تعتقد أن الجميع متساوون فى فساد الضمائر ؛ فإننى أمتاز عن الجميع بالإخلاص والوفاء .

(٤) المعنى : ألا تعلم هذه النادرة الحسناء أن شفيعى إليها الشباب ؟ وهو شفيع تغتفر له هفواته وتستجاب رغباته وتفتح أمامه الأبواب ، فلا مبرر للوم أو عتاب ؛ وقد ردد الشاعر هذا المعنى فى قصيدة أخرى فقال :

أيامَ إنْ عتب الحبيب لهفوة — شفع الشبابُ فكان أكرم شافع !

عَلاَمَ الصِّبَا غَضٌّ يَرِفُّ رُوَاؤُهُ ... إِذَاعَنَّ مِنْ وَصْلِ الْحِسَانِ ذَهَابُ؟[1]

وَفِيمَ الْهَوَى مَحْضٌ يَشِفُّ صَفَاؤُهُ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُنَّ عَنْهُ ثَوَابُ؟[2]

* * *

وَمُسْعِفَةٍ بِالْوَصْلِ إِذْ مَرْبَعُ الْحِمَى ... لَهَا — كُلَّمَا قِظْنَا الْجِنَابَ — جَنَابُ[3]

تَظُنُّ النَّوَى تَعْدُو الْهَوَى عَنْ مَزَارِهَا ... وَدَاعِي الْهَوَى نَحْوَ الْبَعِيدِ مُجَابُ[4]

(١) غض: ناعم؛ يرف: يهتز ويلمع؛ الرواء: المنظر الجميل؛ عنّ: عرض؛ والمعنى: ما قيمة الشباب الغض الإهاب الرائع الجمال إذا لم يجذب بفتنته الحسان؟

(٢) المحض: الخالص الصافى؛ يشفّ: يظهر ماخلفه؛ والمعنى: ما قيمة الإخلاص فى الحب إذا لم ينل عنه صاحبه أحسن الجزاء؟

(٣) قاظ اليوم: اشتد حرّه، وقاظ بالمكان أقام به صيفاً، وقد عدّى الشاعرُ الفعلَ دون حرف جر فقال« قِظْنا الجِنابَ» وتعدية الفعل اللازم بغير حرف الجر سماعيٌّ لا يقاس عليه، ومنه قوله تعالى « واختار موسى قومه » أى من قومه: وقولهم دخلت الدار أى فيها؛ ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدى:

أمرتك الخير فافعل ما أُمِرْتَ به ... فقد تَرَكْتُكَ ذا مال وذا نشب

أى أمرتك بالخير؛ وليس لابن زيدون أن يقيس على السماع « راجع شرح المفصّل لابن يعيش ج٨ ص ٥٠، ٥١ »؛ الجِنَاب: جبل على مرحلة من الطائف أو موضع فى أرض كلب بين العراق والشام، وفيه يقول ابن دارة —:

خليليّ إن حانت بحمص مَنيتى ... فلا تدفنانى وارفعانى إلى نجد

ومُرَّا على أهل الجناب بأعظمى ... وإن لم يكن أهل الجناب على القصد

وكنا عنهم جَنابا: كنا متنحّين عنهم؛ والمعنى: تسعفنا الحبيبة بالوصال فتتنحىٌّ عن حماها وتهجره، وتقبل إلينا فى مصطافنا بالجناب فى شوق ولهفة وإسراع

(٤) النوى: البعد؛ تعدو عنه: تنصرف عنه؛ والمعنى: تتوهم أن الفراق=

وَقَلَّ لَهَا نِضوٌ بَرَى نَحْضَهُ السُّرَى ... وَيَهْمَاءَ غُفْلُ الصَّحْصَحَانِ مُجَابُ(١)

إِذَا مَا أَحَبَّ الرَّكْبُ وَجْهاً مَضَوْا لَهُ ... فَهَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَخُبَّ رِكَابُ(٢)

عَرُوبُ الْأَحَتِّ مِنْ أَعَارِيبِ حِلَّةٍ ... تَجَاوَبُ فِيهَا بِالصَّهِيلِ عِرَابُ(٣)

غَيَارَى مِنَ الطَّيْفِ الْمُعَاوِدِ فِي الْكَرَى ... مُشِيحُونَ مِنْ رَجْمِ الظُّنُونِ غِضَابُ(٤)

= يحول بيننا وبين زيارتها، وفاتها أن البعد يلهب الشوق ويزيد اللهفة ويشعل الرغبة في الزيارات .

(١) النِّضو : المهزيل ؛ النحض : اللحم ؛ السرى : السفر ليلا ؛ اليهماء : البادية التى لا يهتدى السائر فيها إلى قصده ؛ غُفْل : مجهولة غير متميزة بعلامات أو آثار ؛ الصحصحان : الصحراء المستوية الجرداء ؛ مُجاب : مقطع ؛ والمعنى : كل مجهود يبذل فى سبيل الوصول إليها سهل قليل ؛ ولوقطعنا الصحارى المجدبة المخيفة على ظهر بعير أنحله السيرُ فى الظلام وأذاب لحمه السفر فى البيداء ، فإن الهدف العظيم يهون فى سبيله كل مشقة أو عناء .

(٢) تخب الركاب : تسرع ؛ والمعنى : إذا أحب المسافرُ الغاية التى يسعى إليها هان عليه أن يجهد نفسه ومطيته ليحظى بالأمل المنشود .

(٣) العَرُوبُ : المتحببة لزوجها المطيعة له ، وجمعها عُرُب ، ومنه قوله تعالى « إنا أنشأناهنّ إنشاء فجعلناهنّ أبكاراً عُرُباً أتراباً » ؛ لاحت والأحت : ظهرت لامعة متلألئة ؛ الأعاريب : البدو من الأعراب ومنه قول المتنى :

مَن الجآذرُ فى زىّ الأعاريب . حمر الحلى والمطايا ، والجلابيب ؟

العراب : الخيل المنحدرة من سلالة أصيلة بعيدة عن الهجنة ؛ والمعنى : هذه الفتاة الحسناء منطوية على المودّة والوفاء ، نبتت فى قبيلة بدوية محافظة شديدة البأس ذات عدة وسلاح وخيل مطهمة معدة للقتال .

(٤) مُشِيحُون : حذرون متأهبون للنضال ، رجم الظنون : خطرات الهواجس والشكوك ؛ والمعنى : إن أهلها شديدو الغيرة حتى من الخيالات الطائفة فى الأحلام ، وهم متحفزون للنضال تلبية للهواجس والشكوك .

وَمَاذَا عَلَيْنَا أَنْ يُسَنَّى وَصْلُهَا ... طِعَانٌ ، فَإِنْ لَمْ يُغْنِنَا فَضِرَابُ[1]

أَلَمْ تَدْرِ أَنَّا لاَ تَرَاحُ لِرِيبَةٍ ... إِذَا لَمْ يُلَمِّعْ بِالنَّجِيعِ خِضَابُ ؟[2]

وَلاَ نَنْشَقُ العِطْرَ النَّؤُومَ أَرِيجُهُ ... إِذَا لَمْ يُشَعْشَعْ بِالعَجَاجِ مَلاَبُ ؟[3]

وَكَمْ رَاسَلَ الْغَيْرَانُ يُهْدِي وَعِيدَهُ ... فَمَا رَاعَهُ إِلاَّ الطُّرُوقُ جَوَابُ[4]

وَلَمْ يَثْنِنَا أَنَّ الرَّبَابَ عَقِيلَةٌ ... تَسَانَدُ سَعْدٌ دُونَهَا وَرِبَابُ[5]

---

(١) يسنّى : يسهّل وييسر ؛ المعنى : وماذا يضيرها أن يسهل لنا الوصول إليها جهادُنا لمشيرتها طعناً بالرماح ، فإن لم تُجدِنا فضرباً بالسيوف ؟

(٢) راحت يده لكذا : خفت إليه ومضارعها يراحُ ، وراح لأمر: ارتاح إليه ؛ النجيع : الدم الضارب إلى السواد ، وقال الأصمعي : هو دم الجوف خاصة ؛ والمعنى : ألا تعرف هذه الفتاة أننا لا نطمئن إلى الرِّيَب ، أو لا نخف إلى مواضع الخطر حتى نبادرها بالنضال وسفك الدماء ؟

(٣) النؤوم : مذيع الأخبار للوقيعة بين الناس ، والغرض هنا المسلك الساطع الرائحة ؛ الأريج : الرائحة الطيبة ؛ يشمشع : يختلط ويمتزج ؛ العجاج : غبار الحروب ؛ الملاب : طيبٌ أو الزعفران ؛ والمعنى : إننا لا نفرغ للمتاع بالعطور المنبعثة من هؤلاء الفتيات الناعمات ما لم نَـنَمْ في سبيلهن الحروب الطاحنة التي يختلط فيها الطيب بالغبار .

(٤) الغيران : شديد الغيرة ؛ الوعيد : التهديد ؛ الطروق : القدوم الباغت ليلا ؛ والمعنى : كم هدّدني وليٌّ هذه الفتاة الجسور وتوعدني بالموت إذا حاولت زيارتها ، فما راعه إلا أنني باغتهٌ بالقدوم تحت أستار الظلام .

(٥) العقيلة : كريمة الحي ؛ سعد : تطلق على عدة قبائل منها سعد تميم وسعد قيس وسعد هذيل وسعد بكر ... الخ ؛ رباب : أحياء ضبة سُمُّوا بهذا لأنهم أدخلوا أيديهم في رُبٍّ وتحالفوا ، والرب هو عصير الفاكهة المطبوخ «ونسميه=

وَأَنْ رُكِّزَتْ حَوْلَ الْخُدُورِ أَسِنَّةٌ   وَحُفَّتْ بِقُبٍّ السَّابِحَاتِ قِبَابُ[١]

وَلَوْ نَدِرَ الْحَيَّانِ غِبَّ السُّرَى بِنَا   لَكَرَّتْ«عُظَالَى»أَوْلَعَادَتْ«كُلَابُ»[٢]

وَلَيْلَةَ وَافَتْنَا تَهَادَى ، فَتَمْتَرِى :   أَيَنْشُو حَبَابٌ أَوْ يَسِيبُ حُبَابُ؟[٣]

=«الآن مربى» ؛ والمعنى : لم يحل بيننا وبين الوصول إلى الرباب أنها كريمة منيعة فى قومها ، وأن قبيلَتَىْ سعد والرباب تساندتا فى حفظها وصونها والذود عنها فى حمية وإباء .

(١) السابحات القُبّ : الخيل الضامرة السريعة العدو كأنها تسبح فى الهواء ؛ والمعنى : لم تصدنا عن الوصول إليها أسنّة الرماح الشرعة ولاالخيل المطهمة التى تحيط بقبابها وتحميها من طمع الطامعين .

(٢) نذر القوم بالعدو : علموا بمسيره إليهم ؛ غِبّ السرى : عقب السير ليلا ؛ لكرّت : لعادت ؛ عظالى : يوم من أيام العرب لبنى تميم ضد بكر بن وائل يقول العوام بن شوذب الشيبانى فيه وفى يوم النبيط [بين تميم وشيبان] :
فإن يك فى يوم النبيـــط ملامة   فيــوم العظالى كان أخزى وألوما
وكُلاب : يومان من أيام العرب فى الجاهلية بين بنى تميم وملوك كندة ، ويقول السفاح بن خالد التغلبى فيهو فى ماء ساجر « ماء باليمامة » :
إن الكلابَ ماؤنا فخــلوهْ   وســاجرا والله لن تحلّوهْ
والمعنى : لو شعر الحيان بمباغتنا لهم فى الظلام تمامَ أبيننا وبينهم حروب طاحنة تعيد ذكرى حروب القبائل فى عظالى وكُلاب

(٣) تهادى : تمايل ؛ تمترى : تشك ؛ حَبَابُ الماء : نفاخاته التى تعلوه أو صفحاته المتموّجة ؛ الحُباب : الحيّة ؛ والمعنى : زارتنا فى الظلام متهادية تنساب خطواتها فى رفق ولين فتساءلنا: أهى صفحات ماء يمرّ عليها يد النسيم فى رفق وهوادة ؟ أم هى حية تنساب فوق الرمال ؟ ويجوز أن يكون المعنى مجازياً مغزاه حينما زارتنا ليلا تساءلنا : أنقضى ليلنا معها فى سعادة وصفاء تتقارع كئوس الصهباء ؟ أم نطوى ليلنا فى حرب ونضال مع قومها إذاتنبهوا لزيارتنا إلينا كما تنساب الحيات ؟

يَدُذُّهَا عَمْنُ السُّوَارِ بِمِعْصَمٍ ... أَبَانَ لَهَا أَنَّ النَّعِيمَ عَذَابُ[1]
لَأَبْرَحْتُ مِنْ شَيْحَانَ حُطَّ لِثَامُهُ ... إِلَى خَفِرٍ مَا حُطَّ عَنْهُ نِقَابُ[2]
ثَوَى مِنْهُمَا ثِنْىَ النِّجَادِ مُشَيَّعٌ ... نَجِيدٌ، وَمِيلَاءُ الْوِشَاحِ كَعَابُ[3]
يُعَلَّلُ مِنْ إِغْرِيضِ ثَغْرٍ، يُعُلُّهُ ... غَرِيضٌ كَمَاءِ الْمُزْنِ وَهْوَ رُضَابُ[4]

---

(١) المعنى : هى فتاة رقيقة ناعمة بضة الجسم ممتلئة الذراعين ، يؤلمها التصاق السوار بمعصمها ويثبت لها أنّ من النعم نِقَمًا ومن المتع عذابًا .

(٢) أبرح : بالغ ، ومنه أبرحت كرما أى أفرطت ، ومنه قول الأعشى :

أقول لها حين جد الرحيـ ... ـلُ: أَبْرَحْتِ رَبًّا وأبرحتِ جارا

أى أعجبت وبالغت ؛ أبرح : آذى بالإلحاح ، وأبرحَ : أعجب وعظَّم ؛ الشيحان: الحازم أو الطويل أو المسرع أو شديد الغيرة؛ خَفرٌ وخَفِرةٌ : شديدة الحياء ؛ اللثام ما يضعه الفارس على أسفل وجهه ليتنكر أو ليثير الرعب ؛ وقد قامت دولة الملثمين بالمغرب ، وسُمِّيَتْ بهذا الاسم لأنهم التزموا وضع اللثام ؛ النقاب : البرقع ؛ والمعنى: لقد عجبت من فارس مغوار رفع لثامه مسرعا إلى فتاة حييَّةٍ لم تتعود رفع نقابها؛ ويقصد هنا نفسه وحبيبته، ويعجب من كيفية التقائهما .

(٣) ثوى : أقام ؛ الثِّنى : ثِنى الوادى منعطفه ، وثِنى الثوب طى بعضه على بعض ؛ النجـاد : حمائل السيف ؛ الشَّيَّعُ : الشجاع أو المَعجول ؛ النجيد والنَّجُدُ والنَّجُد : الشجاع الماضى فيما يعجز غيره ؛ ميلاء الوشاح : المنحدرة الوشاح لبروز صـــدرها وضمور خصرها ؛ والوشاح : نسيج مرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها كالوسام ؛ كعاب : فتاة بدأ ثديها يظهر؛ والمعنى: التقى الحبيبان : هو شجاع باسل ينهض بما يعجز غيره عن النهوض به ، مال على حبيبته فانثنت عليها حمائل سيفه ؛ وهى فتاة كاعب حسناء انثنى وشاحها حينما مال عليه .

(٤) يعلل : يجنى الثمر مرة بعد مرة ، الإغريض : الطلع أو كل ثمر أبيض =

إلى أنْ بَدَتْ في دُهْمَةِ الأُفْقِ غُرَّةٌ ۞ وَنَفَّرَ مِنْ جُنْحِ الظَّلامِ غُرابُ[١]

وَقَدْ كادَتِ الجَوْزاءُ تَهْوِي، فَخِلْتُها ۞ ثَناهَا مِنَ الشِّعْرَى العَبُورِ جِذابُ[٢]

كَأَنَّ الثُّرَيَّا رايَةٌ مُشْرِعٌ لَهَا ۞ جَبَانٌ، يُرِيدُ الطَّعْنَ ثُمَّ يَهابُ[٣]

كَأَنَّ سُهَيْلاً في رَباوَةِ أُفْقِهِ ۞ مُسِيمُ نُجُومٍ حانَ مِنْهُ إيابُ[٤]

كَأَنَّ السُّها فانِي الحُشاشَةِ شَفَّهُ ۞ ضَنًى، فَخَفَتاتٌ مَرَّةً وَمَثابُ[٥]

= طرى ؛ يسلّه ؛ يسقيه مرة ثانية ؛ الغريض : الطرى ، أو ماء المطر ؛ الرضاب : الريق ؛ والمعنى : يلثم حبيبته مرة بعد مرة ، ويرشف من فيها رضابا عذبا صافيا كماء السحاب .

(١) الدهمة : السواد ؛ الغرة : بياض فى الجبهة ؛ جُنح الظلام : طائفة منه ؛ والمعنى : طوى الليلَ مع حبيبته متمتعا بها حتى انبثق الصباح كالغرة البيضاء فى سواد الظلام ، وولّى الدجى كما يطير الغراب الأسود عن مجثمه .

(٢) الجوزاء : برج فى السماء ، تهوى : تسقط ، ثناها : ردّها ؛ الشعرى العبور : كوكب يعبر السماء عرضا ، ومثلها الشعرى الغميصاء ، وتزعم العرب أنهما اختا سهيل ؛ والمعنى : كادت الثريا تسقط فجاذبتها الشعرى العبور وردّتها ؛ والغرض : أن النجوم أوشكت أن تغيب حينما دنا الصباح .

(٣) الثريا : مجموعة كواكب متجاورة ؛ أشرع الفارس رمحه : أماله للطعن ؛ والمعنى : كأن الثريا حينما مالت للغروب جبانٌ يهمّ بالطعن ثم يتردد ويخاف .

(٤) سهيل : نجم ؛ رباوة : مرتفع ؛ مُسيم : راعى ماشية ؛ إياب : عودة ؛ والمعنى : كأن سهيلا — فى علوه وارتفاعه — راع للنجوم وقد أزمع العودة بها إلى حظائرها .

(٥) السها : كوكب خفيّ يمتحن الناس به أبصارهم ؛ الحشاشة : بقية الحياة ؛ شفّه الضنى : أنحله المرض ؛ خفت خفوتا : سكن وسكت ، وخُفاتا : مات فجاءة ؛ المثاب : الرجوع ؛ والمعنى : كأن نجم السها فى بعده ، وخفائه مريض يعالج سكرات الموت وتتجاذبه المنيّة والحياة ، فهو يموت مرارا ويحيى مرارا ؛ كقول ناس قصيدة :

فاستُ بحيّ أو بميت ، وإنما ۞ أموت مرارا كل يوم وأبعث

كَأَنَّ الصَّبَاحَ اُسْتَقْبَسَ الشَّمْسَ ضَوْءَهَا
فَجَاءَ لَهُ مِنْ مُشْتَرِيهِ شِهَابُ(١)

كَأَنَّ أَيَاةَ الشَّمْسِ بِشْرُ ابْنِ «جَهْوَرٍ»
إِذَا بَذَلَ الْأَمْوَالَ وَهْيَ رِغَابُ(٢)

* * *

هُوَ الْبِشْرُ شِمْنَا مِنْهُ بَرْقَ غَمَامَةٍ
لَهَا بِالْلُّهَا فِي الْمُعْتَفِينَ مَصَابُ(٣)

جَوَادٌ مَتَى اسْتَمْجَلْتَ أُولَى هِبَاتِهِ
كَفَاكَ مِنَ الْبَحْرِ الْخِضَمِّ عُبَابُ(٤)

(١) المشترى : أحد الكواكب السيارة ؛ استقبس : طلب جذوة من النار ؛ الشهاب : شعلة نار ساطعة ؛ والمعنى : كأنّ الصباح طلب من الشمس قبسا من نار فأعارته كوكب المشترى قبل بزوغها .

(٢) إياة الشمس وأَيَاؤها وإِيَاها وأَيَاؤها : نورها وحسنها ؛ رغاب : كثيرة وفى الحديث « أفضل الأعمال منح الرغاب » قال ابن الأثير : هى الإبل الواسعة الدر الكثيرة النفع ؛ والمعنى : كأن ضوء الشمس وحسنها وجه الأمير حينما يتهلل للجود بالأموال الكثيرة ؛ ومثله قول محمد بن وهيب فى مدح المأمون :

وبدا الصباحُ كأن غرّته وجهُ الخليفة حين يُمتدحُ

(٣) شام الشىء : تطلّع إليه ؛ وشام البرق : نظر إلى سحابته أين تمطر ؛ اللُّها جمع لُهوة ولُهية وهى العطية نقودا أو غير نقود ؛ المعتفون : طلاب الإحسان ؛ مَصاب اسم مكان من الفعل « صاب » وصابه المطر : هطل عليه ؛ والمعنى : حينما يتهلل وجه الأمير بالعطاء نتوقع منه وفرة الهبات ، ونرى فيه برقا ساطعا يتلوه سحاب هاطل له محتاجين بأجزل العطاء .

(٤) جواد : سخىّ ؛ هباته : عطاياه ؛ الخِضَمّ : كثير العطاء أو البحر أو الجمع الكثير ؛ العباب : أول الشىء أو ارتفاع السيل أو الموج ؛ والمعنى : الأمير كريم سخىّ ؛ إذا تعجلت أولى عطاياه كفتك وأغنتك كما يمدّ البحر الزاخر بالأمواج .

غَـــنِيٌّ عَنِ الْإِبْسَاسِ دَرُّ نَوَالِهِ
إِذَا اسْتُنْزِلَ الدَّرُّ الْبَكِيءُ عِصَابُ[1]

إِذَا حَسَبَ النَّيْلَ الزَّهِيدَ مُنِيلُهُ فَمَا لِعَطَايَاهُ الْحِسَابِ حِسَابُ[2]

عَطَايَا يُصَبُّ الْحَامِدُونَ بِحَمْدِهِ عَلَيْهَا ، وَلَمْ يَحْبُوا بِهَا فَيُحَابُوا[3]

مُوَطَّأُ أَكْنَافِ السَّمَاحِ ، دَنَتْ بِهِ خَلَائِقُ زُهْرٌ إِذْ أَنَافَ نِصَابُ[4]

---

(١) الإبساس : الطلب والجهد أو التلطف أو زجر الإبل بقولنا لها : « بَس بَس » والشاعر يقول فى رسالته الجدية : « ما أبسستُ لك إلا لتدرّ » أى ما لاطفتك إلا لتصفح ؛ الدَّرّ : اللبن ؛ البكيء : الناقة القليلة اللبن ؛ العِصاب : شدُّ فخذى الناقة لتدرّ لبنها ؛ والمعنى : يجود الأمير دون سؤال أو إلحاف فلا يحتاج لأن نحركه كما تحتاج الناقة القليلة اللبن للملاطفة أو الزجر أو شد فخذيها حتى تجود باللبن .

(٢) حسبَ : عدّ ، مُنِيل : باذل النوال وهو العطاء ؛ عطاياه الحساب : عطاياه الكثيرة الكافية ، ومنه قوله تعالى « جزاءً من ربك عطاء حسابا » ؛ حِسَاب : عد ؛ والمعنى : إذا كان بعض الواهبين يعدّ ويحصر ما يبذله من عطاء وما يهبه من أموال قليلة فإن الأمير يعطى الجزيل ولا يحصيه بعدّ أو حساب .

(٣) يُصبّ : يُحِقّ : يحبوه : يهبه ؛ حابى : جامل وسامح ؛ والمعنى : عطايا الأمير تطلق ألسنة الشعراء بالثناء عليه ، فكلما سمع حاسدوه هذا الإطراء كادوا يهلكون لأنهم لا يظفرون بمديح أو إطراء ، فهم لم يتعودوا بذل العطاء حتى يحابيهم الشعراء .

(٤) وطّأ الوضع : هيأه ودمّثه وسهّله ؛ الأكناف الجوانب ، ورجل موطأ الأكناف : دَمِثٌ كريم مضياف ؛ السماح : الجود الفطرى ؛ زُهر : مشرقة وضاءة ؛ أناف : أشرف وسما ؛ النصاب : الأصل أو المنصب ؛ والمعنى : الأمير سمح الجناب سهل المزار تواضعت به أخلاقه وإن سمت به أحسابه .

فَزُرْهُ تَزُرْ أَكْنَافَ غَنَّاءَ طَلَّةٍ ... أَرَبَّتْ بِهَا لِلْمَكْرُمَاتِ رَبَابُ (١)

زَعِيمُ المَسَاعِي أَنْ تَلِينَ شَدَائِدٌ ... يُمَارِسُهَا، أَوْ أَنْ تَلِينَ صِعَابُ (٢)

مَهِيبٌ يَغُضُّ الطَّرْفَ مِنْهُ لآذِنٍ ... مَهَابَتُهُ دُونَ الْحِجَابِ حِجَابُ (٣)

لأَبْلَجَ مَوْفُورِ الجَلَالِ، إِذَا احْتَبَى ... عَلَا نَظَرٌ مِنْهُ وَعَزَّ خِطَابُ (٤)

وَذِي تُدْرَإٍ يَعْدُو الْعِدَا عَنْ قِرَاعِهِ ... غِلَابٌ، فَمَهْمَا عَزَّهُ فَخِلَابُ (٥)

إِذَا هُوَ أَمْضَى الْعَزْمَ لَمْ يَكُ هَفْوَةً ... يُؤَثِّرُ عَنْهَا فِي الْأَنَامِلِ نَابُ (٦)

(١) الروضة الغناء: الكثيرة العشب؛ الأكناف: الجوانب؛ طلّة: مُبَلَّلة بالندى؛ أربَّ بالمكان: لزمه وأقام به، وأربت السحابة: دام مطرها؛ الرّباب: السحاب الأبيض، الرُّباب: الجماعات والأصحاب؛ والمعنى: إذا زرت الأمير وجدت فيه روضة غنــاء ظلّت سحائب المكرمات هاطلة بها، أو تزاحمت فيها طرائف الهبات.

(٢) المعنى: تكفَّل الأمير أن يسّهل كل عسير وأن يذلّل كل صعب.

(٣) آذِنٌ: مستمع؛ والمعنى: للأمير هيبة ووقار، يغض طرفه لجليسه حتى لا يحرجه، وهو بغير حاجة للحجاب لأن مهابته تغنيه عن الحراس والحجاب.

(٤) الأبلج: المضيء المشرق؛ احتبى: اشتمل بثوبه أو ذراعيه وضمّ بها فخذيه إلى بطنه وجلس فى تؤدة ووقار؛ والمعنى الأمير متهلل الوجه وضّاح الأسارير يجلس فى جلال ووقار ويسمو بطارفه فيعز على مجالسيه أن يبادوه بالخطاب.

(٥) فى نسختى ب، ت « خلاب فهما عزه فغلاب » ذوتدرأ: صاحب قوة وسطوة وقهر للأعداء؛ يعدو: يصرف؛ القراع: النضال؛ عزّه: غالبه؛ خلاب: خداع باللسان والمثل « إذا لم تغلب فاخلب »؛ والمعنى: الأمير قاهر غلاب ينصرف الأعداء عن مناضلته لأنهم يدركون مدى شجاعته وبأسه، فإن تعذّر القتال فإن له من حسن سياسته وتدبيره وحيلته ما يكفل له النصر فى النضال.

(٦) المعنى: إذا فكّر الأميرُ وصمّمَ فإنه سيصيب الهدف لا محالة؛ ولن يعض بنان الندم لأنه لا يفشل له رأى ولا يطيش له تدبير.

عَزائمُ يَنْصاعُ العِدَا عَنْ مُرِّها ... كَمَا رُ هِيِّتْ يَوْمَ النِّضالِ رِهابُ[1]

سَوائِبُ ، رِيشُ النَّصْرِ فى جَنَباتِها ... لُؤَامٌ ، وَرِيشُ الطَّائِشاتِ لُغابُ[2]

حَليمٌ تَلافَى الجاهِلِينَ أَناتُهُ ... إِذِ الحِلْمُ عَنْ بَعْضِ الذُّنوبِ عِقابُ[3]

إِذا عَثَرَ الجانِي عَفَا عَفْوَ حافِظٍ ... بِنُعْمَى لَهَا فى المُذْنِبِينَ ذِنابُ[4]

شَهامَةُ نَفْسٍ فى سَلامَةِ مَذْهَبٍ ... كَمَا الماءُ لِلرَّاحِ الشَّمُولِ قِطابُ[5]

---

(١) انصاع : انفتل راجعا مسرعا ؛ المِرَّة : الإحكام أو قوة الخلق وشدته أو العقل أو القدرة ، والعزائم المرّة : المحكمة ؛ الرِّهاب : النصال الرقيقة ؛ والمعنى : للأمير عزمات قوية وآراء محكمة يتحاماها الأعداء كما يتحامون الأسلحة الفتاكة يوم القتال ؛ وفى نسختى : ت ، ز « ينصاح العدا » والمنصاح : الماء الفائض الجارى على الأرض .

(٢) اللؤام : الريش الحديدى المجتمع حول السهم فى اتساق ليجعل الجرح واسعا غائرا ، والريش اللغاب : الريش الفاسد حول السهم ؛ والمعنى : عزائم الأمير صائبة كالسهام المزودة بريش حديدى والمصنوعة بإحكام وعناية لتفتك بالأعداء ، على حين أن عزمات غيره ليست مصنوعة بإحكام .

(٣) المعنى : الأمير — على شجاعته وبأسه — حليم ، تردُّ أناتُهُ ورفقُهُ جهلَ الجاهلين ، وقد يكون العفو عن المذنبين عقابا لهم ؛ وفى مثل هذا يقول المتنبى :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهمو ... ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا ؟!

(٤) الذِّناب : جمع ذَنوب وهو الحظ والنصيب ، والمعنى : إذا عثر المذنبون فإن الأمير يقابل هفواتهم بالعطايا ويغمرهم منها بأوفى حظ وأوفر نصيب .

(٥) الشمول : الخمر الباردة ؛ القطاب : المزاج ؛ والمعنى : الأمير شهم شجاع ، وله رأى صائب ومذهب سليم ؛ وقد امتزجت هذه الصفات فيه كما تمتزج الخمر بالماء الزلال .

« بَنِي جَهْوَرٍ » مَهْمَا فَخَرْتُمْ بِأَوَّلٍ فَسِرٌّ مِنَ المَجْدِ التَّلِيدِ لُبَابُ[١]

حَطَطْتُمْ بِحَيْثُ اسْلَنْطَحَتْ سَاحَةُ الْعُلَا

وَأَوْفَتْ لِأَخْطَارِ السَّنَاءِ هِضَابُ[٢]

بِكُمْ بَاهَتِ الأَرْضُ السَّمَاءَ ، فَأَوْجُهٌ شُمُوسٌ ، وَأَيْدٍ فِي المُحُولِ سَحَابُ[٣]

* * *

أَشَارِحَ مَعْنَى المَجْدِ ، وَهْوَ مُعَمَّسٌ وعَامِرَ مَغْنَى الحَمْدِ ، وَهْوَ خَرَابُ[٤]

مُحَيَّاكَ بَدْرٌ ، وَالْبُدُورُ أَهِلَّةٌ وَيُمْنَاكَ بَحْرٌ ، وَالْبُحُورُ ثِغَابُ[٥]

---

(١) السر: محض النسب أو أفضله أو الخالص من كل شىء أولُبُّه ؛ التليد: القديم ضد الطريف ، أو ماولد ببلاد العجم ثم حمل إلى بلاد العرب « والمعروف أن جدّ بنى جهور الأعلى من الموالى » اللُّباب : الخالص ؛ والمعنى : مهما كان لكم يابنى جهور من أمجاد قديمة فإن الأمير هو خلاصة أمجادكم ولب أحسابكم .

(٢) اسلنطح الوادى: اتسع؛ والمعني : حللتم مكانة سامية فسيحة اتسعت بها ساحة المجد والفخار، وأشرفت بها للسمو والرفعة أشمخ الهضبات .

(٣) المعنى : افتخرت الأرض على السماء بكم فباهت بوجوهكم الشموس ، وفاخرت بأياديكم السحاب .

(٤) مُعَمَّس : مظلم ملتبس غامض ؛ والمعنى : أيها الأمير لقدْ أوضحت ماغمض من المجد، وأضأت ماأظلم من معالمه، كما أطلقتَ الألسنة بالثناء عليك والحمد لك ، فازدهرت مغانى الشعر بعد البلى والدثور .

(٥) الثغاب والأثغاب : جمع ثَغْب وهو الغدير فى ظل جبل لاتناله الشمس فيبرد ماؤه ، فليس شىء أصفى منه ولاأبرد ، قال عبيد :

وَلقد تحلُّ بها كأنّ مجاجها ثَغْبٌ يُصَفَّقُ صفوه بمدام =

رَأَيْتُكَ جارَاكَ الْوَرَى فَغَلَبْتَهُمْ ... لِذَلِكَ جَرْىُ الْمُذَكِّيَاتِ غِلَابُ(١)

فَقَرَّتْ بِهَا مِنْ أَوْلِيَائِكَ أَعْيُنٌ ... وَذَلَّتْ لَهَا مِنْ حَاسِدِيكَ رِقَابُ(٢)

* * *

فَتَحْتَ الْمُنَى مِنْ بَعْدِ إِلْهَامِنَا بِهَا ... وَقَدْ ضَاعَ إِقْلِيدٌ وَأُبْهِمَ بَابُ(٣)

مَدَدْتَ ظِلَالَ الْأَمْنِ تَخْضَرُّ تَحْتَهَا ... مِنَ الْعَيْشِ فِي أَغْذَى الْبِقَاعِ شِعَابُ(٤)

= وقد يجمع على ثعبان قال الأخطل :

وثالثة من العســـل الصفّى ... مشعشعة بثعبــــان البطاح

والمعنى : وجهك قر كامل، والأقار بالقياس إليه أهـلّة لم تـكتمل ؛ ويمينك بحر زخار ، والبحور بالنسبة إليه جداول وغدران .

(١) المذكيات والمذاكى : الخيل التى أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان ، والقارح هو الذى انتهت أسنانه عند إكماله خمس سنوات ، ومعنى هذا أن تـكون قد بلغت تمام نضجها ؛ قال ابن الجوزى : الذكاة فى اللغة تمام الشيء، ومنه الذكاء فى الفهم ؛ ومن الأمثال «جرىُ المُذَكّيات غِلاب» أى التالية أى أنها تغالب مجاريها فتغلبه لقوتها ، أو أن جريها الثانى أكثر من جريها الأول ، والثالث أكثر من الثانى، لجريها أبدا غلاب ، وهذا معنى قول أبى عبيد : فهى يحتمل أن تغالب الجرى غلابا ؛ والمعنى : باراك الناس فأبذبهم وسابقوك فسبقتهم .

(٢) المعنى : امتيازك على منافسيك وسبقك لمناضليك أقرّ عيون أصدقائك وأخزى قلوب أعدائك وأذل منهم الرقاب .

(٣) الإقليد : المفتاح ؛ أبهم : أغلق ؛ والمعنى : حقّقتَ لنا الآمال بعد أن أوحيت الينا الرجاء بوعدك بها؛ وقد كاد يدركنا اليأس وتوصدفى وجوهنا الأبواب .

(٤) المذاة والمذية : الأرض الطيبة البعيدة من الماء والوخم ، هذا البلد يمذو : طاب هواؤه ، وأغذى البقاع : أطيبُ الأماكن مناخا وتربة ؛ الشعاب : جمع شِعب وهو الطريق فى الجبل أو مسيل الماء أو ما انفرج بين الجبلين ؛ والمعنى: بسطت علينا ظلال الأمن فطابت لنا الحياة وأخصبت البقاع .

حتى سألتَ فيه البُغاثُ جوارحٌ ... وكفّت عن البَهْمِ الرِّتاعِ ذئابُ[1]

فلا زِلتَ تَسْعى سَعْيَ مَنْ حظُّ سَعْيهِ ... نجاحٌ، وحظُّ الشانئيه تَبابُ[2]

فإنكَ للدِّينِ الشَّعيبِ لَمُلْئِمٌ ... وإنكَ للمُلْكِ الشَّتيِ رَتَابُ[3]

إذا معشرٌ ألهاهمُ جُلساؤُهم ... فلهوُكَ ذِكْرٌ، والجليسُ كتابُ[4]

(١) البغاث (بفتح الباء وكسرها وضمها) : جمع بغاثة وهو الطائر الضعيف لا يصيد ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث ؛ الجوارح : الطيور المفترسة ؛ البَهْم : جمع بهمة وهى ولد الضأن ذكرا كان أم أنثى ، والسخال : ولد المعز ، فإذا اجتمعت البَهْم والسخال معاً قيل لها جميعا بَهْم ، وجمع البَهْم بِهام (بفتح الباء وكسرها) ؛ الرتاع : جمع راتعة وهى الماشية التى ترعى العشب ؛ والمعنى : بسط الأمير حمايته على الرعية فاستقر الأمنُ وعم السلام ، فسالمت الطيورُ الكاسرةُ ضعاف الطير وكفّت الذئاب الضارية عن افتراس الماشية .

(٢) الشانئ : المبغض ، وشنئه شَنْئاً «بفتح الشين وكسرها وضمها» : كرهه أشد الكره ؛ التباب : الهلاك ؛ والمعنى : نسأل الله أن يكلل مساعيك بالنجاح وأن يحبط مساعيَ أعدائك ويهدم ماقاموا به من أعمال .

(٣) الشعيب : المتفرق أو المتصدع ، المُلْئِم : المصلح مِنْ لأَمَ الصدع ولأمه أى أصلحه وضمه ؛ الشَّأْى والشَّاى : الإفساد ، أو الأمر العظيم يقع بين القوم ، وتصف السيدة عائشة رضى الله عنها أباها فتقول « ورأبَ الثأى » أى أصلح الفساد ، ويقول جرير :

هو الوافد الميمون والراتق الثأى ... إذا النعلُ يوماً بالعشيرة زلت

رتاب : صلاح ؛ والمعنى : إنك مؤلف لماتشتّت من شمل الدين جامع لما تفرق من جموع أصحابه ، كما أنك مصلح لشئون الرعية السلطان .

(٤) المعنى : إذا انصرف الملوك مع جلسائهم إلى اللهو والشراب فإن لذتك تكمل بذكر الله تعالى ، وبهجتك تتم بمدارسة العلوم وصحبة الكتب .

نعزّيكَ عَن شهرِ الصِّيامِ الذي انقضَى ... فإنَّكَ مَفجوعٌ بهِ فَمُصابُ (١)

هُوَ الزورُ، لَو تُعطَى المُنَى وَضعَ العَصَا ... ليزدادَ مِن حُسْنِ الثَّوابِ مُثابُ (٢)

شَهِدتُ لأدَّى منكَ واجبَ فَرضِهِ ... عَليمٌ بِما يُرضِي الإلهَ نِقابُ (٣)

وَجاوَرتَ بَيتَ اللهِ أُنسًا بِمَعشَرٍ ... خَشوا فَخَرُّوا رُكَّعًا وَأنابوا (٤)

لقَد جَدَّ إخباتٌ ، وَحَقَّ تَبَتُّلٌ ... وَبالَغَ إخلاصٌ، وَصَحَّ مَتابُ (٥)

سَيَخلُدُ فِي الدُّنيا بِهِ لَكَ مَفخَرٌ ... وَيَحسُنُ فِي دارِ الخُلودِ مَآبُ (٦)

---

(١) المعنى : نُعَزِّيك في شهر رمضان فقد أنست به أنسا عظيما، وفقدته فحزنت عليه أعظم الحزن وأبرحه .

(٢) الزَّوْر : الزائر (يستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع) ؛ وضع العصا : أقام ؛ والمعنى : إن شهر الصيام زائر كريم لو تحققت آمالك فى قربه لامتدّ طول العام لتزداد فيه ثوابا إلى ثواب .

(٣) النقاب : الرجل العلاّمة ، قال أوس بن حجر :

نجيـــحٌ جوادٌ أخو مأقـــط ... نقاب يحـــدّثُ بالغائب

والمأقط : موضع القتال ، وقيل الضيق فى الحرب ؛ المعنى : أشهد أنك أديتَ فرض الصيام حق الأداء ، فإنك بحانة فى شئون الدين عليم بما يرضى الله .

(٤) أنابوا : أقبلوا على الله تائبين؛ والمعنى : لزمت المسجد مؤتنسا بأناس كانوا فيه على عبادة الله راكعين ساجدين .

(٥) الإخبات لله : الخشوع والخضوع له؛ التبتل: الانقطاع عن الدنيا انجاها إلى الله تعالى؛ والمعنى: لقد جد منك خضوع وخشوع لله تعالى، وانصراف إليه عن كل شىء ، وإخلاص له فى كل عمل ، وتوبة من جميع الآثام .

(٦) المعنى : ما ترك الصالحات الباقيات ستخلد ذكراك فى الدنيا وتجزل ثوابك عند الله فى الآخرة حين أوبتك إلى حماه .

وَبُشْرَاكَ أَعْيَادٌ سَيَنْعَى اطِّرَادُهَا ... كَمَا اطَّرَدَتْ فِي السَّمْهَرِيِّ كِعَابُ[1]
تَرَى مِنْكَ سَرْوَ الْمُلْكِ فِي قَشَفِ التُّقَى ... فَيُبْرِقُهَا مَرْأَى هُنَاكَ عُجَابُ[2]
فَأَبْلِ وَأَخْلِفْ، إِنَّمَا أَنْتَ لَابِسٌ ... لِهَذِي اللَّيَالِي الْغُرِّ، وَهْيَ ثِيَابُ[3]

* * *

فَدَيْتُكَ! كَمْ أَلْقَى الْفَوَاقِرَ مِنْ عِدًا ... قِرَاهُمْ - لِنِيرَانِ الْفَسَادِ - ثِقَابُ[4]
عَفَا عَنْهُمُ قَدْرِي الرَّفِيعُ فَأَهْجَرُوا ... وَبَايَنَهُمْ خُلْقِي الْجَمِيلُ فَعَابُوا[4]

(١) السمهري : الرمح الصلب ، وقيل المنسوب إلى سمهر زوج ردينة وكانا مشهورين بتثقيف الرماح ، وقيل ينسب إلى قرية بالحبشة ؛ كعاب الرمح: عقده ، أو عقد القصب بين الأنابيب ؛ والمعنى : هنيئا لك بالأعياد التي ستتوالى وتطرد كما تطرد العقد المتساوية في الرماح .

(٢) السَّرْوُ : المروءة والسخاء والشرف؛ القشف : خشونة العيش وشدته ؛ أبرق ، أدهش ، وبرق بصره : دهش فلم يبصر ، وقيل تحير فلم يطرف ، قال ذو الرمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت ... لعينيه مَىٌّ سافرا كاد يبرق

والمعنى : ترى الأعياد فيك بهاء الملك وجلاله مجتمعين إلى التقشف والزهد والعبادة ، فتبصر منظرا غريبا يدعو إلى الدهشة والإعجاب .

(٣) المعنى : ودِّع الأعياد واستقبل غيرها كما يبدل اللابس ملابسه الخلقة بأخرى جديدة قشيبة ، ودم على الأيام تفنيها وتستجد غيرها في أمن وسلام .

(٤) في « الأصول ألقى الفواغر » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ الفواقر : جمع فاقرة وهي الداهية ؛ قال تعالى: « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة » ؛ القِرَى : إطعام الطعام ، الثقاب والثقوب : ما توقد به النار ؛ والمعنى : نفسى فداؤك أيها الملك العظيم ، كم أعاني من أعداء غادرين إذا أكرمتهم أمعنوا في الفساد والطغيان وعضوا اليد التي أطعمتهم فأشعلوا نار البغي والآثام .

(٤) عفا : زاد ؛ أهجروا : أفحشوا في المقال أو سخروا في الكلام ؛ باينهم : ناقضهم ؛

وَقد نُسْمِعُ اللَّيْثَ الْجِحَاشُ نَهِيقَهَا ... وَتُعْلِى إِلَى الْبَدْرِ النُّبَاحَ كِلَابُ[١]

إِذَا رَاقَ حُسْنُ الرَّوْضِ أَوْ فَاحَ طِيبُهُ ... فَمَا ضَرَّهُ أَنْ طَنَّ فِيهِ ذُبَابُ[٢]

فَلَا بَرِحَتْ تِلْكَ الضَّغَائِنُ ! ! إِنَّهَا ... أَقَاعِ لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ لِصَابُ[٣]

تَقُولُونَ : شَرِّقْ أَوْ فَغَرِّبْ صَرِيمَةً ... إِلَى حَيْثُ آمَالُ النُّفُوسِ نِهَابُ[٤]

فَأَنْتَ الحُسَامُ الْعَضْبُ أَصْدَى مَتْنُهُ ... وَعُطِّلَ مِنْهُ مَضْرِبٌ وَذُبَابُ[٥]

وَمَا السَّيْفُ مِمَّا يُسْتَبَانُ مَضَاؤُهُ ... إِذَا حَازَ جَفْنٌ حَدَّهُ وَقِرَابُ[٦]

=والمعنى : ارتفع قدرى عنهم فأقذعوا فى هجائى، وناقضت أخلاق السامية أخلاقهم الوضيعة فعابوها .

(١) المعنى : لا عجب إذا نالونى بألسنتهم فربما نهقت الحمير على الآساد ؛ وربما نبحت الكلاب على الأقمار .

(٢) المعنى : إذا أينع الروض وازدهر فلن يضيره أن يطنّ فيه الذباب .

(٣) أقاع : تماين ؛ لصاب : التصاق من لَصِب الجِلْدُ باللحم إذا لزق به هزالا، ولصب السيف فى الغمد : نشب ؛ والمعنى : أتمنى أن يدوم حقدهم علىّ فإنه يجوس بين ضلوعهم فيضنيهم ويوسعهم غما ونحولا .

(٤) الصريمة : العزيمة ؛ النهاب : جمع نَهْب وهو الغنيمة ؛ والمعنى : يشير علىّ الناصحون بالهجرة عن هذا البلد حيث أجد التكريم والحفاوة وأظفر بتحقيق الآمال .

(٥) الحسام العضب : السيف القاطع ؛ المتن : الصفحة ؛ مضرب السيف : حده ، وذُبَابُه : طرفه المدبب ؛ والمعنى : يزهدنى الناصحون فى الإقامة بهذا البلد الذى ألقى فيه الإهمال — على الرغم من مضائى وحدتى — كما يهمل السيف البتار فى غمده .

(٦) الجفن : غلاف السيف ؛ القراب : الغمد ؛ والمعنى : إذا ظللتَ مقيما فقد يخفى فضلك وتضيع مواهبك فإن السيف لا يظهر مضاؤه إذا ظل مغمدا فى جفنه .

وَإِنَّ الَّذِي أَمَّلْتَ كُدِّرَ صَفْوُهُ
فَأَضْحَى الرِّضَى بِالسُّخْطِ مِنْهُ يُشَابُ[1]

وَقَدْ أَخْلَفَتْ مِمَّا ظَنَنْتَ مَخَايِلٌ ... وَقَدْ صَفِرَتْ مِمَّا رَجَوْتَ وِطَابُ[2]

فَمَنْ لِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ عَلَيْهِمُ ... إِذَا لَجَّ بِالْخَصْمِ الْأَلَدِّ شِغَابُ[3]

لِيُخْزِيَهُمْ أَنْ لَمْ تُرِدْنِي بِجَفْوَةٍ ... يُسَاءُ الْفَتَى مِنْ مِثْلِهَا وَيُرَابُ[4]

فَقَدْ تَتَغَشَّى صَفْحَةَ الْمَاءِ كُدْرَةٌ ... وَيَعْلُو عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ ضَبَابُ[5]

(١) يشاب : يمزج ؛ والمعنى : إن آمالك في الأمير لحقها الـكدر والتنغيص، وأصبحت حلاوة الأماني فيه ممزوجة بمرارة السخط والإخفاق

(٢) المخايل : السحب التي توحي بالمطر؛ صفرت : خلت ؛ الأوطاب : جمع وطب وهو سقاء اللبن ، أو الثدى العظيم ، وصفرت وطابه : مات أو قتل ؛ والمعنى : فيم بقاؤك فى هذا البلد وقد خابت فيه آمالك وتبددت أوطارك ؟

(٣) السلطان : الحجة والبرهان ، لج : تمادى فى الخصومة ؛ الألد : الشديد الخصومة ؛ الشغب : الخلاف وتهييج الشر أو الفتنة أو الخصام ومثله الشغاب ، قال الفرزدق :

يردُّونَ الحلومَ إلى جبالٍ ... وإن شاغبتَهم وجدُوا شغابا

والمعنى : من لى بدليل قوى أرد به على حججهم إذا تمادوا فى المخاصمة والجدال؟

(٤) نبوة : نفور وجفوة ؛ راب : يوجه إليه الشك أو الاتهام ؛ والمعنى هؤلاء المجادلين جديرون بالخزى ، فإنك لم تتعمد معاملتى بجفاء يدعو إلى الألم أو الارتياب ؛ وإذا كانت هناك جفوة غير مقصودة فإنما هى من قبيل المصادفات .

(٥) كذا فى نسخة ا ، وفى نسخ ب ، ت ، ز « صفوة الماء » والصفوة : هى الخلاصة المختارة ؛ يعلو الليل ويغطى : يظلم ، ويغطى على الشيء : يستره؛ والمعنى : إذا انصرف عنى الأمير فهو انصراف مؤقت غير مقصود ؛ فقد تتعكر صفحة الماء ثم تصفو، وقد يستر الضباب ضوء النهار ثم تشرق الشمس فيتبدد الضباب .

سُرُورُ الْغِنَى - مَالَمْ يَكُنْ مِنْكَ - حَسْرَةٌ ... وَأَرْىُ الْمُنَى - مَالَمْ تُنَلْ بِكَ - صَابُ[1]

وَإِنْ يَكُ فى أَهْلِ الزَّمَانِ مُؤَمَّلٌ
فَأَنْتَ الشَّرَابُ الْعَذْبُ وَهُوَ سَرَابُ[2]

أَيُعْوِرُ مِنْ جَارِ السِّمَاكَيْنِ جَانِبٌ ... وَيُمْعِزُ فى ظِلِّ الرَّبِيعِ جَنَابُ[3]

فَأَيْنَ ثَنَاءٌ يَهْرَمُ الدَّهْرُ كِبْرَةً ... وَحِلْيَتُهُ فى الْغَابِرِينَ شَبَابُ؟[4]

سَأَبْكِي عَلَى حَظِّى لَدَيْكَ، كَمَا بَكَى ... «رُبَيِّعَةُ» لَمَّا ضَلَّ عَنْهُ «ذُؤَابُ»[5]

---

(١) الأَرْى : عسل النَّحل ؛ الصاب : عصارة شجر مُرّ ؛ والمعنى: يشير علىّ كثيرون بالهجرة عنك فى طلب الجاه والمال ؛ ولكننى أعد الثروة مالم تكن منك نكبة ، وأعتبر الحلو مالم تبذله أنت مرا .

(٢) المعنى: إذا كان هناك موضع للآمال فى هذه الدنيا فأنت أنت محط الآمال، فكأنك الشراب العذب وغيرك سراب خدّاع .

(٣) يُعْوِرُ : يظهر فيه موضع خلل أو ضعف ؛ السماكان (الأعزل والرامح) : نجمان نيّران ، يمعز : يصلب ويشتد ،ويقال للأرض الصلبة معزاء : وما أمعزه من رجل!! : ما أشدّه!! ؛ الجناب : الفِناء ؛ والمعنى : أينهار جانب ممن كان فى جوار رفيع كجوارك ؟ ويجدب من كان فى ظل ظليل كظلك ؟

(٤) المعنى : كيف يضيع إطرائى لك وثنائى عليك بشعر يشيب الدهر وهو شباب غض لا يشيب ؛ يردده الزمان جيلا بعد جيل .

(٥) قتل ذؤابُ بنُ رُبَيِّعَةَ (خفّف الشاعرُ الاسمَ لضرورة الوزن) عتيبةَ بن الحارث اليربوعى فى إحدى الحروب ثم أسر الربيعُ بن عتيبة اليربوعى ذؤاباً دون أن يعرف أنه قاتل أبيه فأتاه رُبَيِّعَةُ (أبو ذؤاب) فافتداه بفدية يوفيها فى سوق عكاظ ، فلما دخلت الأشهر الحرم وأتى ربيعةُ الموسم وتخلف الربيع لعذر قاهر ظنّ ربيعةُ أن الربيع عرف شخصية أسيره وقتله ، فرثاه بأبيات منها : — =

وأشكو نُبوَّ الجنبِ عن كلِّ مَضجعٍ كما يتجافَى بالأسيرِ ظِرابُ(١)

أمنّى بهِزبرِ الشِّعرِ، وأصفحُ عن الوَرَى فإنّهمُ — إلاّ الأقلَّ — ذُبابُ(٢)

ولا تعدِلِ المُثنينَ بي، فأنا الذي إذا حضرَ العُقمُ الشَّواردُ غابُوا(٣)

ينوبُ عن المُدّاحِ منّي واحدٌ جميعُ الخِصالِ ليسَ عنهُ مَنابُ(٤)

=أذؤاب: إني لم أعبك، ولم أقم للبيع عند مُحضَّر الأجلاب

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب

بأشدهم كلباً على أعدائهم وأعزهم فقداً على الأصحاب

وسارت هذه الأبيات عنه فبلغت بني يربوع فملوا شخصية أسيرهم فقتلوه فظل أبوه يبكيه ويندبه، وبخاصة بعد أن علم أنه سبب مصرعه.

(راجع شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ح ٢ ص ٨٤٣ — ٨٤٦ والأمالي ح ٢ ص ٧٢، ٧٣)

(١) الظراب: جمع ظَرِب وهو ما تأمن من الحجارة أو حدّ طرفها؛ والمعنى: سأبكي على حظي لذلك وأشكو خشونة موضعي عندك وأندب سوء طالعي تحت ظلالك كما يشكو الأسير من إلقائه على الأحجار الحادة عند النام.

(٢) الهزبر: الأسد القوى الضخم؛ أصفح: أعرض وأترك؛ والمعنى: هب لى تمنك فإننى كالأسد الكاسر فى عالم الشعر، وغيرى يطن فيه كالذباب.

(٣) كلمات عقم: كلمات مويصة، قال زهير: —

هم جَدّدوا أحكام كل مُضِلَّة من المُعقم لايلفى لأمثالها فَصْلُ

والمعنى: لا تعدل بي أحدا من مادحيك فإن القوافى الصعبة الشاردة — التى لا تنتج لها مثيلا — إذا حضر نفر هؤلاء المادحون وثبتُّ أنا لها، فإننى بها كفيل.

(٤) جميع الخصال: مجتمع الفضائل؛ والمعنى: إننى أعدل المادحين جميعا وأنوب عنهم فأنهض بما لا ينهضون به؛ فإننى جمعت فضائل البلغاء جميعا، ولا يستطيع أحد أن يبدع إبداعى فى الثناء.

وَرَدْتُ مَعِينَ الطَّبْعِ إِذْ ذِيدَ دُونَهُ ... أُنَاسٌ لَهُمْ فِى حَجْرَتَيْهِ لُوَابُ(١)

وَأَنْجَدَنِى عِلْمٌ تَوَالَتْ فُنُونُهُ ... كَمَا يَتَوَالَى فِى النِّظَامِ سِخَابُ(٢)

فَمُدَّ بِيَدٍ بَيْضَاءَ يَصْدَعُ صِدْقُهَا ... فَإِنَّ أَرَاجِيفَ الْعُدَاةِ كِذَابُ(٣)

وَحَاشَاكَ مِنْ أَنْ تُسْتَذَمَّ مَرِيرَةٌ ... لِمَهْدِكَ ، أَوْ يَخْفَى عَلَيْكَ صَوَابُ(٤)

---

(١) معين الماء : جرى فهو مَعِين ، قال تعالى : «قل أرأيتم إنْ أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ؟ » ؛ ذِيدَ : منع ولعلها «رُدّ دونه» ؛ حَجْرَتَيْه : جانبيه ؛ اللؤاب : العطش ؛ والمعنى : نهلت من نبع شعرى فياض حتى ارتويت ، ومُنِعَ غيرى من هذا المورد العذب فبرّح بهم الظمأ وكاد يقضى بهم على الهلاك .

(٢) أنجد : أجاب أو أعان ؛ السخاب : قلادة من سُكّ وقرنفل ومحلب بلا جوهر « والسُّك مادة من الطيب تطبخ مع المسك وتجفف فى هيئة حبوب تُثَقَّب وتتخذ منها القلائد ، وهى طيبة الريح وكلما قدم عهدها زادت طيبا » ؛ والمعنى : أسعفت مواهبى وأعانها علم تتابعت فنونه فانتظمت فى قريحتى كما كما ينتظم العقد فى سمطه .

(٣) يصدع : يُظْهِر أو يَشُقّ أو يجهر أو يفصل ، ومنه قوله تعالى « فاصدع بما تُؤْمَر » أى شُقّ جماعتهم بالتوحيد أو اجهر بالقرآن أو أظهر شريعتك أواحكم بالحق وأفصل فى الأمر ؛ الأراجيف : اختلاق الأخبار السيئة ؛ والمعنى : عد إلى سابق مودتى وأسند إلىّ يدًا بيضاء تفصل بينى وبين خصومى فإنهم دأبوا على اختلاق الأخبار السيئة والصاقها بى زورا وبهتانا .

(٤) فى الأصول « تستدم مريرة » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ المريرة : الحبل الشديد الفتل أو الطويل الدقيق أو عزة النفس أو العزيمة ؛ والمعنى : إنك أكرم وأنبل من أن تقبل الذم فى أصحاب النفوس الأبية والعزائم الفتية ، وأعقل من أن يخفى عليك الصواب .

فواصل وفضائل

حَرَادُهُمْ حَيْثُ السِّلَاحُ خَمَائِلُ ... وَمَوْرِدُهُمْ حَيْثُ الدِّمَاءُ مَنَاهِلُ (١)

وَدُونَ الْمُنَى فِيهِمْ جِيَادٌ صَوَافِنٌ ... وَمَأْثُورَةٌ بِيضٌ وَسُمْرٌ عَوَاسِلُ (٢)

لِكُلِّ نَجِيدٍ فِي النِّجَادِ ، كَأَنَّمَا ... تُنَاطُ بِمَتْنِ الرُّمْحِ مِنْهُ الْحَمَائِلُ (٣)

طَوِيلٌ عَلَيْنَا لَيْلُهُ مِنْ حَفِيظَةٍ ... كَأَنَّ صَبَابَاتِ النُّفُوسِ طَوَائِلُ (٤)

(١) المراد : مكان طلب النجعة ؛ الخمائل : الأشجار الكثيفة المتشابكة ؛ المورد : مكان الورود إلى الماء ؛ مناهل : مشارب ؛ والمعنى : هذه الفتاة من أسرة قوية الجانب مرهوبة البأس ، تشرع أسلحتها كالغابة الكثيفة الأشجار ، وتربض حول مناهلها دماء الأعداء .

(٢) الصوافن : جمع صافن وهو الجواد الذي يقوم على ثلاث قوائم ويمس بطرف الحافر الرابع الأرض ؛ مأثورة : سيوف فى متونها آثار وزخرفة ، ويزعم بعضهم أنها من صنع الجن ؛ السمر : الرماح ؛ العوامل : صـــدور الرماح ؛ ولعلها « وسمر عواسل » والعواسل : الرماح المرنة الشديدة الاهتزاز ؛ والمعنى : دون الوصول إلى حبيبتى بين عشيرتها جياد مطهمة معدة للقتال ، وسيوف مشهورة ، ورماح مركوزة .

(٣) النجيد : الشجاع الماضى فيما يعجز غيره ، أو الأسد ؛ النجاد : حمائل السيف أو الفرش والوسائد ؛ متن الرمح : صدره أو ظهره ، تناط : تعلق ؛ والمعنى : عشيرتها مكونة من كل شجاع باسل كالأسد الكاسر ، سيفه مشدود إلى وسطه ، وقد تعلق السيف منه بقامة كالرمح .

(٤) الحفيظة : الغضب والحمية ، يقال أحفظه أى أغضبه ؛ الصبابات : جمع صبابة وهو الشوق أو رقته ؛ طوائل : جمع طائلة وهى الثأر أو العداوة ؛ والمعنى : ولىّ هذه الفتاة قوىّ البأس شديد الغيرة ، يسهر الليل غيظا منّا وغضبا علينا كأنّ شـعورنا بحبها جريمة أو ثأر قائم بيننا وبينه يفكر فى الاقتصاص به منا .

كِناسٌ دَنَا مِنْهُ الشَّرى فى مَحَلَّةٍ   بِهَا اللَّيْثُ يَغْدُو، وَالْغَزَالُ يُغَازِلُ[1]

لَعَمْرُ الْقِبَابِ الْحُمْرِ وَسْطَ عَرِينِهِمْ

لَقَدْ قُصِرَتْ فِيهَا السُّرُوبُ الْعَقَائِلُ[2]

أَمَحْجُوبَةٌ لَيْلَى وَلَمْ تُخْضَبِ الْقَنَا

وَلاَ حَجَبَتْ شَمْسَ الضُّحَاءِ الْقَسَاطِلُ[3]

أَنَاةٌ عَلَيْهَا مِنْ سَنَا الْبَدْرِ مِيسَمٌ   وَفِيهَا مِنَ الْغُصْنِ النَّضِيرِ شَمَائِلُ[4]

(١) الكناس: مأوى الظباء وبقر الوحش بين الأشجار؛ الشرى: طريق مليئة بالأسود؛ محلّة: مكان الحلول؛ والمعنى: هذه الفتاة عليه تحيط بها الأسود؛ كأنها فى كناس محفوف بالشرى، فالآساد تفترس، والغزلان تسير الصبابة والهيام.

(٢) القباب الحمر: لعلها القباب الذهبية. أو المطلية بالزعفران «الأحمر: الذهب أو الزعفران» وفى الحديث الشريف من النساء: «أهلكهنّ الأحمران» قال ابن الأثير: الذهب والزعفران؛ والقُبَاب: السيوف القاطعة؛ عرين الأسد: مأواه؛ قُصِرَتْ: حُبِسَتْ أو حُجِبَتْ، ومنه قوله تعالى «حور مقصورات فى الخيام» أى مخدرات محجبات إلا على أزواجهن؛ والمعنى: وحق القباب المالية الذهبية التى أقيمت بين عرين الأسود لقد اشتملت على أسراب من الفتيات الفاتنات المخدرات فى مقاصيرهنّ المنيعة.

(لم نجد كلمة السروب جمعا للسرب فيما رجعنا إليه من كتب اللغة).

(٣) الضُّحاء: ارتفاع الشمس قبل الظهر؛ القساطل: جمع قسطل وهو الغُبار؛ والمعنى: كيف تُحْجَبُ ليلى عنا ولاقتحم مقاصيرها بحرب عنيفة بيننا وبين قومها تختضب فيها الرماح بالدماء، وتحتجب الشمس فيها من وفرة الغبار المتطاير من سنابك الخيل؟

(٤) الأناة: المرأة الفاترة المتكسرة عند قيامها؛ سنا: ضوء؛ ميسم: علامة وأثر؛

يَجُولُ وِشَاحَاهَا عَلَى خَيْزُرَانَةٍ وَتُشْرِقُ فِى بَرْدِيَّتَيْنِ الْخَلَاخِلُ[1]

* * *

وَلَيْلَةَ وَافَتْنَا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدٍ كَارِيمٍ وَسْنَانُ الْمَشِيَّاتِ خَاذِلُ[2]

تَهَادَى انْسِيَابَ الْأَيْمِ يَعْفُو أُثُورَهَا مِنَ الْوَشْيِ مَرْقُومُ الْمِطَافَيْنِ ذَابِلُ[3]

= الشمائل : جمع شِمال وهو الطبع ؛ والمعنى: هي فتاة وضّاءة الوجه ، فيها من أضواء البدر علامات مميزة ، وفيها من الغصن — في نضرته ولدونته واهتزازه — طبائع ، ونظيره قول بشار :

إذا قامت لحاجتها تثنّت كأن عظامها من خيزران

(١) الوشاح : وسام تشدّه المرأة بين عاتقيها وكشحيها محلى بالجواهر ، شرق : غصّ ؛ برديّتين : مثنى بَرْدِيَّة : منسوبة إلى البَرْدِي وهو نبات مائي يؤخذ لبابه فيصنع ورقاً ؛ والمعنى : لهذه الفتاة قوام لين ممشوق كالخيزران يجول فوقه وشاحاها أما الخلخالان فيغصان بساقيها الملتفّين البيضاوين كأنهما من الورق الأبيض المصقول.

(٢) ريم : فزع ؛ الخاذل : الظبية المتخلفة عن صواحبها ، أو المنهزمة ؛ والمعنى : ما زلتُ أذكر الليلة التي وافتنا فيها على الكثيب إنجازاً لموعدنا معها فأقبلت مرتاعة خائفة كارتياع الفتاة المترفة الناعمة التي اعتادت أن تنام بالعشيات ، أو كارتياع الظبية التي تخلفت وحدها عن بقية الظبيات : وفى ت « وسنان المشية » .

(٣) تهادَى : تتهادَى أى تمايل ؛ الأيْم : الحيّة ، يعفو : يمحو ؛ الأثور والآثار : جمع الأثر وهو بقية الشيء ، وفى الأصـــول (أثارها) وهو جمع لم يرد فى كتب اللغة ، ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ الوشي : ثياب منقوشة ؛ مرقوم : مخطط العطاف والمعطف : الإزار لأنه ملابس العِطفين أى الجانبين ؛ ذابل : متبختر من تذبّلت ، أى تبخترت فى مشيتها ، ولعلها (مرقوم المطافين دائل أو ذائل) والدائل : المتقلب الدائر ، والذائل : المسرع أو المنساب فى خفة واختيال من ذال أى أسرع ؛ والمعنى : أسرعت هذه الفتاة إلى موعدنا تنساب فى خفة ورشاقة كما تنساب الحية فوق الرمال ؛ ويمحو آثارها ثوب مزين منقوش الجوانب يتقلب ذيله على آثارها فى خفة واختيال .

قَمِيدَكِ!! أنى زُرْتِ؟ ضَوْؤُكِ سَاطِعٌ   وَطِيبُكِ نَفَّاحٌ، وَحَلْيُكِ هَادِلُ[1]

هَبِيكِ اغْتَرَرْتِ الحَيَّ: وَاشِيكِ هَاجِعٌ   وَفَرْعُكِ غِرْبِيبٌ، وَلَيْلُكِ لَائِلُ[2]

فَأَنَّى اعْتَسَفْتِ الهَوْلَ؟ خَصْرُكِ مُدْمَجٌ   وَرِدْفُكِ رَجْرَاجٌ، وَعِطْفُكِ مَائِلُ[3]

* * *

---

(١) قميدك !! وتميدك الله!! : سألت الله حفظك أو ناشدتك الله ، ومنه قول متمم :

قميدَكِ ألا تسمعيني ملامــــة   ولا تنكئى جرح الفؤاد فييجعــــا

هادل : مترنم من هدَل القمريُّ هديلا إذا غرد ؛ والمعنى : ناشدتك الله كيف استطعت زيارتى وحولك العيون والأرصاد ، ووجهك مشرق وضاء يجذب الأبصار ، وطيبك فواح يلفت الناشقين وحليك موسوس رنّان ينبه الأسماع ؟

(٢) اغتررت الحيَّ : خدعتهم وحضرْتِ إلينا على غرة منهم ؛ فرعك : شعرك الغزير ؛ غربيب : شديد السواد ، ليلٌ لائل وأليل : أشد ليالى الشهر ظلمة وطولا ؛ والمعنى : إذا كنتِ قد استطعت أن تخدعى قومك وكان الوشاة هاجعين وشعرك ساترٌ لك بسواده الحالك والليل شديد الظلمة (جواب الشرط فى البيت التالى)

(٣) انى : كيف ؟ اعتسف الطريق : اقتحمه بقوة من غير روية أو معرفة دروبه ومسالكه ؛ والمعنى : إذا تحاميْتِ العيون ، وتسترْتِ بشعرك والظلام ، وسريت إلينا ، فكيف استطعت اقتحام الأهوال مع أن خصرك ضامر ضعيف ، وردفك ثقيل مضطرب ، وجانبك مائل مترنح ؟ وقد نظر الشاعر فى بيتيه هذين إلى قول عبد الوهاب بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٢٠ هـ من قصيدة : —

هبيك سريتِ الليلَ ، فرعك أسحمٌ   وثغرك بسّام ، ولحظك أوطف

فأنى أطقتِ المشىَ ؟ قدّكِ مائدٌ   وردفك رجراجٌ ، وخصرك أهيف

وتذكر ابن زيدون هذين البيتين بتغيير طفيف فى قصيدته الفائية فى مدح المتضد :

خَلِيـلَيَّ !! مَالِي كُلَّمَا رُمْتُ سَلْوَةً   تَعَرَّضَ شَوْقٌ دُونَ ذَٰلِكَ حَائِلُ[1]
أَرَاحُ إِذَا رَاحَ النَّسِيمُ شَآمِيًا   كَأَنَّ شَمُولاً مَا تُدِيرُ الشَّمَائِلُ[2]
ضَلاَلاً تَمَادَى الْحُبُّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا
وَلَجَّ الْهَوَى فِي حَيْثُ تُخْشَى الْغَوَائِلُ[3]
كَأَنْ لَيْسَ فِي نُعْمَى الْهُمَامِ «مُحَمَّدٍ»   مُسَلٍّ ، وَفِي مَثْنَى أَيَادِيهِ شَاغِلُ[4]

---

(١) المعنى : ياصاحبيّ مابالى كلما حاولتُ السلوان وقفَ الشوقُ حائلاً بينى وبين النّسيان ؟

(٢) راح وأراح البعيرُ : وجد ريحه ، ومنه الحديث الشريف « من قتل نفساً معاهدة لم يرح رائحة الجنة » وأراح : ارتاح؛ الشمول: الخمر الباردة ، الشمائل: جمع شمال وهى الريح التى تهب من ناحية الشمال ؛ والمعنى: أجد هزة ارتياح وشوق إذا هب النّسيم من جهة الأحباب ، كأنّ نسائم الشمال تدير علىّ أطيب وأعذب الراح .

(٣) لجّ : ألحّ ؛ الغوائل : المصائب ؛ والمعنى : لقد تمادى الحب ضلالاً فى عشيرة قوم عدوّ لى ، وقذف بى الهوى إلى حيث المخاطر والهلاك ؛ وقد كرّر الشاعر هذا البيت بتغيير طفيف فى قصيدته القافية فى مدح المعتضد فقال : —

لجاج تمادى الحب فى معشر العِدَا   وأمّ الهوى الأفق الذى فيه نشنف

(٤) مَثْنَى الأيادى : إعادة المعروف مرتين ؛ ومنه قول الشاعر من قصيدة أخرى فى رثاء أبى الحزم بن جهور وتهنئة ابنه أبى الوليد بالحكم : —

لك الخير!! إنى واثق بك شاكر   لمثنى أياديك التى كفرها الكفر

والمعنى: كيف أخضع لعاطفة حب تقودنى إلى الهلاك بين الأعداء ؟ على حين تغمرنى نعم الأمير وفيها تسلية لى عن كل عاطفة ؛ وتشملنى أياديه المتوالية وفيها شغل لى عن كل اللذات .

أغرُّ ، إذا شِمْنَا سَحابَ جُودِهِ   تهلَّلَ وَجْهٌ ، وَاسْتهلَّتْ أنامِلُ[1]
يُبشِّرُنَا بالنَّائِلِ الغَمْرِ « خَالُهُ »   وقَبلَ الحَيا ما تَستطيرُ المَخايِلُ[2]
لدَيْهِ رياضٌ للسَّجايا أنيقةٌ   تَغَلْغَلُ فيها للعطايا جَداوِلُ[3]
أتِيُّ ، فَما تِلكَ السَّماحةُ نُهزَةٌ   وَفِيٌّ ، فَما تِلكَ الحِبالُ حَبائِلُ[4]
زَعيمُ الدَّهاءِ أن تُصيبَ مِنَ العِدا   مَكايدُهُ ما لا تُصيبُ الجحافِلُ[5]

---

(١) شام البرقَ : تتبعه لينظر أين يمطر ، استهلّ المطر وهلّ وانهلّ : اشتد انصبابه ؛ والمعنى : الأمير أبيض الوجه ، إذا راقبْنا سحائب جوده تهلّل وجهه وفاضت أناملُه بالخير العميم .

(٢) ورد البيت ناقصا وقد اخترنا كلمة (خاله) لمناسبتها للمقام ؛ النائل الغمر: العطاء الجزيل ؛ الخال : ما يتوقعه الإنسان من خير ، وأخالَ فيه خالاً من الخير: وجد فيه بشيراً بالخير ، والخال أيضا البرق أو سحاب لايخلف المطر ؛ الحيا : المطر ؛ تستطير : تنتشر ؛ المخايل : جمع مخيلة وهي السحابة المبشرة بالمطر ؛ والمعنى: تهلّل وجهه يبشرنا بجوده الوافر ؛ كما نتوقع المطر من السحاب المجتمع فيصدقنا وعده بالمطر الغزير .

(٣) السجايا : الطبائع ؛ والمعنى : شمائله طيبة وأخلاقه ندية مونقة كالرياحين اليانعة تنساب منها جداول الهبات فتُرْوى الظامئين .

(٤) الأتِيّ : الجدول أوالسيل الغريب ؛ نهزة: فرصة ؛ الحبال : جمع حبل وهو الرباط أو العهد والذمة أو الأمانة أو الوصال ؛ الحبائل : جمع حبالة وهي الشرك الذى ينصب للصيد ؛ والمعنى : الأمير كريم بطبعه كالسيل المتدفق ، فليس كرمه فلتة عارضة أوصدفة طارئة ، وهو مع هذا وفى لأوليائه فروابطه الوثيقة بهم ناشئة عن الحب والوفاء لاعن الكيد والاحتيال .

(٥) المعنى : الأمير سديد الرأى صائب التدبير ينال بحسن رأيه وحيلته من العدو مالاتستطيع أن تناله الجيوش الزاحفة بالمدد والعديد .

فَمَا سَيْفُ ذَاكَ الْعَزْمِ فِيهِمْ بِمِعْضَدٍ وَلاَ سَهْمُ ذَاكَ الرَّأْيِ أَفْوَقُ نَاصِلُ(١)

* * *

بَنِي « جَهْوَرٍ » عِشْتُمْ بِأَوْفَرِ غِبْطَةٍ
فَلَوْلاَكُمُ مَا كَانَ فِى الْعَيْشِ طَائِلُ(٢)

تَفَاضَلَ فِى السَّرْوِ الْمُلُوكُ ، فَخِلْتُهُمْ أَنَابِيبَ رُمْحٍ أَنْتُمُ فِيهِ عَامِلُ(٣)

لَئِنْ قَلَّ فِى أَهْلِ الزَّمَانِ عَدِيدُكُمْ فَإِنَّ دَرَارِيَّ النُّجُومِ قَلاَئِلُ(٤)

فِدَاؤُكُمُ مَنْ إِنْ تَعِدْهُ ظُنُونُهُ لَحَاقَكُمُ فِى الْمَجْدِ فَالدَّهْرُ مَاطِلُ(٥)

مَنَاكِيدُ !! فِعْلُ الْخَيْرِ مِنْهُمْ تَكَلُّفٌ إِذِ الشَّرُّ طَبْعٌ مَا لَهُمْ عَنْهُ نَاقِلُ(٦)

---

(١) المعضد : سيف يمتهن فى قطع الشجر ؛ سهم أفوق : سهم مكسور فُوقه (والفوق موضع الوتر من رأس السهم) ؛ ناصل : فاقد لنصله ؛ وفى الأصول « ناضل » والناضل هو الهزيل ، ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ والمعنى : إذا عزم الأمير فعزيمته مرهفة ماضية كالسيف البتار لا كالمعضد ؛ وإذا دبر أمراً فإن تدبيره نافذ محكم كالسهم النافذ لا كالسهم المكسور . وفى نسخة ت « أفوف نابل » :

(٢) الطائل : المزية أو الغناء ، يقال لا طائل فيه أى لا فائدة منه ؛ والمعنى : يابنى جهور أسأل الله أن تعيشوا فى أتم سعادة وأوفر نعيم فلولاكم ما كان فى العيش غناء .

(٣) السَّرْو : السخاء والمروءة ؛ عامل الرمح : صدره ؛ والمعنى : تفاضل الملوك فى الشرف والسخاء ، فكانوا مثل أنابيب الرمح وكنتم أنتم الصدر فيه .

(٤) الدرارئ : جمع دُرّىّ وهو النجم الوضاء ؛ والمعنى : إذا كان عددكم قليلا فإن آثاركم كثيرة ، ولا عجب !! فإن النجوم الوضاءة قليلة العدد بالغة الأثر .

(٥) المعنى : يفديكم كلُّ منافس لكم يتخيل أنه سيلحقكم فى المجد والشرف فيكذب الدهرُ ظنونه .

(٦) مناكيد : جمع نكد أى عسر مشئوم ، ونَكِدَ عيشُه : اشتدّ ، ونَكِد

فَإِنْ سُتِرَتْ أَخْلَاقُهُمْ بِتَخَلُّقٍ ... فَكُلُّ خَضِيبٍ لَا مَحَالَةَ نَاصِلُ[1]

لَكَ الْخَيْرُ ! ! إِنِّي قَائِلٌ غَيْرُ مُقْصِرٍ ... فَمَنْ لِي بِاسْتِيفَاءِ مَا أَنْتَ فَاعِلُ ؟[2]

لَعَمْرُ سَرَاةِ الثَّغْرِ وَافَاكَ وَفْدُهُمْ ... لَمَا ذَمَّ مِنْهُمْ ذَلِكَ النَّزْلَ نَازِلُ[3]

لَأَعْذَرْتَ لَمَّا لَمْ يُمِلَّكَ مُكْثُهُمْ ... إِذَا عَذَرَ الْمُسْتَثْقَلَ الْمُتَثَاقِلُ[4]

=الرجل : كَثُرَ سُؤَّالُه وقلَّ نائله ؛ والمعنى : إن منافسيك مشئومون إذا فعلوا خيراً فعلوه عن تكلف وجهد ومشقة ؛ فالشر طبيعة متأصلة فيهم لا يستطيعون تركه أو الانتقال عنه .

(١) المعنى : إذا ستروا أخلاقهم الشريرة بستار متكلف من الأخلاق الحميدة فلابدَّ أن تتكشف طبيعتهم الأصيلة للأنظار ، كما أن كل خضاب للشيب لابد أن يزول .

(٢) أقصر عنه : كف ونزع مع القدرة عليه ؛ والمعنى : سأسوغ فيك آيات المدح والثناء وإن أكف عن الإطراء ؛ ولكن هل أستطيع أن أفيك حقك من الثناء وأن أحيط بجميع فعالك الغراء ؟

(٣) السراة : جمع سريّ وهو الشريف أو الرئيس أو السخيّ ذو المروءة ؛ النزْل والنُّزُل : المنزل أو ما هُيِّئَ للضيف أن ينزل عليه أو ريع مازروع أو زكاؤه ، ونماؤه ؛ والمعنى : وحق أشراف الثغر لقد نزلوا عليك فأحمدوا منازلهم (الثغر هو البلد القائم على الحدود ويخاف هجوم الأعداء منه) .

(٤) أعذرتَ : ثبت لك عذرٌ أو أحدثت عذراً ؛ أمله : أسأمه وأضجره ؛ المستثقل : المتضجر المسئوم ؛ المتثاقل : الثقيل المستثيم ؛ المعنى : إذا طال مكث هذه الوفود حتى أثقلوا وأملُّوا فلك عذرك في الضجر منهم ، وهم أنفسهم يعذرونك في ضيقك بهم ؛ ولكنك مع هذا لم تظهر ضيقا أو تبرماً بطول مكثهم بل بالغت في الحفاوة بهم .

نَضَدْتَ رَيَاحِينَ الطَّلَاقَةِ غَضَّةً ... وَرَقْرَقْتَ مَاءَ الْبِرِّ وَهُوَ سُلَاسِلُ(١)

فَمَا مِنْهُمُ إِلَّا شَدِيدٌ نِزَاعُهُ ... إِلَيْكَ، مُقِيمُ الْقَلْبِ وَالْجِسْمُ رَاحِلُ(٢)

ضَمَانٌ عَلَيْهِمْ أَنْ سَيُؤْثَرَ عَنْهُمُ ... عَلَيْكَ ثَنَاءٌ فِي الْمَحَافِلِ حَافِلُ(٣)

مَسَاعٍ هِيَ الْعِقْدُ انْتِظَامًا مَحَاسِنٌ ... تَحَلَّى بِهَا جِيدٌ مِنَ الدَّهْرِ عَاطِلُ(٤)

تُنِيرُ بِهَا الآمَالُ، وَاللَّيْـــلُ وَاكِدٌ

وَتَخْصِبُ مِنْهَا الأَرْضُ، وَالأُفْقُ مَاحِلُ(٥)

* * *

---

(١) نضد: وضع بعض الشيء على بعض في نسق وانتظام ؛ الرياحين : جمع ريحان وهو كل نبات طيب الريح أو نبات خاص لأوراقه رائحة طيبة أو-الرحمة والرزق؛ غضة : طرية ناعمة ؛ رقرق الماء : صبه؛ السّلاسل : الماء العذب البارد؛ والمعنى : لم تسأم لطول مكث هـــذا الوفد، بل تهلّلت لقاءهم وغمرتهم بالبشر والإيناس المتجددين، وأوصلت اليهم برّك العميم في رفق وأناة .

(٢) النزاع :الشوق ، نزع إلى أهله : اشتاق إليهم ؛ والمعنى:هذا الوفد تعلّق بك وهفا اليك في شوق ووله ، فإذا رحل عـنك أقام قلبه لديك .

(٣) المـعنى : لقد تكفّـل هذا الوفد بإذاعة محامدك والتنويه بمكارمك في كل محفل يضمهم أو مكان يجمعهم .

(٤) جيد : عنق ؛ والمعنى: مآثرك أيها الأمير أصبحت حلية يتحلّى بها جيد الزمان بعد أن كان عاطلا .

(٥) في الأصول « والليل والـدّ » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ واكد : قائم ؛ ماحل : مقفر جديب ؛ والمعنى : مناقبك الحميدة تغذي لنا الآمال ، والليل مخيم على البسيطة حالك الظلام ؛ وتخصب لنا الأرض ، والجو خال من السحاب .

هَنِيئًا لَكَ الْعِيدُ الَّذِى بِكَ أَصْبَحَتْ
تَرُوقُ الضُّحَا مِنْهُ، وَتَنْدَى الْأَصَائِلُ(١)

تَلَقَّاكَ بِالْبُشْرَى، وَحَيَّاكَ بِالْمُنَى فَبُشْرَاكَ أَلْفٌ بَعْدَ عَامِكَ قَابِلُ(٢)

أَنْ يَنْصَرِمْ شَهْرُ الصِّيَامِ لِبُعْدِهِ
شَأَى صَالِحَ الْأَعْمَالِ مَا أَنْتَ عَامِلُ(٣)

وَرَأَيْتَ أَدَاءَ الْفَرْضِ ضَرْبَةَ لَازِمٍ فَلَمْ تَرْضَ حَتَّى شَيَّعَتْهُ النَّوَافِلُ(٤)

سَدِكْتَ بِبَيْتِ اللهِ حُبَّ جِوَارِهِ ، لَكَ اللهُ بِالْأَجْرِ الْمُضَاعَفِ كَافِلُ(٥)

(١) المعنى : مهنئك بالعيد الذى أشرقت فيه فراق لنا ضحاه وطاب الأصيل .

(٢) المعنى : استقبلك العيد مبشراً لك بالنعيم، وحيّاك مهنئا بالرجاء ، وندعو الله لك أن تستقبل ألف عيد وافدة مثله بالسعادة والنعيم .

(٣) فى نسخة ا « شأى صالح الأعمال » وفى ز « لبعدما شأى » وفى ب ، ت « نثا صالح » ؛ شأى : سبق ؛ نثا الحديث : حدّث به وأشاعه ، والنثا : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أوسىء ؛ والمعنى : إذا انصرم شهر الصيام فقد أديت فيه أعمالا صالحات فاقت كل ماقام به غيرك من أعمال .

(٤) ضربةُ لازمٍ أولا ربٍ : أمرٌ واجبٌ مفروض ، شيّعته : أتبعته ، وشيعت رمضان بست من شوال : أتبعته بها ؛ النوافل : جمع نافلة وهى ما يتطوع به الإنسان من عبادات الفريضة مثل السنن ؛ والمعنى : رأيت أداء الفرائض أمرا واجبا محتوما فلم تقنع به حتى أتبعته بكثير من النوافل مبالغة منك فى العبادة والصلاح .

(٥) سدِك بالمكان : لزمه ؛ كافل: ضامن ؛ والمعنى: لزمت بيت الله حبا لجواره وسيثيبك بالأجر المضاعف الجزيل ؛ وفى نسخة ت « سلكت ببيت الله » وفى ز « سكنت » وهذه الكلمة ناقصة فى نسخة ت .

هَجَرْتَ لَهُ الدَّارَ الَّتِي أَنْتَ آلِفٌ ... لِيَعْتَادَهُ مَحْضُ الْهَوَى مِنْكَ وَاصِلُ[1]

فَإِنْ تَتَنَاقَلْكَ الدِّيَارُ فَطَالَمَا ... تَنَاقَلَتِ الْبَدْرَ الْمُنِيرَ الْمَنَازِلُ[2]

أَلَا كُلُّ رَجْوٍ - فِي سِوَاكَ - عُلَالَةٌ

وَكُلُّ مَدِيحٍ - لَمْ يَكُنْ فِيكَ - بَاطِلُ[3]

فَمَا لِعِمَادِ الدِّينِ - حَاشَاكَ - رَافِعٌ ... وَلَا لِلِوَاءِ الْمُلْكِ - غَيْرُكَ - حَامِلُ[4]

* * *

---

(١) المعنى: اعتكفت بالمسجد وهجرت منزلك الذى ألفته وتيسّرتْ لك فيه سبل الراحة، لأنك متعلق بالله مخلص له الحب والولاء. المعروف أن الاعتكاف بالمساجد فى العشر الأواخر من رمضان سنة مأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم؛ وعند المالكية — مذهب أهل الأندلس — أنه مستحب فى رمضان وغيره، ويتأكد فى رمضان مطلقا، وفى العشر الأواخر منه آكد.

(٢) المعنى: إذا انتقلت من مكان إلى مكان آخر فإنك مثل البدر الذى ينتقل من منزل إلى منزل، ومنازل القمر معروفة عند الفلكيين.

(٣) فى الأصول «كل رَجْوَى» ولم نجد كلمة رجوى فى كتب اللغة؛ الرجو والرجاة: الرجاء؛ علالة: ما يتعلل الإنسان ويتشاغل به للتسلية عن أمر دائم؛ قال الطغرائى:

أعلل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيشَ لولا فُسحة الأمل

والمعنى: كل رجاء فى غيرك إنما هو علالة لاتغنى ولاتفيد، وكل مديح فى غيرك باطل، فما يصدق المدح إلا فيك.

(٤) المعنى: ليس لعماد الدين رافع سواك، وليس لعَلَم الملك حامل غيرك، فبيك وحدك يستقر الدين ويرتفع شأن السلطان.

لَأَمْنَنِي الخَطْبُ الَّذِي أَنَا خَائِفٌ ... وَبَلَّغَنِي الحَظَّ الَّذِي أَنَا آمِلُ(١)

[وَأَسْدَيْتَ عُرْفاً مِنْكَ] أَلْهَمَ هِمَّتِي ... فَهَا أَنَا لَا غُفْلٌ، وَلَا أَنْتَ غَافِلُ(٢)

أَرَى خَاطِرِي كَالصَّارِمِ العَضْبِ، لَمْ يَزَلْ

لَهُ شَاحِذٌ مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ صَاقِلُ(٣)

وَمَا الشِّـعْرُ مِمَّا أَدَّعِيهِ فَضِيلَةً

تَزِينُ، وَلَكِنْ أَنْطَقَتْنِي الفَوَاضِلُ(٤)

بَقِيتَ كَمَا تَبْقَى مَعَالِيكَ! إِنَّمَا ... خَوَالِدُ، حِينَ العَيْشُ كَالظِّلِّ زَائِلُ(٥)

---

(١) المعنى: لقد أمنتني من النكبة التي كنت أخشاها، وبلغتني الآمال التي كنت أرجوها وأرتقبها.

(٢) ورد أول البيت ناقصا في الأصول، وقد أكملناه بما يناسب المقام؛ أسديت: أهديت وقدمت؛ العُرف: الجميل والمعروف؛ الغُفْل: مالا علامة فيه تميزه من القِدَاح أو الطريق، أو مالا عمارة فيه من الأرض، أو من لا يُرْجى خيرُه ولا يُخْشى شرُّه؛ والمعنى: قدمت إلىّ جميلا أثار همتي وأيقظ مشاعرى فأصبحت عَـلَما يشار إليه؛ فلستُ أنا مهمَلا منبوذا، ولستَ أنت غافلا عن التنويه بى ورفع مكانى.

(٣) الصارم العضب: السيف القاطع؛ شاحذ: سان مرهف؛ صاقل للسيف: مزيل للصدأ عنه مزين له؛ والمعنى: إن ذكائى كالسيف القاطع لم تزل تجلوه وتصقله بحسن رأيك وجميل صنعك حتى أصبح قوىّ الأثر حادّ المضاء.

(٤) الفواضل: الأيادى الجسيمة والمنن العظيمة، وفواضل المال: ما يأتيك من غلته ومرافقه؛ والمعنى: لا أدعى أن الشعر فضيلة طبيعية فىّ، ولكن هباتك السامية ومننك العظيمة هى التى أوحت إلىّ بهذا الشعر الرائع.

(٥) المعنى: أدعو الله أن يمد فى عمرك وأن يطيل حياتك فتخلد حياتك كما

فَمَا نَسْـــتَزِيدُ اللهَ بَعْدُ نِهَايَةً
لِنَفْسِكَ غَيْرَ الْخُلْـــدِ ، إِذْ أَنْتَ كَامِلُ[1]

العيش المونق

مَا طُولُ عَذْلِكَ لِلْمُحِبِّ بِنَافِعٍ
وَهَبَ الْفُؤَادَ فَلَيْسَ فِيـــهِ بِرَاجِعِ[2]

فَنَّدْتَ حِينَ طَمِعْتَ فِي سُلْوَانِهِ هَيْهَاتَ ! الاَ ظَفَرٌ هُنَاكَ لِطَامِعِ[3]

فَدَعِيهِ حَيْثُ يَطُولُ مَيْدَانُ الصِّبَا كَيْمَا يَجُرُّ بِهِ عِنَانَ الْخَالِعِ[4]

= خلدت آثارك وتبقى أيامك كما بقيت مماليك، فإنها خالدة على حين أن العيش زائل كما تزول الظلال .

(١) المعنى : لقد كملت فى كل شىء فلا ندعو الله لك بزيادة فى أمر من الأمور ، لأنه لازيادة لما رزقت ؛ وإنما ندعوه لك بالخلود .

(٢) المعنى : ليست مبالغتك فى لوم المحب بنافعة، فقد منح فؤاده لحبيبته وهو غير راجع فيما وهب .

(٣) التفنيد : اللوم وتضعيف الرأى أو التكذيب والتخطىء ؛ والمعنى : حين حاولت أن تثريه بالسلوان كنت على خطأ عظيم، فليست هناك فائدة من هذه المحاولة المستحيلة .

(٤) العنان : اللجام ؛ الخالع : الفرس الذى خلع لجامه وانطلق عاديا ؛ والمعنى : دعيه ينطلق فى عواطفه كما شاء له الهيام واتسع له المجال حرا طليقا من اللائمين والعذال .

مَاذَا يَرِيبُكَ مِنْ فَتًى عَزَّ الهَوَى فَعَنَا لِنَخْوَتِهِ بِذِلَّةِ خَاضِعِ ؟[١]
هَلْ غَيْرَ أَنْ مَحَضَ الوَفَاءَ لِنَادِرٍ ؟
أَوْ غَيْرَ أَنْ صَدَقَ الوِصَالَ لِقَاطِعِ ؟[٢]
لَمْ يَهْوَ مَنْ لَمْ يُمْسِ قُرَّةَ عَيْنِهِ سَهَرُ الصَّبَابَةِ فِي خَلِيٍّ هَاجِعِ[٣]

* * *

وَاهاً لِأَيَّامٍ خَلَتْ !! مَا عَهْدُهَا ـفِي حِينِ ضَيَّعْتِ العُهُودَ ـ بِضَائِعِ[٤]
زَمَنٌ كَمَا رَاقَ السَّقِيطُ مِنَ النَّدَى يَشْتَنُّ فِي صَفَحَاتِ وَرْدٍ يَانِعِ[٥]

(١) الريب : الظن والشك أو الاتهام ، وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : «مكسبة فيها بعض الريبة خير من مسألة الناس» ورابنى الشيء : استيقنت الريبة ، وأرابنى ظننت فيه الريبة ولم أتيقن منها ؛ عز : غلب واشتد ؛ عنا : خضع ؛ النخوة : العظمة والكبرياء ؛ والمعنى : ما الذي يحملك على اتهام فتى تابل عز الهوى بالخضوع لسلطانه الطلق ، وفى هـذا المعنى يقول الخليفة سليمان بن الحكم المستمين بالله :

لاتعـذلوا ملكا تذلّل للهوى ذلّ الهـوى عزّ وملك ثانى
ماضر أنى عبـدهن صبابة وبنـو الزمان وهن من عبـدانى

(٢) محض : أخلص ؛ والمعنى : ماذا فعل غير أنه منح ودّه الخالص ووفاءه المحض لحبيب غدّار ، وصدق فى وصاله لحبيب هاجر ؟

(٣) المعنى : لم يذق طعم الحب من لم يستعذب فيه السهر والآلام شغفا بحبيب ناء خلىّ البال من لواعج الأشواق والأشجان .

(٤) واها : كلمة تعجب من حسن أوشجن ؛ والمعنى : ما أعجب أيام الوصال التى سعدنا بها فى غفلات الزمان !! وإذا كنت قد تنكرت لهذه الأيام فإنى لها حافظ وعليها أمين .

(٥) راق : مرّ وأعجب ، السقيط : المتساقط من الندى ؛ استنّ السراب : =

أيّامَ إنْ عتبَ الحبيبُ لِهفوةٍ
شفعَ الشّبابُ فكانَ أكرمَ شافعِ (١)

مالِى وَلِلدُّنيا ؟ غُرِرْتُ مِنَ المُنَى ... فِيها بِبارِقَةِ السّرابِ الخادعِ (٢)

مَا إنْ أزالُ أرومُ شُهْدَةَ عاسِلٍ ... أحْمِى مُجاجَتَها بِإبْرَةِ لاَسِعِ (٣)

* * *

مَنْ مُبلِغٌ عَنّى البِلادَ ـ إذا نَبَتْ ـ ... أنْ لَسْتُ لِلنّفسِ الأَلُوفِ بِباخِعِ ؟ (٤)

أمّا الهَوانُ فَصُنْتُ عَنْهُ صَفْحَةً ... أغْشَى بِها حَدَّ الزّمانِ الشّارِعِ (٥)

= اضطرب ؛ والمعنى : قضينازمننا ناعماسعيدا طاب كما يطيب الندى التساقط الترقرق فوق أوراق الورد المتفتح النّضير .

(١) المعنى : طوينا هذه الأيام فى نشوة ناعمة ، فإذا حدث أن عتب الحبيبُ علينا لهفوة لم يطل عتبهُ ، لأن شبابنا الغض يغفر لنا كُلّ الهفوات ويشفع لنا فى كل الذنوب .

(٢) المعنى : مالى وللزمان غشنى بأكاذيبه ولوّح لى بالأمانى الخداعة كلمع السراب ؟ فانخدعت بآماله حتى سفرَتْ الحقائقُ لى عن وجهها الرهيب .

(٣) الشهدة : العسل فى شمعه ؛ عاسل : جامع العسل ؛ المجاج والمجاجة : الريق الذى تمجّه من فيك ، يقال : المطر مجاج المزن ، والعسل مجاج النحل ؛ والمعنى : مازلتُ أحاول أن أحظى بالعسل فلا أنال غير اللسع بالإبر .

(٤) نبا : تجافى وتباعد ؛ بخع نفسه : قتلها غما ، ومنه قوله تعالى « فلعلك باخعٌ نفسَكَ على آثارهم » ؛ والمعنى : فليعلم عنى أهل الوطن إذا تنكروا لى أننى لن أقتل نفسى حزناً عليهم ، فإنّ لى من عزة نفسى وإبائى حصناً منيعاً .

(٥) غَشِىَ فلانا بالسوط ؛ ضربه به ، وغَشِىَ فلانا : أتاه ، ومثلها غشاه =

فَلْيُرْغِمِ الحَظُّ المُوَلِّ أَنْفُهُ وَلِّى فَلَمْ أُتْبِعْهُ خُطْوَةَ تَابِعِ (١)
إِنَّ الْغِنَى لَهُوَ الْقَنَاعَةُ ، لاَ الّذِى يَشْتَفُّ نُطْفَةَ مَاءِ وَجْهِ الْقَانِعِ (٢)

* * *

اللهُ جَارُ « الجَهْوَرِيِّ » !! فَطَالَمَا مُنِيَتْ صَفَاةُ الدَّهْرِ مِنْهُ بِقَارِعِ (٣)
مَلِكٌ دَرَى أَنَّ المَسَاعِيَ سُمْعَةٌ فَسَعَى ، فَطَابَ حَدِيثُهُ لِلسَّامِعِ (٤)

—

=يشوه، الشارع : الشاهر سيفه أورمحه؛ والمعنى: لقد صُنْتُ صفحة وجهي عن الذل والهوان ، وآثرتُ أن ألقى بها سلاح الزمن البتار على أن أرغمها فى التراب .

(١) المعنى : إذا كان الحظ الحسن قد انصرف عنى فإننى لم أقتف خطواته فى ضراعة وذل ، بل صنت كرامتى وتركته رغماً عنه وأنا ملىء بالعزة والإباء .

(٢) يشتف ويتشاف ما فى الإناء : يشرب كل ما فيه ؛ النطفة والنطافة : الماء الصافى جمعه نطاف ونُطف ؛ القانع : السائل الذليل ، أو الراضى بالنصيب ؛ والأول نقيصة والثانى فضيلة ، وورد فى الدعاء لا نسأل الله القناعة ونعوذ به من القنوع » قال تعالى « وأطعموا القانع والمعتر » فالقانع هو السائل والمعتر هو الذى يطيف ولا يسأل ؛ والمعنى : إن الغنى فى القناعة بالقليل ، وليس فى جمع الكثير عن طريق إراقة ماء الوجه ، ومثله قول الشاعر :

غنى ـ بلا مال ـ عن الناس كلهم وليس الغنى إلا عن الشيء ، لا به

(٣) جار : مُجير ؛ مُنيت : ابتُليت ؛ الصفاة : الصخرة الملساء ، قارع : ضارب ؛ والمعنى : نصر الله ابن جهور !! فكم صدم الدهر بقوته ورد صرفه عن رعيته ببأسه القوى المتين .

(٤) الساعى : جمع مسعاة وهى المكرمة والسمو فى المجد ؛ السُّمعة والسُّمْعَة إطراء صفة والتنويه بها فى الندوات ؛ والمعنى : عرف الأمير أن المكارم محمدة على الأفواه والأسماع ، فبذل المكرمات ، فطاب ذكره على الألسنة وفى الآذان .

شِيَمٌ هِيَ الزَّهْرُ الْجَنِيُّ، تَبَسَّمَتْ عَنْهُ الْكَمَائِمُ فِي الضُّحَاءِ الْمَاتِعِ (١)
أَجْرَى مُنَافِسَهُ لِيُدْرِكَ شَأْوَهُ فَشَآهُ بِالْبَاعِ الطَّوِيلِ الْوَاسِعِ (٢)
شِيَمٌ السَّكِينَةِ فِي النَّدِيِّ، كَأَنَّمَا تِلْكَ الْحُبَا لِيذَتْ بِهَضْبٍ مُتَالِعِ (٣)

---

(١) شيم : طبائع ؛ الجنيّ : اليانع ؛ الكِمُّ والكِمامة : وعاء الطلع أو غطاء نَوْر الزَّهر ، وجمعه أكمام وكِمام وأكِمّة ، أما الكمائم فجمع كامة وهى كيس يوضع على منخر الفصيل لئلا يؤذيه الذباب ، ولم تُستعمل فى غلاف الزهر كاستعمالها الشاعر ، قال الفرزدق :

يُعلّق لـمّــا أعجبتْه أتانه بأرآدِ لَحْيَيْها جيــادَ الكمائم

الضُّحاء : ارتفاع الشمس تُبَيْل الظهر ؛ متع النهارُ : ارتفع قبل الزوال ، ومتع الضُّحى : بلغ آخر غايته ؛ والمعنى ؛ أخلاق الأمير كالزهر اليانع الذى تفتحت عنه أكمامه تحت أشعة الشمس قبل الزوال ، فذاع عبيره الفوّاح .

(٢) أجراه وجاراه : سابقه ؛ الشأو : الغاية والأمد ؛ شآه : سبقه ، والمعنى : بارى الأميرُ منافسيه فبذّهم ، وحاولوا إدراك غايته فعجزوا ، لأنّ له باعا طويلا وذرعا واسعا فى المكرمات لا يطاوله فيهما مطاول .

(٣) النديّ : مجلس يجتمع فيه القوم للحديث ؛ الحُبا : جمع حبوة وهى جامعة خاصة يضم الجالسُ فيها فخذيه إلى بطنه ويشتملها بيديه أو بثوب يلفه حوله ، وهى جامعة يكونون بها عن الوثار ، لِيثَتْ : أُقِّتْ وطُوِيَتْ ، ومنها يلوث عمامته أى يلفُّها ، قال ابن خفاجة فى وصف جبل :

يلوث عليه الغيمُ سود عمائم لها من وميض البرق حُمْر ذوائب

الهَضْب : الجبل المنبسط ، مَتالع : مسائل الماء فوق الجبال إلى الوديان ، ومُتالع : ماء فى شرق الظهران عند الفوّارة ، وهَضْبٌ مُتالع : موضع انحدار=

عَذْبُ الجَنَى لِلأَوْلِيَاء ، فَإِنْ يَهِجْ فَالسُّمُّ يَأْبَى أَنْ يَسُوغَ لِجَارِعِ [1]

* * *

يَأَيُّهَا المَلِكُ الَّذِى حَاطَ الهُدَى لَوْلَاكَ كَانَ حِمًى قَلِيلَ المَانِعِ [2]

أَنِسَ الأَنَامُ إِلَيْكَ فِيـــهِ ، فَهُمْ بِهِ
مِنْ قَائِمٍ أَوْ سَاجِدٍ أَوْ رَاكِعِ [3]

مُتَبَوِّئُونَ جَنَابَ عَيْشٍ مُونِقٍ مُتَفَيِّئُونَ ظِلَالَ أَمْنٍ شَائِعِ [4]

= الماء فى سفح هذا الجبل، قال كثير عزة :

بكى سائبٌ لـما رأى رملَ عالج أتى دونه ، والهضبُ هضبُ متـالع

المعنى : الأمير وقور جليل ، إذا احتبى فى مجلسه فانه لايستفزه أمر – وإن عظم – كأن حبوته لفّت حول هضب متالع ، ومن ذا يحرك الجبال ؟ .

(١) الجنَى : الثمر ، يسوغ : يسهل دخوله فى الحلق ؛ والمعنى : الأمير وفى لأصدقائه يمنحهم أعذب الهبات ، فاذا ثار كان سما ناقعا ينغص به الشاربون .

(٢) حاطه : كلأه ورعاه؛ الحِمَى : المكان المحظور قربُه ، وفى الحديث «لاحمى إلا لله ولرسوله » ؛ والمعنى : يأيهـا الملك الذى حرس الدينَ ورعى حوزته وحماه ولولاه لقل حماته وحافظوه ؛ وفى ب ، ز « يهيج لجارع » .

(٣) المعنى : اطمأنّ الأنام إلى رعايتك للدين فتابعوك فى رعايته وحفظه ، فهم مقبلون على أنواع العبادات من قيام وسجود وركوع .

(٤) متبوءون : نازلون ؛ الجناب : الفِناء ؛ مونق : عجيب رائع ؛ متفيئون مستظلون ؛ والمعنى : ارتاح الأنام فى ظلك فهم يتمتعون بأعذب عيش وينزلون فى أكرم مكان ويستظلون بالأمن والسكينة والاطمئنان .

فَاتَضْرِبَنْ مَعَهُمْ بِأَوْفَرِ شِرْكَةٍ فِى أَجْرِهِمْ مِنْ مُوتِرٍ أَوْ شَافِعِ[1]

خَـــيْرُ الشُّهُورِ اخْتَرْتَ ـ عِنْدَ طُلُوعِهِ ـ

خَـــيْرَ الْبِقَاعِ لَهُ بِأَسْعَدِ طَالِعِ[2]



(١) فى ب ، ت ، ز « من أجرم » ؛ المعنى : سوف تنال أيها الأمير ثواب عملك وسوف تشاركهم بنصيب كبير من أجورهم وثواب أعمالهم سواء كانت فردية أو زوجية.

(٢) المعنى : فى خير الشهور « لعله شهر رمضان » اخترت أطيب مكان « لعله الاعتكاف بالمسجد » فى أسعد الحالات.

٣ - لدى المظفر بن الأفطس

أمير بطليوس

فصل الخطاب

أرسل الشاعر رسالة مسهبة إلى المظفر بن الأفطس فى الشفاعة لصديق، وأتبعها بهذه القصيدة؛ ولعل الشاعر اتخذ من هذا الصديق ستارا لنفسه حينما عزله أبو الوليد بن جهور من السفارة له.

لِبِيضِ الطُّلَى وَلِسُودِ اللِّمَمْ ... بِعَقْلِيَ - مُذْ بِنَّ عَنِّى - لَمَمْ[1]

فَفِى نَاظِرِى - عَنْ رَشَادٍ - عَمًى ... وَفِى أُذُنِى - عَنْ مَلَامٍ - صَمَمْ[2]

قَضَتْ بِشِمَاسِى عَلَى الْعَاذِلِينَ ... شُمُوسٌ مُكَلَّلَةٌ بِالظُّلَمْ[3]

---

(١) الطُّلى: الأعناق واحدتها طُلْيَة أو طُلاة؛ اللِّمم واللِّمام: جمع لِمّة وهى الشَّعر الذى يجاوز شحمة الأذن، فإذا بلغ المنكبين فهو جُمّة؛ بِنّ: بَعُدْن؛ اللَّمم: نوع من الجنون أو مس من الجن كما كان بعض العرب يزعمون؛ والمعنى: إن الحسناوات الرائعات ذوات الأجياد البيضاء والغدائر السوداء افترقن عنى فاعترانى مس من الجنون لما قاسيته من لواعج الفراق.

(٢) المعنى: لا فائدة من توجيه اللوم إلىّ على حُبى العنيف، فقد أعمى الهوى ناظرى وأصمّ أذنى، فلا أرى ولا أسمع إلا الحبّ القاهر الغلاب، أخذه شاعرنا من قول ابن هانىء:

فنى ناظرى عن سواكم عمى ... وفى أذنى عن سواكم صمم

(٣) شَمَسَ الفرسُ شِماسا: منع ظهره، ورجل شموس: صعب الخلق؛

فَمَا سَقِمَتْ لَحَظَاتُ الْعُيُو نِ إِلَّا لِتُعْذِيبَنِى بِالسَّقَمْ(١)

يَلُومُ الْخَلِىُّ عَلَى أَنْ أَحِنْ وَقَدْ مَزَجَ الشَّوْقُ دَمْعِى بِدَمْ(٢)

وَمَا ذُو التَّذَكُّرِ مِمَّنْ يُلَامُ وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُذَمْ(٣)

* * *

وَإِنِّى أَرَاحُ إِذَا مَا الْجَنُو بُ رَاحَتْ بِرَيَّا جَنُوبِ الْعَلَمْ(٤)

وَأَصْبُو لِعِرْفَانِ عَرْفِ الصَّبَا وَأُهْدِى السَّلَامَ إِلَى «ذِى سَلَمْ»(٥)

مكلّلة : متوجة ؛ والمعنى : هؤلاء الغنيات الشرقات كالشموس السبيلات شعورهن كالدياجى سلبن لى وقلبى، فنفرت من لوم العاذلين وقابلت نصحهم بالإعراض .

(١) المعنى : إن فتور عيونهن وانكسارها هو الذى إبتلانى بالأسقام والأشجان ، وفى الذخيرة « وماسقمت » وفى ا ، ب « لتغرينى بالسقم » .

(٢) آثرنا رواية الذخيرة، وفى الأصول « أن أُجنّ » ؛ والمعنى : يلومنى الخلىُّ من الحب على لهفتى وحنينى، ولم يرثوا لما أقاسيه من أشجان أسالت دموعى ممزوجة بالدماء .

(٣) المعنى: ليس صاحب الذكريات بأهل للملام ، وليس الوفى بعهده موضعا للذم والتشهير .

(٤) أراح : أرتاح ؛ الجنوب : الريح التى تهب منها ؛ راحت : هبت راجعة ؛ الريّا : الرائحة المذبة ؛ والمعنى : إذا هبت رياح الجنوب حاملة إلىّ أنفاس الحبيب المعطرة اهتززت هزة الارتياح والحبور ، ومن المعروف أن قرطبه تقع إلى الجنوب الشرقى من بطليوس » .

(٥) أصبو : أميل ؛ العرفان : العلم ؛ العَرف : الرائحة الذكية ؛ الصَّبا : ريح تهب من الشرق ؛ ذو سلم: واد بالحجاز ، قال الشريف الرضى :

يا ظبيةَ الإنس هل أنس ألذُّ به من الفداة فأشفَى من جوى الألم ؟==

وَمَنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوَ الْــــبِرَا ... قِ أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ ابْتَسَمْ[1]

أَمَا وَزَمَانٍ مَضَى عَهْـــدُهُ ... حَمِيــدًا ، لَقَدْ جَارَ لَمَّا حَكَمْ[2]

قَضَى بِالصَّــبَابَةِ ثُمَّ انْقَضَى ... وَمَا اتَّصَلَ الْأُنْسُ حَتَّى انْصَرَمْ[3]

لَيَالِيَ نَامَتْ عُيُــــونُ الْوُشَا ... ةِ عَنَّا ، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَنَمْ[4]

= وهل أراك على وادى الأراك ؟ وهل

يعـــود تسليمنا يوما بذى ســـلم ؟

والمعنى : إننى أهتز شوقا إذا مرّت عبيرَ الريح الشرقية ؛ وأبعث بالسلام إلى أحبابى فى « ذى سلَم » .

(١) البراق : قرية بحلب بينهما فرسخ « وقد أطلق الأندلسيون أسماء كثير من مدن الشام وقراه على مدنهم وقراهم » ؛ جَهَش وأجهش إليه : فزع إليه وهو يريد البكاء كالصبىّ حين يفزع إلى أمه ، وفى الحديث الشريف « أصابنا عطش فجهشنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ؛ والمعنى : حينما لجّ بى الشوقُ إلى قرية البراق ورأيت البرق مبتسما فزعت إليه جاهشا بالبكاء لأن فيه سمات من مواطن الأحباب .

(٢) المعنى : وحق الزمان الماضى الذى سعدنا تحت ظلاله لقد تنكر لنا بعد عرفان وأدبر عنا بعد إقبال وجار علينا فى أحكامه .

(٣) فى الذخيرة « لمَّا انقضى » ؛ انصرم : انقطع ؛ والمعنى : قضى الزمان علينا بالحب وأسعدنا به ثم انقضى سريعا ، فما كاد يسعدنا بالوصال حتى باغتنا بالهجران .

(٤) المعنى : هى ليال سعدنا فيهـا باللقاء وقد نامت عنا عيون العاذلين وتيقظت عيون النعيم .

وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهَوَى ... فَأَجْنَتْ ثِمَارَ الْمُنَى مِنْ أَمَمْ[1]
وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْـــبُرُودِ ... رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمْ[2]
كَأَنَّ « أَبَا بَكْرٍ » الْأَسْلَمِيَّ أَجْرَى عَلَيْهَا فَرِنْدَ الْكَرَمْ[3]
وَوَشَّـــحَ زَهْرَةَ ذَاكَ الزَّمَانِ ... بِمَا حَازَ مِنْ زُهْرِ تِلْكَ الشِّيَمْ[4]

(١) جنى الثمرةَ واجتناها : التقطها من غصنها ، وأجنيتُه إياها مكَّنته من جَنيها ، وأجنت الارضُ : كثر جناها ؛ الأَمَمُ : القرب ؛ والمعنى : سعدنا فى روضة الوصال فمالت علينا أغصانها ومنحتنا أطيب الجنى وأعذب الثمار فى يسر وقرب وسماح .

(٢) مُذهَبات ومُذَهّبات : مموّهات بالذهب ؛ البرود والأبراد : جمع برد وهو ثوب مخطط ؛ الحواشى : جمع حاشية ومن معانيها الظل ، وعيش رقيق الحواشى : رغد ناعم الظلال ؛ الادَم والأُدُم : الجلد ، والأَدْم : الالفة والصلح، وفى الحديث الشريف عن خطبة المرأة « لو نظرت إليها !! فهو أحرى أن يؤدم بينكما » أى يدوم الصلح والألفة ، وأديمُ النهار : عامّته أو بياضه جمعه أَدَم وأُدُم ؛ والمعنى : كانت أيام الوصال ناعمة سعيدة مرفهة كأنها أبراد مذهبة رقيقة الحاشية رائقة الصفحات .

(٣) فى الذخيرة « أبا بكر المسلمىّ » ؛ وفى نسخة ب ، ت ز «فريد الـكرم» والفريد : الشذر يفصل بين اللؤلؤ والذهب أو الجوهرة النفيسة أو الدر إذا نظم، وسيف فريد وفِرِنْد : لانظير له ؛ والفرند : جوهر السيف ووشيه ؛ والمعنى : كانت أيامنا سعيدة ناعمة كأن الأمير أبا بكر الأسلمىّ أجرى عليها صفحة يده الوضاءة كاللآلىء أو السيوف .

(٤) وَشّح : قلّد وأمالها«وشـح»؛زَهرة الدنيا :نضارتها وحسنها ؛ الشيم الزُّهر :الأخلاق الوضاءة كالنجوم ؛ والمعنى : كأنّ الأمير أفض على حسن الدنيا ومضات من أخلاقه الوضاءة .

هُوَ الحَاجِبُ المُعْتَلِي لِلْعُلاَ ... شَمَارِيخَ كُلَّ مُنِيفٍ أَشَمْ[(١)]
مَلِيكٌ ، إِذَا سَابَقَتْهُ المُلُوكُ ... حَوَى الخَصَلَ، أَوْ سَاهَمَتْهُ سَهَمْ[(٢)]
فَأَطْوَلُهُمْ - بِالأَيَادِي - يَداً ... وَأَثْبَتُهُمْ - فِي المَعَالِي - قَدَمْ[(٣)]

* * *

وَأَرْوَعَ لاَ مُبْتَغِي رِفْدِهِ ... يَخِيبُ ، وَلاَ جَارُهُ يُهْتَضَمْ[(٤)]
ذَلُولُ الدَّمَاثَةِ ، صَعْبُ الإِبَاءِ ... ثَقِيفُ العَزِيمِ ، إِذَا مَا اعْتَزَمْ[(٥)]

---

(١) شماريخ الجبال : أعاليها ؛ منيف : عال مشرف على غيره ؛ جبل أشم : طويل القمة ؛ والحاجب : من أعظم ألقاب التشريف فى الأندلس وبخاصة بعد الحاجب المنصور ، وهو الحاكم الفعليّ للبلاد ، أما الملك فى أخريات أيام الدولة الأموية بالأندلس فكان محجوبا فى قصره بين الولائد والوصائف ؛ والمعنى : الأمير هو الحاجب الذى تبوأ ذروة المجد فكأنه اقتعد قمة كل شامخ منيف .

(٢) الخَصَل : إصابة الهدف فى الرهان ، حوى الخصل : غلب فى الرهان ؛ ساهم : قارع ؛ سهم : غلب ، ومنه ساهمته فسهمته أى قارعته فغلبته ؛ والمعنى : إذا سابق الملوكُ الأميرَ فإنّه يبذهم فى السباق وينال دونهم قصب الرهان .

(٣) المعنى : الأمير أبسط الملوك يدا بالعطايا والهبات ، وأثبتهم قدما فى المجد والفخار .

(٤) الأروع والرائع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته ؛ الرفد : العطاء ؛ يُهتَضَم : يُظلَم أو يُنتَقَصُ من حقه قال تعالى : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » ؛ والمعنى : الأمير رائع المنظر بارع الشجاعة لايخيب سائله ولا يُذلّ جاره .

(٥) ذلول : سهل لين؛ الدماثة: سماحة الخلق؛ الثَّقِيف والثَّقْف: الحاذق الفطن اللبيب : العزيم والعزيمة : الإرادة القوية والتصميم ؛ والمعنى : الأمير سمح =

تَمَّما لِلْمَجَـرَّةِ فى أُفْقِهَا	فَجَرَّ عَلَيْهَا ذُيُولَ الْهِمَمْ[1]
وَنَاصَتْ تَسَاعِيه زُهْرَ النُّجُومِ	وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وُطْفَ الدِّيَمْ[2]
نَهِيكٌ إِذَا جَنَّ لَيْلُ الْعَجَاجِ	سَرَى مِنْهُ فى جُنْحِهِ بَدْرُ تِمّ[3]
فَشَامَ السُّيُوفَ بِهَامِ الْكُمَاةِ	وَرَوَّى الْقَنَا فى نُحُورِ الْبُهَمْ[4]

= الخلق كريم السجية ، وهو مع هذا قوىّ الإرادة أبىّ النفس راسخ التصميم .

(١) المجرة : مجموعة نجوم تعترض السماء من الأفق إلى الأفق « ومنهـا المجموعة الشمسية » والعرب يسمونها نهر المجرة ؛ والمعنى : سما الأمير إلى النجوم وسحب فوقها ذيول همته العالية وعزيمته السامية .

(٢) ناصى فلانا : أخـذ كلاهما بناصية صاحبه فى المباراة ، وفى حديث عائشة رضى الله عنها « لم تكن واحدة من نساء النبى صلى الله عليه وسلم تناصينى غير زينب » أى تنازعنى وتباريني ؛ سحابة وطفاء : منهمرة المطر ؛ والمعنى : سامى الأمير بمساعيه النجوم الزهراء ، وبارى بعطاياه السحب الوطفاء .

(٣) النهيك والنهوك : الشجاع أو السيف القاطع أو الحسن الاخلاق ؛ جنّ : ستر ؛ العجاج : الغبار أو الدخان ؛ جنح الليل : قطعة منه ؛ بدرتم : قر كامل ؛ والمعنى : الأمير شجاع قوى كريم الاخلاق ، إذا ثارت الحروب نهض إليها متهللا كالقمر عند التمام .

(٤) شامَ السيفَ : أغمده أو سلّه ضد ، والمقصود هنا هو المعنى الأول ؛ الهام : جمع هامة وهى الرأس ؛ الكماة : جمع كمِىّ وهو الشجاع المدجج بالسلاح ؛ البَهْم والبُهَم : جمع بَهْمة وهى أولاد الضأن والمعز والبقر ، والبُهَم : جمع بُهمة وهو الشجاع الذى لا يُهتدَى من أين يؤتى ، أو الجيش ؛ والمعنى : الامير شجاع قهار يغمد سيوفه فى رءوس الكماة ؛ وهو كريم جواد ينحر الأنعام للضيفان (باعتبار البهم : أولاد الماشية) أو يروى الرماح من نحور الشجعان أو الجيوش الجرارة (باعتبار البهم : الشجعان أو الجيوش) .

جَـوادٌ ذَرَاهُ مَطَافُ الْعُفَاةِ وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمْ (١)
بَهِيجُ النَّوَالِ بِهِ وَالسُّؤا لِ لَيْثاً هَصُوراً وَبَحْراً خِضَمّ (٢)
شَهِدْنَا لأَوْتِىَ فَصْلَ الْخِطَابِ وَخُصَّ بِفَضْلِ النُّهَى وَالْحِكَمْ (٣)
وَهَلْ فَاتَ شَيْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمْ ؟ (٤)

* * *

(١) جواد : سخى كريم ؛ الذَّرى : الكنف ، يقال : أنا فى ذرى فلان أى فى كنفه وستره ودفئه ، والذُّرى : أعالى الأشياء ، جمع ذِرْوة ؛ مطاف : مكان الطواف ؛ العفاة : جمع عافٍ وهو طالب الفضل أو الرزق كالمعتفى ؛ الندَى : السخاء ؛ المستلم : الذى يُتناول باليد أو بالتقبيل ، ومنه استلم الحاجُّ الحجرَ : لمسه إما بالقُبلة أو اليد ؛ والمعنى : يطوف السائلون والقاصدون بفناء الأمير طالبين حمايته أو عطاءه ، ويتسابقون إلى تقبيل يمينه كما يتسابق الحجاج لتقبيل الحجز الأسود .

(٢) الليث الهصور : الأسد الكاسر ؛ الخضم : الكثير العطاء أو البحر الممتلىء ؛ والمعنى : إذا هاجته الحرب اندفع إليها كالأسد الكاسر ، وإذا هزه السؤال جاد كالبحر الزاخر .

(٣) فصل الخطاب : القول المحكم الحاسم ببلاغته ومنطقه ، ووُصف كلامُ الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه « فصلٌ لا نَزْر ولا هَذْر » قال تعالى فى شأن داود عليه السلام « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » وذهب المفسرون إلى أنه الحكم بالبينة أو اليمين ، أو الفقه فى القضاء ، أو النطق بعبارة : أما بعد «كناية عن بلاغته الخطابية ، أو الكلام الواضح الخالى من اللَّبس» ؛ النُّهَى : جمع نُهْيَة وهى العقل ، والمعنى : نشهد أن الله منح الأمير القول المحكم البليغ وخصه بالعقل الراجح والنظر الصائب السديد .

(٤) المعنى : الأمير شجاع حازم بليغ حكيم نال بسيفه وقلمه أقصى =

وَمُسْتَحْمِدٍ بِكَرِيمِ الفَعَا لِ ـ عَفْواً ـ إذَا مَا اللَّئِيمُ اسْتَذَمْ[1]

شَمَائِلُ تَهْجُرُ عَنْهَا الشَّمُولُ وَتُجْفَى لَهَا مُشْجِيَاتُ النَّغَمْ[2]

عَلَى الرَّوْضِ مِنْهَا رُوَاءٌ يَرُوقُ وَفِى المِسْكِ طِيبُ أَرِيجٍ يُشَمْ[3]

* * *

أبُوهُ الَّذِى فَلَّ غَرْبَ الضَّلاَلِ وَلاَءَمَ شَعْبَ الهُدَى فالتَأَمْ[4]

= المكرمات، ولن تستعصى المكرمات على حملة السيوف والأقلام.

(١) الفعال: المحاسن والمكرمات؛ استذم: فعل ما يُذمُّ عليه أو طلب المذمة؛ والمعنى: الأمير محمود بما يبذله من المكرمات عفواً دون تكلف وإنما جريا على سجيته، على حين أن اللئيم حريص على الأذى لا يردعه ذم أو ملام؛ ويمكن أن نَرْوِىَ البيت هكذا:

ومستحمد بكريم الفِعال عَفُوٌّ إذا ما اللئيم استذم

فيزيد المعنى وصف الأمير بالعفو والغفران.

(٢) شمائل: طبائع وأخلاق؛ الشمول: الخمر الباردة؛ تُجْفَى: تُكْرَه؛ والمعنى: للأمير أخلاق عذبه رضية تثير فى النفوس النشوة والارتياح فتصرفها عن معاقرة الراح وعن سماع الأغانى والألحان.

(٣) الرُّواء: حسن المنظر؛ يروق: يعجب؛ أريج: عبير؛ والمعنى: كأن شمائل الأمير خلعت على الرياض حسنها ومنحت المسك أطيب العبير.

(٤) فلّ: كسر أو ثلم؛ غرب: حدّ؛ لاءم: أصلح أو جمع؛ التأم: انضم أو انصلح؛ والمعنى: لقد تابعتَ أباك الذى ثَلَمَ حدّ الضلال وكسر سيفَه البتار وأصلح ما انشعب من الهدى ففزتَ به الأخلاق وقوى به الدين.

وَلاَذَ بِهِ ٱلدِّينُ مُسْــــتَعْصِماً ... بِذِمَّةِ أَبْلَجَ وَافِى ٱلذِّمَمْ[١]

وَجَاهَدَ — فى ٱللهِ — حَقَّ ٱلْجِهَا ... دِ مَنْ دَانَ — مِنْ دُونِهِ — بِالصَّنَمْ[٢]

فَلاَ سَامِىَ الطَّرْفِ إِلاَّ أَذَلّ ... وَلاَ شَامِخَ الْأَنْفِ إِلاَّ رَغَمْ[٣]

تَمَيَّلَ فى الْعِزِّ — مِنْ حِمْيَرٍ — ... مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الْأُمَمْ[٤]

هُمُ نَعَشُوا الْمُلْكَ حَتَّى ٱسْتَقَلّ ... وَهُمْ أَظْلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى أَظَّلَمْ[٥]

---

(١) استعصم بالله : تقوَّى به وامتنَع ، قال تعالى على لسان امرأة العزيز فى شأن يوسف عليه السلام : « أنا راودتُه عن نفسه فاستعصم » ؛ الذِّمة : الأمان أو الحرمة ؛ الأبلج : المضىء المشرق ، وفى حديث أم معبد أن النبى صلى الله عليه وسلم « أبلج الوجه » ؛ والمعنى : لقد لاذ الدين بأبيه طالبا حمايته عائذا بحرمته فهو كريم العهود رَاعٍ للحرمات .

(٢) المعنى : ناضل الأميرُ المشركين عبادَ الأصنام ، وبذل مابذل فى سبيل الله وجاهد فيه حقَّ الجهاد ؛ وفى الذخيرة « مَن دان من دونه بالظلم » .

(٣) المعنى : قمع الأميرُ الكفّار فأذلّ منهم كلَّ عزيز ، وألصق أنفَ كل أشمَّ منهم بالتراب .

(٤) تقيَّل أباه : أشبهه ؛ مقاول وأقيال وأقوال : جمع مِقْوَل أو قيل وهو لقب الملوك حمير ، والمعنى : شابه الأمير فى العز والمجد أجدادَه من ملوك حمير الذين قووا جميع الأمم .

(٥) نعشوا : رفعوا أو جبروا بعد فقر ؛ استقلّ : نهض ؛ الخطب : الأمر الشديد الدائم جمعـــه خطوب ؛ أو الشأن مطلقا صغيرا كان أو كبيرا تقول : ما خطبك ؟ وتقول : هذا خطب جليل أو خطب يسير ؛ اظَّلَم : أصلها اظتلم على وزن افتعل ، واظّلم وانظلم : احتمل الظلم ؛ والمعنى : أقاموا الملك حتى شمخ وارتفع وداوموا الظلم حتى انهار ؛ وفى الذخيرة « وهم ظلموا » .

نجُومُ هُدًى ، وَالْمَعَالِي بُرُوجٌ وَأُسْدُ وَغًى ، وَالْعَوَالِي أَجَمْ[١]

* * *

« أَبَا بَكْرٍ » أَسْلَمْ عَلَى الْحَادِثَاتِ وَلَا زِلْتَ مِنْ رَيْبِهَا فِي حَرَمْ[٢]

أُنَادِيكَ — عَنْ ثِقَةٍ — عَهْدُهَا كَمَا وَشَّتِ الرَّوْضَ أَيْدِي الرِّهَمْ[٣]

وَإِنْ يَعْدُنِي عَنْكَ شَحْطُ النَّوَى فَحَظِّي أَخَسُّ وَنَفْسِي ظَلَمْ[٤]

وَإِنِّي لَأُصْفِيكَ مَحْضَ الْهَوَى وَأُخْفِي لِبُعْدِكَ بَرْحَ الْأَلَمْ[٥]

(١) البروج : منازل الكواكب ، العوالى : رءوس الرماح أو أعاليها أو مافوق السنان ؛ أجم : جمع أجمة وهى الشجر الكثيف الملتف ؛ والمعنى : هم نجوم الهداية والرشاد، ولكنهم يحتلون المعالى ، وهم أسود كاسرة مأواها بين الرماح لا الأدغال .

(٢) ريب الزمان : حوادثه ، الحرم : ما يحميه الإنسان ويدافع عنه ، ومنه حرم مكة وهو حرم الله وحرم رسوله ، والحرمان : مكة والمدينة ؛ قال تعالى : « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناسُ من حولهم » ؛ والمعنى : أسأل الله لك السلامة من الأحداث وأن تظل من حوادثها فى أمن وسلام .

(٣) فى الذخيرة « أناديك عن مقة » والمقـة : الحب ؛ وشّى : زيّن وزخرف ؛ الرِّهم : جمع رهمة وهى المطر الضعيف الدائم ؛ والمعنى : أناديك أيها الأمير نداء واثق بك ثقة قائمة على الحب والمودة والعرفان بالجميل ، كما تعرف الرياض جميل السحب التى تزخرفها وتوشيها بأطيب الجنى وأينع الأزهار .

(٤) يعدوه : يصرفه ؛ الشحط : البعد ؛ النوى : الغربة ؛ والمعنى : إذا كنتُ بعيدا عنك فإنى سيء الحظ منكود الطالع .

(٥) أصفاه الود : أخلصه له ؛ محض الهوى : خالصه ولبابه ؛ برح الألم : شدته ؛ والمعنى : إننى على البعاد أخلص لك مودتى وأمنحك حبى وانطوى على الآلام المبرحة لبعدك .

وَغَـيْرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الذِّمَامِ ... إِذَا حُسْـنُ ظَنِّي عَلَيْهِ أَذِمْ[١]

* * *

وَمُسْـتَشْفِعٍ بِيَ بَشَّرْتُهُ ... ـ عَلَى ثِقَةٍ ـ بِالنَّجَاحِ الْأَتَمْ[٢]

وَقِدْمًا أَقَلْتَ الْمُسِيءَ الْعِثَارَ ... وَأَحْسَنْتَ بِالصَّفْحِ عَمَّا أَجْتَرَمْ[٣]

وَعِنْدِي ـ لِشُكْرِكَ ـ نَظْمُ الْعُقُودِ ... تَنَاسَقُ فِيهَا اللَّآلِي التُّؤَمْ[٤]

تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ ... إِذَا لَبِسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمْ[٥]

---

(١) أخفر الذمام : نقض العهد ، أذم : أخذ العهد ؛ والمعنى : لقد وفيتَ لى ورعيت مودتى على حين نقض غيرك العهد مع أن لى عليه حرمة وذماما .

(٢) المعنى : لقد تشفع بى إليك أحد الأصدقاء ؛ فبشرته بالنجاح الكامل عن ثقة بالإنجاز .

(٣) فى الذخيرة « أقلتَ مُسيء العثار » ؛ أقال عثرته : أنهضه من كبوته أو صفح عن زلته ؛ اجترم وأجرم : أذنب ؛ والمعنى : اعتدتَ من قديم أن تجبر الكسير وتعفو عن المسيء .

(٤) تناسَقُ : تتناسق أى تنتظم فى نسق بديع ؛ اللآلُ التؤم : اللآلُ المزدوجة ؛ والمعنى : سأسوغ فى إطرائك شعراً منسقا متسقا كأنه الجواهر الفريدة واللآلىء المزدوجة اليتيمة .

(٥) أجدّ : جدّد .

قال أبو بكر الزهرى :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى ... أنيقاً ، وبستانا من النَّوْر حاليا

أجدّ لنا طيبُ المكان وحسنُه ... مُنىً ، فتمنينا ، فكنتَ الأمانيا

البرد : ثوب مخطط ؛ والمعنى : قصائدى فى الثناء عليك تخلع على أمجادك العظيمة غلائل الشباب فيظهر مجدك غضا يافعا إذا ماهرم الدهر وتحيفته السنون

فَعِشْ مُنَعَّماً بِبِقَاعِ السُّعُودِ   وَدُمْ نَاعِماً فى ظِلَالِ النِّعَمْ[(1)]
وَلَا يَزَلِ الدَّهْـــرُ أَيَّامُهُ   لَكُمْ حَشَمٌ وَاللَّيَالِى خَدَمْ[(2)]

شكر جزيل[(3)]

اتصل الشاعر بالمظفر بن الأفطس أمير بطليوس ، ولقى منه حفاوة وتقديرا ، فصاغ فيه هذه القصيدة :

هِيَ الشَّمْسُ مَغْرِبُهَا فى الْكِلَلْ   وَمَطْلَعُهَا مِنْ جُيُوبِ الْحُلَلْ[(4)]

---

(١) فى نسخة ب ، ز « بيفاع السعود » وفى ت « ببقاء السعود » ؛ أعصم فلانا : هيأ له ما يعتصم به ، معصما : ممتنعا متحصنا ، اليفاع : ما ارتفع من الأرض ؛ والمعنى : أدعو الله لك أن تعيش آمنا فى أسمى مكان ، وأن تحيا سعيدا متنعما فى ظلال النعيم .

(٢) الحشم : حاشية الرجل أو عبيده أو عياله أو قرابته أو من يغضب لغضبه ، قال ابن السكيت هى كلمة فى معنى الجمع ولا واحد لها من لفظها ؛ والمعنى : أسأل الله أن يظلّ الدهر بأيامه ولياليه قائما على خدمتكم وتلبية رغائبكم .

(٣) اقتطفنا من هـذه القصيدة عشرة أبيات فى باب النسيب (ص ١٢٧) لدلالتها الخاصة هناك .

(٤) الـكِلَل : جمع كِلَّة وهى ستارة رقيقة تسدل على السرير لوقاية النائم من الحشرات (ناموسية) ؛ الجيوب : جمع جيب وهو طوق القميص ونحوه ، قال تعالى لسيدنا موسى عليه السلام « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » ؛ والمعنى : هذه الحبيبة شمس مشرقة ولكنها تبزغ من أطواق الحلل ، وتغرب فوق الأسرة داخل الـكلل .

وَغُصْنٌ تَرَشَّفَ مَاءَ الشَّبَابِ تَرَاهُ الْهَوَى، وَجَنَاهُ الْأَمَلْ[(١)]
تَهَادَى لَطِيفَةَ طَيِّ الْوِشَاحِ وَتَرْنُو ضَعِيفَةَ كَرِّ الْمُقَلْ[(٢)]
وَتَبْرُزُ خَلْفَ حِجَابِ الْعَفَافِ وَتَسْفِرُ تَحْتَ نِقَابِ الْخَجَلْ[(٣)]

* * *

بَدَتْ فِي لِدَاتٍ — كَزُهْرِ النُّجُومِ — حِسَانِ التَّحَلِّي مِلَاحِ الْعَطَلْ[(٤)]
مَشَيْنَ يُبَاهِينَ رَوْضَ الرُّبَا بِيَانِعِ رَوْضِ الصِّبَا الْمُقْتَبَلْ[(٥)]
فَمِنْ قُضُبٍ تَنْثَنِي بِرِيحٍ وَمِنْ قُضُبٍ تَنْثَنِي بِدَلْ[(٦)]

---

(١) ترشَّف: امتص؛ الجنَى: الثمر الغض اليانع؛ والمعنى: وهى غصن نضير ارتوى من ماء الشباب ونبت فى مغرس الحب فأثمر أعذب الآمال.

(٢) تهادَى: تهادى أى تتثنى فى تؤدة ودلال؛ الوشاحُ: وسام مرصع بالجواهر تضمه المرأة بين عاتقها وكشحيها؛ ترنو: تديم النظر بطرف ساكن؛ والمعنى: تمايل فى مشيتها وتثنى فى رشاقة ودلال فقد ضمَّ وشاحُها غصناً ميّادا رقيقا، وتنظرُ فى فتور واسترخاء أو كما قال الشاعر:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العوَّد

(٣) المعنى: تظهر للأبصار ولكنها فى حجاب من عفافها يقيها فضول الناظرين، وتكشف عن وجهها فيصبغه الخجل بلثام من الحياء، وفى الأصول (تحت النقاب).

(٤) لدات: جمع لِدَة وهى الشابهة، والمعنى: برزتْ هذه الفتاة الرائعة بين أتراب حسناوات وضاءات كالنجوم المتلألئة، فاتنات سواء كن حاليات أو عاطلات من الزينة والحلى.

(٥) يباهين: يفاخرنَ؛ الرُّبَى: جمع ربوة وهى المرتفع من الأرض؛ والمعنى: تهادين فى مشيهنَّ مفاخرات للورود اليانعة يشبابهنَّ الغض النضير.

(٦) المعنى: هؤلاء الفتيات يخطرن بين أشجار الحديقة فيلوح لنا منظر معجب يضمُّ أغصانا رطيبة يحركها الهواء، وقد وداً مياسة رنَّحها الدلال.

وَمِنْ زَهَرَاتٍ تَنَدَّى بِمِسْكٍ ... وَمِنْ زَهَرَاتٍ تُنَدَّى بِطَلّ (١)

* * *

تَعَاهَدَ صَوْبُ الْعِهَادِ الْحِمَى ... وَلَا حَلَّ مَرْبَعَهَا فِي مَلَلْ (٢)

مَرَادٌ – مِنَ الْحُبِّ – غَضُّ الْجَنَى ... لَدَيْهِ – مِنَ الْوَصْلِ – وِرْدٌ عَلَلْ (٣)

لَيَالِيَ مَا أَغْفَلَ يُهْدِي السُّرُورَ ... حَبِيبٌ سَرَى ، وَرَقِيبٌ غَفَلْ (٤)

زَمَانٌ كَأَنَّ الْفَتَى الْمَنْـلِيَّ ... تَـكَنَّفَهُ عَدْلُهُ فَاعْتَـدَلْ (٥)

تَبَارَكَ مَنْ حُكْمُهُ أَنْ يُعِيدَ ... بِهِ عِزَّةَ الدِّينِ أَيَّامَ ذَلّ (٦)

---

(١) المعنى : وفى هذا المنظر المونق زهرات ترَ صّعها قطراتُ الندى وزهرات من الفتيات المتعطرات بالمسك الفوّاح .

(٢) فى الأصول « ولا مَلّ مربعها » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ تعاهد : تفقّد الشيءَ لتحسينه ؛ صوب العهاد : هطول المطر ؛ الربع : منزل القوم فى الربيع ؛ الملل : السآمة ؛ والمعنى : أسأل الله أن يظل حمى هؤلاء الفتيات معمورا خصيباً ترويه السحب الهاطلات فتنضرُه فى غير سآمة أو ملال .

(٣) المَرَاد : مكان الارتياد والنجعة ، أو موضع الجيئة والذهاب ؛ غض الجنى : يانع الثمار ؛ ورِدٌ عَلَل : مَنْهَل مطروق ؛ والمعنى : محلّ هؤلاء الفتيات فى منزل محفوف بالحب الفتىّ الذى يترشف أعذب كئوس الوصال .

(٤) المعنى : كانت لنا فى هذا الحمى ليالٍ حافلات بالأنس واللذات يسرى إلينا فيها الحبيب ويغفل عنا فيها الرقيب .

(٥) تـكنّفه وكنّفه واكتنفه : أحاط به ؛ والمعنى طاب الزمان لنا وترق كأنه استمدّ طيبه واعتداله من عدل الأمير

(٦) الحكم : القضاء أو المرنة والحكمة ؛ والمعنى : تبارك الله فى حكمته وقضائه أن يعيد الدين عزيزاً بعد إذلال على يد الأمير المظيم .

وَيُوضِحَ رَسْمَ التُّقَى – إِذْ عَفَا – وَيُطْلِعَ نَجْمَ الْهُدَى إِذْ أَفَلْ[1]

* * *

حَمِدْنَا « الْمُظَفَّرَ » لَمَّا رَأَى « لِمَنْصُورِنَا » سِيرَةً فَامْتَثَلْ[2]

مَلِيكٌ تَجَلَّى لَهُ غُرَّةٌ تَأَمَّلُهَا غُرَّةٌ تُهْتَبَلْ[3]

أَشَفُّ الْوَرَى – فِى النُّهَى – رُتْبَةً ، وَأَشْهَرُهُمْ – فِى الْمَعَالِى – مَثَلْ[4]

وَأَحْرَى الْأَنَامِ بِأَمْرٍ وَنَهْيٍ وَأَدْرَى الْمُلُوكِ بِعَقْدٍ وَحَلْ[5]

---

(١) الرسم : الأثر : عفا : بَلِىَ أو اُمَّحَى ؛ أفل : غاب أو غرب ؛ والمعنى : وأعاد الله به معالم الدين جديدة بعد دثورها ، وأطلع به نجم الهداية بعد أفوله .

(٢) امتثل : احتذى ؛ والمعنى : احتذى المظفر سيرة أبيه المنصور فى الجهد والمكرمات فحمدنا له متابعته إياه .

(٣) الغُرة : بياض الجبهة ويكنون بهـا عن التهلل والكرم أو السيادة والشرف ، يقال : رجل أغر أى شريف أو أبيض وفلان غرة قومه أى سيدهم ؛ وغرة كل شىء : أوله وأكرمه ، أو خيار المتاع أو طلعة الهلال أو أنفس شىء عندك وأفضله ؛ تُهْتَبَلُ : تُنْتَهَزُ ؛ والمعنى : إنَّ الأمير تتجلى غرته البيضاءُ فتنبىء عن سيادته وكرمه ، فنجد فى النظر إليها نيلا ننتهزه وغنما ثمينا نظفر به .

(٤) شفَّ : زاد أو نقص ضدٌّ ، وفضل أو نقص ضدٌّ أيضا ، والمراد هنا الزيادة أو الفضل ؛ النهى : جمع نُهْيَة وهى العقل ؛ والمعنى : الأمير أفضل الجميع منزلة فى عقله وأشهر الناس مثلا فى نيل المعالى ؛ وفى نسخة ت : « أشفُّ الورى فى السمى » .

(٥) أحرى : أجدر ؛ والمعنى : وهو أجدر الناس بتدبير أمور الرعية من أمر ونهى ، وهو أعلم الملوك بشئون السياسة من نقض وإبرام .

يَمَانٍ لَهُ التَّاجُ مِنْ بَيْنِهِمْ ... بِمَا أَوْرَثَ التُّبَّعُونَ الْأُوَلْ[1]

سَنَامٌ - مِنَ الْمَجْدِ - عَالِى الذُّرَا ... يَظَلُّ الْعِدَا مِنْهُ تَحْتَ الْأَظَلْ[2]

تَقَيَّلَ - فِى الْمَهْدِ - ظِلَّ اللِّوَاءِ ... وَسِيمَ النُّهُوضَ بِهِ فَاسْتَقَلْ[3]

---

(١) التبابعة : ملوك اليمن مفرده تُبَّع ؛ والمعنى : يرجع نسب الأمير إلى التبابعة ملوك اليمن قبل الإسلام ، وقد انفرد بالتاج بين من ينتسبون إلى اليمن من معاصريه ؛ ونلاحظ هنا ملاحظتين :

أولا : جعل الشاعر المظفر منفردا دون الملوك بالتاج الذى ورثه من التتابعة من ملوك اليمن الأقدمين ، مع أنّ بنى عباد ملوك إشبيلية المعاصرين للمظفر ينتمون إلى لخم القبيلة اليمنية ، وقد ملك أجدادهم الحيرة زمنا طويلا فى الجاهلية .

ثانيا : ليس المظفر من أصل يمنى كما يذكر الشاعر ، ولكنه من أصل بربرى كما يؤيد ثقاة المؤرخين ، وفى هذا يقول ابن حيان المؤرخ الكبير المعاصر للمظفر : «ومن الغريب انتماؤه فى تجيب ، وبهذه النسبة مدحته الشعراء آخر وقته إذ يقول ابن شرف القيروانى :

يا ملكا أمسَتْ تُجيبُ به ... تحسد قحطانه عليها نزار »

راجع أعمال الأعلام ج ٣ ص ١٨٢ ، (وتجيب بطن من كندة تنتمى إلى قحطان اليمنية) .

(٢) الأظل : باطن خف البعير ؛ والمعنى : الأمير قمة عالية من قمم المجد يطأ أعداءه بقدمه فيلصقهم بالرغام .

(٣) تقيَّلَ : استظلّ ، وتقيَّل أباه : أشبهه ؛ سِيمَ : كُلِّف ؛ والمعنى : استظل الأمير فى مهده بلواء القيادة وكلف بحمله فاستطاع أن ينهض به ويقود الجيوش وهو ما زال فى المهد صبيا .

وَنِيطَتْ حَمَائِلُهُ الْوَافِيَاتُ ـ مَكَانَ تَمَائِمِهِ ـ فَاعْتَدَلْ(١)
وَمَا بَلَتِ الْبُرْدَ تِلْكَ الدُّمُو عُ إِلاَّ وَفِى الْبُرْدِ لَيْثٌ أَبَلْ(٢)
عَهِدْنَا الْمَكَارِمَ فِيهِ مَعَانِى فَبَشَّرَنَا فِيهِ مِنْهَا الْجُمَلْ(٣)
تُرَى بَعْدَ بِشْرٍ يُرِيكَ الْغَمَامَ تَهَلَّلَ بَارِقُهُ فَاسْتَهَلْ(٤)
يُصَدِّقُ مَا حَدَّثَتْنَا « عَسَى » بِهِ عَنْهُ ، أَوْ أَنْبَأَتْنَا « لَعَلْ »(٥)

(١) حمائل السيف : ما تشد به إلى وسط الفارس جمع حمالة ؛ التمائم : العوذات التى تعلق على الصبىّ لتقيه من الحسد جمع تميمة ؛ قال أبو ذؤيب الهذلى :

وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارها ألفيتَ كل تميمـــة لاتنفع

والمعنى : عُلّقَتْ على الأمير وهو طفلٌ حمائلُ السيف بدل التمائم فحمل السيفَ وأجاد استعماله .

(٢) أبَلَ وأبَّلَ : غلبَ وامتنع ، والبلُّ والأبلُّ : الألدُّ الجدِل أو الشديد اللوم ؛ والمعنى : ماكادت دموع الأمير وهو طفل رضيع تبلُّ ثيابه حتى استوى فيها أسداً غلاّباً ، أى أن شجاعة الأمير ظهرتْ وهو فى المهدِ .

(٣) الجُمَل : جمع جملة وهى الكلام المفيد ؛ والجُمَّل والجُمَل : حساب طالع الإنسان بحروف اسمه واسم أمه للنظر فى مستقبله ؛ والمعنى : عهدنا المكارم فى الأمير — وهو طفل — معانى كامنة فيه بشرتنا بها مظاهره وسماته كما تدل الجمل على المعانى والأفكار أو بشرتنا بمستقبله حسابُ طالعه الفلكى .

(٤) استهلّ المطرُ وهلّ وانهلّ : اشتد انصبابه ؛ والمعنى بتهلّلُ وجه الأمير فنتوقع مكارمه فيصدق ما توقمناه ، كما نتوقع المطر عند لمان البروق .

(٥) المعنى : لقد صدّق الأمير مارقبناه منه ، وتحققت آمالنا فيه ؛ و« عسى » و « لعل » من أدوات الرجاء .

فما وَعَدَ الظَّنُّ إلاَّ وَفَى ... وَلاَ قَالَتِ النَّفْسُ إلاَّ فَعَلْ(١)

فَلَقَّى مُنَاوِئَهُ ما اتَّقَى ... وَأَعْطَى مُؤَمِّـلَهُ ما سَأَلْ(٢)

* * *

كَمِ اسْتَوْفَتِ الشُّكْرَ نَعْمَاؤُهُ ... فَأَقْبَلَ يُنْعِمُ مِنْ ذِي قَبَلْ(٣)

غَمَامٌ يُظِلُّ ، وَشَمْسٌ تُنِيرُ ، ... وَبَحْرٌ يَفِيضُ ، وَسَيْفٌ يَسُلّ(٤)

قَسِيمُ الْمُحَيَّا ، ضَحُوكُ السَّمَاحِ ، ... لَطِيفُ الْحِوَارِ ، أَدِيبُ الْجَدَلْ(٥)

تُوَشِّي الْبَلاَغَةَ أَقْلاَمُهُ ... إِذَا مَا الضَّمِيرُ عَلَيْهَا أَمَلّ(٦)

(١) المعنى : ما ظننا فيه خيرا إلا تحقق ما ظنناه ، ولاخطرت في نفوسنا مكرمة إلا فعلها ، فكأنه ملهم بأهواء النفوس أو هو مستوف لجميع المكرمات.

(٢) لقّاه الشيء : ألقاه إليه ، قال تعالى « وإنك لَتُلَقَّى القرآنَ » أي يُلْقَى إليك وحياً من الله تعالى : المناوىء : المعادي المحارب ؛ اتقى : خاف واحترس ؛ والمعنى : أصاب الأمير أعداءه بما كانوا يحذرون أن يصيبهم منه ، وأعطى آمليه ماسألوه إياه من هبات ، فأوقع بالأعداء وأحسن إلى الأولياء .

(٣) من ذي قَبَل ومن ذي قِبَل : فيما يستجد من المستقبل وبشاهد فيه ؛ والمعنى : كلما استوفت عطاياه شكرنا استأنف العطاء من جديد .

(٤) المعنى : استوفى الأمير مناقب المجد والشرف فهو كريم كالغمام ، وضيء كالشمس فياض كالبحر ماض كالحسام .

(٥) القَسَامَة والقَسِيمة والقَسَام : الحسنُ ، وقسيم المُحَيَّا : جميل الوجه ؛ الحِوَار والحَوَار : الجواب والمراجعة ؛ والمعنى : الأمير جميل الوجه مُتَهَلِّل في طلعته ، أريحيّ في سماحته ، لطيفٌ في إجابته ، مهذبٌ في مناقشته

(٦) توشي : تزيّن ؛ أملّ عليه الكتابَ : أملاه ؛ والمعنى : تدبِّج أقلامُه فنونَ الكلام البليغ إذا أملاها وُجدانُه المرهَفُ وذكاؤه اللماح .

بَيَانٌ يُبَيِّنُ — لِلسَّامِعِـيـنَ — أَنَّ مِنَ السِّحْرِ مَا يُسْتَحَلّ[١]
أَلَا هَلْ سَبِيلٌ إِلَى الْعَيْبِ فِيـهِ؟ فَكَمْ عِينَ — مِنْ قَبْلِهِ — مَا كَمَلْ[٢]

* * *

لَئِنْ لَبِسَ الْمُلْكَ رَحْبَ الْمُلَاءِ ، فَاخْتَالَ مِنْهُ بِذَيْلٍ رَفَلْ[٣]
فَإِنْ تَزَوَّدَهُ لِلْمَعَالِي وَإِنَّ تَأَهُّبَـهُ لِلْأَجَلْ[٤]
فَأَخْبَرُ سُوَّاسِ هَذِي الْأُمُورِ وَنَاسِكُ — أَرْبَابِ هَذِي الدُّوَلْ[٥]

* * *

وَلِيتَ الثُّغُورَ ، فَلَمْ تَعْدُ أَنْ رَأَبْتَ الثَّأَى وَسَدَدْتَ الْخَلَلْ[٦]

---

(١) المعنى : بيان الأمير الرائع يظهر لكل سامع أن من السحر ما هو حلال ؛ نظر فى هذا إلى الحديث الشريف « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة » .

(٢) عين : أصيب بالعين أى الحسد ؛ المعنى : ألا سبيل إلى وجود عيب فيه حتى تقيه حسد العيون ؟ فإن الكمال مجلبة للحساد .

(٣) الملاء : جمع ملاءة وهى رداء من قطعة واحدة أو كل ثوب لين رقيق ، رفل فى ثيابه : أطالها وجرها متبخترا ؛ والمعنى : إذا كان الأمير قد ولى الملك وهو فتى يختال فى ردائه الرقيق ويسحب ذيل التيه (جواب الشرط فى البيت التالى)

(٤) المعنى : إذا كان الأمير قد تولّى الملك فتيّا يتيه فى صباه ، فإنه كان منذ نشأته يتهيّأ للمعالى ويتأهب للأمور الخطيرة التى نيطت به .

(٥) المعنى : والأمير أكبر الساسة وأخبرهم بتدبير شئون الملك ، وهو إلى هذا تقى ورع نعدّه أزهد النساك فى هذه الدول .

(٦) الثغور : جمع ثغر وهو البلد أو المكان القائم على الحدود ويُخاف أن=

سِوَاكَ – إذَا قُلِّدَ الْأَمْرَ – جَارَ ، وَغَيْرُكَ – إِنْ مُلِّكَ الْفَيْءَ – غَلّ[1]
حَتَّى لَا يَزَالُ لِمَنْ حَـلَّهُ – أَمَانَانِ : مِنْ عَدَمٍ ، أَوْ وَجَلْ[2]
فَأَنْجُمُ دَهْرِهِمُ أَسْعُدٌ وَشَمْسُ زَمَانِهِمُ فِي الْحَمَلْ[3]

* * *

« أَبَا بَكْرٍ » اسْمَعْ أَحَادِيثَ ، لَوْ نُبِثْتُ بِسَمْعِ عَلِيلٍ أَبَلْ[4]

= يقتحمه الأعداء ؛ ورأب الصدع : أصلحه ، الثأى والثأى : الإفساد أو الجراح أو القتل ؛ الخَلَل : الفرجة بين شيئين أو الفساد فى الأمور ؛ والمعنى : تولَّيْتَ الدفاع عن الثغور فحصّنت ما فيها من ضعف ، وسددت ما بها من نقص ، وأصلحت ما فيها من فساد .

(١) الفَيْءُ : ما ربحه المسلمون من عدوّهم بلا قتال إما بالجلاء أو الصلح ، والغنيمة : ما نالوه من عدوهم عنوة ، والنَّفَل : ما أخذه الغازى زيادة عن سهمه ؛ غَلَّ وأغَلَّ : خان أو هو خاص بالفىء ، قال تعالى : « وما كان لنبى أن يَغُلَّ ومن يغْلُلْ يأت بما غلّ يوم القيامة » ؛ والمعنى : غيرك من الملوك يجور فى حكمه ويخون فى أمانته .

(٢) العَدَم والعُدْم : الفقر ؛ الوجل : الخوف ؛ والمعنى : مملكة الأمير أصبحت حمى يغتنى فيه المعدمون ويأمن فيه الخائفون .

(٣) سعود النجوم : عشرة نجوم مميّزة هى سعد الذابح وسعد السعود وسعد مطر ... الخ ؛ والحَمَل : برجٌ من أبراج السماء الربيعية ؛ والمعنى : لقيَتْ الرعية فى حماه السعادة والنعيم ، فزمانهم طيب ، وطوالعهم سعيدة ، وأيامهم حاليات كأيام الربيع .

(٤) بَلّ وأبَلّ : عوفىَ من مرضه ؛ والمعنى : أرجو أن تستمع أيها الأمير إلىّ فسأفضى إليك بأحاديث تبرىء العليل وتشفى السقيم .

سَأَشْكُرُ أَنَّكَ أَعْلَيْتَنِي بِأَحْظَى مَكَانٍ وَأَدْنَى مَحَلْ[١]
وَأَنِّي إِنْ زُرْتُ لَمْ تَحْتَجِبْ وَإِنْ طَالَ بِي مَجْلِسِي لَمْ تَمَلْ[٢]
تَبَسَّمْتَ، ثُمَّ ثَنَيْتَ الْوِسَادَ فَحَسْبِيَ مِنْ خَطَرٍ مَا أَجَلْ[٣]
فَلَوْ صَافَحَ التُّرْبَ خَدِّي لَهَانَ وَلَوْ كَاثَرَ الْقَطْرَ شُكْرِي لَقَلْ[٤]
بِأَمْثَالِهَا يُسْتَرَقُّ الْكَرِيمُ إِذَا مَطْمَعٌ بِسِوَاهُ أَخَلْ[٥]

* * *

---

(١) المعنى : سأشكر لك أيها الأمير حفاوتك بى ، وأنك أنزلتنى أكرم منزل ومنحتنى منك أقرب مكان .

(٢) المعنى : وسأقدّر لك أنك لم تحتجب عنى إذا زرتك ، ولم تمل مجلسى إذا أطلت الجلوس إليك .

(٣) الوساد (بفتح الواو وكسرها وضمها) المتكأ أو المخدة ؛ الخطر : القدر الخطير والمنزلة الرفيعة ، ما أجلّ : ما أعظم ؛ والمعنى : حينما أشرّفُ بزيارتك تلقانى متهلل الوجه بسام الثغر وتعد لى متكأ مريحا دانيا منك ، فما أعظم منزلتى بقربك !! وما أكرم مكانى تحت ظلك !!

(٤) القطر : المطر ؛ والمعنى : لو حاولتُ مجازاة الأمير على إحسانه إلىّ فوضعت خدى فى التراب لكان هينا بالنسبة لأفضاله علىّ ، ولو حاولتُ شكره فأكثرت الثناء عليه كما يكثر الإغداق لقل شكرى عن الوفاء عما أسداه إلىّ من تبجيل وتكريم .

(٥) يسترق : يستعبد ؛ والمعنى : يستعبد الأمير أولياءه بأمثال هذه الحفاوة والإكرام ، على حين يطمع غيره من الملوك فى الرعية ، فيهدمون أركان الحكم ، ويضعفون السلطان .

فَلَا تَهْدَمَنْكَ الْمَسَاعِي الَّتِي   لِأُمِّ الْمُنَاوِيكَ فِيهَا الْهَبَلُ[1]
فَأَنْتَ الْجَرِيءُ ، إِذَا الشِّبْلُ هَابَ   وَأَنْتَ الدَّلِيلُ ، إِذَا النَّجْمُ ضَلَّ[2]
وَمَا ابْنُكَ إِلَّا جِلَاءُ الْعُيُونِ   إِذَا نَاظِرٌ بِسِوَاهُ اكْتَحَلْ[3]
رَبِيبُ السِّيَادَةِ — فِي حِجْرِهَا —   تَدُرُّ لَهُ ثَدْيَهَا إِذْ حَفَلْ[4]
تَمَكَّنَ يَتْلُوكَ فِي الصَّالِحَاتِ   فَلَمَّا تَفُتْهُ ، وَلَمَّا يَنَلْ[5]

---

(١) المناوىء : المعادى أو المناضل ؛ الهبل : الثكل ، ومنه قول الشاعر :

والناس من يلق خيرا قائلون له   ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهبل

يقال هبلته أمه أى ثكلته ، هذا هو الأصل ، ويستعمل كثيراً فى معنى المدح والإعجاب ، يعنى ما أعلمه وما أصوب رأيه ؛ والمعنى : عشت أيها الأمير المكرمات تسديها وللأمجاد تعلمها ؛ أما من ينازعك فى مجدك فإنه حرىٌّ بأن تثكله أمه .

(٢) الشبل : ولد الأسد إذا أدرك الصيد ؛ وفى الأصول « السيل » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ والمعنى : إنك جرىء فى مواقف الهول التى تشعر الأسودُ الفتية فيها بالخوف ، وأنت الدليل الهادى فى المشكلات إذا ضل النجم الهادى طريقه فى الظلمات .

(٣) المعنى : إن ابنك يسرّ العيون بمنظره ، على حين أن غيره يُقذى العيون ويطمس الأبصار .

(٤) الربيب : المربّى ، يقال : ربَّب الصبىّ وهو أبلغ من ربّاه ، ومنه حديث ابن ذى يزن « أسدٌ تَرَبَّبُ فى الغيضات أشبالا » ؛ حفل : امتلأ ؛ والمعنى : شبّ الأمير فى حجر السيادة والمجد ورضع لبانها صغيرا حتى ارتوى ، فلا عجب إذا بلغ الكمال .

(٥) المعنى : تمكن ابنك فى مكانه من السيادة ، وسار يقتفى خطواتك فى المعالى ، فلم تسبقه ولم يلحقك ، أى كان قريبا منك وأنت منه قريب .

٤ – فى ظل المعتضد بن عباد

باشبيلية

زمان ندى

نرجح أنّ الشاعر صاغ هذه القصيدة فى رحلته الأولى إلى إشبيلية :

أَعَرْفُكَ رَاحَ فى عُرْفِ الرِّيَاحِ ... فَهَزَّ مِنَ الْهَوَى عِطْفَ ارْتِيَاحِى؟(١)

وَذِكْرُكَ مَا تَعَرَّضَ أَمْ عِدَادٌ ؟ ... غَصِصْتُ عَلَيْهِ بِالْعَذْبِ الْقَرَاحِ (٢)

وَهَلْ أَنَا مِنْكَ فى نَشَوَاتِ شَوْقٍ ... هَفَتْ بِالْعَقْلِ، أَوْ نَشَوَاتِ رَاحِ (٣)؟

---

(١) العَرْف : الريح طيبة أو خبيثة وأ كثر استعماله فى الطيبة ، والعُرْف : موج البحر أوشعر عنق الفرس أو التتابع ، ومنه قوله تعالى « والمرسلات عرفا » ؛ العِطف : الجانب ؛ والمعنى : لقد طابت الريح فبعثت فىّ نشوة وارتياحا ؛ فهل انتقل عبيرك الفواح إلى أمواج الرياح ؟

(٢) العِداد : هياج الوجع بعد سنة أو مِنْ حين إلى حين أو مَسّ من جنون ؛ الماء القراح : الصافى الذى لا تشوبه شائبة ؛ والمعنى : لقد هاجت ذكراك فى نفسى أشجانا ، لأنها ذكرتنى بصدك وهجرك ، فهل هى ذكرى عارضة ؟ أو هى مرض يتمادى حينا بعد حين ، فيكدر صفوى ويجعلنى أغص بالماء العذب النمير ؟

(٣) النشوات : جمع نشوة وهى السكر ؛ هفا : ذهب أو مال ؛ والمعنى : ماذا أصابنى فى حبك ؟ أذهب الهوى بعقلى أم ذهبت به كئوس السلاف ؟

لَعَمْرُ هَوَاكِ مَا وَرِيَتْ زِنَادٌ ... بِوَصْلٍ مِنْكِ طَالَ لَهَا اقْتِدَاحِى [١]

وَكَمْ أَسْقَمْتِ — مِنْ قَلْبٍ صَحِيحٍ — ... بِسُقْمِ جُفُونِكِ الْمَرْضَى الصِّحَاحِ [٢]

* * *

مَتَى أُخْفِ الْغَرَامَ يَصِفْهُ جِسْمِى ... بِأَلْسِنَةِ الضَّنَى الْخُرْسِ الْفِصَاحِ [٣]

فَلَوْ أَنَّ الثِّيَابَ نُزِعْنَ عَنِّى ... خَفِيتُ خَفَاءَ خَصْرِكِ فِى الْوِشَاحِ [٤]

لَقِينَا مِنَ الْوَاشِينَ حَتَّى ... رَضِينَا الرُّسْلَ أَنْفَاسَ الرِّيَاحِ [٥]

---

(١) لعمرك : وحقك ، ورَى الزندُ ووَرِيَ : خرجتْ نارُه ؛ والمعنى : وحق هواك الغلاب لقد جلبْت علىّ الآلامَ والأحزان ، وكم حاولتُ أنْ أنال عطفك وأفوز بحبك فلم يقدح زندك ، ولم يعطف قلبك .

(٢) المعنى : كم أمرضت بالحب من قلب سليم جلبت عليه السقام بلحظات عينيك الفاترتين الناعستين كأنّ بهما داء وما بهما من داء .

(٣) المعنى : إذا حاولتُ إخفاءَ هيامى بك وحنينى إليك أظهر نحو لى وذبول جسمى ما أخفيه ، ودلّ عليه بوضوح وجلاء ؛ وإن كانت ألسنته خرساء .

(٤) آثرنا رواية الخريدة ونفح الطيب وفى نسخة ا « فحصن عنى » وفى ب ، ت « فُصِّحْن عنى » ؛ الوشاح : وسام محلى بالجواهر تشده المرأة بين كتفيها وجانبيها ؛ والمعنى : لقد أنحلنى الحبُّ وأضنانى الهيام ، فلو خلعْتُ ثيابى لخفِيَ جسمى الذابل كما يخفى خصرك النحيل تحت الوشاح .

(٥) المعنى : كم قاسينا من ملاحقة الوشاة والرقباء فاكتفينا بأن نحمل أشواقنا لأنفاس الرياح لعلها تبلغها للأحباب ؛ وشبيه بهذا قول الشاعر :

حجبوها عن الرياح لأنى ... قلتُ : ياريح بلّغيها السلاما

وَرُبَّ ظَلاَمِ لَيْـلٍ جَنَّ فَوْقِي فَنُبْتِ عَنِ الصَّبَاحِ إِلَى الصَّبَاحِ [1]

فَهَلْ عَدَتِ الْعَفَافَ هُنَـــاكَ نَفْسِي

ـ فَدَيْتُكِ ـ أَوْ جَنَحْتُ إِلَى الْجُنَاحِ ؟[2]

* * *

وَكَيْفَ أَلِجُّ لاَ يَثْنِي عِنَانِي رَشَادُ الْعَزْمِ عَنْ غَيِّ الْجِمَاحِ [3]

وَمِنْ سِرِّ ابْنِ « عَبَّادٍ » دَلِيلٌ بِهِ بَانَ الْفَسَادُ مِنَ الصَّلاَحِ [4]

هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي بَرَّتْ فَسَرَّتْ خِلاَلٌ مِنْهُ طَاهِرَةُ النَّوَاحِي [5]

(١) جنّ الليل: ستر وأظلم قال تعالى: « فما جنّ عليه الليلُ رأى كوكبا »؛ والمعنى: إذا كنتُ أقاسى الآن من هجرك ما أقاسيه فكم ليال طويتها معك فى أنس ونعيم أضاءت لنا الظلام فيها حتى الصباح

(٢) جنح إلى كذا: مال إليه، قال تعالى: « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها»؛ الجُناح: الاثم؛ والمعنى: كم خلوتُ بك فى لهفة واشتياق، ولكننى لم أتخل عن العفاف، ولم أنحرف إلى الآثام.

(٣) أَلِجُّ: أُديمُ الإلحاح؛ يثنى عنانى: يردّنى؛ الغَىّ: الضلال؛ الجماح والجلوح: الاندفاع فى عناد وإصرار دون ريث أو روية؛ والمعنى: كيف أندفع فى الغواية جامحا لا يردّنى عقلٌ ولا يردّ عنى رشاد؟

(٤) السر: الأصل أو اللُّبُّ أو محض النسب؛ والمعنى: لا يمكن أن أسير فى طريق الغى بعد أن اهتديت إلى الرشاد مستنيراً بحسب ابن عباد.

(٥) المعنى: هو الملك العظيم الذى زكتْ خلالُه وطابت أياديه فمنحتنا السرور والنعيم.

هُمَـامٌ خَطَّ ـ بِالْهِمَمِ السَّوَامِي ـ   مِنَ الْعَلْيَاءِ فِى الْخِطَطِ الْفِسَاحِ (١)

أَغَرُّ إِذَا تَجَهَّمَ وَجْهُ دَهْرٍ   تَبَلَّجَ فِيهِ كَالْقَمَرِ اللِّيَاحِ (٢)

تَبِيعُ النَّصْرِ لِاسْتِعْدَاءِ جَارٍ   أَصَمُّ الْجُودِ عَنْ تَفْنِيدِ لَاحِى (٣)

ضَرَائِبُ جَهْمَةٌ فى الْعَتْبِ ، تَسْلَى   بِأَخْلَاقٍ لَدَى الْعُتْبَى مِلَاحِ (٤)

إِذَا أَرِجَ الثَّنَاءُ الرَّدْعُ مِنْهَا   فَكَمْ لِلْمِسْكِ عَنْهُ مِنَ افْتِضَاحِ (٥)

---

(١) الهمام : الملك العظيم الهمة ، أو السيد الشجاع السخيّ خاصّ بالرجال ، الخِطّةُ والخِطَط : الأرض التى يختطها الرجلُ لنفسه ويعلم عليها خُطوطاً للدلالة على أنّه امتلكها ، وتكون غير مملوكة لأحد من قبله ، يُقال خطّها واختطها ، ومنها خطط البصرة والكوفة ؛ والمعنى : حاز الأمير ما لم يحزه أحد قبله فنال أعلى مكان وأسمى منزلة من معالى الأمور بما له من حزم وإقدام .

(٢) الأغر : الأبيض أو الكريم أو الشريف ؛ تجهم : عبس ؛ تبلج : أشرق أو ضحك وهشّ ؛ اللياح (بكسر اللام وفتحها) الصبح أو الأبيض من كل شىء ، وأبيض لياح : ناصع البياض ؛ والمعنى : الأمير سخى شريف ، يتهلل وجهه بالبشر والسماح كالقمر المنير إذا كشر الدهر عن نابيه وأنذر بالأحداث الجسام .

(٣) الاستعداء : الاستغاثة والاستعانة ، التفنيد : اللوم ؛ اللاحى : اللائم ؛ والمعنى : يهبُّ الأمير لنصرة جاره ، ويعرض عمن يلومه على سخائه وكرمه .

(٤) الضرائب : الطبائع أو أصناف الشىء ؛ جهمة : عابسة ؛ العتب : اللوم فى رقة ورجاء وإدلال ؛ العتبى : الإرضاء بعد اللوم ؛ والمعنى : إذا أعرض الأمير وساءنا إعراضه فعتبنا عليه تهلل وجهه ورق قلبه فشملنا بالعطف والرضاء .

(٥) فى نسخة ا « الثناء الردع » ، والردع هو الزعفران أو أثر الطيب فى الجسد ؛ وفى ب ، ت ، ز « أرج الثناءُ العتبَ » ؛ ولعله « الثناء الروح » أى =

هُوَ المُبْقِى مُلُوكَ الأَرْضِ تَدْمَى ... قُلُوبُهُمُ كَأَفْوَاهِ الْجِرَاحِ [1]

رَآهُ اللهُ أَجْوَدَ بِالعَطَايَا ... وَأَطْعَنَ بِالْمَكَايِدِ وَالرِّمَاحِ [2]

وَأَفْرَسَ لِلْمَنَابِرِ وَالْمَذَاكِى ... وَأَبْهَى فى البُرُودِ وَفى السِّلَاحِ [3]

وَأَمْنَعَهُمْ حِمًى عِرْضٍ مَصُونٍ ... وَأَوْسَعَهُمْ ذَرًا مَالٍ مُبَاحِ [4]

فَرَاضَ لَهُ الوَرَى حَتَّى تَأَدَّتْ ... إِلَيْهِ إِتَاوَةُ الحَىِّ اللَّقَاحِ [5]

= الشكر الطيّبُ ؛ أرجَ الطيبُ : فاح ؛ والمعنى : رضاء الأمير يطلق ألسنتنا بشكره فإذا فاح عبير ثنائنا عليه فإنه يفوق المسك فى الطيب . أو إذا مدّ رضاه عتَبنا فاح عبير الشكر أطيب من المسك الفواح .

(١) المعنى : ملوك الأرض يحسدون الأمير على أمجاده وآلائه فقلوبهم دامية من الحقد كأفواه الجراح .

(٢) المعنى : رأى الله الأمير أجود الملوك عطاءً وأشجعهم قلبا وأحسنهم حيلة ومكيدة .

(٣) فى نسخة « وأفرس فى النار » ؛ المذاكى : الخيل التى بلغت السادسة أو السابعة من عمرها فتكون قد نضجت وبلغت منتهى قوتها ؛ البرود : الثياب المخططة ؛ والمعنى : جمع الأمير بين الفصاحة والشجاعة فهو فارس إذا ركب النابر أو امتطى الجياد ، وهو أبهى من يخطر فى الثياب أو السلاح .

(٤) الذرى : كل ما لجأت إليه تقول أنا فى ذَرَى فلان أى فى ظله وكنفه وستره ؛ المعنى : وهو أمنع الملوك حمى وأصونهم عرضا وأوسعهم كنفا مال مبذول للراغبين .

(٥) راض المُهْر : ذلّله ؛ تأدّت : انتهت ؛ الإتاوة : الخراج ؛ حى لقاح : لايخضعون لحاكم أو أمير لأنهم أعزاء ؛ والمعنى : رأى الله فى الأمير هذه المزايا فسهل له حكم الورى ، وأخضع له الناس حتى المتمردين الذين لايخضعون لحاكم أو أمير ؛ فقد بادروا بدفع خراجهم إليه .

« لِمُتَضِدٍ » بِهِ أَرْضَاهُ سَعْياً ... فَأَقْبَلَ وَجْهَهُ وَجْهَ الْفَلَاحِ [١]

فَمَنْ قَاسَ الْمُلُوكَ إِلَيْهِ جَهْلاً ... كَمَنْ قَاسَ النُّجُومَ إِلَى بَرَاحِ [٢]

وَمُعْتَقِدُ الرِّيَاسَةِ فِي سِوَاهُ ... كَمُعْتَقِدِ النُّبُوَّةِ فِي سَجَاحِ [٣]

* * *

أَبَحْرَ الْجُودِ — فِي يَوْمِ الْعَطَايَا — ... وَلَيْثَ الْبَأْسِ فِي يَوْمِ الْكِفَاحِ [٤]

لَقَدْ سَفَرَتْ بِعِلَّتِكَ اللَّيَالِي ... لَنَا عَنْ وَجْهِ حَادِثَةٍ وَقَاحِ [٥]

---

(١) معتضد بالله : مستعين به ؛ أقبل فلاناً الشيء : جعله قبالته ؛ والمعنى استعان الأمير بالله واعتمد عليه فجعل الفلاح حليفه والنجاح موازيا له .

(٢) براح : متسع من الأرض لا زرع به ولا شجر ، أو الرأى المنكر ؛ والمعنى : من شبه الملوك به فهو جاهل مخدوع مثل من شبه الثرى بالسماء .

(٣) سجاح : فتاة مسيحية نشأت فى بلاد النهرين عند أخوالها من قبيلة تغلب ، ولما ارتد كثير من العرب عن الإسلام بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وادعى بعضهم النبوة ادّعت هى أيضا النبوة ودخلت فى حروب مع المسلمين وتزوجت مسيلمة الكذاب (مدعى النبوة) ؛ ويقال إنها أسلمت فى زمن معاوية هى وقومها ؛ والمعنى : من يعتقد الرياسة فى غيره من الملوك فهو كالمرتد عن الإسلام المؤمن بنبوة سجاح .

(٤) المعنى : أيها الأمير إنّك سخىّ كريم فى يوم العطاء كالبحر الزاخر ، وأنت أسد كاسر فى يوم النضال .

(٥) سفرت المرأة : كشفت عن وجهها ؛ وقاح : قليلة الحياء ؛ والمعنى : حينما أمرضتك الليالى أيها الأمير تكشفت لنا عن وجه وقح بإساءتها إلى أعظم الملوك .

أَنْتَ مُصِحُّهَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ ؟ وَمُبْدِيَ حُسْنِ أَوْجُهِهَا الْقِبَاحِ ؟[1]

وَلَوْ كَشَفَتْ – عَنِ الصَّفَحَاتِ – شَامَتْ
بُرُوقَ الْمَوْتِ مِنْ بِيضِ الصِّفَاحِ[2]

* * *

وَقَاكَ اللهُ مَا تَخْشَى !! وَوَالَى عَلَيْكَ بِصُنْعِهِ الْمُغْدَى الْمُرَاحِ !![3]

فَلَوْ أَنَّ السَّـــعَادَةَ سَوَّغَتْنَا تِجَارَتَهَا الْمَلِيَّةَ بِالرِّبَاحِ[4]

---

(١) المعنى : كيف تمرضك الليالي وأنت شفاؤها من كل مرض ؟ وكيف تجحد فضلك وقد أزلت قبحها وأظهرت زينتها وحسنها الوضاء ؟

(١) شام البرق : تطلع إليه ؛ بيض الصفاح : السيوف اللامعة ؛ والمعنى : لو سفرت هذه الدنيا عن حقيقتها الكالحة فى الأذى والإساءة لردتها عن شرورها بقوة السلاح .

(٣) المعنى : حفظك الله من كل سوء تخشاه ، ووالى عليك آلاءه ونعمه فى غدوك ورواحك ، وفى صباحك ومسائك .

(٤) فى نسخة ا « المُلِثَّة بالرّباح » من أَلَثَّ بالمكان : أقام به ، وفى الحديث الشريف « لا تُلِثُّوا بدار مَعْجَزة » أى بدار تعجزون فيها عن الكسب ، وأَلَثَّ السحاب : دام ، قال الشاعر :

فى روضـــة من رياض القطا ألثّ بهـا عارضٌ مُمطـــر

وفى نسخ ب ، ت ، ز « المَلِيَّة بالرّباح » والمليّ هو الزمن الطويل ومنه قوله تعالى « واهجرنى مليا » وهو مليٌّ بكذا وملىء به : ثقة فيه جدير بأدائه أو هو ثرىٌّ واسع الثراء ؛ الرّباح والرِّبح : الكسب ؛ « والمعنى : مرتبط بالبيت التالى » .

تجافَيْنا — عَبيدَكَ — عَنْ نُفُوسٍ
ـ عَلَيْكَ مِنَ الضَّنَى ـ حَرَّى شِحاحِ[1]
تُهنّأُ فيكَ بالْبُرْءِ المُوَفَّى وَتَبْهَجُ مِنْكَ بالْأَلَمِ المُزاحِ[2]

* * *

فَدَيْتُكَ كَمْ لِعَيْنِي مِن سُمُوٍّ ـ لَدَيْكَ ـ وَكَمْ لِنَفْسِي مِن طِماحِ[3]
أَلَا هَلْ جاءَ مَنْ فَارَقْتُ أَنِّي بِساحاتِ المُنَى رَفِلُ المِراحِ[4]

(١) تجافَى : لم يلزم مكانه ومال من جانب إلى جانب أو تنحى عن الشيء ، ومنه قوله تعالى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » ؛ الضَّنَى : السقام ؛ حرَّى : عطشى ؛ شِحاح : جمع شحيح وهو الحريص ؛ ومعنى البيتين : لو سوّغتنا السعادة رِ نَجحها الدائم المتواصل لضحينا فى سبيلك بنفوسنا المستعبدة لك ، الحريصة على إبلالك ، الظمأى إلى شفائك « ونصب عبيد هنا على الاختصاص » .

(٢) المعنى : إن نفوسنا الحريصـــة على شفائك تتلقى التهنئة بمعافاتك وتبتهج بإزاحة الآلام عنك .

(٣) الطِّماح والطُّموح : التطلّع إلى أمر عالٍ ، مِنْ طمحَ بصره إلى الشيء ، وطمح ببصره إليه : استشرف له وارتفع ؛ والمعنى : أفديك أيها الملك العظيم ؛ إن بصرى يتعلق لديك بمعالى الأمور ونفسى تتطلع عندك للمجد الأثيل

(٤) رَفَلَ رَفْلا : جرّ ذيله وتبختر أو خطر بيده ؛ ورُجلٌ رَفِلٌ : يجر ذيله تيها ، وعيشة رَفيلة : واسعة سابغة ؛ فى نسخة ا ، ب « رفل البراح » والبراح : هى الأرض الواسعة أو المكان المكشوف دون شجر أو بناء ، أو الأمر الواضح . وفى نسخة ت ، ز « رَفيل المِراح » والمِراح والمَرَح : شدّة الفرح والنشاط ؛ والمعنى : أيعلم من فارقته ورحلتُ عنه أننى وجدت خيرا منه ؛ وأننى أجر ذيول التيه والغبطة فى أرحب مكان تحت ظلال ملك كريم؟
« والشاعر يُعرِّضُ هنا بأبى الحزم بن جهور » .

وَأَنَّى - مِنْ ظِلَالِكَ - فِى زَمَانٍ ... نَدِى الآصَالِ رَقْرَاقِ الضَّوَاحِى (١)

تُحَيِّينِى بِرَيْحَانِ التَّحَفِّى ... وَتُصْبِحُنِى مُعَتَّقَةَ السَّمَاحِ (٢)

فَهَا أَنَا قَدْ ثَمِلْتُ مِنَ الأَيَادِى ... إِذَا اتَّصَلَ اغْتِبَاقِى فِى اصْطِبَاحِى (٣)

فَإِنْ أَعْجِزْ فَإِنَّ النُّصْحَ ثَقْفٌ ... وَإِنْ أَسْكَرْ فَإِنَّ الشُّكْرَ صَاحِى (٤)

---

(١) نَدِىَ الشىءُ : ابتلَّ فهو نَدٍ ؛ الآصال : جمع أصيل وهو مابعد العصر إلى المغرب ؛ رقراق : لألاء ولمان ؛ الضواحى : جمع ضاحية وهى السماء أو النجوم وليلة ضَحْيَاء وضَحْيَا : مضيئة ؛ والمعنى : أيعرف من هجرتَه إليك أننى حللتُ لديك فى مكان رحب فسيح ؟ وعشتُ فى زمان طيب لطيف الآصال وضَّاء العشيات ؟

(٢) الريحان : نبات طيب الريح أو كل نبات عطرى ؛ التحفى : المبالغة فى الإكرام ؛ صبَّحَهُ : سقاه الخمر فى الصباح ؛ المتقة : الخمر القديمة الجيدة ؛ السماح : الجود ؛ والمعنى : لقد غمرتَنى بحفاوتك وإحسانك فحييتنى بأزهار مودّتك ، وأدرتَ علىّ من جودك كئوسا معتقة تنعش الأرواح والأجسام .

(٣) ثَمِلَ : سَكِرَ ؛ الأيادى : المنن ؛ الاغتباق : شربُ الراح فى المساء ؛ والاصطباح : شربها فى الصباح ؛ والمعنى : لقد أسديتَ إلىّ أكرمَ الأيادى وأرويتنى بآلائك سواء فى الصباح أو المساء حتى انتشيتُ من سلاف جودك الغزير .

(٤) ثقفٌ : حاذق خفيف ، وثَقَفَهُ : ظفِرَ به أو أدركه فهو ثَقْفٌ ؛ قال تعالى « فإمَّا تَثْقَفَنهُم فى الحرب فشرّدْ بهم مَنْ خلفَهم » إى إذا صادفْتَهم وظفرتَ بهم فاجعلهم عبرة لغيرهم ؛ والمعنى : إذا عجزتُ عن العمل بأن فكرى وحذقى لن يعجزا عن تقديم النصيحة ؛ أو فإن النصيحة يمكن إدراكها والظفرُ بها لتقديمها إليك ؛ وإذا سكرتُ من كئوس نعمائك فإن شكرى لك لن يعجزه السكر أو تضمنه نشوة الراح ؛ وفى ب ، ت ز « فإن السكر صاحى »

لِمَا أَكْسَبْتَ قَدْرِى مِنْ سَنَاء ... وَمَا لَقِيَتْ سَعْيِى مِنْ نَجَاحٍ [1]

* * *

لَقَدْ أَنْزَلْتَ – فِى الآمَالِ – حُكْمِى ... وَأَجْرَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى اقْتِرَاحِى [2]

وَهَلْ أَخْشَى وُقُوعاً – دُونَ حَظِّى – ... إِذَا مَا أَثُّ رِيشُكَ فِى جَنَاحِى [3]

فَمَا اسْتَسْقَيْتُ مِنْ غَيْمٍ جَهَامٍ ... وَلاَ اسْتَوْرَيْتُ مِنْ زَنْدٍ شَحَاحٍ [4]

وَوَاصَلَنِى جَمِيلُكَ – فِى مَغِيبِى – ... وَطَالَعَنِى نَدَاكَ مَعَ انْتِزَاحِى [5]

---

(١) السناء : الرفعة ؛ لقّاه الشيء : ألقاه إليه ، قال تعالى « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » ؛ والمعنى : سأقدم لك نصيحتى وشكرى لما أعليت من شأنى وما أنجحت من سعيى .

(٢) فى ب ، ت ، ز « على افتراح » ؛ والمعنى : لقد حققت لى ما أشتهيه من الآمال، وأنزلت على حكمى تصاريف الزمان .

(٣) فى الأصول « من جناحى » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ أث النبات : كثر والتف ؛ الريش : ما يكسو جسم الطائر ، ومن معانيه : اللباس الفاخر أوالخصب أوالمعاش ؛ والمعنى : كيف أهوى من علياء سمائك قبل الوصول إلى ما أتمناه ؟ وقد قوّيت جناحى بريشك وحليتنى بحلية إيناسك فأخصب ربعى بعـــد إجداب .

(٤) فى ب ، ت ، ز « غيث جهام » والغيث هو المطر ، والغيم هو السحاب؛ الجهام : السحاب الذى لاماء فيه ؛ استورى : طلب النار ؛ الزند : العود الذى يقدح به النار وهو الأعلى ، شحاح : بخيل ، وزند شحاح : لا يقدح النار ؛ والمعنى: أملت فى الملك آمالا واسعة فصدقت آمالى فيه ، لأننى رجوت سحابا ممطرا لا جهاما ، وزندا واريا لاضنينا .

(٥) المعنى : لقد أحسنت إلىَّ أيها الملك سواء كنتُ قريباً منك أو نازحاً ==

وَلَمْ أنفكَّ – إذ عدَتِ الْعَوادِى – إليكَ رَهِينَ شَوْقٍ وَالْتِيَاحِ (١)
فَحَسْبِى أنتَ – مِنْ مُسْدٍ لِنُعْمَى – وَحَسْبُكَ بِى بِشُكْرٍ وَامْتِدَاحِ (٢)

صهر كريم

فى خلال هجرة الشاعر الأولى إلى إشبيلية صاهر المعتضد

مجاهداً أبا الجيش الموفق أمير دانية (٣) فهنأ الشاعر المعتضد بهذه القصيدة :

أخطُبْ فملْكُكَ يَعْقِدُ الإملاكا وَأطِلْ فَسَعْدُكَ يَضْمَنُ الإدْرَاكا (٤)

= عنك ، فما زلت تواصل إحسانك إلىّ وأنا نائى الدار بعيد المزار .

(١) فى ت « إن عدت العوادى » ؛ الالتياح : الظمأ ؛ والمعنى : ما زلتُ على رغم العوادى ظامئاً إلى وِرْدِك ، متعلقاً بك ، مؤملا فيك .

(٢) المعنى : ما أكرمك من مانح للنعم جواد بالهبات!! وما أعظم شأنى من قائم بالشكر مُدَبِّج للثناء!!.

(٣) دانية : فرضة بشاطىء الأندلس الشرقى على البحر الأبيض المتوسط حصينة الموقع يحُفُّها التين والكروم واللوز ، وبها مصنع لبنـــاء السفن « ترسانة » ومنها كانت الأساطيل تخرج للتجارة أو للجهاد ؛ وتتبعها جزر مينورقة وميورقة ويابسة ، وأميرها مجاهد العامرى كان فقيهاً ورعاً ويعد من أفقه الدارسين لقراءات القرآن الكريم وتفسيره وعلوم العربية ، وقد ضم بلاطه نخبة من أعلام القراء والفقهاء والأدباء ، وهو بلى هذا قائد بحرى عظيم غزا سردينية فى مائة وعشرين سفينة فافتتحها وفرض عليها الجزية إلى حين ، وملك كثيراً من الجزر شرقىّ شاطىء الأندلس وهدد شواطىء فرنسا وإيطاليا وتوفى سنة ٤٣٦ هـ .

(٤) الإملاك والملاك : عقد الزواج يقال : مَلَّكَ الفتاةَ أى زوَّجها ، =

وَصِلِ النُّجُومَ بِحَظِّ مَنْ لَوْ رَاتَهَا   هَجَرَتْ إِلَيْهِ زُهْرُهَا الْأَفْلَاكَا[١]
(واسْتَهْوِ مِنْ أَحْمَى) مَرَاتِعِهَا الْمَهَا   فَالصَّعْبُ يُسْمِحُ فِي عِنَانِ هَوَاكَا[٢]

* * *

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي تَدْبِيرُهُ   أَضْحَى لِمَمْلَكَةِ الزَّمَانِ مِلَاكَا[٣]
هٰذِي اللَّيَالِي بِالْأَمَانِي سَمْحَةٌ
فَمَتَى تَقُلْ : « هَاتِي » تَقُلْ لَكَ : « هَاكَا »[٤]

=وأملكه فلانةَ : زوّجه إياها ؛ الإدراك : اللحاق ؛ والمعنى : اخطب هذه الفتاة الكريمة فإنّ ملكك بحاجة إلى ما يقويه من صهر كريم ، واطلب ما تشاء فإن حظك الحسن كفيل بإبلاغك ما تتمناه .

(١) الزُّهر : جمع زهراء وهي الكوكب النيّر أو المرأة المشرقة الوجه يقال: (كأنّ زَهرَ النجوم « أي زهر النبات » زُهرُ النجوم) ؛ الأفلاك : مواقع النجوم ؛ والمعنى : صل أسرتك الكريمة بنجوم هذه الأسرة العريقة ، فإنك صهر كريم لو طلبتَ النجوم النيرات لهجرت أفلاكها إليك .

(٢) استهوى : استنزل مِنْ هَوَى يهوِي إذا سقط إلى أسفل، ويقال للرجل الماهر : يستنزل العصم « أي الظباء التى فى أرجلها بياض وسائرها أسود أو أحمر » ، أو استهوى بمعنى أثار الهوى وجذب إليه شخصاً آخر ،أو ذهب بهواه وعقله مِنْ هَوِيَ يَهْوَى أى أحبّ ؛ المَهَا : جمع مهاة وهى البقرة الوحشية ويضرب بها المثل فى سعة عينيها وجمالها ، والمهاة أيضاً : الشمس؛ يسمح : يسهل ، وأسمحتْ الدابة : لانتْ بعد الجموح ؛ والمعنى : اجذب إلى هواك هذه الفتاة الرائمة من حماها المنيع ، فكل صعب يسهل إذا جذبته بعنان حبك

(٣) ملاك الأمر : قوامه وعماده ؛ والمعنى : إن حسن تدبيرك أيها الملك أصبح عماداً للملك لا ينهض المُلك على سواه .

(٤) المعنى : لقد جادت الأيام عليك بما تشتهيه ، فإذا قلت لها هاتى قالت لك خذ ما تشاء .

فَاعْقِلْ شَوَارِدَهَا إِزَاءَ عَقِيلَةٍ وَافَتْ مُبَشِّرَةً بِنَيْلِ مُنَاكَا (١)
أَهْدَى الزَّمَانُ إِلَيْكَ مِنْهَا نُخْبَةً لَمْ تَعْدُ أَنْ قَرَّتْ بِهَا عَيْنَاكَا (٢)
كَالشَّمْسِ تَوَارَتْ ـ فِى ظَلَامِ مَضِيعَةٍ ـ ثُمَّ اسْتَطَارَ لَهَا السَّنَا بِسَنَاكَا (٣)
قُرِنَتْ بِبَدْرِ التِّمِّ كَافِلَةً لَهُ
أَنْ سَوْفَ تُنْجِبُ فَرْقَدَيْنِ سِمَاكَا (٤)

---

(١) عقل البعير : قيّده ؛ الشوارد : جمع شاردة أى نافرة ؛ العقيلة : كريمة الحىّ ؛ والمعنى : اجمع الآمال النافرة إليك وقيّدها بغنائك مقرونة بهذه الفتاة الكريمة التى تُشيعُ من حولها أعذبَ الآمال .

(٢) النخبة : المختار ؛ لم تَعْدُ : لم تتجاوزْ ؛ والمعنى : اختار الزمان هذه الأميرة هدية قيمة لك ، أقرَّبها عينيك ومنحك السعادة والنعيم .

(٣) فلانٌ بدار مَضِيعَة أو مَضْيَعَة : أى فى موضع ضياع أو هلكة ، أو فى مفازة منقطعة ؛ قال الشاعر :

وهــو مقيمٌ بدار مَضْيَعَة شعــاره فى أموره الكسلُ

استطار : انتشر ؛ السنا : الضوء ؛ والمعنى : كانت الأميرة مجهولة فى خدرها كالشمس خَلفَ السحاب ، حتى اجتذبتَها إليك فانتشر ضوؤها تحت أشعتك الوضاءة .

(٤) فى نسخة ت « قرّت ببدر التّمّ » أى سُرَّتْ به ؛ الفرقدان : نجمان قريبان من القطب ؛ السِّماك : أحد نجمين نيرين أحدهما الرامح والآخر الأعزل؛ والمعنى : هذه الشمس النيرة اقترنت بك أيها القمر الوضّاء ضامنة لك أن تنجب لك نجما نيرًا ينضمُّ إلى ولديك النجيبين « والقصيدة توحى بأن زوجة الأمير الأولى توفيت بعد أن أنجبت له ولدين ؛ ونحن نعرف أن إسماعيل والمعتمد نجلاهما الأمير، وهو ولىٌّ للعهد ، ولما تولى الملك ومات زوجه ساهر مجاهداً أمير دانية وفى هذا الصهر صاغ شاعرنا هذه القصيدة » .

هِيَ وَالْفَقِيدَةُ كَالْأَدِيمِ اخْتَرْتَهُ ... فَقَدَدْتَ إِذْ خَلَقَ الشِّرَاكُ شِرَاكَا (١)

فَاصْفَحْ عَنِ الرُّزْءِ الْمُعَاوِدِ ذِكْرُهُ ... وَاسْتَأْنِفِ النُّعْمَى، فَتِلْكَ بِذَاكَا (٢)

* * *

لَمْ يَبْقَ عُذْرٌ فِى تَقَسُّمِ خَاطِرٍ ... إِلَّا الصُّبَابَةُ مِنْ دِمَاءِ عِدَاكَا (٣)

كَفَّارِ أَنْعُمِكَ الْأُلَى حَلَّيْتَهُمْ ... أَطْوَاقَهُمْ، سَيُطَوَّقُونَ ظُبَاكَا (٤)

أَعْرِضْ عَنِ الْخَطَرَاتِ، إِنَّكَ إِنْ تَشَأْ ... تَكُنِ النُّجُومُ أَسِنَّةً لِقَنَاكَا (٥)

هُصِرَ النَّعِيمُ بِعِطْفِ دَهْرِكَ فَانْثَنَى ... وَجَرَى الْفِرِنْدُ بِصَفْحَتَىْ دُنْيَاكَا (٦)

---

(١) الأديم : الجلد ؛ خلق : بَلِيَ ، الشراك : سَيْرُ النعل ؛ والمعنى : لقد ماتتْ زوجك الأولى فاستبدلت بها هذه الفتاة كما يستبدل الإنسانُ رباط النعل بغيره، وفى نسخة : « هى والقميدة » والقميدة هى الزوجة .

(٢) فى نسخ ب ، ت ، ز « فتلك فداكا » ؛ والمعنى : إذا كانت زوجك الأولى ماتت فاصفح عن إساءة الزمان إليك ، واستأنف النعمة بالزوج الجديدة فإن السعادة كفيلة بمحو الإساءة ، أو فإن الفقيدة كانت فداء لك من كل الأسواء .

(٣) الصُّبابة : بقية السائل فى الإناء ؛ والمعنى : ينبغى أن تفرغ للمتعة الجديدة ، وألا تشغل خاطرك بأمر من الأمور ، فلا مبرر للانشغال عن متعتك إلا إذا كنت تفكر فى سفك الدماء الباقية فى جسوم الأعداء .

(٤) الظُّبَا : جمع ظُبَة وهى حد السيف أو السنان ؛ والمعنى : هؤلاء الأعداء كفروا بنعمتك التى طوقتهم بها فهم حريُّون بأن تطوقهم بسيوفك .

(٥) المعنى : لا تشغل بالك بأمر هؤلاء الأعداء ، فإن سعدك كفيل بالقضاء عليهم ، فلو أردت حربهم لكانت النجوم أسنة لرماحك .

(٦) هصر الغصنَ : أخذ برأسه فأماله إليـــه ؛ العطف : الجانب ؛ فرند السيف : صفحته أو جوهره ووشيه ؛ والمعنى : لقد طاب لك الدهر كأنّ السعادة =

وَبَدَا زَمَانُكَ لَابِساً دِيبَاجَةً   تَجْلُو لِعَيْنِ المُجْتَلِي سِيمَا كَا[1]

دُنْيَا لِزَهْرَتِهَا شُعَاعٌ مُذْهَبٌ   لَوْ كَانَ وَصْفاً كَانَ بَعْضَ حُلَا كَا[2]

فَتَجَلَّ فِي فُرُشِ الكَرَامَةِ نَاعِماً   وَاعْقِدْ بِمَرْتَبَةِ السُّرُورِ حُبَا كَا[3]

وَأَطِلْ - إِلَى شَدْوِ القِيَانِ - إِصَاخَةً   وَتَلَقَّ مُتْرَعَةَ الكُئُوسِ دِرَا كَا[4]

ثَحَثَّهَا - مَثْنَى - مَثَانِي غَادَةٍ   شَفَعَتْ بِحَثِّ غِنَائِهَا الإِيْنَا سَا كَا[5]

= مالت على عطفه منجذبة إليك، وصفت لك الحياة وازدهرت كأنما تزينت صفحتها بالوشى المنوق المنضود.

(١) الديباج: ثوب سداه ولحمته الحرير؛ تجلو: تُظهر؛ المجتلي: الناظر؛ السيما والسيمة والسيماء والسيمياء: العلامة، قال تعالى «سيماهم في وجوههم من أثر السجود»؛ والمعنى: ظهر الزمان في حُلَّة قشيبة تبدى للمتطلمين مظهراً رائعاً من مظاهرك التي تبهر الناظرين.

(٢) زهرة الدنيا: بهجتها ونضارتها وحسنها؛ مُذْهَب ومُذَهَّب: مموه بالذهب؛ والمعنى: تجلت دنياك في بهجة ونضارة ترسل أشعتها الذهبية التي تذكرنا بصفاتك وآلائك.

(٣) الحبا: جمع حبوة وهي جلسة مريحة يجمع الجالس فيها تخذيه إلى بطنه ويشتملهما بردائه أو بيديه؛ والمعنى: تقلب في مهاد النعيم وتبوأ مراتب السرور.

(٤) شدو القيان: غناء الجوارى؛ إصاخة: استماع؛ الكئوس المترعة: الممتلئة؛ الدِّراك: المتابعة؛ والمعنى: تمتع بالاستماع إلى سجع القيان. وموالاة رشف الدنان.

(٥) حثه واحتثه: حضه، مَثْنَى: اثنان مقترنان تقول: جاءوا مثنى ومُثَنَاة أي اثنين اثنين، والثانى: جمع مثنى وهو الوتر الثانى من العود؛ غادة: امرأة ناعمة؛ والمعنى: تدعوك مثانى أوتار غادة حسناء إلى مواصلة الشراب مثنى

مَا الْعَيْشُ إِلاَّ فى الصَّبُوحِ بِسُحْرَةٍ قَدْ جَسَّدَتْ أَنْوَارُهَا الْأُحْلاَ كَا(١)

* * *

لَكَ أَرْيَحِيَّةُ مَاجِدٍ، إِنْ تَعْتَرِضْ فى لَهْوِ رَاحِكَ تَسْتَهِلُّ لُهَاكَا(٢)
مَنْ كَانَ يَعْلَقُ فى خِلاَلِ نِدَامِهِ ذَمٌّ بِبَعْضِ خِلاَلِهِ فَخَلاَ كَا(٣)
أُسْبُوعُ أُنْسٍ مُحْدِثٌ لِىَ وَحْشَةً عِلْماً بِأَنِّى فِيهِ لَسْتُ أَرَاكَا(٤)

= مثنى وهى تشدو بصوتها الفتان فتطلقه حينا وتحجزه حينا فتتلاعب بالقلوب كما تتلاعب بالألحان.

(١) الصبوح: الشرب بالغداة وهو ضد الغبوق؛ السَّحَر: قبيل الصبح، والسُّحْرةُ: السحر الأعلى أى قبلَ السَّحر تقول: أتيته بسحَر وبسُحْرة قال أبو نواس:

ذكر الصبوح بسُحْرة فارتاحا وأَمَلَّهُ ديك الصباح صياحا

جسَّدَ الثوبَ: صبغه بالجساد وهو الزعفران؛ وفى الأصول «جاسدت» ولم نجد هذا الفعل فيما رجعنا إليه من المعاجم: والمعنىَ: ما لذة العيش إلا فى شرب الصباح البكر وقد صبغت أضواءُ الفجر الأفقَ بالشفق الأحمر كالزعفران.

(٢) الأريحية: الارتياح والاهتزاز للجود؛ ماجد: كريم الآباء، قال ابن السكيت: الحسب والكرم يكونان بدون الآباء، والشرف والمجد لا يكونان إلا بالآباء؛ الراح: الخمر؛ استهلّ الطرُ وانهلّ وهلّ: اشتد انصبابه، اللُّها: جمع لُهوة ولُهية وهى أفضل العطايا وأجزلها؛ والمعنى: قد تتذكر فى وقت اللهو والشراب أريحيتك ومجدكَ وكرمك فتسخو بالهبات الوافرات.

(٣) النِّدامُ: المجالسة على الشراب؛ والمعنى: إذا كان الشراب يدفع الإنسان أحياناً إلى عمل ما يذم عليه فإنك أنت وحدك لا يغيرك عن مآثرك الشراب.

(٤) الوحشة: الخلوة أوالهم؛ والمعنى: ستحتجب عنى أسبوعَ الزفاف فتحدث لى وحشة لبعدك وعدم تمتعى بمرآك.

فَأنَا المُذَبُ غَـيْرَ أنِّى مُشْعَرٌ ثِقَةً بِأنَّكَ نَاعِمٌ فَهَنَاكَا[١]

أنَّى أقُومُ بِشُكْرِ طَوْلِكَ بَعْدَ مَا مَلأتْ مِنَ الدُّنيا يَدَىَّ يَدَاكَا؟[٢]

بَرَدَتْ ظِلاَلُ ذَرَاكَ ، وَاحْلَوْلَى جَنَى نُعْمَاكَ لِى ، وَصَفَتْ جِمَامُ نَدَاكَا[٣]

وَأمِنْتُ عَادِيَةَ العِدَا الأقْتَالِ مُذْ أعْصَمْتُ فى أعْلَى يَفَاعِ حِمَاكَا[٤]

جَهْدُ المُقِلِّ نَصِيحَةٌ مَمْحُوضَةٌ أفْرَدْتَ مُهْدِيهَا فَلاَ إشْرَاكَا[٥]

---

(١) فى الذخيرة « وأنا المذنب » ، مُشْعَرٌ : عالمٌ مِنْ أشعره فشعرَ أى أدراه فدرى ؛ والمعنى : إننى متألم لبعدك ولـكنْ يخفف آلامى علمى بأنك ناعم سعيد فهنيئاً لك السعادة والنعيم .

(٢) أنىَّ ؟ : كيف ؟ ؛ الطَّوْل : الغنى أو الفضل ؛ والمعنى : كيف أقوم بشكر أياديك الجسام بعد أنْ ملأتْ يدىَّ بخيرك العميم ؟

(٣) الذَّرا : كل ما أظل الإنسان أو أحسن إليه ، تقول : أنا فى ذراه أى فى كنفه وستره ودثه ؛ احلَوْلَى : حَلاَ أو استحلى ؛ الجنى : الثمر الغض ؛ الجمام : المياه الغزيرة ؛ والمعنى : طابت لى الحياة عندك فبردت ظلالها وحلت ثمارها وصفت مياهها ، فما أعظم نداك !!

(٤) عادية : طليعة المقاتلين ؛ الأقتال : جمع قِتْل وهو العـدو أو المقاتل ؛ أعصمت : احتميت مِنْ أعصم أى تشـدَّد واستمـسك بشىء خشية الوقوع ؛ اليفاع : المكان المرتفع ؛ والمعنى : منذ لجأت إليك واحتميت بحماك أمنتُ ضراوة الأعداء المقاتلين .

(٥) الجهـد (بفتح الجيم وضمها) : الطاقة ، ومنـه قوله تعالى « والذين لا يجدون إلا جهدهم » ؛ وجهد المقل : أقصى ما يستطيعه المعدم أو الضعيف ؛ والمعنى : أقصى ما أستطيع بذله من جهدى المتواضع أن أقدم لك النصيحة الخالصة ، وقد أفردتنى بالاستشارة وجعلتنى الناصح المفرد الأمين .

وَثَنَاءٍ مُحْتَفِلٍ كَأَنَّ ثَنَاءَهُ ... مِسْكٌ بِأَرْدَانِ الْمَحَافِلِ صَاكَا (١)

وَلِتَدْعُنِي وَعَدُوَّكَ الشَّانِي ، فَإِنْ ... يَرُمِ الْقِرَاعَ يَجِدْ سِلَاحِي شَاكَا (٢)

* * *

لَا تَعْدَمَنَّ الْحَظَّ غَرْساً مُطْلِعاً ... ثَمَرَ الْفَوَائِدِ دَانِياً لِجَنَاكَا (٣)

وَالنَّصْرَ جَاراً لَا يُحَاوِلُ نُقْلَةً ... وَالصُّنْعَ رَهْناً لَا يُرِيدُ فِكَاكَا (٤)

وَإِذَا غَمَامُ السَّعْدِ أَصْبَحَ صَوْبُهُ ... دَرَكَ الْمَطَالِبِ فَلْيَصِلْ سُقْيَاكَا (٥)

فَالدَّهْرُ مُعْتَرِفٌ بِأَنَّا لَمْ تَكُنْ ... لِقُصَّرٍ مِنْهُ ـ بِسَاعَةٍ ـ لَوْلَاكَا (٦)

---

(١) احتفل بالأمر وحفل به : اهتمّ به اهتماماً شديداً ؛ الأردان : أكمام القميص أوثياب الخز ؛ صاك : لصق ؛ المعنى : عندى لك النصيحة الخالصة والثناء العاطر كأنه مسك تعطرت به أبراد المجتمعات .

(٢) الشانى : المبغض ؛ القراع : القتال ؛ شاك : ظهرت شوكته وحدّته ؛ والمعنى : عندك لك النصيحة الخالصة والثناء العاطر والدفاع القوى ، فادعنى إلى عدوك البغيض ، فإذا أراد القتال قابلته بالأسلحة الفتاكة المدمرة .

(٣) المعنى : لا زال الحظ الحسنُ حليفاً لك يثمر أعظم الفوائد ويقدمها إليك فى سهولة ويسر .

(٤) الصنع : عمل المعروف ؛ والمعنى : لا زال النصر محالفاً لك لا يبارحك ؛ والمآثر الجيدة موقوفة عليك لا تزايلك .

(٥) فى ب ، ت ، ز . « وإذا حمام السعد » ؛ صوب المطر : نزوله ؛ والمعنى : أدعو الله أن تهطل عليك أمطار السعود مؤذنة لك ببلوغ الآمال .

(٦) فى الأصول « معترف بأنك » ولا يستقيم المعنى إلا بما ذكرنا ؛ والمعنى : إن الدهر يعترف معنا بأنك مصدر سعادتنا ونعيمنا ، ولولاك ما صفت لنا ساعة واحدة من ساعات الحياة .

فتى المجد [1]

« بعث الشاعر بهذه الأبيات إلى المعتضد، ونرجح أنه كتبها بعد عودته إلى قرطبة ، ومن المعروف أن إشبيلية تقع إلى الغرب منها »

كَمْ لِرِيحِ الْقُرْبِ مِنْ عَرْفٍ نَدِى
كَالشَّرَابِ الْعَذْبِ فِى نَفْسِ الصَّدِى [2]

---

(١) إذا جعلنا رويّ هذه الأبيات الأربعة حرف الدال : اتّسق معها البيت الأول ؛ ومن الممكن أن يتسق البيتان الثانى والثالث بتخفيف الياء المشدّدة فيهما ؛ والخليل والأخفش يجيزانه حيث يريان : « أن الياءين إذا أُدْغِمَتْ إحداهما فى الأخرى صارتا بمنزلة الحرف الواحد ، وصار التزام التشديد اختياراً من الشاعر وإلاّ فتركُ التشديد جائز له » وقد درج على هذا الشعراء ؛ أما البيت الأخير فحذف آخره ضرورة غير مقبولة ، ولم نجده محذوف الآخر فيما رجعنا إليه من كتب اللغة .

وإذا جعلنا الرويّ حرف الياء لم يستقم معنا البيتان الأول والرابع إلا بالإدغام والإبدال (وهما لغة فاشية) بعد أن نصوغ منهما صفة مشبهة على وزن (فَعِيل) ، ولكن اشتقاق الصفة المشبهة غير قياسى ؛ ولم نجد فيما رجعنا إليه من كتب اللغة كلمة (صدِىّ) بمعنى ظامىء أو علاه الصدأ .

ولهذا آثرنا جعل الروى حرف الدال لأنه أقل ارتكابا على الضرورات .

(٢) العَرْف : الريح طيبة أو خبيثة والاستعمال الأول أكثر ؛ ندِ : رطب ؛ صدِ : ظمآن ؛ والمعنى : كلما هبت ريح القرب الطيبة الندية فعلت بنا ما يفعله الشراب العذب فى إرواء العليل .

حَيْثُ « عَبَّادٌ » فَتَى المَجْدِ الَّذِى ... نُصَّتْ الدُّنْيَا بِهِ نَصَّ الهَدَى[1]

مَلِكٌ رَاحَتُهُ بَحْرُ النَّـدَى ... مِثْلَمَا غُرَّتُهُ بَدْرُ النَّدِى[2]

أَصْبَحَتْ دَوْلَتُهُ فى عَصْرِنَا ... كَفِرِنْدٍ عَادَ فى سَيْفٍ صَدِى[3]

الملوك الصيد

هاجر الشاعر إلى إشبيلية للمرة الثانية سنة ٤٤١ هـ واستقر بها ، وقد استهل حياته الجديدة فى خدمة المعتضد بهذه القصيدة العصماء .

الحُبُّ – فى تِلْكَ القِبَابِ – مَرَادُهُ ... لَوْ سَاعَفَ الـكَلِفَ المَشُوقَ مُرَادُ[4]

(١) نصّ العروسَ : أقعدها على المنصة ؛ الهدِىُّ والهديّةُ : العروس ، قال أبو ذؤيب :

بِرَقْمٍ وَوَشْيٍ كما نُمْنِمَتْ ... بِمِشْيَتِها المُزْدَهاةِ الهَدِىّ

والمعنى : طاب الغربُ ببلاد الماجد الـكريم الذى ازدانت به الدنيا كما تزدان العروس المجلوة ليلة الزفاف .

(٢) الراحة : الـكف ؛ الندى : النادى وهو مجلس القوم ومتحدثهم نهاراً ، وقيل هو المجلس ما داموا مجتمعين فيه فإذا تفرقوا زال عنه هذا الاسم ؛ والمعنى : أنه ملك سخى تفيض كفه بالندى كالبحر ، جميلٌ يتألق جبينه كالبدر ، فتزدان به المحافل والمجالس .

(٣) فرند السيف صفحته أو حليته روشيه ؛ صَدٍ : علاه الصدأ ؛ والمعنى : إزدهرت دولته فى عصرنا بعد ذبول ، كما يتألق السيف الصدئُ ويعود إليه وشيه ورونقه بعد الجلاء .

(٤) فى نسخ ب،ت ، ز «لو ساعد» ، المَرَاد : موضع الارتياد وهو طلب =

لِيَغُرْ هَوَاكِ ، فَقَدْ أَجَدَّ رِعَايَةً لِفَتَاةِ نَجْدٍ فِتْيَةٌ أَنْجَادُ[1]

كَمْ ذَا التَّجَلُّدُ ؟ لَنْ يُسَاعِفَكَ الْهَوَى بِالْوَصْلِ إِلاَّ أَنْ يَطُولَ جِلاَدُ[2]

أَعَقِيلَةَ السِّرْبِ الْمُبَاحَ لِوِرْدِهَا صَفْوُ الْهَوَى إِذْ حُلِّئَ الْوُرَّادُ[3]

مَا لِلْمَصَايِدِ لَمْ تَنَلْكِ بِحِيلَةٍ ؟ إِنَّ الظِّبَاءَ لَتُدْرَى فَتُصَادُ[4]

إِنْ يَعْدُ - عَنْ سَمُرَاتِ جِزْعِكِ - سَامِرٌ

فِى كُلِّ مُطَّلَعٍ لَهُمْ أَرْصَادُ[5]

المرعى ؛ الكَلِف : المحب ؛ مُراد : أمل ؛ والمعنى : للحب ذهاب وجيئة فى هذه القباب ، لو كانت الآمالُ تسعف المحب المولع ببلوغ هدفه المنشود .

(١) الغور تِهامة وهى منخفضة ؛ النَّجد : ما ارتفع من الأرض ، ونجد : من بلاد العرب وهو خلاف الغور ، فالغور تِهامة ، وكل ما ارتفع عن تِهامة إلى أرض العراق فهو نجد ؛ أنجاد : جمع نجد وهو الدليل الماهر أو الشجاع الماضى فيما يعجز غيره ؛ والمعنى : ينبغى أن تحول هواك عن نجد إلى الغور ، فإن فتاة نجد يحميها فتيان شجعان .

(٢) فى نسخ ب، ت ، ز « كم ذا التكلف لن يساعدك الهوى » ؛ والمعنى : إلام تصبر مع أن الهوى لن يسعفك ببلوغ آمالك إلا بعد طول الكفاح والنضال؟

(٣) العقيلة : كريمة الحىّ ؛ السرب : جماعة النّساء أو قطيع الظباء ؛ حَلاّه عن الماء : منعه وطرده ؛ والمعنى : أيتها الفتاة الكريمة المصونة ، لقد صفا الهوى فى موردك العذب ، ولكن المحبين الواردين على منهلك الصافى يُصَدُّون عنه فى عنف وجفاء .

(٤) ادَّرى الصيدَ وتدرّاه : خدعه حتى يقع فى حباله ؛ والمعنى : ما بال الحيل أعيتنى فى اصطيادك ؟ مع أن الظباء تُخدع فتقع فى الحبال .

(٥) يعدو : يصرف ؛ السمُرات والسَّمُر : جمع سَمُرَة وهى شجرة الطلح ؛ الجِزْعُ : منعطف الوادى ؛ السامر : المجتمعون للحديث السَّمَر ليلا ؛ أرصاد :

فَبِما تَرَقْرَقَ لِلْمُتَيَّمِ بَيْنَنا | غَلَلٌ – نَفَى حَرَّ الْغَلِيلِ – بُرَادُ (١)
أَنَا حِينَ أَطْرُقُ لَيْسَ يَفْتَأُ طَارِقِي | شَوْقٌ كَمَا طَرَقَ السَّلِيمَ عِدَادُ (٢)
يَنْهَى جَفَاؤُكِ عَنْ زِيَارَتِيَ الْكَرَى | كَيْلَا يَزُورَ خَيَالُكِ الْمُنْتَادُ (٣)
لا تَقْطَعِي صِـــلَةَ الْخَيَالِ تَجَنُّبًا | إِذْ فِيهِ مِنْ عَوَزِ الْوِصَالِ سِدَادُ (٤)

= حراس مراقبون ؛ وفى الأصول « فى كل مطلع لهم أرهاد » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ والمعنى : لقدحالت بيننا وبين الوصول إليك جوع من قومك محتشدون السمر حول خبائك، ولهم عيون ورقباء ُمـْـُدون لصونك وحمايتك .

(١) ترقرق : تلألأ ولمع ؛ الغلل : الماء الجارى بين الأشجار؛ البرود والبُراد: الماء البارد ؛ والمعنى : إذا حال قومك بيننا فلحرصهم على أن يحولوا بينى وبين المياه العذبة البارده النسابة قرب خبائك تحمل إلىّ طيبك وعبيرك فتشفى غليل نفسى الوالهة التى ألهبها الشوق والحنين • وفى نسخ ب . ت . ز . « يقى حر الغليل » •

(٢) السليم : اللديغ ؛ العداد : اهتياج وجع قديم ، وفى الحديث « ما زالت أكلة خيبر تُعادُّنى ... » ؛ والمعنى : إننى – حين أطرق برأسى متألماً حزيناً أفعل هذا لما يتعادنى من الشوق الملح والهوى المبرح كما يهيج الألم بالديغ حيناً بعد حين .

(٣) المعنى : لقد منع هجرُكِ النومَ عن زيارتى خشية أن يزورنى طيفُكِ فى المنام، وشبيه بهذا قوله ابن هانىء الأندلسى :

منعوكِ من سِنَةِ الكرى ، وسَرَوْا ، فلو
عثروا بطيفٍ طارقٍ ظنوكِ

(٤) العَوَز : الحاجة والضيق ؛ سداد القارورة : صمامها ، ومن المجاز قولهم : « فيه سِدادٌ من عَوَز ، وأصبتُ به سداداً من عيش » أى ما تُسَدُّ به الحاجة ؛ والمعنى : إذا كنت محروما من وصالك فلا تحرمينى من طيف خيالك – ففيه لى بعض المواساة عما أكابده من آلام وأشجان •

مَا ضَرَّ أَنَّكِ بِالسَّلَامِ ضَنِينَةٌ   أَيَّامَ طَيْفُكِ بِالْعِنَاقِ جَوَادُ[١]
هَلَّا حَمَلْتِ السُّقْمَ عَنْ جِسْمٍ لَهُ   فِي كِلَّةٍ زُرْتِ عَلَيْكِ فُؤَادُ[٢]
أَوْ عُدْتِ مِنْ سَقَمِ الْهَوَى ، إِنَّ الْهَوَى
مِمَّا يُطِيلُ ضَــــنَى الْفَتَى فَيُعَادُ[٣]
إِيهاً ! فَلَوْلَا أَنْ أُرَوِّعَكِ بِالسُّرَى   لَدَنَا وِسَادٌ أَوْ لَطَالَ سِوَادُ[٤]

---

(١) المعنى : كنت بخيلة علىَّ حتى بالسلام ، ولكن هوّنَ علىَّ هجرك أن طيفك كان كريما علىَّ ، فكان يصلنى فى المنام ويجود علىَّ باللثم والعناق .

(٢) الكِلَّة : نسيج رقيق يُنصب على الأسرَّة للوقاية من الحشرات ؛ والمعنى : هلاَّ أزحتِ السقم عن جسمى العليل وأنت تعلمين أن قلبى متصل بك حوّمَ عليك ؛ وفى ت « شزرت عليك » وفى ز « رزّت عليك » .

(٣) العِيادة والعُواده : زيارة المريض ؛ والمعنى : هلا أزلت سقمه أو عُدْته فى مرضه فإن الهوى يضنى الأجسام ويستدعى العواد .

(٤) إيهاً : اسكتْ وكفّ ، أَيْهاً : هيهات ، إيهٍ : اسم فعل أمر لطلب الزيادة من حديث أو عمل ، فإذا وصلتها نُوِّنَتْ ، وقيل إيهِ أمرٌ بالزيادة من حديث معهود ، وإيهٍ طلب أى حديث ؛ أروعك : أخيفك ؛ السرى : السير ليلا ؛ الوساد : المخدة ؛ السَّواد والسِّواد : المسارة والمناجاة ؛ ويقول شاعرنا فى رسالته الهزلية . « ومتى كثر تلاقينا ، واتصل ترائينا ، فيدعونى إليك مادعا ابنة الخس إلى عبدها من طول السواد وقرب الوساد » وابنة الخس هى هند بنت الخس الإيادى امرأة جاهلية شاعرة أديبة زنت بعبد لها فلما قرّعوها قالت معتذرة : « اقــد حلنى على ذلك قرب الوساد وطول السواد » وفى الحديث الشريف « السِّواد من السحر » . والمعنى : كفى عن الدلال ، فلولا أن أزعجك بطروقك ليلا لاقتحمت عليك خدرك فدنا وسادى من وسادك وطال تناجينا فظفرنا بالوصال

لَفَشِيتُ سَجْفَكَ فى مُلاَءَةِ نَثْرَةٍ ... فُضُلٍ ، سِوَى أَنَّ المِطَافَ نِجَادُ[١]
لأَمِيلَ فى سُكْرِ اللَّمَى ، فَيَبِيتَ لِى ... دِعَمًا حَوَى ذَاكَ السِّوَارُ - وِسَادُ[٢]
خَمْدِى المُنَى ، فَوَعِيدُ قَوْمِكِ لَمْ يَكُنْ ... لِيَعُوقَ عَنْ أَنْ يُقْتَضَى المِيعَادُ[٣]

* * *

أَصْبُو إِلَى وَرْدِ الخُدُودِ إِذَا عَدَتْ ... جُرْدٌ - تُبَلِّغُنِى جَنَاهُ - وِرَادُ[٤]
وَأَرَاحُ لِلْعِطْرِ السَّطُوعِ أَرِيجُهُ ... إِنْ شِيبَ بِالْجَسَدِ العَطِيرِ جِسَادُ[٥]

---

(١) السَّجف والسِّجف والسِّجاف : الستر أو الستران المقرونان وبينهما فرجة ؛ المُلاءة : ثوب لـيِّن رقيق من قطعة واحدة ؛ النثرة : الدرع الواسعة ؛ المطاف : الرداء أو السيف ؛ النجاد : حمائل السيف ؛ والمعنى : لولا مخافة إزعاجك لاقتحمت خدرك فى درع سابغة رحبة كالملاءة ، ورداء مكون من حائل السيف .

(٢) اللَّمَى : سواد الشفة ولعلها ناشئة من شدة الأحمرار وهى سمة من سمات الجمال ؛ والمعنى : لولا خشية إفزاعك لاقتحمتُ خدرك ورشفت ثغرك فمايلتُ من نشوة الحب وجعلت من سوارك لى خير وساد .

(٣) الوعد : التبشير ، والوعيد : الإنذار ؛ والمعنى : بشرينى بوصالك فإن تهديد قومك لن يحول بيننا وبين اللقاء .

(٤) صبا : مال إلى الجهل والفتوة ؛ عدَتْ : جرت ؛ الجرد : جمع أجرد وهو الفرس قصير الشعر رقيقه وهى صفة مستحبة فى الخيل ؛ الجَنَى : الثمر النض ؛ الوراد : جمع وَرْد وهو لون بين الحمرة القانية والشقرة فى الخيل ؛ والمعنى : تذكرنى الخيل الجرد الحمراء بلون الخدود فأهتز من الشوق إليها فأدفع خيلى عدْواً إلى جناها اليانع الشهى .

(٥) أراح : أطرب وأنشط ؛ الأريج : توهج ريح الطيب ؛ شِيبَ : مُـزِج =

عَزْمٌ إِذَا قَصَدَ الْحِمَى لَمْ يَثْنِهِ أَنَّ الْقَنَا ـ مِنْ دُونِهِ ـ أَقْصَادُ(١)
مَنْ كَانَ يَجْهَلُ مَا الْبَلِيدُ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَطَّبِيهِ ـ عَنِ الْحُظُوظِ ـ بِلَادُ(٢)
وَفَتَى الشَّهَامَةِ مَنْ ـ إِذَا أَمَّلَ سَمَا ـ نَفَذَتْ بِهِ شُورَى أَوِ اسْتِبْدَادُ(٣)

* * *

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْأَحِبَّةَ ـ إِذْ أَبَتْ ذِكْرَاهُمُ أَنْ يَطْمَئِنَّ مِهَادُ ـ(٤)
لَا تَيْأَسُوا !! رُبَّ دُنُوِّ دَارٍ جَامِعٍ لِلشَّمْلِ قَدْ أَدَّى إِلَيْهِ بِعَادُ(٥)

= الجساد : الزعفران ؛ والمعنى : إنى أشعر بالنشوة والارتياح إذا سطع عبير جسمك المعطر فى الأبراد المصبوغة بالزعفران .

(١) تقصّدت الرماح : تكسرت ، ورمحٌ قصيدٌ وأقصاد متكسر ؛ والمعنى : إن لى عزمة فتية قوية إذا شاءت بلوغ الحمى لم تثنها عن بلوغه الرماح المتكسرة من طول الطعان .

(٢) طبّيته واطّبيته عنه : صرفته ، وإليه : دعوته ؛ والمعنى : إن الغبىّ هو الذى يؤثر الإقامة مع الذلّ على الارتحال فى سبيل المجد .

(٣) المعنى : الفتى الأبىّ المقدام هو الذى يندفع إلى غاياته فى عزم وتصميم إذا اقتنع بأمر سواء كان اقتناعه ناتجا عن شورى أو عن استبداد ، وقريب من هذا قول سعد بن ناشب :

إذا همّ ألقى بين عينيه همّه ونكّب عن ذكر الحوادث جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

(٤) المعنى : إن ذكرى أحبابى الذين فارقتهم بقرطبة تؤرق مضجعى ، فهل من رسول يبلغهم عنى ما أريد ؟

(٥) المعنى : من ذا يبلغ أحبابى عنى ألا ييأسوا من اللقاء ؟ فقد يكون رحيلى عنهم سببا لقربى منهم ، فما رحلتُ عنهم بُغضاً لهم ، ولكن لأظفر =

إنْ أغْتَرِبْ فَمَوَاقِـعَ الكَرَمِ ـ الَّتِى
فى الغَـــرْبِ شِمْتُ بُرُوقَهُ ـ أرْتادُ[1]

أوْ أنأ عَنْ صِيدِ المُلُوكِ بِجَانِبِي	فَهُمُ العَبِيدُ مَلِيكُهُمُ « عَبّادُ »[2]
المَجْدُ عُذْرٌ فى الفِرَاقِ لِمَنْ نَأى	لِيَرَى الصَّنَائِعَ مِنْهُ كَيْفَ تُشَادُ[3]
يا هَلْ أَتَى مَنْ ظَنَّ بِي ـ فَظُنُونُهُ	شَتَّى تَرَجَّحُ بَيْنَهَا الأَضْدَادُ ـ[4]

= بآمالي التي تتيح لي الاجتماع بهم في سعادة ونعيم ؛ ومثل هذا قول عروة بن الورد :

تقول سليمى : لو أقمت لسرّنا   ولم تدر أنى للمقام أطوّف

(١) شام البرقَ : تطلع إليه ؛ ارتادَ : طلب النجعة ؛ والمعنى : إذا اغتربتُ عن وطنى وفارقت أحبابي فلأنى أسعى إلى تحقيق آمالي الكبيرة التى أتطلع إلى بلوغها فى ظل الأمير العظيم ؛ وهو جدير بتحقيق هذه الآمال .

(٢) الصِّيد : جمع أصيد وهو الملك المعتز بملكه أو رافع رأسه كبرا أو الأسد ؛ والمعنى : إذا كنت قد رحلت عن الملوك الصيد فإننى اخترتُ خيرا منهم لأنهم بمنزلة العبيد للمعتضد بن عباد ؛ وفى الأصول « ملوكهم عباد » وربما قصد آل عباد ، نظير قوله تعالى : « واسأل القرية » أى أهلها .

(٣) الصنائع : جمع مَصْنَع ، أو مصنعة وهى السد الثانى أو الحصن . وقد تكون مصدراً ميمياً من (صنع) إليه معروفاً أى أسداه إليه ؛ وقد تكون محرّفة عن الصنائع جمع صنيعة وهى الإحسان ؛ والمعنى : عذرى وعذر أمثالى فى هجرة أوطاننا إلى هذا الملك العظيم أننا نتطلع إلى رؤية قدرته على تشييد الحصون وإقامة السدود المائية أو إلى رؤية مكارمه وأمجاده .

(٤) المعنى : لقد ظنّ بى كثيرون ظنوناً مختلفة ، وأوّلوا هجرتى تأويلات عديدة متناقضة ؛ وما دروا أنني هاجرتُ إلى ملك عظيم سلالة ملوك أمجاد .

أَنِّي رَأَيْتُ « المُنْذِرَيْنِ » كِلَيْهِمَا ... فِي كَوْنِ مُلْكٍ لَمْ يُحِلْهُ فَسَادُ[1]

وَبَصُرْتُ بِالْبُرْدَيْنِ إِرْثَ « مُحَرِّقٍ » ... — لَمْ يَخْلُقَا — إِذْ تَخْلُقُ الأَبْرَادُ[2]

وَعَرَفْتُ مَنْ ذِي الطَّوْقِ عَمْرٍو ثَأْرَهُ ... بِجَذِيمَةَ الْوَضَّاحِ حِينَ يُكَادُ[3]

---

(١) الكون والفساد : تعبيران فلسفيان بدوران حول التكوين والهدم أو الإيجاد والفناء المتعاورَيْن على الحياة ؛ والمنذران هما : المنذر بن امرئ القيس ويسمى المنذر الأكبر بن ماء السماء ، وابنه المنذر ويسمى المنذر الأصغر ؛ والمعنى : هل من لاموني على الهجرة أنني هاجرتُ إلى ملك كريم سلالة ملوك أمجاد وأنني رأيت في شخصه المنــذرَيْن الأكبرَ والأصغر قد عادا إلى الحياة ؟ (الشهور أن بنى عبّاد ينتسبون إلى بنى لخم ملوك الحيرة وقد ظلوا يحكمونها من سنة ٣٦٨ إلى سنة ٦٣٢ م) والشاعر يروى هنا بمعنى حوادث التاريخ المزوجة بالأساطير كما كان مؤرخو العرب يعتقدون .

(٢) محرّق : هو عمرو بن المنذر المسمى بعمرو بن هند ، وسُمّي محرّقاً لأنه حرّق نخل اليمامة أو حرّق مائة من بنى تميم في ثأر أخ له في الرضاع ، وقد قتله عمرو بن كلثوم حمية لأمه وقال فيه معلقته الشهورة التي مطلعها :

أَلا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا ... وَلا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِينَا

والبردان عرضهما المنذر الأكبر على وفود العرب ليأخذها أعزهم فقام عامر بن أحيمر فأخذهما وارتداها قائلا : « العز والعدد في معد ثم في نزار ... ثم في بهدلة فمن أنكر هذا فلينافرني » فسكت الناس ؛ والمعنى : نظرت إلى الملك مرتدياً بردَى المحرّق فشبّهته عليه أى أنه استعاد شخصية أسلافه الأمجاد .

(٣) ملك جذيمةُ بن مالك الوضاح وبنت بالأبرش الحيرةَ ثم قصد في جيش كثيف إمارة عمرو بن الظرب العاملي فقتله ، ولما تولت الزبّاء الحكم مكان أبيها عمرو دبرت حيلة قتلت بها جذيمةَ الأبرش فانتقم له ابنُ أخته عمرو بن عدىّ الذى ورث ملك خاله وأسس أسرة اللخميين بالحيرة ، وسبب تسميته بذى الطوق=

وَأَبِي ابْنَ النُّعْمَانِ ـ يَوْمَ نَعِيمِهِ ـ نَجْمٌ تَلَقَّى سَعْدَهُ الْمِيلَادُ[1]
قَدْ أَلَّفَتْ أَشْتَاتَهُمْ فِي وَاحِدٍ إِلَّا يَكُنْهُمْ أُمَّةً فَيَكَادُ[2]
فَكَأَنَّنِي طَالَعْتُهُمْ بِوِفَادَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْهَا « عُرْوَةُ » الْوُفَّادُ[3]

= أن أمه كانت تزينه وتضع فى عنقه طوقاً فلما كبر قال خاله : « شب عمرو عن الطوق » فسارت مثلا للإنسان يكبر عن الشىء الذى لا يلائمه قال السرى :

تصابى فأضحى بعد سلوته صبا وعاود عمرو طوقه بعد ما شبا

والمعنى : إننى رأيت ملكا قويا لا يغفل عن حياطة أوليائه كما كان أجداده يفعلون ، وجذيمة الأبرش هو صاحب النديمين الشهورين .

(١) كان المنذر بن ماء السماء نديمان قتلهما فى سكره ثم ندم على قتلهما ثم بنى لهما قبرين يسميان الغريين فكان يخرج إليهما يومين فى العام ، الأول يسمى يوم النعيم يعطى فيه أول من يطلع فيه مائة من الإبل ، والثانى يسمى يوم البؤس يقتل فيه أول من يفد عليه ؛ ويقال إنه قتل فى هذا اليوم عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلى الشهور ، وتنسب هذه القصة إلى النعمان بن المنذر ؛ والمعنى : لقد ساقنى حظى الحسن إلى الوفود على هذا الملك العظيم كما كان المحظوظون يفدون على جده النعمان فى يوم النعيم .

(٢) المعنى : هؤلاء الملوك الصيد قد اجتمعوا فى فرد وتمثلوا فى شخص هو هذا الملك العظيم الذى يكاد يكون أمة وحده .

(٣) عروة الوفاد : لعله عروة بن الورد من شعراء الجاهلية وفرسانها المعدودين وكان جواداً كريماً يغزو ويوزع الغنائم على الفقراء ، وتبعه جماعة كانوا يغزون معه ويتحمل هو أعباءهم يسمون الصعاليك ؛ ولهذا سمى هو أيضاً عروة الصعاليك . ويشبه نظامهم وتقاليدهم نظام الفروسية فى العصور الوسطى بأوربا من نجدة الضعيف وبذل العطاء واحترام المرأة والتضحية فى سبيل الغير بالنفس . والمآل : والمعنى : وفدت عليه فظفرت منه بما لم يظفر به عروة بن الورد من غزواته المتلاحقات .

فى قَصْرِ مُلْكٍ كَالسَّدِيرِ أَوِ الَّذِى نَاطَتْ بِهِ شُرُفَاتِهَا سِنْدَادُ[1]
تَتَوَهَّمُ الشَّهْبَاءَ فِيهِ كَتِيبَةً بِفِنَاءِ ، الْيَحْمُومُ فِيهِ جَوَادُ[2]
يَخْتَالُ مِنْ سِرِّ الْأَشَاهِبِ وَسْطَهُ بِيضٌ كَمُرْهَفَةِ السُّيُوفِ جِعَادُ[3]

* * *

(١) السدير : قصر النعمان الأكبر بالحيرة وله نظير يسمى الخورنق ، وفيهما يقول المخبّل :

فإذا سكرتُ فإننى ربُّ الخورنق والسدير
وإذا صحوتُ فإننى رب الشويهة والبعير

وسنداد قصر بالعذيب فى ضاحية الكوفة ؛ وفى هــذه القصور يقول الأسود بن يعفر :

ماذا أؤمل بعــد آل محرق تركوا منازلهم ، وبعــد إياد؟
أهل الخورْنَق والسدير وبارق والقصر ذى الشرفات من سنداد

والمعنى : نزلت فى قصور الأمير فكأننى نزلت قصور آبائه وأجداده الشماء

(٢) الشهباء : إحدى كتائب النعمان بن المنذر ، والشهباء من الكتائب : العظيمة الكثيرة السلاح ؛ اليحموم : فرس النعمان بن المنذر ؛ والمعنى : كأنى أنزل فى قصور المناذرة وأرى حولها كتيبة الشهباء وأشاهد اليحموم جواد النعمان يصول ويجول .

(٣) السرّ : محض النسب وأفضله ؛ الأشاهب : هم بنو المنــذر سموا بهــذا لجمالهم ؛ جعاد : جمع جعد وهو الكريم أو البخيل ضد ، والمراد هنا الكريم ؛ — والمعنى : يختال فى هذه القصور سلالةُ المناذرة المشهورون بالوضاءة والجمال مع الشجاعة والكرم ، كأنهم سيوف مرهفة المضاء .

فى « آلِ عَبَّادٍ » حَطَطْتُ ، فَأَعْصَمَتْ   هِمَمِى ، بِحَيْثُ أَنَافَتِ الْأَطْوَادُ[1]

أَهْلُ الْمَنَاذِرَةِ الَّذِينَ هُمُ الرُّبَا   فَوْقَ الْمُلُوكِ ، إِذِ الْمُلُوكُ وِهَادُ[2]

قَوْمٌ إِذَا عُدَّتْ — مَعَدَّ عَقِيلَةٍ —   مَاءُ السَّمَاءِ ، فَهُمْ لَهَا أَوْلَادُ[3]

---

(١) أعصم بفلان : أمسك به ، وأعصم بالفرس تشبث بعرفه لئلا يقع ؛ أناف : أشرف ؛ الأطواد : الجبال العظيمة ؛ والمعنى : نزلت على بنى عباد فتعلقت بهم عزائمى نسمت بسموهم ، حيث ارتفعت منازلهم كالأطواد .

(٢) الربا : جمع ربوة وهى المكان المرتفع ، والوهاد : جمع وهدة وهى المكان المنخفض ؛ والمعنى : هؤلاء الملوك سلالة المناذرة هم سادة الملوك والمرتفعون فوقهم كما ترتفع الربا على الوهاد .

(٣) عدّ : ظنّ وحسب ، قال الشاعر :

فلا تَعْدُدِ المولى شريكك فى الغنى   ولكنما المولى شريكك فى العُدْمِ

وعدّه مَعَدًّا جعله معدودا يُعْتدُّ به ؛ عقيلة القوم : سيّدهم ، وعقيلة كل شىء أكرمه ، والعقيلة : المرأة الكريمة النفيسة ، أو الدرة الكبيرة الصافية قال ابن الرقيات :

درة من عقائل البحر بكر   لم تخنها مثاقبُ اللآلِ

ماء السماء : أم المنذر بن امرىء القيس (المنذر الأكبر) سميت بهذا الاسم لحسنها وليس لها اسم غيره ، وقيل إن اسمها هو ماوية بنت عوف بن جُشم الشيبانى وأبناؤها ملوك العراق « راجع خبر خطبتها لامرىء القيس الحارث بن عمرو فى بلوغ الأرب جـ ٢ ص ١٧ » والمعنى : إذا عدّ الناس ماء السماء فى عداد الدرر الكبيرة الصافية فإن بنى عباد أبناؤها الأمجاد ، فهم درر غالية انحدرت من درة كريمة .

بَيْتٌ تَوَدُّ الشُّهْبُ فِى أَفْلاَكِهَا ... لَوْ أَنَّهَا - لِبِنَائِهِ - أَوْتَادُ[١]

مَمْدُودَةٌ بِلُهَى النَّدَى أَطْنَابُهُ ... مَرْفُوعَةٌ - بِالْبِيضِ مِنْهُ - عِمَادُ[٢]

مُتَقَادِمٌ، إِلاَّ تَكُنْ شَمْسُ الضُّحَا ... لِدَةً لَهُ، فَنُجُومُهَا أَرْآدُ[٣]

نِيطَتْ « بِعَبَّادٍ » لآلِئُ مَجْدِهِمْ ... فَتَلأْلأَتْ - فِى تُومِهَا - الأَفْرَادُ[٤]

مَلِكٌ إِذَا فَتَنَتْ صِفَاتُ جَلاَلِهِ ... فَتَقَاصَرَتْ عَنْ بَعْضِهَا الأَعْدَادُ[٥]

(١) المعنى : جم من بيت كريم ، تتمنى النجوم أن تكون أوتادا فى أساس أسلهم العريق .

(٢) اللُّهَا : جمع لُهْيَة أو لُهْوَة وهى أفضل العطايا وأجزلها ؛ الأطناب : جمع طُنُب وهو الحبل الذى يشدّ به سرادق الخباء أو الوتد الذى تشد إليه الحبال ؛ البيض : السيوف ؛ والمعنى قامت أركان هذا البيت على السخاء وارتفعت على قوائم السيوف .

(٣) اللِّدَة : التِّرب وهو الزميل فى الولادة والتربية ؛ أرآد : جمع رَأْد ، ورأد الضحى : هو وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء فيه ؛ والمعنى : هذا البيت قديم فى مجده ، عريق فى شرفه ؛ إن لم يعادل الشمسَ فى قدمه فهو معادل للنجوم .

(٤) نِيطَتْ : عُلِّقَتْ ؛ التُّوم : اللآلىء المزدوجة ؛ الأفراد : جمع فرد وهو من لا نظير له ، وأفراد الناس : كبارهم ، وأفراد النجوم : التى تطلع فى آفاق السماء ؛ ولعل الشاعر يقصد « الفرائد » جمع فريدة وهى الدرة النفيسة ؛ والمعنى : تجمعت أمجاد هذه الأسرة العريقة فى شخص عباد (المتضد) فتلألأتْ أحسابها المزدوجة وآلاؤها الفريدة فيه .

(٥) فى نسخة ا « افتنّتْ صفاتُ جلاله » افتنّ فى حديثه : أخذ فى فنون من القول ؛ فتن : أعجب واستمال ؛ والمعنى : صفات الأمير الجليلة تفتن الناس بوفرتها التى تفوق الأعداد وتتجاوز الحساب .

نَسِيَتْ زَبِيدُ عَمْرَهَا ، بَلْ أَعْرَضَتْ
عَنْ وَصْفِ « كَعْبٍ » بِالسَّمَاحِ إِيَادُ[١]

فَضَحَ الدُّهَاةَ ، فَلَوْ تَقَدَّمَ عَهْدُهُ لَعَنَا « الْمُغِيرَةُ » أَوْ أَقَرَّ « زِيَادُ »[٢]

لَا يَأْمَنِ الْأَعْدَاءُ رَجْمَ ظُنُونِهِ إِنَّ الْغُيُوبَ وَرَاءَهَا إِمْدَادُ[٣]

---

(١) زَبيد : قبيلة يمنية متفرعة من مذحج ؛ عمرو بن زبيد : هو عمرو بن معد يكرب الزبيدى من فرسان العرب وشعرائها المدودين أدرك الإسلام فأسلم ، ثم ارتد عقب وفاة النبي ﷺ ثم عاد إلى الإسلام وأبلى فى موقعتى اليرموك والقادسية أحسن البلاء ؛ كعب : هو كعب بن مامة الإيادى من قبيلة إياد العدنانية يضرب به المثل فى الجود ، وقد آثر زميله بنصيبه من الماء فى رحلة له بالصحراء ومات عطشاً ، وفيه يقول الشاعر :

يجود بالنفس إذ ضَنّ البخيلُ بها والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

والمعنى : إذا لاحت صفاتُ الأمير الجليلة فتنت الناس حتى تنسى قبيلة زبيد فارسها وموضعَ فخرها عمرو بن معد يكرب ، وتعرض قبيلة إياد عن جوادها ومناط اعتزازها كعب بن مادة ، لأن الأمير فوق الأنداد والنظراء .

(٢) المغيرة : هو المغيرة بن شعبة من دهاة العرب المعدودين ؛ وزياد : هو زياد بن أبيه اعترف معاوية بنسبته إلى أبيه أبى سفيان ، وهو من العرسان والخطباء الأفذاذ ؛ والمغيرة وزياد كلاهما وال لمعاوية وأساس قوى من أسس خلافته ؛ والمعنى : فاق الأمير بدهائه جميع الدهاة ، فلو تقدم به الزمن لخضع له المغيرة ودان له زياد .

(٣) رَجْم بالظن ورَجّم به : رمى به ، الإمداد : التقوية والتزويد قال تعالى : « وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون » ؛ والمعنى : إن الأمير يسدّد أفكاره فيصيب بها الأهداف فى إحكام وإتقان ، فكأن الغيب يكشف له ستار المستقبل =

مَلِكٌ - إِذَا مَا اخْتَالَ - غُرَّةُ فَيْلَقٍ قَدْ أَنْطَيَتْ عِقْبَانُهُ الْآسَادُ(١)

أُسْدٌ فَرَائِسُهَا الْفَوَارِسُ فِي الْوَغَى ، لَكِنْ بَرَائِنُهَا - هُنَاكَ - صِعَادُ(٢)

خِلْتَ اللِّوَاءَ غَمَامَةً فِي ظِلِّهَا قَمَرٌ ، بِغُرَّتِهِ السَّنَا الْوَقَّادُ(٣)

* * *

شَيْحَانُ مُنْغَمِسُ السِّنَانِ مِنَ الْعِدَا

فِي النَّقْعِ حَيْثُ تَغَلْغَلَ الْأَحْقَادُ(٤)

= وما يخفيه من أحداث ، ومثل هذا قول أوس بن حجر :

الألمعيُّ الذي يظن بك الظـ نَّ ، كأن قد رأى وقد سمعا

وقول البارودي :

له من وراء الغيب أذن سميعةٌ وعينٌ ترى مالا يراه بصيرُ

(١) اختال : تمايل تيها وعُجبًا ؛ الغرة : بياض الجبهة ، أوالسيادة تقول : لان غرة قومه أي سيدهم ، وغرة كل شيء أوله وأكرمه ؛ الفيلق : الجيش ؛ نبان : جمع عقاب من جوارح الطير ؛ والمعنى : يتيه الملك ممتزا بشجاعته وته في مقدمة جيشه المكون من فوارس كالأسود تمتطي خيولا كالعقبان .

(٢) البرائن : جمع برثن ، والبرثن من السباع كالأصابع من الإنسان ، والمخلب ر البرثن ؛ الصعاد : جمع صعدة وهي قناة الرمح المستوية بطبيعتها ؛ والمعنى : مان الأمير أسود كاسرة ولكنها لا تفترس غير الفرسان في ساحة القتال ، بالها هي الرماح المسددة في الطعان .

(٣) المعنى : إذا أبصرت الأمير في طليعة جيشه حسبت اللواء المنشور فوقه مة تظلل قمرا يتلألأ جبينه الوضاء ؛ وقريب من هذا قول المتنبي :

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطالُ كلمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ ، وثغرك باسم

(٤) الشيحان : الغيور أو الطويل أو الحازم أو المسرع ؛ والمعنى : يندفع =

تَشْكُو إِلَيْهِ الشَّمْسُ نَقْعَ كَتِيبَةٍ مَا زَالَ مِنْهُ لِعَيْنِهَا إِرْمَادُ[١]

جَيْشٌ إِذَا مَا الْأُفْقُ سَافَرَ طَيْرُهُ مَعَهُ فَفِي ذِمَمِ الصَّوَارِمِ زَادُ[٢]

مُسْتَطْرِفٌ لِلْمَجْدِ لَمْ يَكُ حَسْبَهُ مَجْدٌ ـ يَدُورُ مَعَ الزَّمَانِ ـ تِلَادُ[٣]

مَا كَانَ مِنْهُ ـ إِلَى رَفَاهَةِ رَاحَةٍ حَتَّى يُخَلَّدَ مِثْــلَهُ ـ إِخْلَادُ[٤]

= الأمير إلى ميادين القتال فى حمية وحزم غامسا سنان رمحه فى قلوب أعدائه المليئة بالضغائن والأحقاد .

(١) النقع : الغبار ، قال بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبهْ

الكتيبة : الجيش ؛ والمعنى : يندفع جيش الأمير إلى الأعداء فيثير فى الجو غباراً يصيب عين الشمس بالرمد فتضرع بالشكوى إلى الأمير .

(٢) الصوارم : السيوف القاطعة ؛ والمعنى : اعتادت الطير أن ترحل فوق جيشه لأنها ضامنة أن تجد زاداً لها من جثث أعدائه ، وقد نظر الشاعر فى هذا إلى قول النابغة الذبيانى :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب

(٣) المجد التليد : القديم الموروث عن الأجداد ، والطريف : المستحدث ؛ والمعنى : لم يكتف الأمير بما ورثه من مجد قديم بل أضاف إليه مجداً طريفاً فلهم آلاء إلى آلاء .

(٤) أخلد إلى الراحة : مال إليها ، قال تعالى « ولكنه أخلد إلى الأرض » : والمعنى : لم يركن الأمير إلى الرفاهية والنعيم اكتفاء بما ورثه من مجد خالد ، ولكنه جدّ حتى استحدث مجداً طريفاً يستحق الخلود وضمه إلى أمجاد آبائه السابقين .

أَرِجُ النَّدِيِّ ، مَتَى تَفُزْ بِجِوَارِهِ يَطِبِ الحَدِيثُ وَيَعْبَقِ التَّرْدَادُ[1]
لَوْ أَنَّ خَاطِرَهُ الجَمِيعَ مُفَرَّقٌ فِي الخَلْقِ أَوْشَكَ أَنْ يُحِسَّ جَمَادُ[2]

* * *

نَفْسِي فِدَاؤُكَ !! أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي زُهْرُ النُّجُومِ ـ لِوَجْهِهِ ـ حُسَّادُ[3]
تَبْدُو عَلَيْكَ ـ مِنَ الوَسَامَةِ ـ حُلَّةٌ يَهْفُو إِلَيْهَا ـ بِالنُّفُوسِ ـ وِدَادُ[4]
لَمْ يَشْفِ مِنْكَ العَيْنَ أَوَّلُ نَظْرَةٍ لَوْلَا المَهَابَةُ رَاجَعَتْ تَزْدَادُ[5]
مَا كَانَ مِنْ خَلَلٍ فَأَنْتَ سِدَادُهُ ـ فِي الدَّهْرِ ـ أَوْ أَوَدٍ فَأَنْتَ سَدَادُ[6]

---

(١) ورد ختام البيت ناقصاً ، وقد أكلناه بما يناسب المقام ؛ أرج : عاطر ؛ النديّ : مجلس القوم ومكان حديثهم ما داموا فيه ؛ والمعنى : يفوز الجالسون إلى الأمير بأحاديثه العطرة الطيبة وتطيب لهم الاعادة ويحسن الترداد .

(٢) المعنى : لو تفرّق ذكاؤه وإحساسه على الخلق لأحسّ الجماد .

(٣) المعنى : أفديك أيها الملك العظيم الذى تحسد وجهه النجوم المتلألئة السناء .

(٤) الوسامة : الجمال ؛ يهفو : يسرع ؛ والمعنى : لقد كساك الجمال حلّة قشيبة تجذب إليك القلوب العامرة بالمحبة والوداد .

(٥) المعنى : لم تكتف العيون منك بالنظرة الأولى بل ازداد بها الشوق والوله لمعاودة النظر ، وأوشكت أن تردد النظر إليك لولا ما يحفّك من مهابة وجلال .

(٦) الخلل : الفرجة بين الشيئين أو الصدع ؛ الأود : العوج ؛ السِّداد : ما يُسَدُّ به الحاجة ، والسَّداد والسَّدَد : الاستقامة والصواب ، ومن المجاز قولهم : « فيه سداد من عوز » أى ما تُسَدُّ به الحاجة ؛ والمعنى : إذا كان هناك اختلال فى شئون الحياة ففيك صلاحه وإذا كان هناك اعوجاج فيك استقامته .

الدِّينُ وَجْهٌ أَنْتَ فِيـــهِ غُرَّةٌ   وَالمُلْكُ جَفْنٌ أَنْتَ فِيهِ سَوَادُ[١]

لِلّٰهِ مِنْكَ يَدٌ عَلَتْ ، تُولِي بِهَا   صَفَداً فَيُحْمَدُ ، أَوْ يُفَكُّ صِفَادُ[٢]

لَوْ أَنَّ أَفْوَاهَ المُلُوكِ تَوافَقَتْ   فِيهَا لَوَافَقَ حَظَّهَا الإِسْعَادُ[٣]

نَفَعَ العُدَاةَ اليَأْسُ مِنْكَ ، لِأَنَّهُ   بَرَدَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمُ الأَكْبَادُ[٤]

يَنْصَاعُ مَنْ جَارَاكَ مَقْبُوضَ الخُطَا   فَكَأَنَّمَا عَضَّتْ بِهِ الأَقْيَادُ[٥]

* * *

(١) المعنى : لو تمثل الدين وجها لكنت أنت جبينه ، ولو تجسم المُلْكُ عينا لكنت سوادها الذى تبصر به الأشياء .

(٢) الصَّفَد : العطاء ؛ والصَّفَد والصِّفاد : ما يوثق به الأسير من قِدٍّ وقيد وغُلٍّ ؛ والمعنى : لك يد سامية تمنح العطاء فتستدرُّ الثناء أو تفك الأغلال وتحرِّر الرقابَ .

(٣) المعنى : لو أن أفواه الملوك تلاقت على تقبيل يدك النعمة لظفرت بأسعد حظ وفازت بأطيب نعيم .

(٤) المعنى : لقد يئس الأعداء منك فسكنوا إلى راحة اليأس ، وانطوت نفوسهم على أن يتحاموك فقرّت عيونهم بالبعد عن حومة النضال ؛ وفى الأمثال « اليأس إحدى الراحتين » .

(٥) انصاع : انفتل راجعا مسرعا ؛ الأقياد والقيود : جمع قيد وهو الغل ؛ والمعنى : إذا حاول أحد مجاراتك فإنه لايلبث أن يرتد منهزما بشل الخوف خطاه كأنما أحاطت به القيود والأغلال ؛ وقريب من هذا قول المتنبى :

قصرت مخافتُه الخطا ، فكأنما   ركب الكمىُّ جوادَه مشكولا

قَدْ قلتُ للتّالي ثَنَاءَكَ سُورَةً ... مَا لِلْوَرَى فِي نَصِّهَا إِلْحَادُ :(١)

«أعِدِ الحَدِيثَ عَنِ السِّيَادَةِ ، إِنَّهُ ... لَيْسَ الحَدِيثُ يُمَلُّ حِينَ يُعَادُ .»(٢)

كَرَمٌ كَمَاءِ المُزْنِ رَاقَ خِلالُهُ ... أَدَبٌ كَرَوْضِ الحَزْنِ بَاتَ يُجَادُ(٣)

وَمَحَاسِنٌ زَهَرَ الزَّمَانُ بِزُهْرِهَا ... فَكَأَنَّمَا أَيَّامُهُ أَعْيَادُ(٤)

* * *

يَا أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي — فِي ظِلِّهِ — رِيضَ الزَّمَانُ فَذَلَّ مِنْهُ قِيَادُ(٥)

(١) المعنى : قلت لمن يرتل آيات مدحك التي يؤمن بها الجميع ولا يمارى في صدقها إنسان « بقية المعنى في البيت التالي »

(٢) المعنى : قلتُ لمن يرتّلُ مديحك : أعد الحديث عن مجده وسؤدده فإننا لا نمل الإعادة ولا نسأم الترداد ، فلتتنويه به لذة تتجدد بتجدّد الدرج .

(٣) المزن : السحاب ؛ الحَزْن : ما غلظ وارتفع من الأرض ؛ ورياض الحزن أحسن من رياض الوهاد ؛ قال الأعشى :

ما روضةٌ من رياض الحَزْنِ معشبة
خضراءُ جاد عليها مسبلٌ هَطِلُ
يوما بأطيب منها نشر رائحة ... ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ

يُجَاد : يُمْطَرُ بالجَوْد وهو المطر الغزير ؛ والمعنى : للأمير كرم فياض مثل السحاب ؛ وله أدب بارع كأزهار الرياض .

(٤) زهَرَ : أضاءَ ؛ زُهْرُ النجوم : الوضّاءة منها ؛ والمعنى : وللأمير شمائل أضاءَتْ لنا الزمان فأصبحتْ أيامُه مواسمَ وأعيادا .

(٥) راضَ الفارسُ جوادَه : ذَلَّلَهُ وسهّل قيادَه ، ريضَ الزمانُ : سهل قيادُه وتيسر صعبُه ؛ والمعنى : أيها الأمير لقد روضت لنا الدهر فأسلس قيادُه ولان جانبُه بعد نفور وجماح .

يَا خَيْرَ « مُعْتَضِدٍ » بِمَنْ أَقْدَارُهُ ـ فِي كُلِّ مُعْضِلَةٍ ـ لَهُ أَعْضَادُ[١]

لَمَّا وَرَدْتُ ـ بِوِرْدِ حَضْرَتِكَ ـ الْمُنَى فَهِقَتْ لَدَىَّ جِمَامُهَا الْأَعْدَادُ[٢]

فَاسْتَقْبَلَتْنِي الشَّمْسُ تَبْسُطُ رَاحَةً لِلْبَحْرِ ـ مِنْ نَفَحَاتِهَا ـ اسْتِمْدَادُ[٣]

فَلَئِنْ فَخَرْتُ ـ بِمَا بَلَغْتُ ـ فَقُلْ لِي أَلَّا يَكُونَ مِنَ النُّجُومِ عَتَادُ[٤]

مَهْمَا امْتَدَحْتُ سِوَاكَ ـ قَبْلُ ـ فَإِنَّمَا مَدْحِي ـ إِلَى مَدْحِي ـ لَكَ اسْتِطْرَادُ[٥]

---

(١) أعضاد : جمع عضد وهو الساعد أو الناصر والمعين ؛ والمعنى : لقد استعنتَ بالله — وأنتَ به خير مستعين — فجعل الأقدارَ عونا لك فى الشدائد والملمّات .

(٢) فهق الإناء : امتلأ ؛ الجمام : المياه الغزيرة ؛ الأعداد : جمع عِدّ وهو الماء الجارى الذى لاينقطع ؛ والمعنى : لما وردت على منهلك العذب تحققت آمالى وفاضت سحائب جودك فغمرتنى بفيضها الذى لايغيض .

(٣) المعنى : لما وردت عليك استقبلت منك شمسا وضاءة الجبين لها يدٌ سخيةٌ يتعلم البحر منها السخاء ، ويستمدُّ منها العطاء .

(٤) فى نسخة « بما بنيت » ؛ العَتاد : العُدّة ؛ والمعنى : إذا افتخرت بما بلغته لديك من منزلة سامية فقد حقّ لى التيه والافتخار لأن النجوم أمست أقلّ من أن أتخذ منها عدة أو عديدا بعد أن نلت منك خير عدة وعتاد .

(٥) المعنى : إذا كنت قد مدحتُ قبلك الملوك والأمراء فإننى لم أكن أعنيهم بالثناء ، وإنما اتخذتهم هدفا أتدرب عليه لأجيد المدائح ، وحينئذ أخصك بها لأنك أحق بها مِنْ كل إنسان .

يَغْشَى المَيادِينَ الفَوارِسُ ـ حِقْبَةً ـ كَيْمَا يُعلِّمَهَا النِّزَالَ طِرَادُ[1]
فَلَأُسْعِدَنَّ ذُيُولَ المُنَى فِي سَاحَةٍ ـ إِلَّا أُوفِّ بِهَا المُنَى ـ فَأُزَادُ[2]
وَلَيَسْتَفِيدَنَّ السَّنَاءَ مَعَ الغِنَى عَبْدٌ يُفِيدُ النُّصْحَ حِينَ يُفَادُ[3]
وَلَأَنْتَ أَنْفَسُ شِيمَةً مِنْ أَنْ تُرَى ـ لِنَفِيسِ أَعْلَاقٍ لَدَيْكَ ـ كَسَادُ[4]
هَيْهَاتَ القَذْضِينَ الصَّبَاحُ لِمَنْ سَرَى أَنْ يَسْتَتِبَّ لِسَعْيِهِ ـ الإِنْجَادُ[5]

---

(١) الطّراد : الكرُّ والفرُّ في ميادين القتال ؛ والمعنى : تدربتُ على مدح غيرك حتى إذا استوفيتُ الدربة قصرتُ مدائحى عليك، شأنى فى هذا شأن الفرسان الذين يتدربون على النزال قبل الاشتراك فى القتال .

(٢) المعنى : لأسعدنّ فى ساحتك ذيول آمالى التى أتوقع تحقيقها على يديك، وإذا لم أنلها كاملةً لديك فسأنال خيرا منها وزيادة عنها مما لم يكن يجرى لى على بال .

(٣) السناء : الرفعة ؛ والمعنى : إننى عبدٌ أتقدم لك بالنصيحة الخالصة والرأى السديد،وجدير بمن يخلص لك أن ينال لديك المنزلة السامية والمال الجزيل.

(٤) شيمة : خُلُق ؛ الأعلاق: جمع علْق وهوالنفيس من كل شيء ؛ والمعنى: إنك أسمى خلقا وأكرم نفساً من أن تكسد مواهبي عندك ، ويضيع ذكائى لديك .

(٥) هيهاتَ : بَعُدَ ؛ يستتب : يستقر ؛ أجدَ: صار أمره إلى الجد ؛ المعنى : هيهات أن تضيع مواهبي عندك فانك كفيل بتقدير الرجال وتمييز الجهود ، وأنت تعلم أن كل من سرى فى الليل واحتمل المشقة فيه جدير بأن يبلغ غايته عند الصباح ؛ وفى الأمثال « عند الصباح يحمد القوم السُّرى » .

لَا تَعُدُّ مَنٌّ مِنَ الْحُظُوظِ ذَخِيرَةً   تَبْقَى، فَلَا يَنْـلُو الْبَقَاءَ نَفَادُ[1]

النصر الحاسم

نشبت حروب طاحنـــة بين المتضد بن عباد والظفر ابن الأفطس انتهت بانتصار المتضد سنــة ٤٤٢ ﻫ [2] ؛ وكان اسماعيل بن المتضد وولى عهده قائدَ جيوشه ؛ فسجل الشاعر هذا النصر وقال مادحا الأمير وابنه :

لِيَهْنِ الْهُدَى إِنْجَاحُ سَعْيِكَ فِي الْعِدَا   وَأَنْ رَاحَ صُنْعُ اللهِ نَحْوَكَ وَاغْتَدَى[3]

---

(١) المعنى : اسأل الله أن يدخر لك من الحظوظ أسعدها وأبقاها فلا ينتهى لك نعيم ولا ينفد لك صفاء .

(٢) أراد المتضد فتح إقليم لَبْلَه فاستغاث أميره فتح بن يحيى بحليفه الظفر بن الأفطس أمير بطليوس ، فأغاثه ؛ ولكن فتح بن يحيى نقض حلفه مع الظفر وانضم إلى المتضد فصادر الظفرُ أمواله عنـــده وانقض على إمارته ، فاستغاث بالمتضد حليفه الجديد فخف إليه وإغاثه ؛ فاستنجد الظفر بحليفه اسحق بن عبد الله أمير قرمونة فأمده بجيش يقوده ابنه العز ، والتقى الفريقان فى معركة طاحنة انتهت بانتصار جيش المتضد بقيادة ابنه وولى عهـده اسماعيل ؛ وقُتِل فى هذه المعركة العز بن اسحق قائد جيش قرمونة وعبد الله الخزاز ابن عم الظفر بعد أن تثاقل البربر عن نصرتهما .

(٣) فى بعض نسخ الذخيرة « ... نحوك أوغـــدا » : الصُّنع : الجميل والمعروف ؛ المعنى : هنيئا للهُدَى أن الله نصرك على الأعداء وأن إحسانه توالى عليك فى الغدو والرواح .

وَنَهْجُكَ سُبُلَ الرُّشْدِ فِى قَمْعِ مَنْ غَوَى
وَعَدْلُكَ فِى اسْتِئْصَالِ مَنْ جَارَ وَاعْتَدَى[1]
وَأَنْ بَاتَ مَنْ وَالاكَ فِى نَشْوَةِ الْغِنَى
وَأَصْبَحَ مَنْ عَادَاكَ فِى غَمْرَةِ الرَّدَى[2]
وَبِشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّــــةُ الْعَهْدِ طَلْقَةٌ
كَمَا ابْتَسَمَ النُّوَّارُ عَنْ أَدْمُعِ النَّدَى[3]
وَدَوْلَةُ سَــعْدٍ لاَ انْتِهَاءَ لِحَدِّهِ إِذَا قِيلَ فِيهِ قَدْ تَنَاهَى تَوَلَّدَا[4]
دَعَوْتَ ، فَقَالَ النَّصْرُ : « لَبَّيْكَ » مَاثِلاً
وَلَمْ تَكُ كَالدَّاعِى يُجَاوِبُهُ الصَّدَى[5]

---

(١) المعنى : هنيئا للدين أنك سلكت فى خدمته سبيل الرشاد لتأديب الغواة الضالين ، وأنك التزمت العدالة فى القضاء على البغاة الظالمين .

(٢) والاك : ناصرك ؛ النشوة : السكرة أو الرائحة الطيبة ؛ الغمرة : الشدة ، وغمرات الموت : شدائده ؛ والمعنى : هنيئا للدين أن مناصريك فازوا بوفرة المال ، وأن أعداءك تجرعوا غصص الوبال .

(٣) المعنى : هنيئا لك إقبال الدنيا عليك فتيّـة الصّبا متهللة الأسارير متبسمة كما تتبسم الأزهار عن قطرات الندى .

(٤) المعنى : وهنيئا لك الملك السعيد غير المحدود، إذا ظنه الرائى قد تم نماه اتسعت أمامه رقعتهُ وانفسحتْ مساحته من جديد .

(٥) ماثلا : منتصباً ؛ الصدى : رجع الصوت ؛ والمعنى ما كدتَ تدعو الله حتى لبّاك النصر ماثلا أمامك ؛ وربما دعاه غيرُك فلم يجبه إلا رجعُ صوته فى الدعاء .

وَأَحْمَدْتَ عُقْبَى الصَّبْرِ فِى دَرَكِ الْمُنَى ... كَمَا بَلَغَ السَّارِى الصَّبَاحَ فَأَحْمَدَا(١)

* * *

« أَعَبَّادُ » يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ بِذِمَّةٍ ... وَأَرْعَاهُمُ عَهْدًا وَأَطْوَلَهُمْ يَدَا(٢)

تَبَايَنْتَ فِى حَالَيْكَ : غُرْتَ تَوَاضُعًا ... لِتَسْتَوْفِىَ الْعَلْيَا ، وَأَنْجَدْتَ سُؤْدُدَا(٣)

وَلَمَّا اعْتَضَدْتَ اللَّهَ كُنْتَ مُؤَهَّلاً ... لَدَيْهِ لِأَنْ تُحْمَى وَتُكْفَى وَتُعْضَدَا(٤)

وَجَدْنَاكَ إِنْ أَلْقَحْتَ سَعْيًا نَتَجْتَهُ ... وَغَيْرُكَ شَاوٍ حِينَ أَنْضَجَ رَمَّدَا(٥)

---

(١) الدَّرْك : الوصول إلى الشىء ؛ السارى : المسافر ليلا ؛ وفى الأمثال « عند الصباح يحمد القوم السُّرى » أى يرتاحون لبلوغ أهدافهم بعد مابذلوه من مشقات السفر فى الظلام ، قال خالد بن الوليد :

عند الصباح يحمد القوم السرى ... وتنجلى عنهم غياهبُ الكرى

والمعنى : صبرت فى ميادين القتال فجنيت النصر الحاسم على الأعداء ؛ كما يحمد السارى عاقبة جهده عند الصباح .

(٢) المعنى : إنك أوفى الملوك وعدا وأصونهم عهدا وأكرمهم يداً .

(٣) غار : هبط إلى الغور وهو المكان المنخفض ؛ وأنجد : ارتفع إلى النجد وهو المكان المرتفع ؛ والمعنى : أراك جمعت النقيضين فقد تواضعت لتستوفى الشمائل الطيبات وارتفعت بما أحرزته من سؤدد وفخار .

(٤) فى بعض نسخ الذخيرة « اعتمدت الله » وفى بعضها « دعوت الله » وفى جميع نسخها « بأن تحمى » ؛ والمعنى : لما استعنت بالله كنت أهلا لأن يحميك ويغنيك ويمدك بالنصر والتأييد .

(٥) ألقح البعير الناقة : نزا عليها فحملت منه ، قال تعالى : « وأرسلنا =

وَكَمْ سَاعَدَ الْأَعْدَاءَ أَوَّلُ مَطْمَعٍ رَأَوْكَ بِعُقْبَاهُ أَحَقَّ وَأَسْعَدَا(١)

فَلَا ظَافِرٌ إِلَّا — إِلَى سَعْدِكَ — اعْتَزَى وَلَا سَائِسٌ إِلَّا بِتَدْبِيرِكَ اقْتَدَى(٢)

* * *

ضَلَالًا لِمَفْتُونٍ تَسَمَّوْنَ بِحَالِهِ

إِلَى أَنْ بَدَتْ — بَيْنَ الْفَرَاقِدِ — فَرْقَدَا(٣)

رَأَى حَظَّهَا أَوْلَى بِهِ ، فَأَحَلَّهَا حَضِيضًا بِكُفْرَانِ الصَّنِيعَةِ أَوْهَدَا(٤)

= الرياح لواقح » أى ملقحة للنبات لأنها تحمل مادة التذكير إلى أعضاء التأنيث فى الأزهار ؛ نتج الناقة : والى رعايتها حتى تضع ، ومن الأمثال « هل تنتج الناقة إلا لمن لقحت له » ؛ والمعنى : إن الولد لن يشبه إلا أباه ؛ الشاوى : واضع اللحم على النار ؛ رمَّده : وضعه فى الرَّماد ، ومن الأمثال « شوى أخوك حتى إذا أنضج رمَّد »؛ والمعنى ؛ إنه أحسن الشواء ثم ألقاه أخيراً فى الرماد ، أى أنه فعل خيراً ثم ختمه بشر ؛ والمعنى : إنك إذا فعلت خيرا أنجزته وبلغت أطيب التمام ، وسواك إذا بدأ خيراً ختمه بأقبح الإساءات .

(١) المَطمَع : ما يُطمَع فيه ؛ والمعنى : كم اندفع الأعداء إليك بحدوهم الطمع فيك ؛ وغرهم أول اللقاء ثم جاءت العاقبة بغير الظفر الذى أملوه ، وكنت أنت به جديراً وسعيدا ، ولعل الأصوب « وكم أسعد . . »

(٢) المعنى : لن يظفر أحد إلا إذا انتمى إليك ، ولن يفلح سائس إلا إذا اقتدى برأيك وحسن تدبيرك .

(٣) المعنى : ما أضل سعى هــذا المفتون المغرور الذى تولَّيته بالرعاية والعناية حتى رفعت منزلته إلى النجوم ثم خان عهدك وجحد نماك .

(٤) الحظ : النصيب أو هو خاص بالنصيب من الخير والفضل ؛ أولى به : أحق به وأجدر ، الحضيض : القرار المنخفض من الأرض ، وفى الحديث «أنه=

وَمَا زَادَ ـ لَمَّا لَجَّ فى الْبَغْيِ ـ أَنَّهُ ... سَعَى لِلَّذِى أَصْلَحْتَ مِنْهَا فَأَفْسَدَا [١]

فَذَلَّ ، وَقَدْ أَمْطَيْتَهُ ثَبَجَ السُّهَا ... وَضَلَّ ، وَقَدْ لَقَّيْتَهُ قَبَسَ الْهُدَى [٢]

طَوِيلُ عِثَارِ الْجُرْمِ قُلْتَ لَهُ : «لَعًا» ... بِحِلْمٍ تَلَقَّى جَهْلَهُ فَتَغَمَّدَا [٣]

تَجَنَّى ، فَأَهْدَيْتَ النَّصِيحَةَ مَحْضَةً ، ... وَلَجَّ ، فَوَالَيْتَ الْعِقَابَ مُرَدَّدَا [٤]

= أُهْدِيَت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فلم يجد شيئا يضعها عليه فقال ضعها بالحضيض فإنما أنا عبد « آكل كما يأكل العبيد » يعنى ضعها بالأرض ؛ الصنيعة : الإحسان ؛ أو هد : أخفض ؛ والمعنى : رأى عدوك نفسه أهلا للمنزلة السامية التى أنزلته إياها فكفر نعمتك وأنزلها فى الحضيض بعد أن كانت فى أوج العلاء ، وفى نسخة ت « أودى به » أى أتم ، وفى الخريدة « فأحطها » .

(١) لج فى البغى : تمادى فى الظلم ؛ والمعنى : لمَّا لج خَصْمُك فى عنادهِ يسيءُ إليك ، ولكنه أساء إلى نفسه وأفسد ما أصلحته من أحواله

(٢) آثرنا رواية الخريدة ، وفى الأصول « فدل » ؛ الثبج : الوسط أو معظم الشيء أو صدر القطا ؛ السها : كوكب خفى من بنات نعش الصغرى يمتحن الناس به أبصارهم ، والمعنى : لقد أعززتَ هذا العدو فاجتهد فى إذلال نفسه ، وأنرتَ له السبيل فلجّ فى الضلال .

(٣) لَعًا : دعاء للعاثر بأن ينهض من كبوته ، ومثله دعْ ودعدعْ وهى وهى أسماء أفعال ، قال رؤبة :

وإن هوَى العاثر قلنا دعْدَعا ... له ، وعالينا بتنعيش لَعَا

تغمده بإحسانه :غمره به ، والمعنى : طالما أقلتَ عثرته بحلمك وغمرتَ ذنوبه بعفوك ، وهو سادر فى الضلال .

(٤) تجنى : ادعى الذنوب على الأصدقاء ليجد الوسيلة للجفاء ، لجّ : تمادى فى عناد ؛ والمعنى :لقد أخذ يتمحَّـل الأسبابَ للمجاهرة بالعداء فنصحتَه فلما أبى قبول النصيحة وأصر على جحوده واليت عليه أنواع العقاب .

وَلَمْ تَأْلُهُ بِقْيَا عَلَيْهِ تَنَظُّراً   لِفَيْئَةٍ مَنْ أَكْرَمْتَهُ فَتَمَرَّدَا(١)

فَمَا آثَرَ الْأَوْلَى ، وَلاَ قَلَّدَ الْحِجَى ،   وَلاَ شَكَرَ النُّعْمَى ، وَلاَ حَفِظَ الْيَدَا(٢)

كَأَنَّكَ أَهْدَيْتَ السَّوَابِحَ ضُمَّرًا   لِيَرْكُضَهَا فِيمَا كَرِهْتَ فَيُجْهِدَا(٣)

وَأَجْرَرْتَهُ ذَيْلَ الْحَبِيرِ تَأَلُّفاً   لِيَخْلُقَ فِيمَا جَرَّ حِقْداً مُجَدَّدَا(٤)

سَلِ الْخَائِنَ الْمُغْتَرَّ : كَيْفَ احْتِقَابُهُ   مَعَ الدَّهْرِ عَاراً بِالْفِرَارِ مُخَلَّدَا ؟(٥)

---

(١) لم تأله نصحا : لم تقصر فى نصيحته ، البَقْوَى والبُقْيا والبقيّة : الانتظار وترقب الخير ، ومنه قوله تعالى : « بقية الله خير » أى طاعة الله وانتظار ثوابه ، أو الحالة الباقية لكم من الخير ، أو الباقيات الصالحات ؛ الفيئة : المودة ؛ والمعنى : لم تدخر وسعا فى ترقب توبته ورجوعه إلى الصواب ولكنك كلما بالغتَ فى إكرامه تمرد ؛ وشبيه بهذا قول المتنبى :

ــ إذا أنتَ أكرمتَ الكريم ملكته ، وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

(٢) الأَوْلَى : الأحرى والأفضل ، الحجا : العقل ، اليد : النعمة ، والمعنى : لقد خالف الصواب فما فعل الأفضل ، ولا اتبع صوت العقل ، ولا شكر الجميل، ولا حفظ الإحسان.

(٣) السوابح : الخيل المسرعة كأنها تسبح فى الهواء ؛ الخيل الضُّمَّر : اللفوفة غير المترهلة وهى أسرع فى السباق ؛ والمعنى : كأنك قد وهبت له الخيل الطهمة ليجريها فى الإساءة إليك حتى يصيبها بالجهد والإعياء .

(٤) الحبير : الثوب الناعم الجديد ؛ والمعنى : خلعت عليه ثياب نعمائك فكلما جرر ذيولها امتلأت نفسه حقدا عليك .

(٥) فى الذخيرة « سل الخائن » ؛ الخائن : الأحمق ، وفى الأمثال « أتتك بحائنٍ رجلاه » أى قادته رجلاه إلى الهلاك على يديك ؛ المغتر : المغرور ؛ احتقابه =

رَأَى أنَّهُ أضْحَى هِزَبْرًا مُصَمِّمًا ، فَلَمْ يَعْدُ أَنْ أمْسَى ظَلِيمًا مُشَرَّدًا[1]
يَوَدُّ ـ إذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ ـ أَنَّهُ أقَامَ عَلَيْهِ ـ آخِرَ الدَّهْرِ ـ سَرْمَدَا[2]
يُحَاذِرُ أنْ يُلْقَى قَتِيلًا مُعَفَّرًا ـ إذَا الصُّبْحُ وَافَى ـ أَوْ أَسِيرًا مُقَيَّدَا[3]

* * *

لَبِئْسَ الْوَفَاءُ اسْتَنَّ فِي « ابْنِ عَقِيدِهِ »
عَشِيَّةَ لَمْ يُصْدِرْهُ مِنْ حَيْثُ أَوْرَدَا[4]

= ادخاره ؛ والمعنى : سل هذا الأحمق المغرور كيف اندفع إلى مجاهرتك بالعداء فلما رأى بأسك بادر بالفرار فاكتسى به سبَّة الأبد ؛ وفى نسخة ا ، ب ، ت « بالمرار » وقد آثرنا رواية الذخيرة وعام التون ونسخة ت . . . .

(١) فى نسخة ت « أنه يضحى » ؛ الهزبر : الأسد القوى ؛ المصمم : الماضي فى عزمه إلى غايته ؛ الظليم : ذكر النعام ؛ والمعنى : لقد اغترّ بنفسه فحسب أنه أسد كاسر فلم يلبث أن فر مشردا كالنعام ؛ ومثل هذا قول التنبى :

فأتيتَ معتزماً ولا أسدٌ ومضيتَ منهزما ولا وَعِلُ

الوعِلُ : التيس الجبلى .

(٢) آثرنا رواية الذخيرة وعام التون ونسخة ت ؛ وأما بقية الأصول ففى « دهاه إذا ماجنه الليل » ؛ جَنّه الليلُ وأجنّه وجنّ عليه : ستره ؛ سرمدا : دائما ؛ والمعنى : تمنى من شدة رعبه إذا ستره الظلام أن يظل الليل مقيما عليه طول الحياة ؛ وفى الذخيرة « آخر الليل » .

(٣) المعنى : إنه من رعبه يخشى انبلاج الصبـــاح لأنه يتوقع فيه الأسر أو الهلاك .

(٤) العقيد : المعاهد ، ويشير هنـا إلى المعزّ بن اسحق الذى أرسله أبوه إسحق بن عبد الله أمير قرمونة على رأس جيش لنجدة المظفر فقُتِل فى المعركة وحُزَّ رأسُه وأضافه المعتضد إلى خزانة الرءوس التى كان يحتفظ بها فى قصره ؛ =

قَرِينٌ لَهُ أَغْوَاهُ ، حَتَّى إِذَا هَوَى تَبَرَّأَ ، يَمْتَدُّ البَرَاءَةَ أَرْشَدَا[1]
فَأَصْبَحَ يَبْكِيهِ المُصَابُ بِشُكْلِهِ ،
بُكَاءَ « لَبِيدٍ » حِينَ فَارَقَ « أَرْبَدَا »[2]

* * *

فِدَاءٌ لِإِسْمَاعِيلَ كُلُّ مُرَشَّحٍ إِذَا جُشِّمَ الأَمْرَ الجَسِيمَ تَبَلَّدَا[3]

= والمعنى : بئس ماصنعه من تخلّيه عن ابن حليفه وتركه معفرا فى ميدان القتال حيث ورد ولم يستطع الصدور .

(١) المعنى : لقد استنجد بحليفه وأغواه حتى أورده موارد الهلاك ، ثم تخلى عنه متبرئا منه معتقداً أن هذا هو طريق الرشاد ؛ والشاعر هنا يستوحى الآية الكريمة عن الشيطان « إذ قال للانسان اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخافُ اللهَ ربَّ العالمين » .

(٢) المعنى : أصبح إسحق أمير قرمونة يندب ابنه العزيز ويبكيه كما بكى لبيد على أخيه أربد ؛ وخلاصة قصتهما هى أن أربد — أخا لبيد لأمه — وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عامر بن الطفيل ورهط من قومهما ؛ فقال عامر للنبى (ص) : أتجعل لى نصف ثمار المدينة وتجعلنى ولىَّ الأمر من بعدك وأسلم ؟ فقال (ص) : اللهم اكفنى عامراً واهد بنى عامر ؛ فانصرف وهو يقول : لأملأنها عليك خيلا جُرداً ورجالا مُرداً ، ولأربطنَّ بكل نخلة فرساً ؛ فطُعِنَ فى طريقه (أى أصابه الطاعون) فمات ؛ أما أربد فأصابته صاعقـــة فأحرقته فرثاه لبيد بقصيدته المشهورة :

بلينا ، وما تبلَى النجومُ الطوالع وتبقى الديارُ بعدنا والمصانع

(٣) مرشح للولاية : مهيَّأ ومؤهل لهـا ؛ جُشِّمَ : كُلِّفَ ؛ والمعنى : فداءٌ لاسماعيلَ — ابن المتعضد وولى عهده وقائد جيشه — كلُّ مهيأ لتولى السلطان إذا كُلِّفَ أمراً قعدتْ به البلادة والاحجام .

أَفَادَ مِنَ الأَمْــــلاكِ حِدْثَانَ نَسْلِهِمْ
مَوَالِيَ ، لَمْ يَشْكُ الصَّدِى مِنْهُمُ الصَّدَى[1]

أَعَادَ الصَّبَاحَ الطَّلْقَ لَيْـلاً عَلَيْهِمُ
فَحَارَ، وَثَنَّى نَاظِرَ الشَّمْسِ أَرْمَدَا[2]

فَجَلَّ هِلالاً — فِى ظَلامِ عَجَاجَةٍ —
تُلاَحِظُهُ الأَقْمَارُ — فِى الأُفْقِ — حُسَّدَا[3]

---

(١) فى الأصول « أفاد من الأملاك حدثان فشامهم » والمعنى فيها مضطرب ولعلها: « أفاد من الأملاك حدثان قتامهم » بمعنى إنه اقتص من هـؤلاء الملوك لإحداثهم قتـل الأطفال العاجزين الذين لايستطيعون الـــكلام . وإن كان يضعفـه أن المفعول لأجله هنا (حِـدثان) يجب جره باللام ؛ ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ الحِـدثان : الفتيان يقال هم غلمان أحداث السن وحدثانها ؛ أو قرب العهد وفى الحديث « لولا حدثان قومك بالكفر لهدمت الكعبة و بَنَيْتـها » أو مصدراً للفعل حدث بمعنى وقع ، أو أول الأمر وابتداؤه ؛ الموالى : جمع مولى وهو العبد أو المعتـق أو المعتِـق أو الصاحب أو القريب أو الحليف أو الشريك ؛ الصدى : الظمآن ؛ الصدَى : العطش ؛ والمعنى : لقد استفاد ابنـك اسماعيل من ملوك الأعداء أنه أسر أبناءهم وهم فى حالة من الذعر أخرست ألسنتهم حتى لا يشكو الظامئُ منهم ظمأه ، واتخذ منهم عبيدا وعتقاء .

(٢) فى الأصول « فجاء ، وأثنى » وهى عبارة ركيكة ، فضلا عن أن الفعل أثنىَ لايناسب المعنى هنا ؛ ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ حار : رجع ، ثنىَّ : أتى بأمر ثان ، فإن الرجل إذا فعل أمراً ثم ضم إليه أمراً آخر قيل ثنى بالأمر الثانى؛ والمعنى : إن اسماعيل قلب الصباح المشرق فأعاده ليلا مظلما على أعدائه بما أثاره من غبار المعركة ، فماد إليهم ظلامُه المطبق وثنى فأصاب ناظر الشمس بالرمد .

(٣) فى نسخة ز « فحل هلالا » ؛ العجاجة : الغبار ؛ والمعنى : ما أجله حينما يشرق فى غبار الحروب كالبدر النير فتحسده الأقمار فى صفحة السماء .

رَاجِمٌ مِنْ « صِنْهَاجَةٍ » وَ « زِنَاتَةٍ »
— بِمِثْلِ نُجُومِ القَذْفِ — مَثْنَى وَمَوْحَدَا[1]

هُمُ الأَوْلِيَاءُ المَاعُوكَ صَفَاءَهُمْ
إِذَا امْتَازَ مُصْفِي الوُدِّ مِمَّنْ تَوَدَّدَا[2]

لَهُمْ كُلُّ مَيْمُونِ النَّقِيبَةِ بَازِلٍ
كَفِيلٍ بِأَنْ يَسْتَهْزِمَ الجَمْعَ مُفْرَدَا[3]

يَسُرُّكَ فِي الهَيْجَا إِذَا جَرَّ لَأْمَةً
وَيُرْضِيكَ فِي النَّادِي إِذَا اعْتَمَّ وَارْتَدَى[4]

* * *

---

(١) راجم في الكلام والعَدْو والحرب : بالغ بأشد مساجلة ، وتراجموا بالحجارة تراموا بها ؛ نجوم القذف : الشهب التي تصيب الشياطين ؛ مثنى وموحدا : مزدوجة ومفردة ؛ والمعنى : يقذف الأمير أعداءه بفرسان أشداء من قبيلتى صنهاجة وزناتة أزواجا وآحادا كما تقذف الشهب الشياطين .

(٢) الأولياء : جمع ولى وهو النصير أو الصديق ؛ تودّد إليه : تحبب ، وتودده : اجتلب مودته ؛ والمعنى : فرسان قبيلتى صنهاجة وزناتة هم الأنصار المخلصون لك مودّتهم ؛ وشتان بين من يصفى الود ومن يتكلفه ويتصنعه .

(٣) ميمون : مبارك ؛ النقيبة : النفس ، البازل : الرجل الكامل فى تجربته ؛ والمعنى : هؤلاء الفرسان فيهم كل رجل كامل مجرب مبارك النفس كفيل بأن يحاول وحده هزيمة جيش بأكمله .

(٤) الهيجاء : الحرب ؛ اللأمة واللامة : الدرع ؛ اعتم : لبس عمامة ؛ ارتدى : لبس الرداء ؛ والمعنى : يرضيك كل فارس فيهم إذا سحب درعه لمباشرة القتال ويروقك إذا لبس عمامته وارتدى حلته وتصدر مجالس الرجال فى النـــادمة حين الســلام .

كَرِهْتَ لِسَيْفِ المُلْكِ أُلْفَةَ غِمْدِهِ ... وَقَلَّ غَنَاءُ السَّيْفِ مَا كَانَ مُغْمَدَا[١]

وَلَمْ تَرَ لِلشِّبْلِ الإِقَامَةَ فِي الشَّرَى ... فَجَدَّ أَفْتِرَاساً حِينَ أَصْحَرَ لِلْعِدَا[٢]

هُمَامٌ !! إِذَا حَارَبْتَ فَارْفَعْ لِوَاءَهُ ، ... فَمَا زَالَ مَنْصُورَ اللِّوَاءِ مُؤَيَّدَا[٣]

وَيَأْنَفُ مِنْ لِينِ المِهَادِ تَمَوُّضاً ... بِصَهْوَةِ طَيَّارٍ إِلَى الرَّوْعِ أَجْرَدَا[٤]

وَقِدْماً شَكَا حَمْلَ التَّمَائِمِ يَافِعاً ... لِيَحْمِلَ رَقْرَاقَ الفِرِنْدِ مُهَنَّدَا[٥]

---

(١) المعنى : أيها الملك العظيم لقد سللت من ابنك سيفا بتاراً على الأعداء ، وحين أبرزته من غمده ظهر مضاؤه ، وقلما يظهر مضاء السيف إذا ظل مغمدا فى القراب .

(٢) الشرى : طريق فى سلمى كثيرة الأسود ؛ أصحر : خرج إلى الصحراء ؛ والمعنى : لم ترض لشبلك أيها الملك أن يقيم بغابته فأبرزته لقتال الأعداء بالصحراء فأمعن فيهم افتراسا وتقتيلا

(٣) الهمام : الملك العظيم الهمة ، والمعنى : إن ابنك أمير عظيم الهمة قوى العزيمة فوله قيادة جيوشك واعقد عليه اللواء فلا يزال يلق من الله النصر والتأييد .

(٤) يأنف : يستنكف ؛ المهاد : الفراش ؛ صهوة : مقعد الفارس على فرسه ؛ الرَّوعَ : الفزع ؛ جواد أجرد : قصير الشعر رقيقه ، أو جواد سَبَّاق ؛ والمعنى : يستنكف الأمير أن يطمئن على الفراش الوثير ويؤثر عليه متن جواد سَبَّاقٍ إلى القتال وشبيه بهذا قول عنترة :

تمسى وتصبح فوق ظهر حشية ... وأبيتُ فوقَ سَراة أدهم ملجَمِ

وحشيتى سرجٌ على عبل الشوى ... نهد مراكله انبيل المحزم

(٥) التمائم : جمع تميمة وهى ما يُعَلَّق على الطفل لحمايته من حسد العيون ؛ أيفع الغلامُ : شبّ وهو يافع ؛ الرقراق : اللامع الوضاء ؛ الفرند : السيفُ الذى لا نظير=

وَلَمْ تَرَ سَيْفًا بَاتِكَ الْحَدِّ قَبْلَهُ   تَنَاوَلَ سَيْفًا دُونَهُ فَتَقَلَّدَا[١]

* * *

لَئِنْ أُعْجِزَتْ مِنْهُ الشَّمَائِلُ آخِرًا   لَقَدْ قَدَّمَتْ مِنْهُ الْمَخَايِلُ مَوْعِدَا[٢]

قَرَرْتَ بِهِ عَيْنًا !! فَكَمْ سَادَ عِتْرَةً   وَكَمْ سَاسَ سُلْطَانًا ، وَكَمْ زَانَ مَشْهَدَا[٣]

وَأُعْطِيتُمَا ـ فِيمَا تُرِيغَانِهِ ـ الرِّضَى ،   وَبُلِّغْتُمَا ـ مِمَّا تُرِيدَانِهِ ـ الْمَدَى[٤]

له أو حليته وجوهره أو ماعلى صفحتيه من الوشى ؛ سيف مهند : مشحوذ بتار أو منسوب إلى الهند وكانت تجيد صناعة السيوف ؛ والمعنى : شب الأمير منذ طفولته يضيق بحمل التمائم المعاقة على الأطفال ويؤثر عليها حمل السيف البتار .

(١) سيف باتك الحد : قاطع مرهف ؛ والمعنى :الأمير كالسيف القاطع فى عزمه ومضائه ولم نر قبله حساما تقلد حساما .

(٢) الشمائل : جمع شمال وهو الخلق ؛ المخايل : جمع مخيلة وهى الظن أو الظهر ؛ والمعنى : إذا كان الأمير الآن تام الفضائل بارع المحاسن فلقد رأينا منه فى طفولته بشائر وعلامات تنبىء بما نتوقعه له من مستقبل عظيم ؛ قال أبو تمام فى رثاء طفلين .

لهفى على تلك المخايل فيهما   لو أمهلت حتى تكون شمائلا

(٣) عِتْرَةُ الرجل : نسله ورهطه الأدنون ؛ والمعنى : أقرّ الله بالأمير عينيك وأسعد به قلبك !! فكم ساد عشيرته وكم أحسن سياسة رعيته وكم زان مواقف المجد والفخار .

(٤) أراغ : أراد وطلب ؛ المدى : الغاية ؛ والمعنى : أدعو الله أن يهبكما من الآمال ماتحبان وأن يبلغكما من الغايات أقصى ماتريدان .

كعبة الآمال

« في عيد الأضحى سنة ٤٤٦ هـ أنشد الشاعر هذه القصيدة مهنئاً المعتضد بالعيد،مشيدا بفتكه بأمراء الأقاليم المجاورة له [١]
وفي مقدمتها حنين إلى ولادة كما ذكر ابن خاقان » .

أَمَا فِي نَسِيمِ الرِّيحِ عَرْفٌ مُعَرِّفُ
لَنَا : هَلْ لِذَاتِ الْوَقْفِ بِالْجِزْعِ مَوْقِفُ ؟[٢]

---

(١) زار المعتضدَ بعضُ أمراء الأقاليم الصغيرة المجاورة له ليستطلع أحوالها ويرشو زعماءها للانضمام إليه ، وعند زيارته لابن قرة أمير رندة فكر في اغتيال المعتضد وهو في ضيافته ، ولكن أميراً من أقاربه هو معاذ بن قرة قبّح لأسرته الغدر بالضيف ؛ وأدرك المعتضد المؤامرة فتظاهر بأنه لم يعلم شيئا ، واحتال حتى عاد إلى إشبيلية ؛ وبعد بضعة أشهر استضاف ابن نوح أمير مورور وابن قرة صاحب رندة وشريس وابن خزرون صاحب أركش، فوفدوا عليه مع أتباعهم من الأمراء والعظماء ، فأقام لهم الولائم الفاخرة ثم أعد لهم حماما ، وبينما هم ينعمون فيه أوصد بابه عليهم ورفع درجة حرارته حتى ماتوا جميعا اختناقا ، وكانوا يناهزون الستين ، واستثنى من الاغتيال معاذ بن قرة الذي أبى اغتيال المعتضد حينما كان في ضيافة بني قرة ، فحفظ المعتضد له صنيعه وأكرمه وغمره بإنعامه ، واستولى على أقاليم هؤلاء الأمراء بعد اغتيالهم .

(٢) في القلائد والخريدة وسرح العيون « ... عرف يعرف » العَرْفُ : الريح طيبـــة أو خبيثة والأشهر الأول ؛ الوقف : سِوَارٌ من عاج ، ووقّفها ألبسها السوار ، قال جران العود :

كوقف العاج مسّ ذكيّ مسك   تجيء به من اليمن التجار

الجزع : منعطف الوادي ؛ والمعنى : هل تستطيع نفحاتُ الريح أن تعرفنا هل تقف ذات السوارِ العاجيّ بمنعطف الوادي ؟

فنقضيَ أوطارَ المُنَى مِنْ زيارةٍ لنا كَلَفٌ مِنْهَا بما نتَكلَّفُ[١]

ضَمانٌ علَيْنَا أنْ تزارَ ، وَدُونها رِقاقُ الظُّبا وَالسَّمْهَرِيُّ المُثَقَّفُ[٢]

وَقومٌ عِدًى يُبْدُونَ عَنْ صَفَحاتِهِمْ وَأَزْهَرُهامِنْ ظُلْمَةِ الحِقْدِ أَكلَفُ[٣]

غَيَارَى ، يَعُدُّونَ الغَرامَ جَرِيرَةً بِها ، وَالهَوَى ظُلْمًا يَغِيظُ وَيُوسِفُ[٤]

يَوَدُّونَ لَوْ يَثْنِي الوَعِيــــدُ زَمَاعَنا

وَهَيْهَاتَ !! رِيحُ الشَّوْقِ مِنْ ذَاكَ أَعْصَفُ[٥]

---

(١) الأوطار : الحاجات ؛ الكلف : الحب ؛ نتكلف : نتجشم ؛ والمعنى : هل تقف ذات السوار بمنعطف الوادى فتتيح لنا تحقيق آمالنا زيارة لهـا طالما تكبدنا الشقات فى الظفر بها فى شوق ولهفة وهيام .

(٢) الظبا : جمع ظُبَة ، وهى حدّ السيف أو السنان أو نحوها ؛ السمهرىّ : الرمح الصّلب ؛ المثقّف : المسوى بالثقاف ؛ والمعنى : لقـد تعهّدنا أن نزورها على الرغم مما يحول دونها من السيوف المرهفة والرماح المشرعة .

(٣) صفحاتهم : مطالع وجوههم ؛ الأزهر : الأبيض ؛ الكلف : الكدرة تعلو الوجه ، أو هو سواد فى صفرة ، والاسم منه الكلف، والصفة أكلف ؛ والمعنى : دون الوصول إلى هذه الحبيبة أعداء الداء يجاهروننا بالعداوة والبغضاء ويسوّد الحقد وجوههم البيضاء .

(٤) جريرة : جناية ؛ يؤسف : يثير الحزن العميق ؛ والمعنى : قوم هـذه الفتاة شديدو الغيرة عليها يعدون حبها ذنبا لايغتفر وعدوانا يثير الغيظ ويحرك الحزن الدفين .

(٥) فى القلائد والخريدة « لو يثنى البعاد » وفى الذخيرة « البعيد » ؛ الوعيد : التهديد ، قال الشاعر :

فدع الوعيدَ . فما وعيدك ضائرى أطنين أجنحة الذباب يضير؟

يَسِيرٌ لَدَى الْمُشْتَاقِ فِي جَانِبِ الْهَوَى ... نَوَى غُرْبَةٍ أَوْ مَجْهَلٌ مُتَعَسَّفُ(١)

هَلِ الرَّوْعُ إِلاَّ غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي؟ ... أَمِ الْهَوْلُ إِلاَّ غُمَّةٌ سَوْفَ تُكْشَفُ؟(٢)

وَفِي السِّيَرَاءِ الرَّقْمِ وَسْطَ قِبَابِهِمْ ... بَعِيدُ مَنَاطِ الْقُرْطِ أَحْوَرُ أَوْطَفُ(٣)

= الإزماع : المضاء فى الأمور فى عزم وتصميم ؛ والمعنى : يتمنى هؤلاء الأعداءُ أن يخيفونا وعيدهم فيضعف عزمنا ويفلّ مضاءنا ، وهيهات هيهات !! فإن ريح الشوق أعصف من أن تَصدّها الحوائل أو تردّها الموائق .

(١) النّوى : الوجه الذى ينويه المسافر ، أو البعد ، أو التحول من مكان إلى آخر ؛ أرضٌ مَجْهَل : لا يهتدى فيها السائر ؛ اعتسف الطريق وتعسفه : خبط فيه على غير هداية ، وأعسف : سار ليلا خابطاً خبطَ عشواء ؛ والمعنى : يسهل على المتيم أن يتكبد المشقات ويقتحم المجاهل الرهيبة فى سبيل الوصول إلى حبيبته وظفره منها بالوصال .

(٢) الروع : الهول والفزع ؛ الغمرة : الشدة ، تنجلى : تزول ؛ الغُمّة : الكربة ، وأمرٌ غُمّة : مُبْهَمٌ مُلْتبِس قال تعالى « ثم لايكنْ أمركم عليكم غمة » قال أبو عبيدة : ظلمة وضيق وهم ؛ والمعنى : من السهل علينا أن نقتحم فى سبيلها الأهوال فكل رهبة سوف تنتهى وكل كرب سوف يزول ، فإن الوسائل الشاقة يهون احتمالها فى سبيل الوصول إلى الغايات ؛ وقد آثرنا رواية نسخة ت وفى ا ، ب . ز « ثم تكشف » .

(٣) السِّيَرَاء : نوع من الثياب فيه خطوط صفر أو يخالطه الحرير أو الذهب الخالص ؛ الرقم : الخز أو ضرب مخطط من الوشى ؛ مناط الشيء : مكان تعليقه ؛ أحور : واضح الحور وهو شدة سواد العين فى شدة بياضها ؛ أوطف : طويل أهداب العينين ؛ والمعنى : فى الحلل المذهّبة الوشاة بين قبابهم يميس حبيبٌ لى كالغزال طويل الجيد أحور العينين طويل الأهداب .

تَبَايَنَ خَلْقَاهُ ، فَعَبْلٌ مُنَعَّمٌ تَأَوَّدَ فى أعْلاَهُ لَدْنٌ مُهَفْهَفُ[١]

فَلِلْعَانِكِ الْمُرْتَجِّ ما حازَ مِئْزَرٌ وَلِلْغُصُنِ الْمُهْتَزِّ ما ضَمَّ مِطْرَفُ[٢]

حَبِيبٌ إلَيْهِ أنْ نُسَرَّ بِوَصْلِهِ ـ إذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ ـ وَنَهْنَا وَنُسْعَفُ[٣]

* * *

وَلَيْلَةَ وَافَتْنَا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدٍ سُرَى الأيْمِ ، لَمْ يُعْلَمْ لِمَسْرَاهُ مَزْحَفُ[٤]

تَهَادَى أنَاةَ الخَطْوِ مُرْتَاعَةَ الحَشَا كَمَا رِيعَ يَعْفُورُ الفَلاَ الْمُتَشَرِّفُ[٥]

---

(١) تباين : اختلف وتباعد ؛ عبل : ضخم (والمراد هنا الردف) ؛ تأود : انعطف وتمايل ؛ لدن : طرى ؛ مهفهف ومهفف : ضامر البطن ؛ والمعنى : اختلفت أعضاء جسمه فى الصفات ؛ فهو ضخم الردف ضامر الخصر ممشوق القوام.

(٢) العانك : المرأة السمينة ، والرمل العانك : المكدس المرتفع ؛ المئزر والإزار : اللحفة وهى ثوب يلف على الجزء الأسفل من الجسم ويسميه العامة الآن (جونلّه) ، المطرف (بضم الميم وكسرها) : رداء مربع من الخز (ولعله مايسميه العامة الآن بلوزة) ؛ والمعنى : يضم مئزرها ردفاً ضخماً مرتجا ، ويضم مطرفها غصنا مهتزا ؛ حيث اكتمل لها تناسب الأعضاء وتم فيها الجمال .

(٣) المعنى : هذا الحبيب يتمنى أن نسعد بوصاله ونهنأ بلقائه .

(٤) فى نسخة ا «لم يعلم لمسراه مرحف» وفى ب، ت وسرح العيون « مرجف » ، وقد آثرنا رواية ز «مزحف» وقد فسرها فى النسخة بمعنى « غاية » زلحف فلان : انتهى إلى غاية ماطلب ، ومزاحف الحيات مواضع دبيبها ؛ وقد تكون «مرخف» والرخف هو الزبد الرقيق أو العجين المسترخى ؛ الأيم : الحية ؛ والمعنى : مازلنا نذكر الليلة التى لاقتنا فيها على الكثيب فى موعد معلوم فأقبلت منسابة فى خفة ورشاقة كما تنساب الحيات فى هدوء فوق الرمال .

(٥) تهادى : تهادى أى تمايل فى رشاقة ودلال ؛ الأناة : المرأة التى تنهض فى فتـ... استرخاء ؛ يعفور الفلاة : ظبى الصحراء ؛ المتشرف : المستطلع=

فَمَا الشَّمسُ رَقَّ الْغَيْمُ دُونَ إِيَاتِهَا ... سِوَى مَا أَرَى ذَاكَ الْجَبِينُ الْمُنَصَّفُ[١]

فَدَيْتُكِ !! أَنَّى زُرْتِ؟ نُورُكِ وَاضِحٌ ... وَعِطْرُكِ نَمَّامٌ، وَحَلْيُكِ مُرْجِفُ[٢]

هَبِيكِ اغْتَرَرْتِ الْحَيَّ !! وَاشِيكِ هَاجِعٌ

وَفَرْعُكِ غِرْبِيبٌ، وَلَيْلُكِ أَغْضَفُ[٣]

= من مكان عال ، من تشرّفَ الربا وأشرفه وشارفه : علاه ؛ وفى الذخيرة وسرح العيون « المتشوف » من تشوّف إذا تطاول ونظر وأشرف ؛ والمعنى : أقبلتْ متهاديةً رقيقة الخطا خائفة من الرقباء ، تسير وتتلفت وتتطلع حولها مخافة العيون ، كما يرتاع الظبي فيتطلع من علٍ ويتفحّص ما حوله ليأمن غائلة الكواسر .

(١) أياة الشمس وأياؤها : حسنها ونورها ؛ الجبين المنصّف : الذى يعلوه الخمار ، ونصّف الجارية بالنصيف ألبسها الخمار ، قال النابغة الذبيانى .

سقط النصيف ، ولم تُرِدْ إسقاطه ... فتناولتْهُ ، واتقتنا باليد

والمعنى : ليست الشمسُ — حين يحجبها الغيم الرقيق — بأجمل منظرا من جبينها تحت النقاب .

(٢) فى سرح العيون « فديتك أنَّى زرت » وفى الذخيرة « نورك فاضح » ؛ هذا البيتُ والأبيات الثلاثة التالية له كرَّرها الشاعر فى قصيدته اللامية فى مدح أبى الوليد بن جهور ؛ ويمكن الرجوع إلى شرحها ص ٣٩٠ ، ٣٩١ ، وسنكتفى هنا بشرح التعبيرات الطفيفة التى اقتضاها تغيير القافية والسياق ، حليك مرجف : مضطربٌ موسوسٌ ينم عليك كأنه يتحدث عسراك .

(٣) فى سرح العيونَ « اعتسفت الليل . وليلُك أغدف » ، الأغدف : من الغُداف وهو الشعر الطويل الأسود أو الجناح الأسود ؛ الليل الأغضف : المظلم ، ومثله الأغسف .

فَأَنَّى اعْتَسَفْتِ الْهَوْلَ؟ خَطْوُكِ مُدْمَجٌ ... وَرِدْفُكِ رَجْرَاجٌ، وَخَصْرُكِ مُخْطَفُ(١)

لَجَاجٌ، تَمَادِي الْحُبِّ فِى الْمَعْشَرِ الْعِدَا ... وَأَمُّ الْهَوَى الْأَفْقَ الَّذِى فِيهِ نُشْنَفُ(٢)

وأَنْ نَتَلَقَّى السُّخْطَ ـ عَانِينَ ـ بِالرِّضَى ... لِغَيْرَانَ، أَجْفَي مَا يُرَى حِينَ يَلْطُفُ(٣)

كَفَانَا مِنَ الْوَصْلِ التَّحِيَّةُ خُلْسَةً ... فَيُومِى طَرْفٌ، أَوْ بَنَانٌ مُطَرَّفُ(٤)

* * *

خَلِيلَيَّ مَهْلاً!! لاَ تَلُوماَ، فَإِنَّنِي ... فُؤَادِى أَلِيفُ الْبَثِّ، وَالْجِسْمُ مُدَنَّفُ(٥)

---

(١) فى سرح العيون « فكيف أطقت المشى خصرك... »، وفى الأصول « وأنى اعتسفت الهول » وقد آثرنا رواية الذخيرة، وفى بعض نسخها « وكيف اعتسفت » وفى سرح العيون « وقدك أهيف » أهيف : ضامر نحيف، ومثله مخطف الحشا ومخطوفه وأخطفه أىْ ضامره.

(٢) اللجاج : التمادى والإلحاح فى العناد أو الخصومة ؛ الأَمُّ : القَصْدُ شنفَهُ : أبغضه وتنكَّرَ له ؛ وفى نسخ ب، ت، ز « يشنف » والضمير فيه يعود على الهوى.

(٣) عانين : خاضعين، قال تعالى « وعنت الوجوه للحىّ القيوم » أى خضعت وذلت ؛ غيران : شديد الغيرة ؛ أجفى : أخشن وأغلظ ؛ والمعنى : من اللجاج فى الحب أن نتلقى غضبَ قومها وسخطهم بالذلّ والخضوع محتملين غلظتهم وجفاءهم، وهم أعنف ما يكونون إذا هم حاولوا اللطف والوداد.

(٤) فى الخريدة « كفانا من الشوق » ؛ بنان مُطَرَّف : مخضب ؛ والمعنى : لامبرِّرَ للإلحاح فى الوصول إلى هذه الفتاة على الرغم مما يحيط بها من أهوال، فحسبنا أن نبادلها التحية اختلاسا : إيماءً باللحظ أو إشارة بالبنان.

(٥) فى ب، ت، ز « أليف الحزن » ؛ البث : أشدّ الحزن ؛ الجسم مُدنف: مريض مرضا ثقيلا مزمنا ؛ والمعنى : ياصديقَىَّ لاتوجِّهَا إلىَّ اللوم على تدلُّهى=

فَأَعْنَفُ مَا يَلْقَى الْمُحِبُّ لِحَاجَةٍ ... عَلَى نَفْسِهِ فِي الْحُبِّ حِينَ يُعَنَّفُ(١)

وَإِنِّي لَيَسْتَهْوِينِيَ الْبَرْقُ صَبْوَةً ... إِلَى بَرْقِ ثَغْرٍ إِنْ بَدَا كَادَ يَخْطَفُ(٢)

وَمَا وَلَعِي بِالرَّاحِ إِلاَّ تَوَهُّمٌ ... لِظَلْمٍ بِهِ كَالرَّاحِ، لَوْ يُتَرَشَّفُ(٣)

وَتُذْكِرُنِي الْعِقْدَ الْمُرِنَّ جُمَانُهُ ... مُرِنَّاتُ وُرْقٍ فِي ذُرَا الْأَيْكِ تَهْتِفُ(٤)

فَمَا قَبْلَ مَنْ أَهْوَى طَوَى الْبَدْرَ هَوْدَجٌ ... وَلاَ ضَمَّ رِيمَ الْقَفْرِ خِدْرٌ مُسَجَّفُ(٥)

= فيها، فلا حيلة لى فى حبها، وماذا أصنع فى قلب برّح به الحبُّ وجسم أضناه الهيام ؟.

(١) المعنى : إنّ أشد ما يلقاه المحبُّ من آلام مبرّحة هو لوم اللائمين وعذل اللاحين ، وفى الأمثال المأثورة « ويلٌ للشجىّ من الخلى » .

(٢) يستهويه : يستميله ويتيّمه ، قال تعالى « كالذى استهوته الشياطين » ؛ الصَّبْوة : الميل إلى الجهل والفتوة أو الشوق والحنين ؛ والمعنى : كلما لمع البرق هاج شوقى وحنينى إلى ابتسام ثغر وضاء يكاد يخطف الأبصار بلألائه .

(٣) فى الخريدة « لظلّم لها » وفى القلائد « إذ يُترشّف » ؛ الظَّلْمُ : ماءُ الأسنان وريقها ، الراح : الخمر ؛ والمعنى : ما كان شغفى بالخمر إلا لأنهـا تذكرنى بريقه المذب الذى أتمنى أن أحظى برشفه ؛ وقريب من هذا قول المتنبى :

وما شرق بالماء إلا تذكّراً ... لماء به أهلُ الحبيب نزول

(٤) المُرِنُّ : المحدثُ صوتاً فيه امتداد ؛ الجُمان : اللؤلؤ أو حبوب من الفضة تشبه اللؤلؤ تُصنَع عقوداً ؛ الوُرْق : جمع وَرْقاء وهى الحمامة التى فى لونها غبرة ، ذُرا : جمع ذروة ، وذروة الشىء : أعلاه ؛ الأيك : الشجر الكثير الملتف ؛ والمعنى : يذكرنى سجعُ الحمائم رنين حبات عقدها النضيد .

(٥) فى سرح العيون «حوى البدر» ، وفى الأصول «ولاسان ريم القفر»=

وَلاَ قَبْلَ « عَبَّادٍ » حَوَى الْبَحْرَ مَجْلِسٌ
وَلاَ حَمَلَ الطَّوْدَ الْمُعَظَّمَ رَفْرَفُ[1]

* * *

هُوَ الْمَلِكُ الْجَعْدُ الَّذِى فى ظِلاَلِهِ
تُكَفُّ صُرُوفُ الْحَادِثَاتِ وَتُصْرَفُ[2]

هُمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلَهُ مَلِيكٌ فَقِيهٌ كَاتِبٌ مُتَفَلْسِفُ[3]

= وقدأثرنا رواية الذخيرة والقلائد وسرح العيون ؛ الهودج : مركب النساء ؛ الريم والرئم والريم : الظبي الخالص البياض ؛ الخدر : الستر أوالبيت إن كانت فيه امرأة ، وأخدرت الجارية : لزمت الخدر ؛ بيت مسجف : مسدول عليه الأستار ؛ والمعنى : لم أر بدراً ركب هودجا ، ولا ظبيا يحل بيتا مصونا بالأستار قبل حبيبي المشرق كالبدر المنير ، الرشيق كالظبي النرير .

(١) الطود : الجبل العظيم ؛ الرفرف : ثياب عريضة خضر تتخذ منها مفارش الوسائد والأسرة ، أو الوسادة ، أو المتكأ ، أو نوع من البسط ، قال تعالى « متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان » ؛ والمعنى : لم أر قبل الأمير مجلسا يضم البحار ولا بساطا يحمل الجبال ؛ وشبيه بهذا قول ابن دراج القسطلي فى ابن أبى عامر :

وكيف استوى بالبر والبحر مجلس ؟ وقام بهب الراسيات سرير ؟

(٢) الجعد : الكريم أو البخيل ، والمقصود هنا المعنى الأول ، تكف : تصد ؛ صروف الحادثات : نوائب الدهر وأحداثه ؛ والمعنى : هو الملك الكريم الذى يصد عنا عاديات الزمان ويكف طوارق الحدثان .

(٣) المعنى : إنه زينة للزمان وأهله ، فقد ضم إلى سياسة الملك التبحر فى الفقه ، كما جمع إلى البراعة فى الكتابة التعمق فى الفلسفة

يَتِيهُ بِمَرْقَاهُ سَرِيرٌ وَمِنْـبَرٌ   وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حُسَامٌ وَمُصْحَفُ[(١)]

رَوِيَّتُهُ فِى الْحَادِثِ الْإِدِّ لَحْظَةٌ
وَتَوْقِيعُهُ الْجَالِى دُجَى الْخَطْبِ أَحْرُفُ[(٢)]

يَذِلُّ لَهُ الْجَبَّارُ خِيفَةَ بَأْسِهِ   وَيَعْنُو إِلَيْهِ الْأَبْلَجُ الْمُتَغَطْرِفُ[(٣)]

حِذَارَكَ — إِذْ تَبْغِى عَلَيْهِ — مِنَ الرَّدَى
وَدُونَكَ فَاسْتَوْفِ الْمُنَى حِينَ تُنْصِفُ[(٤)]

سَتَعْتَامُهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِالتَّوَى   كَتَائِبُ تُزْجَى أَوْسَفَائِنُ تُجْذَفُ[(٥)]

---

(١) المعنى : يعتز بحمله سريرُ الملك ومنبر الخطابة، كما يحمدمناقبهومساعيه المصحفُ والسيفُ،فهو ملك عظيم وخطيبمصقع وفارس مغوار ومشمرفىدراسة الشريعة ونصرة الدين .

(٢) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة وسرح العيون ؛ وفى الأصول « فى الحادث الأود » والأود : العِوَج أو الإجهاد ؛ الإدُّ والإدَّةُ والأد : الأمر الفظيع أو الداهية أو المنكر ؛ والمعنى : يحل الأميرُ أعضل المشكلات فى لمحة خاطفة من ذهنه الوقاد ، ويصوغ فى بضعة أحرف الرأى الخطير الذى يبدد ظلمات الخطوب .

(٣) الأبلج : المضىء المشرق ، وفى حديث أم معبد فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم « أبلج الوجه» أى مشرقه ؛ المتغطرف: السيد المتكبرالمختال فىمشيته؛ والمعنى : يخضع كلُّ جبار للأمير خائفا مرتاعا ، ويذلُّ له كل متكبر مختال .

(٤) فى نسخة « أن تبغى » ؛ والمعنى إذا فكرْت فى الجور عليهفاحترس من أن يقتلك سلاحه البتّار . وإذا فكرتَ فى نيل جميع أمانيك فالجأ إليه تنل منها أعظم الآمال .

(٥) العِيمة : خيار المال ، واعتامها : أخذها والاعتيام: الاختيار، قال طرفة:

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ، ويصطفِى   عقيلةَ مال الفاحش المتشدد

عقيلة كل شىء : خيرته وأنفَسُه عند أهله ؛ التوى : الهلاك ؛ تُزْجَى : =

أَغرُّ مَتَى تَدْرُسْ دَوَاوِينَ مَجْدِهِ ... يَرُقْنَا غَرِيبٌ مُجْمَلٌ أَوْ مُصَنَّفُ

إِذَا نَحْنُ قَرَّظْنَاهُ قَصَّرَ مُطْنِبٌ ... وَلَمْ يَتَجَاوَزْ غَايَةَ الْقَصْدِ مُسْرِفُ

• • •

وَأَرْوَعُ لَا بَاغِي أَخَاهُ مُبَلَّغٌ ... مُنَاهُ، وَلَا رَاجِي نَدَاهُ مُسَوَّفُ

مُمَرُّ الْقُوَى، لَا يَمْلَأُ الْخَطْبُ صَدْرَهُ ... وَلَيْسَ لِأَمْرٍ فَائِتٍ يَتَلَهَّفُ

لَهُ ظِلٌّ نُعْمَى يَذْكُرُ الْهِمُّ عِنْـــدَهُ ... ظِلَالَ الصِّـــبَا، بَلْ ذَاكَ أَنْدَى وَأَوْرَفُ

= تُرْسل وتساق، قال تعالى: «ربكم الذى يزجى لكم الفُـلْكَ فى البحر لتبتغوا من فضله» ، والمعنى: سوف تجتاح أعداءَك كتائبُ جيشك البرية وأساطيلُ البحرية ، فكأنها تخترمهم وتقذفهم بالهلاك .

(١) الأغر: الأبيض أو الشريف؛ والمعنى: إذا درسْنا بواعث مجده وسؤدده وجدنا فيها ما يحير الألباب من العجائب التى ميزته عن غيره جملة وتفصيلا ، وفى البيت إشارة تورية لكتاب الغريب المصنف لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ وكتاب المجمل فى اللغة لأبى الحسن أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠

(٢) المعنى: إذا مدحنا الأميرَ لم نستطع أن نفيَه حقه من الثناء مهما أسرفنا فى المبالغة والإطناب .

(٣) الأروع: الذى يثير الإعجاب بحسنه أو شجاعته ؛ باغى: طالب والمعنى: الأمير رائع النظر جميل الظاهر لا يعتَدَى على أوليائه ، ولا يخيب قاصدوه بإخلاف أو تسويف .

(٤) مُمَرّ: مفتول من أمررتُ الحبل أو الخَيط إذا فتلته فتْلا شديدا ؛ والمعنى: الأمير مكتمل القوى محكم التكوين لا يرتاع لخطب نازل ولا يتأسف على أمر فائت .

(٥) الهِمُّ: الشيخ الفانى ؛ أورف: أوسع وأطول من وَرَفَ الظِّلُّ وأورف إذا طال واتسع وامتدّ ، والمعنى: يعدُّ الأمير ظلالَ نعمه الوافرة فينسى =

جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ وَجَنَّةُ عَدْنٍ لِلْمُطِيعِينَ تُزْلَفُ(١)

مَحَاسِنُ ، غَرْبُ الذَّمِّ عَنْهَا مُفَلَّلٌ كَهَامٌ ، وَشَمْلُ المَجْدِ فِيهَا مُؤَلَّفُ(٢)

تَنَاهَتْ !! فَعِقْدُ المَجْدِ مِنْهَا مُفَصَّلٌ سَنَاءً ، وَبُرْدُ الفَخْرِ مِنْهَا مُفَوَّفُ(٣)

طَلَاقَةُ وَجْهٍ فِي مَضَاءٍ ، كَمِثْلِ مَا يَرُوقُ فِرِنْدُ السَّيْفِ وَالحَدُّ مُرْهَفُ(٤)

عَلَى السَّيْفِ مِنْ تِلْكَ الشَّهَامَةِ مِيسَمٌ — وَفِي الرَّوْضِ مِنْ تِلْكَ الطَّلَاقَةِ زُخْرُفُ(٥)

= الشيخ الفاني تحتها ظلٌ شبابه ، ورى ظلال الأمير أوسع مدى وأندى نسيما .

(١) أزلف : قرّب ، قال تعالى « وأُزْلِفَتِ الجنة للمتقين » أى قُرِّبَتْ لهم ؛ والمعنى : الأمير جحيم متوقد على الأعداء وجنة وارفة دانية الأصدقاء

(٢) الغَرْب : الحد ؛ مفلَّل : مكسور ؛ الكهام : الكليل الذى لاغناء عنده ؛ والمعنى : شمائل الأمير تتلاقى وتتجمع عليها آياتُ المجد والفخار وترتد عنها سيوفُ القادحين متكسرة كليلة مفلولة المضاء .

(٣) بردٌ مفوف : ثوب رقيق مخطط ؛ والمعنى : بلغت شمائل الأمير حدَّ التمام ، فملى جيد المجد منها عقد رفيع وسَناء ، وعلى الفخر منها ثوبٌ رقيق مزدان

(٤) فرند السيف حليته ووشيه ؛ مرهف : ماضى الحد ؛ المعنى : الأمير متهلِّلُ الوجه بسَّام الثغر ، وهو إلى هذا مرهف العزم ماضى الحد ، كالسيف يعجبنا بوشيه وروقنا بمضائه .

(٥) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد وسرح العيون ؛ وفى الأصول «وفى الروض من تلك الطلاقة مَظْرف» وفى الخريدة «... أحرف» ، وفى الذخيرة وسرح العيون « على السيف من تلك الصرامة » ؛ وفى الذخيرة « وفى الروض من تلك الطلاقة » ؛ ميسم : علامة ؛ الزخرف : ألوان النبات الزاهية أو الذهب أو كمال الشيء وحسنه ؛ والمعنى : استعار السيفُ من الأمير مضاءه ونفاذه ، واقتبست منه الروضة بهاءها وزخرفها .

سَجَايَا لِمَنْ وَالاهُ كَالأَرْىِ تُجْتَنَى ... تَعُودُ لِمَنْ عَادَاهُ كَالشَّرْىِ يُنْقَفُ(١)

يُرَاقِبُ مِنْهُ اللهَ « مُعْتَضِدٌ » بِهِ ... يَدَ الدَّهْرِ يَقْسُو فِى رِضَاهُ وَيَرْأَفُ(٢)

فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الحَاسِدِيهِ : مَتَى ادَّعَى

ـ سِبَاقَ العَتِيقِ الفَائِتِ الشَّأْوِ ـ مُقْرِفُ؟(٣)

أَلَيْسَ « بَنُو عَبَّادٍ » القِبْلَةَ الَّتِى ... عَلَيْهَا لِآمَالِ البَرِيَّةِ مَعْكَفُ(٤)

مُلُوكٌ يُرَى أَحْيَاؤُهُمْ فَخْرَ دَهْرِهِمْ ... وَيَخْلُفُ مَوْتَاهُمْ ثَنَاءٌ مُخَلَّفُ(٥)

---

(١) الأرى : العسل ؛ الشرى : الحنظل أو شجره ؛ ينقف : يشق ؛ والمعنى : شمائل الأمير حلوة كالشهد يقطف لمن والاه ، ولكنها مرة كالحنظل تشق ثمرتها لمن عاداه .

(٢) معتضد بالله : مستعين به ؛ يدَ الدهر : مدى الزمان ؛ والمعنى : يراقب « المعتضد بن عباد » ربه ويستعين به مدى الحياة فى كل أموره ، فيشتد فى سبيله ويلين فى سبيله ، فهو مراع دائما لحقوق الله .

(٣) العتيق : الرائع ؛ الشأو : الغاية والأمد ؛ المقرف : المولود لأبوين مختلفين فى الجنس ، فالإقراف من جهة الأب والهجنة من جهة الأم ؛ والمعنى : قُلْ لحاسديه من الملوك هيهات أن تنالوا مناله ؛ فشتان بينه وبينكم فى الفخار ، ومتى استطاع جوادٌ غير أصيل أن يدرك الجوادَ الأصيل السبّـاق ؟ .

(٤) معكف مصدر ميمى من عكف على الشىء إذا أقبل عليه مواظباً ، ومنه الاعتكاف فى المسجد . قال تعالى « يعكفون على أصنامهم لهم » ؛ والمعنى : إن بنى عبادهم القِبْلة التى تتجه إليها الأنظار وتتوافد عليها الآمال .

(٥) المعنى : إنهم ملوك يفخر بهم الدهر ماداموا أحياء ، ويطيب الثناء عليهم إذا طوتهم المنون .

بِهِمِ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءَ : فَأَوْجُهٌ
شُمُوسٌ وَأَيْدٍ مِنْ حَيَا الْمُزْنِ أَوْكَفُ[١]

* * *

أَشَارِحَ مَغْنَى الْمَجْدِ وَهْوَ مُعَمَّسٌ وَمُجْزِلَ حَظِّ الْحَمْدِ وَهْوَ مُسَفْسِفُ[٢]
لَعَمْرُ الْعِدَا لِلْمُسْـــتَدْرِجِيكَ بِزَعْمِهِمْ
— إِلَى غِرَّةٍ ، كَادَتْ لَهَا الشَّمْسُ تُكْسَفُ[٣]
لَكَالُوكَ صَاعَ الْغَدْرِ لُؤْمَ سَجِيَّةٍ وَكِيلَ لَهُمْ صَاعُ الْجَزَاءِ الْمُطَفَّفُ[٤]

---

(١) الحيا : المطر ؛ المزن : السحاب ؛ أوكف : أغزر مطرا ؛ والمعنى : تفتخر الأرض بهم على السماء ، فوجوههم شموس مشرقة وأيديهم غيوث ممطرة .

(٢) معمّس : ملتبس مظلم ؛ مسفسف : منحط حقير ، والسفساف : الردىء من كل شىء والأمر الحقير ، وفى الحديث «إن الله تبارك وتعالى يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » ؛ والمعنى : لقد أوضحت معالم المجد بعد غموضها ، وأعليت بواعث المحامد بعد إسفافها فأجزلت العطاء على الثناء .

(٣) فى البيت إشارة إلى التدبير الذى أعـــدّه الأمراء لاغتيال المتضد ؛ والشاعر يقسم بحياتهم متهكما بهم ، والمعنى : إنهم استدرجوك لبأخذوك على غرة فدبروا مؤامرة تـكاد الشمس بدركها الـكسوف من هولها .

(٤) الصاع : مكيال سعته قدحان وثلث بالـكيل المصرى الحديث ؛ مكيال مطفّف : منقوص قليل ، قال تعالى « ويل للمطففين » أى المنقصين فى الـكيل ؛ والمعنى : لقد كالوا لك صاعا وافيا من الغدر الخسيس اللئيم ؛ فجازيتهم عنه جزاءاً رادعا ، ولـكنه أقل مما يستحقون « وقد ذكرنا أن المتضد استضافهم ودعاهم إلى الحمام ثم أوصده عليهم ورفع درجة حرارته حتى ماتوا مختنقين » .

لقدْ حاوَلُوا العُظْمَى الَّتِي لا شَوَى لَهَا ... فَأَعْجَلَهُمْ عَقْدٌ مِنَ الْهَمِّ مُحْصَفُ(١)

* * *

وَلمَّا رَأَيْتَ الْغَدْرَ هَبَّ نَسِيمُهُ ... تَلَقَّاهُ إِعْصارٌ لِبَطْشِكَ حَرْجَفُ(٢)

أَظَنَّ الأَعَادِي أَنَّ حَزْمَكَ نَائِمٌ؟ ... لَقَدْ تَعِدُ الْفَسْلَ الظُّنُونُ فَتُخْلِفُ(٣)

دَوَاعِي نِفَاقٍ أَنْذَرَتْكَ بِأَنَّهُ

سَيَشْرَى، وَيَدْوَى الْعُضْوُ مِنْ حَيْثُ يُشْأَفُ(٤)

---

(١) الشوى: الأمر الهيّن، أو الأطراف وما كان غير مقتل، وأشواه: أصاب شواه لامقتله، عقد: تصميم؛ الهَمّ: العزمة؛ محصف: محكم؛ والمعنى: لقد دبّروا أمراً جليلاً يصيب المقتل فى الصميم (لا فى الأطراف) فبادرهم منك تدبير محكم حصيف واستأصلتهم قبل أن يستأصلوك.

(٢) فى الأصول «خرجف» ولعل الصواب ما أثبتناه؛ الإعصار: الريح العاصفة، الحرجف: الريح الباردة الشديدة الهبوب؛ والمعنى: لما رأيت الغدر بادياً منهم قابلتهم بأعنف مما أرادوه، وفى الأمثال «إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصارا».

(٣) آثرنا رواية نسخة ا والذخيرة؛ وفى ب، ت، ز «أن بأسك نائم» وفى سرح العيون «أنّ حربك ..»، وفى القلائد والخريدة «يظن الأعادى ..» وفى سرح العيون «لقد تعد النسل ...»؛ الفَسل: الرذل، والفسل: الأحمق؛ والمعنى: أيحسب الأعداء أنّ عزمك غافل؟ وطالما خدعت الأحمقَ خيالاتُه وأحلامه.

(٤) يشرَى: يستطير؛ يدوَى: يمرض؛ يُشْأَفُ: يصاب بالشأفة، وهى قرحة تخرج فى أسفل القدم فتُكْوَى فتذهب، واستأصل الله شأفته: اذهبه كما يذهب الكَيُّ القرحة؛ والمعنى: لمحت فيهم مظاهر النفاق بادية تنذر بكيدهم المستطير، وقد يصاب العضو بالمرض من حيث مكان العلاج.

تَحَمَّلْتَ عِبْءَ الدَّهْرِ عَنْهُمْ ، وَكُلُّهُمْ بِنُعْمَاكَ مَوْصُولُ التَّنَعُّمِ مُتْرَفُ[1]

فَإِنْ يَكْفُرُوا النُّعْمَى فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ

بِسَيْفِكَ قَاعٌ صَفْصَفُ الرَّسْمِ تُنْسَفُ[2]

وَطَىُّ الثَّرَى مَثْوًى يَكُونُ قُصَارَهُمْ

وَإِنْ طَالَ مِنْهُمْ فِى الْأَدَاهِمِ مَرْسَفُ[3]

* * *

وَبُشْرَاكَ عِيدٌ بِالسُّرُورِ مُظَلِّلٌ وَبِالْحَظِّ فِى نَيْلِ الْمُنَى مُتَكَنِّفُ[4]

---

(١) المعنى : كم تحملت عنهم أثقال الزمان ودفعت عنهم غوائله !! فأصبحوا يعيشون فى ترف ونعيم تحت ظلك الوارف العميم ، ولكنهم جاحدون .

(٢) القاع : المستوى من الأرض ، وزاد ابن فارس وصفاً له بأنه لا يُنبِتُ ، أو هو أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال ، أو الأرض الخالية ؛ الصفصف المستوى من الأرض أو حرف الجبل ؛ قال تعالى « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعا صفصفاً » أى خالية مستوية بالأرض ؛ والمعنى : إذا كانوا قد كفروا أنعمك فقد خرّبت أوطانهم ودككت حصونهم فسوّيتها بالتراب ، فهى الآن قفر خلاء ، وهم أهل لهذا الجزاء .

(٣) قصارك وقصاراك : أقصى ما تستطيع ؛ الأداهم : جمع أدهم وهو القيد الحديدى ؛ مَرْسَف : مشى المكبل بالقيود ؛ والمعنى : مآلهم أن توردهم موارد الهلاك وتقذف بهم إلى القبور بعد أن تطيل تقييدهم بالأغلال .

(٤) متكنّف : محاط به ، يقال : تكنفوه واكتنفوه وكنفوه : أحاطوا به ؛ والمعنى : هنيئاً لك بالعيد الذى أقبل عليك يظلله السرور ويحيط به الحظ السعيد المبشر ببلوغ الآمال .

بِشِـــيرٍ بِأَعْيَادٍ تُوَافِيكَ بَعْدَهُ
كَمَا يَنْسُقُ النَّظْمَ الْمُوَالِي وَيَرْصُفُ(١)

تُوَافِي - إِذَا وَافَتْكَ - قَاضِيَةَ الْمُنَى ... فَيُنْشِيكَ مِنْهَا الزَّاهِرُ الْمُتَوَكِّفُ(٢)

تُجَرِّدُهُ فِيهِ سَيْفَ دَوْلَتِكَ الَّذِي ... دِمَاءُ الْعِدَا دَأْبًا بِغَرْبَيْهِ تُظْلَفُ(٣)

هُوَ الصَّارِمُ الْعَضْبُ الَّذِي الْعَزْمُ حَدُّهُ ... وَحِلْيَتُهُ بَذْلُ النَّدَى وَالتَّعَفُّفُ(٤)

هُمَامٌ سَمَا لِلْمُلْكِ إِذْ هُوَ يَافِعٌ ... وَتَمَّتْ لَهُ آيَاتُهُ وَهُوَ مُخْلِفُ(٥)

(١) ينسق : يسوى وينظم فى جمال وإتقان ؛ يَرْصُف : يُحكم ؛ الموالى : الناصر ؛ والمعنى : هذا العيد بشيرٌ بأعياد متوالية توافيك بعده فى نسق بديع محكم ، كما ينسق المادحون الموالون لك أبدعَ آياتِ الثناء فيك .

(٢) أنشاه الشرابُ : أسكره ، الزاهر : المشرق المتلألئ أوالناضر البهيج ، المتوكِّف : مِنْ توكف المطرُ إذا هطل وقطر ؛ والمعنى : توافيك هذه الأعياد حينًا توافى فتقضى لك الآمال ، ويثير فيك النشوةَ رَوضُـها اليانع الذى تسيل منه قطرات الندى ، أو زمانها الندى المشرق .

(٣) غربُ السيف : حدّه ، تُظلَف : تباح وتُهـدر ، الظلف : المباح ، وذهب دمُـه ظَلَـفا أى باطلا هدرا ؛ والمعنى : تسُـلُّ فى هذه الأعياد سيفَ دولتك الذى يُهدر ويستبيح دمَ الأعداء ، والمقصود هنا هو الأمير اسماعيل ابن المعتضد ولى العهد وقائد الجيش .

(٤) العضب : المرهف القاطع ؛ والمعنى : إن ابنك وقائد جيشك اسماعيل هو سيفٌ قاطع بتَّـار ، حدُّه العزيمة الصارمة وحليته العفة والسخاء .

(٥) اليافع : الغلام الناشئ ، وأيفع الغلام : شب ؛ مخلف : مجاوز للحلم ؛ والمعنى : إن الأمير همام تطلّـع لحمل أعباء الملك وهو ناشئ ، وتمت له أسباب السيادة حين شارف البلوغ .

كَرِيمٌ يَعُدُّ الحَمْدَ أَنْفَسَ قِنْيَةٍ ... فَيُولَعُ بِالفِعْلِ الجَمِيلِ وَيُشْغَفُ[١]

غَدَا بِخَمِيسٍ ، يَقْسِمُ الغَيْمَ إِنَّهُ ... لَأَحْفَلُ مِنْهُ مُكْفَهِرًّا وَأَكْثَفُ[٢]

هُوَ الغَيْمُ مِنْ زُرْقِ الأَسِنَّةِ بَرْقُهُ ... وَلِلطَّبْلِ رَعْدٌ فِى نَوَاحِيهِ يَقْصِفُ[٣]

* * *

وَلَمَّا قَضَيْنَا مَا عَنَانَا قَضَاؤُهُ ... وَكُلٌّ بِمَا يُرْضِيكَ دَاعٍ فَمُلْحِفُ[٤]

قَرَنَّا بِحَمْدِ اللهِ حَمْـــدَكَ ، إِنَّهُ ... لَأَوْكَدُ مَا يُحْظِى لَدَيْهِ وَيُزْلِفُ[٥]

(١) القنية : ما يدخره الإنسان لنفسه من التحف ؛ والمعنى : الأمير كريم يعد المحامد أنفس ما يدخره الإنسان ، فيندفع إلى فعل الجميل فى شوق وهيـام ، فيستحق بهذا الحمد والثناء .

(٢) الخميس : الجيش الكثيف التام التكوين من المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق ؛ والمعنى : قاد الأمير جيشاً كثيفاً يقسم السحاب ــ وهو حافل ممتلىء ــ أن هذا الجيش أغزر منه عدة وعديدا .

(٣) المعنى : جيش الأمير كالسحاب المتراكم تبرق فيه أسنة رماحه الزرقاء، وتدوى الطبول كالرعد القاصف فى نواحيه .

(٤) آثرنا رواية الذخيرة والقلائد وسرح العيون وتمام المتون ، وفى الأصول « فلما قضينا » وفى سرح العيون « مادعانا أداؤه » وفى الأصول « ماعنانا أداؤه » وقد آثرنا رواية الوافى ، وفى تمام المتون والوافى « وكل بما أوليت » وفى نسخ ب . ت ، ز « داع فمحلف » والمعنى : ولما قضينا ما يهمنا قضاؤه من واجبات العيد ، والجميع يدعون الله لك ويلحون فى الدعاء أن يبلغك أقصى ما تتمناه (جواب الشرط فى البيت التالى) .

(٥) يُحظِى : يجلب المنزلة والحظوة ؛ يزلف : يقرب ، ومنه قوله تعـــالى « وأزلِفَتِ الجنَّةُ للمتقين » ؛ والمعنى : لما انتهينا من قضاء مناسك العيد حمدنا الله ثم حمدناك لأن فى الثناء عليك تقربا إلى الله وظفراً برضاه .

وَعُدنا إلى القَصْرِ الّذي هُوَ كَعْبَةٌ ... يُغَادِيهِ مِنَّا نَاظِرٌ أَوْ مُطَوِّفُ (١)
فَإِذْ نَحنُ طَالَعْنَاهُ، وَالأفقُ لاَبِسٌ ... عَجَاجَتَهُ وَالأَرْضُ بِالخَيْلِ تَرْجُفُ (٢)
رَأَيْنَاكَ في أَعْلَى المُصَلَّى، كَأَنَّمَا ... تَطَلَّعَ مِنْ مِحْرَابِ دَاوُدَ يُوسُفُ (٣)
وَلَمَّا حَضَرْنَا الإِذْنَ، وَالدَّهْرُ خَادِمٌ ... تُشِيرُ فَيُمْضِي، وَالقَضَاءُ مُصَرِّفُ (٤)
وَصَلْنَا فَقَبَّلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِي يَدٍ ... بِهَا يَتْلَفُ المَالُ الجَسِيمُ وَيُخْلَفُ (٥)

---

(١) فى الأصول «ناظر أو مُطرَّف» والمطرِّف هو المختار من طرَف الشىء إذا اختاره ، أو القاتل حول العسكر ، أو الذى يسوق الأبل أو الخيل ويرد أوائلها على أواخرها ، وهذه المعانى لاتتفق مع السياق ؛ ولعل الصواب ما أثبتناه ، يغاديه : يباكره ، مطوف : طائف حول مكان خاص ، وطاف بالبيت : أدى مناسك الحج فيه ، قال تعالى « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتىَ للطائفين والعاكفين والركع السجود » ، والمعنى : عدنا إلى قصرك الذى هو كعبة تتجه إليها النواظر ويطوف بها القاصدون كما يطوف الحجاج بالبيت الحرام .

(٢) فى نسخة ت « فإن نحن طالعناه » ، العجاجة : الغبار ، ترجف : تضطرب ، قال تعالى « يوم ترجف الأرض والجبال » ؛ والمعنى : تطلعنا إلى قصرك العظيم وحوله الجيوش الجرارة وقد ملأت الجوَّ بالغبار وارتجت الأرضُ تحتها من وَقع السنابك والأقدام .

(٣) المحراب : صدر المجلس أو أكرم مواضع البيت أو مقام الإمام من المسجد أو الغرفة ، قال تعالى « فخرج على قومه من المحراب » ، والمعنى : لما وفدنا عليك أشرقتَ علينا فى وضاءة وجمال يوسف الصديق من مصلاك الشبيه بمحراب داود عليه السلام .

(٤) المعنى : لما حضرنا إلى مجلسك وتلقينا الإذن بالمثول بين يديك ، والدهر يلبى إشارتك والقضاء ينفذ أحكامك « جواب الشرط فى البيت التالى » .

(٥) المعنى : لما وقفنا بين يديك قبلنا يديك فقبلنا الجودَ ممثلا فيها لأنها تتلف المال بالبذل والسخاء ، وتجدده بالإصلاح والتعمير لتعيد إنفاقه وبذله فى أريحية وسماح .

لَقَدْ جُدْتَ !! حَتّى ما بِنَفْسٍ خَصاصَةٌ ... وَأَمَّنْتَ !! حَتّى ما بِقَلْبٍ تَخَوُّفُ[1]

وَلَوْلاكَ لَمْ يَسْهُلْ مِنَ الدَّهْرِ جانِبٌ ... وَلاَ ذَلَّ مُنْقادٌ ، وَلاَ لاَنَ مِعْطَفُ[2]

لَكَ الْخَيْرُ !! أَنَّى لِي بِشُكْرِكَ نَهْضَةٌ ؟

وَكَيْفَ أُؤَدِّي فَرْضَ ما أَنْتَ مُسْلِفُ ؟[3]

أَعَدْتَ بَهِيَّ الحالِ مِنِّيَ غُرَّةً ... يُقابِلُها طَرْفُ الْجَمُوحِ فَيَطْرُفُ[4]

وَبَوَّأْتَهُ دُنْياكَ دارَ مُقامَةٍ ... بِحَيْثُ دَنا ظِلٌّ وَذُلِّلَ مَقْطَفُ[5]

* * *

---

(١) الخصاصة والخصاص : الفقر، قال تعالى: « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ؛ والمعنى : لقد ظللت تجود حتى لم تترك فقيرا معدما ، وبسطت ظلال الأمن حتى لم تترك خائفا مرتاعا .

(٢) فى القلائد « ولا ذلّ منقاد » ؛ المِـعْطَف : السيف ؛ والمعنى: ولولاك ماسهل لنا جانب الدهر ، ولا انقادت لنا صروفه ، ولا لان سيفه البتار .

(٣) المعنى : اسأل الله أن يهبك الخير ، ولـكننى لا أدرى كيف أستطيع النهوض بأعباء شكرك على ماغمرتنى من إحسان ؟ وكيف أستطيع أن أؤدى لك جزاء ما أسديته إلى من إنعام ؟

(٤) آثرنا رواية القلائد ، وفى الأصول « أفدت بهيم الحال » وفى الذخيرة « أزرت بهيم الحال » ، وفى الأصول « يقابلها طرف الجرح » وقد آثرنا عليها رواية الذخيرة والقلائد والخريدة ، الغرّة : بياض الجبهة ؛ والمعنى : كانت أحوالى مظلمة قاتمة فبددت ظلالها وزينتها بغرة بيضاء يتطلع إليها الحسود فيرتد إليه طرفه وهو خاسئ حسير .

(٥) بوّأه منزلا : هيّأه ومكّن له فيه ؛ المُقامة : الإقامة ، قال تعالى :

وَكَمْ نِعْمَةٍ أَلْبَسْتَهَا سُنْدُسِيَّةٍ أُسَرْبَلُهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَأَحْلِفُ[1]

مَوَاهِبُ فَيَّاضِ الْيَدَيْنِ ، كَأَنَّمَا مِنَ الْمُزْنِ تُمْرَى أَوْ مِنَ الْبَحْرِ تُنْزَفُ[2]

فَإِنْ أَكُ عَبْداً قَدْ تَمَلَّكْتَ رِقَّهُ فَأَرْفَعُ أَحْوَالِي وَأَسْنَى وَأَشْرَفُ[3]

« وقالوا الحمدُ لله الذى أحلّنا دارَ المُقامة من فضله » أى دار الإقامة الخالدة وهى الجنة ، والمَقامة : المجلس أو الجماعة من الناس ؛ ذُلِّل : سُهِّل مأخوذة من الذُّل أو الذِّل : ضد الصعوبة قال تعالى « وذُلِّلت قطوفها تذليلا » أى سُوِّيت عناقيدها ودُلِّيت » ، المُقْتَطَف : القطف « اسم المصدر من الفعل قطف » ؛ والمعنى : أنزلتنى منزلا كريما فى دنياك الناعمة تحت الظلال الوارفة والقطوف الدانية .

(١) فى نسخ ب ، ت ، ز « أُسَرُّ بها فى كل حين » ، السندس : الديباج الرقيق ، سَرْبَله : ألبسه القميص ، أحلف : جر إزاره على الأرض خيلاءَ ؛ والمعنى : كم خلعت علىَّ من النعم السابغة كأنها حلل حريرية ألبسها وأجرُّ ذيول التيه والخيلاء .

(٢) تُمْرَى : تُسْتَخْرَج أو تُسْتَحْلَب مِنْ مَرَى الناقةَ يَمْرِيها : مسح ضرعها فأمرَّت أى درَّ لبنُها ؛ ومَرَى الشيءَ : استخرجه ، والمعنى : الأمير كريم وهَّاب اليدين كأنما يستمد هباته من البحر أويستنزلها من السحاب.

(٣) المعنى : إذا كنتَ قد أسرْتنى بإحسانك واستعبدتنى بنعمائك فإنى أعتبر عبوديتى لك أرفع أحوالى وأشرف ما أصبو إليه من آمال .

نشوة العافية

هنأ الشاعر الأمير بالفصد[1] ودعاه إلى معاقرة الشراب ومباشرة اللذات .

لِيَهْنِكَ أنْ أَحْمَدْتَ عَاقِبَةَ الفَصْدِ ... فَلِلَّهِ مِنَّا أَجْمَلُ الشُّكْرِ وَالحَمْدِ[2]

وَيَا عَجَبًا مِنْ أَنَّ مِبْضَعَ فَاصِدٍ ... تَلَقَّيْتَهُ لَمْ يَنْصَرِفْ نَابِيَ الحَدِّ[3]

وَمِنْ مُتَوَلِّي فَصْدِ يُمْنَاكَ ، كَيْفَ لَمْ ... يَهُلْهُ عُبَابُ البَحْرِ فى مُعْظَمِ المَدِّ؟[4]

وَلَمْ تَغْشَهُ الشَّمْسُ المُنِيرُ شُعَاعُهَا ... فَيُخْطِئَ فِيمَا رَامَهُ سَنَنَ القَصْدِ؟[5]

• • •

---

(١) الفصد : قطع عرق فى أعلى الصدغ وكانوا يستعملونه علاجا لحدّة الصداع ؛ وجرت العادة أن يتلقى المفصودُ الهدايا وينشط إلى اللهو والشراب .

(٢) أحمده : وجده محمودا ؛ والمعنى : هنيئا لك الشفاء الذى نجم عن الفصد ، وإننا لنتجه إلى الله بالحمد والشكر على ما أولاك من نعمائه .

(٣) المبضع : سلاح صغير للفصد ؛ والمعنى : ما أعجب أن يشق المبضع عرقك ولا يرتدُّ مفلول الحد كما ترتدّ عنك السيوف والرماح .

(٤) المعنى : وما أعجب أن يباشر المعالج فصدك ولا يخشى أن يغرق فى بحرك الطامى ومدّك الزخّار .

(٥) السَّنَنُ : الطريقة ؛ القصد : الاعتدال أو إتيان الشىء ؛ والمعنى : وما أعجب أن يتمّ المعالج الفصد ولم يرتدّ بصره حسيرا أمام نورك الوضّاء فيخطىء الهدف ويضل السبيل .

سَرَى دَمْكَ الْمُهَرَاقُ فى الأرضِ، فاكْتَسَتْ
أفانِينَ رَوْضٍ مِثْــلَ حَاشِيَةِ الْبُرْدِ(١)

فَصَادَ أَطَابَ الدَّهْرَ، فَالْقَطْرُ فِي الثَّرَى
كَمَا طَابَ مَاءُ الْوَرْدِ فى الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ(٢)

لَقَدْ أَوْفَتِ الدُّنْيَا بِعَهْدِكَ نَضْرَةً   كَأَنَّكَ قَدْ عَلَّمْتَهَا كَرَمَ الْعَهْدِ(٣)

لَدَى زَمَنٍ غَضٍّ أَنِيقٍ فِرِنْدُهُ   كَمِثْلِ فِرِنْدِ الْوَرْدِ فى خَجْلَةِ الْخَدِّ(٤)

---

(١) المهراق : المُراق المصبوب ؛ الأفانين : جمع أفنان ، والأفنان : جمع فنن وهو الغُصْنُ ؛ وشجرة فنّاء وفنواء : كثيرة الغصون ؛ حاشية الثوب : جانبه وتكون فى العادة مزخرفة ، وعيش رقيق الحواشى : رغد ؛ البُرْد : ثوب مخطط ؛ والمعنى : سال دمك الزكىّ فاكتست الأرض منه بهجة وزينه كزينة الحدائق المتشابكة الأغصان أو حواشى الثوب الزخرف المزدان .

(٢) العنبر الورد : المائل للاحمرار ؛ والمعنى : هذا الفصد طاب به الزمان لأنه أتاك بالشفاء فأصبح القطر فى الثرى شبيها بماء الورد إذا اختلط بالعنبر المائل للاحمرار .

(٣) وفى وأوفى : أتم أو أدّى ما وعد به ؛ النضرة : الحسنُ والرونق ، قال تعالى : « ولقّاهم نَضْرةً وسرورا » ؛ والمعنى : تمّت زينةُ الدنيا وبهجتُها فى عهدك كأنك قد علّمتها كيف تفى بالعهد وترعى الذمام .

(٤) أنيق : حسن معجب ، فرند السيف : جوهره وحليتُه ، والفرند : الورد الأحمر ؛ والمعنى : لقد طابت بك الدنيا فى زمن غضّ جميل تروق صفحته كما تروق حمرة الورد فى صفحة الخد .

خَسَـــوَّغُ مِنْهُ الْعَيْشَ فى ظِلِّ دَوْلَةٍ
مُقَابَلَةِ الْأَرْجَاءِ بِالْكَوْكَبِ السَّعْدِ[1]

* * *

وَهُبَّ إِلَى اللَّذَاتِ مُؤْثِرَ رَاحَةٍ   تُجِمُّ بِهَا النَّفْسَ النَّفِيسَةَ لِلْكَدِّ[2]

وَوَالِ بِهَا فِى لُؤْلُؤٍ مِنْ حَبَابِهَا
_ كَجِيدِ الْفَتَاةِ الرُّؤْدِ فِى لُؤْلُؤِ الْعِقْدِ[3]

وَإِنْ تَدْعُنَا لِلْأُنْسِ - عَنْ أَرْيَحِيَّةٍ -
فَقَدْ يَأْنَسُ الْمَوْلَى - إِذَا ارْتَاحَ - بِالْعَبْدِ[4]

---

(١) تَسَوَّغُ : تستمرىء وتستطيب ؛ والمعنى : تستمرىء العيش فى زمانك مستظلين بدولتك التى غمرت كوا كبُ السعد أرجاءها بأطيب الآمال .

(٢) تُجِمُّ : تريح ؛ والمعنى : انشط إلى اللذّات مفضّلاً الراحة من الأعباء مريحا نفسك العظيمة تهيئة لاستئناف الكد فى تدبير السلطان .

(٣) فى الأصول « فى لؤلؤ من جنابها » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ الحباب : الفقاقيع الهوائية التى تعلو سطح الماء ؛ الجِيدُ : العنق ؛ الرُّؤد : الشابة الحسناء ؛ والمعنى : واصل الشرابَ فى الكئوس المحلاّة بالحباب كما تتحلّى الفتاة الحسناء بعقدها اللؤلؤى .

(٤) الأريحية : سمة الخلق والسماحة والسخاء ؛ والمعنى : تمتع باللذات ، وإذا جُدتَ علينا بمشاركتك فيها ، فلا عجب فقد يأنس السيّد بمنادمة العبيد .

فرحة الشفاء

شرب المتضد دواء ، وأحس خفة ونشاطا ، فحياه الشاعر بهذه القصيدة :

أَحْمَدْتَ عَاقِبَةَ الدَّوَاء   وَتَلَتْهُ عَافِيَةُ الشِّفَاء[1]

وَخَرَجْتَ مِنْـــهُ مِثْلَمَا   خَرَجَ الْحُسَامُ مِنَ الْجَلَاء[2]

وَبَقِيتَ لِلدُّنْيَا !! فَأَنْـــتَ دَوَاؤُهَا مِنْ كُلِّ دَاء[3]

وَوَرِثْتَ أَعْمَارَ الْعِدَا   وَقَسَمْتَهَا فِي الْأَوْلِيَاء[4]

* * *

يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْجِيَا   دَ ، وَسَارَ فِي ظِلِّ اللِّوَاء[5]

وَأَجَالَ يَوْمَ الْحَرْبِ قَدْ   مًا ، وَاحْتَبَى يَوْمَ الْحِبَاء[6]

---

(١) أحمده : وجده محمودا ؛ والمعنى : طابت لك عاقبة الدواء ؛ ثم طابت لك بعدها عاقبة الشفاء .

(٢) المعنى : خرجت معافى من الداء كما يخرج السيف صقيلا بعد الجلاء .

(٣) المعنى : أسأل الله أن يطيل بقاءك للدنيا ، فأنت شفاؤها من الأسقام .

(٤) الأولياء : جمع ولى وهو المحب أو الصديق أو النصير ؛ والمعنى : أسأل الله أن يهبك أعمار الأعداء لتمنحها للأصدقاء .

(٥) المعنى : إنك خير من يمتطى جوادا ويحمل لواء ويقود جيشا جرارا .

(٦) القدم والقدم : الشجاع ، والقدم : التقدم ؛ احتبى : جلس ضاما فخذيه إلى بطنه مشتملا بثوب يلفه حوله ، وهى جلسة يكنون بها عن السيادة والوقار ؛ الحباء : العطاء ، والمعنى : وأنت خير من يجيل سيفه أو جواده فى ميادين القتال بشجاعة متقدما الصفوف ؛ وخير من يتصدر المجالس ويمنح العطاء .

بُشْرَاكِ عُمْـــــبِى صِحَّةً تَجْرِى إِلَى غَيْرِ انْتِهَاءِ[١]

فِى دَوْلَةٍ تَبْقَى بَقَا ءِ الدَّهْرِ آمِنَةَ الْفَنَاءِ[٢]

وَمَسَرَّةٍ يُفْضِى بِهَا زَمَنٌ كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ[٣]

* * *

وَاشْرَبْ، فَقَدْ لَذَّ النَّسِـــيمُ، وَرَقَّ سِرْبَالُ الْهَوَاءِ[٤]

لِنَرَى بِكَ الْبَهْوَ الْمُطِلَّ يَمِيسُ فِى حُلَلِ الْبَهَاءِ[٥]

وَبَقِيتَ مُفْدِيًّا بِنَا إِنْ نَحْنُ جُزْنَا فِى الْفِدَاءِ[٦]

---

(١) المعنى : هنيئاً لك العافية التى نسأل الله أن يمتعك بها دائماً فلا يكون لها انتهاء .

(٢) المعنى : ندعو الله أن تبقى، سعيداً فى دولة باقية بقاءَ الدهر آمنةً من الفناء ، ويجوز أن تكون « آمنة الفناء » وفناء الدار : ما امتد من جوانبها .

(٣) فى نسخة ب « تفضى بها زمنا » وفى نسخة ز « يُفضَى بها زمنٌ » أفضى إليه بسره : أعلمه به ؛ وأفضى إلى الشىء : وصل إليه ؛ والمعنى أدعو لك أن تعيش ناعما فى مسرة يوصِّلُها إليك زمنٌ مزخرف مزدان كأطراف الثياب .

(٤) السربال : القميص أو الدرع أو كل مايلبس ؛ والمعنى : تمتع بمعاقرة الشراب ، فقد رقَّ النسيم وطاب الجو وصفا لك الزمان .

(٥) البهو : البيت المقدم أمام البيوت ، أو الواسع من الأرض ؛ يميس : يتبختر ؛ والمعنى : تمتع بالشراب حتى يتمايل بك فناء قصرك سعيدا بسعادتك متبختراً فى حلل البهجةوالنعيم .

(٦) المعنى : ونسأل الله أن يطيل حياتك وأن يجعلنا فداءاً لك من كل سوء !! إن كنا أهلا للفداء .

٥ - لدى المعتمد بن عباد

مرض الشاعر فعاده المعتمد، فشكر له عيادته فى هذه الأبيات :

لَسْتُ بِالجَاحِدِ آلاءَ العِلَلْ ... كَمْ لَهَا مِنْ أَلَمٍ يُدْنِي الأَمَلْ[1]

أَجْتَلِي - مِنْ أَجْلِهَا - بَدْرَ العُلاَ ... مُشْرِقاً فى مَنْزِلِي حِينَ كَمَلْ[2]

حِـلَّةٌ أَلْبَسَ عَالِي فَخْرِهَا ... فَاغْتَدَتْ تَرْفُلُ فى أَبْهَى الحُلَلْ[3]

---

(١) ورد هذا البيتُ والتالى له فى الأصول هكذا :

امتُ بالجاحد آلاء العلل ... مشرقاً فى منزلى حين كل

أجتلى من أجلها بدر العلا ... كم لها من ألم يُدنِ فى الأمل

ولعل الصواب ماأثبتناه ؛ وفى نسخة ب ، ت ز « كم لها من أمل » ؛ الجاحد : النكر وهو عالم ؛ الآلاء : النعم جمعُ أَلَى ؛ العِلَل : الأمراض ؛ والمعنى : لست بالنكر ما أسداه إلىّ المرض من إحسان وهو قدوم الأمير لعيادتى ، وكم بعث الألمُ فى نفسى أعذبَ الآمال .

(٢) اجتلى الشيءَ : نظر إليه ؛ والمعنى : لقد أتاح لى المرضُ أن أسعد برُؤية الأمير فى منزلى مشرقاً كالبدر عند التمام .

(٣) الحِلة : الحلول ، أوطريقته ، أوجهته وقصده ، أو المجلس ؛ الحُلَل جمع حُلّة وهى مكونة من إزار ورداء ، ولا تُسمّى حلة حتى تكون ثوبين ؛ رَفَل فى ثيابه : أطالها وجرها متبخترا ؛ والمعنى : حلّ الأمير دارى فألبسها فخرها العالى ، فأخذت تميس وتتمايل ابتهاجا به .

رَف بِشْرُ الأفقِ فى عَيْنِى لَهَا   لاَ لِأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ فى الحَمَلْ[١]

مَا أُبَالِى مِنْ زَمَانِى بَعْــدَهَا

ـ إذْ أَصَحَّ النَّفْسَ ـ أَنْ جِسْمِى أَعَلّ[٢]

* * *

أَيُّهَا المَوْلَى لَقَدْ حُمِّلْتُ مَا   لَمْ يَدَعْ فى وُسْعِ عَبْدٍ مُحْتَمَلْ[٣]

وَضَحَ الطَّوْقُ الَّذِى حَلَّيْتَنِى   فَتَرَاءَتْهُ نُفُوسٌ لاَ مُقَلْ[٤]

أَنَا لَوْ طُوِّقْتُ مِنْــهُ بَدَلاً   أَنْجُمَ الجَوْزَاءِ لَمْ أَرْضَ البَدَلْ[٥]

كَمْ مَرَادٍ لِىَ ـ مِنْ نَعْمَائِكُمْ ـ   وَارِفِ الظِّلِّ وَكَمْ وِرْدٍ عَلَلْ[٦]

---

(١) رف : برق وتلألأ ؛ الحمل : برج فى السماء تحل الشمس به فى الربيع ؛ والمعنى : حلّ الأمير دارى فتلألأت آفاقها وأضاءت جوانبها ولاحت لعينى فيها بشائر الأفراح فابتهجتُ بها أكثر من ابتهاجى بحلول الربيع .

(٢) المعنى : لا أبالى بعد هذه العيادة الكريمة بما يفعله المرضُ بجسمى ، فقد أصحَّتْ عيادةُ الأمير نفسى وشفتها من كل داء .

(٣) المعنى : أيها السيد الكريم لقد غمرتنى بإحسانك وحمَّلتَنِى ماليس فى طوق إنسان احتمالُه من نعم وآلاء .

(٤) لقد طوقتنى من إحسانك بطوق تبصره القلوب لا العيون .

(٥) المعنى : إنى أعتزّ بما طوَّقتَنِى به من إحسان، حتى لا أرضى النجومَ بديلا من هذا الطوق الثمين .

(٦) المَرَاد : مكان الارتياد وهو طلب النجعة ؛ الوِردُ العَلَل : المنهل المطروق الذى يتردّد عليه الشاربون ؛ والمعنى : لقد حَلَلْتُ من نعمائكم فى مكان فسيح وارف الظلال دانى الثمار على منهل سهل الورود ميسَّر الطروق .

لَا تَزَلْ دَوْلَتُكُمْ مَبْسُوطَةً بَسْطَةً فِي طَيِّهَا قَبْضُ الْدُّوَلْ[1]
وَرأى الْمُنْتَضِـدُ الْمَنْصُورُ مَا أَنْبَأَتْهُ فِيكَ (لَيْتَ) و(لَعَلْ)[2]
فَتَلَقَّاهُ اللَّيَـالِي طَلْقَةً بِتَفَارِيقِ أَمَانِيهِ جُمَـلْ[3]

قدوم سعيد

عاد المعتمد من سفر وقد أبلّ من مرض ، فهنّأه الشاعر بالعودة والشفاء :

اقْدَمْ كَمَا قَدِمَ الرَّبِيعُ الْبَاكِرُ وَاطْلُعْ كَمَا طَلَعَ الصَّبَاحُ الزَّاهِرُ[4]
قَسَماً !! لَقَدْ وَفَّى الْمُنَى وَنَفَى الْأَسَى مَنْ أَقْدَمَ الْبُشْرَى بِأَنَّكَ صَادِرُ[5]
لِيُسَرَّ مُكْتَئِبٌ وَيُغْفِي سَاهِرٌ وَيَرَاحَ مُرْتَقِبٌ وَيُوفِيَ نَاذِرُ[6]

(١) المعنى : أسأل الله أنْ يزيد دولتكم بسطة وسعة تنكمش أمامها الدول وتتضاءل أمامها الملوك .

(٢) المعنى : أسأل الله أن يمتع أباك المعتضد بما دلّت عليه مخايلُ النجابة فيك ، وما علقه الرجاء بك « ليتَ من أدوات التمني، ولعلّ من أدوات الرجاء » .

(٣) المعنى : ستهلل الليالي بك وتقبل على أبيك في بشر وإيناس حاشدة له فيك جميع ماتفرق من آمال .

(٤) المعنى : أقدم علينا في رونق وبهاء كما يقدم الربيع البكر ، وأشرق علينا كما يشرق الصباح الجميل الوضاء .

(٥) المعنى : أقسم أن الذى بشرنا بصدورك إلينا قد حشد إلينا أعذب الآمال ونفى عنا البؤس والشقاء .

(٦) المعنى : إن فى قدومك علينـا سروراً للحزين ونوما للساهر وراحة للمترقّب ووفاءً لنذر الناذرين .

قَفَلٌ وَإِبْلَالٌ - عَقِيبَ مُطِيفَةٍ - غَشِيَتْ كَمَا غَشِيَ السَّبِيلَ العَابِرُ[1]

إِنْ أَعْنَتَ الْجِسْمَ الْمُكَرَّمَ وَعْكُهَا فَلَرُبَّمَا وُعِكَ الْهِزَبْرُ الخَادِرُ[2]

مَا كَانَ إِلاَّ كَانْجِلاءِ غَيَابَةٍ لَبِسَ الفِرِنْدَ بِهَا الحُسَامُ البَاتِرُ[3]

فَلْتَغْدُ أَلْسِنَةُ الأَنَامِ ، وَدَأْبُهَا شُكْرٌ يُجَاذِبُهُ الْخَطِيبَ الشَّاعِرُ[4]

إِنْ كَانَ أَسْعَدَ - مِنْ وُصُولِكَ طَالِعٌ -

فَكَذَاكَ أَيْمَنَ مِنْ قُفُولِكَ طَائِرُ[5]

---

(١) القَفَل والقُفول : الرجوع من السفر ؛ الإبلال : الشفاء من المرض ؛ مطيفة : نازلة ملمة «والمقصود بها هنا العلة» ؛ غشيت : طرقت ؛ عقيب : عاقب أى تال ؛ والمعنى رجعت من سفرك بعد شفائك من علة أطافت بك فسرنا قدومُك كما سرنا شفاؤك .

(٢) أعنته : أوقعه فى العَنَت وهو المشقة ، الوعك والوَعكة : أذى الحُمَّى ؛ الهِزَبْر : الأسد القوى ؛ الخادر : المقيم بالخدر ، وخدر الأسد : أجمته ؛ والمعنى : إذا كانت الحُمَّى قد نالتك بالأذى فقد تنال الأسدَ الرابض فى العرين .

(٣) غيابة كل شىء : ماسترك منه ؛ الفرند : السيف أو وشيُه وحليته ؛ الباتر : القاطع ؛ والمعنى : ما كان المرض إلا ظلاما عابرا تكشف عن وضاءتك وإشراقك ، كما يتلألأ السيف فى زينته وبريقه ولمعانه ؛ وفى ب ، ت ، ز « حسام باتر » .

(٤) فى نسخة ا « يجاذبه الخطيبُ الشاعرُ » والمعنى : على الأنام أن يتجهوا بالشكر إلى الله على شفائك فيساجل الشعراءُ الخطباءَ فى شكرك ، ويباروا نهم فى الثناء .

(٥) هكذا فى الأصول ولعل تكملة البيت هكذا : « فكذاك أيمن من=

أضحى الزَّمانُ نَهارُهُ كافورةً
وَاللَّيْلُ مِسْكٌ – مِنْ خِلالِكَ – عاطِرُ[1]

قَدْ كانَ هَجْرِى الشِّعْرَ – قَبْلُ – صَرِيمَةً
حَذَرِى لِذاكَ النَّقْـدِ فيها عاذِرُ[2]

حَتَّى إِذا آنَسْتُ أُوبَكَ بارِنًا صَفَتِ القَرِيحَةُ وَاسْتَنارَ الخاطِرُ[3]

عَىٌّ قَلَبْتَ إِلَى البَلاغَةِ عَيْنَهُ لَوْلا تُقاكَ لَقُلْتُ: إِنَّكَ ساحِرُ[4]

لَقَّحْتَ ذِهْنِي، فَاجْنِ غَضَّ ثِمارِهِ فَالنَّخْلُ يُحْرِزُ مُجْتَناهُ الآبِرُ[5]

= شفائك طائر »؛ ويكون المعنى: إذا كان الحظُّ قد أسعدنا بوصولك فقد أسعدنا كذلك بشير اليمن بشفائك؛ فاجتمع لنا الحظَّان السعيدان.

(١) المعنى: طابت بك أيامُ الحياة فأصبح النَّهار كافورا، والليل مسكا؛ لأن سجاياك الطيبة سرت فعطرت الليل والنهار.

(٢) الصريمة: العزيمة؛ والمعنى: كنتُ مصمِّماً على هجر الشعر لأنني أعلم مدى بصرك بالشعر وتفننك فى النقد، وعذرى فى هذا أنى أخشى نقدك اللاذع وأدبك البارع وبصرك النافذ العميق.

(٣) المعنى: كنتُ مصمما على هجر الشِّعر حتى قدمتَ علينا صحيحاً معافى فصفَتْ قريحتى وتفجرتْ ينابيعُ الشِّعر فى خاطرى وكُنْتَ أنتَ مصدرَ مصدر الوحى وباعث الإلهام.

(٤) العىّ: العجز عن البيان؛ العين: الذات، وعين الشىء: نفسُه؛ والمعنى: كنتُ عييًّا مُفحَماً فقلبْتَ العى فىَّ من طبيعته إلى البلاغة والبيان، فكيف غيرتَ طبائع الأشياء؟ لولا تُقاك لقلتُ إنك من السحرة البارعين.

(٥) التلقيح: عملية الإنسال؛ أبرَ النخلةَ: لقحها بنقل فُتات زهرة التذكير إلى مِيسَم زهرة التأنيث؛ والمعنى: كان ذهنى عقيما لا ينتج شعرا حتى أثرتَهُ =

كَمْ قَدْ شَكَرْتُكَ — غِبَّ ذِكْرِكَ — فَانْتَشَى
مُتَذَكِّرٌ مِنِّي ، وَعَرْبَدَ شَاكِرٌ[١]

* * *

يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى عَلْيَاؤُهُ مَثَلٌ — تَنَاقَلُهُ اللَّيَالِى — سَائِرُ[٢]

يَا مَنْ لِبَرْقِ الْبِشْرِ مِنْهُ تَهَلُّلٌ مَا شِيمَ إِلَّا أَنْهَلَ جُودٌ هَامِرُ[٣]

أَنْتَ ابْنُ مَنْ مَجْدُ الْمُلُوكِ ، فَإِنْ يَكُنْ لِلْمَجْدِ عَيْنٌ فَهُوَ مِنْهَا نَاظِرُ[٤]

مَلِكٌ أَغَرُّ أُزْدَانَتِ الدُّنْيَا بِهِ وَأَعَزَّ دِينَ اللهِ مِنْهُ نَاصِرُ[٥]

بمواهبك لحاد بأطيب الثمار ، فتمتّعْ بثمره كما يتمتع الذى يلقح النخلَ بثمره الشهى المذاق .

(١) انتشى : سكر ؛ عربد : شغب فى سكره ، ورجل معربد : يؤذى نديمه فى سكره ؛ والمعنى : كم ذكرتك فانطلق لسانى بالثناء عليك فمايل قلبى سكراً ، وعربد بين الضلوع من حدّة النشوة والسرور .

(٢) المعنَى : أيها الملك إن معاليَكَ وأمجادكَ مثلٌ عظيمٌ سائرٌ تردده الأيامُ على مسامع العالم طول الزمان .

(٣) شامَ البرقَ : تطلع إليه ناظراً أين عطر ؛ الهامر : المنصبُّ ، والمعنى : أيها الأمير كما رأينا البشر متهللا فى وجهك ترَقَّبْنَا سخاءكَ الفَيَّاض فانهل علينا سحابه الهاطل بالإحسان .

(٤) المعنى : أنت ابن الملك العظيم الذى ينجب الملوك العظماء ؛ ولو كان المجد مقلة لكان فيها إنسانَها المبصر .

(٥) المعنى : إن أباك ملكٌ شريف زين الدنيا بطلعته وآلائه ، وأعز دين الله بسيفه وتأييده .

أَبْنَاكَ فى ثَبَجِ المَجَـرَّةِ قُبَّةً فَهَنَاكَ أَنَّكَ لِلنُّجُومِ مُحَاضِرُ!![1]

وَتَلَقَّ - مِنْ يُمْنَيْكَ - صِدْقَ تَفَاؤُلِى فَهُمَا «المُؤَيَّدُ» بِالإِلَهِ «الظَّافِرُ»[2]

فوق الشمال

طالت غيبة المعتمد فاهتزت نفس الشاعر شوقاً إليه، وابتدأ في كتابة هذه الأبيات، ولكنه لم يكملها .

سَأُهْدِى النَّفْسَ فى نَفَسِ الشَّمَالِ فَقَدْ لَقِحَ التَّشَوُّقُ عَنْ حِيَالِ[3]

---

(١) أبناك : أعطاك بناء؛ الثبج : الوسط ، محاضر : مجالد مغالب؛ والمعنى : بنى لك الملك قبة عظيمة فوق نهر المجرة بالسماء، فهنيئاً لك أنك منافس للنجوم ومغالب لها في السمو والضياء .

(٢) السُّمة : العلامة ، المؤيد والظافر : لقبان من ألقاب المعتمد بن عباد؛ والمعنى : إنني مترقب لك التأييد والظفر تفاؤلاً بلقبيك وما يحملان من معاني النصر والتأييد .

(٣) لقحتْ المرأة : حملت ، ولقحتْ الحرب والعداوة : هاجتا بعد سكون؛ الحِيَال : العُقم ، ومنه حالت الأنثى حِيالاً وحئولاً : لم تحمل ؛ ولقحت عن حيال أى حملت بعد عقم ، قال الحارث بن عباد يطلب فرسه (النعامة) ليشترك في الحرب بين بكر وتغلب [وكان ممتنعاً عن الاشتراك فيها حتى قتل مهلهلُ ابن ربيعة ابنَهُ بُجيراً ، وقال فيه : « بُؤْ بِشِسْعِ نعل كليب »] :

قَرِّبَا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال

لم أكن من جُناتِها علم الله وإنى بحرها اليوم صالى=

إِلَى الشَّثْنِ العَزَائِمِ — إِنْ أُثِيرَتْ حَفِيظَتُهُ — إِلَى اللَّدْنِ الْخِلَالِ (١)
إِلَى الوَضَّاحِ آثَارَ المَسَاعِي ، إِلَى النَّفَّاحِ أَخْبَارَ المَعَالِي (٢)
إِلَى مَلِكٍ هُوَ المَعْنَى المُجَلَّى بِهِ الإِشْكَالُ مِنْ لَفْظِ الكَمَالِ (٣)
إِلَى مَنْ لَا مَثِيلَ لَهُ — إِذَا مَا بَدَا فِي السَّرْجِ — أَوْ فَوْقَ المِثَالِ (٤)
هَدِيَّةَ مَنْ — لَوَ انَّ الدَّهْرَ سَنَّى مُنَاهُ — هَدَى إِلَيْكَ سُرَى الخَيَالِ (٥)

= فربما مربط النعــامة منى إن قتل الكريم بالشسع غالى

والمعنى : سأبعث نفسى هدية إلى الأحباب محمولة على ريح الشمال ، فقد هاج شوقى بعد سكون .

(١) الشثن : الخشونة والغلظ ، وأسد شثن البراثن : خشنها ؛ الحفيظة : الحمِيَّة ، اللدْن : اللين الطرىّ ؛ والمعنى : سأهدى نفسى إلى صاحب العزمات القوية عند الغضب، والشمائل الرقيقة السمحة عند الرضى .

(٢) المعنى : إلى الذى برزت آثاره الخالدة واضحة للعيان ، وذاعت أنباء معاليه فطاب حديثها على كل لسان .

(٣) الإشكال : الغموض ، يقال : أشكل عليه الأمر أى التبس ؛ والمعنى : سأهدى نفسى إلى ملك عظيم يتجلى فيه معنى الـكمال إذا التبس لفظ الـكمال ومعناه على الباحثين .

(٤) المعنى إلى ملك لا نظير له أو هو فوق النظير إذا لاح ممتطيا صهوة جواده فى ميادين القتال ؛ (أو تأتى للإباحة فى التشبيه كثيراً كما يقرر هذا ابن مالك ، قال تعالى « فهى كالحجارة أو أشد قسوة ») .

(٥) سنىّ : يسّر وسهّل ؛ هدى : قصد ؛ السرى : السفر ليلا ؛ والمعنى : أهدى إليك نفسى ، ولو أنّ الدهر سهّل لى بلوغ آمالى لقصدتك ساريا إليك كما يسرى طيف الخيال فيقطع فى طرفة عين أبعد المسافات .

فَكَمْ بَوَّأْتَنِي سَاحَاتِ نُعْمَى   عِذَابَ الوِرْدِ وَارِفَةَ الظِّلَالِ(١)

المولى المقيل

اقترح المعتمد على الشاعر أن يعارض أبياتاً كان يستحسن ألحانها فأنشده :

يُقَصِّرُ قُرْبُكَ لَيْلِي الطَّوِيلَا   وَيَشْفِي وِصَالُكَ قَلْبِي العَلِيلَا(٢)

وَإِنْ عَصَفَتْ مِنْكَ رِيحُ الصُّدُودِ   فَقَدْتُ نَسِيمَ الحَيَاةِ العَلِيلَا(٣)

كَمَا أَنَّنِي إِنْ أَطَلْتُ العِثَارَ   وَلَمْ يُبْدِ عُذْرِي وَجْهاً جَمِيلَا(٤)

وَجَدْتُ « أَبَا القَاسِمِ الظَّافِرَ المُؤَيَّدَ بِاللهِ » مَوْلًى مُقِيلَا(٥)

إِذَا مَا نَدَاهُ هَمَى وَالحَيَا   شَأَى كَشَأْوِ الجَوَادِ البَخِيلَا(٦)

---

(١) المعنى : كم غمرتني بآلائك وأحللتني فسيح نعمائك، فوردت عندك أطيب مورد ونعمت لديك بأورف الظلال .

(٢) المعنى : لقاؤك يجعل ليلى الطويل قصيراً ، ووصالك يشفى قلبي السقيم .

(٣) المعنى : إذا هبت علىّ من جانبك ريح الهجر فإنها تسلبنى الحياة ونسيمها العليل .

(٤) المعنى : إذا لججت فى العثار وتكرر الخطأ ولم أستطع تقديم عذر مقبول (بقية المعنى فى البيت التالى) .

(٥) المعنى : إذا أخطأت وجدت الأمير المعتمد عافياً عن ذنوبى مقيلا عثراتى .

(٦) همى : سال ؛ الحيا : المطر أو الخصب ، شأى : سبق ؛ والمعنى : إذا تدفق جوده فاق تدفق المطر وأصبح المطر بخيلا بالنسبة إلى نداه .

وَأقْلامُهُ وَفْقُ أَسْيافِهِ يَظَلُّ الصَّرِيرُ يُبارِى الصَّلِيلاَ[1]

فوق الجميع

ثم عاد فاقترح عليه معارضة أبيات أخرى ، فأنشده على وزنها ورويها :

أَنْتَ الْمُسَبِّبُ لِلْوَلُوعِ وَمُثِيرُ كَامِنَةِ الدُّمُوعِ[2]

يَتَمَنَّيَانِ لَوِ اُعْفِيَا مَهْمَا طَلَعْتَ مِنَ الطُّلُوعِ[3]

وَالظَّافِرُ الْمَلِكُ الْمُؤَيَّـدُ وَاحِدٌ عَدْلُ الْجُمُوعِ[4]

الْبَدْرُ فى سُحُبِ الْبُرُو دِ اللَّيْثُ فى لِبَدِ الدُّرُوعِ[5]

(١) فى نفح الطيب « لإقلامه فعل أسيافه » ؛ الصرير : صوت القلم عند الكتابة ؛ الصليل : صوت السيوف عند القراع ؛ والمعنى : آثار أقلامه عظيمة كآثار سيوفه ، فبينهما مباراة فى إحكام الأمور وقوة التأثير .

(٢) الولوع بالشىء : التعلق به ؛ والمعنى : إنك مصدر حب المبرح ومثير دموعى الكامنة .

(٣) المعنى : كم تمنيت أن يبرأ قلبى من الحب وتكف عيناى عن الدمع مهما أشرقت بجمالك الفتان .

(٤) المعنى : إن الملك المعتمد واحد ، ولكنه يعادل الجموع الغفيرة فهو أمة وحده « من ألقاب المعتمد : الظافر بحول الله ، والمؤيد بالله » .

(٥) البرود : الثياب المخططة أو أكسية يلتحف بها ؛ اللبد : جمع لِبْدَة وهى الشعر المحيط بعنق الأسد ؛ والمعنى يختال الأمير فى أبراده كالبدر بين السحب ، ويبدو فى دروعه كالأسد الكاسر فى لبده .

الْأُصُولُ لِأَصْلِهِ   وَتَقَاصَرَتْ عَنْهُ الْفُرُوعُ[1]

عودة ميمونة

عاد المعتمد إلى إشبيليه ظافرا من بعض الحروب فرفع الشاعر هذه التهنئة إليه :

أَيُّهَا الظَّافِرُ أَبْشِرْ بِالظَّفَرْ   وَاجْتَلِ التَّأْيِيدَ فِى أَبْهَى الصُّوَرْ[2]

وَتَفَيَّأْ ظِلَّ سَــعْدٍ تَجْتَنِى   فِيهِ مِنْ غَرْسِ الْمُنَى أَحْلَى الثَّمَرْ[3]

وَرِدِ الصُّبْحَ ، فَــكَمْ مُسْتَوْحِشٍ   غَرِضٍ مِنْكَ إِلَى أُنْسِ الصَّدَرْ[4]

(١) عنَتْ : خضعَتْ ؛ والمعنى : فاق الأمير فى عراقة أصله جميع الأصول. وتقاصرت عن فروعه جميع الفروع ؛ فهو ماجد الآباء طيب الأبناء .

(٢) اجتلى الشيءَ : نظر إليه ؛ والمعنى : اهنأ أيها الأمير بما نلته من النصر المبين ، وتمتع بما حزته من تأييد احتشد لك فى أبهى منظر وأجل رواء ؛ « ومن ألقاب المعتمد : الظافر بحول الله ، والمؤيد بالله » .

(٣) فى نفح الطيب « يُجْتَنَى » ؛ والمعنى : تمتع فى ظلال السعد ، واجنِ من غراس آمالك أطايب الثمار .

(٤) الغرض : شدة النزوع نحو الشيء والشوق إليه ، وغَرِضَ إلى لقائه : اشتاق ، قال ابن هرمة :

إنى غرضت إلى تناصف وجهها   غرض المحب إلى الحبيب الغائب

أى محاسن وجهها ؛ المعنى : اطلع علينا صباحا مشرقا ، فكم فينا من متيم بك مستوحش لبعدك مترقب لقربك .

كَانَ مِنْ قُرْبِكَ فى عَيْشٍ نَدٍ عطِرِ الآصالِ وَضَّاحِ الْبُكَرْ[1]

كُلَّمَا شاء تَأَتَّى أن يَرَى خُلُقَ الْبِرْجِيسِ فى خَلْقِ الْقَمَرْ[2]

فَثَوَى دُونَكَ مَثْوَى قَاقٍ يَشْتَكِى مِنْ لَيْلِهِ مَطْلَ السَّحَرْ[3]

قُلْ لِسَاقِينَا: « يُجِزْ أكْؤُسَهُ » وَلِشَادِينَا: « يَصِلْ قَطْعَ الْوَتَرْ»[4]

حَسْبُنَا سُكْرُ جَنَتْهُ ذِكَرٌ

دُونَهُ السُّكْرُ الَّذِى يُجْنِى السَّكَرْ[5]

---

(١) المعنى: كم من مُدَلَّه بك كان يعيش تحت ظلالك فى حياة نديّة ناعمة معطرة المساء وضّاءة الصباح.

(٢) البرجيس: المشترى ويسميه المنجمون عند العرب « السعد الأكبر » وأضافوا إليه الخيرات الكثيرة والسعادات العظيمة (راجع عجائب المخلوقات للقزوينى).

والمعنى: كم من ناعم تحت ظلالك يرى — كلما أراد — فى شخصك العظيم سعادة المشترى ممزوجة بجمال القمر.

(٣) المعنى: هذا الناعم فى ظلك المتنعم بقربك أقام بعد رحيلك عنه فى قلق واضطراب يطول عليه الليل فيترقب الصباح شاكيا منه المطل والتسويف.

(٤) فى نفح الطيب « يجدأ كؤسه »، وفى الأصول « يجز أكؤسه » ولعل الصواب ما أثبتناه؛ وفى نسخة ا « ولساقينا يطل قطع الوتر»؛ يُجِزْ أكؤسه: يرجعها، حار الشىء: رجع، وأحَرْتُه: أرجعْتُه؛ المعنى: قل للساقى: « أبعِدْ عنّا كئوسك »، وللمغنّى: «واصِلْ لكنوز أوتارك» فلسنا بحاجة إلى الكئوس والأوتار.

(٥) السَّكَر: نبيذ يتخذ من التمر أو كل مايسكر؛ المعنى: لا حاجة بنا إلى الكئوس والأوتار، فحسبنا ذكراك العذبة التى تبعث فينا نشوة لا تبعثها كئوس الراح.

لَمْ يُغَادِرْ لِى شَفًى مِنْ جَلَدٍ ... مَعَ أَنِّى لَمْ أَزَلْ ثَبْتَ الْغَدَرْ[(١)]

أَيُّهَا الْمَاشِى الْبَرَازَ الْمُنْـــبَرِى ... لِزَمَانِى، إِنْ مَشَى نَحْوِى الْخَمَرْ[(٢)]

وَالَّذِى إِنْ سِيمَ مَا فَوْقَ الرِّضَى ... وُجِدَ الْأَلْوَى الْبَعِيدَ الْمُسْتَمَرْ[(٣)]

وَإِذَا أُعْتِبَ فِى مَعْتَبَةٍ ... لَانَ مِنْهُ جَانِبُ السَّمْحِ الْيَسَرْ[(٤)]

---

(١) الشَّفَى : القليل ، يقال للشمس عند غروبها وللقمر عند محاقة وللرجل عند موته : ما بقى منه إلا شَفًى أى قليل ؛ رجل ثبت الغَدَرِ : ثابت فى القتال والجدل وجميع ما يأخذ فيه ، وفى الأصول «ثبت الغرر» ولعل الصواب ما أثبتناه؛ والمعنى : لم يترك بُعْدُكَ لى بقيةً من الجلد مع أننى قوىّ الجسم راسخ العزم سواء فى ميادين القتال أو الجدال .

(٢) البَرَاز : الفضاء ، الخَمَرُ : ما وارى الصائد من شجر وغيره؛ والمعنى: أيها الأمير إنك خير حامٍ لى من غدر الزمان فإنه إذا دبّ إلىّ مستخفيا متواريا نهضْتَ أنتَ إليه متحديا بارزا للعيان .

(٣) سامه الخسفَ : ألزمه به ؛ فوق الرضى : دونه ، مثل قوله تعالى « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » قال أبو عبيدة : فما دونها ، كما تقول إذا قيل لك فلان صغير : هو فوق ذلك أى أصغر من ذلك ؛ الألوى: الشديد الخصومة الجَدِل؛ بعيد المستمَرّ : قوىٌّ فى الخصومة لايسأم المراس ، أنشد أبو عبيد : لأرْطَاةَ بْنِ سُهَيَّةَ — :

إذا تخازرتُ ، وما بى من خَزَرْ ... ثم كسرت العينَ من غير عَوَرْ

وجدتنى ألوى بعيد المستمر ... أحمل ما حُمِّلْتُ من خير وشر

والمعنى : إذا تعرض خصمٌ للأمير بما لا يرضيه وجد فيه قرنًا قوى الخصومة شديد البأس لا يمل النضال .

(٤) أعتب : رضىَ وصفح بعد العتاب ؛ اليَسَر : السهل ؛ والمعنى : إذا عتب إنسانٌ على الأمير رقَّ له قلبه ولان جانبه ، فشمله بالصفح والغفران .

تَظْمِيَ الْمُهْدَى إِلَى أَبْرَعِ مَنْ نَظَمَ السِّحْرَ بَيَانًا أَوْ نَثَرْ[١]
لِيَ فِيــــهِ الْمَثَلُ السَّائِرُ عَنْ جَالِبِ التَّمْرِ إِلَى أَرْضِ هَجَرْ[٢]
غَــيْرَ أَنَّ الْعُذْرَ رَسْمٌ وَاضِحٌ
تُنْفَثُ الشَّكْوَى إِذَا الشَّوْقُ صَدَرْ[٣]
ثُمَّ قَدْ وُفِّقَ عَبْــدٌ عَظُمَتْ نِعْمَةُ الْمَوْلَى عَلَيْهِ فَشَكَرْ[٤]
لَا عَدَا حَظَّكَ إِقْبَالٌ ، تُرَى قَاضِيًا أَثْنَاءَهُ كُلَّ وَطَرْ[٥]
وَاصْطَبِحْ كَأْسَ الرِّضَى مِنْ مَلِكٍ سِرْتَ فِي إِرْضَائِهِ أَزْكَى السِّيَرْ[٦]

(١) المعنى : أهديتُ شعرى إلى أبرع أديب ينفث السحر سواء فى الشعر أو النثر .

(٢) فى نفح الطيب « فى : جالب التمر » ؛ والمعنى: إننى حينما أهدى إليه شعرى أكون مثل من يجلب التمر إلى هجر الشهيرة بتمرها أو الخمر إلى بابل الشهيرة بخمرها ، ومثله مهدى الورد إلى جور .

(٣) صدَرَ : أصاب الصدر ؛ والمعنى : ما كان ينبغى لى أن أتقدم بشعرى إلى الأمير الشاعر العظيم ولكنَّ لى عذرا فإن شعرى نفثة أُنَفِّسُ بها عن صدرى الحزين .

(٤) المعنى : ومن أعذارى فى رفع شعرى إلى الأمير أننى أؤدى به شكر أياديه العظيمة علىَّ ، فمن واجب العبيد أن يذكروا ما غمرهم به مواليهم من نعم وآلاء .

(٥) فى نفح الطيب « يرى قاضيا أبناءه » ؛ والمعنى : أدعو الله أن يكون حظك سعيدا موفقا بقضاء الآمال .

(٦) المعنى : اشرب فى الصباح كأس المودة والقبول من والدك الملك العظيم فقد سِرْتَ فى سبيل رضاه أطيب مسير .

حـــين صَمَّمْتَ إلى أعدائه ... فأنتحتهم منك صماء الغبر[1]

فاضَ غَمْرٌ للندى من فوقهم ... كان يُرْوِى شُرْبَهُمْ منهُ الغُمَر[2]

سَبَقَ الناسَ فصَـــلَّى منك مَن ... إن رأى آثارهُ الزُّهرَ اقتفر[3]

---

(١) الصماء : الجيـــدة التي لاتجدي فيها الرُّقى ، أو الداهية الشديدة . قال العجاج :

صمّاءُ لايبرئها من الصَّمَمْ ... حوادثُ الدهر ولا طول القِدَمْ

الغَبَرُ : التراب ، وصماء الغَبَر أو داهية الغَبَر : داهية عظمى لا يهتَـدَى لمثلها ، أو بليّة لاتكاد تذهب ، ومن أمثالهم في الدهاء والكيد « إنه لداهيـة الغَبَر » ، قال الحرمازي يمدح المنذر بن الجارود :

أنتَ لها مُنذرُ — مِنْ بين البشر — ... داهيـة الدهر وصمّاءُ الغبرْ

المعنى : حينما نهضت مصمماً إلى الأعداء أصابتهم منك نكبة نكباء ليس لها عنهم زوال؛ أو وجدوا فيك بطلاعميق الغور واسع الدهاء لا قِبَلَ لهم به في الكيد والنضال ، وفي الأصول «صماء الغبر» ولعل الصواب ماأثبتناه .

(٢) الغمرُ : الكثير ؛ وفي الحديث « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر غَمْر » ، والغُمَرُ : أصغر الأقداح : قال أعشى باهلة يرثي أخاه المنتشر بن وهب الباهلي — :

تكفيه حُزّةُ فِلْذٍ إن ألمَّ بها ... من الشواء ، ويُرْوِى شربه الغُمَرُ

« القصيدة بتمامها في جمهرة أشعار العرب » ؛ والمعنى : لمّا نهضتَ إلى أعداء الملك فأوقعت بهم شملَهُمْ عفوه وعطفُه ففاض عليهم كالبحر الزاخر ، وكانوا لايظفرون قبل هذا إلا بالنزر اليسير .

(٣) في نفح الطيب « سابقا الناسَ » ، صَلَّى : جاء تالياً للسابق ، فالسابق هو المجلِّي والتالي له هو المصلِّي ؛ اقتفر الأثرَ : تتبّعه قال أعشى باهلة : =

زِنَتُما الأيَّامَ ، إذْ مُلْكُكُما   سَالَ في أَوْجُهِهَا سَيْلَ الغُرَرْ[١]

فَابْقَيَا فِي دَوْلَةٍ قَادِرَةٍ   بَعْضُ حُرَّاسِ نَوَاحِيها القَدَرْ[٢]

مُسْتذِلَّيْ مَنْ طَغَى ، مُسْتَأْصِلَيْ   شَأْفَةَ البَاغِي ، مُقِيلَيْ مَنْ عَثَرْ[٣]

عَلَمَيْ مَنْ ضَلَّ ، مُزْنَيْ مَنْ شَكَا   خَلَّةَ الإمْحَالِ ، بَدْرَيْ مَنْ نَظَرْ[٤]

تَضْحَكُ الأَزْمُنُ عَنْ عَلْيَاكُمَا   ضَحِكَ الرَّوْضَةِ عَنْ ثَغْرِ الزَّهَرْ[٥]

= لا يغمز الساقَ من أينٍ ومن وصب

ولا يزال أمام القـوم يقتفر

والمعنى : سبق المتضدُ الناس مُجلِّيا فتلاه الأمير مُصلِّيا لأنه حينما رأى آثار أبيه الزهراء تتبع مناهجها في حمية ونشاط .

(١) المعنى : أنت وأبوكَ زينة الدنيا ، فقد أضأتما في وجهها كما تضيء الغرة في الجبين .

(٢) المعنى : اسعدا بالبقاء في مملكة قوية تحرسها الأقدار من كيد الأعداء .

(٣) المعنى : انما في هذه الدولة عاملَيْن على إذلال البغاة ، وإهلاك الطغاة ، وإقالة عثرات الكرام .

(٤) الخلّة : الحاجة أو الفقر ، الإمحال : الفقر والجدب ؛ المعنى : ابرزا في هذه الدولة كالأعلام تهدي الضالين ، والسُّحب تغني السائلين ، والأقمار تبهر الناظرين .

(٥) المعنى : تفترّ الأرض ضاحكة مستبشرة بما أبديتما من أمجاد ، كما تضحك الحديقة مفترّة عن مباسم الأزهار .

ظلال النعيم

كتب الشاعر إلى المعتمد يشوقه إلى تماثل الحيّا
في قصوره البديعة التي منها المبارك والثريا :

فُزْ بالنَّجاحِ ، وَأَحرِزِ الإِقبالاَ وَحُزِ المُنَى ، وَتَنَجَّزِ الآمالاَ[1]
وَلْيَهْنِكَ التَّأْيِيدُ وَالظَّفَرُ الَّذَا صَدَقَاكَ ـ في السِّمَةِ العَلِيَّةِ ـ فَالاَ[2]
يَأَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي لَوْلاَهُ لَمْ تَجِدِ العُقُولُ النَّاشِدَاتُ كَمَالاَ[3]

* * *

أَمَّا « الثُّرَيَّا » فالثُّرَيَّا نِسْبَةً وَإِفَادَةً وَإِنَافَةً وَجَمَــالاَ[4]

(١) المعنى : اظفر بالنجاح الباهر ؛ وتمتع بالحظ المقبل البسّام ؛ واسعد بأمانيك ؛ واستنجز ماوعدك القدر به من أطيب الآمال .

(٢) من ألقاب المعتمد : الظافر بحول الله ، والمؤيد بالله . اللَّذَا : اللَّذان وقد حذف الشاعر النونَ جريا على لغة بعض بني ربيعة ، قال الأخطل :

أبنى كليب إنّ عمّىَ اللَّذا قتلا الملوكَ وفكّكا الأغلالا

السِّمة : العلامة المميزة ؛ والمعنى : هنيئا لك الظفر المبين وتأييد الله لك تحقيقا لما تفاءلت به وما اتخذته سمة لك من الظفر والتأييد .

(٣) المعنى : أيها الملك العظيم : لولاك ماوجدت العقول الباحثة مثالا حيا مجسما للكمال .

(٤) آثرنا رواية نفح الطيب ، وفى الأصول «فالثريا نُصبة » من نصب الشيء : رفعه ، أو النُّصْبة بمعنى النوع ، أو النُّصبة بمعنى السارية ؛ الإنافة : الإشراف يقال : أناف على الشيء : أشرف عليه ؛ والمعنى : إنّ قصر الثريا ينتسب إلى نجوم الثريا ويشبهها فى الضوء والإشراق وفى سموّ المكانة والجلال .

قَدْ شاقَها الإغبابُ ، حتى إنها لَوْ تَسْتَطيعُ سَرَتْ إليكَ خَيالا[1]
رَفَّهْ ورُودَكَها لتغنمَ راحةً وأطِلْ مَزارَكَها لتَنْعَمَ بالا[2]

* * *

وَتَمثَّلِ القصرَ « المُبارَكَ » وجنةً قَدْ وسَّطتْ فيها « الثُّرَيَّا » خالا[3]
وأدِرْ هناكَ مِنَ المُدامِ أتمَّها أرَجاً زكا ، وأشفَّها جِرْيالا[4]
قصرٌ يقرُّ العينَ منهُ مَصنَعٌ بَهِجُ الجَوانِبِ لَوْ مَشَى لاخْتالا[5]
لا زلتَ تَفترشُ السُّرورَ حَدائقاً فيه ، وَتَلتَحِفُ النَّعيمَ ظِلالا[6]

(١) الإغباب : الإقلال من الزيارة ، وفي الحديث « زرْ غِبًّا تزدَدْ حُبًّا » والغِبُّ في سقي الأبل وفى الحمى يومٌ ويوم ، وقال الحسن : الغِبُّ في الزيارة في كل أسبوع ، والمعنى : لقد اشتاقت هذه الدار إليك وزادها شوقا قلة ترددك عليها ، فلو كانت تستطيع السير لسارت إليك تحت الظلام كطيف الخيال ، وربما كانت « قد شفّها » بمعنى أنحلها .

(٢) رفّهتِ الإبلُ : وردت الماء كلما شاءت ؛ والمعنى : أكثر من زيارتها ، وسّعها بقربك لتجد فيك الراحة والأنس والنعيم .

(٣) فى نفح الطيب « وتأمل القصر » والمعنى : إذا تخيلنا قصر المبارك وجنةً كان قصر الثريا فيها أشبه بالخال الذى يمنح الخدود البهجة والجمال .

(٤) فى نفح الطيب « ... كئوسَها .. وأتمَّها وأشفَّها .. » ؛ الأرج : توهّج ريح الطيب ؛ الجريال : الخمرة أو لونها الأحمر ؛ والمعنى : تمتع فى هذا القصر بمعاقرة الراح وتناول أزكاها عبيراً وأسطعها لونا فى سرور وطرب .

(٥) المصنع : الحصنُ أو حوض الماء ؛ والمعنى : هذا القصر يحوى غديراً حسن الجوانب ، لو استطاع الشيءُ لاختال إعجابا بما حواه من بهاء وجمال .

(٦) المعنى : أسأل الله أن نسعد فى هذا القصر مفترشا فيه رياض الحبور ملتحفاً فيه ظلال النعيم .

الرّثاء

« رثى الشاعر أبا الحزم بن جهور وزوجه ، كما رثى المعتضد وأمه وابنته ، ورثاؤه أشبه بمدحه ؛ ولكن رثاءه لصديقه ابن ذكوان ينبض باللوعة ويفيض بالحنين » .



تهنئة وعزاء

مات أبو الحزم بن جهـــور فى السادس من شهر المحرم سنة ٤٣٥ هـ وخلفه ابنه أبو الوليد فى حكم قرطبة ، فصاغ الشاعر هذه القصيدة فى رثاء الأمير الراحل وتهنئة الحاكم الجديد :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا القَــبْرُ ؟
وَأَنْ قَدْ كَفَانَا ـ فَقْدَهَا ـ الْقَمَرُ الْبَدْرُ ؟(١)

وَأَنَّ الحَيَا إِنْ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ
فَقَدْ فَاضَ لِلْآمَالِ فى إِثْرِهِ الْبَحْرُ(٢)

إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفِعْلَ بَعْدَهَا وَذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتْبَعُهُ الْعُذْرُ(٣)

---

(١) آثرنا رواية الذخيرة وفى الأصول « كفاها فقدها ... » ، البدر : القمر إذا امتلأ أو السيد ، وبدر القوم : سيدهم ، قال ابن أحمر :

وقد نضرب البدرَ اللجوجَ بكفِّه عليه ، ونعطى رغبةَ المتودد

والمعنى : لقـد هوت الأميرةُ كالشمس الغاربة فضمّها اللحد ولـكنْ عوّضنا عنها بقاءُ ابنها المغنى ، كالقمر الـكامل أو السيد الوضئ .

(٢) الحيا : المطر أو الخصب ؛ الصوب : نزول المطر ؛ والمعنى ؛ إذا كان الأمير قد قضى نحبه فقد كنتَ له خير خلف ، كما أن المطر إذا أقلع فاض بعده البحر مبشراً بأعذب الآمال .

(٣) المعنى : إذا كان الدهر قـد أساء إلينا بموت الأمير فقد أحسن إلينا بولاية ابنه كما يُتْبِع المسىءُ إساءته بأحسن الأعذار .

فَلاَ يَتَمَنَّ الْكَاشِحُونَ !! فَمَا دَجَا ... لَنَا اللَّيْلُ إِلاَّ رَيْثَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ(١)

وَإِنْ يَكُ وَلَّى « جَهْوَرٌ » ، فَمُحَمَّدٌ ... خَلِيفَتُهُ الْعَدْلُ الرِّضَى وَابْنُهُ الْبَرُّ(٢)

* * *

لَعَمْرِى لَنِعْمَ الْعِلْقُ أَتْلَفَهُ الرَّدَى ... فَبَانَ ، وَنِعْمَ الْعِلْقُ أَخْلَفَهُ الدَّهْرُ(٣)

[هُمَامٌ جَرَى يَتْلُو أَبَاهُ ، كَمَا جَرَى ... مُعَاوِيَةٌ يَتْلُو الَّذِى سَنَّهُ صَخْرُ](٤)

هَزَزْنَا بِهِ الصَّمْصَامَ ، فَالْعَزْمُ حَدُّهُ ... وَحِلْيَتُهُ الْعَلْيَاءُ ، وَإِفْرِنْدُهُ الْبِشْرُ(٥)

---

(١) فى الأصول « فلا يتمن الكاشحون » وقد آثرنا رواية الذخيرة ؛ الكاشح : المنطوى على العداوة ؛ والمعنى : لايهنأ الأعداء بموت الأمير فقد عوضنا ابنه عن فقده ، فما أظلم علينا الليل حتى أشرق علينا الصباح .

(٢) المعنى : إذا كان جهور قد مات فقد خلفه ابنه محمد البر العادل الذى رضيت عنه رعيته كل الرضاء .

(٣) العلق : النفيس ؛ بان : رحل ؛ والمعنى : نعم الراحل الكريم ، ونعم خلفه العظيم .

(٤) البيت زيادة من الذخيرة ؛ معاوية : هو معاوية بن أبى سفيان الصحابى مؤسس الدولة الأموية ، وصخر : هو أبو سفيان والد معاوية وكان صخر سيدا فى الجاهلية وأسلم يوم فتح مكة ؛ المعنى : لقد تابع الأمير أباه الراحل فى المجد والسيادة كما تابع معاوية والده أبا سفيان فى السؤدد والسلطان .

(٥) الصمصام : السيف القاطع الذى لا ينثنى ؛ إفرند السيف : حليته ووشيه ؛ والمعنى : هززنا منه سيفاً بتارا : حده المضاء والعزم ، وحليته المجد ، وصفحته التهلل والحبور .

فَتًى يَجْمَعَ المَجْـدَ المُفَرَّقَ هَمُّهُ
وَيَنْظُمُ – فِي أَخْلَاقِهِ – السُّودَدُ النَّثْرُ[١]

أَهَابَتْ إِلَيْهِ بِالقُلُوبِ مَحَبَّـةٌ
هِيَ السِّحْرُ لِلأَهْوَاءِ ، بَلْ دُونَهَا السِّحْرُ[٢]

سَرَتْ حَيْثُ لَا تَسْرِى – مِنَ الأَنْفُسِ – المُنَى
وَدَبَّتْ دَبِيبًا لَيْسَ يُحْسِنُهُ الخَمْرُ[٣]

لَبِسْنَا لَدَيْهِ الأَمْنَ تَنْدَى ظِلَالُهُ
وَزَهْرَةَ عَيْشٍ مِثْلَمَا أَيْنَعَ الزَّهْرُ[٤]

وَعَادَتْ لَنَا عَادَاتُ دُنْيَا ، كَأَنَّمَا
بِهَا وَسَنٌ، أَوْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ[٥]

* * *

(١) المعنى: الأمير فتى ناهض عظيم جمّعت همّته ماتفرق من أشتات المعالى وانتظمت فى شمائله الأمجاد المنثورة .

(٢) المعنى : دعت محبّته إليه القلوب ، كأن محبته سحر يستهوى الأفئدة أو هى فوق السحر والساحرين .

(٣) المعنى : سرت محبته فى القلوب وتغلغلت فى الضمائر إلى حيث لاتسرى الأمانى ، ودبّت فى الأجسام دبيبا لا يمكن أن تدبّ إليه السلاف .

(٤) المعنى : نعمنا فى ظلاله بالعيش الندىّ فى سكينة وأمن واطمئنان ، وسعدنا بحياة زاهرة متفتحة كما تونع الأزهار .

(٥) الوَسَن : النّعاس أو أوله ؛ أعطاف : جمع عِطف وهو الجانب ؛ والمعنى : تبسمت لنا الحياةُ فى ظل الأمير ، وارتدّت إلينا أيامُ السعادة والنعيم، وطابت لنا الدنيا كأنما مالت بها سِنةُ الكرى أو هزّت جوانبها نشوة السلاف .

حليكٌ لَهُ مِنَّا النَّصِيحَةُ وَالْهَــوَى
وَمِنْهُ الْأَيَادِي الْبِيضُ وَالنِّعَمُ الْخُضْرُ[(١)]

نُسِرُّ وَنَاءٍ حِينَ نُعْلِنُ طَاعَةً فَمَا خَانَهُ سِرٌّ وَلَا رَابَهُ جَهْرُ[(٢)]

فَقُلْ لِلْحَيَارَى : « قَدْ بَدَا عَلَمُ الْهُدَى »
وَلِلطَّامِعِ الْمَغْرُورِ : « قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ »[(٣)]

* * *

« أَبَا الْحَزْمِ » قَدْ ذَابَتْ عَلَيْكَ ـ مِنَ الْأَسَى ـ
قُلُوبٌ ، مُنَاهَا الصَّبْرُ ، لَوْ سَاعَدَ الصَّبْرُ[(٤)]

دَعِ الدَّهْرَ يَفْجَعْ بِالذَّخَائِرِ أَهْــلَهُ
فَمَا لِنَفِيسٍ ـ مُذْ طَوَاكَ الرَّدَى ـ قَدْرُ[(٥)]

---

(١) المعنى : إنه ملك محبوب ، له علينا حقوق النصيحة والوداد ، لأنه يغمرنا بالنعم والإحسان .

(٢) المعنى : لقد أخلصنا له فى السر والعلانية ، فنحن نمنحه الطاعة عن حب ووفاء ، فلا تخونه الضمائر ولا تسوءه الأفعال .

(٣) المعنى : قل للمتحيِّرين : لا تحاروا ، فقد ظهر الحكم علم الهدى ممثلا فى الأمير ، وقل للعدو الطامع المتكبر : أقصر عن مطامعك فى الحكم ، فقد قضى الله بنصرة الأمير ، ولا راد لما قضاه الله .

(٤) فى الذخيرة « قلوب ومنها الصبر » ؛ والمعنى : أيها الراحل الكريم لقد ذابت عليك قلوبنا من وقدة الأحزان . حتى أصبح أكبر آمالنا أن نظفر بنفحة من الصبر ، ولكن لاسبيل إلى مساعفته للقلوب .

(٥) فى الذخيرة « إذ طواك » المعنى : دع الموت يتخطف بعدك من يشاء ، فلم يبق =

تَهُونُ الرَّزَايَا بَعْدُ ، وَهْيَ جَلِيلَةٌ
وَيُعْرَفُ ـ مُذْ فَارَقْتَنَا ـ الْحَادِثُ النُّكْرُ(١)

فَقَدْنَاكَ فِقْدَانَ السَّحَابَةِ ، لَمْ يَزَلْ
لَهَا أَثَرٌ يُثْنِي بِهِ السَّهْلُ وَالْوَعْرُ(٢)

مَسَاعِيكَ حَلْيٌ لِلَّيَالِي مُرَصَّعٌ
وَذِكْرُكَ فِي أَرْدَانِ أَيَّامِهَا عِطْرُ(٣)

فَلَا تَبْعَدَنْ !! إِنَّ الْمَنِيَّةَ غَايَةٌ
إِلَيْهَا التَّنَاهِي، طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمْرُ(٤)

* * *

= لنا بعد موتك من نخشى عليه الفناء من العظماء ، ومثل هذا قول عقيل ابن مرة :

لِتَغْدُ المنايا حيث شاءتْ ، فإنها مُحَلَّلَةٌ بعد الفتى ابن عقيل

كأنَّ المنايا تبتغى فى خيارنا لهانرةً أو تَهتدى بدليل

(١) المعنى : تهون بعد موتك كل مصيبة وإن عظمت ، ويجل خطبك فينا فلا يدانيه خطب مدى الحياة ؛ وشبيه بهذا قول أشجع بن عمرو السلمى :

فما أنا من رزء ـ وإن جلَّ ـ جازع ولا بسرور ـ بعد موتك ـ فارح

كأنْ لم يمتْ حىٌّ سواكَ ، ولم تقم على أحد إلا عليك النوائحُ

(٢) المعنى : فقدناك !! ولكن بقيت فينا آثارك الخالدات ، كما تذهب السحبُ وتبقى آثارها فى الوديان والهضاب .

(٣) فى الذخيرة « مساعيك حلىٌ للزمان » ؛ مرصّع : محلّى ؛ الأردان : جمع رُدْن وهو أصل الكم ؛ والمعنى : آثارك يتحلى بها الزمان ، وذكراك تعطر بها الأيام .

(٤) المعنى : لا أبعدك الله !! إنا كان الموت قد طواك فإنه نهاية كل حىّ سواءٌ طالت أو قصرت به الحياة .

عَزَاءٍ - فَدَتْكَ النَّفْسُ - عَنْهُ ، فَإِنْ تَوَى

فَإِنَّكَ لَا أَلْفَانِي ، وَلَا الضَّرِعُ الْغُمْرُ[1]

وَمَا الرُّزْءُ فِي أَنْ يُودِعَ التُّرْبَ هَالِكٌ

بَلِ الرُّزْءُ كُلُّ الرُّزْءِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ[2]

أَمَامَكَ - مِنْ حِفْظِ الْإِلَهِ - طَلِيعَةٌ

— وَحَوْلَكَ - مِنْ آلَائِهِ - عَسْكَرٌ مَجْرٌ[3]

وَمَا بِكَ مِنْ فَقْرٍ إِلَى نَصْرِ نَاصِرٍ

كَفَتْكَ - مِنَ اللهِ - الْكَلَاءَةُ وَالنَّصْرُ[4]

* * *

(١) الفاني : الشيخ الكبير الضعيف ؛ الضرع : الذليل المستكين ؛ الغمر : الذي لم يجرب الأمور . والمعنى : أيها الأمير تعزَّ عن الراحل الكريم ، فنحن فداؤك من كل سوء ، وإذا كان الموت قد طواه فلك من شبابك وعزتك وتجاربك أكرم عوض وخير عزاء .

(٢) المعنى : ليست المصيبة أن يموت إنسان ، ولكن المصيبة أن تجزع عليه فتفقد ثواب الصبر وتبوء بالخسران .

(٣) الطليعة : مقدمة الجيش ؛ المجر : الجيش العظيم ؛ والمعنى : سيحوطك الله بعنايته ، فيتقدمك حفظه ، وتحيط بك آلاؤه ، فتكون من حولك كالجيش العظيم ؛ وفى الذخيرة : « أمامك من حفظ الإله صنيعة » .

(٤) الكلاءة : الحفظ والعناية ؛ والمعنى : لست محتاجا إلى من ينصرك فإن الله لك خير ناصر وحافظ ومعين .

لكَ الخَيْرُ ! إنِّي وَاثِقٌ بكَ شَاكِرٌ   لِمَثْنَى أَيَادِيكَ الَّتِي كُفْرُهَا الكُفْرُ[1]

تَحَامَى العِدَا - لَمَّا اعْتَلَقْتُكَ - جَانِبِي   وَقَالَ المُنَاوِي : شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو[2]

بِلِينِ كَلَامٍ كَانَ يَخْشُنُ مِنْهُمُ   وَيَفْتُرُ نَحْوِي ذَلِكَ النَّظَرُ الشَّزْرُ[3]

* * *

فَصَدِّقْ ظُنُونًا لِي وَفِيٍّ ، فَإِنَّنِي   لَأَهْلُ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ مِنْكَ، وَلَا فَخْرُ![4]

---

(١) مثنى الأيادى : ازدواج النعمة أى إعادة المعروف مرتين فأكثر قال النابغة الذبيانى :

إنى أتمم أيسارى ، وأمنحهم   مَثْنَى الأيادى،وأكسو الجفنةَ الأدما

والمعنى : أدعو الله أن يغمرك بخيراته ، إننى واثق بك ، شاكر لإحسانك المتصل الدائم الذى لو جحدته لكنتُ من الكافرين .

(٢) اعتلقته : تعلّق به أى أحبه ؛ شبّ عمرو من الطوق : مثل يضرب لمن يكبر شأنه عن إتيان أمر صغير ؛ وقد قاله جذيمة بن الأبرش لما رأى ابن أخته عمرو بن عدى وقد نظفتْهُ أمُّه وألبسته لباسَ الملوك ووضعت فى عنقه طوقا ؛ والمعنى : لما تعلقتُ به خشيبنى العدوُّ ، وقال الخصم : لاسبيل إلى إساءته ، فقد عظم شأنه وجل أمره وكبر عن تلق الإساءات .

(٣) نظر إليه شزرا : نظر إليه بجانب العين ولم يستقبله بوجهه أو نظر إليه بمؤخر عينه غاضبا ؛ والمعنى : لما ظللتنى بحمايتك خافنى الأعداء فلان كلامُهم لى بعد الخشونة ورقّت نظراتهم إلىّ بعد نظرات الحقد والوعيد .

(٤) المعنى : صدِّقْ فىّ ماأوحت به إليك الظنون من وفاء وإخلاص وألمعية وذكاء ، فإننى أهل لإحسانك جدير باصطناعك ؛ ولا أقول هذا فخراً ولكنه الحق الصراح .

وَمَنْ بِكَ ـ لِلدُّنْيَا وَلِلْوَفْرِ ـ سَعْيُهُ ... فَتَفْرِيبُكَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالُكَ الْوَفْرُ[1]

البدر الآفل

فجع الموت شاعرنا فى رفيق طفولته وصديق صباه القاضى أبى بكر بن ذكوان فى ثلاث خلون من ربيع الأول سنة ٤٣٥ هـ فأدمت الفجيعة قلبه ، ثم قادته قدماه إلى قبره ، فأوحت أشجانه إليه هذا الرثاء .

اعْجَبْ لِحَالِ السَّرْوِ كَيْفَ تُحَالُ !! ... وَلِدَوْلَةِ الْعَلْيَاءِ كَيْفَ تُدَالُ !![2]

لَا تَفْسَحَنْ لِلنَّفْسِ فى شَأْوِ الْمُنَى ... إِنَّ اغْتِرَارَكَ بِالْمُنَى لَضَلَالُ[3]

مَا أَمْتَعَ الْآمَالَ !! لَوْلَا أَنَّهَا ... تَمْتَاقُ ـ دُونَ بُلُوغِهَا ـ الْآجَالُ[4]

(١) المعنى : من كان يسعى للحصول على الدنيا أو لجمع الأموال فإننى أسعى إليك وحدك ، فقربك يغنينى عن متاع الدنيا أو وفرة الأموال .

(٢) فى الذخيرة « انظر لحال السرو .. » وفى ز « ولدولة العلياء كيف تزال » ؛ السرو : المروءة والسخاء ؛ حال : تغير ؛ الإدالة : الغلبة والنصر ، يقال : أدالنا الله من عدونا أو عليه أى نصرنا عليه ؛ والمعنى : ما أعجب أن تتقلب الأيام فتطمس الروءة والسخاء وتزيل دولة العلياء بعد الازدهار والنماء !!

(٣) الشأو : الغاية والأمد أو السبق ؛ والمعنى : لا تحلّقْ مع الخيال ، ولا توسّعْ صدرك لعظائم الآمال ، فالغرور بالمنى ضلال أى ضلال .

(٤) عاقه عن كذا واعتاقه : حبسه عنه وصرفه ؛ والمعنى : ما أعذب الآمال !! لولا أن الأعمار لا تتسع لتحقيقها ، فبينا يتهيأ الإنسان لاستقبال أمانيه إذا بالمنية تطويه .

مَنْ سُرَّ لَمَّا عَاشَ قَلَّ مَتَاعُهُ ۞ فَالْعَيْشُ نَوْمٌ، وَالسُّرُورُ خَيَالُ[1]

* * *

فِى كُلِّ يَوْمٍ نَنْتَحِى بِرَزِيَّةٍ ۞ لِلْأَرْضِ – مِنْ بُرَحَائِهَا – زِلْزَالُ[2]

إِنْ يَنْكَدِرْ – بِالْأَمْسِ – نَجْمٌ ثَاقِبٌ ۞ فَالْيَوْمَ أَقْلَعَ عَارِضٌ هَطَّالُ[3]

إِنَّ النَّعِىَّ « لِجَهْوَرٍ » وَ « مُحَمَّدٍ » ۞ أَبْكَى الْغَمَامَ ، فَدَمْعُهُ مُنْثَالُ[4]

شَكْلَانِ إِنْ حُمَّ الْحِمَامُ تَجَاذَبَا ۞ لَا غَرْوَ أَنْ تَتَجَاذَبَ الْأَشْكَالُ[5]

* * *

(١) المعنى : من سره طول الحياة قلّ بها متاعه لما يعذبه من شيخوخة ووهن وانحلال ؛ فما العيش إلا منام ، وما السرور إلا طيف خيال .

(٢) انتحاه : قصده ؛ البرحاء : شدة الأذى ، تقول : برّح به الأمر أى جهده ؛ المعنى : مابالنا نصاب فى كل يوم بخطب مبرح تكاد الأرض يصيبها من هوله الزلزال ؟

(٣) شهاب ثاقب : مضيء ، قال تعالى «والسماء والطارق، وما أدراك ما الطارق، النجم الثاقب » ؛ أقلع : كفّ ؛ العارض : السحاب يعترض فى الأفق ، ومنه قوله تعالى : « هذا عارضٌ ممطرنا » ؛ هطّال : متوالى المطر ؛ والمعنى : إذا كان الأمير جهور قد انطفأ سراجه الوضّاء بالأمس فقد مات اليوم ابنُ ذكوان ورحل عنا كما رحل السحاب المطير .

(٤) انثال : انصبّ أو تتابع ؛ والمعنى : أنّ نعى الأمير ابنِ جهور والقاضي ابن ذكوان أشاع مظاهر الأسى فى جميع مظاهر الحياة حتى لقد بكاها الغمام بدمعه الهتّان .

(٥) الشكْلُ : المثلُ جمعه أشكال وشكول ؛ حُمَّ : قُدِّر ؛ الحِمام : قضاء الموت وقدره ؛ والمعنى : كان بين الأمير والقاضي تقاربٌ فى الشمائل والأمجاد ، فلما طوى الموت الأمير جذب إليه القاضىَ كما تتجاذب النظائرُ وتتقارب الأمثال .

وَلِى « أَبُو بَكْرٍ » ، فَرَاعَ لَهُ الْوَرَى — هَوْلٌ تَقَاصَرُ دُونَهُ الْأَهْوَالُ[١]

قَمَرٌ هَوَى فِى التُّرْبِ يُحْثَى فَوْقَهُ — لِلّٰهِ مَا حَازَ الثَّرَى الْمِنْهَالُ !![٢]

قَدْ قُلْتُ ـ إِذْ قِيلَ السَّرِيرُ يُقِلُّهُ ـ — هَلْ لِلسَّرِيرِ بِقَدْرِهِ اسْتِقْلَالُ ؟[٣]

الْآنَ بَيَّنَ لِلْعُقُولِ زَوَالُهُ : — أَنَّ الْجِبَالَ قُصَارُهُنَّ زَوَالُ[٤]

مَا أَقْبَحَ الدُّنْيَا ! خِلَافَ مُوَدِّعٍ — غَنِيَتْ بِهِ فِى حُسْنِهَا تَخْتَالُ[٥]

* * *

يَا قَبْرُهُ الْعَطِرَ الثَّرَى لَا يَبْعَدَنْ — حُلْوٌ مِنَ الْفِتْيَانِ فِيكَ حَلَالُ[٦]

---

(١) المعنى : مات أبو بكر بن ذكوان فأصاب موته البرية بنكبة لاتعد لها نكبة ، وخطب تقصر عن هوله أشدُّ الخطوب .

(٢) فى نسخة ب ، ت « قمر نوى .. » ؛ حثا الرجلُ الترابَ : هاله بيده ؛ والمعنى : إن القاضى قمرٌ هوى إلى التراب ، ففى ذمة الله ماطواه الثرى النهال من أمجاد وأفضال .

(٣) أقلّه : حمله أو رفعه عن الأرض ؛ السرير : النعش قبل أن يحمل عليه الميت ؛ استقلال : حمل ؛ والمعنى : لما رأيته محمولا على النعش عجبت كيف أطاق السرير حمل سؤدده وأمجاده .

(٤) قصارُه وقصاراه : غايته وآخر أمره أو ما اقتصر عليه ؛ والمعنى : أثبت موتُ الأمير للعقلاء أن الحياة مصيرها إلى الفناء ، وأن الجبال مآلها إلى الزوال .

(٥) خلاف مودع : بعده ، يقال : قعدت خلافه أى بعده ، قال تعالى : « وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا » ؛ والمعنى : ماأقبح الدنيا بعده !! فقد كان زينة لها وبهجة فيها ، تتيه به وتختال أى اختيال .

(٦) الحلو الحلال : الرجل أو الكلام الذى لاريبة فيه !! أنشد ثعلب :

تَصيَّدُ بالحلو الحَلال ، ولا تُرى — على مكره يبدو بها فيعيب

ما أنتَ إلاّ الجفنُ أصبحَ طيَّهُ نَصْلٌ، عليهِ من الشبابِ صِقالُ[1]

فهناكَ نفّاحُ الشمائلِ مثلما طرقتْ بأنفاسِ الرياضِ شمالُ[2]

دانٍ من الخُلقِ الرزينِ ، نازحٌ عن كلِّ ما فيهِ عليهِ مَقالُ[3]

شيمٌ ينافسُ حُسْنَها إحسانَها كالراحِ نافسَ طعمَها الجِرْيالُ[4]

* * *

يا مَن تنأى الأمثالَ ، منهُ واحدٌ ضُرِبتْ بهِ في السُّؤددِ الأمثالُ[5]

= وقال الشاعر :

إذا كان أولاد الرجال حزازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب

والمعنى : أيها القبر المطر بحلوله فيك ، لا أبعد الله مقر فتاك الطاهر الأمين !!

(١) المعنى : أيها الضريح الطاهر : لقد حلّ فقيدنا بك كما يحل السيف اللامع في جفنه ، وكان الشباب قد صقله ، ثم عدتْ عليه النون .

(٢) طرق : وفد ليلا ؛ والمعنى : فيك أيها القبر جثمان فتى عاطر الشمائل ، تهبّ علينا ذكراه العطرة كما تحمل ريح الشمال نفحات الرياض، فتعطر الأجواء بعبيرها الفواح .

(٣) فيه عليه مقال : فيه مجال لأن يلومه اللاغون ، قال هشام بن عبدالملك :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض مافيه عليك مقال

والمعنى : كان الفقيد قريبا كل القرب من مكارم الأخلاق ، بعيدا كل البعد عما يثير اللامة والعتاب .

(٤) الجريال : حمرة لون الراح ؛ والمعنى : إن شمائل الأمير المادية والمعنوية يبارى جمالها فضلَها ، كما أن طعم الراح ينافس لونها الجميل .

(٥) في سرح العيون « يامن تنا الأمثال فيه مهذب . ضربت له... » والتناء=

نَقَصَتْ حَيَاتُكَ حِينَ فَضْلُكَ كَامِلٌ ... هَلَّاأَسْتُضِيفَ ـ إِلَى الْكَمَالِ ـ كَمَالُ[1]

وَدَّعْتَ عَنْ عُمْرٍ عَمَرْتَ قَصِيرَهُ ... بِمَكَارِمٍ أَعْمَارُهُنَّ طِوَالُ[2]

مَنْ لِلنَّدِيِّ إِذَا تَنَازَعَ أَهْلُهُ ... فَاسْتَجْهَلَتْ حُلَمَاءَهُ الْجُهَّالُ[3]

لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ لَقَلَّ مِرَاؤُهُمْ ... لِأَغَرَّ فِيهِ ـ مَعَ الْفَتَاءِ ـ جَلَالُ[4]

* * *

= التحدث عن إنسان بمدح أو قدح ؛ شأى : سبق ؛ والمعنى : أيها الراحل الكريم : لقد فقت أمثالك من العظماء ، فصرت مضربا للأمثال فى السؤدد والكمال .

(١) فى سرح العيون « حيث فضلك » ، وفيه وفى الذخيرة والأصول « هلا استعضاف إلى الكمال كمال » ولعلها مأخوذة من استضاف الرجل إلى الأمير : لجأ إليه ، أنشد ابن الأعرابى :

ومارسنى الشيب عن لمتى ... فأصبحت عن حقه مستضيفا

وقد تكون « هلا أضاف ... » بمعنى مال ، قال ساعدة بن جؤية يصف سحابا :

حتى أضاف إلى وادٍ ضفادعه ... غرقى رداً فى تراها تشتكى النشجا

وربما كان الصواب ما أثبتناه ؛ والمعنى : لقد كل فضلك ونقصت حياتك ، فهلا كملت حياتك مثلما كملت سجاياك « والمعروف أن ابن ذكوان مات فى سن الأربعين » .

(٢) فى ب ، ت ، ز « ودعت من عمر ... » ؛ والمعنى : لقد مت بعد عمر قصير ، ولكنك أطلته بآثارك الباقية وأمجادك الخالدة .

(٣) الندى : مجلس القوم ومتحدثهم ماداموا فيه ؛ والمعنى : من ذا يتصدر النادى بعدك فيرد الجهال إذا أساءوا القول فى الحلماء ؟

(٤) المراء والمماراة : الجدل أو شدة الخصومة أو الطعن فى الرأى تصغيراً لقائله وتزييفاً لرأيه ، ولا يكون المراء إلا اعتراضاً بخلاف الجدل فإنه يكون ابتداءاً أو اعتراضاً ؛ الأغر : الأبيض أو الشريف ؛ الفتاء : الشباب ؛ والمعنى : لقد كثر الجدل واللدد بعد فقدك ، ولو كنت حاضرا لانقطع الجدل توقيرا لشخصك المهيب الذى جمع وقار الكهولة إلى نضرة الشباب .

مَنْ لِلعُلُومِ ؟ فَقَدْ هَوَى العَلَمُ الَّذِي ... وُسِمَتْ بِهِ أَنْوَاعُهَا الأَغْفَالُ[(١)]

مَنْ لِلقَضَاءِ يعزّ ـ فى أثنائه ـ ... إيضاحُ مُشْكِلَةٍ لَهَا إِشْكَالُ ؟[(٢)]

مَنْ لِلْيَتِيمِ تَتَابَعَتْ أَرْزَاؤُهُ ؟ ... هَلَكَ الأَبُ الحَانِي وَضَاعَ المَالُ !![(٣)]

أعْزِزْ بِأَنْ يَنْعَاكَ نَعْيَ شَمَاتَةٍ ... لِلأَوْلِيَاءِ المَعْشَرُ الأَقْتَالُ !![(٤)]

فجِعَتْ رَحَى الإِسْلَامِ مِنْكَ بِقُطْبِهَا ... لَيْتَ الحَسُودَ فِدَاكَ !! فَهْوَ ثِفَالُ[(٥)]

* * *

(١) الوسم والسمة : العلامة ؛ الأغفال : الخالية من العلامات ؛ والمعنى : أين العالم المدقق الذى يتعمق فى دراسات العلوم المويصة بعدك ؟ لطالما لجأ اليك الباحثون ، ورووا عنك دراساتك المعيقة التى تحاماها أكثر الدارسين .

(٢) آثرنا رواية الذخيرة لما فيها من المجانسة التى أولع بها الشاعر ، وفى الأصول « إيضاح مظلمة » ؛ والمعنى : من ذا يلجأ إليه القضاة بعدك لجلاء مايعتريهم من مشاكل معقدة يضل فيها الباحثون ؟

(٣) المعنى : إلى من يلجأ اليتيم بعدك إذا توالت عليه المصائب فقد تراه بعد أن فقد والديه ؟

(٤) الأقتال : جمع قِتْل وهو العدو أو القاتل ؛ والمعنى : عزيز علينا أن يشمت فيك الأعداءُ الألداء ، وأن ينقلوا نَعيك إلى الأصدقاء الأولياء .

(٥) قطب الرحى : المحور الذى تدور حوله ؛ الثفال : مايوضع تحت الرحى من جلد أو نحوه ليقع عليه الدقيق ، قال زهير بن أبى سلمى فى وصف الحرب :

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتَضْرَ إذا ضرّيتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كِشافا ، ثم تنتج فتتئم

أى إذا أوّرتم الحروب فإنها سوف تنتشر وتشتعل كالنار فتطحنكم برحاها وتظل تنمو وتتوالد فلا تكاد تقف عند حد ؛ والمعنى : لقد فقد الإسلامُ بك عماده المكين ، فليت حاسديك كانوا لك الفداء !! فهم من سقط المتاع .

زُرْنَاكَ لِمْ تَأْذَنْ كَأَنَّكَ غَافِلٌ ... مَا كَانَ مِنْكَ لِوَاجِبٍ إِغْفَالُ(١)
أَيْنَ الْحَفَاوَةُ رَوْضُهَا غَضُّ الْجَنَى ؟ ... أَيْنَ الطَّلَاقَةُ مَاؤُهَا سَلْسَالُ ؟(٢)
أَيَّامَ مَنْ يَعْرِضْ عَلَيْكَ وِدَادَهُ ... يَكُنِ الْقَبُولُ بَشِيرَهُ الْإِقْبَالُ(٣)
مَهْمَا نُغِبُّكَ لَا نُرِبْكَ ، وَإِنْ نَزُرْ ... رِفْهاً فَمَا لِزِيَارَةٍ إِمْلَالُ(٤)
هَيْهَاتَ !! لا عَهْدٌ كَعَهْدِكَ عَائِدٌ ... إِذْ أَنْتَ فِي وَجْهِ الزَّمَانِ جَمَالُ(٥)
فَاذْهَبْ ذَهَابَ الْبُرْءِ أَعْقَبَهُ الضَّنَى ... وَالْأَمْنِ وَافَتْ بَعْدَهُ الْأَوْجَالُ(٦)

(١) المعنى : زورنا ضريحك فلم نَسعد بلقائك كأنك غافل عنا ، وما كنتَ في حياتك مقصراً عن قضاء واجب أو غافلا عن أداء الحقوق .

(٢) آثرنا رواية الذخيرة وفي الأصول « روضها سلسال » ؛ الحفاوة : المبالغة في الإكرام والإلطاف والرعاية ؛ غض الجنى : طازج الثمار ؛ ماء سلسل وسلسال و سلاسل : سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه ؛ والمعنى : أين منا الآن كرمك الوارف الظلال الغض الثمار ؟ وأين منا الآن طلاقة وجهك المتهلل المحبوب ؟

(٣) المعنى : لقد كنتَ تمنح عطفك وبرك لكل راغب فيك ، فتتقبل مودته وتُقبل عليه في بشر وإيناس .

(٤) الإغباب : الإقلال من الزيارة ، والغِبُّ في سقي الإبل وفي الحمى يوم ويوم ، وقال الحسن : الغِبُّ في الزيارة في كل أسبوع ؛ والرِّفْه : أن ترد الإبل الماءَ كلما أرادت ؛ والمعنى : كنا إذا أبطأنا عليك في الزيارة لا تتهم صداقتنا ، وإذا أكثرنا من زيارتك لا تملّ لقاءنا ؛ فلا أوفاك للصداقة والأصدقاء ! !

(٥) المعنى : لاسبيل لنا إلى أن نظفر بعهد مثل عهدك أو مودة كودتك ، فقد كنتَ جمال الزمان وزينة الحياة .

(٦) الأوجال : المخاوف ؛ والمعنى : نَمْ منعما في جوار الله فقد ذهبتَ عنا ذهاب الشفاء أعقبه الداء ، وغادرتنا مغادرة الأمان حلّت بعده المخاوف والأهوال .

لَكَ صَالِحُ الأَعْمَالِ إِذْ شَيَّعْتَهَا ... بِالْبِرِّ سَاعَةَ تُعْرَضُ الأَعْمَالُ[1]

* * *

حَيَّا الحَيَا مَثْوَاكَ ، وَامْتَدَّتْ عَلَى ... ضَاحِي ثَرَاكَ ـ مِنَ النَّعِيمِ ـ ظِلالُ[2]

وَإِذَا النَّسِيمُ أَعْتَلَّ فَاعْتَامَتْ بِهِ ... سَاحَاتِكَ الغَدَوَاتُ وَالآصَالُ[3]

وَلَئِنْ أَذَالَكَ ـ بَعْدَ طُولِ صِيَانَةٍ ـ ... قَدَرٌ ، فَكُلُّ مَصُونَةٍ سَتُذَالُ[4]

سَيَحُوطُ مَنْ خَلَّفْتَهُ مُسْتَبْصِرٌ ... فِي حِفْظِ مَا أَسْتَحْفَظْتَهُ لا يَأْلُوا[5]

(١) المعنى : لك الأعمال الصالحات مشفوعة بالبر والتقوى وستنال عند الله جزاءها حين تعرض عليه الأعمال .

(٢) الحيا : المطر ؛ الضاحى : البارز للشمس ؛ والمعنى : أدعو الله أن يسقى بالمطر الغزير مثواك ، وأن يسبغ عليك ظلال الرحمة والرضوان .

(٣) اعتام الشيء واعتاه : اختاره ، قال طرفة بن العبد :

أرى الموتَ يعتام الكرامَ ، ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتشدد

والمعنى : أدعو الله أن يرسل النسيم العليل على ساحاتك فى الصباح والمساء .

(٤) فى شرح العيون « فلئن أذالك » وفى بعض نسخ الذخيرة « ولئن أذلك » وقد آثرنا رواية نسخة ت والذخيرة وشرح العيون ، وفى باقى الأصول « فكل مصونة سيذال » أذال خادمه : أهانه ، وذال الرجل : هان ؛ والمعنى : إذا كان الموت قد طواك وأنزلك من عليائك فكل مصون فى الحياة مآله إلى الهوان .

(٥) لايألو : لا يقصر (وقد خفف الشاعر الهمزة) ؛ والمعنى : سيحوط الأمير ابن جهور أسرتك من بعدك ، ولن يدخر وسعا فى حفظ حقك ؛ وهو بصير بواجب المروءة والوفاء .

كَفَلَ الْوَزِيرُ «أَبُوالْوَلِيدِ» بِجَبْرِهِمْ ... إِنَّ الْوَزِيرَ ـ لِمِثْلِهَا ـ فَعَّالُ[(١)]

مَلِكٌ سَجِيَّتُهُ الْوَفَاء ، فَمَا لَهُ ... بِالْعَهْدِ ـ فِى ذِى خُلَّةٍ ـ إِخْلَالُ[(٢)]

حَتْمٌ عَلَيْهِ « لَعًا » لِعَثْرَةِ حَالِهِمْ ... قَدْ تَعْثُرُ الْحَالَاتُ ثُمَّ تُقَالُ[(٣)]

* * *

إِيهاً بَنِى ذَكْوَانَ ! ! إِنْ غَلَبَ الْأَسَى ... فَلَكُمْ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ مَآلُ[(٤)]

إِنْ كَانَ غَابَ الْبَدْرُ عَنْ سَاهُورِهِ ... مِنْكُمْ وَفَارَقَ غَابَهُ الرِّئْبَالُ[(٥)]

---

(١) المعنى : تكفّل أبو الوليد بن جهور برعاية أسرتك وجبر صدعها ولم شملها ، وليس هذا بغريب على مروءته ونبله ، فإنه لأمثال هذا الإحسان معتاد.

(٢) الخُلّة : الصداقة والحب ؛ والمعنى : إن ابن جهور ملك مفطور على الوفاء فلا يخلّ برعاية الأصدقاء .

(٣) لعاً لك : أقالك الله من عثرتك ، قال الشاعر :

كم قال قائلهم : « لعـاً ... لك » عنـد عثرته لعاثر —

والمعنى : أوجب الأمير على نفسه أن يصلح شئون أصدقائه ويقيل عثراتهم موقناً بأن الحسنات يذهبن السيئات ، وأن التوبة تجبّ الذنوب ، وأن الأمور قد تلتوى ثم تستقيم .

(٤) إيهاً : حسبك ، أو اسكت وكفّ ، قال حاتم الطائى :

إيهاً فدًى لكمو أمّى وماولدت ، ... حاموا على مجدكم،وا كفوا من اتّكلا

قال ابن الأثير ؛ وقد ترد بمعنى التصديق والرضى بالشيء ، ومنه حديث ابن الزبير ـ لما قيل له : ياابن ذات النطاقين ـ قال : إيهاً والإله !! أى صدقتَ ورضيتُ ؛ وقد تكون آهاً بمعنى أسفاً وحزناً ؛ والمعنى : كفوا عن الأسى يابنى ـــ ذكوان ، وافزعوا إلى الصبر الجميل فإنه غاية العقلاء المتقين .

(٥) الساهور : دارة القمر؛ الرئبال : الأسد أوالذئب ، والمقصود هنا الأول؛=

عليها سلام الله

نظم الشاعر هذه القصيدة معزيا الأمير أبا الوليد بن جهور في أمه .

هُوَ الدَّهْرُ !! فَاصْبِرْ لِلَّذِى أَحْدَثَ الدَّهْرُ
فَمِنْ شِيَمِ الْأَبْرَارِ — فى مِثْلِهَا — الصَّبْرُ[1]

سَتَصْبِرُ صَبْرَ الْيَأْسِ أَوْ صَبْرَ حِسْبَةٍ
فَلَا تَرْضَ بِالصَّبْرِ الَّذِى مَعَهُ الْوِزْرُ[2]

حِذَارَكَ مِنْ أَنْ يُعْقِبَ الرُّزْءُ فِتْنَةً
يَضِيقُ لَهَا — عَنْ مِثْلِ أَخْلَاقِكَ — الْعُذْرُ[3]

= والمعنى : إن كان بدركم قد غاب عن دارته ، وفارق أسدكم غابته فافزعوا إلى الصبر الجميل .

(١) المعنى : صبراً لما أصابكم به الدهر، فإن الصبرَ الجميل من شيمة الأحرار .

(٢) فى ا ، ب « معه وزر » ، الحِسبة : الأجر ؛ قال ابن الزيات فى رثاء زوجه واصفاً حالة طفله بعدها :

ضعيف القوى ، لايطلب الأجر حسبة ولا يأتسى بالناس فى الحدثان

والمعنى : لابد للحزين من الصبر إمّا يأساً وإمّا طلبا للثواب ، فأرجو أن تأبى صبر القنوط الذى تكثر به الذنوب وتحبط به الحسنات ، وقريب من هذا قول المتنبى :

وللواجد المكروب من زفراته سكونُ عزاء أو سكونُ لغوب

(٣) المعنى : أرجو ألا تنساق مع الحزن إلى غايته حتى لاتنجم عن المصاب فتنة يضيق عنها العذر، وبخاصة لمن يتّسم بمثل أخلاقك الكريمة وشمائلك العذاب .

إِذَا آنَفَ الشَّكْلُ اللَّبِيبَ فَشَفَّهُ
رَأَى أَبْرَحَ الشَّكْلَيْنِ أَنْ يَحْبَطَ الأَجْرُ[1]
مُصَابُ الَّذِى يَأْسَى بِمَيْتٍ ثَوَابِهِ هُوَ الْبَرْحُ، لا الْمَيْتُ الَّذِى أَحْرَزَ الْقَبْرُ[2]

* * *

حَيَاةُ الْوَرَى نَهْجٌ إِلَى الْمَوْتِ مَهْيَعٌ لَهُمْ فِيهِ إِيضَاعٌ كَمَا يُوضِعُ السَّفْرُ[3]
فَيَاهَادِيَ الْمِنْهَاجِ جُرْتَ !! فَإِنَّمَا
هُوَ الْفَجْرُ يُهْدِيكَ الصِّرَاطَ أَوِ الْبَجْرُ[4]

---

(١) شفّه الحزنُ : هزله ؛ أبرحُ الألم ؛ أشدُّه ؛ المعنى إذا برّح الحزنُ بالعاقل الحكيم وأنحل بدنه لجأ إلى الصبر طلبا للثواب ، فإن أكبر نكبة أن يجمع الإنسان بين المصاب العظيم والجزع المميت الذى يحبط الحسنات .

(٢) البرح : الشدة والشر ، ولقيتُ منه البرحين أى الدوا هى والشدائد ؛ والمعنى : إن أشد المصائب أن يفقد الإنسانُ إيمانَه بالله وثقته فيه وتسليمه أموره إليه ، فالموت أهون من هذا لأنه مصير كل إنسان .

(٣) النهج : الطريق الواضح ؛ مهيع : بينٌ واضح ؛ إيضاع : إسراع ؛ قومٌ سفرٌ : مسافرون ؛ والمعنى : حياة الورى طريق واضح موصل إلى الموت يسرع فيه الأحياء كأنهم مسرعون فى السفر إلى هدف منشود .

(٤) المنهاج : الطريق ؛ البجر : الشر أو الأمر العظيم أو العجب ، يقال : لقيتُ منه البجارى أو الأباجر أى الدواهى ؛ وفى حديث أبى بكر رضى الله عنه : « ياهاديَ الطريق جُرْتَ ، إنما هو والله الفجر أو البجر » أى إن انتظرت حتى يضىء الفجر أبصرْتَ الطريق ، وإن خبطْتَ فى الظلماء أفضتْ بك إلى المكروه ؛ ويروى البحر ، يريد به غمرات الدنيا تشبيها لها بالبحر لتحيّر أهلها فيها ؛ والمعنى : أيها الهادى إلى الطريق السوىّ : لقد جرْتَ على نفسك وعلى =

لَنَا – فِي سِوَانَا – عِبْرَةٌ، غَيْرَ أَنَّنَا ... نُغَرُّ بِأَطْمَاعِ الأَمَانِي فَنَغْتَرُ[1]

إِذَا المَوْتُ أَضْحَى قَصْرَ كُلِّ مُعَمَّرٍ ... فَإِنَّ سَوَاءً طَالَ أَوْ قَصُرَ العُمْرُ[2]

* * *

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ رِيعَ ذِمَارُهُ ... فَلَمْ يُغْنِ أَنْصَارٌ عَدِيدٌ وَلَا وَفْرُ[3]

بِحَيْثُ اسْتَقَلَّ المُلْكُ ثَانِيَ عِطْفِهِ ... وَجَرَّرَ مِنْ أَذْيَالِهِ العَسْكَرُ المَجْرُ[4]

= من تهذيبهم، فليس أمامك إلا طريقان : إمّا أن تلتمس الضوء لتسير على هداه، وإما أن تتخبط في الظلماء فتتردى في الهاوية وتهوى في قرار سحيق .

(١) المعنى : إنّ في موت غيرنا عبرة لنا أيّ عبرة، ولكنّ الأماني الخداعة تحملنا على مطايا الغرور .

(٢) قصرك أن تفعل كذا وقصارك وقصاراك : جهدُك وغايتك ؛ والمعنى : إذا كان الموت نهاية كل حيّ فإن طول العمر وقصره سيّان .

(٣) الذمار : مايلزمك حفظه وحياطته والدفاع عنه ، أو الحرم ، أو الأهل ، أو المال ؛ والمعنى : لقد أصبح حمى الدين مباحا بعد فقدك ، فلم ينفعه وفره ولا أنصاره العديدون .

(٤) استقلّ بنفسه : كان ضابطا لأمره، واستقل الطائر : ارتفع ، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

ياطيبَ طعم ثناياها وريقتها ... إذا استقلّ عمودُ الصبح فاعتدلا

ثنى عطفه : تاه وتكبّر ، قال تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير ثانىَ عِطْفه ليُضِلّ عن سبيل الله » ؟ العسكر المجر: الجيش العظيم ؛ والمعنى : فقدكَ الدينُ، فلم يغنه عن فقدك الأنصار المديدون الذين ارتفع بهم شأنُ الملكِ فمايل معتخراً تياهاً، وجرّ بهم الجيش العظيم ذيولَ المجد والفخار .

هُوَ الضَّيْمُ!! لَوْ غَيْرُ القَضَاءِ يَرُومُهُ

شَـآهُ المَرَامُ الصَّعْبُ وَالمَسْلَكُ الوَعْرُ(١)

إِذَا عَثَرَتْ جُرْدُ السَّوَابِحِ فى القَنَا ... بِلَيْلِ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُ(٢)

لَقَدْ بَكَّرَ النَّاعِى عَلَيْنَا بِدَعْوَةٍ ... عَوَانٍ، أَمَضَّتْنَا لَهَا لَوْعَةٌ بِكْرُ(٣)

* * *

أَأَنْفَسَ نَفْسٍ ـ فى الوَرَى ـ أَقْصَدَ الرَّدَى ؟

وَأَخْطَرَ عِلْقٍ ـ لِلْهُدَى ـ أَهْلَكَ الدَّهْرُ ؟(٤)

---

(١) شآه: سبقه أو حزنه ؛ والمعنى: لقد نكبنا الموتُ فيك ، ولو رامك غير القضاء المحتوم لرده عن هدفه المسلك الشائك، وثناه عن غايته المطلب العسير.

(٢) الجُرْد: خيل لارجالة فيها ؛ أو الخيل القصيرة شعر الجلد وهو من الأوصاف المحمودة فى الخيل ؛ قال أبو الناصف:

والفرس القصيرُ شعر الجلد ... برقة أجردُ نجل جُرْد

السوابح: الخيل السريعة الجرى كأنها تسبح فى الهواء ؛ العجاج: الدخان أو الغبار ؛ يصدعه: يشقه ؛ والمعنى: لو نالك غيرُ القضاء المحتوم لثارت الحروب الطاحنة التى تتعثر فيها الخيول بالرماح فى مواقع عنيفة يثور فيها الغبار كالليل البهيم الذى لاينشق له صباح.

(٣) العَوان: النَّصَف فى سنها من كل شىء ، والحرب العوان هى التى يستمر فيها القتال مرة بعد أخرى كأنهم جعلوا الأولى بكراً ، والحرب العوان هى أشد الحروب ؛ والمعنى: لقد طالعنا الناعى بالنعى مراراً لبعض الأعزاء، ولكنه فى هذه المرة أثار فى جوانحنا حزنا ممضا لم نشعر له من قبل بنظير، وشبيه هـذا قول أشجع بن عمرو السلمى:

كأن لم يمتْ حى سواكَ، ولمْ تقمْ ... على أحد إلا عليك النوائحُ

(٤) أقصد فلانا: طعنه فلم يخطئه ، أو أصابه فأماته مكانه، وأقصدت الحية=

هَنِيئاً لِبَطْنِ الْأَرْضِ أُنْسٌ مُجَدَّدٌ بِثَاوِيَةٍ حَلَّتْهُ فَاسْتَوْحَشَ الظَّهْرُ (١)
بِطَاهِرَةِ الْأَثْوَابِ ، قَانِتَةِ الضُّحَى مُسَبِّحَةِ الْآنَاءِ ، مِحْرَابُهَا الْخِدْرُ (٢)
فَإِنْ أُنِّثَتْ فَالنَّفْسُ أُنْثَى نَفِيسَةٌ
إِذِ الْجِسْمُ لَا يَسْمُو لِتَذْكِيرِهِ ذِكْرٌ (٣)

= فلانا : لدغته فقتلته ، قال أبو حية النميرى : —

رمين فأقصدن القلوب ، ولم تجد دما مائرا إلا جوى فى الحيازم

العِلق : النفيس ؛ والمعنى : هل طوى الموت أنفس روح بين الأنام ؟
وهل أهلك الدهر أغلى نفس فى الحياة ؟

(١) المعنى : هنيئا للأرض أن هذه السيدة الوقورة حلت يبطنها فآنستْهُ وأوحش ظاهر الأرض بعد رحيلها عنه .

(٢) طاهرة الأثواب : نقية من الدنس ؛ قنتَ لله : ذلَّ له ، أو أطاعه ، أو دعاه ، أو قام فى الصلاة ، أو أمسك عن الكلام ، قال تعالى : « وقوموا لله قانتين » ؛ الآناء : جمع إِنْو أو إِنْي أو أَنْى أو إِنًى ، وهو أى ساعة من ساعات الليل وقيل وهْن منه ؛ والمعنى : لقد أنس بطن الأرض بسيدة صالحة طاهرة نقية تقوم للعبادة فى الضحى وتسبح الله أثناء الليل ، فقد جعلت من خدرها مسجدا ومحرابا .

(٣) فى الذخيرة « لا يسمو بتذكيره » المعنى : إذا كانت الفقيدة أنثى فلن تقلل أنوثتها من خطرها ، فالنفس مؤنثة ، والجسم مذكر ، مع أن قيمة الإنسان بنفسه لا بجسمه ، وشبيه بهذا قول المتنبى :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفُضِّلَت النساءُ على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

حَصَـانٌ ، إِنِ التَّقْوَى اسْتَبَدَّتْ بِسِرِّهَا
فَمِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ يُسْتَوْضَحُ الْجَهْرُ[١]

يُطَأْطَأُ سِتْرُ الصَّـــوْنِ دُونَ حِجَابِهَا
فَيُرْفَعُ - عَنْ مَثْنَى نَوَافِلِهَا - السِّتْرُ[٢]

* * *

لَعَمْرُ الْبُرُودِ الْبِيضِ فِى ذَلِكَ الثَّرَى
لَقَدْ أُدْرِجَتْ - أَثْنَاءَهَا - النِّعَمُ الْخُضْرُ[٣]

عَلَيْهَا سَلَامُ اللهِ تَتْرَى ـ بِيَّةً يُنَسِّمُهَا الْغُفْرَانَ رَيْحَانُهَا النَّضْرُ[٤]

(١) فى الذخيرة « استبدّت بذكرها » ؛ امرأة حصان وحاصن وحصناء : عفيفة أو متزوجة ؛ والمعنى : إن الفقيدة طاهرة عفيفة تسر خشية الله قلبها فتنمّ على تقواها أعمالها الصالحات .

(٢) النوافل : جمع نافلة وهى عطية التطوع ومنه نافلة الصلاة ؛ والمعنى : إنّ لها — دون ستر حجابها — ستاراً من الصون والعفاف يسدل عليها فيرتفع مُظْهِراً عطاياها المديدة .

(٣) النعم الخُضْر : الطيبة المحبوبة ، وفى الحديث : « إن الدنيا حلوة خضِرة مضرة فمن أخذ بحقها بورك له فيها » ؛ والمعنى : وحق الثياب البيضاء المُدرجة فى الثرى لقد ضمّت فى ثناياها نعماً طيبة محبوبة لا حِسَاناً مدفونا فى التراب .

(٤) تترى : أصلها وَتْرَى يقال جاءوا تترى بمعنى متواترين أى متتابعين . وقد عدّى الشاعر هنا الفعل (نَسَّمَ) إلى مفعولين مع أنه فعل لازم .

والمعنى : عليها سلامٌ متتابع من الله تحيّة لها مشفوعة بالغفران ، لما قدمته من صالح الأعمال ، وما عطرت به حياتها من أطيب الآثار .

وعاهَدَ تلكَ الأرضَ عَهــدُ غَمامَةٍ
إذا استَعبَرَتْ في تُربِها ابتَسَمَ الزَّهرُ(١)

* * *

فديناكَ !! إنّ الرُّزءَ كانَ غَمامةً — طلَعْتَ لنا فيها كما يطلُعُ البَدرُ(٢)
أَلَسْتَ الّذي-إنْ ضاقَ ذَرعٌ بحادثٍ- — تبلَّجَ منهُ الوَجهُ وانفسَحَ الصَّدرُ ؟(٣)
تعزَّ بحوّاءَ - التي الخلقُ نَسلُها - — فمَن دونَها، في العصرِ يتبعُهُ العصرُ(٤)
نساءُ النبيِّ المصطفَى أمّهاتُنا — تَوَيْنَ، فمَغْناهُنَّ- مُذ حُقُبٍ- قَفْرُ(٥)
وجازَيتَها الحُسنَى ، فأمٌّ شفيقةٌ — تَحَفَّى بها ابنٌ كلُّ أفعالِهِ بِرُّ(٦)

---

(١) عاهد : عاقد وحالف ؛ العهد : الوفاء والضمان ؛ والمعنى : أسأل الله أن يُنضِّرَ ثراها بمطر دائم كلما سال عليها تبسّم زهرها ضاحكاً .

(٢) المعنى: نحن فداؤك أيها الملك المعظم، إن المصاب الذي أصابنا بفقد والدتك أظلم علينا إظلامَ السحاب ، ولكنّكَ بدَّدتَ ظلمته كما يبدّد القمرُ الظلامَ .

(٣) الذرع : بسط اليد ، وضاق به ذرعا : لم يطقه ولم يقو عليه ، كأنه مدّ يده إليه فلم ينله ؛ تبلّج : أضاء أو ضحك وهش ؛ والمعنى : كلما ألمّتْ بنا الحوادثُ وضقنا بها ذرعا فرّجْتَها عنّا بوجهك المشرق البسّام وصدرك الواسع الحليم .

(٤) المعنى : لك أيها الملك المعظم عزاء في أم البشر حواء ومن تلاها من عظيمات النساء .

(٥) المغنى: الدار التي بها أهلها ؛ الحُقُبُ :الدهر وجمعه أحقاب، والحِقَبُ: السنون جمع حقبة ؛ والمعنى : لقــد ماتت أمهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقفرت منهنّ دارهنّ فهي خواء منذ عصور سحيقة .

(٦) المعنى : لقد كنتَ باراً بأمك تبادلها إحساناً بإحسان ، فهي أم شفيقة رءوم ، يُعنَى بها ابن كريم جميع فعاله تتسم بالبر والوفاء .

تَمَنَّتْ وَفَاةً فِى حَيَاتِكَ ، بَعْدَ مَا
تَوَالَتْ ــ كَنَظْمِ العِقْدِ ــ آمَالُهَا النُّثْرُ[١]

كَأَنَّ الرَّدَى نَذْرٌ عَلَيْهَا مُؤَكَّدٌ   فَإِنْ أُسْعِفَتْ بِالحَظِّ فِيكَ وَفَى النَّذْرُ[٢]

تَوَلَّتْ ! ! فَأَبْقَتْ ــ مِنْ مُجَابِ دُعَائِهَا ــ   نَفَائِسَ ذُخْرٍ مَا يُقَاسُ بِهِ ذُخْرُ[٣]

تَتِمُّ بِهِ النُّعْمَى ، وَتَتَّسِقُ المُنَى ،
وَتُسْتَدْفَعُ البَلْوَى ، وَيُسْتَقْبَلُ الصَّبْرُ[٤]

فَلَا تَهِضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهَا   فَمِنْكَ ــ لِمَنْ هَاضَتْ نَوَائِبُهَا ــ جَبْرُ[٥]

وَلَا زِلْتَ مَوْفُورَ العَدِيدِ بِقُرَّةٍ   لِعَيْنَيْكَ مَشْدُودٍ بِهِمْ ذَلِكَ الأَزْرُ[٦]

* * *

(١) المعنى : تمنت الفقيدة أن تذوق الردى وأنت حى ، فأجاب الله رجاءها كما حقق لها جميع أمانيها ، فوافت متوالية كالعقد النظيم .

(٢) المعنى : كأن الفقيدة قد نذرت نذراً مؤكداً لله أن تقابل المنية فرحة متهللة إذا حقق الله لها جميع آمالها فيك ، فلما تم حظها بك وفت بنذرها واستقبلت الردى فى بهجة وسرور .

(٣) المعنى : لقد طواها الردى ، ولكن دعواتها الصالحة المجابة ظلت باقية بعدها معدودة من أثمن الذخائر الخالدات .

(٤) المعنى : إن دعواتها الصالحة وسيلة إلى أن يتم الله عليك النعم ، وأن يحقق لك الآمال ، ويدفع عنك البلاء ، ويلهمك الصبر فى البأساء والضراء .

(٥) هاض الجناح : كسره ؛ والمعنى : أدعو الله ألا تصدمك الدنيا بعد الفقيدة الكريمة ، فإنك صلاح لكل من تطحنه النوائب أو تصدمه الكوارث أو تتجهم له الحياة .

(٦) قرة العين : سرورها ، وقرت عينه : ضد سخنت ، وأقر الله عينه : أعطاه =

بَنِى « جَهْوَرٍ » أَنْتُمْ سَمَاءُ رِيَاسَةٍ مَنَاقِبُكُمْ - فى أُفْقِهَا - أَنْجُمٌ زُهْرُ(١)
نَرَى الدَّهْرَ : إِنْ يَبْطِشْ فَفِيكُمْ يَمِينُهُ
وَإِنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا فَأَنْتُمْ لَهَا ثَغْرُ(٢)
لِكُمْ كُلُّ رَقْرَاقِ السَّمَاحِ كَأَنَّهُ حُسَامٌ عَلَيْهِ - مِنْ طَلاَقَتِهِ - أُثْرُ(٣)
سَحَائِبُ نُعْمَى أَبْرَقَتْ وَتَدَفَّقَتْ فَصَيِّبُهَا الْجَدْوَى ، وَبَارِقُهَا الْبِشْرُ(٤)
إِذَا مَا ذُكِرْتُمْ ، وَاسْتُشِفَّتْ خِلاَلُكُمْ
تَضَوَّعَتِ الْأَخْبَارُ ، وَاسْتُمْجِدَ الْخُبْرُ(٥)

= حتى تقر فلا تطمح إلى من هو فوقه ، ويقال حتى تبرد ولا تسخن ، فللسرور دمعة باردة ، وللحزن دمعة حارة ؛ الأزر : المونة والنصر ؛ والمعنى : أسأل الله أن يزيد عدد بنيك ويجعلهم قرة لعينيك ، وأن يشد بهم أزرك ويتم لك بهم النصر والتأييد .

(١) آثرنا رواية الذخيرة والخريدة والطرب ، وفى أصول الديوان « لمافيكم فى أفقها أنجم زهر » ؛ المناقب : المفاخر ؛ والمعنى : يابنى جهور : لقد علوتم فى أمجادكم حتى أصبحتم فى رياستكم سماء ، تشرق فيها مفاخركم كالأنجم الزهراء .

(٢) فى تمام التون « وإن تبسم الدنيا » ؛ والمعنى : إن الدهر إذا بطش فأنتم يده الباطشة ، وإن الدنيا إذا ابتسمت فأنتم ثغرها البسام .

(٣) رقراق السحاب : ماتلألأ منه ، وكذلك كل شيء له لألاء ؛ الأثر والإثر : فرند السيف ورونقه ؛ والمعنى : فيكم كل فتى سمح متهلل كريم كأنه سيف صقيل يبهر النظر بما فيه من لمان ولألاء ؛ وفى تمام التون « من طلاقته بشر » .

(٤) الصيب : السحاب الهاطل ؛ الجدوى : العطية ؛ والمعنى : سحائب أفضالكم قدلمع برقها وتدفق مطرها ففاضت بالهبات وتهللت بالبشر والحبور .

(٥) استشف الشيء : نظر ماوراءه ؛ تضوع : فاحت رائحته ؛ استمجد : استكثر ، وفى المثل « فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار » كأنهما أخذا =

طَرِيقَتُكُمْ مُثْلَى ، وَهَدْيُكُمْ رِضًى
وَمَذْهَبُكُمْ قَصْدٌ ، وَنَائِلُكُمْ غَمْرُ[1]

وَكَمْ سَائِلٍ - بِالْغَيْبِ عَنْكُمْ - أَجَبْتُهُ
هُنَاكَ الْأَيَادِي الشَّفْعُ ، وَالسُّودَدُ الْوِتْرُ[2]

عَطَاءٌ وَلاَ مَنٌّ ، وَحُكْمٌ وَلاَ هَوًى وَحِلْمٌ وَلاَ عَجْزٌ ، وَعِزٌّ وَلاَ كِبْرُ[3]

قَدِ اسْتَوْفَتِ النَّعْمَاءُ فِيكُمْ تَمَامَهَا عَلَيْنَا ، فَمِنَّا الْحَمْدُ لِلّهِ وَالشُّكْرُ[4]

= من النار ما هو حسبهما فصلحا للاقتداح بهما ، قال الأعشى :

وزندك خير زناد الملو ك ، صادف منهن مرخ عفارا

الخُبْر : العلم بالشيء ؛ والمعنى : إذا روى أنباءكم المتحدثون تعطرت بها الأفواه ، وإذا رآكم المتطلعون وجدوا مظاهركم مطابقة لأخباركم في السؤدد والكمال .

(١) في نسخة ز « ونائلكم قصد ومذهبكم غمر » ؛ المُثْلَى : الفضلَى ؛ النائل : العطاء ؛ الغمر : الكثير ؛ والمعنى : لقد جمعتم الفضائل كلها ، فطريقتكم أفضل الطرق ، وقيادتكم أحب القيادات ، ومذهبكم معتدل مقبول ، وكرمكم فياض عميم .

(٢) في الجريدة « وكم سائل بالغيب عنهم » ؛ والمعنى : كم سائل متطلع لأخبارهم أجبته : إن مكارمهم متتالية متتابعة مزدوجة ، وإن مجدهم منفرد معدوم النظير .

(٣) المعنى : إن عطاءهم لايكدر صفوه المن ، وحكمهم لايميل به الهوى ، وحلمهم لا يبتعثه العجز ، وعزهم لاتشوبه الكبرياء .

(٤) المعنى : لقد أتمت السعادة بكم نعماءها علينا ، فلله منا أطيب الحمد وأعذب الثناء .

منهل الردى

توفيت أم المتعضد فرثاها الشاعر بهذه القصيدة :

أَلاَ هَلْ دَرَى الدَّاعِي الْمُثَوِّبُ – إِذْ دَعَا
بِنَعْيِكِ – أَنَّ الدِّينَ مِنْ بَعْضِ مَا نَعَى ؟[1]

وَأَنَّ التُّــــقَى قَدْ آذَنَتْنَا بِفُرْقَةٍ وَأَنَّ الْهُدَى قَدْ بَانَ مِنْكِ فَوَدَّعَا ؟[2]

لِرُزْئِكِ تَنْهَلُّ الدُّمُوعُ ، فَفِيلُهُ
– إِذَا حَلَّ – وَدَّ الْقَلْبُ لَوْ كَانَ مَدْمَعَا[3]

لَقَدْ أَجْهَشَ الْإِخْلَاصُ بِالْأَمْسِ بَاكِيًا عَلَيْكِ ، كَمَا حَنَّ الْيَقِينُ فَرَجَّعَا[4]

* * *

(١) ثوّب الداعي: إذا دعا مرة بعد أخرى ؛ المعنى: أيعرف الناعي الذي ردّد علينا أنباء الفجيعة أنه نعى إلينا الدينَ يوم نعاك ؟

(٢) المعنى : وهل يعلم الناعي أن التقوى فارقتْنا بفراقك ، وأن الهدى حينما رحلتِ عنه آذننا بعدك بالرحيل ؟ ولعل الأصوب أن يقول «بان منا فودعا» أى فقدناه يوم فقدناك .

(٣) المعنى : إن رزءك كفيلٌ بإثارة الدموع وانسكاب العبرات ، وإذابة القلوب حتى تتمنى أن تسيل في فيض الدموع .

(٤) أجهش وجهش إلى إنسان : فزع إليه وهو يريد البكاء كالصبيّ يفزع إلى أمّه وقد تهيأ للبكاء ، وفي الحديث « أصابنا عطش فجهشنا إلى رسول الله ﷺ »، رجع واسترجع : تألم لمصاب فقال : «إنا لله وإنا إليه راجعون»؛ والمعنى : لقد تفجرتْ دموع الوفاء عليك ، كما أنّ الإيمانُ من هول المصاب هاتفا : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وَدُنْيَا وَجَدْنَا الْعَيْشَ فِى غَفَلَاتِهَا طَرِيقاً – إِلَى وِرْدِ الْمَنِيَّةِ – مَهْيَعَا[1]

نُعَلَّلُ فِيهَا بِالْمُنَى !! فَتَغُرُّنَا بَوَارِقُ لَيْسَ الْآلُ مِنْهَا بِأَخْدَعَا[2]

* * *

أُصِبْنَا بِمَا لَوْ أَنَّ هَضْبَ مَتَالِعٍ أُصِيبَ بِهِ لَانْهَدَّ أَوْ لَتَضَعْضَعَا[3]

مَنَارٌ – مِنَ الْإِيمَانِ – لَمْ يَعْدُ أَنْ هَوَى !!

وَحَبْلٌ – مِنَ التَّقْوَى – وَهَى فَتَقَطَّعَا !![4]

---

(١) المهيع : الطريق البعيد الواسع ؛ المعنى : إن الدنيا طريقٌ واسع يفضى بنا إلى الهلاك ، ونحن مسوقون إلى الردى فى غفلة بالعيش الخداع عن مصيرنا المحتوم.

(٢) الآل: السَّراب، أو مايشبهه فى أول النهار وآخره كأنه يرفع الشخوص وليس هو السراب؛ والمعنى: إن الحياة تغرنا بالآمال الخداعة كالسراب ، أو هى أمعن منه فى الوهم والضلال .

(٣) الهَضْب: الجبل المنبسط ؛ المتالع : مسايل الماء فوق الجبال إلى الوديان؛ ومتالع : ماء فى شرقىّ الظهران عند الغوارة ؛ وهضبُ متالع : موضع انحدار الماء فى سفح هذا الجبل ، قال كثير عزة :

بكى سائبٌ لما رأى رملَ عالج أتى دونه ، والهضب هضب متالع

المعنى : فُجِعْنا فيك بمصيبة فادحة لو أصابت هَضْب متالع لانهدَّ ركنه وهوت جوانبه.

(٤) المنار: علم الطريق ، أو موضع النور ؛ والمعنى: لقد كنت منارا هاديا مرفوعا لم يلبث أن هوى إلى التراب ، وحبلاً متيناً من التقوى لم يلبث حتى ضعف فتمزّق كل ممزق .

وَشَمْسُ هُدًى أَمْسَى لَهَا التُّرْبُ مَغْرِبًا
وَكَانَ لَهَا الْمِحْرَابُ — فِى الْخِدْرِ — مَطْلَعَا(١)

* * *

لَئِنْ أُثْبِعَتْ مِنَّا غَمَامَةَ رَحْمَةٍ لَقَدْ ظَلَّلَتْ ذَاكَ السَّرِيرَ الْمُرَفَّعَا(٢)
سَرِيرٌ بِأَمْلَاكٍ وَزُهْرِ مَلَائِكٍ
— إِلَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ — رَاحَ مُشَيَّعَا(٣)
لِتَبْكِ الْأَيَامَى وَالْيَتَامَى قَعِيدَةً هِىَ الْمُزْنُ أَحْيَاصَوْبُهُ ثُمَّ أَقْشَعَا(٤)
أَضَلَّهُمُ فِقْدَانُهَا ، فَكَأَنَّمَا
أَضَلَّتْ سَوَامُ الْوَحْشِ فِى الْجَدْبِ مَرْتَعَا(٥)

(١) المعنى : لقد أشرقَتْ فى أفقنا شمساً للهداية ، ثم لم تلبث أن غربت هاوية إلى التراب ، وطالما طلعت فى خدرها قانتة فى المحراب .

(٢) السرير : النعش قبل أن يحمل عليه الميت ؛ المعنى : لقد ظللتها غمائم الرحمات حينا أتبعناها بصالح الدعوات .

(٣) المعنى : لقد شيعتها الملائكة الأبرار ، وحف بسريرها الملوك الوضاءون كالنجوم .

(٤) فى نسخ ب ، ت ، ز «قميدة» ، قعيدة الرجل وقعاده : زوجته ؛ الأيامى : جمع أيِّم وهى التى لا زوج لها سواء كانت بكرا أو ثيبا ؛ المزن : السحاب الممطر ؛ صوب المطر : نزوله ؛ والمعنى : لتبك الأرامل والأيتام عليك ، فقد كنت سحابا يهطل عليهم بالإحسان ، ثم لم يلبث أن تركهم للذل والهوان .

(٥) سوام الوحش : الوحوش الراعية فى الخلاء ؛ والمعنى : لقد فقد بعدها اليتامى والأيامى آمالهم ، وضاقت بهم سُبُل الحياة كما يفقد الحيوان السائم فى الفلوات مرتعه الخصيب .

مُسَبِّحَةُ الْآنَاءِ ، قَانِتَةُ الضُّحَى   ثَوَتْ فَتْوَى مَثْنَى التَّأَوُّهِ بِقْمَا[1]

تَبِيتُ مَعَ الْإِخْبَاتِ مُضْمِرَةَ الْحَشَا   تَقِيَّةَ مَنْ يَخْشَى إِلَى اللهِ مَرْجِعَا[2]

إِذَا مَا هِيَ اسْتَوْفَتْ مِنَ الْبِرِّ غَايَةً

تَأَتَّتْ لِأُخْرَى ، لاَ تَرَى تِلْكَ مَقْنَعَا[3]

كَأَنَّ قَضَاءَ الْوَاجِبَاتِ مُحَرَّجٌ   تَقَبُّلُهُ إِلاَّ بِأَنْ تَتَطَوَّعَا[4]

* * *

أَصَرْفَ الرَّدَى ! لَوْ أَنَّ لِلسَّيْفِ مَضْرِبًا

لَمَا رُعْتَنَا ، أَوْ أَنَّ فِي الْقَوْسِ مِنْزَعَا[5]

---

(١) الآناء : جمع إنو أو إنى أو أَنى أو إنَى وهو أىّ ساعة من ساعات الليل ، وقيل وهن منه ؛ قنت لله : ذلّ له أو أطاعه أو دعاه أو قام فى الصلاة أو أمسك عن الـكلام ؛ والمعنى : كانت الفقيدة تقوم الليل مسبحة حامدة وتؤدى صلاة الضحى خاشعة خاضعة ، ولما طواها الموت أقفر بعـدها محراب التأوه والخضوع لله .

(٢) فى نسخ ب ، ت ، ز «تبيت مع الأحباب» ، الإخبات : الخشوع لله ؛ التقاة والتقية : التقوى ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون » ؛ والمعنى : تبيت فى محرابها خاشعة لله واجفة القلب مضرمة الأحشاء من خشيته مشفقة من لقائه .

(٣) تأتّى : تهيّأ ؛ المعنى : إذا بلغت أقصى غاية من أحـد وجوه البر فإنها لاتقنع بما بلغته بل تتهيّأ لغيره من المبرات .

(٤) محرّج : ممنوع أو محرم ؛ والمعنى : كأنها ترى قضاء الفرائض غير مقبولة عند الله مالم تشفعها بالسنن والنوافل .

(٥) المنزع : السهم الذى يُرمَى به أبعد ما يُقدر عليه ؛ والمعنى : أيها =

فَلَوْ كُنْتَ إِذْ سَاَرْتَ رَامَ مُجَاهِرٌ ذِمَارَ الْهُدَى كَانَ الْمَحُوطَ الْمُمَنَّعَا[1]

إِذَا لَتَنَاهُ الْجَيْشُ مِنْ كُلِّ أَلْيَسٍ يُشَايِعُ قَلْبًا فِى الْحِفَاظِ مُشَيَّعَا[2]

« وَمُعْتَضِدٌ بِاللهِ » يَحْمِى ذِمَارَهُ فَلَا سِرْبَ يُبْلَى - فِى حِمَاهُ - مُرَوَّعَا[3]

وَلَـكِنْ عَرَرْتَ الْمُلْكَ - مِنْ حَيْثُ لَا يُرَى -

فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِلْحَادِثِ الْحَتْمِ مَدْفَعَا[4]

يَغِيظُ الْعِتَاقَ الْجُرْدَ أَلَّا تَرَى لَهَا مَجَالًا ، فَتَمْتُو فِى الْمَرَابِطِ خُشَّعَا[5]

= الموت لو أنّ فى سيوفنا موضعاً للضراب ، ولو أن فى أقواسنا سهاماً للرمى ما استطعت أن تفجعنا بهذا المصاب الأليم .

(١) الذمار : مايلزمك حفظه وحمايته ؛ والمعنى : لو جاهرتنا أيها الموت بنيتك فى القضاء على الفقيدة التى كانت مناراً للهدى لحفظناها من سولتك ولكنك انسللت إليها فى الخفاء .

(٢) الألْيَس : الشجاع أو الأسد أو حسن الخلق ؛ يشايع : يتابع ويلاحق ؛ المُشَيَّع : الشجاع ؛ والمعنى : لو رامك الموتُ مجاهراً لصدّه الجيش المكوّن من كل أسد كاسر يتابع قلبه الشجاع فى معارك النضال .

(٣) السِّرب : النفس أو القطيع من الظباء أو الخيل أو النساء ؛ المعنى : ولو رامك الموت مجاهرا لردّه المعتضد بالله ، فإنه ملك شجاع يذود عن حرمه فلا يرتاع فى حماه إنسان أو حيوان .

(٤) عرّ فلانا : ساءه ، وعرّ القومَ بمكروه : أصابهم به ، قال العجاج :

ماآبَ سرّك إلا سرَّنى نصحا ؛ ولا عرَّك إلا عرّنى

والمعنى : ولكنك دهمتَ المُلكَ من حيث لايتوقع فلم يملك دفعاً للقضاء المحتوم .

(٥) العتاق : جمع عتيق ، وهو الكريم من كل شىء ، وفرس عتيق : =

وَتَأْنَفُ بِيضُ الْهِنْدِ أَنْ لَيْسَ تُنْتَضَى ،
وَسُمْــرُ الْقَنَا أَلَّا تُهَزَّ وَتُشْرَعَا[١]

° ° °

أَنْ سَاءَكَ الدَّهْرُ الْمُسِيءُ فَلَمْ يَكُنْ بِأَوَّلِ عَهْدٍ وَاجِبِ الْحِفْظِ ضَيَّعَا[٢]

شَهِدْنَا : لَقَدْ طَرَّزْتَ بُرْدَ جَمَالِهِ وَقَلَّدْتَهُ عِقْدَ الْبَهَاءِ مُرَصَّعَا[٣]

وَمَا فَخْرُهُ إِلَّا بِأَنْ كَانَ مُضْنِيًا لِأَمْرِكَ ، إِنْ نَادَيْتَ لَبَّى فَأَسْرَعَا[٤]

أَتَى الْعَثْرَةَ الْعُظْمَى ، فَهَلْ أَنْتَ قَائِلٌ لَهُ حِينَ أَشْفَى مِنْ كَآبَتِهِ : «لَعًا» ؟[٥]

= جواد رائع ؛ الجُرْد ؛ جمع أجرد وهو كل فرس قصير الشعر رقيقه ؛ تمنو : تذل وتخضع ؛ والمعنى : يعز على الخيول المطهَّمة ألا تجد لها مجالا للدفاع عنك وإنقاذك من براثن المنية فتخضع للقدر المحتوم ذليلة خاشعة فى الرابط .

(١) انتضى السيف ونضاه : سلّه ؛ أشرع الرمحَ وشرعه : أماله وسدَّده للطعان ؛ والمعنى : يعزّ على السيوف ألا تُسَل وعلى الرماح ألاّ تشرع للدفاع عنك وإنقاذك من سطوة المنون .

(٢) المعنى : إذا كان الدهر قد أساء إليك فإن من شيمته الإساءة ؛ وليس هذا أول عهد ضيَّعه الدهر ، وكان واجبا عليه أن يرعى العهد ويحفظ الذمام .

(٣) المعنى : أشهد أنك كنتَ زينة وزخرفا فى غلائل الدهر وعقدا فى عنقه مرصعاً بالجمال .

(٤) فى ب ، ت ، ز «لبّى وأسرعا» ؛ كان أكبر فخر الدهر أنه تابعٌ لك مصيخ لأمرك مُلَبٍّ لندائك .

(٥) أشفى على الموت : أشرف عليه ، لعاً : دعاء للعاثر أن ينهض من كبوته ؛ والمعنى : لقد كبا الدهر كبوة عظمى بقضائه على العقبقدة الكريمة ، وأمضه الندم حتى كاد يشفى به على الهلاك ، فهل أنت غافرٌ له زلته ، مقيل له عثرته ؟ .

وَهَا هُوَ مُنْقَادٌ لِحُكْمِكَ ، فَاحْتَكِمْ ... لِتَبْلُغَ مَا تَهْوَى ، وَمُرْهُ لِيَصْدَعَا[١]

لَعَمْرُ الَّتِي وَدَّعْتَ أَمْسِ - مُفَارِقًا - ... لَقَدْ وَرَدَتْ حَوْضَ السَّعَادَةِ مَشْرَعَا[٢]

تَمَنَّتْ وَفَاةً فِي حَيَاتِكَ ، بَعْدَ مَا ... حَشَدْتَ لَهَا الْآمَالَ : مَرْأًى ، وَمَسْمَعَا[٣]

فَوَفَّيْتَهَا مَا لَمْ تَدَعْ لِغَيْرِهَا ... إِلَى غَايَةٍ مِنْ بَعْدِهِ مُتَطَلَّعَا[٤]

خَفَضْتَ جَنَاحَ الذُّلِّ فِي الْعِزِّ رَحْمَةً ... لَهَا ، وَعَزِيزٌ أَنْ تَذِلَّ وَتَخْضَعَا[٥]

---

(١) صدع بالأمر : تكلّم به جهارا ، أو أصاب به موضعه ، قال تعالى : « فاصدعْ بما تؤمر » أى شق جماعتهم بالتوحيد أو اجهر بالقرآن أو أظهر الشريعة أو احكم بالحق وافصل فى الأمر ؛ والمعنى : ها هو ذا الدهر يخضع لحكمك فاحكم بما يرضيك ، ومره لينفذ ماتريد .

(٢) الشرع : مكان ورود الماء ؛ والمعنى : وحق الفقيدة الكريمة التى ودعتَها بالأمس لقد حلّتْ بدار السعادة والنعيم وسلكت إليها أوسع طريق .

(٣) حشدت : جمعت ؛ المعنى : لقد حقّقْتَ للفقيدة جميع آمالها ولم يبق لها أملٌ إلاّ أن تموت فى حياتك .

(٤) المعنى : إنّك حشدت لها كل ماتطلّعتْ إليه حتى لم يبق لها من الآمال ماتتمناه غير بقائك .

(٥) المعنى : إنك — مع عزتك وجلالك — خفَضْتَ لها جناحَ الذّل وخضعت لها خضوع الابن البار الشفيق ، مع أنها يعز عليها خضوعك وذُلّك وإن كانا موجهين إليها رحمة وتكريما ؛ والشاعر يشير هنا إلى الآية الكريمة « واخفض لهما جناح الذُّل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

تَرُوحُ أميراً فى التِّلَادِ مُحكَّماً وَتغدُو شَفِيعاً فِى الذُّنُوبِ مُشَفَّعا[١]

عَزَاء ـ فَدَتْكَ النَّفْسُ ـ عَزْمَ مُسَلِّمٍ لِمَوْقِعِ أمْرٍ لَمْ يَزَلْ مُتَوَقَّعا[٢]

مَتَى ظَنَّتِ الأَيَّامُ أَنَّكَ جَازِعٌ ؟ أو اسْتَشْعَرَتْ فى فَلِّ صَبْرِكَ مَطمَعا؟[٣]

فَمَا ارْبَدَّ وَجْهُ الخَطْبِ إلاَّ لَقيتَهُ بِصَفْحَةِ طَلْقِ الوَجْهِ أبلَجَ أرْوَعا[٤]

وَمَا كُنتَ أهْلاً أنْ يُصِيبَكَ حَادِثٌ فَتُصْبِحَ عَنهُ مُقصَدَ القَلْبِ مُوجَعا[٥]

فَلَوْلاكَ لَمْ يَسْمَحْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ وَلاَ اهْتَزَّ أعطَافاً، وَلاَ لاَنَ أخْدَعا[٦]

---

(١) التلاد : المال القديم الموروث من حيوان أو غيره ، وفى حديث ابن مسعود «آلُ حم من تِلادى» أى السور القرآنية المساة بها هى من قديم ما أخذته من القرآن وتعلمته بمكة ؛ والمعنى : تتحكم فى أموالك الموروثة فتمنحها للعافين وتزيد تكرما فتشفع شفاعة مقبولة للمذنبين ، أو أنت تمنح العافين وهى تشفع للمذنبين.

(٢) المعنى : أعزيك أيها الأمير فيها ، وأفتديك من كل سوء ، وأرجو أن تلوذ بالصبر وتسلم لقضاء الله المحتوم ، فإن المنية قضاء لازم يتوقعه لنفسه وآله كل إنسان .

(٣) الفل : الثلم أى الكسر ، أو الهزيمة ؛ المعنى : لن تتوهم الأيام أن تراك جازعا ، ولن تطمع فى أن تحطم صبرك الجميل .

(٤) اربدَّ : اغبرَّ ومال للسواد ؛ الأبلج : المشرق المضىء ؛ الأروع : الرائع الحسن ؛ المعنى : كلما عبس وجه الخطوب قابلته بوجه بسام .

(٥) مقصد القلب : مصابه ، ومنه أقصد فلانا إذا طعنه فلم يخطئه ؛ المعنى : ما كنت مستحقاً لأن يرميك الدهر بنكباته فيصيب قلبك الرحب الكريم .

(٦) الأعطاف : جمع عطف وهو الجانب ؛ الأخدع : عرق فى جانب العنق ، ورجل شديد الأخدع : ممتنع أبى ، ولين الأخدع : مستباح ذليل ؛ المعنى : كيف تصيبك الأحداث ، وأنت الذى أنت لنا قياد الدهر وهززت عطفيه للسماح وكبحت منه الجماح ؟

فَأَنْتَ الَّذِي لَمْ يَنْتَقِمْ غِبَّ قُدْرَةٍ ... وَلَمْ يُوتِرِ الْمَعْرُوفَ إِلَّا لِيَشْفَعَا[١]

مَتَى أَسْدِ نُعْمَى - قِيلَ إِنْعَامُ مِثْلِهَا - ... يَقُلْ جَلَلٌ، حَتَّى إِذَا قِيلَ أَبْدَعَا[٢]

وَإِنْ يَسَلِ الْعَافُونَ جَدْوَاكَ يُعْطِهِمْ ... جَوَادٌ، إِذَا لَمْ يَسْأَلُوهُ تَبَرَّعَا[٣]

وَيُغْرَى بِتَوْكِيدِ الْإِسَاءَةِ مُذْنِبٌ ... فَيَلْقَاكَ بِالْإِحْسَانِ أَغْرَى وَأَوْلَعَا[٤]

---

(١) غب كل شيء : عاقبته ؛ يوتر : يُفرِد ؛ يشفع : يزاوج ؛ المعنى : إنك لاتنتقم عند القدرة، ولا تكتفى بالإحسان مرة بل تتبع الإحسان إحسانا .

(٢) فى الأصول « قيل أنعم مثلـها » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ الجَلَل : الشيء المَعظيم أو الصغير الهين (من الأضداد) ، وعلى المعنى الأول قول وعلة بن الحارث :

فلئن عفوتُ لأعفونْ جللاً ... ولئن رميت يصيبنى سهمى

وعلى المعنى الثانى قول امرىء القيس :

بقتل بنى أسد ربهم ... ألا كلُّ شىء – سواه – جلل

والمعنى : إذا أسدى الأميرُ معروفا عظيما يقـل نظيرُه أشاد به الشعراء ووصفوا إحسانه بأنه بلغ الغاية ، حتى إذا فرغوا من تدبيج وصفهم فجأهم بإحسان آخر فوق الإحسان الأول وأبدع منه أثراً .

(٣) فى نسخة ت « وإن يسأل ... تعطهم جوادا » ؛ العافون : جمع عافٍ وهو طالب الإحسان ؛ الجدوى : العطية ؛ المعنى : إذا سألك المحتاجون بادرت بالعطاء ، وإذا لم يسألوك تبرعت قبل السؤال .

(٤) أغرى : أشدُّ ولعا مِنْ غَرِىَ بالشيء : أولع به ؛ والمعنى : لقد تيّمك الإحسانُ فإذا كرّر المذنب إساءته مولعا بتوكيدها رآك أشدَّ منه شغفا بالصفح والغفران ؛ وقد نظر الشاعر فى هذا إلى قول المأمون : « لو يعلم الناس مقدار حبى للعفو لتقربوا إلىّ بفعل الذنوب » .

خَـــلَائِقُ ـ مُهَاةُ الفِرِنْدِ ، كَأَنَّهَا

حَدَائِقُ رَوْضِ الحَزْنِ جِيـدَ فَأَيْنَعَا(١)

تُنَافِحُهَا مِنْهَا أَحَادِيثُ سُودَدٍ تَخَالُ فَتِيتَ المِسْكِ عَنْهَا تَضَوَّعَا(٢)

تَغَلْغَلُ فِي الآفَاقِ أَسْرَى مِنَ الصَّبَا وَأَشْهَرَ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ وَأَسْرَعَا(٣)

فَلَوْ صَرَفَتْ ـ صَرْفَ المَنُونِ ـ جَلَالَةٌ لَـكُنْتَ بِمَحْيَا مَنْ تَوَدُّ مُمَتَّعَا(٤)

---

(١) أمهى الصانعُ الشفرة : رقّقها ، وأمهى الحديدة : أرقها وسقاها الماء ؛ الفرند : رونق السيف ووشيه ؛ الحَزْنُ : ماغلظ من الأرض ، ورياض الحزن أحسن من رياض الخفوض قال الأعشى :

مارَوضةٌ من رياض الحزن معشبةٌ خضراء جاد عليها مسبلٌ هطلُ

يوما بأطيبَ منها نشر رائحة ولا بأحسنَ منها إذدنا الأُصُلُ

والمعنى : إن شمائلك عذبة رقيقة كأنها صفحة السيف الصقولة أو هى شبيهةٌ بالحدائق الغناء جادها الغيث فأينعتْ وازدهرت بأطيب الثمار .

(٢) فى ب ، ت ، ز «... منها تضوّعا» تضوّع : فاحت رائحته ؛ المعنى : إن شمائلك الطيبة تبادل أحاديث مجـدك أطيب النفحات ، حتى تحسب فتيت المسك ينفح منها بأطيب العبير .

(٣) تغلغل فى الشىء : دخل فيه ؛ المعنى : أحاديث مجـدك وطيب شمائلك ينتقل عبيرها من بلد إلى بلد أشد ذيوعا من ريح الصبا وأشهر من الشمس وأسرع .

(٤) صرفُ الدهر : حادثه ؛ المنون : الموت ؛ المعنى : لو كان الجلال يدفع قضاء الموت ورده لصده جلالُك فتمتّعْتَ بحياة والدتك العظيمة .

فَلازِلْتَ مَمْنُوعَ الْحِمَى مُسْعَفَ الْمُنَى !! إِذَا كَانَ شَانِيكَ الْمُصَابَ الْمُفَجَّعَا[1]
وَدُمْتَ مُلَقًّى أَنْجُمَ السَّعْدِ ، بَاقِيًا لِدِينٍ وَدُنْيَا ، أَنْتَ فَخْرُهُمَا مَعَا[2] !!

شكر وعزاء

توفيت بنت المتضد قبل وفاته بثلاثة أيام فحزن عليها حزناً شديداً عزّاه الشاعر عنه بهذه القصيدة :

سَرَّكَ الدَّهْرُ وَسَاءَ فَاقْنِ شُكْراً وَعَزَاءْ[3]
كَمْ أَفَادَ الصَّبْرُ أَجْراً وَاقْتَضَى الشُّكْرُ نَمَاءْ[4]
أَنْتَ إِنْ تَأْسَ عَلَى الْمَفْقُودِ إِلْفاً وَاجْتِبَاءْ[5]
فَاسْلُ عَنْهُ غَيْرَةً وَاحْتَمِلِ الرُّزْءَ إِبَاءْ[6]

(١) الشانىء : المبغض ؛ المعنى : أسأل الله أن يظلّ حماك منيعا وآمالك دانية ، وأن تحُل المصائب بحسادك ومبغضيك .

(٢) المعنى : أدعو الله أن يجمل نجومك طالعه دائما بالسعد ، وأن يبقيك ملاذا للدين والدنيا ، فأنت زينة للدنيا وعصمة للدين .

(٣) المعنى : لقد سرك الدهر بنعيمه ثم أساء إليك بالقضاء على كريمتك فاشكر له إحسانه وتعز عن إساءته .

(٤) المعنى: طالما أعقب الصبر مثوبة وأجراً ، وطالما اقتضى الشكرُ نماء النعمة ، قال تعالى «ولئن شكرتم لأزيدنّكم»

(٥) اجتباءً : اختيارا واصطفاء .

(٦) معنى البيتين : إذا كنتَ متألما لفقد كريمتك لطول ألفتك إياها =

أَيُّهَا « الْمُعْتَضِدُ » الْمَنْـــصُورُ مُلِّيتَ الْبَقَاءَ !!(١)

وَتَزَيَّدْتَ مَـــعَ الْأَيَّامِ عِزًّا وَعَــلَاءَ !!(٢)

إِنَّمَا يُكْسِبُنَا الْحُزْ نُ عَنَاءً لَا غَنَاءَ(٣)

أَنْتَ طَبٌّ أَنَّ دَاءَ الْـــمَوْتِ قَدْ أَعْيَا الدَّوَاءَ(٤)

فَتَأَسَّ إِنَّ ذَاكَ الْـــخَطْبَ غَالَ الْأَنْبِيَاءَ(٥)

وَسَــيَفْنَى الْمَلَأُ الْأَعْــلَى إِذَا مَا اللَّهُ شَاءَ(٦)

* * *

واصطفائك لها على غيرها فينبغى أن تسلو عنها أنفة وغيرة وإباء ، والشاعر يعبّر هنا عن النظرة العربية القديمة إلى النساء .

(١) مُلّيت البقاء : متّعك الله بطول الحياة .

(٢) التزيّد : المغالاة أو الكذب ، وفلان يتزيّد فى حديثه إذا تكلّف مجاوزة ماينبغى ، قال الشاعر :

إذا أنتَ فاكهت الرجال فلا تلَم وقل مثل ما قالوا ولا تتزيّد

ولم يلَم : استخفّ ؛ والشاعر استعمل الفعل (تزيّد) هنا بمعنى زاد .

(٣) المعنى : إن نتيجة الحزن المشقة والعناء لاالنفعة والغناء .

(٤) الطّبّ : الماهر الحاذق بعمله ؛ والمعنى : إنك عليم بأنّ المنيـة ليس لها دواء .

(٥) تأسّى : تعزّى ؛ غال عدوّه واغتاله : أصابه من حيث لم يتوقع؛ والمعنى: التمس عزاء فيما أصابك بأن المنيّة أصابت قبل كريمتك الأنبياء .

(٦) الملأ الأعلى : الملائكة المقربون ؛ وقيل الملائكة وأرواح الأنبياء والصديقين .

حَبَّذَا هَدْىُ عَرُوسٍ دَفَنُها كانَ الهِدَاء[1]

عُمِّرتْ حِيناً وَماءُ المُزْنِ شَكْلَيْنِ سَوَاء[2]

ثُمَّ وَلَّتْ فَوَجَدْنا أَرَجَ المِسْكِ ثَنَاء[3]

جَمَعَتْ تَقْوَى وَإِخْبَا تاً وَفَضْلاً وَزَكَاء[4]

سَتُوفَّى مِنْ جِمَامِ الكَوْثَرِ العَذْبِ الرِّوَاء[5]

حَيْثُ تَلْقَى الأَتْقِيَاءَ الـ سُّعَدَاءَ الشُّهَدَاء

* * *

(١) الهَدْى : السيرة ؛ الهداء : الزفاف ، قال زهير :

فإن تكن النساءُ مُخبّآتٍ فحقّ لكل محصنة هِداء

والمعنى : حبذا سيرة العروس إذا زُفّت إلى القبر ، فالقبر خير صهرٍ كما يقول عبد الله بن طاهر :

لكل أبي بنتٍ يراعي شئونَها ثلاثةُ أصهارٍ إذا حُمِد الصهر

فبعلٌ يراعيها ، وخدر يكنّها وقبر يواريها وأفضلها القبر

(٢) المعنى : عاشت الفقيدة طاهرة نقية مثل ماء المطر فى النقاء والصفاء .

(٣) الأرج : توهج ريح الطيب ؛ المعنى : لما توفيت الأميرة تركت فينا ذكرى طيبة عاطرة مثل ريح المسك تطلق الألسنة عليها بأعذب الثناء .

(٤) الإخبات : الخشوع ؛ الزكاء : الطهارة أو الصلاح .

(٥) فى أ «الكوثر العذب رواء» الجمام : الماء الغزير ؛ الكوثر : نهر فى الجنة ؛ الرِّواء والروىّ : الماء الغزير العذب أو بئر زمزم ؛ والمعنى : ستنهل فى الجنة من نهر الكوثر حتى ترتوى .

هَانَ مَا لاَقَتْ عَلَيْهَا أَنْ غَدَتْ مِنْكَ فِدَاء(١)

غُنْمُ أَحْبَابِكَ أَنْ تَبْـــقَى، وَإِنْ عُمُّوا فَنَاء(٢)

فَالْبَسِ الصُّــنْعَ مُلاَءً وَاسْحَبِ السَّعْدَ رِدَاء(٣)

وَرِثِ الْأَعْـــدَاء ـ أَعْمَا رَهُمُ ـ وَالْأَوْلِيَاء(٤)

تهنئة ورثاء

مات المعتضد فرثاه الشاعر بهذه القصيدة وهنأ ابنه المعتمد بولاية الحكم؛ ونلاحظ أن الشاعر كرر فى هذه القصيدة عشرين بيتا من قصيدته فى رثائه لأم أبى الوليد بن جهور مع تغييرات طفيفة، وهى ظاهرة غريبة عند شاعر فحل كابن زيدون (٥)

هُوَ الدَّهْرُ !! فَاصْبِرْ لِلَّذِى أَحْدَثَ الدَّهْرُ

فَمِنْ شِيَمِ الْأَبْرَارِ ـ فِى مِثْلِهَا ـ الصَّبْرُ

---

(١) المعنى : لقد هوّن عليها الموتَ أنها أصبحتْ لك منه الفداء .

(٢) المعنى : أكبر غنيمة يتمناها أصدقاؤك أن تتمتع بالحياة وإن طوام الفناء .

(٣) الصنع : الجميل ، الملاء واللاءة : الربطة وهى ثوب شامل من قطعة واحدة؛ والمعنى : ارتد غلائل الإحسان واسحب ذيول السعد فى الحياة مثلما تجر ذيول الرداء .

(٤) المعنى تمتع بالبقاء حتى ترث أعمار الناس جميعا سواء منهم الأعـــداء أو الأنصار .

(٥) علقناهذه الظاهرة الغريبة فى كتابنا «ابن زيدون :عصره وحياته وأدبه» ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

سَتَصْبِرُ صَبْرَ الْيَأْسِ، أَوْ صَبْرَ حِسْبَةٍ ... فَلَا تُؤْثِرِ الْوَجْهَ الَّذِى مَعَهُ الْوِزْرُ

حِذَارَكَ مِنْ أَنْ يُعْقِبَ الرُّزْءُ فِتْنَةً ... يَضِيقُ لَهَا ـ عَنْ مِثْلِ إِيمَانِكَ ـ الْعُذْرُ

إِذَا آنَفَ الثُّكْلُ الْلَّبِيبَ فَشَفَّهُ
رَأَى أَفْدَحَ الثُّكْلَيْنِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ

مُصَابُ الَّذِى يَأْسَى بِمَيْتٍ ثَوَابُهِ ... هُوَ الْبَرْحُ، لَا الْمَيْتُ الَّذِى أَحْرَزَ الْقَبْرُ

* * *

حَيَاةُ الْوَرَى نَهْجٌ إِلَى الْمَوْتِ مَهْيَعٌ ... لَهُمْ فِيهِ إِيضَاعٌ كَمَا يُوضِعُ السَّفْرُ

فَيَا هَادِىَ الْمِنْهَاجِ جُــــرْتَ !! فَإِنَّمَا
هُوَ الْفَجْرُ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ أَوِ الْبَجْرُ!!

إِذَا الْمَوْتُ أَضْحَى قَصْرَ كُلِّ مُعَمَّرٍ ... فَإِنَّ سَوَاءً طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمْرُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ ضِيمَ ذِمَارُهُ ... فَلَمْ يُغْنِ أَنْصَارٌ عَدِيدُهُمُ دَثْرُ

بِحَيْثُ اسْتَقَلَّ الْمُلْكُ ثَانِىَ عِطْفِهِ ... وَجَرَّرَ مِنْ أَذْيَالِهِ الْعَسْكَرُ الْمَجْرُ

هُوَ الضَّيْمُ لَوْ غَيْرُ الْقَضَاءِ يَرُومُهُ ... ثَنَاهُ الْمَرَامُ الصَّعْبُ وَالْمَسْلَكُ الْوَعْرُ

إِذَا عَثَرَتْ جُرْدُ الْمَنَاجِيجِ فِى الْقَنَا ... بِلَيْلٍ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُ

* * *

أَأَنْفَسَ نَفْسٍ ـ فِى الْوَرَى ـ أَقْصَدَ الرَّدَى ؟
وَأَخْطَرَ عِلْقٍ ـ لِلْهُدَى ـ أَفْقَدَ الدَّهْرُ؟[1]

---

(١) تقدم شرح الأبيات السابقة جميعها فى رثاء الشاعر لأم أبى الوليد بن جهور ص ٥٣٩ـ٥٤٢ لأنها مشتركة بين الرثاءين. إلا بعض تغييرات طفيفة نذكر هنا معانى مفرداتها ـ: ضيم ذماره : أبيح حماه ؛ دثر : كثير ؛ المناجيج : جياد الخيل

أَعَبَّادُ يَا أَوْفَى المُلُوكِ ، لَقَدْ عَدَا عَلَيْكَ زَمَانٌ مِنْ سَجِيَّتِهِ الْغَدْرُ[١]

فَهَـــلاَّ عَدَاهُ أَنَّ عَلْيَاكَ حَلْيُهُ

وَذِكْرَكَ — فِي أَرْدَانِ أَيَّامِهِ — عِطْرُ[٢]

• • •

غُشِيتَ !! فَلَمْ تَغْشَ الطِّرَادَ سَوَابِحٌ

وَلاَ جُرِّدَتْ بِيضٌ ، وَلاَ أُشْرِعَتْ سُمْرُ[٣]

وَلاَ ثَنَتِ المَحْذُورَ عَنْـكَ جَلاَلَةٌ وَلاَ عَدَدٌ ، دَثْرٌ، وَلا نَائِلٌ غَمْرُ[٤]

• • •

لَئِنْ كَانَ بَطْنُ الأَرْضِ هُيِّئَ أُنْسُهُ بِأَنَّكَ ثَاوِيهِ لَقَدْ أَوْحَشَ الظَّهْرُ[٥]

(١) فى نفح الطيب « لقد سطا ... » ؛ المعنى : أيها الأمير — الذى فاق الملوك بوفائه — لقد أصابك الدهر !! ولا غرو ، فإن من سجيته الغدر بالعظماء .

(٢) عداه عن الأمر : صرفه عنه ؛ أردان القميص : أصول أكمامه ؛ المعنى : هلا صرّف الدهرَ عن إساءتك أنّ معاليك زينته ، وأن ذكرك الطيّب يعطر حواشيه .

(٣) غَشِيَهُ الخطبُ ؛ جلّله أو دهمه ، الطراد : القتال ؛ السوابح : الخيول المسرعة كأنها تسبح فى الهواء لسُرعتها ؛ البيض : السيوف ؛ السمر : الرماح ؛ المعنى : لقد دهمتك المنية فلم تستطع دفعها جيوشك بخيلها وسيوفها ورماحها فلا حيلة فى ردّ القضاء المحتوم .

(٤) آثرنا رواية الذخيرة ؛ وفى الأصول «ولا غرو ثبت» ؛ الدثر : الكثير ؛ النائل : العطاء ؛ الغمر : الغزير ؛ المعنى : لم يدفع عنك القدرَ جلالُك المهيب ولا جيشك الكبير ولا عطاؤك الغزير .

(٥) المعنى : إذا كان بطن الأرض قد سعِدَ بحلولك فيه فقد أوحش ظاهرها برحيلك عنه .

لعَمْرُ البُرُودِ البِيضِ فى ذلِكَ الثَّرَى
لَقَدْ أُدْرِجَتْ أَثْنَاءَهَا النِّعَمُ الخُضْرُ (١)

عَلَيْكَ – مِنَ اللهِ – السَّلَامُ تَحِيَّةً … يُمَسِّكُ الدُّرَانَ رَيْحَانُهَا النَّضْرُ (٢)

وَعَاهَدَ ذَاكَ اللَّحْدَ عَهْدُ سَحَائِبٍ
إِذَا اسْتَعْبَرَتْ – فى تُرْبِهِ – ابْتَسَمَ الزَّهْرُ (٣)

فَفِيهِ عَلَاءٌ لَا يُسَامَى يَفَاعُهُ … وَقَدْرُ شَبَابٍ لَيْسَ يَعْدِلُهُ قَدْرُ (٤)

* * *

وَأَبْيَضَ فى طَيِّ الصَّفِيحِ كَأَنَّهُ … صَفِيحَةُ مَأْثُورٍ طَلَاقَتُهُ الأَثْرُ (٥)

كَأَنْ لَمْ تَسِرْ حُمْرُ المَنَايَا تَظِلُّهَا … إِلَى مُهَجِ الأَقْتَالِ رَايَاتُهُ الحُمْرُ (٦)

---

(١) سبق شرح مفردات هذا البيت ومعناه ص ٥٤٤

(٢) « « « « « « ص ٥٤٤

(٣) « « « « « « ص ٥٤٥ والأبيات الثلاثة السابقة صاغها الشاعر فى رثاء أم أبى الوليد بن جهور وكررها هنا .

(٤) اليفاع : الأرض المرتفعة ؛ المعنى : لقد ضمَّ قبرك مجداً لا يساميه مجد ، وطوى شبابا لا يعادله شباب .

(٥) الصفيح : وجه كل شىء عريض أو حجارة عراض رقاق؛ سيف مأثور: فى متنه أثرٌ ، أو متنُه حديد أنيث وشفرته حديد ذكر ؛ الأثر : فرند السيف؛ المعنى : ثوى الأمير فى أطباق التراب طلقا وضاءً كأنه سيف مصقول ثوى فى القراب .

(٦) فى ت « إلى مهج الأبطال » ؛ الأقتال : جمع قِتل وهو العدو أو القاتل أو الشجاع أو القِرن أو المثل ؛ المعنى : انطوى الأمير كأنه لم يكن قائدا مظفرا يبعث للنايا الحمر إلى مهج الأعداء تحت راياته الحمر .

وَلَمْ يَحْمِ –مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ– حِمَى الْهُدَى فَلَمْ يُرْضِهِ إِلَّا أَنِ ازْتُجِعَ الثَّغْرُ(١)
وَلَمْ يَنْتَجِعْهُ الْمُتَعَفُّونَ ، فَأَقْبَلَتْ عَطَايَا ، كَمَا وَالَى شَآبِيبَهُ الْقَطْرُ(٢)
وَلَمْ تَكْتَنِفْ آرَاءَهُ الْأَلْمَعِيَّةُ
كَأَنَّ نَجِيَّ الْغَيْبِ – فِي رَأْيِهَا – جَهْرُ(٣)
وَلَمْ يَتَشَذَّرْ لِلْأُمُورِ مُجَلِّيًا إِلَيْهَا كَمَا جَلَّى مِنَ الْمَرْقَبِ الصَّقْرُ(٤)

* * *

كِلَا لَقَبَيْ سُلْطَانِهِ صَحَّ فَأْلُهُ فَبَاكِرُهُ عَضْدٌ وَرَاوَحَهُ نَصْرُ(٥)

(١) الثغر : موضع الخوف على الحدود المتاخمة لبلاد الأعداء ؛ المعنى : طوى الموت الأسير كأنه لم يكن بطلا مقداما حمى ذمار الدين من أن يستبيحه الكفار . ولم يطمئن له بال حتى استرد ما اغتصبوه من ثغور .

(٢) انتجع فلانا : قصده طالبا معروفه ؛ المتعفون : طلاب الإحسان ؛ الشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر ؛ القطر : المطر ؛ المعنى : انطوى الأمير كأنه لم يكن مقصداً للطلاب يفدون عليه فتنهلُّ عطاياه متوالية عليهم كما تتوالى الأمطار .

(٣) تكتنف : تحيط ؛ الألمعية : توقد الذكاء ؛ النجوى والنجيّ : السر الخفيّ ؛ المعنى : ذهب ذكاء الأمير الوقاد الذى كان يهتك أستار الغيوب فيكشف ماوراءها من أسرار .

(٤) تشذّر : تهيّأ للقتال ، أو توعّد وتغضّب ، أو نشط لأمر وأسرع إليه ؛ المجلّى : الأول فى السباق ؛ المرقب : موضع الإشراف ، والتطلع من عل ؛ جلّى البازىّ : رفع رأسه ثم نظر ؛ المعنى : كأن الامير لم يكن متهيأ للأمور العظيمة متحفزا لها مسرعا إليها ، كما يتهيأ الصقر للانقضاض على فريسة من مرتقاه الرفيع .

(٥) باكره : أتاه بكرة أى صباحا ؛ راوحه : قصده فى الرواح وهو المشىّ =

إلى أنْ دَعَاهُ يَوْمُـــهُ فَأَجَابَهُ
وَقَدْ قَدَمَ المَعْرُوفَ وَاسْتَمْجَدَ الذُّخْرُ[١]

فَأَمْسَى ثَبِيرٌ قَدْ تَصَـدَّى لِحَمْـلِهِ
سَرِيرٌ، فَلَمْ يَبْهَضْهُ مِنْ هَضْبِهِ إِصْرُ[٢]

* * *

أَلاَ أَيُّهَا المَوْلَى الوَصُولُ عَبِيدَهُ
لَقَدْ رَابَنَا أَنْ يَتْلُوَ الصِّلَةَ الهَجْرُ[٣]

نُنَادِيكَ - دَاعِينَا السَّـــلاَمَ - كَعَهْدِنَا
فَمَا يُسْمَعُ الدَّاعِي، وَلاَ يُرْفَعُ السِّتْرُ[٤]

= أو من الزوال إلى الليل ؛ عضد : نصر ؛ المعنى : إن لقب الأمير (المعتضد بالله والمنصور بفضل الله) كانا فألا حسناً دالاً أكبر الدلالة على حياة الأمير الحافلة بالأمجاد وأن الله سيحوطه بالنصر والتأييد .

(١) المعنى : عاش الأمير مظفراً منصوراً إلى أن أدركته الوفاة وقد تقدم معروفه وتم مجده فترك لنا أخلد الآثار .

(٢) ثبير : جبل بظاهر مكة ؛ السرير : النعش قبل أن يحمل عليه الميت ؛ بهضه الامر ويهظه : فدحه وشق عليه ؛ الإصر : الثقل ؛ المعنى : كيف استقل السرير بحمل الأمير وهو راسخ مثل جبل ثبير، ولم يضطرب من هول ما يحمل من عظمة وجلال ؟

(٣) المعنى : أيها الأمير المنعم على رعيته الواصل لعبيده كيف قطعت عنا إحسانك ؟ وكيف استطعت أن تهجرنا بعد الوصال ؟

(٤) المعنى : لقد وفدنا على قبرك بالتحية والسلام ، كما كنا نفد عليك في الحياة ، ولكنك لاتسمع دعاء ، ولا ترفع ستراً ، ولا تأذن للزائرين .

أَعَتْبٌ عَلَيْنَا ذَادَ عَنْ ذٰلِكَ الرِّضَى   فَنُعْتِبَ؟ أَمْ بِالْمَسْمَعِ الْمُعْتَلِي وَقْرُ؟(١)

أَمَا إِنَّهُ شُغْلٌ فَرَاغُكَ بَعْدَهُ   سَيَنْصَاتُ، إِلَّا أَنَّ مَوْعِدَهُ الْحَشْرُ(٢)

أَأَنْسَاكَ ؟ لَمَّا يَنْأَ عَهْدٌ !! وَلَوْ نَأَى

ـ سَجِيسَ اللَّيَالِي ـ لَمْ يَرِمْ نَفْسِيَ الذِّكْرُ(٣)

وَكَيْفَ بِنِسْيَانٍ وَقَدْ مَلَأَتْ يَدِي   جِسَامُ أَيَادٍ مِنْكَ أَيْسَرُهَا الْوَفْرُ؟(٤)

* * *

لَئِنْ كُنْتُ لَمْ أَشْكُرْ لَكَ الْمِنَنَ الَّتِي   تَمَلَّيْتُهَا تَتْرَى لَأَوْجَبَنِي الْكُفْرُ(٥)

---

(١) فى نفح الطيب «فنسمع أم بالسمع ...» ؛ الوقر : الصمم أو ثقل السمع ؛ والمعنى : مابالك لاترد علينا السلام ؟ أعاتب علينا فنعمل على إرضائك ؟ أم أنَّ أذنَك لاتستطيع سماع التحيات ؟

(٢) انْصات : أجاب وأقبل ، أو استوى قائمًا ، وانصات به الزمان : صار مشهورًا ، وانصات الرجل : ذهب متواريا ؛ والمعنى : إن فراقك شغلنا وأشعل نار الحزن فى قلوبنا : وسيتوارى الفراغ الذى خلفته فينا حينما تعود إليه ، ولكن موعد إيابك هو يوم الحشر . أو لقد فرغت من أعباء الحياة ومشاغلها ، وسيذهب فراغك ويتوارى ولكنْ فى يوم الحساب .

(٣) سجيسَ الليالى : آخرها ، وفى الحديث «ولا تغمروه فى يقظة ولامنام سجيس الليالى والأيام» ، رام يريم : بَرِحَ . ويقال لا رِمْتُ أى لا برحت ؛ والمعنى : كيف أستطيع نسيانك على قرب عهدى بك ؟ ولو طال العهد إلى آخر الحياة ما استطعت لك نسيانا .

(٤) المعنى : كيف أنساك وقد غمرتنى بإحسانك وأياديك الوافرة التى أيسرها جليل ، وأقلها كثير ؟

(٥) فى نفح الطيب «وإن كنتُ لم أشكر ... فلابِقَ الكفر» ؛ تمليتُها :=

فهل علِمَ الشّاوُ الأَدَمِسُ أنني مُسوَّغُ حالٍ ضلَّ فى كُنهِها الفِكْرُ؟[١]
وأنَّ مَتاتِى لم يُضِعْهُ « مُحمَّدٌ »
خَليفَتُكَ العَدْلُ الرِّضَى وابنُكَ البَرُّ؟[٢]
هُوَ الظافِرُ الأَعْلى المُؤَيَّدُ بالَّذى
لَهُ - فى الَّذى وَلّاهُ مِن صُنْعِهِ - سِرُّ[٣]
رأى فى اختِصاصى ما رأيتَ، وزادنى مَزِيَّةَ زُلْفَى مِن نَتائِجِها الفَخْرُ[٤]

= استمتعت بها ، تَتْرَى : متوالية ، قال تعالى « ثم أرسلنا رسلنا تترى » أى واحدا بعد واحد ؛ أوبق : أهلك ؛ والمعنى : إذا أنا لم أحمد أياديك المتوالية علىَّ وكفرت بأفضالك الجسام فإنني أكون إذاً جديراً بالهلاك والخسران .

(١) الشاو : الجسد أو العضو منه ؛ سوَّغ له كذا : جوَّزه وأباحه ، أو أعطاه ؛ والمعنى : هل يعلم الفقيد الكريم أنك واصلت بعده الإحسان إلىَّ ورفعتنى إلى مكانة كريمة يحار الفكر فيما توحى به من جلال ؟

(٢) المَتاتُ : ما عُتَّ به من قرابة أو صداقة أو إحسان ؛ المعنى : إن صلاتى الوثيقة ببيتكم الكريم لم يضيعها ابنُكَ المعتمد الحاكم الجديد ، العادل فى حكمه ، المرضى فى سيرته ، البارُّ فى بنوته ؛ وهذا البيت ساقط من نسخة ت .

(٣) من ألقاب المعتمد : الظافر بحول الله ، والمؤيد بالله ، المعنى : إن ابنَكَ الأمير له من لقبيه أوفى نصيب فهو مظفر فى حروبه مؤيد بالله فى أفعاله ، فإن لله حكمة عالية فيما وكله إليه من ولاية وسلطان ؛ وفى نفح الطيب « فى الذى ولاه ... » .

(٤) الزلفى : القُرْبة والمنزلة ، قال تعالى : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زُلْفَى » ؛ المعنى : لقد أدنانى الأمير منه كما أدنيتنى ورآنى أهلاً للاصطفاء كما رأيتنى ، وزاد فقربنى إليه تقريبا نتج عنه المجد والفخار .

وَأَرْغَمَ فِي بِرِّي أُنُوفَ عِصَابَةٍ لِقَاؤُهُمُ جَهْمٌ !! وَلَحْظُهُمُ شَزْرُ !! (١)
إِذَا مَا اسْتَوَى فِي الدَّسْتِ عَاقِدَ حَبْوَةٍ وَقَامَ سِمَاطَا حَفْلِهِ فَلِيَ الصَّدْرُ (٢)
وَفِي نَفْسِهِ الْعَلْيَاءِ لِي مُتَبَوَّأٌ يُنَافِسُنِي فِيهِ السِّمَاكَانِ وَالنَّسْرُ (٣)
يُطِيلُ الْعِدَا فِي التَّنَاجِي خِفْيَةً
يَقُولُونَ : « لَا تَسْتَفْتِ ، قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ !! » (٤)
مَعَنى نَفْثُهُمْ — فِي عُقْدَةِ السَّعْيِ — ضَلَّةً فَعَادَ عَلَيْهِمْ غُمَّةً ذَلِكَ السِّحْرُ (٥)

---

(١) فى القلائد والخريدة وبعض نسخ الذخيرة وبعض نسخ نفح الطيب « ومنظرهم شزر » ؛ نظر إليه شزرا : نظر إليه بمؤخر عينه غاضبا ؛ المعنى : لقد أكرمنى فأرغم أنوف أعدائى بإحسانه إلىّ ، وكانوا يلقوننى متجهمين وبوجوهون إلى نظراتهم حانقين غاضبين .

(٢) فى الخريدة « فأنا الصدر » ؛ الدست : كلمة فارسية معناها صدر البيت ؛ عقد حبوته : جلس مشتملا بثوب يلفّه حوله (وهى جلسة يكنون بها عن الوقار) السماط : الجانب ؛ المعنى : إذا تصدر الأمير مجلسه واصطف حوله الأمراء والوزراء قدمنى عليهم وجعل لى الصدارة بينهم .

(٣) السماكان (الرامح والأعزل) : نجمان نيران ؛ النسر : يطلق على أحد نجمين النسر الواقع أو النسر الطائر ؛ المعنى : لى فى قلبه محل كريم تتمناه نجوم السماء .

(٤) فى ب ، ث ، ز « التناجى خيفة » ؛ المعنى : تهامس الأعداء بالدس لى آملين أن يفسدوا ما بينى وبين الأمير من صلات معتقدين أننى قد قُضِى علىّ بالهلاك ، والشاعر يقتبس هنا ألفاظ الآية الكريمة « قضِىَ الامر الذى فيه تستفتيان » .

(٥) النفث : النفخ مع ريق ؛ عقدة السحر : الخيط المعقود الذى يربطه الساحر ويتلو عليه تعاويذه ورُقاه وينفث فيه ليكيد به لمن يشاء . قال تعالى : « ومن =

يَشِبُّ مَكانِي عَنْ تَوَقِّي مَكانِهِمْ
كَما شَبَّ - قَبْلَ الْيَوْمِ - عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو[1]

* * *

لكَ الْخَيْرُ ، إِنَّ الرُّزْءَ كَانَ غَيابَةً   طَلَعْتَ لَنا فِيها كَما يَطْلُعُ الْبَدْرُ[2]
فَقَرَّتْ عُيُونٌ كانَ أَسْخَنَهَا الْبُكا
وَقَرَّتْ قُلُوبٌ كَانَ زَلْزَلَهَا الذُّعْرُ[3]

= شر النفاثات فى العقد » ؛ الغمة : الكربة ، قال تعالى : « ثم لايكن أمركم عليكم غمة » ، قال أبو عبيدة : مجازها ظلمة وضيق وهم ؛ والمعنى : لقد حاول الأعداء أن يغيروا قلبَك على وتفننوا فى الكيد والدس ، ولكنك خيبت ظنونهم ورددت كيدهم فى نحورهم .

(١) المعنى : يرتفع مكانى عن متناول كيدهم كما شب عمرو عن الطوق ؛ وهو عمرو بن عدى بن نصر كانت أمه تدلله فى صغره وتلبسه طوقا فلما أبصره خاله جذيمةُ الأبرش ملكُ الحيرة قال : « شب عمرٌو عن الطوق » أى كبر عن حِلية الأطفال ، فذهبت مثلا .

(٢) الغيابة : الستار الحاجز عن النظر ؛ والمعنى : لقد هبط المصاب علينا كما يهبط الظلام ، حتى أشرقتَ علينا فيه كما يشرق البدر فيبدد غواشيَ الظلمات .

(٣) قرت عينُه : نالت ما تطمح إليه فهدأت ولم تتطلع إلى شيء آخر ، أو بردت فلم تسخن ، فللسرور دمعةٌ باردة وللحزن دمعةٌ حارة ؛ أسخنها : أبكاها أو أفاض دموعها ساخنة من شدة الحزن ، وسخنة العين ضد قرتها ؛ والمعنى : لما أشرقتَ علينا بعد هول المصاب قرحتْ العيون الباكية وهدأت القلوب المذعورة .

وَلَوْلَاكَ أَعْيَا رَأْبُنَا ذٰلِكَ الثَّأَى ... وَعَزَّ فَلَمَّا يَنْتَعِشْ ذٰلِكَ الْعَثْرُ(١)

وَلَمَّا قَدَمْتَ الجَيْشَ بِالأَمْسِ أَشْرَقَتْ ... إِلَيْكَ — مِنَ الآمَالِ — آفَاقُهَا الْغُبْرُ(٢)

قَضَيْتَ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ لُبَانَةً ... مُشَيَّعُهَا نُسْكٌ وَفَارِطُهَا طُهْرُ(٣)

وَمِنْ قَبْلُ مَا قَدَّمْتَ مَثْنَى نَوَافِلٍ ... يُلَاقِي بِهَا مَنْ صَامَ مِنْ عَوَزٍ فِطْرُ(٤)

وَرُحْتَ إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي غَضَّ طَرْفَهُ

— بَعِيدَ التَّسَامِي — أَنْ غَدَا غَيْرُهُ الْقَصْرُ(٥)

---

(١) رأب الثأى : جبر الكسر أو أصلح الفساد ، قال جرير :

هو الوافد الميمون والراتق الثأى ... إذا النعل يوماً بالعشيرة زلت

والمعنى : لولاك ما استطعنا أن نتحمل الخطب ولأعيانا إصلاح ما فسد من شئوننا وعز علينا النهوض بعد سقوطنا بوفاة الأمير .

(٢) فى نفح الطيب « .. قدمت الجيش بالأمر » ؛ والمعنى : لما تقدمت أمام الجيش بدت حزننا على وفاة الأمير لأننا رأينا فيك خير خلف لخير سلف ، وأشرقت إليك الآمال بعد أن تكدر صفاؤها من هول المصاب .

(٣) فى نفح الطيب « فشيعها نسك وقارنها طهر » ؛ اللبانة : الحاجة من غير فاقة ولكن من همة ؛ الفارط : السابق ؛ المعنى : أرضيت ربك ونفسك بأداء الصلاة المشفوعة بالخشوع والخضوع المسبوقة بالطهر والنقاء .

(٤) مثنى : مزدوج مكرر ؛ النوافل جمع نافلة وهى عطية التطوع ؛ العوز : الفقر ؛ المعنى : لقد توالت عطاياك من قبل فعمت الفقراء ، وأطعمت الصائمين بعد أن هدهم الجوع .

(٥) المعنى : رجعت إلى القصر الذى كان يمتز بقربك ويرفع الرأس تيهاً بك ، ولقد غض طرفه وأطرق حزينا حينما آثرت غيره عليه ، والآن يحق له التسامى والاعتلاء .

فَدَامَا مَعًا فِي خَيْرِ دَهْرٍ ، صُرُوفُهُ حَرَامٌ عَلَيْهَا أَنْ يَطُورَهُمَا هَجْرُ[١]

وَأَجْمِلْ — عَنِ الثَّاوِي — الْعَزَاءَ ، فَإِنْ تَوَى

فَإِنَّكَ لَا الْفَانِي ، وَلَا الضَّرَعُ الْغُمْرُ[٢]

وَمَا أَعْطَتِ السَّبْعُونَ — قَبْلُ — أُولِي الْحِجَا

مِنَ الْإِرْبِ مَا أَعْطَتْكَ عِشْرُوكَ وَالْعَشْرُ[٣]

* * *

أَلَسْتَ الَّذِي إِنْ ضَاقَ ذَرْعٌ بِحَادِثٍ تَبَلَّجَ مِنْهُ الْوَجْهُ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ[٤]

---

(١) يطور : يحوم أو يقارب ، وفى حديث على كرم الله وجهه « والله لا أطور به ما سحر سحير » أى لا أقربه أبداً ؛ المعنى : أدعو الله أن يمتع بك هذين القمرين وأن يديمهما ممــا آمنَيْن من صروف الدهر ناعمين بقربك بعيدين عن هجرك .

(٢) الفانى : الشيخ الكبير الضعيف ؛ الضرع : الذليل المستكين ؛ الغمر : الذى لم يجرب الأمور ؛ المعنى : تعزَّ أيها الأمير عن الراحل الكريم ، فإن لك من شبابك وعزتك أكرم عوض وخير سلوان .

(٣) فى نفح الطيب « من الأب » ؛ الحجا : العقل ؛ الإرب : الدهاء أو العقل أو الدين ؛ والمعنى : لقد نلتَ فى سن الثلاثين — من التجربة والحكمة والدهاء — مالم ينله من بلغ من عمره السبعين .

(٤) ضاق بالأمر ذرعا : لم يطقه ولم يقو عليه ؛ تبلج : هش وضحك ؛ المعنى : إنك تلقى الأحداث الخطيرة — التى توهن غيرك وتبهظه — بوجه متهلل وصدر رحب فسيح .

فَلاَ تَهِضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْــدَهُ
فَمِنْكَ - لِمَنْ هَاضَتْ نَوَائِبُهَا - جَــبْرُ(١)

وَلاَ زِلْتَ مَوْفُورَ العَدِيدِ بِقُــرَّةٍ
لِعَيْنَيْكَ مَشْــدُودٍ بِهِمْ ذَلِكَ الأَزْرُ(٢)

فَإِنَّكَ شَمْسٌ - فِى سَمَاءِ رِيَاسَةٍ - تَطَلَّعَ مِنْهُمْ حَوْلَهَا أَنْجُمٌ زُهْرُ(٣)

* * *

شَــكَــكْنَا أَفَلَمْ نُثْبِتْ : أَأَيَّامُ دَهْرِنَا بِهَا وَسَنٌ أَمْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ(٤)
وَمَا إِنْ تَغَشَّتْهَا مُغَازَلَةُ الكَرَى وَمَا إِنْ تَمَشَّتْ فِى مَفَاصِلِهَا خَمْرُ(٥)

(١) هاض الجناحَ : كسره ؛ والمعنى : أسأل الله ألا يروعك الدهرُ بمصاب آخر !! فإنك جابر كل كسر ومصلح كل فساد .

(٢) قرة العين : سرورها أو بردها من دموع الفرح ضد سخونته من الحزن ؛ الأَزْر : المعونة والنصر ؛ والمعنى : أدعو الله أن يزيد عددك ببنيك ويجعلهم قرة عينيك ، وأن يمنحك بهم النصر والتأييد .

(٣) تطلَّع : طلع ؛ المعنى : لقد أشرقتَ فى سماء الملك وبزغوا هم من حولك مثل النجوم الزُّهر ؛ وفى نفح الطيب « تطالع منهم حولنا » .

(٤) فى نفح الطيب « لأيام دهرنا » ؛ الوسَن : النعاس ؛ الأعطاف : جمع عِطف وهو الجانب ؛ المعنى : لقد ازدانت بك الدنيا واهتزت من الطرب حتى حسبناها مالَتْ بها سِنَةُ الكرى أو رَنَّحَ عِطفيها الشراب .

(٥) فى نفح الطيب « فى معاطفها الخمر » ؛ والمعنى : لقد غايلت الدنيا من هزة السرور ؛ وما داعب عينيها النوم ، ولا دبَّتْ فى أعضائها نشوةُ الراح .

سِوَى نَشَوَاتٍ ـ مِنْ سَجَايَا ـ مُمَلَّكٍ يُصَدِّقُ فِي عَلْيَاهَا الْخَبَرَ ـ الْخُبْرُ [1]

* * *

أَرَى الدَّهْرَ : إِنْ يَبْطِشْ فَأَنْتَ يَمِينُهُ
وَإِنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا فَأَنْتَ لَهَا ثَغْرُ [2]

وَكَمْ سَائِلٍ ـ بِالْغَيْبِ عَنْكَ ـ أَجَبْتُهُ :
هُنَاكَ الْأَيَادِي الشَّفْعُ وَالسُّؤْدَدُ الْوِتْرُ [3]

هُنَاكَ التُّقَى وَالْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالنُّهَى وَبَذْلُ اللُّهَا وَالْبَأْسُ وَالنَّظْمُ وَالنَّثْرُ [4]

هُمَامٌ إِذَا لَاقَى الْمُنَاجِزَ رَدَّهُ وَإِقْبَالُهُ خَطْوٌ، وَإِدْبَارُهُ حُضْرُ [5]

مَحَاسِنُ مَا لِلرَّوْضِ ـ سَامَرَهُ النَّدَى ـ رُوَاءٌ إِذَا نُصَّتْ حُلَاهَا وَلَا نَشْرُ [6]

---

(١) المعنى : لم ينقش النوم الدنيا ولا هزتها نشوة الشراب ، ولكنها اهتزت طرباً بسجايا الأمير وشمائله المذبة التي يصدّق أخبارها العيان وتطابق فيها الأنباء ماتشاهد منها العيون .

(٢) المعنى : إنك عدة الدهر ومصدر أحداثه ، فإذا بطش فأنت يمينه الباطشة ، وإذا ضحك فأنت ثغره البسام .

(٣) المعنى : رب سائل عنهم لم يحظ برؤيتهم أجبته بأن مكارمهم متوالية متتابعة مزدوجة ، أما مجدهم فهو فذ معدوم النظير .

(٤) المعنى : لقد اجتمعت فيهم صفات التقوى والعلم والحلم والذكاء وبذل العطايا والشجاعة وبراعة النثر وروعة الشعر .

(٥) المناجز : البارز في ميدان القتال؛ الحُضْر والإحضار : ارتفاع الفرس في جريه ؛ المعنى : الأمير شجاع إذا بارز خصمه أقبل عليه الخصم متهيبا مترددا وأدبر عنه هاربا ممعنا في الفرار ، وفي نفح الطيب «وإقباله خطر وإدباره حصر » .

(٦) آثرنا رواية نفح الطيب ، وفي الأصول « ... ولا بشر » ؛ الرواء : المنظر الجميل ؛ النشر : الرائحة الطيبة ؛ والمعنى : إن شمائله تكسف محاسن الروض المرصع بالندى؛ وسجاياه العاطرة تفوق نفحات الأزهار .

مَتَى انتَشَتْ لَمْ تُطْرِ دَارِينُ مِسْكَهَا   حَيَاءً، وَلاَ تَفْخَرْ بِعَنْبَرِهَا الشِّحْرُ[1]

عَطَاءٌ وَلاَ مَنٌّ ، وَحُكْمٌ وَلاَ هَوًى   وَحِلْمٌ وَلاَ عَجْزٌ ، وَعِزٌّ وَلاَ كِبْرُ[2]

قَدِ استَوْفَتِ النَّعْمَاءُ فِيكَ تَمَامَهَا   عَلَيْنَا ، فَمِنَّا الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ[3]



(١) دارين : ميناء بالبحرين مشهورة بتجارة الطيب ؛ الشحر : ساحل البحر بين عدن وعمان وهو مشهور بتجارة العنبر ؛ المعنى : إن شمائلك تنفح بأطيب العبير ، فلا تجاريها دارين بمسكها العاطر ، ولا الشحر بعنبرها الفواح.

(٢) ، (٣) سبق شرح هذين البيتين حيث ختم بهما الشاعر مدح أبي الوليد بن جهور ورثاء أمه أص ٥٤٨

الهجاء

« وصف الحميدى والضبي شاعرنا بأنه قبيح الهجاء ، ومنه ابن بسام فى رواية مبتورة لابن سعيد أنه كان — ساعه الله — ممن لا يُرْجَى خيره ولا يُؤْمَنُ شره .

ولكننا نرى شعره فى الهجاء مقبولا بالنسبة إلى شعر معاصريه ، ونلاحظ أنه كان ينذر قبل أن يهجم ، وقلما ابتدأ بالهجوم ، ولكنه يدافع دفاع القوى المستميت » .

اعد نظرا

«كتب الشاعر هذه القصيدة إلى أبي عبد الله بن القلاس البطليوسي مداعبا ومعاتبا ومحذرا [1] » .

أَصِخْ لِمَقَالَتِي وَاسْمَعْ وَخُذْ - فِيما تَرَى - أَوْ دَعْ [2]
وَأَقْصِرْ - بَعْدَهَا - أَوْ زِدْ وَطِرْ - فِي إِثْرِهَا - أَوْ قَعْ [3]

* * *

أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْـــرَ يُعْطِي بَعْدَ مَا يَمْنَعْ ؟
وَأَنَّ السَّعْيَ قَدْ يُكْدِي وَأَنَّ الظَّنَّ قَدْ يَخْدَعْ [4]
وَكَمْ ضَرَّ امْرَءًا أَمْرٌ تَوَهَّمَ أَنَّهُ يَنْفَعْ

* * *

فَإِنْ يُجْدِبْ مِنَ الدُّنْيَا جَنَابٌ طَالَمَا أَمْرَعْ [5]

---

(١) اقتبسنا من هذه القصيدة بضعة أبيات فى فن النسيب ص ١٢٢ لمناسبتها للمقام هناك .

(٢) فى تمام المتون « أبا عبد الإله اسمع وخذ... » بمقالتي أصخ : استمع .

(٣) فى تمام المتون « وأنقص بعدها أو زد » ؛ قع : فعل أمر ماضيه وقع .

(٤) أكدى الرجل : بخل أو قل خيره ، قال تعالى « أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى » ، وأكدى المطر : قلَّ ونكد ، وأكدى العام : أجدب ، وفى حديث عائشة تصف أباها رضى الله عنهما : « سبق إذ ونيتم ، ونجح إذ أكديتم » أى ظفر إذ خبتم » .

(٥) الجناب : الفناء . أو ماقرب من محلة القوم ؛ أمرع : أخصب .

فَمَا إِنْ غَاضَ لِي صَبْرٌ وَمَا إِنْ فَاضَ لِي دَمْعُ [1]

وَكَائِنْ رَامَتِ الأَيَّا مُ تَرْوِيعِي ، فَلَمْ أَرْتَعْ [2]

إِذَا صَابَتْنِيَ الْجُلَّى تَجَلَّتْ عَنْ فَتًى أَرْوَعْ [3]

عَلَى مَا فَاتَ لَا يَأْسَى وَمِمَّا نَابَ لَا يَجْزَعْ

تَدِبُّ إِلَيَّ مَا تَأْلُو عَقَارِبُ مَا تَنِي تَلْسَعْ [4]

كَأَنَّا لَمْ يُؤَلِّبْنَا زَمَانٌ لَيِّنُ الأَخْدَعْ [5]

إِذِ الدُّنْيَا مَتَى نَقْتَدْ أَبِيَّ سُرُورِهَا يَتْبَعْ [6]

وَإِذْ لِلْحَظِّ إِقْبَالٌ وَإِذْ فِي الْعَيْشِ مُسْتَمْتَعْ

---

(١) غاض الماء : قل ونضب .

(٢) كائنْ وكأيِّنْ : بمعنى كم فى الاستفهام والخبر ، وهى مركبة من كاف التشبيه وأىٍّ المنونة ، قال زهير :

وكائنْ ترى من صامت لك معجب زيادتُه أو نقصُه فى التكلّمِ

راعه وروّعه : أفزعه ، وارتاع : فزع .

(٣) صاب يصيب : أصاب ؛ الجُلَّى : الأمر المظيم؛ الأروع : الرائع الحس؛ والمعنى : إذا دهمتنى النوائب فإنها لا تجدنى ضارعا خوّاراً بل تنكشف منى عن فتى مهلل الوجه رائع النظر .

(٤) تألو : تقصّر فى الجهد ؛ ماتنى : مانزال .

(٥) ألّب : جَمَّعَ ، وألَبَّ : تجمع ؛ الأخدع : عرق فى جانب العنق ، رجل شديد الأخدع : ممتنع أبىّ ، وليّن الأخدع : ضده .

(٦) المعنى : كانت الدنيا سهلة سمحة معنا ، إذا اجتذبنا سرورها البعيد الجامح انقاد إلينا فى يسر وسماح .

وَإِذْ أَوْتَارُنَا تَهْفُـــو وَإِذْ أَقْدَاحُنَا تُتْرَعُ[١]

وَأَوْطَارُ المُـــنَى تُقْضَى وَأَسْبَابُ الْهَوَى تَشْفَعُ[٢]

فَمِنْ أَدْمَانَةٍ تَعْطُو وَمِنْ قُمْرِيَّةٍ تَسْجَعُ[٣]

* * *

أَعِدْ نَظَرًا ، فَإِنَّ الْبَغْــ ـىَ مِمَّا ا . يَزَلْ يَصْرَعُ[٤]

وَلاَ تُطِعْ الَّتِي تُغْوِيــكَ ، فَهْيَ لِبَغْيِهِمْ أَطْوَعُ[٥]

تَقَتَّلْ إِذْ أَتَى خِطْبٌ وَأَنْفُ الْفَحْلِ لاَ يُقْرَعُ[٦]

---

(١) تهفو : تتحرك ، تترع : تمتلئ .

(٢) الأوطار : الحاجات .

(٣) الأدمانة : الظبية المشربة بالبياض ، والأفصح فيها أدماء ؛ تعطو : تمد عنقها وترفع مقدمتيها لتناول أوراق الشجر ؛ القمرية : نوع من الطيور المغردة من فصيلة الحمام .

(٤) البغى : الظلم أو الكبر أو العدول عن الحق ، يصرع : يسقط ، والمراد هنا يهلك .

(٥) أغوى : أضل ؛ البغى : الفجور ، أو المهر والفساد ، أو الطلب .

(٦) فى الأصول « تقبل إذ أتى خطبا وأنف النمل لايقرع » ولعل الصواب ما ذكرناه أو قريب منه . ولعله « تَقَابَلْ — إذ أتى — خِطْبا » وتقابل بمعنى بادل فيكون المعنى : « إذا أتاها خاطب فبادله وانصرف عنها تاركا له مكانك » ؛ تَقَتَّلَ الرجل لحاجته : تهيأ لها وجدّ فيها ، وتقتّل للمرأة : خضع لها وذل ، ورجل مُقَتَّلٌ : قتله العشق ، وقلب مُقَتَّل : أهلكه الحب ، قال امرؤ القيس :

وما ذرفَتْ عيناكِ إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مُقَتَّلِ

وتقتلت المرأةُ : مشت مختالة فى دلال وتثنٍّ وانكسار قال الشاعر : =

وَلاَ تَكُ مِنْكَ بِتِلْكَ الدَّا رُ بِالمَرْأَى وَلاَ المَسْمَعِ ـ[١]

فَإِنَّ قُصَارَاكَ الدَّهْلِيـــزُ ، حِينَ سِوَاكَ فِى المَضْجَعِ[٢]

= تقتّلتِ لى ، حتى إذا ماقتلتنى تنسّكتِ ؛ ماهذا بفعل النواسك !!

أما الفحل لايقرع : لايلطم ؛ وفى الأمثال « هــذا فحل لايقرع — أو لايقدع — أنفُه » وذلك إذا كان كريما فإن كان غير كريم وهمّ بتلقيح ناقة كريمة ضُرِبَ أنفُه بالرمح أو بغيره حتى يرتدع ، وقد كثر استعمال هــذا المثل مجازيا بمعنى أن الخاطب الكريم لايمكنُ ردُّه ، قال ورقة بن نوفل و. خِطْبة النبي ﷺ للسيدة خديجة رضى الله عنها : « هو الفحل لايقرع أنفه » أى إنه كفء كريم؛ الخِطْب: الخاطب . يقال خطب الرجل المرأة فهو خِطْب وخاطب ؛ والمعنى : تدلّلْ لهذه المرأة إذا جاءها راغب فيها ، فإنها لن تردّه وستبوء أنت بالخسران ، ويكون الأمر هنا للسخرية ؛ أو يكون البيتُ صفــة لها والفعل « تَقَتّلُ » مضارع ، أصله (تتقتل) حذفتْ فاء الفعل (التاء الثانية) أى إنها تلين فى مشيتها وتتثنى وتتدال وتستجيب لكل فحل ينشدها ؛ وتكون كلمة (خِطْب) فاعلا ؛ فكأن الشاعر يقول : لاتستجبْ لإغرائها فإنها أطوع قيادا لكل طالب فهى تتدال وتمايل وتستجيب لكل راغب فيها من الفحول .

(١) المعنى : لاتحاول أن تكون قريبا من دارها أو دانياً منها بحيث تراها وتسمع من بها .

(٢) قصارك وقصاراك : غايتك وآخر مداك أوجهدك ؛ والمعنى : إن أقصى ماتناله منها أن تحلّ فى فناء بيتها حيث يحتل سواك مخدعها وينالُ منها ماتمناه .

تحذير ووعيد

كتب الشاعر هذه القصيدة إلى منافسه — فى حب ولادة — أبى عامر بن عبدوس مذكراً وعاتبا ومنذرا : (١)

أَثَرْتَ هِزَبْرَ الشَّرَى إِذْ رَبَضْ وَنَبَّهْتَهُ إِذْ هَدَا فَاغْتَمَضْ (٢)

وَمَا زِلْتَ تَبْسُطُ مُسْتَرْسِلاً إِلَيْهِ يَدَ الْبَغْيِ لَمَّا انْقَبَضْ (٣)

* * *

حَذَارِ حَذَارِ ! فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا سِيمَ خَسْفاً أَبَى فَامْتَعَضْ (٤)

فَإِنَّ سُكُونَ الشُّجَاعِ النَّهُوسِ لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يَعَضْ (٥)

---

(١) اخترنا من هذه القصيدة عشرة أبيات فى فنّ النسيب لمناسبتها للمقام هناك .

(٢) الهزبر : الأسد القوى ؛ الشَّرَى : مأسدة فى طريق سلمى ؛ ربض : جثم ؛ هدا : سكن ؛ المعنى : حرّكتَ الأسد الهادى، ونبهته فترقّب أن يفترسك.

(٣) المعنى : مازلتَ تمد إلى الأسد يد العدوان مغالياً فى إثارته على الرغم من انقباضه ، فإذا نالك بسوء فمنيك وحدك اللوم :

(٤) الخسف : الإذلال أو حمل الإنسان على مايكره ؛ سامه خسفا : أولاه ذُلاً ؛ امتعض : اغتاظ ؛ المعنى : احترس من نقمتى ، فإن الكريم يحلم ويعفو، ولكنه إذا تعرض للهوان ثارت ثائرته فبطش بالمسيء إليه وأنزل به أشد العقاب.

(٥) الشجاع : نوعٌ من الحيات أو الذكر منها ؛ النهوش : الماضّ بمقدم أسنانه أو الأسد ؛ والمعنى : إن هدوء الثعبان — أو الأسد — المفترس لا يمنعه أن يعض إذا استثاره إنسان .

وَإِنَّ ٱلْكَوَاكِبَ لاَ تُسْتَذَلُّ   وَإِنَّ الْمَقَادِيرَ لاَ تُعْتَرَضْ (١)

إِذَا زِيعَ فَلْيَقْتَصِدْ مُسْرِفٌ   مَسَاعِيَ يَقْصُرُ عَنْهَا الْخَفَضْ (٢)

وَهَلْ وَارِدُ الْغَمْرِ مِنْ عِدِّهِ   يُقَاسُ بِهِ مُسْتَشِفُّ الْبَرَضْ ؟ (٣)

إِذَا الشَّمْسُ قَابَلْتَهَا أَرْمَدًا   فَحَظُّ جُفُونِكَ فِى أَنْ تُغَضّ (٤)

* * *

---

(١) المعنى : لايمكن أن تهوى الكواكب وتهون ، ولايقع فى الحسبان أن تقاوَمَ الأقدار .

(٢) فى الأصول « إذا ريغ ... مسرف .٠. مساع » وصحة الفعل أريغ بمعنى طُلِبَ ؛ ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ زِيعَ : رُدَّ من الفعل زاعه زوعا : كفه مثل وزعه ؛ مسرف : مجاوز للحدود أو مبذر أو مخطىء أو جاهل أو غافل ؛ مساع : مآثر ؛ الخفَضُ : ردىء المتاع أو عمود الخباء أو حجر البناء أو البعير الضعيف الردىء ، قال عمرو بن كلثوم :

ونحن إذا عماد الحىّ خرّت   على الأخفاض نمنع من يلينا

والمعنى : إذا زُجِر من يجهل أو يخطىء مآثرنا العظيمة — التى يقصر عن بلوغها الأراذل والضعفاء — فَلْيرتدعْ وليكفّ عن الاندفاع فى الجهل والأخطاء .

(٣) الغمر : الماء الكثير ؛ العِدُّ : الماء الذى لا انقطاع له مثل ماء العين ، استشفّ مافى الإناء : شربه كله ؛ البرَضُ : القليل ضدُّ الغمر ؛ والمعنى : لاوجه للموازنة بين من يتمتع بالماء الوافر الغزير ومن لايجد إلا النزر اليسير ، والمقصود هنا : لاوجه للموازنة بين العظيم والحقير .

(٤) المعنى : إذا قابلتَ الشمس وأنتَ مصاب بالرمد فلا بد أن تغض طرفك محافظة على بصرك . أى إنك ضعيف الفطنة مريض الفكر لاتستطيع أن تدرك عظمة الرجال .

أَرَى كُلَّ بَحْرٍ « أَبَا عَامِرٍ » يُسَرُّ إِذَا فِى خَلَاءٍ رَكَضْ[1]
أُعِيذُكَ مِنْ أَنْ تَرَى مِنْزَعِى إِذَا وَتَرِى بِالْمَنَايَا انْقَبَضْ[2]
فَإِنِّى أَلِينُ لِمَنْ لَانَ لِى وَأَتْرُكُ مَنْ رَامَ قَصْرِى حَرَضْ[3]
وَكَمْ حَرَّكَ الْعُجْبُ مِنْ حَائِنٍ فَغَادَرْتُهُ ، مَا بِهِ مِنْ حَبَضْ[4]

* * *

« أَبَا عَامِرٍ » أَيْنَ ذَاكَ الْوَفَاءُ إِذِ الدَّهْرُ وَسْنَانُ ، وَالْعَيْشُ غَضّ ؟[5]

(١) البحر : الفرس ؛ ركض : جرى ؛ والمعنى : كل جواد يجرى فى الخلاء بشعر بنشوة وارتياح لأنه لا يجد من ينافسه ، وقريب من هذا قول المتنبى :
وإذا ماخلا الجبانُ بأرضٍ طلب الطعنَ وحدَه والنزالا
أو إن الميدان أمامى فسيح ، وما أشد شوق للركض فيه ، فاحذرْ منافستى ؛ وفى الذخيرة « أرى كل مُجْرٍ » .

(٢) فى الذخيرة « ... وترى بالمنايا انتفض » ؛ النزع : السهم ؛ والمعنى : إنى أخشى وأشفق عليك من أن تتعرض لسهامى القاتلة إذا جذبتُ القوسَ لإطلاقها .

(٣) القصر : الحبس أو الإجبار ومنه حديث إسلام ثمامة « فأبى أن يسلم قصرا فأعتقه » وقيل أراد قهرا وغلبة من القسْر فأبدل السين صادا وهما يتبادلان فى كثير من الكلام ؛ الحرض : الإشراف على الهلاك .

(٤) العُجب : الزهو والكبرياء ، حائن : أحمق ، الحبَض : بقية الحياة ؛ والمعنى : كم من أحمق دفعه الغرور إلى عدائى فغادرْتُه صريعا ما به من حراك .

(٥) وسنان : نائم غير مستغرق فى نومه ، قال ابن الرقاع :
وسنانُ أقصده النعاسُ فرنَّقت فى عينه سِنَةٌ وليس بنائم
غض : طرى ؛ والمعنى : أين وفاؤك السابق والحياة غافلة عنا والعيش ناعم سعيد ؟

وَأَيْنَ الَّذِى كُنْتَ تَعْتَدُّ مِنْ مُصَادَقَتِي الْوَاجِبَ الْمُفْتَرَضْ ؟[١]

تَشُوبُ ، وَأَمْحَضُ مُسْتَبْقِيًا وَهَيْهَاتَ مَنْ شَابَ مِمَّنْ مَحَضْ ![٢]

* * *

أَيْنَ لِى : أَلَمْ أَضْطَلِعْ نَاهِضًا بِأَعْبَاءِ بِرِّكَ ، فِيمَنْ نَهَضْ ؟[٣]

أَلَمْ تَلْقَ مِنْ أَدَبِى نَفْحَةً حَسِبْتَ بِهَا الْمِسْكَ طِيبًا يُفَضْ ؟[٤]

أَلَمْ تَكُ مِنْ شِيمَتِى غَادِيًا إِلَى تُرَعٍ ضَاحَكَتْهَا فُرَضْ ؟[٥]

وَلَوْلَا اخْتِصَاصُكَ لَمْ أَلْتَفِتْ لِحَالَيْكَ : مِنْ صِحَّةٍ أَوْ مَرَضْ[٦]

---

(١) فى الذخيرة « من مُصافاتى » ؛ اعتد بالشىء : أدخله فى العدد والحساب ، فهو معتد به محسوب غير ساقط .

(٢) تشوب : تخلط ، مثل شوب اللبن بالماء ؛ مَحَضَ : أخلص ، تقول محضتُهُ الودَّ وأمحضتُهُ : أصفيتُه له ، ولبن مَحْضٌ : لم يُخلَط بسائل ؛ والمعنى : كنت أصفى لكَ مودتى وأنتَ تمزجها بالكدر ، وشتان بين الخلقين !!.

(٣) اضطلع بالأمر : قوى على النهوض به ؛ المعنى : أظهر لى ماتنتقده : ألم أنهض ببرك والإحسان إليك مع الناهضين ؟

(٤) نَشِيَ ريحا طيبة : شمَّها وكذلك انتشاها وتنشَّاها ؛ يُفَضُّ : يُفَتّ أو يصَبّ ؛ والمعنى : ألم تشم من عبير أدبى نفحات طيبات كأنها فتيت المسك المنثور أو رذاذه المصبوب ؟

(٥) الترع : جمع تُرعة ، وهى الروضة فى مكان مرتفع أو مفتح الماء حيث يرد الناسُ أو فوّهة الجدول ؛ الفُرَضُ : جمع فُرضَة وهى من النهر ثلمة يستقى منها ، ومن البحر محط السفن ؛ المعنى : ألم تجد من شمائلى عذوبة ورقة كأنك غاد منها على حدائق غناء تحفّها الجداول والغدران ؟

(٦) المعنى : لولا صِلاتُك الوثيقة بى ماعنيت بشأنك ولا اهتممت بوفائك أو كيدك .

وَلاَ عادَنِي – مِنْ وَفَاهِ – سُرُورٌ وَلاَ نَالَنِي – بَجفَاه – مَضَضْ[1]

وَلٰـكِنْ يَعِزُّ اعْتِصَارُ الْفَـتَى

إِذا الْبَارِدُ الْعَـذْبُ أَهْدَى الْجَرَضْ[2]

* * *

عَدَتْ لِشِـعْرِى وَلَمْ تَتْئَبْ !! تُمَارِضُ جَوْهَرَهُ بالْعَرَضْ[3]

---

(١) فى ب، ت، ز « ولا نالنى بجفاه مضض » : المضض : وجع المصيبة .

(٢) فى نسخه ا « ولـكن يعز اعتصار الفتى واردا ... » وكلمة « ولـكن » أو كلمة « واردا » زيادة فى الوزن فلابدّ من حذف إحداهما؛ الاعتصار : أن يغص الإنسان بالطعام فيعتصر بالماء وهو أن يشربه قليلا قليلا ، قال عدى بن زيد :

لو بغير المـاء حلقى شرِقٌ كنتُ كالغَصَّانِ بالماء اعتصارى

الجرض : الغُصّة بالريق حتى لا يمكن ابتلاعه إلا بجهد وهم ؛ والمعنى : كيف يستطيع المرءُ أن يزيل غُصّته إذا كان المـاءُ العذب الزيل للغصص يسبب له أشد الغصص؟

(٣) أَوْ أَبَهُ واتّـأبه : أغضبه ، أو ردّه بخزى ، أو فعلَ به فعلا قبيحا ، واتّأب هو : خَزِىَ واستحيا ؛ الجوهر : الأصـل ، أو الطبيعة ، أو الحجر الـكريم ؛ العَرَض : الظهر أو الصفات العارضة وهو فى اصطلاح التكلمين مالا يقومُ بنفسه ولا يوجد إلا فى محلٍّ يقوم به ، وهو خلاف الجوهر، وذلك كحُمرة الخجل وصفرة الوجل أومتاع الدنيا وحطامها، يقال: الدنيا عَرَض حاضر يأكل منها البرُّ والفاجر ، وفى الحديث « ليس الغِـنى عن كثرة العرض، إنما الغـنى غِـنَى النفس » ؛ المعنى : خاولتَ معارضة شعرى الرائع الثمين بشعر تافه وكيف كن يعارض الجوهرَ بالحطام أو الطبعَ الأصيل بالظاهر الجوفاء ؛ وفى الذخيرة « عبثَتَ بشعرى ولم تتئد » .

أضاقت أساليب هذا القريض ؟ أم قد عفا رَسْمُهُ فانقرض ؟[(1)]

* * *

لَعَمْرِى لَفَوَّقْتَ سَهْمَ النِّضَالِ وأرْسَلْتَهُ ، لَوْ أصَبْتَ الغَرَضْ[(2)]

وَشَمَّرْتَ لِلخَوْضِ فى لُجَّــةٍ ـ هِىَ البَحْرُ ـ ساحِلُها لَمْ يُخَضْ[(3)]

وَغَرَّكَ مِنْ عَهْدِ « وَلاَّدَةٍ » سَرَابٌ تَرَاءى وَبَرْقٌ وَمَضْ[(4)]

تَظُنُّ الْوَفَاءَ بِهَا ، وَالظُّنُو نُ فِيها تَقُولُ عَلَى مَنْ فَرَضْ:[(5)]

« هِىَ المَاءُ يَأْبَى عَلَى قَابِضٍ وَيَمْنَعُ زُبْدَتَهُ مَنْ مَخَضْ »[(6)]

---

(١) عفا : درس وبَلِىَ ؛ الرسم ؛ الأثر ، ورسم الدار : ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض .

(٢) فى الذخيرة والجريدة ونسخة ا «لفوّقت» وفى ب ، ت ، ز «لطوّقت» ؛ فوّق السهم : جعل له فوقا ، والفوق : موضع الوتر من السهم ؛ والمعنى : لقد أعددتَ سهامَك لرميى وسدَّدتَها إلىّ ولكنَّك أخطأت الهدف .

(٣) المعنى : شمَّرتَ ثيابك لتخوض فى بحرى الطامى ، وما خاضه قبلك إنسان ؛ وفى الذخيرة « هى الموت » .

(٤) فى الذخيرة « من عهد ولاّدة » وولاّدة كناية عمّن تفعل الفعلَ القبيح الذى يستحى من ذكره ؛ المعنى : غرّك من فعل هذه الماجنة وعود كاذبة وأحلام خادعة مثل السراب الكاذب أو السراب الخادع .

(٥) ، (٦) معنى البيتين : لقد خدعتْكَ فخيلتَها مثالا للوفاء ، مع أن الظواهر تدلّ على ألاّ وفاء لها وأنها تشبه الماء الذى لا يستقر فى يد ولا يعطى زبدة لمن يمخضه ؛ فلا تغتر بملمسها اللين ولا بكلامها الرقيق .

وَنَبَثْتُهَا بِمَدِيَ اسْتَحْمَدَتْ ... بِيُسْرَى إِلَيْكَ لِمَنْ غَمَضْ(١)

* * *

« أَبَا عَامِرٍ » عَثْرَةٌ !! فَاسْتَقِلْ ... لِتُبْرِمَ مِنْ وُدِّنَا مَا انْتَقَضْ(٢)

وَلاَ تَمْتَعِصِمْ ضَلَّةً بِالْحِجَاجِ ... وَسَلِّمْ، فَرُبَّ احْتِجَاجٍ دُحِضْ(٣)

وَإِلاَّ انْتَحَتْكَ جُيُوشُ الْعِتَابِ ... مُنَاجِزَةً فِي قَضِيضٍ وَقَضْ(٤)

* * *

وَأَنْذِرْ خَلِيلَكَ مِنْ مَاهِرٍ ... بِطِبِّ الْجُنُونِ إِذَا مَا عَرَضْ(٥)

كَفِيلٍ بِبَطِّ خُرَاجٍ عَسَا ... جَرِيءٍ عَلَى شَقِّ عِرْقٍ نَبَضْ(٦)

---

(١) فى الذخيرة « بسير إليك » وفى ب ، ت ، ز « بسر إليك » ؛ استحمد : طلب الحمد ؛ والمعنى : بلغنى أنها تودّدت إليك بأن باحت لك بأسراري لمرض تخفيه فى نفسها .

(٢) المعنى : ياأباعامر لقد عثرت عثرة فاطلب إلىّ أن أقيلك منها وأن أغتفرها لك ، وستجد منى صدرا رحبا وصديقا غافرا ، وبهذا تستطيع أن تستأنف من صداقتنا ما تبدّد .

(٣) الحجاج : الجدال ؛ دحض حجته : أبطلها ؛ المعنى : لا تتمسك بالجدال والمناقشة ، واعترف بالخطأ ، فرب حجة باطلة لم تغن عنك فى الاعتذار .

(٤) انتحى : قصد ؛ القض : الحصا الصغار ، والقضيض : الحصا الكبار ؛ والمعنى : اعترف بأخطائك وإلا قصدتك جيوش اللوم مجتمعة عليك فى عددوفير .

(٥) أنذر صاحبك بأننى ماهر فى طب الجنون العارض ، ويبدو أنه يقصد بقوله (خليلك) ولادة .

(٦) بطّ القرحة : شقها ؛ الخُراج : القروح ؛ عسا : غلظ ويبس ؛ والمعنى : إننى كفيل بعلاج كل داء مستعص فأشق القروح الغليظة اليابسة ، والعروق النابضة . أى إننى كفيل بشفاء كل جاهل من طيشه وتأديبه على حماقته .

يُبادِرُ بالشَّكْوَى قَبْلَ الضِّمادِ ... وَيُسْعِطُ بالسُّمِّ لاَ بالحُضَضْ[(١)]

وَأشعِرُ أنِّى انتخبْتُ البَدِيلَ ... وَأعْلِمُهُ أنِّى استجَدْتُ العِوَضْ[(٢)]

فلاَ مَشْرَبِى ـ لقِلاهُ ـ أمَرَّ ... وَلاَ مَضْجعِى ـ لِنَوَاهُ ـ أقَضْ[(٣)]

وَأنَّ يَدَ البَيْنِ مَشْكُورَةٌ ... لِعارٍ أماطَ وَوَصْمٍ رَحَضْ[(٤)]

وَحَسْبِىَ أنِّى أطَبْتُ الجَنَى ... لإبَّانِهِ ، وَأبَحْتُ النَّفَضْ[(٥)]

وَيُهْنِيكَ أنَّكَ يَا سَيِّدِى ... غَدَوْتَ مُقارِنَ ذَاكَ الرَّبَضْ[(٦)]

---

(١) يُسْعِط : ينشِّق ؛ الحضض : صمغ من محو الصنوبر والرَّوما أشبههما له ثمرة كالفلفل وتسمى شجرته الحضض ، أو هو عصارة الصبر ؛ والمعنى : إنه قبل أن يضمد الجرح يكويه بالنار ، وإنه يعالج المريض بأن ينشقه السمَّ الزعاف لاعصارة الصبر كما يفعل غيره من الأطباء ، أى إنه كفيل بعقاب كل جاهل مغرور .

(٢) المعنى : أشعرْ خليلك أننى انتخبتُ لى بديلا خيرا منه ، واستعضتُ عنه حبيبا صادق الود محمود الوفاء .

(٣) القِلَى : البغض ؛ أمَرَّ : صار مُرًّا ؛ أقضَّ مضجعه : أقلق نومه وأتعبه ، وأقضّ المضجعُ : خشنَ ؛ والمعنى : أخبر خليلك أننى استعضت عنه خيرا منه ، وأنَّ شرابى لم يتكدر لبعده ، وأن نومى لم يتبدد لهجره ، فأمره أيسر من أن أشعر له بشوق أو حنين .

(٤) البين : البعد ؛ أماط العار : أزاله ؛ الوصم : العيب والعار ؛ رحضَ الوصْمَ : غسل العيب ومحا العار ؛ المعنى : إن الفراق يستحقّ شكرى لأنه أزال الغشاوة عن عينى وأرانى من حب دنس وهوى ذميم .

(٥) الجَنى : الثمر الغض ؛ النفض : ما تساقط من الورق والثمر ؛ والمعنى لقد تخيَّرتُ بخير مافيها ولم أترك منها إلا الفضلات .

(٦) الربَض : مأوى الماشية ، أو أحشاء الناقة ، أوما تحويه البطن والأمعاء ؛ المعنى : هنيئاً لك ياسيدى ما نلته من فضلات زادى وبقايا حبى ، فانعم بهذه الفضلات وظلّ ملازما لها مدى الحياة .

سوء الجـزاء

وجه الشاعر إلى أبي الحزم بن جهور – بعد أن زجّ به في السجن – أبياتاً لم يصل إلينا منها غير هذين البيتين :

بني جَهْوَرٍ ، أحرقتمُ بجفائِكُمْ ضميري ، فما بالُ المدائحِ تَعْبَقُ؟[1]
تَعُدُّونني كالمَنْدَلِ الرَّطبِ ، إنما تَطيبُ لَكُمْ أنفاسُهُ حينَ يُحْرَقُ[2]

---

(١) فى المعجب « فؤادى .. فما بال .. » وفى الذخيرة والمغرب وروايات المبرزين وسرح العيون وتمام المتون « جنانى » وفى المطرب والخريدة وأصول الديوان « ضميرى » ؛ الجَنان : القلب ؛ تعبق : تستمرّ رائحته لاصقة أياما ؛ المعنى : يابنى جهور : لقد قابلتم مودتى بالجفاء ، وأحرقتم فؤادى بإعراضكم عنى ، على الرغم مما خلعتُهُ عليكم من عاطر الحمد وطيب الثناء .

(٢) آثرنا رواية الذخيرة وفى أصول الديوان «كالمنبر الورد » ؛ وفى المطرب وتمام المتون « تظنونني كالمنبرالورد » ؛ وفى نفح الطيب « تظنونى كالعود حقا » ؛ وفى المعجب « تفوح لكم أنفاسُه » ؛ وفى المغرب « وهو يحرق » ، المنبر الورد : الزعفران ؛ المندل : عودٌ طيب الرائحة يستعمل فى البخور ويقال إنه منسوب إلى مندل بالهند ؛ الرطب : النض الطرى ؛ والمندل الرطب من أجود أنواع البخور ، قال عمر بن أبى ربيعة :

لمن نارٌ قُبَيْلَ الصُّبْـ ـحِ عنـد البيت ما تخبو؟
إذا ما أوقِدَتْ يُلْـقَى عليها المنـدلُ الرطب

والمعنى : تسيئون إلىّ وتنتظرون ثنائى كما تحرقون المندل الرطب لتنعموا بأريجه الفواح ؛ ومثل هذا قول على بن رشيق القيروانى .

أراكَ أَهَنْتَ أخاكَ الثقهْ وعندكَ مقتٌ ، وعندى مِقَهْ
وأثنى عليك ، وقد سُؤْتنى كما طيِّبَ العود من أحرقَهْ

الشاعر الكذاب

قُلْ لِلْوَزِيرِ :ـ وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدْحِهِ زَمَنِي ،فَكَانَ السِّجْنُ مِنْهُ ثَوَابِي ـ[١]

لَا تَخْشَ لَا ئِمَتِي بِمَا قَدْ جِئْتَهُ مِنْ ذَاكَ فِيَّ، وَلَا تَوَقَّ عِتَابِي[٢]

لَمْ تُخْطِ فِي أَمْرِي الصَّوَابَ مُوَفَّقًا هَٰذَا جَزَاءُ الشَّاعِرِ الْكَذَّابِ!![٣]

---

(١) فى المطرب والخريدة وتمام المتون « عدحه عمرى » ؛ وفى تمام المتون « فكان الحبس » .

(٢) آثرنا رواية تمام المتون وفى الأصول « لا تخش فى حقى بما أمضيته » ؛ توقَّ : اتقى وخشى .

(٣) فى الخريدة والمطرب « لم تسدُ ... » ؛ والمعنى . لقد كذبتُ فى مدحك ونسبتُ إليك من المآثر ماليس فيك ، فاستحققتُ أن ألقى جزاءَ الكاذبين ؛ وقد أخذ الأبيوردى هذا المعنى فقال :

وقصائد تحكى الرياضَ ، أضعتها فى باخل ضاعت به الأحسابُ

فإذا تناشدها الرواة وأبصروا الـ ممدوح قالوا: شاعر كذّابُ !!

ولعل الشاعر بَنِ استوحياه من قول ابن الرومى :

إن كنتَ من جهل حقى غيرَ مُعتذرٍ أو كنتَ من ردِّ مدحى غيرَ مُتئِبِ

فأعطنى ثمنَ الطِّرسِ الذى كُتِبَتْ فيه القصيدة ، أو كفّارة الكذب

نهاية طاغية

روى الصفدي وابن شاكر(١) أن الناسَ بعد وفاة المتضد « تعجبوا من وزيره ابن زيدون كيف انفرد بالسلامة منه؟ فقال : كنتُ كن يمسك بأذنى الأسد يتقي سطوته تركه أو أمسكه!! »
وأنه ساغ فيه :

لَقَدْ سَرَّنَا أَنَّ النَّعِيَّ مُوَكَّلٌ   بِطَاغِيَةٍ ، قَدْ حُمَّ مِنْهُ حِمَامُ(٢)
تَجَانَفَ صَوْبُ الْغَيْثِ عَنْ ذَلِكَ الصَّدَى   وَمَرَّ عَلَيْهِ الْبَرْقُ وَهْـــوَ جَهَامُ(٣)

---

(١) يظهر أنهما تأثراً فى روايتهما بما رواه ابن الأبار من أن الشاعر « أظهر سرورا بهلاك المتضد لأنه كان غير مأمون على الدماء ولا حافظا لحرمة الأولياء فقال يهجوه :

لقد سرنا أن النعي موكل ... البيتان »

وقد أوعينا هذه الروايات فى كتابنا « ابن زيدون : عصره وحياته وأدبه ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ » ولهـذا نرجح أنهما من صنع خصمه الذين تآمروا عليه بعد وفاة المتضد لينزوا به الحاكم الجديد (المتمد) راجع ص ٣٠٦ — ٣٢١ ؛ ولم يرد البيتان فى أصول الديوان .

(٢) النعىّ : الناعى أو النعىُّ أو المنعىّ ، حُمّ : قُضِىَ أو قدر ؛ الحِمام : الموت أو قدرُه .

(٣) تجانف : مال ؛ الصوب : نزول المطر ، الصدى : جسد الميت ؛ جَهام : سحاب لامطر فيه ؛ ومعنى البيتين : لقد سرنا نزول الردى بهذا الملك الطاغية ، واسأل الله ألاّ يسقى الطرجيته ، والاّ يجود عليه السحاب ؛ ومن الأدعية المحبوبة للميت عند العرب : سقى قبره الغيث وجاده السحاب .

بيت يتيم

روى صاحبا الذخيرة والخريدة أن الشاعر هجا رجلا كان فى عينه فص؛ ولم يذكرا المهجوّ ولا سبب الهجاء ؛ ولم يشاركهما أحدٌ فى رواية هذا البيت الفاحش :

مَخَضَتْ فِي اسْتِهِ الأُ .. رُ حَلِيناً فَعَلَتْ عَيْنَهُ مِنَ الزُّبْدِ نُقْطَه(١)

---

(٤) لم يرد هذا البيت فى أصول الديوان ، وانفرد بروايته ابن بسام والعماد الأصفهانى ؛ وفحش البيت يصرفنا عن شرحه ونعتقد أن معناه ظاهر للمتأمل. على أننا نرى شعراء العرب قد استباحوا لأنفسهم أن يقذعوا فى الهجاء ، وكانوا يرون فى هذا سِمَةً من سِمَات الرّقّة والظرف أو شفاء الضغائن والأحقاد ، حتّى أصبح تناول الأعراض أمراً مألوفاً لا غرابة فيه ؛ ومن يراجع نقائض جرير والفرزدق والأخطل ومعاصريهم يعلم تفننهم العجيب فى الإفحاش والتشهير ، وقد سار على وتيرتهم بشار بن برد وحماد عجرد وأبو نواس ودعبل وأضرابهم ، ووصل ابن الرومى فى الإقذاع إلى مدى لا يلحقه فيه شاعر قديم أو حديث ، وذاعت طريقته بين الشعراء ؛ ومن يقرأ يتيمة الدهر للثعالبى يجد فيها ألواناً غريبة من الإفحاش لو وجهها شاعرُ اليوم إلى خصمه لناله قانون العقوبات بأعنف الجزاء .

وقد روينا فى مقدمة الديوان نبذة من هجاء ولادة لابن زيدون وللأصبحى ص ٣٣ ، ٣٤ ومن هجاء مهجة بنت التيانى ص ٣٨ ؛ وسنذكر هنا مثالين فاحشين وإنْ لم يبلغا غاية الإفحاش كما بلغه غيرهما من شعر الهجاء ، أحدهما لشاعر شرقى جاد هو المتنبى حيث يقول فى هجاء ابن كيغلغ من قصيدة طويلة :

يحمى ابن كيغلغَ الطريقَ ، وعِرسُهُ ما بين رجليها الطريقُ الأعظمُ
يمشى بأربعة على أعقابه تحت العلوج ، ومن وراءٍ يُلْجَمُ

والمثال الثانى للشاعر الأندلسى أبى بكر محمد الأعمى المخزومى فى نزهونة الشاعرة :

ألا قل لنزهونة : مالها تجرّ من التيه أذيالها ؟
ولو أبصرتْ فيشةً شمّرتْ — كما عوّدتْنِيَ — سربالها

ولا نستطيع أن نذكر هنا قصيدة ابن عمار فى المعتمد بن عباد وزوجه وبناته [نفح الطيب طبع ليدن جـ ٢ ص ٢٦٩] .



« نوع من المطارحات الشعرية ينهض على الأحاجي والألغاز وتدور كلها على أسماء الطيور ، ولكل طائر حرف يرمز إليه ، وقد تتغير الرموز بتغير القصائد .

وقد دارت هذه المطارحات بين الشاعر والمعتمد بن عباد إلا مطارحةً واحدةً دارتْ بين الشاعر وأبي طالب بن مكي .

وهذه المطارحات رياضة ذهنية وتدريبات شعرية؛ وقد عقبنا على هذه المطارحات بتعريفات موجزة للطيور غير المشهور الواردة بهذه المطيرات ، مرتبة على الحروف الأبجدية » .

البعيد القريب

كتب الوزير الفقيه صاحب الأحكام والأحباس أبو طالب ابن مكي إلى الشاعر قصيدة مُعَمَّاة بأسماء الطيور تتكشف رموزها عن هذين البيتين :

[يَا بَعِيدَ الدَّارِ مَوْصُو   لاً بِقَلْبِي وَلِسَانِي
رُبَّمَا بَاعَدَكَ الدَّهْـ   ـرُ ، فَأَدْنَتْكَ الأَمَانِي]

فأجابه ابن زيدون :

لاَ أُفْتِنَانٌ كَافْتِنَانِي   فِي حُلَى الظَّرْفِ الحِسَانِ[1]
خَصَّـنِي بِالأَدَبِ اللهُ ،   فَأَعْلَى فِيـهِ شَانِي
خَاطِرِي أَنْفَذُ — مَهْمَا   قِيسَ — مِنْ حَدِّ السِّنَانِ[2]

* * *

أَيُّهَا المُرْسِـلُ أَطْيَا   رَ المُعَمَّى لِامْتِحَانِي[3]
هَاكَ : كَيْ تَزْدَادَ فِي الآدَابِ   عِلْمًا بِمَكَانِي

---

(١) افتنّ في حديثه وفي خطبته : جاء بالأفانين ، والأفانين : الأساليب وهي أجناس الكلام وطرقه ؛ الظَّرْف : الكياسة أو الذكاء والبراعة يوصف بها الشبان لا الشيوخ ، أو حسن العبارة ، أو حسن الهيئة ، أو الحذق بالشيء .

(٢) الخاطر : الهاجس ، أو ما يخطر في القلب من تدبير أمر ، والمراد هنا الذكاء .

(٣) التعمية : الإخفاء والتلبيس ، ومنه عمَّيْتُ معنى البيت تعمية فهو معمّى أي جعلته غامضا مبهما ، قال تعالى « فعميت عليهم الأنباء » وفي إحدى القراءات « فعُمِّيَتْ » .

قَدْ أَتَتْنَا الطَّيْرُ تَشْدُو بَعْضَ أَبْيَاتِ الأَغَانِي
بِرَطَانَاتٍ قَضَـــيْتُنَا مَا اقْتَضَيْنَا مِنْ بَيَانٍ[1]

* * *

إِنْ تَغَنَّى الْبُلْبُلُ أَهْتَا جَ غِنَاءَ الْوَرَشَانِ[2]
فَتَنَادَى مِنْـــهُ بَيْتَا غَـــزَلٍ مُنْفَرِدَانِ[3]
لِمُحِبٍّ فِي حَبِيبٍ عَنْهُ نَاءٍ، مِنْهُ دَانِ :
« يَا بَعِيدَ الدَّارِ، مَوْصُو لاً بِقَلْبِي وَلِسَـــانِي
رُبَّمَا بَاعَدَكَ الدَّهْـــرُ، فَأَدْنَتْكَ الأَمَانِي »

قرة عين المعتمد

مدح الشاعر المعتمد بن عباد بقصيدة وقد ضمَّنها له فيهـــا بيتاً هو :

الحَاجِبُ الأَعْلَى العَضُدْ قُرَّةُ عَيْنِ المُعْتَمِدْ[4]

---

(١) الرطانات : الأحاديث بلغة أعجمية ، قضيتُه ماقتضى : أعطيته ماسأل :

(٢) الورَشان طائر لحمه أخف من الحمام يسمى ساق حر ،يقول الدميرى: إنه ذكر القمارى ، قال حميد بن ثور :

وما هاج هـذا الشوقَ إلا حمامةٌ دعتْ ساقَ حُر تَرْحةً وترنُّما

والقمرى من فصيلة الحمام ،وقيل إنه يتولد بين الفاختة والحمام وهو عذب التغريد .

(٣) تنادى : تتابع .

(٤) العضد : الناصر والمعين ؛ قرة العين : سرورها، أو بردتها، أو انقطاع

ففكّه المتمد ، وقدم له بأبيات هى :

يَا سَيِّدِى الأَعْلَى ، وَمَنْ أَعْدَدْتُهُ أَقْوَى الْعُدَدْ
حَلَّتْ طُيُورُكَ بِى ، وَقَدْ قَرَّبْتَ مِنْهَا مَا بَعُدْ
كَاشَفْتَنَا عَنْ سِرِّهَا فَوَشَى إِلَىَّ بِهَا الصُّرَدْ[1]
بَيْتًا يَدُلُّ عَلَى اعْتِقَا دِكَ يَا جَمِيلَ الْمُعْتَقَدْ :
« الْحَاجِبُ الْأَعْلَى الْعَضُدْ قُرَّةُ عَيْنِ الْمُعْتَمِدْ »

فأجابه ابن زيدون :

لَوْ أَنَّ مَنْ جَارَ قَصَدْ لَمْ يَجْزِ عَنْ وصْلِى بِصَدْ[2]
سَبْىُ عَهْدٍ ، أَرْخَصَتْ عَيْنَاهُ فى قَتْلِ الْعَمَدْ[3]

بكائها ، أو رؤيتها ما كانت مشوّقة إليه حتى تقرّ فلا تطمع إلى زيادة عنه ، ويقال حتى تبرد ولا تسخن ، فللسرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارّة ؛ وضدها سخنت عينه .

(١) الصرد : طائر فوق العصفور يصيد العصافير ضخم الرأس والمنقار .

(٢) قصد : عدل .

(٣) أرخصَ ورخّص له فى فعل كذا : أذن له فى فعله بعد النهى عنه ؛ العَمْد : القَصْد وهو ضدّ الخطأ فى القتل ، وقسّم الفقهاءُ القتلَ على ثلاثة أوجه : القتل الخطأ المحض (بالصدمة) ، وشبه العمد (كالضرب المفضى إلى الموت) ، والعمد المحض (مع سبق الإصرار) . وقد حرّك الشاعر السكون تسهيلا لحركة القافية ؛ والمعنى : هذا الحبيب نا كث للعهد أبيح لعينيه أن تقتلا القلوب متعمدتين دون حرج أو قصاص .

مَالِكُ سُلْطَانِ الْهَوَى أَمِنَهُ مِنَ الْقَوَدْ[1]
مُخَلَّدٌ خَلَّدَ بَرْحَ الشَّوْقِ فِي كُلِّ خَلَدْ[2]
وَعْرُ الرِّضَى ، لُحِبُّهُ نَهْجٌ إِلَى الْقَلْبِ جَدَدْ[3]
قَاسٍ !! إِذَا مَا قِيلَ : « أَبْلَى حُلَّةَ الْهَجْرِ » أَجَدْ[4]
أَوْ قُلْتُ : « قَدْ هَبَّ نَسِيمُ الْوَصْلِ لِي مِنْهُ » رَكَدْ[5]
مَا كُنْتُ آبَى صَدَّهُ لَوْ أَنَّ سُلْوَانِي صَدْ[6]

* * *

(١) القوَد : القصاص ، وأقاد الأميرُ القاتلَ بالقتيل : قتله به ؛ والمعنى : إن هذا الحبيب يقتل القلوب وهو آمِنٌ من القصاص .

(٢) مُخَلَّد : مُحَلًّى بالقُرْط أو مسوّر بسوار . أنشد أبو عبيد :

ومخلَّدات باللجين كأنما أعجازهنَّ أقاوز الكثبان

الأقاوز : قبضات من الرمال مستديرة تُشَبَّهُ بها أرداف النساء ؛ خلّد : أبقى دائمًا ؛ الخلَد : القلب أو النفس ؛ المعنى : إنه جميل مزين بالحلي أبقى نار الشوق أبدا في كل القلوب .

(٣) وعر : صعب ، وطريق وعر : شاق ملئ بالعقبات ؛ نهج : طريق واضح ؛ الجَدَدُ : ما استرق من الرمل أو الأرض المستوية أو مالا وعث فيها أو السهلة ، وفي الأمثال « من سلك الجَدَدَ أمن العثار » ؛ والمعنى : طريق رضاه محفوف بالمتاعب ، ولكن حبه يسلك إلى القلوب طريقا ممهدا رحبا .

(٤) المعنى : هو حبيب قاسي القلب ، إذا حسبناه مزّق رداء الهجر أعاده جديدا .

(٥) المعنى : كلما ترقبتُ منه نسيم الوصل ركدت ريحه ولفحتني منه عواصف الهجران .

(٦) الصَّدُّ والصُّدُّ : الجبل ؛ المعنى : ما كنت أتألم من هجره وأنفر منه لو كان سلوى عنه راسخا كالجبل الأصم .

فِتْنَةُ وَجْدٍ ، هِيَ كَالْـــفِتْنَةِ فِى الْعِجْلِ الْجَسَدْ[(١)]

غَــيْرُ مُبِينٍ ، طَرْفُهُ يَعْصِفُ بِالْخَصْمِ الْأَلَدّْ[(٢)]

عَصْفَ « أَبِى الْقَاسِمِ » بِالْــقَتْلِ إِذَا الْقَتْلُ مَرَدْ[(٣)]

الْحَاجِبُ الْأَعْــلَى الَّذِى لَوْ مَاجَدَ الشَّمْسَ مَجَدْ[(٤)]

مَحْضُ التُّقَى ، عَفُّ الْهَوَى غَمْرُ النَّدَى ، صَدْقُ الْجَلَدْ[(٥)]

رَكِينُ طَوْدِ الْحِلْمِ إِنْ حُبَاهُ فِى النَّادِى عَقَدْ[(٦)]

مُوَفَّقُ الْأَنْحَـاءِ غَا دٍ فِى أَسَالِيبِ الرَّشَدْ[(٧)]

---

(١) المعنى : إن فتنتى به مثل فتنة بنى إسرائيل بالعجل الذهبى الذى صاغه لهم السامرىُّ فعبدوه .

(٢) اللدد : الخصومة ؛ الألدّ : الشديد الخصومة ؛ المعنى : إنه لايستطيع الإبانة أوالجدال ، ولـكن نظرات عينيه بلينة الأداء تعصف بكل خصم لدود .

(٣) أبو القاسم من ألقاب المتمد ، مَرَدَ : عتا وتجبّر ، أو بلغ الغاية ؛ المعنى : تعصف عيناه بالقلوب كما يعصف المعتمد بالقتل إذا استمر القتال وبلغ مداه .

(٤) ماجد الشمسَ : فاخرها فى الشرف ؛ مَجَدَها : فاقها فى مجدها .

(٥) محض التقى : خالص التقوى نقيُّها ؛ غَمْرُ الندى : جزل العطاء ؛ صَدْقٌ : صلب ؛ الجَلَد : الشجاعة .

(٦) الركين : الجبل العالى الأركان ، ورجل ركين : رزين يشبه الجبل ؛ عقد حبوته أو احتبى : اشتمل بثوبه وقيل جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها ليستند ، إذ لم يكن عند العرب مايستندون إليه فى مجالسهم ؛ وأصبحت جلسةً يكنون بها عن التؤدة والوقار ؛ والمعنى : الأمير ثابت وقور حليم إذا عقد حبوته مثل الجبل الراسخ الوطيد .

(٧) النحو : القصد جمعه أنحاء ؛ الأساليب جمع أسلوب وهو الطريق أوالفن أوالقول ؛ والمعنى : الأمير موفق فى مقاصده ناهج سُبُلَ السداد .

لَوْ قِصّ كُنْهُ جُودِهِ لِلْبَحْرِ ، وَافَى فَاسْتَمَدْ[١]
مُؤَمِّلِي – مَعَ الرِّضَى – يُهَابُ فِي حِينِ الْبَعَدْ[٢]
إِنْ قُلِّدَ الْأَمْرَ كَفَى وَإِنْ تَوَلَّى الثَّغْرَ سَدْ[٣]
مَاءُ سَمَاحٍ فَاضَ فِي جَمْـرِ ذَكَاهُ فَاتَّقَدْ[٤]
يَا عَضُـدَ الدَّوْلَةِ ، يَا مَوْلًى بِبَارِيهِ اعْتَضَدْ[٥]
وَمَنْ – بِفَضْلِ اللهِ – حَا زَ النَّصْرَ فِي جِدٍّ وَجَدْ[٦]
أَصْـبَحَ أَعْلَى وَالِدٍ فَاقَهُ أَسْـنَى وَلَدْ[٧]

---

(١) كنه الشيء : نهايته أو جوهره ؛ المعنى : لو حُكِيَ للبحر عن طبيعة سخائه ومداه لأتى إليه البحرُ مستمداً منه العطاء .

(٢) البَعَد والبُعْد : الهلاك . قال تعالى : « ألا بُعْداً لمدين كما بعدت ثمود » ؛ المعنى : إنه مهبط آمال عند الرضا ومثار خوف عند مواطن الهلاك أى عند اشتداد القتال .

(٣) الثغر : المكان الذى يُخشَى هجوم الأعداء منه فى الحرب على الحدود ؛ المعنى : إذا عُهِد إليه بالحكم اضطلع به، وإن ولِيَ القيادة الحربية فى مكان مخوف أمّنه .

(٤) المعنى : اتقد ذكاؤه كالنار ورقّت شمائله كالماء .

(٥) اعتضد : استعان .

(٦) الجِدُّ : ضد الهزل أو الاجتهاد ؛ الجَدّ : الحظ ، وفلان مجدود : محظوظ ، والجَدّ أيضا : الغنى أو العظمة ؛ قال عزّ وجلّ « وأنه تعالى جدُّ ربنا » أى عظمته وجلاله .

(٧) سَنِيَ سناءً : ارتفع ؛ المعنى : أصبح المعتضد أسمى أب طاوله فى سموه ومجده أسمى ولد .

حدَّثَتْنا عَنْ سَرْوِهِ ناهيكَ مِنْ قُرْبٍ سَنَدَا ! (١)

* * *

مَلْكٌ – إذا نحنُ اعْتَمَدْ نا مِنْهُ أوْفَى مُعْتَمَدِ –

تَهَلَّلَتْ شَمسُ جَبِينٍ وَاسْتَهَلَّتْ مُزْنُ يَدِ (٢)

مُمَحِّصُ الدَّهْرِ الَّذِي أصْلَحَ مِنْهُ مَا فَسَدْ (٣)

وَعاضِدُ الدِّينِ الَّذِي قَدْ كَانَ قَبْلُ مُضْطَهَدْ (٤)

وَنَاصِرُ العِلْمِ الَّذِي نَفَقَهُ لَمَّا كَسَدْ (٥)

مَنْ لَمْ يَعِدْ إلاَّ وَفَى وَلاَ وَفَى إلاَّ وَعَدْ

---

(١) السرو : سخاء في مروءة ؛ ناهيكَ : حسبك أو كافيك ؛ السند : نسبة الحديث إلى قائله ، وأسند الحديثَ : رفعه ، والمُسْنَدُ من الحديث : ما اتصل إسناده حتى يُسْنَد إلى النبي ﷺ بعكس المرسل والمنقطع ؛ المعنى : حدثتنا أيها الأمير عن سخاء أبيك ومروءته ؛ وما أصدق الحديث إذا كان راويه متصلا بالمرويّ عنه قريبا منه .

(٢) المعنى : إنه ملك كريم ، إذا اعتمدنا عليه تهلّل وجهه بالسماح وفاضتْ يداه بالسخاء .

(٣) محص الذهبَ بالنار : أخلصه مما يشوبه ؛ المعنى : إنه نَقَّى الزمان مما خالطه من أكدار .

(٤) عاضِدُ الدين : ناصره ومعينه .

(٥) نفَّقه : روّجه ؛ كسد : بار ، ومنه كسدت البضاعة إذا لم يُقْبَلْ عليها شار .

مُشَاوِرٌ — فى أَمْرِهِ ... شَيْحَانُ لَوْ شَاءَ اسْتَبَدّ (١)

يَخْشَى الْعَدُوُّ مِنْهُ عَزْ ... مَ قَسْوَرٍ شَاكِى اللِّبَدْ (٢)

سَمْحٌ لَهُ مَهْمَا عَنَا ... قَطُّ عَلَيْهِ إِنْ عَنَدْ (٣)

كَالسَّيْفِ فى حَالَيْهِ : إِنْ ... رَاقَ فِرِنْدٌ رَاعَ حَدّ (٤)

يَا مُهْدِىَ السِّمْطِ الَّذِى ... قَلَّدْتُهُ فَخْرَ الأَبَدْ (٥)

---

(١) الشيحان : الغيور أو الطويل أو الحازم .

(٢) القسور والقسورة : الأسد قال تعالى : « كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فرت من قسورة » ؛ شاكى السلاح وشائكه : نافذه ؛ اللبد : الشعر المتراكم على عنق الأسد .

(٣) فى ب عتا : طغى وتجبر ؛ عنا : خضع وذل ، قال تعالى : « وعنت الوجوه للحى القيّوم » ؛ مهما : مصدرية شرطية ، أو زمانية شرطية بمعنى كما مثل قول الشاعر :

وإنك مهما تعط بطنَكَ سُؤْلَه ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

والمعنى : كلما ذل خصمه له وخضع قابله بالسماحة والغفران ؛ وإذا ركب الخصم رأسه قابله بالخشونة والجفاء .

(٤) فرند السيف وإفرنده : وشيه وحلية صفحته أو جوهره ؛ راع : أفزع ؛ المعنى : الأمير سمح كريم فى رضاه ، ولكنه قاس عنيف فى غضبه ، مثل السيف يروقك وشيه وجوهره ويفزعك حدّه ومضاؤه .

(٥) السمط : الخيط مادام فيه الخرز وإلا فهو سلك ، أو القلادة الطويلة ؛ المعنى : طوّقتَ جيدى بسمط ثمين من جواهر شعرك ، فأصبح مناط فخرى إلى الأبد .

أَحْسَنُ مِنْ رَقْمِ عِذَا رٍ سَائِلٍ فِي وَشْيِ خَدٍّ[١]
أَوْ مَبْسِمٍ حُلْوِ اللَّمَى يَفْتَرُّ عَنْ عَذْبِ بَرَدْ[٢]

* * *

قَدْ قُلْتُ – لَمَّا هَزَّنِي مِنْهُ الْبَدِيعُ الْمُنْتَقَدْ –:[٣]
« نَسِيمُ أَيْلُولٍ سَرَى؟ أَمْ وَرْدُ نَيْسَانَ وَرَدْ ؟ »[٤]
خَاطِرُكَ الشَّهْمُ وَشَى بِسِرِّ طَيْرِي، لَا الصُّرَدْ[٥]

(١) الرَّقْم : الكتابة ، أو ضرب مخطّط من الثياب ، أو الخز ، أو البُرُود ؛ العذار : الشعر النابت على صفحتي الوجه ؛ الوشي : النقش والتزيين ؛ المعنى : إن شعر الأمير أجمل من منبت المذار على صفحة الخد المشرق الوضاء .

(٢) اللمى : سمرة في الشفة مستحسنة ولعلها ناشئة من شدة الاحمرار ؛ المعنى : شِعْرُ الأمير أجمل مظهراً من ثغر أحمر الشفتين يفترّ عن أسنانٍ لؤلؤية تشبه البَرَد .

(٣) المُنتَقَد : المتميز المختار مِنْ نقدتُ الدراهمَ وانتقدتُها إذا ميّزتُ جيّدَها وأبعدتُ الزيفَ منها .

(٤) أيلول : يعادل شهر سبتمبر في التقويم السرياني ، نيسان ، يعادل في هذا التقويم شهر إبريل ؛ وترتيب هذه الشهور يوافق ترتيب الشهور الإفرنجية إبتداء من سبتمبر حتى أغسطس على النسق الآتي : أيلول ، تشرين الأول ، تشرين الثاني ، كانون الأول ، كانون الثاني ، شباط ، آذار ، نيسان ، أيار ، حزيران ، تموز ، آب ؛ المعنى : لقد هتفتُ – حينما هزّني شعره المختار – أفيه نسماتُ الخريف أم فيه ورد الربيع ؟

(٥) الشهم : الذكي الفؤاد المتوقد ؛ الصرد : طائر جارح فوق العصفور وهو شرس بصيد العصافير ، ويقلّد أصواتها فتأتي إليه فيفترسها ؛ المعنى : لقد أدرك خاطرك الوقّاد سرّ ما تحبّبته لك فنمّ عليه ، وليس اسم الصرد وحده هو مفتاح اللغز ولكن بصيرتك اللهمة هي التي استشفّته من خلف الحجاب .

وَفِطْنَـــةٌ تَأَلَّقَتْ — مِنَ الْمُعَمَّى — مَا شَرَدْ[١]

شِنْشِـــنَةٌ أَعْـــرِفُهَا فِى شِبْلِ مَلْكٍ مِنْ أَسَدْ[٢]

* * *

يَا آلَ « عَبَّادٍ » بِنَا لُ لَيْسَ يَعْدُوهُ السَّدَدْ[٣]

مَنْ لِي بِشُكْرِ نِعْمَةٍ ؟ الْحُرُّ عَنْهَا مُعْتَبَدْ[٤]

سُوِّغْتُ مِنْهَا الْعِزَّةَ الْـــقَعْسَاءَ فِى الْعَيْشِ الرَّغَدْ[٥]

---

(١) المعنى : لك خاطر نفاذ يحل الشكلات ، وفطنة تؤلف ماشرد من معانى المعميات ، فإذا تألّقت وضح منها ما كان محفوفا بالغموض .

(٢) الشنشنة : العادة أو الطبيعة أو الخلق ، ومن الأمثال « شنشنة أعرفها من أخزم » قاله أبو أخزم الطائى ، وكان أخزم عاقًا لأبيه ، ثم توفى فوثب أبناؤه على جدهم فأدموه ، فقال :

إن بنىّ ضرجونى بالدم شنشنةٌ أعرفها من أخزم

المعنى : إن فطنة الأمير طبيعة فيه ورثها عن أبيه ، كما ترث الأشبال طبائع الآساد .

(٣) يعدوه : يجاوزه ؛ السَّدَدُ والسَّداد : الاستقامة والصواب .

(٤) مَنْ : مِنْ معانيها التعليل مثل قوله تعالى : «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إيّاه » أى بسبب موعدة ؛ مُعْتَبَد : مُتَّخَذ عبدا ؛ المعنى : كيف أستطيع القيام بشكر نعمة تَستعبدُ — بسبب وفرتها وجزالتها — الأحرار ؟

(٥) سوّغه : جوّزه ، وسوّغ له كذا : أعطاه إيّاه ؛ القعساء : الثابتة الراسخة ؛ الرغد : الطيب الواسع

حَيْثُ أَضَافَ مَنْهَلٌ صَفَا إِلَى ظِلِّ بَرَدْ(١)
كَأَنَّهَا لِي جَنَّـــةٌ حُفَّتْ بِمَكْرُوهِ الحَسَدْ(٢)
يَحْمِلُهَا مِــنِّيَ وَا فِي الشُّكْرِ صَافِي المُعْتَقَدْ(٣)
كَمْ قَامَ بِالشُّكْرِ إِلَى أَنْ أَثْقَلَتْهُ فَقَعَــدْ
أَقْصَرَ ، لَكِنْ لَمْ يُقَصِّــرْ ، مُبْلِغُ العُذْرِ أَجْتَهَدْ(٤)
وُقِيتُ بَطْشَ العَيْنِ فِيــكُمْ بِالعَمَى لاَ بِالرَّمَدْ(٥) !!

---

(١) فى الأصول « استضاف منهلٌ » واستضاف معناها طلب الضيافة ، ولعل الصواب ماأثبتناه ، ضاف إليه وأضاف : مال ودنا ، قال ساعد بن جؤية يصف سحابا :

حتى أضاف إلى واد ضفادعُه غرقى ردافى تراها تشتكى النشجا

أى غرقى مترادفة تشتكى النشج وهو مجرى الماء ؛ المعنى : حيث انعطف المورد . الصافى إلى ظل ظليل .

(٢) المعنى : إن نعمتك السابغة علىّ تجعلنى أعيش فى جنة وارفة الظلال، ولكنها محفوفة بالحاسدين ؛ وهو يشير هنا إلى الحديث الشريف « حـفّت الجنة بالمكاره، وحُفّت النارُ بالشهوات » .

(٣) صافى المعتقد : نقىّ العقيدة خالص الإيمان .

(٤) أقصر : أوجز ؛ المعنى : لقد أوجزتُ فى إيفائك حقَّك من الثناء ، ولم أقصر عامداً ولكنّ حقك فوق طاقة الشعراء ، وبحسبى أننى بذلت غاية الجهد وأ ليتُ عذراً .

(٥) المعنى : أدعو الله أن يقيكم عيون الحاسدين بأن يصيبها بالعمى لا بالرمد .

(ابن زيدون — م ٣٩)

معدن العلم

كتب المعتمد إلى ابن زيدون :

يَا سَيِّدِي يَا مَعْدِنَ العِلْمِ ... يَا آلَةَ لِلْحَرْبِ وَالسِّلْمِ (١)

وَجْهُ طُيُورِ الشِّمْرِ نَحْوِي ، فَقَدْ ... بَثَّ فُؤَادِي شَرَكَ الفَهْمِ (٢)

فطيّر إليه ابن زيدون بيتاً هو :

اظفَرْ كَمَا أَنْتَ ظَافِرٌ ... بِكُلِّ غَاوٍ مُنَافِرْ (٣)

ثم شفعه بهذه الأبيات :

أَلْحِقْنِي بِرِكَ بِالنَّجْمِ ... يَا ابْنَ البُدُورِ الزُّهْرِ مِنْ لَخْمِ (٤)

يَا لَابِسَ المَجْدِ الذِي زَانَهُ ... بِالعِلْمِ زَيْنَ البُرْدِ بِالرَّقْمِ (٥)

قَدْ لَقِيَتْ كَفِّي الدَّرَارِيَّ مُذْ ... شَافَهَتْ تِلْكَ الكَفَّ بِاللَّثْمِ (٦)

---

(١) معدن العلم : مركزه أو أصله أو جوهره .

(٢) المعنى : ابعث إلى بشعر معمّى على أسماء الطيور ، فقد بثّ ذهني الشباكَ لاصطياد هذه الطيور المعماة والوقوف على أسرارها .

(٣) غاو : ضال منحرف عن الصواب ، منافر : مفاخر في الحسب .

(٤) الزُّهر : الوضيئة ، لخم : قبيلة يمنية ينتسب إليها المناذرة ملوك الحيرة ، وينتمي إليهم بنو عباد .

(٥) البُرْد : الثوب المخطط ، الرقم : الكتابة أو التزيين ؛ المعنى : لقد زينت مجدك العريق بالعلم الوافر كما تزدان الثياب بزخارف الألوان .

(٦) الدرارى : الكواكب الوضاءة ، شافهه فلاناً : أدنى شفته من شفته ، وشافه البلد : داناها .

قُلِّدَ مِنكَ المُلكُ عَضبَ الظُّبَا ... يَمضِى مَضاءَ القَدَرِ الحَتْمِ (١)

فِرِندُهُ الرَّقْرَاقُ مِن بِشرِهِ ... وَحَدُّهُ مِن نَافِذِ العَزْمِ (٢)

* * *

قَدْ جاءَنِى النَّظْمُ الَّذِى خِلتُهُ ... مُؤَلَّفَ اللُّؤلُؤِ فى النَّظْمِ (٣)

حَلَّيتَنِى مِنهُ بِفَخرٍ بُرَى ... فى عُفْلٍ حالِى رائقِ الوَسْمِ (٤)

مُستَدعِيًا طَيرَ المُعَمَّى لِكَىْ ... يَصِيدَها فى شَرَكِ الفَهْمِ

فَهاكَها: تُهدَى إلى خاطِرٍ ... يَستَخرِجُ الإفصاحَ مِن عُجْمِ (٥)

---

(١) العضب: القطع أو السيف البتار؛ الظُّبَا: جمع ظُبَة وهى حد السيف أو السنان؛ المعنى: لقد صرتَ للمُلك حساماً مرهفَ الحدِّ يمضى فى تأسيسه ودعمه كما يمضى قضاء الله المحتوم.

(٢) فرند السيف وإفرنده: وشيه وحليته صفحته أو جوهره؛ المعنى: أصبحت للمُلك سيفا مرهفا تتألق بالبشر كما تتألق صفحته، وتقطع بحزمك كلَّ مشكلة تعترضك كما يقطع حدُّه البتار.

(٣) المعنى: تلقيتُ شعرك فحسبته لؤلؤا مؤلفا فى عقده النظيم.

(٤) العُفْل: الخالى من العلامات؛ الوسم: النقش؛ المعنى: لقد زينت مكانتى بشعرك وكانت قبل هذا عطلا من التزيين والتمييز.

(٥) المعنى: خذها هدية منى إلى خاطرك النفاذ الذى يستنبط الفصيح من الأعجمىِّ المبهم.

علم الطيور

طيَّر المتعمد إلى الشاعر أبياتاً رمز فيها إلى هذين البيتين :

[شِعْرٌ مَنْ مَحْضُ وُدِّهِ   لَكَ فِي عِلْمِ طَيْرِهِ(١)
فَهْيَ مَهْمَا زَجَرْتَهَا   لَمْ تُخَبِّرْ بِغَيْرِهِ(٢)]

فأجابه ابن زيدون :

أَيُّهَا المَاجِـدُ الَّذِي   خِيرُهُ وَفْقُ خَيْرِهِ(٣)
وَالَّذِي سَيْرُ مُشْتَرِي   أَفْقِنَا دُونَ سَـيْرِهِ(٤)
مَلِكٌ صَحَّ - مِنْ أَدِيـمِ الهُدَى - قَدُّ سَيْرِهِ(٥)

---

(١) المحض : الخالص النقي .

(٢) زجر الطيرَ : رماها ليعرف جهة طيرانها فيستنبط منها مايتوقعه من خير أو شر ، وكان العرب يزجرون الطير ويثيرونها فما تيامنَ منها سمَّوه سانحة وتفاءلوا به ، وما تياسر منها سمَّوه بارحا وتشاءموا منه ؛ المعنى : ستنبئك الطير عما غمض من معاني الشعر ولن تنبئك بسواه .

(٣) الخِير : الكرم أو الشرف أو الهيئة ؛ الخَيْر : المال ؛ المعنى : أيها الملك الشريف النسب لقد اتسق كرمك الجم مع مالك الكثير .

(٤) المعنى : إن مسار نجم المشترى ينخفض عن مساره .

(٥) الأديم : باطن الجلد ؛ القَدّ : قطعة تُقَدُّ من جلد غير مدبوغ ؛ السير : شراك مقدود من الجلد ؛ والمعنى : إن شراك نعله قدت من جسم الهداية .

فَهُوَ – الدَّهْرَ – نَفْعُهُ حَاضِرٌ ، دُونَ ضَيْرِهِ[١]

* * *

يَا لِلَيْلِي سَئِمْتُ مِنْ سَهَرِى فى قُمَيْرِهِ!![٢]

عَزَّ – فى وَهْنِهِ – مَرَا مٌ عَنَا فى سُحَيْرِهِ[٣]

« شِعْرُ مَنْ تَحْضُرُ وُدَّهُ لَكَ فى عِلْمِ طَيْرِهِ

فَهْىَ – مَهْمَا زَجَرْتَهَا – لَمْ تُخَبِّرْ بِغَيْرِهِ »

---

(١) الضيرُ : الضرر ، ومنه قوله تعالى : « لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون »

(٢) المعنى : ما بالى سئمت من السهر فى الليل على ضوء الهلال الذى لم يكتمل ؟

(٣) الوَهْن والوهن : نحو من نصف الليل ، قال الأصمعى : هو حين يدبر الليل؛ عنا : خضع وذلّ ؛ السحر : قبيل الصبح أو طرف كل شىء، وتصغيره سحير ؛ المعنى : لقد عز علىّ نيل مطلبى بعد منتصف الليل وإن كان هينا فى الصباح .

الظافر المظفر (١)

كتب ابن زيدون إلى المعتمد قصيدة مطيّرة هي :

أَيُّهَا الظَّافِرُ لَا زِلْـــتَ مَدَى الدُّنْيَا مُظَفَّرْ
أَنْتَ أَسْنَى ابْنٍ لِأَسْمَى وَالِدٍ فِى الدَّهْرِ فَافْخَرْ (٢)
إِنْ تُرِدْ شَرْحَ مُعَمًّى هُوَ فِى نَظْمِى مُضْمَرْ (٣) —
فَاسْأَلِ الشَّاهِينَ ، وَالصَّقْرَيْنِ ، وَالْعَنْقَاءَ ، تُخْبَرْ (٤)
ثُمَّ رَأْلَ النِّفْـــرِ ، وَالْفَيَّادَ ، وَالنَّسْرَ الْمُعَمَّرْ

---

(١) فى هذه القصيدة يرمز كل طائر إلى حرف من حروف الهجاء كما يلى:

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
ص	شاهين	ا	نسر	ت	بازى	ا	نسر
د	صقر	ل	رأل	ظ	طاوس	ل	رأل
ى	عنقاء	ا	نسر	ف	ديك	ك	عقعق
ل	رَأْلٌ	ل	رأل	ر	قرى	ل	رأل
ن	فيّاد	س	حبارى	ع	هدق	م	سمانى
ا	نسر	م	سمانى	ل	رأل	ه	شقراق
ف	ديك	ه	شقراق	ى	ببج		

وسنعرّف بغير المعروف عندنا الآن من هذه الطيور تعريفا موجزا فى آخر فن الطيرات وقد أوردناه مرتبا على الحروف الأبجديه ليسهل الرجوع إليه .

(٢) أسنى : أرفع أو أضوأ .

(٣) فى ب ، ت ، ز « شرحى معمى » وفى ت « فهو فى نظمى مضمر » .

(٤) ارجع إلى التعريف بهذه الطيور فى آخر فن الطيرات .

ثمّ - بعـــد الدّيك - عُدْ للنّسرِ والرّألِ المنفّرْ

ثمّ عُدْ - للنّسرِ والرّأ لِ - فكلٌّ قد تكرّرْ

والحُبـــارى والسُّمانَى والشِّقرّاقِ المُحـــبَّرْ.[1]

ثمّ سائلْ بعدَها البا زِىَ إنْ حلّ فصَرْصَرْ.[2]

معهُ الطّاوسُ والدِّيـــكُ إذا بالصُّبحِ بشّرْ

تِلْوَهُ القُمْرِىُّ مهمَا ردّدَ السّجْعَ فقرْقرْ.[3]

ثمّ نادِ الهَيْقَ والرّأ لَ ، لعلّ السّرَّ يظهرْ

وتعيَّفْ ما لدَى النّبـــجَيْنِ مِنْ خافٍ سيظهرْ.[4]

ثُم عُدْ للنّسرِ والرّأ لِهمَا - فى الأمرِ أكثرْ

وازْجُرِ العَقْعَقَ - حقّ الزّجرِ - إنّ الطّيرَ تُزْجَرْ

وليـــلِ الرّألَ سُمانَى وشِقِـــرّاقٌ تأخّرْ

* * *

لكَ ذِهْنٌ - بالّذِى فى الشِّعرِ مِنْ خَبءٍ - سيَشعُرْ.[5]

فتأمّلْ ما انبرَى فِكْـــرِى لهُ ، ثُمّ تدبّرْ

واعْتَمِدْ أنّىَ فى « تَمٍّ » كمَنْ خطّ فسطّرْ.[6]

(١) الشقراق : من فصيلة الغربان ؛ المُحَبَّرُ : المزين المرقش بالألوان .

(٢) صرّ وصرْصرَ : صاح بشدة .

(٣) القرقرة والقرقار : صوت الحمام وهدير البعير .

(٤) عاف الطيرَ : زجرها ليستدل منها على ما يتفاءل أو يتشاءم به ، ولم نجد فعل (تعيّف) الذى استعمله الشاعر فيما رجعنا إليه من كتب اللغة .

(٥) الخبء والخبىء : ما خُبىء وغاب .

(٦) التّمّ : التمام ، أو الشىء التام ؛ المعنى : لقد جئت بكلامى على تمامه كن=

وَتَيَقَّنْ: أَنْ مَا يَنْـــفَكُّ أَمْرٌ سَوْفَ يُنْذِرُ

ففك المتمد البيت المعمى وهو :

[صَـــدَقَ لَنَا فَأْلَ السِّمَةُ تَظْفَرُ عَلَىٰ الْـكَلِمَةِ](١)

وكتب معه هذه الأبيات :

[أَيُّهَا الْفَائِقُ أَهْلَ الْـ عَصْرِ فِي مَرْأَى وَمَخْبَرْ(٢)

لَكَ آرَاءٌ ، مَـــتَى تَنْـ هَدْ إِلَى الْأَعْدَاءِ تَظْفَرُ(٣)

وَافَقَ الْعَنْبَرَ مِنْ لَفْـ ظِكَ مِنْ ذِهْنِيَ مِجْمَرٌ(٤)

فَعَرَفْنَا بِذَكِيِّ الْـ عَرْفِ مَا قَدْ كَانَ مُضْمَرْ

وَلَعَرْفُ الْكَلِمِ الْعَذْ بِ مِنَ الْعَنْبَرِ أَعْطَرُ(٥)

— أوضح رأيه بالـكتابة والتعبير ، ولم يبق على السامع أو القارئ ، إلا أن يقدح زناد فكره فيصل إلى الهدف المنشود ؛ وفى نسخة : «فى نم» وعليه يكون المعنى : لقد أودعت كلامى ماينم على المعنى المقصود منه، فكأنى أوضحته كتابة وتسطيرا .

(١) الفأل : مايستبشر به الإنسان من علامات ، وضده الطِّيَرَة ، وفى الحديث : «إنه كان يحب الفأل ويكره الطيرة» ؛ السِّمَة : العلامة المميزة .

(٢) المرأى : المنظر ؛ المخبر : الاختبار ؛ المعنى : إنه فاق أهلَ عصره سواء فى النظر أو التجربة .

(٣) تَنْهد : تنهض أو تقاوم وتصمد .

(٤) المِجْمَرُ : الإناء الذى يوضع فيه الجمر للبخور ؛ المعنى : ألفاظك لمثل العنبر تلقفها ذهنى فأظهر عبيرها كما يُلاقِ المسك والعنبر بالباخر فيفوح عبيرهما الطيب .

(٥) العَرْف : الرائحة طيبة كانت أو خبيثة والمقصود هنا الطيبة ، المعنى : إن الـكلمات العذبة أطيب من العنبر أريجا .

وَمَأَلَنَا صَـــفْوُ أُطْيَا رِكَ بِالسِّرِّ فَأَخْـــبَرْ
وَعَـــدَا النَّشْرُ خَطِيبًا إِذْ غَدَا القِرْطَاسُ مِنْبَرْ[1]
وَبَدَا مَا كَانَ يَخْفَى وَفَشَا مَا كَانَ يُسْتَرْ[2]
نَظْمُ دُرٍّ يَسْتَبِي القَلْـ بَ مَتَى يُنْظَمْ وَيُنْثَرْ[3]
دَلَّنِي أَنَّكَ فِي الخُلْـ صَانِ مَعْدُودٌ بِخِنْصَرْ[4]
دُمْتَ فِي عَيْشٍ هَـــنِيءٍ صَفْوُهُ غَيْرُ مُكَدَّرْ]

فأجابه ابن زيدون :

بِمَكَانِي مِنْكَ أَفْخَرْ وَاعْتِقَادِي لَكَ أَذْخَرْ
وَكَفَتْنِي نِعَمٌ أَوْ لَيْتَنِيهَا لَيْسَ تُكْفَرْ[5]
أَحْمَدُ الجَدَّ الَّذِي أَسْـ هَمَ لِي فِيكَ فَأَكْثَرْ[6]
جَاءَنِي الشِّعْرُ الَّذِي لَوْ بُثَّ فِي الأُفْقِ لَعَطَّرْ
مِثْلَمَا فُضَّ خِتَـــامٌ عَنْ أَحَمِّ اللَّوْنِ أَذْفَرْ[7]

---

(١) القرطاس : الصحيفة .

(٢) فشا : ذاع وانتشر .

(٣) يستبي القلب : يأسره .

(٤) الخـلصان : الصديق أو الأصدقاء ، تقول هو خـالـصتي وخُلْـصاني وخِـلْصي أي خدْني ، وهو خلصاني وهم خلصاني يستوى فيه الواحد والجماعة وهم خلصاني وخلصاني .

(٥) وَكَفَ البَيْتُ : قطر ، ووكف الدمع والماء : سال ؛ واوكيف : القطر ؛ المنى : قمرني منك نعم وفيرة لاسبيل إلى جحدها .

(٦) الجَد : الحظ ؛ أسهم : أجرى القرعة .

(٧) أحم اللون : أسود ؛ الذفر : كل ريح ذكية طيبة كانت أو خبيثة ؛

أَوْ كَمَا رِيحَ مَعَ الْأَسْـ ـحَارِ رَوْضٌ بَاتَ يُمْطَرْ[(١)]

لَمْ أَخَلْ مِنْ قَبْلِهِ أَنَّـ ـبَيَانَ اللَّفْظِ يَسْحَرْ

سَرْدُ نَظْمٍ كَاللَّآلِي التُّـ ـومِ ، لَكِنْ ذَاكَ أَخْطَرْ[(٢)]

هُوَ فِي مَفْرِقِ حَالِي تَاجُ تَشْرِيفٍ مُشَهَّرْ[(٣)]

* * *

أَيُّهَا الْأَزْهَرُ وَجْهًا حِينَ يَبْدُو الْمَوْتُ أَحْمَرْ[(٤)] —

وَالَّذِي يَنْهَلُّ مَهْمَا أَمْسَكَ الْمُزْنُ الْكَنَهْوَرْ[(٥)]

أَفْرَحَ الْمُتَضِدَ الْمَنْـ ـصُورَ مَا مِنْكَ تَخَيَّرْ

مَلِكٌ لَوْلَا تَحَفِّيـ ـهِ بِرَبْعِ الْمَجْدِ أَقْفَرْ[(٦)]

قَمَرٌ ، إِنْ جَابَ غَيْمَ النَّقْـ ـعِ فَالْهَالَةُ مِغْفَرْ[(٧)]

= ومسك أذفر: طيب الريح عاطره ؛ المعنى : شعرك معطر كالمسك الذى فُضَّ عنه ختامه فذاع عبيره الفوَّاح .

(١) المعنى : أو مثلما تطيَّبَ روضٌ عاطر جاده المطر فى الصباح .

(٢) اللآلىء التُّوم : المزدوجة أو المتشابهة .

(٣) المفرِق والمفْرَق: وسط الرأس وهو الموضع الذى يُفْرَقُ فيه الشعر؛ مشهَّر : مشهور .

(٤) الأزهر : النيِّر، أو أبيض الوجه مشرقه .

(٥) انهلَّ المطر انهلالا : سال بشدة؛ المزن : السحاب ؛ الكنَهْور : المتراكم مثل الجبال .

(٦) تحفَّى به واحتفى به : بالغ فى إكرامه ؛ الربع : المنزل ؛ المعنى : لولا عناية الملك بمنزل المجد لأصبح بالياً مقفراً لاحياة فيه .

(٧) جاب البلادَ: قطعها سيرا ؛ النقع : الغبار ، الهالة : الدارة المحيطة بالقمر؛=

ـرُ طَرِيرُ الحَدِّ أَسْمَرْ[1]	قَسْوَرٌ ، إِنْ صَالَ فَالْمِغْفَـ
أَنَّهُ لاَ يَتَكَـبَّرْ	أَكْبَرُ الأَمْلاَكِ ، إِلاَّ
كَ لَكَ «الظَّافِرُ» فَاظْفَرْ[2]	قَدْ رَأَى ـ أَبْقَى حُلَى المُلْـ
ـدِ فَأَمَّا مِنْكَ ابْنُهُ البَرْ	أَنْتَ إِنْ تَمْثُلْ لَدَيْهِ
زَانَهُ أَكْرَمُ مَخْبَرْ	سَرَّهُ أَجْمَلُ مَرْأَى
زَمَنٌ فِي ثَغْرِ مُؤْشَرْ[3]	بِكُمَا ضَاحَكَنِي مِنْ
وَلَبِسْتُ العَيْشَ أَخْضَرْ[4]	فَهَصَرْتُ الدَّهْرَ لَدْنَا
مَوْرِدٌ ، أَوْ لَذَّ مَصْدَرْ[5]	ثَاوِيًا حَيْثُ حَلاَ لِي
نَائِيًا مَا كُنْتُ أَحْذَرْ	دَانِيًا مَا كُنْتُ أَبْغِي

= المِغْفَر : زرد يلبس على الرأس عند القتال؛ المعنى : الأمير مثل البدر، إذا صال في غبار الحرب فإن الضوء الشمّ من وجهه يقوم مقام الخوذة له في ساحة القتال .

(١) القسور والقسورة : الأسد ؛ طرير : مرهف مسنون ؛ المعنى : يصول الأمير كالأسد الهصور وعليه رمح مرهف الحد .

(٢) المعنى : لقَّبَك والدك « الظافر بحول الله » فكان هذا بشيراً لك بالنصر والتأييد .

(٣) مؤشر : محزوز مرقّق ، المعنى سرني بكما من دهري ثغر بسام محزّز الأسنان ، « وتحزيز الأسنان من علامات الجمال » .

(٤) هصرَ الغصنَ : أخذ برأسه فأماله إليه ؛ اللدن : اللّيِن الطريّ ؛ المعنى : طاب لي الدهر بفضلكما ، فجذبتُ غصنه النضير ، ولبست فيه غلائل النعيم .

(٥) ثاو : مقيم ؛ المورد : مكان الورود ؛ والمصدر : مكان الصدور .

فَاقْنَيَا الصُّنْعَ الْمُوَفَّى مَعَهُ النَّصْرُ الْمُؤَزَّرْ[1]
وَابْقَيَا مَا جَنَّ لَيْـلٌ أَوْ بَدَا صُبْحٌ فَأَسْفَرْ

نصح مشكور

كتب الشاعر هذه القصيدة الطيرة إلى المتمد :

يٰأَيُّهَا الظَّافِرُ نِلْتَ الْمُنَى وَلَا يَنَلْنَا فِيكَ مَحْذُورُ[2]
إِنَّ اِخْلَالَ الزُّهْرَ قَدْ ضَمَّهَا ثَوْبٌ عَلَيْكَ - الدَّهْرَ - مَزْرُورُ[3]
لَا زَالَ لِلْمَجْدِ الَّذِي شِدْتَهُ رَبْعٌ - بِتَعْمِيرِكَ - مَعْمُورُ[4]
حَتَّى يُوَفَّى فِيكَ مَا يَبْتَغِي مُعْتَضِـدٌ بِاللّٰهِ مَنْصُورُ[5]

* * *

(١) إقنيا : إكسبا ؛ الصُّنع : المعروف والإحسان ؛ المؤزَّر : القوىّ الشديد ؛ المعنى : اكسبا الإحسان إلى الناس وافياً تاماً لتنالا عنه أحسن الجزاء ، واظفرا معه بالنصر العظيم .

(٢) فى نفح الطيب « ولا أتانا فيك محذور » .

(٣) المعنى إن السجايا الحميدة المشرقة قد تجمعت فيك فضمها ثوبك فهو مَزْرُور عليها مدى الزمان .

(٤) المعنى : أدعو الله أن يظل بناء المجد الشامخ الذى أقمته معمورا بك .

(٥) المعنى : لعل مجدك يظل مأهولا بك حتى يظفر والدك المتضد المنصور بما أمّله فيك .

وَافَاكَ نَظْمٌ ، لِيَ فِي طَيِّهِ مَعْنًى مُعَمَّى اللَّفْظِ مَسْتُورْ
مَرَامُهُ يَصْعُبُ ، مَا لَمْ يَبُحْ بِالسِّرِّ ـ قُمْرِيٌّ وَعُصْفُورْ[1]
وَبُلْبُلٌ ، ثُمَّ يَكُرُّ اللَّذَا تَقَدَّمَا ، فَاللَّفْظُ مَكْرُورْ[2]
ثُمَّ تَرَى الْبُلْبُلَ قَدْ حَثَّهُ نَسْرٌ ، بِهِ الشَّفْتَيْنِ مَنْسُورْ[3]
ثُمَّ الْغُرَابُ الْجَوْنُ ، يَتْلُوهُ قُمْرِيٌّ وَدُرَّاجٌ وَزَرْزُورْ[4]
ثُمَّ يَلِي الدُّرَّاجَ ـ مِنْ بَعْدِ ـ غِرْ نِيقٌ وَمُكَّاءٌ وَشُرْشُورْ
وَبَاشِقٌ ، ثُمَّ إِذَا حَلَّقَ الشَّاهِينُ فَالْعُصْفُورُ مَذْعُورْ
ثُمَّ سَلِ الْمُكَّاءَ يَصْدُقْكَ وَالْـ ـعُصْفُورَ ، وَالْقُمْرِيُّ مَزْجُورْ[5]
وَإِنْ جَرَى الدُّرَّاجُ ـ فِي إِثْرِهِ الزَّرْزُورُ ـ فَالْمَطْوِيُّ مَنْشُورْ
وَ(ثُمَّ) فَاعْلَمْ أَنَّ مَوْضُوعَهَا حَرْفٌ لِفَصْلِ اللَّفْظِ مَقْدُورْ
وَفِي الَّذِي عَمَّسْتُ نُصْحٌ ـ لِمَنْ حُدَّ مِنَ الْأَعْدَاءِ ـ مَشْكُورْ[6]

---

(١) راجع التعريف بالطيور فى آخر فن الطيرات .

(٢) بعض بنى ربيعة يحذفون نون (اللذان واللتان) قال الأخطل :

أبنى كليب إن عمّى اللّذا قتلا الملوك وفكّكا الأغلالا

وفى نسخة ت « فى اللفظ مكرور » .

(٣) منسور : مقنوص أو مأكول .

(٤) الجون : الأبيض أو الأسود من الأضداد .

(٥) زجر الطائر : أثاره ليستدل بطيرانه على ما يثير التفاؤل أو التشاؤم .

(٦) عمّس عليه الأمرَ وعمّسه : خلّطه ولبّسه ولم يبينه ، فهو معمّس ومعموس ؛ حُدّ : منع من الخير وحرم منه فهو محدود ، وضده مجدود بمعنى محظوظ

والبيت المطير فى القصيدة هو :

أَنْتَ إِنْ تَغْزُ ظَافِرُ فَلْيُطِعْ مَنْ يُنَافِرْ[1]

ففك المعتمد المعمّى ، وكتب إلى الشاعر هذه القصيدة :

[يَا خَيْرَ مَنْ يَلْحَظُهُ نَاظِرِى شَهَادَةٌ مَا شَابَهَا زُورُ[2]

وَمَنْ إِذَا مَا لَيْلُ خَطْبٍ دَجَا لَاحَ بِهِ ـ مِنْ رَأْيِهِ ـ نُورُ[3]

رَأْيُكَ ـ إِمَّا شِمْتَهُ ـ صَارِمٌ عَضْبٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ مَشْهُورُ[4]

جَاءَتْنِيَ الطَّيْرُ الَّتِي سِرُّهَا نَظْمٌ بِهِ قَلْبِيَ مَسْرُورُ

شِعْرٌ هُوَ السِّحْرُ ، فَلَا تُنْكِرُوا أَنِّي بِهِ ـ مَا عِشْتُ ـ مَسْحُورُ

---

(١) حروف البيت ترمز إلى الطيور الموضحة أمامها فى الجدول الآتى :

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
أ	قرى	غ	نسر	ف	دراج	ن	عصفور
ن	عصفور	ز	شفنين	ل	غرنيق	ى	مكاء
ت	بلبل	ظ	غراب	ى	مكاء	ن	عصفور
إ	قمرى		ری	ط	شرشور	ا	قمرى
ن	عصفور	ف	دراج	ع	باشق	ف	دراج
ت	بلبل	ر	زرزور	م	شاهين	ر	زرزور

(٢) شابها : مازجها وخالطها ، وفى نفح الطيب « ماشانها زور » .

(٣) الخطب : الشأن والأمر عظم أو صغر ، والمراد هنا الخطير من الأمور ؛

دجا : أظلم وفى نفح الطيب « ومن إذا خطبٌ دجا ليله .. » .

(٤) إمّا شمتَه : إنْ تطلعت إليه ؛ صارم عضب : سيف قاطع .

اللَّفْظ وَالْقِرْطَاسُ ، إِنْ شُبِّهَا قِيلَ : هُمَا مِسْكٌ وَكَافُورُ[(١)]

وَإِنَّهُ لَمَّا اغْتَدَى خَاطِرِى مُسَائِلاً جَاوَبَ عُصْفُورُ

هَوَى بِجَيْشِ الطَّيْرِ مِنْ فِكْرَتِى صَقْرٌ ، فَوَلَّى وَهْوَ مَقْهُورُ[(٢)]

فَلاَحَ لِى بَيْتٌ ، فُؤَادِى لَهُ دَأْباً عَلَى وُدِّكَ مَقْصُورُ[(٣)]

حَظُّكَ مِنْ شُكْرِىَ يَا سَيِّدِى ـ بِمَا بَدَا لِى مِنْكَ ـ مَوْفُورُ[(٤)]

قَصَّرْتُ فِى نَظْمِىَ ، فَاعْذُرْ ، فَمَنْ ضَاهَاكَ فِى التَّقْصِيرِ مَعْذُورُ[(٥)]

فَأَنْتَ إِنْ تَنْظِمْ وَتَنْثُرْ فَقَدْ أَعْـوَزَ مَنْظُومٌ وَمَنْثُورُ

لاَ يَعْدُكُمْ رَوْضٌ مِنَ الْحَظِّ فِى الْإِكْرَامِ وَالتَّرْفِيعِ مَمْطُورُ[(٦)]

---

(١) المعنى : الألفاظ المكتوبة شبيهة فى سوادها بالمسك ، والقرطاس فى بيانه شبيه بالكافور .

(٢) فى نفح الطيب « هوى لحسن الطير .. »

(٣) « « « «ولاح لى بيتٌ ..» ، دأبا : دائما أى جادًّا مجتهدا ؛ مقصور على الشىء : محبوس عليه ؛ المعنى : ظهر لى معنى بيت جعل قلبى مقصوراً على محبتك دائما عليها .

(٤) المعنى : نصيبك من شكرى جزيل موفور بسبب ما أغدقته علىَّ من إحسانك ، وفى نفح الطيب « حظ بمالى منك موفور » .

(٥) المعنى : لقد قصرتُ فى إجابتك فاعذرنى ، فإن من جاراك فى شعرك ونثرك معذور فى التقصير .

(٦) المعنى : أدعو الله ألا يتجاوزكم الحظُّ فى الإكرام والرفعة ، وأن يظلَّكم منهما روضٌ ممطور بالأمطار .

فأجابه ابن زيدون بهذه القصيدة :

حَظِّيَ – رِنْ نُسُكِكَ – مَوْفُورُ ... وَذَنْبُ دَهْرِى بِكَ مَغْفُورُ

وَجَانِبِى – إِنْ زَمَنِى رَامَهُ – ... حِجْرٌ لَدَى ظِلِّكَ مَحْجُورُ[1]

* * *

يا ابْنَ الَّذِى سِرْبُ الْهُدَى آمِنٌ ... مُذْ أَنْبَرَى يَحْمِيهِ – مَخْفُورُ[2]

وَآمِرَ الدَّهْرِ الَّذِى لَمْ يَزَلْ ... يُصْغِى إِلَيْهِ مِنْهُ مَأْمُورُ[3]

أَلَيْسَ مِنْكَ الْمُلْكُ أَسْنَى الْحُلَى ... بِظَافِرٍ يَنْمِيهِ مَنْصُـورُ[4]

* * *

يا مُرْوِىَ الْمَأْثُورِ ، يا مَنْ لَهُ ... مَجْدٌ – مَعَ الأَيَّامِ – مَأْثُورُ[5]

---

(١) فى نفح الطيب «إن رامه أزمة» ؛ الحِجْرُ المحجور : الحرام الممنوع ، قال تعالى: «يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حِجْراً محجورا» كما كانوا يقولون فى الدنيا لمن يخافونه فى الشهر الحرام ؛ والمعنى : إنك حيت جوارى وجعلته حراما محرما على الطامعين .

(٢) آثرنا رواية نفح الطيب، وفى الأصول «يحميه موفور» ؛خفر اللاجىءَ : أجاره فاللاجىء مخفور ، السرب : النفس ، وهو آمِنٌ فى سربه أى فى نفسه ، والسرب أيضاً القطيع من القطا والظباء والوحش والخيل والحُمُر والنساء .

(٣) آثرنا رواية نفح الطيب ، وفى الأصول « أجيت أمرى ياالذى لم يزل » ؛ المعنى : إن أباك يأمر الدهرَ فيلبى الدهرُ نداءه ، ولا يزال مصغيا لتلقى أوامره .

(٤) أسنى : أرفع أو أضوأ ؛ الظافرُ بحول الله من ألقاب المتمد ، والمنصور بفضل الله من ألقاب والد المتضد ؛ ينميه : يرفعه إلى نسبه ؛ المعنى : ازدان المُلكُ بك أيها الظافر الذى نجله المنصور ؛ وفى نفح الطيب « مَنْماه منصور»

(٥) فى نفح الطيب «قام ، وفى المأثور مأثور» ، السيف المأثور : الذى فى =

عَبْدُكَ إِنْ أَكْثَرَ مِنْ شُكْرِهِ ... فَهْوَ بِمَا تُوَلِيهِ مَشْكُورُ[1]

إِنْ تَعْفُ عَنْ تَقْصِيرِهِ مُنْعِماً ... فَالسَّرْوُ أَنْ يَقْبَلَ مَيْسُورُ[2]

إِنَّ حَلاَلَ السِّحْرِ - إِنْ صُغْتَهُ - ... فِي صُحُفِ الأَنْفُسِ مَسْطُورُ

نَظْمُ زَهَانِي مِنْهُ إِذْ جَاءَنِي ... عِلْقُ عَظِيمِ القَدْرِ مَذْخُورُ[3]

هَوَى إِلَيْهِ مَارِبَا خَاطِرِي ... كَمَا تَلَقَّى الوَصْلَ مَهْجُورُ

لَا غَرْوَ أَنْ أُفْتَنَ إِذْ لَاحَظَتْ ... فِكْرِيَ مِنْهُ أَعْيُنٌ حُورُ[4]

تَشِفُّ عَنْ مَعْنَاهُ أَلْفَاظُهُ ... كَمَا وَشَى بِالرَّاحِ بَلُّورُ[5]

= متنه أثر ، أو متنه حديد وشفرته حديد ذكر ، ويزعمون أنه من صناعة الجن ؛ مجدماً نور : مروىّ ؛ المعنى : إنك تروى سيفك بدماء الأعداء وتصنع الأمجاد الخالدة على مرّ الأيام .

(١) فى نفح الطيب «بما توليه مكثور» ، أولاه معروفا : أسدى إليه جميلا.

(٢) فى نفح الطيب «فالميسر أن يقبل ممسور» ؛ السرو : المروءة والسخاء: المعنى : قابل تقصيره بعفوك فمن المروءة أن يقبل الميسور بوجهه وعفوه على العسر المحتاج .

(٣) زهانى : أشعرنى بالزهو والعُجب ، علق : نفيس .

(٤) لا غرو : لا عجب ؛ حُور : جمع حوراء ، والحور هو شدة بياض العين المحدق بإنسانها الشديد السواد ، وقال أبو عمرو : الحورُ أن تسود العينُ كلها مثل أعين الظباء والبقر ، وليس فى بنى آدم حور ، وإنما قيل للنساء حُور تشبيها لهنّ بالظباء والبقر .

(٥) فى نفح الطيب « تنمّ عن معناه » ؛ المعنى : جئتَ بشعر سهل رقيق تـشف ألفاظه عن معانيه فى يسر وسلاسة كما يكشف البلور النقىّ عن لون الخمر .

جَهِلْتُ إِذْ عَارَضْتُهُ، غَيْرَ أَنْ لاَ بُدَّ أَنْ يَنْفُثَ مَصْدُورْ[1]

* * *

يَا آلَ «عَبَّادٍ»: مُوَالاَتُكُمْ زَاكٍ — مِنَ الْأَعْمَالِ — مَبْرُورْ[2]

إِنَّ الَّذِي يَرْجُو مُوَازَاتَكُمْ — مِنَ الْمَنَاوِينَ — لَمَغْرُورْ[3]

مَكَانُهُمْ مِنْكُمْ كَمَا انْحَطَّ — دَنْ مَنْزِلَةِ الْمَرْفُوعِ — مَجْرُورْ[4]

يَدْنُو إِلَيْكُمْ مَا نَأَى عَنْكُمْ إِنَّ الْعَلِيَّ أُنْسُهُ نُورْ[5]

لاَ زِلْتُمْ تَشْأَوْنَهُمْ مَا انْجَلَى — عَنْ فَالِقِ الْإِصْبَاحِ — دَيْجُورْ[6]

---

(١) المصدور: المريض بصَدْرِه؛ المعنى: كان جهلا منى أن أعارض شعرك لأنه فوق الحاكاة، ولكنَّه أحدث فى نفسى تأثيرا عميقا دفعنى إلى معارضته، ولابد للمتأثر أن ينفس عن نفسه كما يلفظ المريض بصدره مايملق بداخله من أقذاء.

(٢) زاكٍ: نامٍ أو طاهر؛ عمل مَبرور: مقبول يثيب الله به الطائعين.

(٣) موازاتكم: محاذاتكم؛ المناوين: المناوئين أى المعادين؛ المعنى: إن من يطمع فى أن يساويكم ويرتفع إلى منزلتكم من الأعداء لجاهل مغرور.

(٤) الاسم المرفوع ركن من أركان الجملة تهدم بانعدامه، أما المجرور فهو فضلة يمكن الاستغناء عنه؛ فالجملة «محمد مسافر فى الصباح» لايمكن الاستغناء عن ركنيها «محمد» و«مسافر» ولكن يمكن الاستغناء عن الجار والمجرور. والمعنى: تنحط منزلة أعدائكم عن منزلتكم كما تهبط منزلة المجرور عن المرفوع.

(٥) المعنى: يتودد إليكم ويتقرب منكم كلُّ بعيد عنكم أُنساً بِكُمْ كما يأنس النور بالأعمى كن الرفيعة.

(٦) تشأونهم: تسبقونهم؛ فلق الإصباح: ضوء الصبح أو انشقاق الظلام عن الصباح، قال تمالى «فالق الإصباح».

وَلاَ يَزَلْ يَجْرِى – بِإِبرائِكُمْ أَعْمَارَهُمْ – لِلّهِ مَقْدُورٌ[(1)]

سرب الطيور

كتب الشاعر هذه القصيدة الطيرة إلى المعتمد :

يَا مُرْضِيًا كُلَّ مِخْذَمْ وَمُرْوِيًا كُلَّ لَهْذَمْ[(2)]

وَيَا سَمِيَّ المُصَلَّى عَلَى اسْمِهِ وَالمُسَلَّمْ[(3)]

وَيَا ابْنَ أَعْظَمَ مَنْ هَا بَهُ المُلُوكُ وَأَكْرَمْ

وَافَاكَ – لِلطَّيْرِ – سِرْبٌ لَدَيْهِ سِرٌّ مُكَتَّمْ[(4)]

إِنْ تَسْأَلِ الطَّيْرَ عَنْهَا مُسْتَفْهِمًا مِنْهُ تَعْلَمْ

وَالنَّسْرُ وَالرَّهْوُ يُنْبِيكَ وَالظَّلِيمُ المُصَلَّمْ[(5)]

---

(١) فى نفح الطيب « ولا يَزَلْ يُجْرِى بما شئتمو أعمارَكم .. » ؛ المعنى : لا يزال قضاءُ الله جاريا نافذا بأن ترثوا أعمار أعدائكم .

(٢) المِخْذَم : السيف السريع القاطع ؛ قال عنترة :

فطعنته بالرمح ، ثم علوته بمهند صافى الحديدة مخذم

اللَّهْذَم : السنان الحادّ النافذ ؛ المعنى : يامن أرضيت السيوف بقطع الرقاب ، وأرويت الأسنة من دماء الأعداء .

(٣) المعنى : إن اسمك – محمدا – كاسم النبى الذى نصلى عليه ونسلّم فى كل حين .

(٤) السرب : القطيع من القطا أو الظباء أو الوحش أو الخيل أو النساء .

(٥) الظليم المُصَلَّم : ذكر النعام المقطوع الأذنين ؛ راجع التعريف بالطيور فى آخر فن الطيرات .

ثُمَّ الْهَدِيلُ تَلِيـــه حَمَـــامَةٌ تَتَرَنَّمُ
إِلَى عُقَابَيْنِ يَدْعُو هُمَا الظَّلِيمُ فَيَفْهَمْ
ثُمَّ الْعُقَابُ مَعَ الصَّقْـــرِ، فَهُوَ بِالسَّرْحِ أَعْلَمْ[1]
وَالرَّأْلُ وَالزَّهْوُ وَالْقَبْـــجُ ، فَالثَّلَاثَةُ حُوَّمْ
ثُمَّ الْعُقَابُ فَسَـــلْهُ وَالصَّقْرُ لَا يَتَلَمَّمْ[2]
إِلَى حُبَـــارَى وَبَازٍ وَحَالِكِ اللَّوْنِ أَعْصَمْ[3]
ثُمَّ السَّمَامُ مَعَ الرَّأْ لِ كَيْ يَبُوحَ الْمُجَمْجِمْ[4]
إِلَى عُقَابٍ وَزَهْـــوٍ يُفْصِحْ بِمَاشِئْتَ أَسْحَمْ[5]
وَمَا الظَّلِـــيمُ بِآلٍ فَلَوْ زَجَرْتَ لَتَرْجَمْ[6]

---

(١) فى ز « فهو بالسرج » ؛ السرح : المال السائم ، أو شجر عظام طوال واحدته سرحة .

(٢) تلمّم فى الأمر : تلكأ فيه وتأنّى ، وقال الخليل : نكل عنه أو تبصّره .

(٣) حالك اللون : شديد السواد ؛ الأعصم : الغراب الأسود الذى فى إحدى رجليه بياض أو فيهما معا أو فى جناحه ريشة بيضاء .

(٤) المجمجم : الذى لايبين ، أو الذى يكتم شيئا فى صدره لايصرح به .

(٥) الأسحم : الأسود : قال عنترة :

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الأسحم

والحلوبة : الناقة فى ضرعها لبن .

(٦) آل : مقصر ، وهو لا يألوك نصحا أى لايقصر فى نصيحتك ؛ زجر الطير : أثارها ليستبين من علاماتها مايدعوه إلى التفاؤل أو التشاؤم ؛ ترجم : فسّر أو نقل من لسان آخر .

ثُمَّ الْعُقَابُ سَيُوحِي لِلصَّقْرِ : لاَ تَتَكَلَّمْ

وَعَقْعَقٌ وَهَدِيلٌ وَالْقَبْجُ فِي ذَاكَ مُلْهَمْ.(1)

وَثُمَّ فَضْلٌ كَمَا قَدْ عَهِدْتَ فِيمَا تَقَدَّمْ

يَا مُلْبِسَ الدَّهْرِ وَشْيًا مِنَ الْجَمَالِ مُنَمْنَمْ.(2)

إِسْلَمْ مُسَنَّى الْأَمَانِي مُؤَزَّرَ النَّصْرِ مُطْعَمْ.(3)

والبيت المطير هو :

أَهْلِكْ عَدُوَّكَ وَاسْلَمِ وَاظْفَرْ بِسُولِكَ وَانْعَمْ.(4)

---

(١) فى نسخة ا «ملثم» وفى ب ، ت ، ز «ملتم» ؛ خف مِلْثَم : يصك الحجارة ؛ مِلْثَم : اسم من لثم الشيء إذا ضربه أو طعنه ، وقد تكون محرفة عن مُلْثِم بمعنى مصلح ؛ ولعل الأقرب إلى الصواب ما أثبتناه .

(٢) الوشى : الثوب المنقوش ويكون من كل لون ؛ منمنم : مزخرف .

(٣) مسنّى : مُيَسَّر من سنّى الأمرَ وأسناه إذا سهله ؛ نصر مؤزر : بالغ شديد ؛ رجل مُطْعَم : مُيَسَّرُ الرزق .

(٤) السُّوْل : المطلب ومنه قوله تعالى « قال قد أوتيت سؤلك ياموسى » .؛

وهذه هى الطيور التى يرمز إليها البيت وبإزاء كل طائر الحرف الذى يدل عليه :

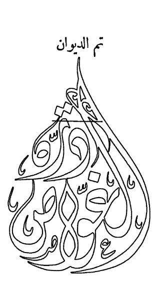
الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
الهمزة	طير	ك	ظليم	ا	صقر	ل	رهو
ه	نسر	و	عقاب	ظ	حبارى	ك	ظليم
ل	رهو	ا	صقر	ف	باز	و	عقاب
ك	ظليم	س	رأل	ر	أعصم؛غراب	ا	صقر
ع	هديل	ل	رهو	ب	سمام	ن	عقعق
د	حمامة	م	قبج	س	رأل	ع	هديل
و	عقاب	و	عقاب	و	عقاب	م	قبج

ففكّه المعتمد وأعجله سفر فكتب إلى الشاعر :

[الْعَيْنُ بَعْدَكَ تَقْذَى بِكُلِّ شَىْءٍ تَرَاهُ
فَلْيَجْلُ شَخْصَكَ عَنْهَا مَا بِالْمَغِيبِ جَنَاهُ]

ثم دارت بينهما مطارحة طويلة أثبتناها فى باب الإخوانيات ص ٢١٤ لأن مكانها المناسب هناك .

تم الديوان



تعريف بالطيور

رأينا من المناسب بعد إيراد القصائد الطيرات أن نعرّف ببعض الطيور الواردة فيها ، لأن أكثرها غير معروف إلا للمتخصصين ، وقد آثرنا أن يكون التعريف موجزاً ، واعتمدنا فيه على كتاب الحيوان للجاحظ وحياة الحيوان للدميرى والطيور المصرية تأليف عبد الله النجوى وآخرين وكتاب :
Birds of Egypt, By, Micols & Meinertzhagen.

وكنا نود أن نوضح التعريف بالصور لولا أن المجال لايسمح بمثل هذا التحقيق فى ديوان شعرى ؛ وقد رتبناها أبجديا ليسهل الرجوع إليها عند دراسة القصائد .

الأعصم : Pyrrhocorax من فصيلة الغربان ويمتاز بأن فى أحد جناحيه ريشة بيضاء ، أو أن إحدى رجليه بيضاء ، أو هو الأبيض الجناحين أو الأبيض الرجلين ؛ ويُضرب المثل بندرته فيقال أعز من الغراب الأعصم ، قال ﷺ : « مثل المرأة الصالحة فى النساء كمثل الغراب الأعصم فى مائة غراب » . وفى حديث آخر « عائشة فى النساء كالغراب الأعصم فى الغربان » .

البازى : Accipiter Gentilis نوع من الصقور مدرب على الصيد خفيف الجناح سريع الطيران ؛ ويضرب به المثل فى الشرف قال الشاعر :

وكم طير يفوح ، ولا كسك وكم طير يطير ، ولا كبازى

الباشق : Accipiter Nisus يستوطن أوربا الشمالية ويهاجر منها فى الشتاء إلى الجنوب ، وهو طائر جارح من أنواع الصقور يصيد أنغر أنواع الطيور وهو صغير النظر طويل الساقين قصير الفخذين ، وإذا قوىَ عليه صيدُه فإنه لايتركه إلا أن يتلف أحدهما ، ويستوطن جميع أنحاء أوربا وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ويطير فى الشتاء إلى مصر والسودان والحبشة وعدن

الحُبارى : Chlamydotis يستوطن آسيا ويطير في الشتاء إلى الجنوب ، ويزعم العرب أنّ سلاحها سَلْحُها (رَوْثها) قال الشاعر :

وهم تركوك أسلح من حبارى رأتْ صقرا ؛ وأشرد من نعام

الدرّاج : من فصيلة القطا Pteroclidae يستوطن صحارى إفريقيا وآسيا وما يشبهها من مناطق أوربا ، وجسمه يبدو نحيفا لطول جناحيه وذنبه ؛ ومنقاره قصير مقوس قليلا في أعلاه ؛ وهو طائر مفرد يستبشر به العرب ويسمونه أبا ضبّة ويزعمون أنه يقول في تغريده « بالشكر تدوم النعم » .

الرأل : The Chic of Ostrich ولد النعام جمعه رئال ، قال المتنبي في رثاء أم سيف الدولة :

مشى الأمراء حوليها حفاةً كأنّ المروَ من زفّ الرئال

والمرو : حجارة براقة تقدح منها النار ، والزف : الريش .

الرهو : Anthropoides من نوع الكركيّ يستوطن أوربا ويطير في الشتاء جماعات إلى الجنوب ، ولكل جماعة منه قائد يقدمها ، ويقف على إحدى رجليه ويعلق الأخرى ؛ ويضرب به المثل في الحرص والحذر .

الزرزور : Sturnidae من فصيلة تشتمل على أكثر من خمسين جنسا تشبه العصافير ؛ وهي طيور متوسطة الحجم ، ذات مناقير مستقيمة أو مقوسة قليلا ، وأجنحتها طويلة ، وأذنابها قصيرة ، قوية الطيران نشطة ، لا تسكن أبدا ؛ تتغذى بالحشرات والديدان وبعض الثمار ، وفي الحديث « أرواح المؤمنين في أجواف طيور خضر كالزرازير يتعارفون ويرزقون من ثمر الجنة » .

السُّمام : Apus مفرده سمامة وجمعه سمام وسمائم وتتميز بجسم صغير مستطيل قوي البناء ورقبة قصيرة ورأس عريضة ومنقار قصير وريش قصير قوي ، ويوجد

فى أماكن عديدة ، ولكن أحب الأماكن إليه الجبال أو الدن ليعنى ببيضه فى الصخور أو شقوق الجدران ، وتمضى شطراً كبيراً من حياته فى طيران مستمر ، وهو دائب الحركة من الصباح إلى المساء .

السمانى Coturnix يستوطن الدنيا القديمة وأستراليا ؛ ويتميز بجسم منضغط ملىء ، ومنقار صغير ضعيف ، وجناح طويل نسبياً ، وذنب قصير ؛ وأحب الأماكن إليه الحقول وبخاصة الحنطة ؛ وهو سريع المشى سريع الطيران ، وإذا ارتفعت الشمس سكن بين أعواد الحنطة ؛ وينشط قبيل الغروب ؛ ويتغذى على الحبوب والحشرات ؛ ويسمى أيضاً السلوى .

الشاهين Falco من أنواع الصقور الجارحة ، يدرب على الصيد ويستوطن معظم أنحاء العالم ، ويتميز بجسم ملىء ورأس كبير ورقبة طويلة وجناحين طويلين ومنقار قصير قوى معقوف ومخالب حادة ، وهو شديد الضراوة على الصيد سريع الانقضاض من غير تحويم ؛ قال عبد الله بن المبارك :

صيّرت دينك شاهيناً تصيد به وليس يفلح أصحاب الشواهين

الشرشور : Anas يستوطن جزر الكنارى وجنوب أسبانيا وجزيرة قبرص ، وكل البيئات الملائمة فى المناطق شبه الصحراوية من مراكش حتى برقة وحوض بحر قزوين وإيران والعراق ومصر ، يشبه البط ويهاجر إلى الجنوب فى الشتاء ، ويسميه العرب أبا براقش لتعدد ألوانه ، ويقولون : إنه يتلون فى كل ساعة بلون قال الشاعر :

كأبى براقش كل يوم لونه يتحول

الشفنين : Streptopelia وتسميه العامة « اليمام » يستوطن معظم الأقطار ويكثر بمصر ، وهو يشبه الحمام ولكنه أصغر منه وأقصر جناحاً وأطول نسبياً ؛ وتغريده يشبه صوت الرباب فيه شجو وتحزن ، وإذا مات الذكر أو الأنثى حزن عليه قرينه حتى الممات .

الشقراق : من فصيلة الغربان Corvus يستوطن معظم الأقطار وبخاصة المناطق الاستوائية ، وهو آبد وقلما يبرح موطنه طول العام ، ويمتاز بجسم منضغط ومنقار مقوس أسود قوى ، ويسمونه الأخيل ، وفى طبعه شراسة وشره ، والعرب تتشاءم به ، وفى أمثالهم : هو أشأم من الأخيل .

الصرد Lanius يستوطن معظم أنحاء العالم وبخاصة أوربا ، ويهاجر فى الشتاء إلى المناطق الحارة ؛ ويقول العرب : إنه فوق العصفور وله منقار قوى مقوس يصيد به العصافير ، وهو شرس شديد النفور ، يقلد صفير كل طائر صغير فإذا انخدع به وهبط إليه نقره نقرة من ساعته وأكله ؛ ومأواه الأشجار ورءوس القلاع وأعالى الحصون .

الظليم Male Ostrich ذكر النعام ويسمى الهيق أو الهيقم ويضرب به المثل فى حدة حاسة الشم قال الراجز :

أشمّ من هيق وأهدى من جَمَلْ

العقاب Aquila يستوطن معظم القارات ويعتبر أقوى الطيور بأساً وأشدها فتكا ، وتتخذه كثير من الدول شعاراً لها ، ويسكن الجبال العالية والبرارى الشاسعة والغابات الواسعة ؛ وينقض على فريسته منشباً مخالبه فى جسمها فإذا قاومت ضربها بإحدى رجليه على رأسها وأنشب مخالبة فى عينيها ليعميها فلا تستطيع المقاومة ، ويخطف الحملان الصغيرة ، وأحياناً الأطفال ، وقد يخطف الثعالب والكلاب ، ويدرب على الصيد ؛ ويضربون به المثل فى حدة البصر ، ويقولون : إنه سيد الطيور والنسر عريفها .

العقعق Magpie من فصيلة الغربان Corvus فى حجم الحمامة وجناحاه أكبر من جناحيها ، والعرب تتشاءم به وبصياحه ، وتضرب به المثل فى الخبث والحمق والسرقة ، ويزعمون أنه يختطف كل ما يراه فكم سرق من عقد ثمين قال الشاعر :

إذا بارك الله فى طائر   فلا بارك الله فى العقعق
قصير الذنابى طويل الجناح   متى ما يجدْ غفلة يسرق

العنقاء Griffin طائر خرافى يسميه العرب عنقاء مُغْرِب؛ وتزعم الأساطير العربية: أنه يخطف الفيل فى مخالبه ويفترسه ، وأنه يبيض بيضاً كالجبال ، ويروون عنه أساطير غريبة ، ويضرب كثيرون به المثل فيما لا يمكن أن يقع فيقولون: المستحيلات ثلاثة : الغول والعنقاء والخل الوفى ، ويقول الشاعر :

الجود والغول والعنقاء ثالثة أسماء أشياء لم توجد ولم تكن

وتزعم الأساطير الإنكليزية أن العنقاء له رأس نسر وجناحاه ، وله جسم أسد .

الغُرْنَيْق Crane من فصيلة الكركى Grus يمتاز برقبة طويلة وجسم قوى مستطيل ومنقار مستقيم ورجلين طويلتين قويتين وجناحين طويلين عريضين؛ ويعيش فى الحقول والمستنقعات والبحيرات وينشط من الصباح حتى المساء ، وإذا هاجرت أسرابه فى الشتاء واصلت الليل بالنهار فى الطيران ، ويقول العرب : إنه حينما ينام يقف على رجل واحدة ويدخل رأسه تحت جناحه .

الفياد : ذكر البوم Male Owle من جنس Bubo ويسميه العرب الصدى ، يستوطن معظم أجزاء العالم .ويمتاز بجسم نحيف على الرغم من مظهره الضخم لأن ريشه غزير ورأسه كبير وجناحيه طويلان عريضان ومنقاره مقوس وعينيه واسعتان مُعَدّتان لحياة الليل؛ والعرب تتشاءم منه .

القبج Ammoperdix وهو الحَجَل أو هو الذكر منه ، يتميز بمنقار صغير أصفر وذنب مستدير الحافة ، ومخالبه قصيرة مقوسة قليلا ؛ ويسميه العرب دجاج البر وينطلق فى طيرانه كالقذيفة ، والذكر منه شديد الغيرة على أنثاه .

القُمْرِىّ Streptopelia من فصيلة اليمام يشبه الحمام ولكنه أصغر منه حجما ، وجناحاه أقصر وذنبه أطول نسبيا ؛ وهو حسن الصوت كثير الترجيع ؛ قال عبد الرحمن بن أبى بكر — لما طلق زوجه عاتكة — نادماً على الطلاق :

أعاتك لا أنساك ما ذرّ شارق وما ناح قمرىّ الحمام المطوق

السُّمَكَّاء Alacmon يستوطن بلاد العرب وشمال أفريقيا وغرب آسيا وجنوب أوربا ؛ ويعيش أزواجاً ، وهو سريع العدو خفيف الطيران ؛ وقلما يفارق الذكر أنثاه ؛ وهو لايخاف الناس ، ويعيش فى الأماكن المزدحمة بهم مالم يطاردوه ؛ ويشبه القبرة ، وهو كثير الصفير فى الرياض فإذا غرد فى غير روضة كان هذا دليلا على الجدب وهلاك الماشية كما يقول العرب ؛ قال الشاعر :

إذا غردّ المكاءُ فى غير روضة فويلٌ لأهل الشاء والحُمُرات

الهديل : ذكر الحمام Male Dove من فصيلة Columba يستوطن العالم بأجمعه ؛ وهو أنواع عديدة ، والذكر منه يقتصر على أنثى واحدة ، وهو أليف ووديع وبعضه برى ؛ ويزعم العرب أن الهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده طير جارح فكل حمامة تبكى عليه إلى يوم القيامة ، قال نصيب :

فقلت : أتبكى ذات طوق تذكرت هديلا ، وقد أودى وما كان تبع؟

أى مات الهديل قبل وجود تبع « كان هنا فمل تام » .

الهيق : الظليم « ذكر النعام » وقد سبق الحديث عنه ص ٦٣٠ .

الورشان : Turtur ذكر القمارى من فصيلة اليمام حسن التغريد يقال إنه إذا ماتت أنثاه ظل حزيناً عليها حتى يموت ؛ ويسمّى أيضاً « ساق حر » قال الكميت :

تغريد ساق على ساق يجاوبها من الهواتف ذات الطوق والعطل

عنى بالأول الورشان وبالثانى الساق .

الرَّسَائِل

ضاعت معظم آثار ابن زيدون النثريه فلم تبق منها إلا بضع رسائل وثلاث مقطوعات ، ومعظمها غير كامل ؛ مع أن صاحب الذخيرة يصفه بأنه كان على « حظ من النثر غريب المبانى شعرى الألفاظ والمعانى » ، ورسائله السياسية عن المعتضد ضاعت كلها ، مع أنه قضى فى ظلاله زهاء عشرين عاما كانت رسائله فيها تنفذ « إلى شرق الأندلس ، فيقال : تأتى من إشبيلية كتب هى بالنظم الخطير أشبه منها بالمنثور » كما ذكر ابن بسام .



الرسالة الهزلية

كتبها ابن زيدون على لسان ولّادة إلى ابن عبدوس منافسه في الحب والسياسة (١) .

أَمَّا بَعْدُ (٢) أيُّها المُصَابُ بِعَقْلِهِ ، المُوَرَّطُ بِجَهْلِهِ (٣) ، البَيِّنُ سَقَطُهُ (٤)

---

(١) ذكر ابن نباتة الباعث على إنشاء هذه الرسالة وهو أنّ ابن عبدوس أرسل إلى ولّادة « امرأةً من جهته تستميلها إليه ، وتذكر لها محاسنه ومناقبه وترغّبها فى التفرد بمواصلته ، فبلغ ابنَ زيدونَ ذلك ؛ فكتب هذه الرسالة البديعة جواباً له عن لسانها ، تتضمن هذه الغرائب من سبٍّ أبى عامر والتهكم به والهجاء له ... وأرسلها إليه عقب رجوع المرأة ، فبلغت منه كل مَبْلَغ ، واشتهر ذكرها فى الآفاق ، وأمسك ابن عبدوس عن التعرض لولادة إلى أن انتقل ابن زيدون إلى إشبيلية وتوفى بها ، تغمده الله برحمته وغفر لنا ولهم بمنه وكرمه ، هذا معنى ماذكره ابن حيان وابن بسام وغيرهما من المؤرخين » ؛ وراجع قصيدته إلى ابن عبدوس ص ٥٨٢ — ٥٨٩ من الديوان ؛ وقد اعتمدنا فى تحقيق هذه الرسالة على سرح العيون ونهاية الأرب ج ٧ ص ٢٧١ — ٢٩٠ ؛ والمجموعة الأدبية مخطوطة رقم ٧ أدب بدار الكتب .

(٢) هذه العبارة ترد كثيراً فى مستهل الخطب والرسائل ، وتقديرها « مهما يكن بعد » ؛ قال سحبان :

وقد علمت قيسُ بن عيلانَ أننى إذا قلتُ : « أما بعد » أنّى خطيبها

(٣) الورطة : الهلاك ، وورّطه : أوقعه فى الورطة فتورّط فيها ، وأصل الورطة أرض مطمئنة لا طريق فيها ، وربما هلك الواقع فيها .

(٤) البيِّن : الظاهر ، السَقَط : الردىء ، ومنه سقط المتاع أى رديئه ، وسقط القول : خطؤه .

الْفَاحِشِ غَلَطُهُ[(١)] ، الْعَاثِرِ فِي ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ[(٢)] ، الْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ ، السَّاقِطِ سُقُوطَ الذُّبَابِ عَلَى الشَّرَابِ ، الْمُتَهَافِتِ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ إِلَى الشِّهَابِ[(٣)] ؛ فَإِنَّ الْعُجْبَ أَكْذَبُ[(٤)] وَمَعْرِفَةَ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصْوَبُ . وَإِنَّكَ رَاسَلْتَنِي مُسْتَهْدِيًا ـ مِنْ صِلَتِي ـ مَا صَفِرَتْ مِنْهُ أَيْدِي أَمْثَالِكَ[(٥)] ، مُتَصَدِّيًا ـ مِنْ خُلَّتِي ـ لِمَا قُرِعَتْ دُونَهُ أُنُوفُ أَشْكَالِكَ[(٦)] ، مُرْسِلًا خَلِيلَتَكَ مُرْتَادَةً ، مُسْتَعْمِلًا عَشِيقَتَكَ قَوَّادَةً[(٧)] ، كَاذِبًا نَفْسَكَ أَنَّكَ سَتَنْزِلُ

---

(١) الفاحش : ماعظم قبحه من الأقوال والأفعال ، ومنه الفاحشة : الفعلة القبيحة .

(٢) العثور : السقوط ، الاغترار : الغفلة ؛ ذيل الاغترار : إستعارة لطيفة كأنه كان يسحب ذيله تِيها وعجبا فتعثّر به فسقط .

(٣) آثرنا رواية نهاية الأرب ، وفى سرح العيون والمجموعة الأدبية « في الشهاب » ؛ التهافت : الترامى مع خفة وطيش ؛ الشهاب : الشعلة من النار .

(٤) فإن العجب أكذب ، الفاء واقعة فى جواب « أما بعد » فى أول الرسالة ؛ العجب : الكبر .

(٥) صلتى : مودتى أو قربى ؛ صفِرتْ : خلت .

(٦) تصدّى له : تعرض له ؛ الخُلَّة : المودة أو الصداقة ؛ قُرِعتْ : ضُرِبت ؛ وفى الأمثال « هو الفحل لا يُقْدَعُ أو لا يقرع أنفُه » لأن العرب كانت تضرب أنف البعير لتصرفه عن لقاح الناقة إذا كان غير كريم ، ثم استعمل المثل فى الكريم الذى لا تردّ خِطبته ، ولما بلغ أبا سفيانَ زواجُ النبى صلى الله عليه وسلم ابنتَه أم حبيبة قال : « ذاك الفحلُ لا يُقْدَعُ أنفُه » . وفى نهاية الأرب « قرعت فيه » ولعل الأصح « قُدِعتْ دونه أنوف أمثالك » لمشاكلة كلام أبى سفيان .

(٧) فى بعض نسخ سرح العيون « مرسلا حليلتك » ؛ الخليلة : الزوجة ؛ =

عَنْهَا إِلَيَّ ، وَتَخَلُّفُ - بَعْدَهَا - عَلَيَّ[1] :

وَلَسْتَ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ[2]

* * *

وَلاَ شَكَّ أَنَّهَا قَلَتْكَ إِذْ لَمْ تَضِنَّ بِكَ ، وَمَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَغَرْ عَلَيْكَ[3] ، فَإِنَّهَا أَعْذَرَتْ فِي السِّفَارَةِ لَكَ[4] ، وَمَا قَصَّرَتْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ ، زَاعِمَةً أَنَّ الْمُرُوءَةَ لَفْظٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ[5] ، وَالإِنْسَانِيَّةَ اسْمٌ أَنْتَ جِسْمُهُ وَهَيُولاَهُ[6] ،

= الخليلة : الصاحبة ؛ المرتاد : طالب الكلأ ، وسُمّي به الطالب مطلقا ؛ القوادة : التي تجمع بين الرجل والمرأة في الحرام ، كأنها تقود كُلاًّ منهما للآخر .

(1) المعنى : إنك ستنصرف عن هذه الخليلة إليّ وتعتاض عنها بي .

(2) البيت للمتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ويذكر هجومه على الخارجيّ أولها :

إلامَ طماعية العــاذل ؟ ولا رأيَ في الحب للعاقل

ورواية البيت نقلا عن الديوان « وليس بأول ذي همة ... » ومعناه : ليس الخارجيّ بأول صاحب عزيمة دفعته إلى مالم يناله .

(3) قلتْك : أبغضتْك ، تضنّ : تبخل : ملّتك : سئمتك ، وفي المجموعة الأدبية « وسلتك إذ لم تمر عليك » .

(4) أعذر : بلغ من الاجتهاد ماصار به معذورا ؛ السفارة : المشيُ في الصُّلح

(5) المروءة : الإنسانية ، والمراد كل الصفات الإنسانية ؛ والمعنى : زعمت في حديثها أن المروءة تجسمتْ فيك .

(6) الهيولى : الصورة المعنوية التي يُصَبُّ الجسمُ على مثالها ؛ وقد نادى إفلاطون بنظرية المُثُل Ideality وخلاصتها أن الأجسام المادية تقليد للعالم المثالي المعنوي الأزلي ؛ والمعنى : إن الإنسانية تجسمت فيك بمعناها ومبناها .

قاطعةً أنكَ انفردْتَ بالجمالِ ، وَاستأثرْتَ بالكمالِ ، وَاستعلَيْتَ في مَراتبِ الجلالِ ، وَاستوَلَيْتَ على محاسنِ الخِلالِ ، حتّى خُيِّلْتَ أنَّ يوسُفَ — عليهِ السّلامُ — حاسَنَكَ فغضضْتَ منهُ (١) ، وَأنَّ امرأةَ العزيزِ رأَتْكَ فسَلَتْ عنهُ (٢) وَأنَّ قارونَ أصابَ بعضَ ما كَنَزْتَ (٣) والنّطِفَ عثَرَ على فضلِ ما رَكَزْتَ (٤) ، وكِسْرَى حَمَلَ غاشيتَكَ (٥) ، وقَيْصرَ رَعَى ماشيتَكَ (٦) ،

(١) حاسنك : باراك في الحسن ، غضضت منه : خفضت ، وقصت من قدره ؛ ويوسف عليه السلام ضُرِبَ به المثلُ في الجمال ، وقد قالت فيه عِلْية نساء مصر قديما « ماهذا بشراً إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم » .

(٢) قصة امرأة العزيز وتدلهها في حب يوسف عليه السلام — حتى نسيت منزلتها ومكانة زوجها — مشهورة « راجع سورة يوسف في القرآن الكريم » .

(٣) قارون : من قوم موسى عليه السلام ، وكان يضرب به المثل في الثروة الطائلة والغنى الفاحش ، فلما اغترّ بما ملك خسف الله به وبداره الأرض « راجع قصته في سورة القصص الآيات ٧٦ — ٨٣ » .

(٤) كان النـطِفُ بن جبير مقيما بالبادية مع بني تميم ، فأغار مع آخرين على قافلة أرسلها عاهل اليمن إلى كسرى حافلة بالثياب اليمنية والذهب والمسك والجوهر ، وقتلوا منْ بها ؛ واستولى النطف على كثير منها من جملته خرجان مملوءان ذهباً محلى بالجواهر النفيسة ؛ الفضل : بقية الشيء ، الركز والركاز : دفين مال الجاهلية ؛ وفي المجموعة الأدبية « عثر على ما كنزت » .

(٥) في المجموعة الأدبية « حامل غاشيتك » ؛ كسرى : لقب لكل ملك من ملوك الفرس ؛ وإذا أُطلِقَ قصِدَ به كسرى أنوشروان ، وقد حكم فارس في أواخر القرن السادس ، الغاشية : غطاء السرج أو الظلة .

(٦) في المجموعة الأدبية « راعي ماشيتك » قيصر : لقب لكل ملك من ملوك الروم ؛ وإذا أطلق قصد به أغسطس .

وَالْإِسْكَنْدَرَ قَتَلَ دَارًا فِي طَاعَتِكَ[1] ، وَأَرْدَشِيرَ جَاهَدَ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ لِخُرُوجِهِمْ عَنْ جَمَاعَتِكَ[2] ، وَالضَّحَّاكَ اسْتَدْعَى مُسَالَمَتَكَ[3] ، وَجَذِيمَةَ الْأَبْرَشَ تَمَنَّى مُنَادَمَتَكَ[4] ، وَشِيرِينَ قَدْ نَافَسَتْ بُورَانَ فِيكَ[5] ، وَبِلْقِيس

---

(١) حارب الاسكندرُ المقدونى الأكبرُ ملكُ الإغريق دارا ملكَ الفرس وقتله واحتل مملكته وضمها إليه .

(٢) آثرنا رواية نهاية الأرب ، وفى سرح العيون «بخروجهم من طاعتك» ؛ أرد شير بن بابك : حارب أمراء بلاد فارس بعد مقتل دارا وارتداد الإغريق عنهم حتى ضمَّهم إلى طاعته ، ووحَّد مملكة فارس تحت عرشه وأسَّس لهاصولة ودولة من جديد .

(٣) اختلف الرواة فى نسب الضحاك ؛ نزعم بعضهم أنه من الفراعنة وقال بعضهم من الفرس وقال آخرون من العرب ؛ ولكنهم جميعاً يروون أنه قتل جمشيد الطاغية واستلب مُلكه وطغى وتجبر ويزعمون أنه أول من غَنَّى له ، وضرب الدراهم والدنانير ولبس التاج ووضع المشور ... الخ .

(٤) جذيمة بن مالك بن فهم بن عامر التنوخى ملك الحيرة : يقال إنه أول من قاد العرب وملك قضاعة وكان أبرص فعُدل عن هذا الإسم فقيل الأبرش أو الوضاح ؛ قيل إنه كان ينادم الفرقدين أنفة منه وكبرا أن ينادم بشرا ، وقيل كان له نديمان قتلهما فى سكره ، ثم ندم عليهما وبنى عليهما الغريين ونادم بعدهما الفرقدين ، قال متمم بن نويره فى رثاء أخيه :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل : لن يتفرقا

(٥) شيرين : زوجة أرويز بن هرمز ملك الفرس ، كانت يتيمة فى حجر رجل من الشعب فأحبها أرويز فتزوجها ورفعها إلى العرش فوفت له حتى قيل إنها سمَّت نَفسَها بعد وفاته ؛ بوران بنت أرويز : وليت الملك بعد أبيها وكانت من أجل النساء .

فَأَرَتْ الزَّبَّاءُ عَلَيْكَ[1] وَأَنَّ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ إِنَّمَا رَدِفَ لَكَ[2] ، وَعُرْوَةَ بْنَ جَعْفَرٍ إِنَّمَا رَحَلَ إِلَيْكَ[3] ، وَكُلَيْبَ بْنَ رَبِيعَةَ إِنَّمَا حَمَى المَرْعَى بِعِزِّ بَيْتِكَ[4] ، وَجَسَّاساً إِنَّمَا قَتَلَهُ بِأَنَفَتِكَ[5] ، وَمُهَلْهِلاً إِنَّمَا طَلَبَ ثَأْرَهُ

---

(١) بلقيس بنت الحارث ملكة سبأ ، كانت مشركة هى وقومها ، فدلّ الهدهد عليها سليمان عليه السلام ، فتوعدها وقومها بالحرب إن لم تؤمن برسالته ، فوفدت عليه وآمنت به وتزوجته « راجع قصتها فى سورة النمل الآيات ٢٠ — ٤٤ » الزباء : بارعة أو ميسونة بنت عمرو بن الظرب ملكت الجزيرة بعد أبيها وأخذت بثأره من جذيمة الأرش ملك الحيرة ؛ فى المجموعة الأدبية « وبلقيس غارت ... وشيرين نافست ... » .

(٢) آثرنا رواية المجموعة الأدبية وفى سرح العيون ونهاية الأرب « أردف لك » ؛ مالك بن نويرة بن شداد : من فرسان العرب وشجعانهم وذوى الردافة فى الجاهلية ، وأرداف الملوك هم الذين يخلفونهم فى القيام بأمر المملكة ، كالوزراء فى الإسلام .

(٣) عروة بن عتبة بن جعفر : من بنى عامر بن صعصعة يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك ، وكان من ذوى العقل والشهامة ، وهو من أرداف الملوك ، وكان قد تعهد للنعمان بن المنذر بحماية قافلته من أهل نجد وتهامه فاغتاله البراض وقامت بسببه حرب الفجار .

(٤) كليب بن ربيعة : زعيم قبيلتى بكر وتغلب ، يقال فيه « أعز من حمى كليب » ، وكان يحمى مواقع السحاب فلا يرعاها أحد غيره ، وإذا مر بمرعى قذف فيه جروا يعوى فلا يرعاه أحد .

(٥) جساس بن مرة بن ذهل : صهر كليب قتل كليبا لأنه قتل ناقة لخالة جساس اندست بين إبله .

بِهِمَّتِكَ(١) ، وَالسَّمَوْءَلَ إِنَّمَا وَفَى عَنْ عَهْدِكَ(٢) ، وَالْأَحْنَفَ إِنَّمَا احْتَبَى فِي بُرْدِكَ(٣) ، وَحَاتِمًا إِنَّمَا جَادَ بِوَفْرِكَ ، وَلَقِيَ الْأَضْيَافَ بِبِشْرِكَ(٤) ،

(١) مهلهل : هو عدى بن ربيعة التغلبى أخو كليب ، ظل يطلب ثأر أخيه كليب سنوات عديدة،وأثار حروبا طاحنة بين قبيلتى بكر وتغلب فى طلب الثأر؛ وسمى مهلهلا لأنه أول من هلهل نسج الشعر أى أرقّه .

(٢) السموءل بن عادياء من يهود يثرب : يضرب به المثل فى الوفاء ، وسبب ذلك أنّ امرأ القيس — ١ خرج فى طلب ثأر أبيه حُجر وذهب إلى ملك الروم ليستعين به ، أودع عند السموءل مائة درع وسلاحا أمانة عنده حتى يرجع ،لحفظها بحصنه الأبلق فى تيماء ، فجاء الحارث بن ظالم ، وطالب السموءل بها وهدده ، فأبى أن يسلمها له ، وتحصن بحصنه، فأخذ الحارث ابنا للسموءل وساومه على تسليم ابنه له مقابل السلاح ، فأبى السموءل أن يغدر بعهده ، فقتل الحارث ابنه أمامه وطرحه وانصرف ، فقال السموءل من أبيات :

وفيتُ بأدرع الكنديّ ، إنى ... إذا ماخان أقـوامٌ وفيت

(٣) فى سرح العيـون « فى بردتك » ؛ وفى المجموعة الأدبية « احتبى فى بردك »؛ الأحنف : هو صخر بن قيس ابن معاوية السعدى يضرب به المثل فى الحلم والسيادة ، وله حكم مشهورة منها : «أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك ؛ أنفق فى حق ولا تكونن خازنا لغيرك ؛ لا راحة لحسود ولا مروءة لكذوب ؛ وقال له رجل لأشتمنك شتما يدخل معك فى قبرك ، فقال فى قبرك والله يدخل لاقبرى» ؛ وتوفى بالكوفة سنة ٦٩ هـ ؛ احتبى فى بردك : اشتمل فى كسائك .

(٤) حاتم بن عبدالله الطائى : ممن ضرب به المثل فى السماحة والسخاء ، يقال: أجواد العرب فى الجاهلية ثلاثة : حاتم الطائى ، وهرم بن سنان ؛ وكعب بن مامة وحاتم أشهرهم ؛ وكان كما قالت ابنته للنبى ﷺ : إن أبى كان يفك العانى ويشبع الجائع ويكسو العارى ، ومن شعره :

أماوىّ إن المالَ غاد ورائحٌ ... ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ
أماوىّ ماليغنى الثراءُ عن الفتى ... إذا حشرجتْ يوماوضاق بها الصدر

وَزَيْدَ بْنَ مُهَلْهِلٍ إِنَّمَا رَكِبَ بِفَخِذَيْكَ[١] ، وَالسُّلَيْكَ بْنَ السُّلَكَةِ إِنَّمَا عَدَا عَلَى رِجْلَيْكَ[٢] ، وَعَامِرَ بْنَ مَالِكٍ إِنَّمَا لَاعَبَ الأَسِنَّةَ بِيَدَيْكَ[٣] ، وَقَيْسَ ابْنَ زُهَيْرٍ إِنَّمَا اسْتَعَانَ بِدَهَائِكَ[٤] ، وَإِيَاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ إِنَّمَا اسْتَضَاءَ بِمِصْبَاحِ

---

(١) فى المجموعة الأدبية « وزيد الخيل » : زيد بن مهلهل الطائى من فرسان العرب وشعرائها المعدودين ، أدرك الإسلام وأسلم وكان يسمى زيد الخيل لكثرة خيله ، فسماه النبى صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، يقال : إنه كان طويل القامة عظيم الخلقة يركب الفرس ورجلاه تخطان فى الأرض ؛ وقال له النبى (ص) : « إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله : الأناة والحلم » .

(٢) السليك بن السلكة أحد فتاك العرب وصعاليكهم فى الجاهلية ، وكانت الخيل لا تلحقه فى العَدْو .

(٣) عامر بن مالك من بنى صعصعة يُسَمَّى ملاعب الأسنة لقول أوس بن حجر فيه :

يلاعب أطرافَ الأسِنَّة عامر فراح له حظ الكتائب أجمع

وقيل لقول حسان بن نمير — وقدرآه بين فرسان أطافوا به فقتلهم — : « ما هذا إلا ملاعب الأسنة » .

(٤) قيس بن زهير بن جذيمة العبسى شيخ بنى عبس، ثارت الحروب بينه وبين حذيفة بن بدر شيخ بنى ذبيان بسبب تراهنهما على فرسيهما داحس والغبراء فى قصة مشهورة ؛ وكان قيس معروفاً بالدهاء وبعد النظر ؛ ولما استطار الشرّ بسبب هذه الحروب نصح قومه بصلح بنى عمهم ، ومن كلامه يصف نفسه : « إنى أمرؤ غيور فخور أَنِف ؛ ولستُ أخر حتى أُبْتَلَى ، ولا أغار حتى أرى ، ولا آنف حتى أظلم » ، ومن شعره :

إذا أنت أقررت الظُّلامة لامرىء ورماك بأخرى شَعْبُها متفاقم

فلا بد للأعداء إلا خشونة فما لك منهم إن تمكن راحم

(٤٢)

ذَكَائِكَ (١) ، وَسَحْبَانَ إِنَّمَا تَكَلَّمَ بِلِسَانِكَ (٢) ، وَعَمْرَو بْنَ الأَهْتَمِ إِنَّمَا سَحَرَ بِبَيَانِكَ (٣) ، وَأَنَّ الصُّلْحَ - بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ - تَمَّ

---

(١) إياس بن معاوية بن قرة المزنى قاضى البصرة زمن عمر بن عبدالعزيز كان مشهوراً بحدة الذكاء، وسداد الإجابة ، وله نوادر فى القضاء وفى سرعة البديهة مشهورة ، وله أخبار كثيرة مجموعة فى كتاب يسمى « زكن إياس » ؛ قيل له يوماً : إن فيك عيوباً : دمامة الشكل ، وإعجابك بما تقول ، وعجلة بالحكم ؛ فقال: أما الدمامة فليس أمرها إلىّ ، وأما الإعجاب بالقول أفليس يُعجبكم ما أقول؟ قالوا : بلى ، قال : فأنا أحق بالإعجاب بقولى ، وأما العجلة بالحكم فكم هذه؟ — ومدّ أصابع يده — فقالوا : خمس، فقال: أعجلتم بالجواب، فقالوا: كيف نعدّ ما نعلم؟ فقال : وأنا كيف أؤخر حكم ما أعلمه ؟ توفى سنة ١٢١ هـ

(٢) سحبان بن زفر بن إياس الوائلى خطيب مصقع يضرب به المثل فى البيان واللسن ؛ قال الأصمعى : كان إذا خطب يسيل عرقا ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ ؛ استدعاه معاوية يوما على غير أهبة وكلّفه الخطابة فى وفد خراسان ، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ماتنحنح ولا سعل ولا توقف، ولا ابتدأ فى معنى فخرج منه وقد بقى عليه منه شىء ؛ فما زالت تلك حاله حتى أشار إليه معاوية بيده ؛ فأشار إليه سحبان : ألاّ تقطع علىّ كلامى ، فقال معاوية : الصلاة !! قال: هى أمامك ونحن فى صلاة وتحميد ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب !! فقال سحبان : والعجم والجن والإنس !! توفى سنة ٥٤ هـ

(٣) عمرو بن سنان الأهتم التميمى وفد على النبى ﷺ هو والزبرقان بن بدر فأسلما ، فسأل النبى عمرو بن سنان عن الزبرقان بحضوره ، فقال: مطاع فى ناديه ، شديد العارضة فى قومه ، مانع لما وراء ظهره ؛ فقال الزبرقان : يا رسول الله إنه ليعلم منى أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى ؛ فقال عمرو : أما والله لئن علمتُ ما قد علمتُ، فإنه زَمِنُ المروءة أحق الأب لئيم الخال ضيق العطن؛ فرأى تغيّر =

بِرِ سالَتِكَ[1] ، وَالْحَمالاتِ ـ بَيْنَ عَبْسٍ وَذُبْيَانَ ـ أُسْنِدَتْ إِلَى كَفَالَتِكَ[2] ،
وَأَنْ أَحْتِيَالَ هَرِمٍ ـ لِعَلْقَمَةَ وَعَامِرٍ حَتَّى رَضِيَا ـ كَانَ ذَاكَ عَنْ إِشَارَتِكَ[3] .

=وجه النبي ﷺ لمّا اختلف قولُه ، فقال: يارسول الله لاتغضب !! لمّا رضيتُ قلت أحسنَ ما علمتُ ؛ ولما غضبتُ قلتُ أقبح ما علمت ، فوالله ما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية ؛ فقال ﷺ : « إن من البيان لسحرا » توفي عمرو سنة ٥٧ هـ

(١) في المجموعة الأدبية « انما تم » ؛ لما قتل جساس بن مرة كليباً ثارت الحربُ بين قبيلتيهما بكر وتغلب وهما أبناء عمومة وأصهار ، واستمرت الحرب أمداً طويلا حتى برّحتْ بالقبيلتين ، إلى أن تدخّل بينهما الحارث بن عمرو بن معاوية ملك كندة جدّ امرىء القيس ، وضم القبيلتين إلى حكمه فأصلح شأنهم وكان الحارث ملكا جليلا رفيع الهمة ويلقب بآكل المرار .

(٢) الحَمالات ؛ جمع حَمالة وهي الدية ؛ لما ثارت الحرب بين عبس وذبيان وأهلكت الكثيرين تدخل الحارث بن عوف وهرم بن سنان بينهما واجتهدا في إصلاح ذات البين وحمل الديات ، وفي هذا يقول زهير بن أبي سلمى :

تداركتما عبسا وذبيان ، بعدما | تفانَوا ، ودقوا بينهم عطر مَنْشَمِ

وكانت اليد الطولى للحارث بن عوف ؛ وعاش الحارث إلى أن أدرك النبي ﷺ فأسلم ، ومن شعره :

كم من يدٍ ـ لا أؤدي حق نعمتها | عندي لمختبط طارٍ ، ومن مِنَنِ

إذْ جاء يسعَى إلى رحلي لأسعفه | أليس قد ظنّ بي خيرا ، ولم يرني ؟

(٣) تفاخر عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة في الجاهلية ، واستطار بينهما اللجاج فتنافرا — أي : تحاكما - إلى هرم بن قطبة بن سيار — لا ابن سنان كما ذكر ابن نباتة — على مائة من الأبل ، فأرجأهما عاما ، ثم وفدا عليه=

وَجَوابُهُ لِعُمَرَ — وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ أَيِّهِما كَانَ يُنفِّرُ؟ — وَقَعَ عَنْ إِرَادَتِكَ[١]
وَأَنَّ الحَجَّاجَ تَقَلَّدَ وِلَايَةَ العِرَاقِ بِجَدِّكَ[٢] ، وَقُتَيْبَةَ فَتْحَ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ

ومع كل منهما أشراف قومه، فأقاموا عنده أياما، فأرسل سراً إلى عامر، فقال له :
ياعامر ما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ؛ أتفاخر رجلا تفخر
أنت ولا قومك إلا بآبائه ؟ فما الذي أنت به خير منه ؟ فقال عامر : ناشدتك الله
والرحم ألا تفضل عليّ علقمة ، فإن كنت ولابد فاعلاً فسوّ بيننا ، قال سأرى؛
ثم استدعى علقمة ، وقال له مثلما قال لعامر؛ فناشده أن يسوى بينهما إذا لم يكن
بد ، فلما مثلا بين يديه هما وقومهما قال لهما : يابنى جعفر قد تحاكما عندى ، وإنكما
كركبتي البعير تقعان معاً على الأرض ، وكلا كما سيد كريم . وبهذا حجز الشر بين
قومهما ؛ وانصرفوا راضين ؛

فى المجموعة الأدبية « كان من أشارتك » ؛ وفى نهاية الأرب: « لعامر وعلقمة
حتى رضيا كان عن رأيك »

(١) فى نهاية الأرب « وقع بمشورتك » وفى المجموعة الأدبية « عن أيهما
ينفر كان عن رأيك » ؛ لما وفد هرم بن قطبة على عمر رضى الله عنه سأله عن
منافرة عامر وعلقمة ، وقال يا أبا عمرو أيهما كنت تنفر ؟ — أى تغلب — ومَن
كان عندك الأفضل منهما ؟ فقال هرم : لو قلتُ الآن فيهما كلمة لعادتْ — الحرب
بين الحيين — جذعة ؛ فأعجب عمر بهذه الإجابة وقال : بحقّ حكّمتك العرب .

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي من قادة العرب وخطبائها المدودين؛ ولى العراق
لعبد الملك بن مروان فأخمد الفتن وشتت شمل الخوارج ، ثم قضى على ثورة
ابن الزبير بالحجاز ؛ وكان جباراً قاسياً لايرحم، سفاكا للدماء ، وفصيحا مفوّهاً ؛
قال مالك بن دينار : « والله لربما رأيتُ الحجاج يتكلم على المنبر ، ويذكر حسن
صنعه إلى العراق وسوء صنعهم له ، حتى يخيل إلى أنه مظلوم » الجَدّ : الحظّ ،
والجِدّ : الاجتهاد ، وكلاهما صالح للمعنى هنا .

بِسَنْدِكَ(١) ، وَالْمُهَلَّبَ أَوْهَنَ شَوْكَةَ الْأَزَارِقَةِ بِأَيْدِكَ ، وَفَرَّقَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ بِكَيْدِكَ(٢) ، وَأَنَّ هِرْمِسَ أَعْطَى بِلِينُوسَ مَا أَخَذَ مِنْكَ(٣) ، وَأَفْلَاطُون

---

(١) قتيبة بن مسلم الباهلي كان والياً على خراسان من قبل عبد الملك بن مروان؛ وهو الذى فتح بلاد ما وراء النهر « أى ما هو شرق نهر جيحون بخراسان » وهو قائد شجاع أبلى فى حروبه أحسن البلاء ، وكان دمث الأخلاق لبيبا ؛ وأقام بالمشرق والياً عليه ثلاث عشرة سنة عظيم الرتبة مرهوب الجانب ، وتوفى سنة ٩٦ هـ

(٢) فى سرح العيون « أوهى ... بيدك » ؛ الأيد: القوة؛ المهلب بن أبى صفرة الأزدى أمير كبير طائر الذكر شجاع ؛ أمره مصعب بن الزبير على البصرة ، ثم ولاه عبد الله بن الزبير خراسان ، ثم أقره عبد الملك بن مروان ليتمم ما بدأه من حرب الأزارقة فشتت شملهم ؛ ومن كلامه : « عجبت لمن يشترى العبيد بماله ، ولا يشترى الأحرار بأفضاله » وكان يقال فيه: « ساد الأحنف بحلمه ، ومالك بن مسمع بحبه لعشيرته ، وقتيبة بدهائه ، وساد المهلب بهذه الخلال جميعها » وتوفى سنة ٨٣ هـ.
والأزارقة طائفة من الخوارج تنسب إلى نافع بن عبد الله بن الأزرق، ثاروا بالبصرة والأهواز وغيرها من بلاد فارس ، وعظمت شوكتهم وكثرت فتكاتهم بالمسلمين حتى خضد شوكتَهم الْمُهَلَّبُ بمكايده حينا ، وحروبه أحيانا ؛ وهم ينادون بكفر على عليه السلام بسبب قبوله التحكيم ، ويكفرون من يقعدون عن القتال فى صفهم ، ويرون أن مرتكب الكبيرة خارج عن الإسلام مخلد فى النار ، ويكفرون كل من لا يدين بآرائهم من المسلمين .

(٣) فى المجموعة الأدبية « أعطى جالينوس » ؛ تروى الأساطير العربية أن هرمس — عند قوم من الصابئة — نبى مرسل وأنه إدريس عليه السلام، ويزعمون أنه بانى الأهرام ويسندون إليه شرائعهم ، ويزعمون أن بلينوس ورثه فى النبوة وكان قد أخذ عنه العلوم والأسرار .

أَوْرَدَ عَلَى أَرِسْطَطَالِيسَ مَا نَقَلَ عَنْكَ[1] ، وَبَطْلَيْمُوسَ سَوَّى الأَصْطُرْلَابَ بِتَدْبِيرِكَ ، وَصَوَّرَ الْكُرَةَ عَلَى تَقْدِيرِكَ[2] وَأَبُقْرَاطَ عَلِمَ الْعِلَلَ وَالأَمْرَاضَ بِلُطْفِ حِسِّكَ[3] ، وَجَالِينُوسَ عَرَفَ طَبَائِعَ الْحَشَائِشِ بِدِقَّةِ حَدْسِكَ ، وَكِلَاهُمَا قَلَّدَكَ فِي الْعِلَاجِ ، وَسَأَلَكَ عَنِ الْمِزَاجِ[4] ، وَاسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ

---

(١) في نهاية الأرب « ما حدث عنك » ؛ افلاطون من أشهر فلاسفة الأغريق — القدماء وهو صاحب نظرية المثل Ideality وخلاصتها أن الأجسام المادية تالية فى الحقيقة لعالم مثالى معنوى « مُبيَّتٌ » على صورته · وهو تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو أشهر فلاسفة الإغريق وأعظمهم ، وقد تداولى فلاسفة العرب فلسفة أرسطو وافتتنوا بها وشرحوها وسموه المعلم الأول ·

(٢) فى المجموعة الأدبية « ووضع الكرة » ؛ بطليموس صاحب كتاب المجسطى الكبير من أشهر علماء الفلك والجغرافيا عند الإغريق ، ونقل القفطى فى كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء أنه من أسرة البطالسة التى حكمت مصر كما وهم كثيرون ؛ الأصطرلاب : آلة لرصد النجوم ؛ والكرة هنا الكرة الأرضية .

(٣) ذكر القفطى أن أبقراط كان فى زمن أردشير ملك الفرس، وهو الذى بث صناعة الطب فى الناس يتوارثونها بالتلقين ولا يكتبون فيها شيئا

(٤) جالينوس من أشهر أطباء الإغريق ويسمى خاتم الأطباء والمعلمين ؛ وظلت آراؤه سائدة عند الإغريق ثم العرب قرونا متتالية ويقولون : « إنه عرف خواص الحشائش ، وقاس أمزجة الأبدان ، ودرس طبائعها ، وشرح الأعضاء ، ووضع الكتب النفيسة فى الطب ؛ وفى نهاية الأرب « بدقة نظرك » ·

(٥) المزاج : واحد الأمزجة وهى الطبائع ، ويقسمها القدماء إلى تسمة أقسام : واحدة معتدلة وثمانية غير معتدلة ؛ منها أربعة مفردة هى : الحار والبارد والرطب واليابس ، وأربعة أخلاط هى : الدم والمرة الصفراء والمرة السوداء والبلغم ... الخ ما قالوه .

الأعضاء ، واستشارك فى الداء والدواء ، وأنك نهجت لأبى معشر طريق القضاء[1] ، وظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء[2] ، وأعطيت النظام أصلاً أدرك به الطفرة[3] ، وجعلت للكندى رسما استخرج به

(١) فى الجموعة الأدبية « فتحت لأبى معشر » ؛ أبو معشر جعفر بن محمد ابن عمر البلخى المنجم المشهور ، كان من أصحاب الحديث ، ثم درس الحساب والهندسة ، ثم أحكام النجوم فمهر فيها حتى اعتبروه عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم ؛ وله فيها مصنفات عديدة ، وكان من أعلم الناس بسير الفرس وأخبار سائر الأعجام ؛ ولكنه كان مدمنا على الشراب ، وكان يصيبه الصرع شهريا ؛ توفى سنة ٢٧٢ ؛ نهج الطريق : أبانه وأوضحه ؛ القضاء : المراد به هنا حكم المنجمين وقولهم بتأثير الكواكب ؛ وهو يشير بهذا الى قول أبى تمام — ساخراً من المنجمين حديثهم عن تأثير النجوم — :

يقضون بالأمر عنها ، وهى غافلة ما دار فى فلك منها وفى قطب

(٢) ذكر ابن نباتة فى شرحه لهذه الرسالة أنه لم يقف له على ترجمة صحيحة فى كتاب يعتمد عليه ، ولو راجع الفهرست لابن النديم وطبقات الأمم لابن صاعد الأندلسى لوجد له فيهما ترجمة موجزة ، وهما كتابان يعتمد عليهما ؛ وهو أبو موسى جابر بن حيان بن عبدالله الكوفى المعروف بالصوفى من أشهر مؤلفى العلوم عند العرب ، وقد بلغت تصانيفه زهاء خمسمائة كتاب ، بقى منها : كتاب أسرار الكيمياء ، وأصول الكيمياء ، وعلم الهيئة ، ومجموعة رسائل فى نحـــو ألف صفحة ، وكلها مطبوعة ؛ وكان من أصحاب جعفر الصادق ثم اتصل بالبرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى البرمكى ، وتوفى سنة ١٦١ هـ .

(٣) إبراهيم بن سيار بن هانىء البصرى النظام من شيوخ المعتزلة وأئمتهم ؛ كان آية فى الذكاء وقوة الجدل ، ومن آرائه : أن الله خلق العالم دفعة واحدة ، ولكنه أكمن بعضه فى بعض ؛ وأن فى قدرة البشر أن يأتوا بمثل القرآن إلا أن=

الدَّقَائِقَ(١) ، وَأَنَّ صِنَاعَةَ الْأَلْحَـانِ اخْتِرَاعُكَ ، وَتَأْلِيفَ الْأَوْتَارِ (وَالْأَنْقَارِ) تَوَالِيدُكَ وَابْتِدَاعُكَ(٢) ، وَأَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنَ يَحْيَى بَارِى أَقْلَامِكَ(٣) ، وَسَهْلَ بْنَ هَارُونَ مُدَوِّنُ كَلَامِكَ(٤) وَعَمْرَو بْنَ بَحْرٍ

= الله تعالى صرف أذهانهم عن معارضته ، وأن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور . توفى سنة ٢٣٠ هـ وقيل سنة ٢٣٦ هـ .

(١) يعقوب بن إسحق الكندى من أبنـاء الولاة والحكام ، وجده الأشعث بن قيس من الصحابة ؛ سماه القدماء فيلسوف العرب ، وله مصنفات عديدة فى العلوم الفلسفية تناهز الخمسين ، توفى سنة ٢٥٥ هـ على الأرجح .

(٢) لم ترد كلمة (الأنقار) فى نهاية الأرب ؛ وفى المجموعة الأدبية « الأوتار والأنغام » ؛ وينسب العرب إلى بطليموس أنه أول من أفرد لها كتابا سماه كتاب اللحون الثمانية ، الأنقار : آلات الطرب .

(٣) عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرى كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين بالمشرق من أشهر الكتاب المجيدين ، ضُرب به المثل فى البلاغة ، وقيل فيه : بُدئت الكتابة بعبد الحميد ؛ ويروى أنه كتب خطاباً إلى أبى مسلم الخراسانى ليصرفه عن الدعوة العباسية ، فخشى أبو مسلم تأثير الخطاب فيه فلم يقرأه وأحرقه ، وكتب على قصاصة باقية منه :

محا السيفُ أسطارَ البلاغة ، وانتحى عليكَ ليوثُ الغاب من كل جانب

— وقد ابتدع للكتاب مناهج تبعوها من بعده ، وكان إبراهيم بن جبلة يكتب خطاً رديئاً فقال له عبد الحميد : أطِلْ جِلفة قلمك وأسمنها وحرف قَطَّتك يصلحْ خطُّك . ولعل هـذا ما أشار إليه ابن زيدون ؛ وظل وفياً لمروان حتى قتله العباسيون سنة ١٣٢ هـ .

(٤) سهل بن هرون اشتهر بالبلاغة والحكمة ، قدمه الفضل بن سهل للمأمون فأعجب ببلاغته وجعله كاتباً على خزانة الحكمة ، وكان شعوبياً يتعصب على

مُسْتَمْلِيكَ[1] ، وَمَالِكَ بْنَ أَنَسٍ مُسْتَفْتِيكَ[2] ، وَأَنَّكَ الَّذِي أَقَامَ الْبَرَاهِينَ ، وَوَضَعَ الْقَوَانِينَ[3] ، وَحَدَّ الْمَاهِيَّةَ ، وَبَيَّنَ الْكَيْفِيَّةَ وَالْكَمِّيَّةَ[4] ، وَنَاظَرَ فِي الْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ[5] ، وَمَيَّزَ الصِّحَّةَ مِنَ الْمَرَضِ ، وَفَكَّ الْمُعَمَّى[6]

= العرب ، وألف كتباً عارض بها كتب الأوائل حتى قيل فيه « يزد جهر الإسلام » وقد نقل عنه الجاحظ كثيراً من آثاره ؛ توفى سنة ٢١٥ هـ .

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ شيخ كتاب العربية وإمام الفصحاء والمتكلمين ألف فى شتى الفنون من أدب ودين وحيوان ونبات وفلسفة .. وضرب به المثل فقيل : « مما فضَّل اللهُ به أمة محمد عليه السلام على غيرها من الأمم : عمر بن الخطاب فى سياسته ، والحسن البصرى فى علمه ، والجاحظ فى بيانه » ومن أعظم كتبه الباقية الخالدة : البيان والتبيين ، والبخلاء ، والحيوان . توفى سنة ٢٥٥ هـ .

(٢) مالك بن أنس أحد الأئمة الأربعة وإمام دار الهجرة وصاحب كتاب الموطأ ، ضرب به المثل فى العلم والورع فقيل « لا يفتى ومالك بالمدينة » ومن كلامه : إذا ترك العالم قول « لا أدرى » أُصِيبَتْ مقاتلُه ؛ ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما هو نور يقذفه الله فى القلب ؛ توفى سنة ١٨٩ هـ

(٣) البراهين : الأدلة ؛ القوانين : الصور الكلية التى تتعرف بها أحكام جزئياتها .

(٤) الماهية : الصورة الذهنية للشىء فى الفكر ؛ الكيفية : التركيب والتكوين ؛ الكمية : الحجوم والأقدار .

(٥) الجوهر : الجسم أو الطبيعة أو الأصل ؛ والعرض : الصفات الطارئة والأحوال المتعاقبة .

(٦) فى نهاية الأرب والمجموعة الأدبية « وبين الصحة ..» ؛ المعمَّى : اللغز مأخوذ من عَمَّيْتُ الشىء إذا أخفيته ، وعمِىَ الأمرُ : التبس .

وَفَصَلَ بَيْنَ الْأَسْمِ وَالْمُسَمَّى[١] ، وَضَرَبَ وَقَسَمَ ، وَعَدَّلَ وَقَوَّمَ[٢] ، وَصَنَّفَ الْأَسْماءَ وَالْأَفْعالَ ، وَبَوَّبَ الظَّرْفَ وَالْحَالَ ، وَبَنَى وَأَعْرَبَ ، وَنَفَى وَتَعَجَّبَ ، وَوَصَلَ وَقَطَعَ ، وَثَنَّى وَجَمَعَ ، وَأَظْهَرَ وَأَضْمَرَ ، وَاسْتَفْهَمَ وَأَخْبَرَ[٣] ، وَأَهْمَلَ وَقَيَّدَ[٤] ، وَأَرْسَلَ وَأَسْنَدَ[٥] ، وَبَحَثَ وَنَظَرَ ، وَتَصَفَّحَ الْأَدْيَانَ ، وَرَجَّحَ

(١) الاسم : السِّمَةُ الذى يتميز به كل كائن ، والمسمى هو الذات التى يطلق عليها هذا الاسم ؛ وللفلاسفة والمتكلمين أبحاث كثيرة فى هل الاسم هو المسمى أو غيره .

(٢) فى سرح العيون «وصرف وقسم» ، وعقب عليها ابن نباتة بأنه لم يدرك المعنى المطلوب ؛ وقد آثرنا رواية نهاية الأرب ، ومعناها أنه أتقن الحساب من ضرب الأعداد وقسمتها . وعدَّل وقوَّم ذكر ابن نباتة أيضاً أنه لم يفهم المقصود منها ، ولعل المعنى : إنه وازن بين الأشياء وأدرك قيمة كل منها أى إنه دقيق النظر بارع التمييز خبير فى تقدير ما يقع عليه نظره .

(٣) الأسماء والأفعال ، والظروف والأحوال ، والبناء والإعراب ، والنفى والتعجب ، وهمزتا الوصل والقطع ، والإفراد والتثنية والجمع ، وإظهار الضمير وإضماره ، كلها اصطلاحات نحوية وصرفية لها أبواب وأحكام معروفة فى كتب النحو والصرف ، أما الخبر والاستفهام (أو الخبر والإنشاء) فهما من اصطلاحات علم المعانى ؛ وفى نهاية الأرب . « وابتدأ وأخبر » فيكونان من اصطلاحات النحو أيضاً يقصد بهما : المبتدأ والخبر .

(٤) فى نهاية الأرب « واستفهم وأهمل وقيد» وقد آثرنا رواية سرح العيون؛ أهمل : كتب الحروف بدون تنقيط وتشكيل ، وقيَّد : ضبطها بهما ؛ أو أهمل وقيد : ترك واختار ، أو أسقط وحفظ ، أو خطَّأ وصوَّب .

(٥) أرسل : روى أحاديث النبى ﷺ دون أن يذكر سلسلة النسب حتى تصل إليه ، بل تصل إلى أحد التابعين ، وأسند : روى الأحاديث مسلسلة راوٍ عن راوٍ حتى تصل إلى من سمعها عن النبى عليه السلام .

بيْنَ مَذهَبَيْ مانِي وَغَيْلانَ[1]، وَأَشارَ بِذَبْحِ الجَعْدِ[2]، وَقَتْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ[3]،
وَأَنَّكَ لَوْ شِئْتَ خَرَقْتَ العَادَاتِ، وَخَالَفْتَ المَعْهُوداتِ[4]، فَأَحَلْتَ البِحَارَ
عَذْبَةً، وَأَعَدْتَ السَّلامَ رَطْبَةً[5]، وَنَقَلْتَ غَدًا فَصارَ أَمْسًا، وَزِدْتَ
فِي العَناصِرِ فَكانَتْ خَمْسًا[6]، وَأَنَّكَ المَقُولُ فِيهِ: «كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ

(١) مانى: ظهر فى أيام سابور بن أردشير ملك الفرس وادّعى النبوة وتبعه خلق كثير، وكان يزعم أن العالمَ خلقه اثنان: إله الخير وهو النور، وإله الشر وهو الظلام ؛ غيلان بن يونس: ظهر فى زمن هشام بن عبد الملك وهو أول من تكلم فى القدر وخلق الإنسان، قتله هشام بن عبد الملك.

ولا وجه للموازنة بين المذهبين.

(٢) الجعد بن درهم مولى بنى الحكم، كان يقول بخلق القرآن، قتله خالد ابن عبد الله القسرى والى العراق من قبل هشام بن عبد الملك لما خَشِيَ تفاقم شره.

(٣) بشار بن برد الشاعر المشهور من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية، وكان متهما بالمجون والفسق والزندقة والتعصب للفرس ضد العرب، أمر المهدىّ بضربه بالسياط حتى تلف سنة ١٦٨ هـ.

(٤) خرق العادات: أتى بما يخالف الطبيعة مثل المعجزات.

(٥) السّلام: جمع سَلِمة وهى الحجرة. ثم أخذ الكاتب يعدد أمثلة خرق العادات، ومخالفة المعهودات، مثل تحويل البحار الملحة إلى عذبة. وتحويل صلابة الصخور إلى ليونة وطراوة ؛ وتزعم الأساطير العربية أن الحجارة كانت ليّنة على عهد نوح عليه السلام.

(٦) فى المجموعة الأدبية (فصارت خمساً). العناصر عند الأقدمين أربعة: النار والهواء والماء والتراب ؛ وهى ليست عناصر فى نظر العلم الحديث بل مركبات؛ والعناصر فى نظر العلم الحديث قد جاوزت التسعين.

الفَرَا[1] » وَ

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ[2]

وَالْمُتَنَبِّي بِقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ[3]

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا[4]

---

(١) الفَرَا : الحمار الوحشى ؛ وسببُ المثــل : أن جماعة خرجوا للصيد ، فاصطاد أحدهم أرنباً ، والثانى ظبياً ، والثالث حماراً ، فسخر الأولان من الثالث ، فقال : « كل الصيد فى جوف الفَرا » أى إنَّ ما صدته يشتمل على ما عندكما . وليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشى ؛ واستأذن أبو سفيان على النبى ﷺ فحجبه قليلا ، فلما عاتبه قال له : « يا أبا سفيان أنت كما قيل : كل الصيد فى جوف الفرا » أى إذا حجبتُك قنع كل محجوب .

(٢) فى سرح العيون : « وليس لله بمستنكر » ؛ البيتُ لأبى نواس فى مدح الفضل بن يحيى من قصيدة يقول فيها مخاطباً الرشيد :

قولا لهرونَ إمام الهــدى عنــد احتفال المجلس الحاشد :
أنتَ — على ما بك من قدرة — فلست مثل (الفضل) بالواجـد
ليس على الله بمستنكر أن يجمع العــالم فى واحد

(٣) البيت لأبى تمام من قصيدة فى مدح مهدى بن أصرم يقول فيها :

جعلْتَ الجودَ لألاءَ المساعى — وهل شمس تـكون بلا شعاع ؟
ورأْيك مثل رأى السيفِ صَحَّت مشورةُ حدِّه عنــد المصاع
ولو صــورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطبـاع

(٤) البيت للمتنبى من قصيدة يمدح بها محمد بن أحمد بن عمران يقول فيها :

فـكَدَمْتَ فى غَيْرِ مَكْدَمٍ (١) ، وَاسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ (٢) ، وَنَفَخْتَ فِى غَيْرِ ضَرَمٍ (٣) ؛ وَلَمْ تَجِدْ لِرُمْحٍ مَهَزًّا ، وَلَا لِشَفْرَةٍ مَحَزًّا (٤) ؛ بَلْ رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ (٥) ، وَتَمَنَّيْتَ الرُّجُوعَ بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ (٦) ، لِأَنِّى قُلْتُ :

=أيا زوالُك من محـــل نلتـه لا تخرجُ الأقمارُ من هالاتِها

ذُكِرَ الأنامُ لنا فكان قصيدة كنتَ البديعَ الفردَ من أبياتِها

(١) الكدم : العض ؛ المكدم : موضع العض ؛ « كدمت فى غير مكدم » مثلٌ يضرب لمن يطلب شيئاً لا يتمكن منه .

(٢) لم ترد هذه الجملة فى نهاية الأرب . الورم : الانتفاخ ؛ والمعنى مأخوذ من قول المتنبى :

أعيــذُها نظرات منك صادقةً أن تحسب الشحمَ فيمن شحمه وَرَمُ

(٣) فى نهاية الأرب « ونفخت فى غير فحم » ؛ الضَّرَمُ : التهاب النار ، والمعنى مأخوذ من قول عمرو بن معد يكرب :

ولو نار نفختَ بها أضاءتْ ولكن أنتَ تنفخُ فى رَمَادِ

(٤) فى سرح العيون « ولم تجد لرمح مهزا » وفسرها بأن المرأة الرسلة لم تجد لرمح كلامها مايهزنى ويستميلنى ، ولا لشفرة احتيالها مايحز ويقطع ؛ وفى المجموعة الأدبية « لرعك » وقد آثرنا رواية نهاية الأرب ؛ « لم أجد لشفرتى محزاً » مثلٌ يُضرَبُ فى تعذر الحاجة أى لم أجد محزاً لا لمزى ؛ والمعنى : إنها لم تجدْ لكلامها تأثيراً ولا لاندفاعها مجالا ، فما هزّتْ رمحاً ولا سنتْ حداً .

(٥) « رضى من الغنيمة بالإياب » : مثلٌ يضرب لمن قنع — بعد ما بذل من جهد — بالرجوع إلى بيته سالماً . وهو مأخوذ من قول امرىء القيس :

وقـد طوّفتُ فى الآفاق ، حتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب

(٦) كان حنين إسكافياً ساومه أعرابى على خفَّيْن فأغاظه ؛ فوضع حُنَيْن=

« لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ »(١)

وَأَنْشَدْتُ :

عَلَى أَنَّهَا الأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ ، حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ(٢)

بَخَرْتُ وَكَفَرْتُ ، وَعَبَسْتُ وَبَسَرْتُ(٣) ، وَأَبْدَأْتُ وَأَعَدْتُ ، وَأَبْرَقْتُ

= فى طريقه أحد الخفين ، فقال الأعرابى : لو كان معه زميله !! ثم سار قليلا فوجد الخف الآخر ، فعقل بعيره ، ورجع ليأخذ الأول ؛ فخرج الإسكافى من مكمنه وأخذ البعير ، ورجع الأعرابى بالخفين وأضاع بعيره ؛ فقيل فيه « رجع بخفى حنين » وهو مثل يضرب للخيبة .

(١) فى المجموعة الأدبية ومجمع الأمثال « لقد ذل » ؛ كان غاوى بن ظالم سادناً لصنم يعبده بنو سليم فى الجاهلية ، فرأى ثعلباً أقبل على الصنم وبال عليه ، فقال : يا بنى سليم والله ما يضر ولا ينفع ؟ ولا يعطى ولا يمنع ، ثم أنشد :

أَرَبٌّ يبول الثُّعْلُبانُ برأسه ؟ لقد هان من بالتْ عليه الثعالبُ !!

وذهب غاوى بن ظالم إلى النبى ﷺ فأسلم ، فسماه راشد بن عبد ربه ؛ الثُّعلبان : ذكر الثعالب .

(٢) فى المجموعة الأدبية « وأنشدت لها » ، البيت لأبى تمام من قصيدة يرثى بها غالبا الصفدى يقول فيها :

وقلتُ أخى ! قالوا أخٌ ذو قرابة ؟ فقلتُ لهم : إن الشكول أقاربُ

صديقىَ فى رأيى وعزمى ومذهبى وإن باعدتنا فى الأصول المناسبُ

عجبتُ لصبرى بعده وهو ميِّتٌ وكنتُ امرءاً أبكى دماً وهو غائب

على أنَّها الأيام قد صرن كلها عجائب ، حتى ليس فيها عجائب

(٣) النخير : صوت يصدر من الأنف وأكثر ما يكون عند الغضب ، الكفر التبرؤ من الشىء ، قال تعالى : « ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض » ؛ التعبيس :=

وَأَرْعَدْنَ ، وَهَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي[1] ، وَلَوْلَا أَنَّ لِلْجِوَارِ ذِمَّةً، وَلِلضِّيَافَةِ حُرْمَةً ، لَكَانَ الْجَوَابُ فِي قَذَالِ الدُّمُسْتُقِ[2] ؛ وَلَكِنَّ النَّمْلَ

= فقاوب الوجه من ضيق الصدر ؛ البَسْر : التقطيب والعبوس أو القهر ، قال تعالى: « وَوُجُوهٌ يومئذ باسرة تظنّ أن يُفْعَل بها فاقرة » أي كالحة تتوقع أن تحل بها كارثة، قال تعالى في شأن الوليد بن المغيرة: « ثم نظر ، ثم عبس وبسر » وفي سرح العيون « ونخرت وبسرت ، وعبست فكفرت » وقد آثرنا رواية المجموعة الأدبية ونهاية الأرب .

(١) أي هممت بقتل هذه المرأة ولم أنفذه ، وقد كدت أن أفعله وليتني فعلته؛ وهو شطر بيت لضابيء بن الحارث بن أرطأة، كان بذيئا كثير الشرور حبسه عثمان بن عفان رضي الله عنه لأنه دهم صبيا بدابته فقتله ، ثم خرج من السجن ، فاستعار كلب صيد من بني نهشل وما طل في رده ، فألحوا عليه فقال :

فأمكم لا تتركوها وكلبكم   فإن عقوق الأمهات كبير
إذا اكتنفت من آخر الليل شخصه
يظل له فوق الفراش هرير

فاستعدوا عليه عثمان ، فقال له : ويلك !! ما سمعت أحدا يرمي امرأة بكلب غيرك، ثم حبسه؛ فأعد حديدة لقتله فأخذت منه و ترك مهملا في السجن فقال: هممت ... ولم أفعل ... وكدت .. وليتني
تركت على عثمان تبكي حلائله

(٢) القذال : جماع مؤخر الرأس ؛ المعنى : لولا أنه صار لهذه المرأة حرمة بدخول منزلي وضيافتي لفعلت بها فعل سيف الدولة بالدمستق وهو بطريق قاد جيشا من الروم لحرب سيف الدولة فارتد مهزوماً منكسرا ؛ والمعنى مأخوذ من قول المتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة يقول فيها :

رأى ملك الروم ارتياحك للندى   فقام مقام المجتدي المتملق
وكنت إذا كاتبته قبل هذه   كتبت إليه في قذال الدمستق

حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتِ الْعَقْرَبُ (١)، وَالْعُقُوبَةَ مُمْكِنَةٌ إِنْ أَصَرَّ الْمُذْنِبُ
وَهَبْهَا أَنْ تُلَاحِظَكَ بِعَيْنٍ كَلِيلَةٍ عَنْ عُيُوبِكَ (٢)، وَأُوهَا حَبِيبُهَا (٣)،
وَحَسَنٌ فِيهَا مَنْ تَوَدُّ (٤)، وَكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِحُـــلَاكَ وَوَسَمَتْكَ

---

(١) آثرنا رواية نهاية الأرب، وفى سرح العيون والمجموعة الأدبية « والنعل حاضرة » وهو مثل مأخوذ من قول الفضل بن العباس المهلبى :

إن عادت العقربُ عدنا لها ... وكانت النعل لها حاضِرَهْ

(٢) كليلة : ضعيفة ؛ والمعنى : هب هذه المرأة الرسالة صدقت فيا تحدثت به عنك ، وقالت ما اعتقدته فيك (إن منظرك القبيح ينبى عن خبرك) .. ومن الأحاديث المأثورة « حبك الشىء يعمى ويصم » وهو مأخوذ من قول عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن أبى طالب الهاشمى :

وأنتَ أخى ما لم تكن لىَ حاجة ... فإن عرضتْ أيقنتُ ألا أخا ليا

وعينُ الرضى عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدى المساويا

(٣) ماؤها حبيبها : ترى حبيبها كلَّ شىء فى الحياة ، وهو مأخوذ من قول مجنون ليلى :

أهابك إجلالاً ، وما بكِ قدرةٌ ... علىّ ، ولكن ملءُ عينٍ حبيبُها

وما هجرتك النفسُ أنك عندها ... قليلٌ ، ولكن قلَّ منكِ نصيبُها

(٤) المعنى : إن حبيبها فتان فى نظرها وإن كان قبيحا ، وهو مأخوذ من قول عمر بن أبى ربيعة :

ولقد قالتْ لأتراب لهـــا ... ذات يوم وتعرّتْ تبترد

: أكما ينعتنى تبصرننى ؟ ... عمركنّ الله ! أم لا يقتصد ؟

فتضاحكنَ ، وقد قُلْنَ لها : ... «حسنٌ فى كل عين من تود»

بِسِبَاكِ[1] ، وَلَمْ تَعْزِكَ شَهَادَةٌ ، وَلاَ تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ، بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بَكْرِهَا فِيمَا ذَكَرَتْهُ عَنْكَ[2] ، وَوَضَعَتِ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النَّقْبِ بِمَا نَسَبَتْهُ إِلَيْكَ[3] ، وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتْ بِهِ عَلَيْكَ ، فَالْمُعَيْدِيُّ تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ[4] .

=حسد" محمّلته من أجلها وقديما كان فى الناس الحسد"
ومثل هذا قولهم : « زين فى عين والد ولده » و « كل فتاة بأبيها معجبة »

(١) وسمتك بسياك : ميزتك بما امترت به .

(٢) البكر : الفتيّ من الإبل ، وفى الأمثال « صدقنى سنَّ بكره » وهو مثل يضرب فى الصدق ، وأصله أن رجلا ساوم أعرابيا فى بعيره ، وسأله عن سنه؟ فقال له : بكر ، فقال الرجل « صدقنى سن بكره »

(٣) الهناء : القطران ، النقب : الثقب الذى تحدثه جرثومة الجرب فى الجسم أو الجرب نفسه ؛ وهو مأخوذ من أبيات قالها دريد بن الصمة ، وكان قد مرّ بالخنساء، وهى تطلى بعيرا لها بالقطران حتى فرغت منه ، فنضت ثيابها واغتسلت ودريد يراها ولا تشعر به ، فقال فيها :

حيّوا تماضر واربعوا صحبى ... وقفوا ، فإن وقوفكم حسبى
ما إن رأيت ولا سمعت به ... كاليوم هانئ أينق جرب
متبذلا تبدو محاسنه ... يضع الهناء مواضع النقب

أى يضع الأمور فى مواضعها ، ثم خطبها فردّته لكبر سنه ؛ وفى نهاية الأرب « فيما نسبته إليك » .

(٤) فى نهاية الأرب « .. تسمع به لا أن تراه » وهو مثل مشهور ، وورد على عدة صور منها : « أن تسمع بالمعيدى ، أو : لأن تسمع بالمعيدى ، =

هَجِينُ القَذَالِ[١] ، أَرْعَنُ السَّبَالِ[٢] ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِلَاوَةِ[٣] مُفْرِطُ الْحُمْقِ وَالْغَبَاوَةِ ، جَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّءُ الْجَابَةِ وَالسَّمْعِ[٤] ، بَغِيضُ الْهَيْئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالْجِيئَةِ ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ ، مُنْتِنُ الْأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ الْمَعَايِبِ ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ[٥] ، كَلَامُكَ تَمْتَمَةٌ ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ ، وَبَيَانُكَ فَهْفَهَةٌ ، وَضِحْكُكَ قَهْقَهَةٌ ، وَمَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ[٦] ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ، وَدِينُكَ

= والمختار : تسمعُ بالمعيدى خير من أن تراه ، وروى : لا أنْ تراه ، وهو مثل يضرب لمن يكون خبره خيرا من منظره ، وهو مثلٌ قاله النعمان ؛ لأن شقة بن ضمرة كان يغير على ماله ويطلبه فلا يقدر عليه ، فأمّنه — وكان يعجبه ما يسمعه عنه — فلما رآه قال : « تسمع بالمعيدى خيرٌ من أن تراه » فقال : أبيت اللعن ! إن الرجال ليسوا بجُزُر ، وإنما يعيش المرء بأصغريه قلبه ولسانه . فصارت مثلا ؛ والجزر : الشاه السمينة .

(١) الهجين : مَنْ فى نسبه هجنة أى قبح من جهة أمه ، والمُقْرِف مَنْ فى نسبه قبح من جهة الأب ؛ القذال : جماع مؤخر الرأس ؛ هجين القذال : لئيم النسب يبدو لؤم نسبه من النظر إلى قذاله إذا أدبر ، لأنه يخفض رأسه ذلا وحياء أو لأنه كثير الفرار فى الحروب .

(٢) السَّبال : جمع سَبَلة وهى الشارب : أرعن السبال : أحمق الشارب ، وخُصَّت الرعونة به لأنه مظهر الرجولة .

(٣) العلاوة : أعلى الرأس والعرب يعدون طول الرأس والعنق من دلائل الحمق .

(٤) الجابة : الإجابة ، وفى الأمثال : « أساء سمعاً فأساء جابة » ، وفى المجموعة الأدبيه « سىء الإجابة »

(٥) المثالب : النقائص .

(٦) التمتمة من معايب النطق المعدودة ، قال الجاحظ : إنها التردد فى التاء ؛=

رندقة ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ[1] :

مَسَاوٍ !! لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الغَوَانِي   لَمَا أُمْهِرْنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ[2]

حَتَّى إِنَّ بَاقِلًا مَوْصُوفٌ بِالبَلَاغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ[3] ، وَهَبَنَّقَةُ مُسْتَحِقٌ

= النمنمة : أن يصدر الصوت مسموعا ، ولا تظهر فيه مقاطع الحروف؛القهقهة : الضحك الشديد ، وهو خصلة منافية للوقار ، والأفضل فيه التبسم ؛ الهرولة : ضرب من العدو فوق المشي ودون الجرى ، وهى مشية تنافى الاتزان وتشعر بالنزق ؛ وشبيه بهذا قول المتنبى فى هجاء إسحق بن كيغلغ من قصيدة :

وارفق بنفسك !! إن خلقك ناقص   واستر أباك ، فإن أصلك مظلم

وغناك مسألة ، وطيشك نفخة   ورضاك فيشلة ، وربك درهم

(١) الزندقة : الميل إلى وثنية الفرس القديمة نسبة إلى كتابَيْ زند وزندين المنسوبين إلى زرادشت ومزدك ؛ ثم أصبحت الزندقة تطلق على كل من خرج على شريعة الإسلام ؛ المخرقة : نوع من التحايل لإظهار البراعة إيهاما للناس بأنها كرامات .

(٢) البيت لأبى تمام من أبيات يهجو بها الأعمش يقول منها :

دع ابن الأعمش المسكين يبكى   لداء ظلَّ منـه فى وثاقِ

كحاتُ بقبح صورته ، فأضحى   لها إنسانُ عينى فى السياق

مَسَاوٍ لو قسمن على الغـوانى   لـما أمهـرن إلا بالطلاق

(٣) باقل بن عمرو بن ثعلبة الإيادى يضرب به المثل فى العىّ يقال : « أعىّ من باقل » ، قال أبو عبيدة : بلغ من عيّه أنه اشترى ظبيا بأحد عشر درهما وحمله ، فسأله شخص من ثمنه ففتح كفيه ، وفرق أصابعه وأخرج لسانه ، يشير بذلك إلى أحد عشر فهرب الظبى ، قال المعرى : =

لِأَشْأَمِ الْعَقْلِ إِذَا نُسِبَ إِلَيْكَ[١] ، [وَأَبَا غَبْشَانَ مَحْمُودٌ مِنْهُ سَدَادُ الْفَمِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ][٢] ، وَطُوَيْسًا مَأْثُورٌ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِرِ إِذَا قِيسَ

إذا وصف الطائىّ بالبخل مادرٌ وعيرّ قُسًّا بالفهاهة باقلُ

فياموتُ زر ! ! إن الحياة ذميمةٌ ويا نفس جدى ، إن دهرك هازل

والطائى : حاتم الطائى المشهور بالجود ، ومادر يضرب به المثل فى البخل ، وقس مضرب المثل فى البلاغة .

(١) آثرنا رواية نهاية الأرب ، وفى سرح العيون والمجموعة الأدبيـــة « .. مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك » ، هبنقّة : هو زيد بن ثروان أحد بنى قيس بن ثعلبة ، ويسمى أبا الودعات لأنه نظم ودعاً لنفسه فى سلك ، وجعله فى عنقه علامة لنفسه لئلا يضيع ، فنافله أخوه يوما ولبس العقد ، فارتبك هبنقه وقال له : أنت أنا ، فترى من هو أنا ؟

(٢) لم ترد هذه الجملة فى سرح العيون ولا فى المجموعة الأدبية ، وقد زدناها عن نهاية الأرب ؛ وأبو غبشان مضروب به المثل فى الحماقة ، ذكر الميدانى فى مجمع الأمثال : أن أبا غبشان خزاعى كان يلى سدانة الكعبة ، فخدعه قصى وأسكره ، ثم اشترى منه مفاتيح الكعبة بزق خمر ، وأشهد عليه ودفعها لابنه عبـد الدار ، وطيرّ به إلى مكة ، فلما أشرف عليها رفع عقيرته صائحا : معاشر قريش هذه مفاتيح بيت أبيكم اسماعيل قد ردّها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم ، فلما أفاق أبو غبشان من سكره ندم ولات حين مندم ، فقال الناس : « أحمق من أبى غبشان » قال الشاعر :

أبو غبشان أظـلمُ من قُصَىٍّ وأظـــلم من بنى فهر خزاعة

فلا تلحَوْا قـصيًا فى شراه ولوموا شيخكم إن كان باعهْ

عَلَيْكَ(١) ؛ فَوُجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالاغْتِبَاطُ بِكَ نَدَمٌ ، وَالْخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالْجَنَّةُ مَعَكَ سَقَرٌ(٢) ؛ كَيْفَ رَأَيْتَ لُؤْمَكَ لِكَرَمِي كِفَاءً ؟ وَضِعَتَكَ لِشَرَفِي وَفَاءً(٣) ؟ وَأَنَّى جَهِلْتَ أَنَّ الأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ؟ وَالطَّيْرَ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى أَمْثَالِهَا(٤) ؟ وَهَلاَّ عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ، لاَ يَجْتَمِعَانِ ؟ وَشَعَرْتَ أَنَّ (نَادِيَ) الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ لاَ يَتَقَارَبَانِ(٥) ؟

---

(١) اليُمْنُ : البركة ؛ طويس : هو عيسى بن عبدالله مولى بنى مخزوم كان ماجنا ظريفاً ، يقال إنه أول من غنى على الدف بالعربية ، ويُضْرَبُ به المثل فى الشؤم لأنه ولد يوم قبض رسول الله ﷺ ، وفطم يوم مات أبو بكر ، وختن « وقيل بلغ الحلم » يوم قُتِل عمر ، وتزوج يوم قُتِل عثمان ، ووُلِدَ له يوم مقتل علىٍّ ، وكانت أمه تمشى بالنميمة بين نساء الأنصار .

(٢) المعنى : حياتك مثل فقدك ، والفرحة بك تجلب الندم ، والفشل منك ربح عظيم ، والجنة فى صحبتك تنقلب إلى الجحيم .

(٣) اللؤم : الدناءة فى الأصل وفى الأخلاق ؛ كفاء : مماثل ومناظر أو مُجازٍ ؛ الوفاء : العدل أو الطول ؛ المعنى : كيف ترى لؤمك لكرمى مماثلا ؟ وذلتك لشرفى معادلة أو مطاولة ؟

(٤) فى نهاية الأرب وسرح العيون « تقع على الأنها » وقد آثرنا رواية المجموعة الأدبية ؛ أنَّى : كيف ؟ المعنى : كيف تجهل أن الشىء ينجذب إلى مثيله ؟ والطير تقع على نظائرها ؟ فلا عجب إذا ملتُ إلى شكلى والفى ، ولستَ منهما

(٥) كلمة (نادى) : زيادة من نهاية الأرب ، وفيه « أن نادى المؤمن والكافر لا يتراءيان » وقد آثرنا رواية سرح العيون والمجموعة الأدبية ؛ النادى والندىّ والندوة : مجلس القوم ومكان حديثهم وتشاورهم ما داموا فيه ؛ والمعنى : لاسبيل إلى تقاربنا كما لا سبيل إلى اجتماع الشرق والغرب ، ولا يمكن اتفاقنا كما لا يمكن اتفاق مجلس المؤمنين والكفار .

[وَقُلْتَ] : الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لاَ يَسْتَوِيَانِ ؟[١] وَتَمَثَّلْتَ :

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهَ ! كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ[٢] ؟

وَذَكَرْتَ أَنِّي عِلْقٌ لاَ يُبَاعُ مِمَّنْ زَادَ[٣] ، وَطَائِرٌ لاَ يَصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ ، وَغَرَضٌ لاَ يُصِيبُهُ إِلاَّ مَنْ أَجَادَ[٤] ، مَا أَحْسَبُكَ إِلاَّ كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِئَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِئَةِ[٥] ،

---

(١) نظر الكاتب إلى قوله تعالى : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث » وما بين القوسين ساقط من المجموعة الأدبية .

(٢) البيت لعمر بن أبى ربيعة فى الثريا بنت عبد الله حينما تزوجها سهيل ابن عبد العزيز بن طلحة أو سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ورحل بها إلى الشام فقال عمر (وفى البيتين تورية بنجمى الثريا وسهيل) :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان ؟

هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

عمرك الله : قسم ببقاء الله ودوامه ، أو سألت الله تعميرك ، وعلى هذا المعنى يكون غير قسم .

(٣) العلق : الثمين ؛ لا يباع ممن زاد أى لمن زاد ، فمن بمعنى العم من استعمال الفقهاء كما فى شرح النووى على مسلم .

(٤) الغرض : الهدف .

(٥) الترشيح : الاستعداد للشىء ؛ الترفئة : التهنئة بالزواج من قولهم للمتزوج : « بالرفاء والبنين » أى بالالتئام والاتفاق وجمع الشمل ، ومنه قول عمر بن الخطاب لما أصبح معرسا بأم كلثوم بنت على بن أبى طالب من زوجته السيدة فاطمة : رفئونى ؛ ثم صارت الترفئة عامة فى الزواج وغيره ؛ وفى الحديث : « إذا رفأ أحدكم أخاه فليقل : بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما فى خير »

[أَوْلَى لَكَ ! !] [(١)] وَلَوْلاَ أَنَّ جَرْحَ الْعَجْمَاءِ جُبَارٌ [(٢)] ، لَقِيتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لاَقَى يَسَارٌ [(٣)] ، فَمَا هَمٌّ إِلاَّ بِدُونِ مَا هَمَمْتَ بِهِ ، وَلاَ تَعَرَّضَ إِلاَّ لِأَيْسَرِ مَا تَعَرَّضْتَ لَهُ [(٤)] ، أَيْنَ ادِّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ ؟ وَتَعَاطِيكَ

---

(١) زيادة واردة فى نهاية الأرب ، أولى لك ! ! : تهديد ووعيد أى قاربك مايهلكك ، أو الشر أقرب إليك ، أو اندم على ما فاتك ، أو كلمة تلهف يقولها الرجل إذا أفلت من مصيبة ، أو دنوت من الهلكة ، قال تعالى : « فلا صدَّقَ ولا صلَّى ولكن كذَّب وتولَّى ، ثم ذهب إلى أهله يتمطَّى ، أوْلَى لَكَ فأولى ! ! ثم أولى لك فأولى ! ! » أى قربت من الوبال ، قالت الخنساء :

همَمتُ بنفسىَ كلَّ الهموم فأَولَى لنفسىَ ! ! أولى لها ! !

(٢) « جرح العجماء جُبار » حديث شريف : العجماء : البهيمة ؛ جبار : هدر ؛ وعدم القصاص فى جرح البهيمة لأنها لا تعقل ، ويضرب به المثل لما يستهان به .

(٣) يسار : عبد أسود دميم يقال له يسار الكواعب لأن النساء كن يضحكن منه لقبحه ، فكان يظنهن معجبات به ، حتى نظرت إليه امرأة مولاه (أو بنته) فضحكت فطمع فيها وراودها ، فقالت له : مهلافإن للحرائرطيبا أشمك إياه ، فقال : هاتيه ، فأتت بطيب وموسى فأشمته الطيب ثم أحت بالموسى فقطعت أنفه ، فصاح ! ! فقالت له صبرا على مجامر الكرام ، فضرب به المثل ؛ ولما ماتت امرأة الفرزدق أراد الخطبة إلى بسطام بن قيس ، فقال جرير يهجوه :

فهل أنت إذ ماتت أتانك راحل إلى آل بسطام بن قيس بخاطب ؟

وإنى لأخشى إن رحلت إليهم عليك الذى لاقى يسار الكواعب

(٤) آثرنا رواية نهاية الأرب ، وفى سرح العيون « فما همّ إلا ببعض ما به هممت ، ولا تعرض إلا لأيسر ماله تعرضت »

حِفظَ السِّيَرِ وَالأَخْبَارِ ؟ [أَمَا ثَابَ إِلَيْكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ ؟] [1] :

بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ وَتُنْكَحُ فِي أَكْفَائِهَا الْحَبِطَاتُ [2]

وَهَلاَّ عَشَّيْتَ وَلَمْ تَغْتَرَّ [3] ، وَمَا أَمْنَكَ أَنْ تَكُونَ وَافِدَ الْبَرَاجِمِ [4] ؟

---

(١) ما بين القوسين ساقط من نهاية الأرب ؛ ثاب إليك : رجع إلى ذهنك .

(٢) البيت للفرزدق ، ومعناه : إن بنى دارم لا ينبغى أن يصاهرهم إلا بنو مِسْمَع فأما بنو الحبطات فلا ؛ بنو دارم : من ذرية دارم وهو مالك بن حنظلة التميمى بيته أكبر بيوت بني تميم ؛ آل مسمع : بيت بكر بن وائل من بنى قيس بن ثعلبة ؛ الحَبِطات : بنو الحارث بن مالك بن عمرو بن تميم ، وفيهم يقول الشاعر :

وجدنا التَّيبَ من شَرِّ المطايا كما الحبطاتُ شرُّ بنى تميم

(٣) فى الأمثال « عَشِّ ولا تغترّ » وهو مثـل يضرب للاحتياط والأخذ بالثقة ؛ ومعناه : هلاَّ رفقت بإبلك فأطعمتها بالعشيّ لأنك لا تضمن ما يكون فى غد ؛ عَشَّى : رَفَقَ .

(٤) فى سرح العيون والمجموعة الأدبية « وما أشك أنك تـكون وافد البراجم » وقد آثرنا بعض الروايات فى نهاية الأرب .

من الأمثال : « أشقى من وافد البراجم » والبراجم خمسةٌ من أولاد حنظلة ، وسبب المثل أن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلا فى ثأر أخ له ، وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة ؛ فمرّ رجل اسمه عمار (أحد البراجم) فشم رائحة اللحم فظنه طعاماً فأتى إليه ، فأكل الملك به المائة ؛ وعُيِّرت بنـو تميم بحب الطعام بسببه ، قال الشاعر :

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم وسرّكَ أن يعيش فجىء بزاد

أَوْ تَرْجِعَ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ[(1)] ؟ أَوْ أَفْعَلَ بِكَ مَا فَعَلَهُ عَقِيلُ بْنُ عُلَّفَةَ بِالْجُهَنِيِّ ، إِذْ جَاءَهُ خَاطِبًا ، فَدَهَنَ اسْتَهُ بِزَيْتٍ وَأَدْنَاهُ مِنْ قَرْيَةِ النَّمْلِ[(2)] ؟ وَمَتَى كَثُرَ تَلَاقِينَا ؟ وَاتَّصَلَ تَرَائِينَا ؟ فَيَدْعُوَنِي إِلَيْكَ مَا دَعَا ابْنَةَ الْخُسِّ إِلَى عَبْدِهَا مِنْ طُولِ السَّوَادِ ، وَقُرْبِ الْوِسَادِ[(3)] ؛ وَهَلْ فُقِدَتِ الْأَرَاقِمُ

---

(1) « صحيفة المتلمس » تضرب مثلا لمن يحصل له الضرر من حيث يتوقع النفع ؛ والمتلمس : شاعر مجيد من شعراء الجاهلية ، وفد مع ابن أخته طرفة بن العبد على عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة ، فحنق عمرو عليهما يوما ، فلم يظهر لهما الموجدة خوف هجائهما ، وأرسل كلا منهما بكتاب إلى عامله بالبحرين يأمره بقتلهما ، وأوهمهما أنه كتب لهما بصلة من عامله ؛ ففتح المتلمس صحيفته وعرف مابها فرقها ؛ ونصح طرفة أن يفعل كما فعل ، فأبى وظن أن الملك لا يجرؤ على هذا خيفة قومه ؛ فلاقى مصرعه .

(2) عقيل بن علّفة اليربوعى من شعراء الدولة الأموية ، كان أهوج جافيا شديد الاعتزاز بنسبه عفيف الغيرة ، وكان لا يرى أحدا كفئا لمصاهرته ؛ خطب عبد الملك بن مروان إحدى بنات عقيل لأحد أبنائه فأطرق ساعة ، ثم قال : إن كان ولا بد فجنبنى هجناءك ، أى أولاد الإماء ، ودخل على عثمان بن حيان والى المدينة فقال له : زوجنى بعض بناتك ، فقال عقيل : أبكرة من إبلى تعنى ؟ فنهره عثمان ؛ وكان له جار جهنى تقدم لخطبة ابنته وكان أحمر اللون ، فغضب عقيل وكتّفه ودهن استه بزيت وأدناه من قرية النمل فآذته أشد الإيذاء ، وقال فيه :

ردت صحيفة القرشى لما ... أبت أعراقه إلا احمرارا

(3) ابنة الخس : هى هند بنت الخس بن حابس الإيادى ، وكانت ممن حكيات نساء العرب ؛ ولكنها زنت بعبدها فلما سئلت : ما حملك على الزنى ؟ قالت : قرب الوساد وطول السواد ، وزاد بعضهم فى حديثها « وحب السفاد » لأن أباها كان قد منعها من الزواج . السواد : السرار يقال ساودته إذا أسررت إليه كلاما وأسر هو إلى كلاما . وفى الحديث الشريف : « السواد من السحر »

فَأَنْكَحَ فِي جَنْبٍ ؟ أَوْ عَضَلَنِي هُمَامُ بْنُ مُرَّةَ فَأَقُولُ : « زَوْجٌ مِنْ عُودٍ خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ »

وَلَعَمْرِي!! لَوْ بَلَغْتُ هَذَا الْمَبْلَغَ لَارْتَفَعْتُ عَنْ هَذِهِ الْخِطَّةِ ، وَمَا رَضِيتُ بِهَذِهِ الْخُطَّةِ(٣) ، فَالنَّارُ وَلَا الْعَارُ ، وَالْمَنِيَّةُ وَلَا الدَّنِيَّةُ ، وَالْحُرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا(٤)

(١) الأراقم : حى من تغلب ؛ جَنْب : حي من اليمن، وقد أشار بهذا إلى قول مهلهل بن ربيعة لما رحل عن قومه بعد أن أضنتهم حرب البسوس ، ونزل فى طريقه على حى من اليمن فخطبوا إليه ابنته ، وساقوا إليها جلودا من أدم فقال :

أعزز على تغلب بما لقيَت أختُ بنى الأكرمين من جشم
أنكحها فقدُها الأراقمَ من جَنْبٍ ، وكان الحِباءُ من أدَم

(٢) عضل الولىُّ فتاتهُ : منعها من الزواج ؛ عَضَلَ هُمامُ بن مرة بن ثعلبة بناته الأربع عن الزواج . فاستعم إليهن مرة وهن لا يعلمن ، فسمع كلاً منهن تتمنى الزّواج من رجل يكون متصفا بصفات خاصة ذكرتها ، إلا الصغرى فإنها صمتت ، فلما ألحّ عليها أخواتها بأن تذكر صفات الزوج الذى تتمناه ، قال : « زوجٌ من عود خير من قعود » فصارت مثلا ؛ ولما سمع أبوهن هـذا الحديث أسرع فى تزويجهن .

(٣) فى سرح العيون والمجموعة الأدبية « .. ولا رضيت بهذه الخطة » وقد أخذنا برواية نهاية الأرب ؛ والمعنى : وحياتى لو بلغ بيَ الأمر مبلغه لارتفعتُ عن هذه الذلة ولم أرض بهذه السُّبَّة .

(٤) فى المجموعة الأدبية « من كد ثدييها » ؛ أمثلة ثلاثة تضرب لمن يؤثر التلف على قبح السيرة ؛ فالحر يفضل التعذيب بالنار على احتمال العار ، ويؤثر =

فَكَيْفَ ؟ وَفِي أَبْنَاءِ قَوْمِكَ مَنْكَحٌ وَفِتْيَانُ هِزَّانَ الطِّوَالُ الْغَرَانِقَهْ[١]

* * *

مَا كُنْتُ لأَتَخَطَّى الْمِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ ، وَلَا لأَمْتَطِيَ الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَادِ[٢]
فَإِنَّمَا يَتَيَمَّمُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً ، وَيَرْعَى الْهَشِيمَ ، مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ[٣] وَيَرْكَبُ

== الموت على الذل ، والمرأة الشريفة الحرة ترضى بالجوع ولا ترضى أن تتجر بشرفها وكرامتها ، أو تكون مرضعا بمنزلة الخادم .

(١) البيت للأعشى ، هزان بن يقدم : بطن من العرب ؛ الغرانقة : جمع غرنوق أو غرنيق وهو الشاب الأبيض الجميل ؛ تزوج الأعشى امرأة من عنزة فلم يرضها ، فطلقها وقال فيها من أبيات :

أيا جارتي بيني ، فإنك طالقة كذاك أمور الناس غاد وطارقة
وبيني حصان الفرج غير ذميمة وموموقة فينا كذاك ووامقة
وذوقي فتى قوم ، فإني ذائق فتاة أناس مثلما أنت ذائقة
وكيف ؟ وفي شبان قومك منكح وفتيان هزان الطوال الغرانقة

وفي سرح العيون « فقد كان في أبناء قومك منكح » ؛ وفي المجموعة الأدبية « في أبناء عمي » .

(٢) في سرح العيون والمجموعة الأدبية «ولا أمتطي» وفي نهاية الأرب « دون الجواد » ؛ المعنى : ما كنت لأترك فتيان قومي لأنصرف إليك ، مع أن نسبتك إليهم كنسبة الرماد إلى المسك والثور إلى الجواد ، قال المتنبي :

ومن ركب الثور بعد الجوا د أنكر أظلافه والغبب

الغبب : اللحم المتدلي تحت الحنك .

(٣) في المجموعة الأدبية « فإنما يتيمم من لا ماء له » ؛ الهشيم : النبات اليابس المتكسر ؛ والجميم : النبت الكبير أو الذي نهض وانتشر ، أو الذي ==

الصَّعبَ مَن لا ذَلولَ له(١) ؛

وَأَمَلُكَ إِنْمَاءَ غَرْسِ مَنْ عَلِمْتُ صَبْوَتِي إِلَيْهِ، وَشَهِدْتُ مُسَاعَفَتِي لَهُ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ، وَرَيَاحِينِ الْمِصْرِ(٢) الَّذِينَ هُمُ الْكَوَاكِبُ عُلُوُّ هِمَمٍ وَالرِّيَاضُ طِيبُ شِيَمٍ.

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ
مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي(٣)

فَيُجِنُّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا(٤)، مَا أَنْتَ وَهُمْ ؟ وَأَيْنَ تَقَعُ مِنْهُمْ ؟ وَهَلْ

= طال بعض الطول ولم يتم نموه ؛ والمعنى : يرعى النبات المتكسر من عدم النبات الأخضر الغض ، وفي سرح العيون « من عدم الجميم » ؛ وشبيه بهذا قول أبي علي البصير :

لعمر أبيك ما نُسِبَ المعلى إلى خيرٍ ، وفي الدنيا كريمُ
ولكنّ البلادَ إذا اقشعرّتْ وَصَوَّحَ نبتها رُعِيَ الهشيمُ

(١) الصعب من المطايا : الجامح ؛ والذلول منها : السهل القياد .

(٢) آثرنا رواية نهاية الأرب ، وفي سرح العيون والمجموعة الأدبية « وريحان المصر » ؛ الصبوة : الميل والشوق ؛ المصر : المدينة .

(٣) البيت من شعر عبيد بن العرندس في مدح بني بدر الغنويين من أبيات يقول منها :

هينون لينون أيسارٌ ذوو كرمٍ سُوّاس مكرمة أبناء أيسار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

(٤) من الأمثال « حنّ قدحٌ ليس منها » القدح : أحد قداح الميسر ، وإذا كان أحد القداح من غير جوهر القداح ثم أجاله المفيض خرج له صوت يخالف أصواتها فيعرف أنه ليس منها ؛ ويضرب للرجل يفتخر بقبيلة ليس منها أو يتمدح =

أَنتَ إِلاّ وَاوُ عَمرٍو وَفِيهِم(١) ، وَكَالوَشِيظَةِ فِي العَظْمِ بَينَهُم(٢) ، وَإِنْ كُنتَ

إِنَّمَا بَلَغتَ قَمْرَ تَابُوتِكَ(٣) ، وَتَجَافَيتَ [لِقُمَيصِكَ] عَن بَعضِ قُوتِكَ(٤) ،

= ما ليس فيه ، وتمثل به عمر بن الخطاب حين أراد النبي ﷺ قتل عقبة بن أبي معيط ، فقال عقبة : أأقتَل من بين قريش ؟ فقال عمر : « حنّ قدح ليس منها » ؛ وفى المجموعة الأدبية وسرح العيون « نحن قدح »

(١) المعنى : إنك لست منهم ، فأنت مثل الواو التى تُلْحَق فى الكتابة باسم عمرو ، وليست من حروفه ؛ والمعنى مأخوذ من قول أبى نواس فى أشجع السلمى :

أيهـا المدعى سليما سفاها ... لست منها ولا قلامة ظفـر

إنمـا أنت من سليم كواو ... ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

وروى « قل لمن يدعى ولاء سليم » .

وفى سرح العيون « وأنى تقع منهم » وقد آثرنا رواية نهاية الأرب .

(٢) الوشيظة : قطعة عظم تكون زائدة عن العظم الصميم ، أو قطعة خشب يُشعَب بها القدح ، وهم وشيظةٌ فى قومهم أى حشوٌ فيهم ؛ قال الحسين رضى الله عنه لعمرو بن العاص : « وغلت فى قريش ، وإنما أنت منهـا كالوشيظة فى العظم » .

(٣) لعل معناها : لا زمت منزلك ، واختفيت فيه معظم وقتك بخلا ، حتى لا تتورط فى النفقات ؛ أو لعله : أتيت بآخر ما عندك ، وأنفقت آخر ما عملك لتظهر بمظهر الثراء .

(٤) عبارة (لقميصك) زيادة من نهاية الأرب ؛ والمعنى : تنازلت عن بعض طعامك لتظهر بقميص جديد توهم به الناس أنك ثرى ؛ أى جوعت لتكتسى .

وَعطَّرْتَ أَرْدَانَكَ ، وَجَرَرْتَ هِمْيَانَكَ[1] ، وَاخْتَلْتَ فِى مِشْيَتِكَ ، وَحَذَفْتَ فُضُولَ لِحْيَتِكَ[2] ، وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ ، وَمَطَطْتَ حَاجِبَكَ ، وَرَقَّقْتَ خَطَّ عِذَارِكَ ، وَاسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ[5] ، رَجاءَ الاِكْتِئَابِ فِيهِم

---

(١) الأردان : أكمام القميص ؛ الهميان : السراويل أو كيس يشده الإنسان فى وسطه لحفظ الدراهم ، قال الشاعر :

يشد هميانه على عـــدم وذاك من حمقه ومن تيهه

والمعنى : عطرت ملابسك ، وسحبت ذيول التيه والكبرياء ، أو سحبت كيس النقود إظهارا للثروة والجاه .

(٢) اختال فى مشيته : تبختر وتمايل فيها تيها وكبرا ؛ وحذف فضول لحيته : قص ما تناثر أو شذ فيها من الشعر ليسويها حتى يبدو فى مظهر مناسب .

(٣) مط حاجبيه : تكبر ؛ أو مدهما لجانبى الوجه بقصد الزينة كما تفعل بعض السيدات الآن .

(٤) فى نهاية الأرب « ودققت خط عذارك » ؛ العذار : منبت اللحية من الخدين ؛ والمعنى : إنك سويت مسيل لحيتك فى أعلى خديك وجعلتها رقيقة خفيفة مبالغة منك فى الزينة .

(٥) الإزار : الرداء ؛ والمعنى : استأنفت إصلاح ملابسك ومطابقتها لمقتضيات زينتك .

(٦) آثرنا رواية نهاية الأرب ، وفى سرح العيون والمجموعة الأدبية « رجاء الاكتنان فيهم » ؛ الاكتنان : التستر أى راجيا أن تستتر فى وسط هؤلاء الفتيان « أقمار العصر ورياحين المصر » ، الاكتئاب : الاندماج فى عدادهم من اكتتب : كتب نفسه فى ديوان السلطان مع الخاصة .

وَطمَاً فِي الْأَعْتِدَادِ مِنهُمْ (١) ، فَظَنَنْتَ عَجْـزاً (٢) ، وَأَخْطَأْتَ أُسْتُكَ الْحُفْرَةَ (٣) ؛ وَاللهِ لَوْ كُنْتَ مُحَرِّقَ الْبُرْدَيْنِ (٤) ، وَحَلَّتْكَ مَارِيَةُ بِالْقُرْطَيْنِ (٥) ، وَقَلَّدَكَ عَمْـرُو الصَّمْصَامَةَ (٦) ، وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ عَلَى

(١) الاعتداد منهم : الاندماج فى عددهم .

(٢) المعنى منظور فيه إلى قول الخنساء :

وَمَنْ ظنَّ ممن يلاقى الحـرو بَ ألاّ يصابَ فقـدْ ظنَّ عجزا

(٣) هذا مثلٌ يضرب لمن يطلب أمرا فيخطئه ، أو يتهيأ لمنزلة فلا ينالها .

(٤) محرِّق: هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء الشهير بعمرو بن هند ، وسُمِّىَ مُحرِّقاً لأنه أحرق مائة من بنى حنظلة فى ثأر أخ له ؛ أما قصة البُرْدين فخلاصتها أن وفود العرب اجتمعت عند عمرو بن هند ، فأخرج بردين من لباسه ، وقال : لِيَـقُمْ أعزُّ العرب فليأخذهما ؛ فقام عامر بن أحيمر فأخذهما قائلا : العز كله فى معدّ والعددُ فى معد ، ثم فى نزار ثم فى مضر ثم فى خندف ثم فى تميم ثم فى سعد ثم فى كعب ثم فى بهدلة ؛ فمن أنكر هذا فلينافرنى ؛ فسكت الناس ؛ فقال عمـرو : هذه عشيرتك !! فكيف أنت فى نفسك وأهل بيتك ؟ فقال : أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة ثم أخذ البردين وانصرف ..

(٥) مارية بنت ظالم بن وهب الكندى : زوجة الحارث الأكبر الغسانى ملك الشام ، كان فى قرطيها لؤلؤتان كبيرتان يتوارثهما الملوك ؛ وقد وصلتا إلى إلى عبد الملك بن مروان فأهداهما إلى ابنته لما زوجها لعمر بن عبد العزيز ، ويقال إن مارية أهدتهما إلى الكعبة .

(٦) فى سرح العيون « بالصمصامة » وقد آثرنا رواية نهـاية الأرب ، والمجموعة الأدبية ؛ عمرو بن معديكرب الزبيدى من فرسان العرب المعدودين فى الجاهلية والإسلام ، وقد أبلى فى موقعة القادسية أعظم البلاء وله شعر وأخبار مشهورة ؛ والصمصامة : سيفه ، ويضرب به المثل فى المضاء، يقال إنه توارثه من=

النَّعَامَةِ (١) ، ما شَكَكْتَ فيكَ ، [وَلاَ تَكَلَّمْتَ بِمِلْءِ فيكَ] ، وَلاَ سَتَرْتَ أَبَاكَ ، وَلاَ كُنْتَ إِلاَّ ذَاكَ (٢) .

وَهَبْكَ سَامَيْتَهُمْ فِي ذِرْوَةِ المَجْدِ وَالحَسَبِ ، وَجَارَيْتَهُمْ فِي غَـايَةِ الظَّرْفِ وَالأَدَبِ (٣) ، أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى بَيْتٍ قَعِيـدَتُهُ لَكَاعِ (٤) ؟ .

= هدايا بلقيس لسليمان عليه السلام؛ ويُرْوَى أن عمر بن الخطاب طلبه منه، فبعثه إليه فلم يجده كما سمع، فحدثه فى هذا فقال: إننى بعثتُ إليك الصمصامة، ولم أبعث إليك اليد التى تضرب به .

(١) الحارث بن عباد التغلبى سيد بنى وائل ، والنعامة اسم فرسه ، وكان قد اعتزل حرب البسوس . فلما قتل ابنه فيها اشترك فى خوض غمارها ، وقال :

قربا مربط النعامة منى لَقِحَتْ حرب وائل عن حيالِ

لم أكن من جناتها علم الله ، وإنى بحرها اليوم صالى

(٢) عبارة « ولا تكلمت بملء فيك » زيادة من نهاية الأرب ، المعنى : لو كساك محرق البردين ، وحلتك ماريه بالقرطين . . . ما حلتنى على الشك فيك ، لأن عيوبك أظهر من أن تخفى وأوضح من أن تتوارى خلف التزين والتصنع ؛ وليس لك أن تفتخر بملء فك لأن معايبك تعقل لسانك عن الافتخار ، ولن تقدر أن تستر نسبك الوضيع ؛ وإن تكون إنسانا غيرك ؛ فأنت أنت ، مهما تزينت وتصنعت .

(٣) المساماة : المباراة فى السمو ؛ الذروة : أعلى الشىء ؛ الحسب : ما يعده الإنسان من مفاخره ، أو ما يحسبه من مفاخر آبائه ؛ وقيل : حسب المرء دينه ؛ وقيل : الحسب والكرم يكونان فى المرء وإن لم يكن له آباء له شرفاء ، وقال ابن السكيت مثل هذا ، وزاد أن المجد والشرف لا يكونان إلا بالآباء .

(٤) القعيدة : الزوجة ؛ اللكاع : اللئيمة النفس ، قال الحطيئة فى هجاء زوجته :

أطوّفُ ما أطوف ثم آوى إلى بيتٍ قعيدتُه لكاعِ =

إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبٌ خَالِي الذِّرَاعِ (١) ، وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِهِ ، مِمَّنْ لَا أَغْلِبُ إِلَّا عَلَى الْأَقَلِّ الْأَخَسِّ مِنْهُ (٢) ؟ وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالشَّوْقِ الْوَافِرَةِ ، وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَيَّ ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَيَّ ، وَبَيْنَ آخَرَ قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ضُرَاطُهُ (٣) ؟

وَهَلْ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشَفُ وَسُوءُ الْكِيلَةِ (٤) ؟ وَيَفْتَرِنُ لِي بِكَ

= والمعنى : هبك أحرزت جميع الفضائل منالهم ، ألست متزوجا ؟ وكيف أنصرف عن عزب إلى متزوج ؟

(١) العزب : غير المتزوج ؛ خالي الذراع : كناية عن أنه متحرر لا تتعلق به زوجة ..

(٢) في سرح العيون « ممن لا غلب إلا على الأقل . . . » وقد آثرنا رواية المجموعة الأدبية ونهاية الأرب ؛ والمعنى : كيف أوازن بين زوج أنفرد به ، وآخر لا أنال منه إلا فضلة غيري من الزوجات ؟

(٣) في نهاية الأرب « قد نزحت بيره ونضب غديره » ؛ نضب غديره : جف مجرى مائه ، نزحت بيره : لم يبق بها ماء ؛ والمعنى ؛ كيف أنصرف عن الفتى الفتي المقصور علي وحدي إلى آخر مسن ذهبت حيويته وفتر نشاطه وبرحت به العلل والأمراض ؟

(٤) الحشف : أردأ التمر ؛ الكيلة : اسم هيئة من الكيل ؛ « أحشفا وسوء كيلة ؟ » : مثل يضرب لمن يجمع بين خصلتين كريهتين « سوء البضاعة — وتطفيف الكيل » ، وفي نهاية الأرب « وهل كان يجمع لي فيك إلا الحشف وسوء الكيلة ؟ » .

إِلَّا الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ[1] ؟

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلْمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ[2]

مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ[3] !! وَتَرْبَعَ [بِذَلِكَ] عَلَى ظَلْعِكَ[4] !! وَلَا تَكُونَ بَرَاقِشَ الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا[5] ، وَعَنْزَ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةَ

(١) « غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية !! » مثل يضرب في خصلتين تجتمعان وكل منهما شر من الأخرى ؛ وسببه: أن عامر بن الطفيل وفد على النبي ﷺ فقال : يا محمد ما لي إن أسلمت ؟ قال ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم ؛ قال تجعل لي الأمر بعدك ؛ قال لا ليس ذاك ، إنما ذاك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء ، قال فتجعلني على الوبر وأنت على المدر ؛ قال لا ؛ فقال عامر وهو منصرف : والله لأملأنها عليك خيلا جُرداً وفتيانا مُرداً ، فدعا عليه النبي ﷺ ؛ وعاد عامر ونزل في بيت امرأة من سلول، فلما أصبح ظهرت له غدة كغدة البعير، فلما أحس الموت ، قال : « غُدَّةٌ كغدة البعير وموت في بيت سلولية !! » فصارت مثلا لاقتران المرض بالذل والهوان .

(٢) البيت لأبي العتاهية يخاطب به سلم بن عمرو، ويليه هذا البيت :

هب الدنيـــا تصير إليك عفوا أليس مصير ذلك للزوال ؟

(٣) في نهاية الأرب « ما كان أحقك بأن ... » وفي المجموعة لأدبية « ما كان أخلقك أن ... » ؛ ما أخلقك !! : ما أجدرك !! تقدر بذرعك : تقيس الأمر بجهدك قبل أن تتورط فيه ؛ الذرع : الجهد، ومنه ضاق فلان ذرعا ، وأصل الذرع بسط اليد كأنه جهد في بسطها .

(٤) اربع : أقم ؛ الظلع : النمز في المشي بما يشبه العرج ؛ « اربع على ظلعك » : مثل يضرب لمن يكلف نفسه مالا يقدر عليه ؛ ومعناه : أقم على ضعفك وارفق بنفسك أو اسكت على ما فيك من عيب أو على قدر طاقتك ، وفي نهاية الأرب والمجموعة الأدبية « وتربع على ظلعك » .

(٥) في سرح العيون « ولا تكن براقش » ؛ « على أهلها تجني براقش » :

بِظِلْفِهَا لِحَتْفِهَا[١] ، فَمَا أَرَاكَ إِلاَّ قَدْ سَقَطَ الْعَشَاءُ بِكَ عَلَى سِرحَانٍ[٢] ،
وَبِكَ لاَ بِظَبْيٍ أَعْفَرَ[٣] ، قَدْ أَعْذَرْتُ إِنْ أَغْنَيْتُ شَيًا ، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ

= مثل يضرب لمن يعمل عملا يرجع ضرره إليه ، واختلفت الروايات فى سببه ، وأصحها : أن براقش كلبة لقوم من العرب أغير عليهم فهربوا ، ومعهم كلبتهم براقش ، فاتبع المغيرون آثارهم مستدلين بنباح الكلبة حتى أدركوهم فأوقعوا بهم ؛ قال حمزة بن بيض :

لم تكن عن جناية لحقتنى ... لا يسارى ولا يمينى رمتنى
بل جناها أخ على كريم ... وعلى أهلها براقش تجنى

(١) فى نهاية الأرب والجمهرة الأدبية : « وعنز السوء المستثيرة لحتفها » ؛ ومن الأمثال « الباحثة عن حتفها بظلفها » ؛ وهو مثل يضرب لمن يعين على الإضرار بنفسه ، وسببه أن رجلا أراد ذبح عنز فلم يجد سكينا ، فبينما هو يتطلبها إذ بحثت العنز بظلفها فاستثارت سكينا فذبحها بها .

(٢) « سقط العشاء به على سرحان » : مثل يضرب لمن أراد غنيمة فقادته إلى نكبة ؛ والسرحان : الذئب ؛ ومثله « سقط العشاء به على متقمر » ، والمتقمر : الأسد يطلب الصيد فى القمراء ؛ والمعنى : أراد أن يتعشى فخرج طالبا عشاءه فقادته قدماه إلى ذئب افترسه أو أسد بطش به ، وقال ابن الأعرابى : سببه أن سرحان بن هرلة كان بطلا فاتكا بها ء الناس ، فاندفع رجل بإبله يطلب الرعى فى وادى سرحان ، فهجم عليه سرحان فقتله وأخذ إبله ؛ وقال :

أبلغ نصيحة أن راعى أهلها ... سقط العشاء به على سرحان
سقط العشاء به على متقمر ... طاق اليدين معاود لطعان

فى سرح العيون والجمهرة الأدبية « فما أراك إلا سقط بك العشاء على سرحان » وفى نهاية الأرب « إلا قد سقط العشاء بك على السرحان » .

(٣) « به لا بظبى أعفر » : مثل يضرب عند الشماتة ؛ أى نزل به =

حيًّا(١) ، [وَقَرَعْتُ عَصَا العِتَابِ ، وَحَذَّرْتُ سُوءَ العِقَابِ](٢) : —

إِنَّ العَصَا قُرِعَتْ لِذِي الحِلْمِ   وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي (٣)

وَإِنْ بَادَرْتَ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالمَلَامَةِ ، كُنْتَ قَدْ

= المكروه. ونجا منه الظبي ؛ الأعفر الذي لونه مثل التراب ؛ قاله الفرزدق حينما بلغه نعيُّ زياد ابن أبيه :

أقول له — لما أتاني نَعِيُّه — :   به !! لا بظبي في الصريمة أعفرا

(١) المعنى : لقد أبلغت في عذرك لو سمعت نصيحتي !! وأسمعتك إن كانت بك حياة !! قال دريد بن الصمة :

لقد أسمعتَ لونا دَيْتَ حيًّا   ولكن لا حيـــاة لمن تنادى!!

ولو نار نفختَ بهـا أضاءَتْ   ولكن أنت تنفخ فى رماد

وفى سرح العيون « أعذرت إن أغنيت ... » —

(٢) ما بين القوسين زيادة من نهاية الأرب ؛ والمعنى : لقد نبهتك بالعتاب قبل العقاب ، وحذرتك سوء العاقبة ؛ فلا عذر لك بعد الآن ..

(٣) « إن العصا قرعت لذى الحلم » : مثلٌ يضربُ لمن يَنْتَبِهـُ إذا نُبِّهَ ، وأول من قرعت له العصا عامر بن الظرب ، أو قيس بن خالد ، أو عمرو بن حممة ، وقيل عمرو بن مالك ، وذلك أنه لما طعن فى السن أنكر من عقله شيئا ، فقال لبنيه : إذا رأيتمونى خرجت من كلامى وأخذت فى غيره فاقرعوا لى المجنّ بالعصا ، فكان إذا فعلوا تنبه وعاد إلى صوابه وإليه أشار الحارث بن وعلة فى قوله :

وزعمتُمُ ألاَّ حلومَ لنـــا   إنّ العصا قُرِعَتْ لذى الحـــلم

وقال المتلمس :

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العصا   وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا ليعلما =

اشترَيْتَ العَافيةَ لكَ بالعافيةِ منكَ[1] ، وَإِنْ قُلْتَ : « جعجعةً ، وَلاَ طِحناً »[2] وَ « رُبَّ صَلَفٍ تحتَ الرَّاعِدَةِ »[3] ، وَأَنْشَدْتَ :

لاَ يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وَإِنْ جَرَحَا[4]

فَعُدْتَ لِمَا نُهِيتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتُعْفِيتَ مِنْهُ ، بَعَثْتُ مَنْ

= «الشيء تحقره وقد ينمى» : مثلٌ يضرب للأمر الصغير يكبر ويستشرى أمره ، قال الحارث بن وعلة — وقد قتل بعضُ سادات قومه أخاه — من أبيات :

لا تأمَنَنّ قوما ظلمتهمُ وبدأتهم بالشتم والشتم

أن يأبروا نخـــلا لغيرهم والشيء تحقره وقد ينمى

أي يستولوا على نخل غيرهم فينقلوا طَلْعَ التذكير من ذكوره إلى الإناث

(١) المعنى : إذا ندمت على ما فرط منك ولمت نفسك على ما قدمت من إساءات فإنك بهذا تشترى نجاة نفسك بأن تعفينا من إلحاحك وإلحافك ..

(٢) الجعجعة : صوت الرحى ؛ الطحن : الدقيق ؛ «جعجعةً ولا طِحناً» مثـــل يضرب لمن يعد أو يتوعد ولا يستطيع الوفاء ، ويروى : «أسمع جعجعةً ، ولا أرى طِحناً» .

(٣) السحاب الصلف : كثير الرعد قليل الماء ، وفى المثل « رُبَّ صلف تحت الراعدة » يضرب لمن يتوعد ثم لا يقدر على التنفيذ ؛ أو للبخيل الغنى ؛ أو لمن يكثر الافتخار بلا طائل .

(٤) البيت لبشار بن برد ؛ ومعناه : لا تيأس من الوصول إلى قلب امرأة محجبة وإن أغلظت لك القال ؛ وبعده :

عسرُ النساء إلى مُياسرةٍ والصعبُ يُرْكَبُ بعدماجمحا

يُزْعِجكَ إلَى الخَضْرَاء دَفْماً ، وَيَسْتَحِثكَ نَحْوَهَا وَكْزاً وَصَفْعاً[1] ،
فَإِذَا صِرتَ إلَيْهَا عَبِثَ أَكَّارُوهَا بِكَ ، وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ[2] ،
فَمِنْ قَرْعَةٍ مُعَوَّجَةٍ تَقَوَّمُ فِي قَفَاكَ ، وَمِنْ فُجْلَةٍ مُنْتِنَةٍ يُرْمَى بِهَا
تَحْتَ خِصَاكَ[3] ، [ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ[4]] ، لِتَذُوقَ وَبَالَ

---

(١) استعفى : طلب العفو ؛ الخضراء : المزرعة أو اسم ضيعة ؛ استحث الفارس جواده : صاح به أو خبطه برجل أو ضرب ؛ الوكز : الدفع وهو ضرب الظهر ، وقيل : الضرب بجمع اليد على الذقن أو الظهر ؛ الصفع : الضرب بيد مبسوطة على القفا أو البدن ، فإذا كانت الكف مقبوضة لا يسمى صفعا ؛ والمعنى : إذا عدتَ إلى وقاحتك وتبجحك وادعائك بعث إليك من يسوقك إلى الخضراء ، ويدفعك بالضرب والصفع المتوالى .

(٢) فى نهاية الأرب « صرت بها » ؛ الأكارون : الفلاحون جمع أكار ؛ النواطير : جمع ناطور وهو حافظ الكرم والنخل ، قال المتنبى فى هجاء كافور :

نامتْ نواطيرُ مصرَ عن ثعالبها ... فقد بشمنَ ، وما تفنى العناقيدُ

والمعنى : إذا صرت إلى هـــذه المزرعة انقضّ عليك فلاحوها وحراسها فأذاقوك الوبال .

(٣) المعنى : ينالك الفلاحون والحراس بالضرب والتنكيل فيضربك الجدم بالقرعة المعوجة فى قفاك حتى تستقيم (وهى لا تستقيم أبدا) ، ويدخل آخـــر الفجلة فى دبرك ، حتى يشهروا بك كل تشهير .

(٤) ما بين القوسين ساقط من نهاية الأرب ؛ والمعنى : ذلك بسبب فعلك ؛ والعرب تقول : هـــذا ما كسبت يداك ، أى فعلناه وإن لم تكن اليـــد هى الفاعلة ، قال تعالى : « ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

أَمْرِكَ[١] ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ[٢]

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ　　رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى[٣]



---

(١) فى نهاية الأرب « لـكى تذوق ... » ؛ الوبال : سوء العاقبة ، قال تعالى : — فى شأن من قتل الصيد وهو مُحْرِم — « ليذوق وبال أمره ».

(٢) وترى ميزان قدرك أى تعرف مكانك فلا تتعداه.

(٣) البيت للمتنبى فى هجاء كافور ، وقبله :

وأسود مشفرهُ نصفُه　　يقال له : أنت بدر الدجى

فما كان ذلك مَدْحاً له　　ولكنه كان هجو الورى

ومن جهلتْ نفسُه قدْرَه　　رأى غيرُهُ منه مالا يرى

الرِّسَالةُ الجِدِّيَّةُ

كتب الشاعر هذه الرسالة من سجنه إلى أبى الحـــزم ابن جهور(1).

يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وِدَادِي لَهُ، وَاعْتِمَادِي عَلَيْهِ، وَاعْتِدَادِي بِهِ(2)، [وَامْتِدَادِي مِنْهُ](3)، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ تَعَالَى(4) مَاضِيَ حَدِّ الْعَزْمِ، وَارِيَ

---

(١) يظهر أن هـذه الرسالة وصلت إلينا غير كاملة، بدليل عبـارة ابن بسام فى الذخيرة: « وله من رقعة خاطب بها ابن جهور من موضع اعتقاله » وبدليل قوله فى ثنايا الرسالة: « وفى فصل منها ». وقد اعتمدنا فى تحقيق الرسالة على الجزء الأول من الذخيرة لابن بسّام ص٢٩٢ — ٢٩٧؛ كما اعتمدنا على الجزء السابع من نهاية الأرب للنويرى ص ٢٩٠ — ٣٠٢؛ وعلى تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون للصفدى؛ وعلى الجزء الثانى من المواهب الفتحية للشيخ حمزة فتح الله ص ١٧١ـ٢٠٥.

وقد ذكر الصفدى — فى تمام المتون عند شرحه عبارة « وتأولتُ فى بيعة العقبة » — هذا النص: « هكذا قاله ابن زيدون، وهكذا أثبته ابن بسام عنه فى الذخيرة؛ وكذا نقلته من خط على بن ظافر رحمه الله فى كتاب نفائس الذخيرة له ».

(٢) فى الذخيرة ونهاية الأرب « واعتدادى به واعتمادى عليه »؛ المولى: ابن العم أو الحليف أو المنعم أو المعتِق أو العتيق

(٣) هذه العبارة زيادة فى تمام المتون والمواهب الفتحية

(٤) فى الذخيرة ونهاية الأرب « واعتمادى عليه؛ أبقاك الله ماضى حد العزم»

_ زَنْدِ الْأَمَلِ[1] ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ ؛ إِنْ سَلَبْتَنِي _ أَعَزَّكَ اللهُ _ لِبَاسَ إِنْعَامِكَ[2] ، وَعَطَّلْتَنِي مِنْ حَلْيِ إِينَاسِكَ[3] [وَأَظْمَأْتَنِي إِلَى بَرُودِ إِسْعَافِكَ[4] ، وَنَفَضْتَ بِي كَفَّ حِيَاطَتِكَ[5]] ، وَغَضَضْتَ عَنِّي طَرْفَ حِمَايَتِكَ[6] _ بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ ، وَسَمِعَ الْأَصَمُّ ثَنَائِي عَلَيْكَ[7] ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِنَادِي إِلَيْكَ[8] _ فَلَا غَرْوَ[9] : قَدْ يَغَصُّ

(١) ورى الزَّنْدُ : خرجتْ نارُه عند قدحه ، والمعنى : جعل الله أملك مهيأً مُسعَداً .

(٢) فى المواهب الفتحية « لباس نمائك » .

(٣) المعنى : إن سلبتنى الستر الذى أسدلته علىّ وانتزعت منى ما حليتنى به من أنسك وإقبالك (فلا عجب فى هذا فقد يغص بالماء شاربه ..)

(٤) البرود : البارد ؛ الإسعاف : الإنجاد .

(٥) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب ؛ النفض : الطرح ؛ الحياطة : الإحاطة بالشىء ؛ المعنى : أعطشتنى إلى برد إغاثتك ونفضت منى كفَّ رعايتك .

(٦) غضّ طرْفَهُ : خفض بصره ؛ الحماية : الوقاية ؛ المعنى : صرفتَ عنى بصرك ، وتركت وقايتى ، فصرت عرضة للمصائب والآلام .

(٧) المعنى : لقد أبصر تأميلى لك كلُّ إنسان حتى الأعمى ، وسمع به كلُّ امرىء حتى الأصم ، يشير بهذا إلى قول المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعتْ كلماتى من به صمم

(٨) فى الذخيرة « بإسنادى إليك » وكذلك فى رواية لتمام المتون ، وفى رواية أخرى فيه وكذلك فى المواهب الفتحية « باستحادى إليك » ، وقد آثرنا رواية نهاية الأرب . (٩) لا غرو : لا عجب .

بِالْمَاءِ شَارِبُهُ(١) ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ الْمُسْتَشْفِيَ بِهِ ، وَيُؤْتَى الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ(٢) ، [وَتَكُونُ مَنِيَّةُ الْمُتَمَنِّي فِي أُمْنِيَّتِهِ(٣) ، وَالْحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جُهْدَ الْحَرِيصِ(٤) :

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الْفَتَى   وَتَهُونُ ، غَيْرَ شَمَاتَةِ الْحُسَّادِ(٥)]

---

(١) فى الذخيرة « قد يغص » ، و« قد » هنا للتقليل مثل قولهم : قد يصدق الكذوب ، وقد ينبو الحسام ، وقد يبخل الجواد ؛ والمعنى : إن الماء الذى يزيل الغصة قد يكون هو سببا للغصة ، قال الشاعر :

من غصَّ داوى بشرب الماء غصته   فكيف يصنع من قد غص بالماء؟

(٢) المعنى : ربما قتل الدواء المريض ، وأصيب المحترس من الجهـة التى كان يطمئن إليها .

(٣) المنية : الموت ؛ الأمنية : الأمل ، قال أبو العتاهية :

وقد يهلك الإنسان من باب أمنه   وينجو بإذن الله من حيث يحـذر

استمده من قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

(٤) الحين : الموت ، قال عدى بن زيد :

قد يدرك المبطىء من حظه   والحين قد يسبق جهد الحريص

(٥) ما بين القوسين لم يرد بالذخيرة ؛ والبيت لم يرد فى نهاية الأرب ، وهو لعبد الله بن محمد بن أبى عتبة المهلبى يعاتب ذا اليمينين من أبيات يقول فيها :

من مبلغٌ عنّى الأميرَ رسالةً   محصورة عندى من الإنشادِ؟

وأظن لى منها لديك خبيئة   ستكون عنـد الزاد آخر زاد =

وَإِنِّي لَاتَحَلُّدُ ، [وَأُرِيَ الشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ[١]]؛
فَأَقُولُ : هَلْ أَنَا لِلْأَيْدِ أَدْمَاهَا سِوَارُهَا[٢] ؟ وَجَبِينٌ عَضَّ بِهِ إِكْلِيلُهُ[٣] ؟
وَمَشْرَفِيٌّ أَلْصَقَهُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ[٤] ، وَسَمْهَرِيٌّ عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقِّفُهُ[٥] ؟

= مالي أرى أمري لديك كأنه — من ثقله — طود من الأطواد ؟
كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون ، غير شماتة الحساد

(١) ما بين القوسين ناقص من الذخيرة ، وفي نهاية الأرب « وإني لأتجلد وأرى الشامتين أني لا أتضعضع ، وأقول ... » ؛ وهو مقتبس من بيت لأبي ذؤيب الهذلي في قصيدة يرثي بها أولاده :

وتجلدي للشامتين أريهمو أني لريب الدهر لا أتضعضع

والبيت من قصيدة طويلة أوردها صاحب جمهرة أشعار العرب مطلعها :

أمن المنون وريبها تتوجع ؟ والدهر ليس بمعتب من يجزع

(٢) المعنى : إذا آلمني الأمير بعقابه فقد زانني بإنعامه ؛ فإساءته ناجمة عن إحسانه ، كاليد التي يدميها السوار ؛ وهو معنى مأخوذ من المتنبي حيث يقول :

بنو كعب وما أثرت فيهم يدٌ لم يدمها إلا السوارُ
لها من قطعه ألم ونقص وفيها من جلالته افتخار

(٣) في الذخيرة وبعض نسخ نهاية الأرب « عضه إكليله » ، الإكليل : التاج أو عصابة للرأس مكللة باللؤلؤ .

(٤) مشرفي : سيف منسوب إلى مشارف (نسبة غير قياسية) وهي قرى باليمن مشهورة بصناعة السيوف الجيدة ؛ الصاقل : الحداد الذي يجلو السيوف .

(٥) السمهري : الرمح الصلب ، أو منسوب إلى سمهر وهو رجل اشتهر بتقويم الرماح ؛ والتثقيف : التقويم .

[وعبدٌ ذهَب به سيّدُه مذهَب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا ، ومن يكُ حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحمُ][1]

هذا العتبُ محمودٌ عواقبه[2] ، وهذه النبوةُ غمرةٌ ثم تنجلي[3]،

وهذه النكبةُ سحابةُ صيفٍ عن قريبٍ تقشَّعُ[4] ، [ولن يريبني من

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة ؛ الازدجار : الارتداع ؛ والبيت من قصيدة لأبي تمام في مدح مالك بن طوق مطلعها :

أرض مصردة وأخرى تثجم منها التي رزقت وأخرى تحرم

(٢) في الذخيرة ونهاية الأرب « والعتب محمود عواقبه ، والنبوة ... والنكبة ... » ؛ العواقب : جمع عاقبة ، وهي آخر كل شيء ؛ وقد أخذ هذه العبارة من قول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

(٣) النبوة : البعد أو الجفوة ؛ الغمرة : الشدة الشديدة ؛ تنجلي : تذهب وتنكشف ، ومن الأمثال « غمرات ثم ينجلين » ومنه قول الراجز :

الغمرات ثم ينجلين . . . عنا ، وينزلن بآخرين . . . شدائد يتبعهن لين

وقال شرف الدين المبارك :

وما هي إلا غمرة ثم تنجلي سريعا ، وإلا نبوة تتصرم

(٤) آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب ، وفي عامة المتون « عن قليل تقشع » ؛ تقشعت السحابة : أقلعت ، قال ابن الخياط :

سحابة بر آن منها انقشاعها وأيكة مجد حان منها ذبولها

سَيِّدِى أَنْ أَبْطَأَ سَحَابُهُ[1] ، أَوْ تَأَخَّرَ - غَيْرَ ضَنِينٍ - غَنَاؤُهُ[2] ، فَأَبْطَأُ الدِّلَاءِ فَيْضًا أَمْلَؤُهَا[3] وَأَثْقَلُ السَّحَائِبِ مَشْيًا أَحْفَلُهَا[4] وَأَنْفَعُ الْحَيَا مَا صَادَفَ جَدْبًا[5] ، وَأَلَذُّ الشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَلِيلًا[6] ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ[7] ،

---

(١) فى رواية تمام المتون « أن أبطأ سقيه » ؛ يريبنى : يحملنى على الشك والارتياب.

(٢) ضنين : بخيل ؛ غناؤه : نفعه.

(٣) من الأمثال « لعل أبطأ الدلاء أملؤها » ، قال ابن المعتز :

قلت : — وقد صاح دافقا بدمـ ـــه دعوا البرايا فالله يكاؤها
واستبقوا بالدواء مقـــه ، كما أبطأ وفر الدلاء أملؤها

(٤) أحفلها : أكثرها امتلاء ، قال المتنبي :

ومن الخـــير بطء سيبك عنى أسرع السحب فى المسير الجهام

(٥) الحيا : المطر ، الجدب : القفر ، وشبيه به قول ابن حيوس :

وإن ألذ القرب ما قبـــله نوى وأحلى وصال ما تقدمه صـــد

(٦) الغليل : العطش ، ومنه قول كشاجم :

هذا الشراب أخو الحياة ، وماله من لذة حتى يصيب غليلا

(٧) من الأمثال « إن مع اليوم غدا » : أى إن الحالات تتغير ، والدول تتقلب ، قال ابن طباطبا العلوي :

يا من يخاف أن يكو ن ــ ما يكون ــ سرمدا
أما سمعت قولهم : إن مع اليـــوم غـــدا؟

وَلِـكُلِّ أَجَلٍ كِتَابُ(١) .

لَهُ الْحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ(٢) وَلاَ عَتْبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ(٣)] :

فَإِنْ يَـكُنِ الْفِعْلُ الَّذِى سَاءَ وَاحِدًا   فَأَفْعَالُهُ اللاَّئِى سَرَرْنَ أُلُوفُ(٤)

* * *

(١) الأجل : المدة ، والجملة مقتبسة من الآية الـكريمة « وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، لـكل أجل كتاب » ومعناها : لـكل أجل كتاب أثبته الله فيه لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، قال تعالى : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

(٢) الاهتبال : الاغتنام والاحتيال ، أو التكل ، أو الفرصة ، أو القصاص ، وفى الحديث « من اهتبل جوعة مؤمن كان له كيت وكيت » أى تحينها واغتنمها ؛ واهتبل وتهبل : تكسب ، والهبال : الـكاسب المحتال ؛ والمعنى : للأمير الحمد على ما أغتنمى إياه .

(٣) ورد ما بين القوسين فى الذخيرة ونهاية الأرب كما يأتى : « من قريب تقشع ، وسيدى إن أبطأ معذور ؛ فإن يكن الفعل .. » الإغفال : الترك والإهمال ، وقريب من هذا قول البهاء زهير :

ومن شقنى فيكم وجدى أننى   أهوّن ما ألقاه وهو هوان
ويحسن قبحُ الفعل إن جاء منكمُ   كما طاب ريح العود وهو دخان

(٤) هذا البيت للمتنبى من أبيات يعاتب فيها أبا العشائر على أن أغرى به غلامه فرماه بنبله قائلا : خذها وأنا غلام أبى العشائر ، فقال المتنبى :

ومنتسب عندى إلى من أحبه   وللنبل حولى من يديه حفيف
فهيج من شوقى ، وما من مذلة   حننت ، ولـكن الكريم ألوف
فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا   فأفعاله اللائى سررن ألوف

وَأَعُودُ فَأَقُولُ : (١)

[مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِى لَمْ يَسَعْهُ عَفْوُكَ ؟ وَالجَهْلُ الَّذِى لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ ؟ وَالتَّطَاوُلُ الَّذِى لَمْ يَسْتَغْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ (٢) ؟ وَالتَّحَامُلُ الَّذِى لَمْ يَفِ بِهِ احْتِمَالُكَ ؟ (٣) وَلاَ أَخْلُو مِنْ أَنْ أَكُونَ بَرِيئاً فَأَيْنَ العَدْلُ ؟ أَوْ مُسِيئاً فَأَيْنَ الفَضْلُ (٤) ؟

إِلاَّ يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِى ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ (٥)

---

(١) فى الذخيرة بدل هذه العبارة « وليت شعرى ما الذنب ..؟ » ؛ وفى نهاية الأرب « فليت شعرى ما الذنب .؟ »

(٢) التطاول والاستطالة : الترفع والتكبر ؛ وفى الحديث « أربى الربا الاستطالة فى عرض الناس » أى استحقارهم والترفع عليهم والوقيعة فيهم ، التطول : التفضل والاحسان .

(٣) التحامل : التكلف على مشقة ، وتحامل على نفسه : تكلف الأمر على مشقة ، والتكلف أيضا : الميل ، يقال : تحامل عليه أى مال عليه ؛ الاحتمال : العفو والإغضاء .

(٤) فى إحدى روايات تمام المتون « بريئا فأين عدلك ؟ أو مسيئا فأين فضلك ؟ » .

(٥) البيت للبحترى فى مدح الخليفة المتوكل وعتابه من قصيدة مطلعها :

شوق إليك تفيض منه الأدمع وجوى عليك تضيق عنه الأضلع

حَنَانَيْكَ(١) ! ! قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى(٢)، وَنَالَنِي مَا حَسْبِي بِهِ(٣) ! ! وَكَفَى ! !](٤) وَمَا أَرَانِي إِلاَّ لَوْ [أَنِّي](٥) أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَأَبَيْتُ [وَاسْتَكْبَرْتُ(٦)]، وَقَالَ لِي نُوحٌ : « ارْكَبْ مَعَنَا » فَقُلْتُ : « سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ(٧) » وَأُمِرْتُ بِبِنَاءِ

---

(١) حنانيك ! ! وال حنانك ورحمتك حناناً بعد حنان ، قال طرفه بن العبد للنعمان بن المنذر :

أبا منذر أفنيت ! ! فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

(٢) الزبى : جمع زبية وهى حفرة تتخذ لصيد الأسود وتختار فى مكان مرتفع لا يعلوه الماء ، فإذا بلغها السيل كان جارفا مجحفا ؛ وهذا مثل يضرب لكل ما تجاوز الحد .

(٣) المعنى : لقد أصابنى ما فيه كفاية لى من الآلام .

(٤) ورد ما بين القوسين فى الذخيرة ونهاية الأرب على الصورة الآتية :

« ما الذنب الذى أذنبت ولم يسعه العفو ؟ ولا أخلو من أن أكون بريئا فأين العدل ؟ أو مسيئا فأين الفضل ؟ » .

(٥) زيادة عن تمام المتون والمواهب الفتحية .

(٦) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة ؛ أخذ الشاعر يعدد كبار الذنوب، ويقول: لو أنى ارتكبتها جميعا لكفانى ما نالته من عقابك ؛ وكان أولى به أن يعدد مواقف الصفح ويشيد بمواقف الحلماء ؛ وقد ابتدأ بذكر إبليس وتكبره عن السجود لآدم عصيانا منه لأمر الله ..

(٧) أشار إلى قصة سيدنا نوح عليه السلام وطلبه من ابنه الجاحد أن =

الصَّرْحَ[1] لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى[2]] ، وَعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ[3] ،
وَاعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ[4] ، وَتَعَاطَيْتُ فَعَقَرْتُ[5] ، وَشَرِبْتُ مِنْ مَاءِ النَّهْرِ

= ركب معه فى السفينة لينجو من الطوفان فرفض وقال : «سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء » فقال له أبوه : « لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »؛ « سورة هود آية ٤٢ ، ٤٣ » .

(١) الصرح : القصر أو كل بناء عال ، يشير إلى قصة فرعون وطلبه من وزيره هامان بناء صرح عال كما ورد فى الآية الكريمة « وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا » سورة غافر : ٣٦ : ٣٧ .

(٢) ما بين القوسين « وقال لى نوح ... إله موسى » ساقط من التذخيرة .

(٣) إشارة إلى العجل الذى صنعه السامرى لبنى إسرائيل فعبدوه من دون الله ولم ينتظروا رجوع موسى عليه السلام من المناجاة « راجع قصته فى سورة الأعراف ١٤٨ — ١٥٢ ، وسورة طه : ٨٣ — ٩٨ »

(٤) إشارة إلى تحريم الصيد على بنى إسرائيل يوم السبت وعصيانهم لهذا الأمر وانتقام الله منهم « سورة الأعراف : ١٦٣ » .

(٥) تعاطى : قام على أطراف أصابع رجليه ، ثم رفع يده متهيأ للضرب أو الطعن ؛ عقر : جرح ، وعقر البعير : ضرب قوائمه بالسيف أو ذبحه ؛ إشارة إلى قصة الناقة التى خلقها الله من الصخر معجزة لنبيه صالح عليه السلام فعقرها أحد الطغاة من قومه ثمود « سورة القمر : ٢٧ — ٣٠ ، وسورة الشمس : ١١ — ١٥ » . وقد وردت هذه العبارة فى نهاية الأرب قبل قوله « وأمرت ببناء الصرح ... »

الَّذِى ابْتُلِىَ بِهِ جُنُودُ طَالُوتَ[1] ، وَقُدْتُ الْفِيلَ لِإِبْرَهَةَ[2] ،
وَعَاهَدْتُ قُرَيْشًا عَلَى مَا فِى الصَّحِيفَةِ[3] ، وَتَأَوَّلْتُ فِى بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ[4] ،

(١) فى الذخيرة « وشربت من النهر » ؛ وفى بعض نسخ تمام المتون « جيوش طالوت » وكذلك فى المواهب الفتحية ، وقد آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب وما صح من تمام المتون مسايرة للفظ القرآن الكريم ؛ والإشارة هنا إلى أن الله بعث طالوت ملكا لبنى إسرائيل لينتقم من عدوهم الطاغية جالوت ، وقد أوصى طالوت جنده ألا يشربوا من النهر فعصى معظمهم أمره « فشربوا منه إلا قليلا منهم » سورة البقرة : ٢٤٦ — ٢٥٢ »

(٢) إشارة إلى قصة إبرهة وتجهيزه جيشا لهدم الكعبة يقدمه فيل ضخم ؛ فلما وصل إلى مكة شتت الله شمل الجيش وحطم جنوده فرجع منهزما مكسورا « سورة الفيل » وفى الذخيرة « وقدت لإبرهة الفيل » .

(٣) لما رأى مشركو مكة انتشار الإسلام وإيمان عمر بن الخطاب وغيره من الأشراف به اجتمعوا وتعاهدوا على ألا يبايعوا ولا يصاهروا بنى هاشم ولا يتجروا معهم ، وكتبوا هذا العهد فى صحيفة علقوها فى جوف الكعبة توثيقا وتوكيدا ، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى شعب أبى طالب وظلوا كذلك سنتين أو ثلاثا حتى أجهدهم الضيق ، وكان لا يصل إليهم شئ إلا سرا يستخفى به من أراد صلتهم من قريش ؛ حتى نقض الصحيفة نفر من عقلاء قريش .

(٤) إشارة إلى بيعة الأنصار للنبى صلى الله عليه وسلم بالعقبة التى بين مكة ومنى ، وهى ثلاث بيعات : بايعه فى الأولى ستة من الأوس ، وفى الثانية اثنا عشر منهم الستة الذين بايعوه أولا ، وفى الثالثة سبعون وامرأتان ؛ وروى الصفدى أن الذين بايعوه أخيرا ثلاثة وتسعون وامرأتان ؛ قال الصفدى : « لم أقف مما علمته على أن أحدا من أهل العلم بالسير تأول فى بيعة من البيعات أو صدر منه بعد المبايعة فعل يخالف قوله » ثم أول كلام ابن زيدون بأن مراده : لو حدث أن أحدا نقض البيعة متأولا ونقضتها مثله مفترا هذه الكبيرة ... (لكان فيما نالنى من العقاب ما يكفى) :

وَنَفَرْتُ إِلَى العِيرِ بِبَدْرٍ (١)، وَاتَّخَذَتْ بِنْتُ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ (٢)، وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ العَصْرِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ (٣)، [وَجِئْتُ بِالإِفْكِ عَلَى عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ (٤)]،

(١) يشير إلى غزوة بدر الكبرى، فقد علم أبو سفيان زعيم المشركين أن المسلمين سيتعرضون لقافلته التجارية أثناء عودته من الشام، فخالف الطريق المعهود، وأرسل إلى قريش بمكة يستنفرهم إلى إنقاذ أموالهم، فنفروا سراعا والتحموا مع المسلمين فى موقعة بدر الكبرى ونصر الله الإسلام؛ العير: الإبل التى تحمل الميرة ثم غلب على كل قافلة .

(٢) أحد: جبل يقع شمال المدينة التحم عنده المسلمون بالمشركين فقتـل من المسلمين حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم وكثير من أبطالهم، وانخذل عن المسلمين عبدُ الله بن أبيّ بن سلول — رأس المنافقين بالمدينة — بثلث الناس، وترك النبيَّ وأصحابه فى الميدان .

(٣) ما كاد المسلمون يضعون سلاحهم بعد غزوة الخندق حتى أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالنهوض لغزو بنى قريظة قائلا: «لا يصلّينّ أحد منكم العصرَ إلا فى بنى قريظة» فنفروا إليها، وأدركتهم العصر بالطريق فصلاها بعضهم فهماً منه لأمر النبى ﷺ بأن القصد منه السرعة، وأخَّرها الباقون حتى فات وقتها امتثالا لنص الأمر الكريم، فلم يعنِّف رسول الله ﷺ أحدا منهم فلا وجه لان زيدون فى عدّ التخلف من الذنوب؛ وفى الذخيرة «وتخلفت عن صلاتى ....» .

(٤) لم ترد هذه الجملة فى الذخيرة، ولم ترد كلمة «الصديقة» فى نهاية الأرب؛ وملخص حديث الإفك أن النبى ﷺ قفل من غزوة بنى المصطلق، وكانت السيدة عائشة أم المؤمنين معه، فتخلفت فى مرحلة بالطريق تلتمس عقداً انفرط منها، ثم أدركها صفوان بن المعطل السلمى فأركبها بعيره ولحق بها الجيش، فأطلق المنافقون ألسنتهم فيهما بغياً وبهتانا حتى نزل القرآن الكريم ببراءتهما «سورة النور: ١١ — ٢٦» .

وَأَنِفْتُ مِنْ إِمَارَةِ أُسَامَةَ[1]، وَزَعَمْتُ أَنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً[2]،
وَرَوَيْتُ رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ[3]، [وَزَرَفْتُ الْأَدِيمَ الَّذِي بَارَكَتْ

(١) فى نهاية الأرب « وأبيتُ من إمارة أسامة » ؛ يشير إلى أن النبي ﷺ أعد جيشا لغزو الروم وأمَّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة ، وكان فى هذا الجيش كبار المهاجرين الأولين مثل أبى بكر وعمر وأبى عبيدة ... فانتقد جماعة إمرة أسامة على هذا الجيش وفيه أمثال هؤلاء ، وهو شاب لم يبلغ سبع عشرة سنة ، وبخاصة أن أباه من الموالى أعتقه رسول الله ﷺ ؛ فلما بلغ النبيَّ هذا النقدُ غضب غضباً شديدا ، وكان مريضا فخرج من بيته ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس ، فا مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة ؟ ولئن طعنتم فى تأميرى أسامة لقد طعنتم فى تأميرى أباه من قبله ، وايم الله إنه كان لخليقا بالإمارة ، وإن ابنه من بعده لخليق بها » فأذعن الجميع ، وتوفى النبي ﷺ فأمضى أبو بكر إنفاذ هذا الجيش بقيادة أسامة ؛ وللنبي ﷺ حِكَمٌ فى هذه الإمارة منها تشجيع الشباب وتأهيله لمهامّ الأمور ، ومنها المساواة بين السادة والموالى ، ومنها أن يأخذ أسامة بثأر أبيه من الروم ، فضلا عن أن أسامة بهذه الإمارة جدير .

(٢) فى الذخيرة « وزعمتُ أن خلافة الصديق فلتة » وفى نهاية الأرب « أن خلافة أبى بكر كانت فلتة » وقد وردت هذه الجملة فى خطبة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما بلغه أن ناسا يقولون : لو مات أمير المؤمنين لنبايعنَّ فلانا ، فقال من خطبة طويلة : « ... وقد بلغنى أن قائلا يقول : لو مات عمر بايعتُ فلانا ، فلا يغترَّنَّ امرؤ منكم أن يقول : كانت بيعة أبى بكر فلتة ، وليس فيكم من تقطعُ دونه الأعناق مثل أبى بكر وإنه كان من خيرنا ... » .

(٣) كان أبو شجرة السلمى من فُتَّاك العرب جمع قومه والمرتدين من العرب لقتال خالد بن الوليد بعد قضائه على المرتدين من بنى حنيفة ، وقال فى هذا :

ورويتُ رمحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعد أن أعمّرا =

يدُ اللهِ فيه [(1)]، وَضَحِّيتُ بالأَشمطِ الذي عُنوانُ السُّجودِ بِه [(2)] [وَ بَذَلْتُ لِقَطَامِ :
ثَلاثَةَ آلافٍ وَعَبْدًا وَقَيْنَةً وَضَرْبَ عَلِيٍّ بالحُسَامِ المُسَمَّمِ [(3)]

= وعارضتها شهباء تخطر بالقنا ترى البيض فى حافاتها والسَّنَوَّرا

السَّنَوَّر : لبوس من الجلد كالدرع، أو جملة السلاح ؛ ثم أسلم أبوشجرة بعد هذا .

(1) لم ترد هذه الجملة بالذخيرة ؛ وفى تمام المتون « باركت يد الله عليه » ؛ الأديم: الجلد ؛ يشير إلى فتك أبى لؤلؤة المجوسى بعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين طعنه بخنجره ، وقول الشماخ فيه :

جزى الله خيرا من إمام ، وباركتْ يدُ الله فى ذاك الأديم المُزَّقِ

(2) الأشمط : الذى فى شعره بياض يخالطه سواد ؛ عنوان السجود به : فى جبهته أثر من كثرة السجود، قال تعالى « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » والإشارة هنا إلى مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه وقول حسان فى رثائه :

ضَحَّوْا بأشمط عنوان السجود به يقطِّعُ الليــلَ تسبيحا وقرآنا

لتسمعنَّ وشــيكا فى ديارهمُ « الله أكبرُ، يا ثارات عثمانا !! »

(3) فى نهاية الأرب « بالحسام المخذَّم » أى المرهف القاطع : والإشارة هنا إلى مصرع الإمام علىّ رضى الله عنه بيد عبد الرحمن بن ملجم ، وكان قد تقدم لخطبة قطام فاشترطت عليه أن يبذل فى صداقها : ثلاثة آلاف وعبدا وجارية مغنية وقتل علىّ ، فقال :

ثلاثةُ آلافٍ وعبــدٌ وقينةٌ وضربُ علىٍّ بالحسام المسمَّمِ

فلا مهر أغلى من علىٍّ ، وإن غلا ولا فتكَ إلا دون فتك ابن ملجم

وقال لها : والله ما أتيتُ إلا لفتكٍ به ، ولا أقدمنى هذا المصرَ غيرُ ذلك ؛ وعبد الرحمن بن ملجم أحد ثلاثة من الخوارج تآمروا على اغتيال على ومعاوية وعمرو بن العاص فأصاب الأولُ وأخفق الأخيران .

وَكَتَبْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ : أَنْ جَعْجِعْ بِالْحُسَيْنِ(١) وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَمَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ(٢) :

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلْ(٣)
(قَدْ قَتَلْنَا الْقَرْنَ مِنْ أَشْيَاخِهِمْ وَعَدَلْنَاهُ بِبَدْرٍ فَاعْتَدَلْ)(٤)

(١) قاد عمرُ بن سعد بن أبى وقاص جيشا لقتال الحسين رضى الله عنه حين خرج إلى الكوفة بإشارة من أهلها ليبايعوه ، وقد سها ابن زيدون حيث جعل الرسالةَ مرسلة إلى عمر بن سعد ، والحقيقة أن الرسالة كتبها عبيد الله ابن زياد إلى الحر بن يزيد التميمى الذى انتدبه لقتال الحسين يقول فيها :

« أما بعد فجعجعْ بالحسين حين يبلغك كتابى ، ويقدم عليك رسولى ، فلا تنزله إلا بالعراء ، فى غير حصْن وعلى غير ماء ... » ؛ جعجع به : احبسه أو ضيّق عليه .

(٢) حرّة واقم : إحدى حرّتَى المدينة وهى الشرقية ، وسبب الوقعة أن أهل المدينة ثاروا فى سنة ٦٣ هـ على يزيد بن معاوية وخلعوا بيعته وحاصروا بنى أمية بالمدينة ، فبعث إليهم يزيد بجيش يقوده مسلم بن عقبة ، فقتل عددا كبيرا من الرجال واستباح الدماء والأموال ؛ ولهذا سُمّى مسلم «مُسْرِفاً» لشدة سرفه فى سفك الدماء ، وقد تمثل يزيد بالبيتين ، وهما من شعر عبد الله بن الزبعرى فى الفخر بانتصار المشركين على المسلمين فى أحد .

(٣) فى بعض نسخ تمام المتون « ليت أشياخى ببدر علموا » ، الأسل : الرماح

(٤) لم يرد هذا البيت فى صلب الرسالة إلا فى نهاية الأرب . القَرْنُ : السيد ، القِرن : كفؤك فى الشجاعة أو من يقاومك فى علم أو قتال أو غير ذلك ؛ والبيتان لعبد الله بن الزبعرى مفتخرا بانتصار قريش على المسلمين يوم أحد ، ورواية الشطر الأول من البيت الثانى فى سيرة ابن هشام « فقتلنا الضعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر ... » .

وَرَجَمْتُ الْكَعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِذَ بِهَا(١) عَلَى الثَّنِيَّةِ(٢)] لَكَانَ فِيمَا جَرَى عَلَيَّ مَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُسَمَّى نَكَالاً ، وَيُدْعَى - وَلَوْ عَلَى الْمَجَازِ - عِقَابَاً :

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِامْرِيءٍ تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا(٣)

* * *

فَكَيْفَ(٤) ؟ وَلاَ ذَنْبَ إِلاَّ نَمِيمَةٌ أَهْدَاهَا كَاشِحٌ ، وَنَبَأٌ جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ(٥) ، [وَهُمُ الْهَمَّازُونَ الْمَشَّاءُونَ بِنَمِيمٍ(٦) . وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ

---

(١) زيادة عن نهاية الأرب .

(٢) ما بين القوسين لم يرد بالذخيرة ، والإشارة هنا إلى محاصرة الحجاج لمكة المكرمة أثناء ثورة عبد الله بن الزبير بها ، وقذفه المسجد الحرام بحجارة المنجنيق من فوق جبل أبي قبيس حتى تهدّم ، ثم قتله عبد الله بن الزبير وصلبه إياه على الثنيّة . وقد سُمّى عبد الله بن الزبير عائذاً لأنه عاذ ببيت الله الحرام .

(٣) المعنى : لو فعلت هذه الذنوب جميعها لكان ما وقع عليّ من العقاب كافيا بل كان فوق ما أستحق من جزاء ، وأصبح تنكيلا ، وحسبك من العقاب ما يثير رحمة الأعداء قبل الأولياء . والبيت للمتنبي ، وقيل لعَبْد الصمد بن المعذّل .

(٤) المعنى : كيف أتعرض لهذا النكال ؟ وألاقي هذا العقاب ؟ مع أني غير مذنب .

(٥) النميمة والنميم : السعي بين الناس بالفتنة ونقل الأحاديث المثيرة الكاذبة للإيقاع والإغراء ؛ الكاشح : الذي يضمر العداء ؛ الفاسق : الخارج عن طاعة الله ؛ قال تعالى « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

(٦) الهمازون : المغتابون الطعانون الذين يتناولون أعراض الناس بالتشهير ؛ النميم : النميمة وهي نقل الكلام السيء بقصد الوقيعة ؛ قال تعالى في حق الوليد=

لاَ يَنْبَغُونَ أَنْ يَصْدَعُوا الْعَصَا[1] ، وَالْغُوَاةُ الَّذِينَ لاَ يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا[2] ، وَالسُّعَاةُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ[3] ، فَقَالَ : « مَا ظَنُّكَ بِقَوْمِ الصِّدْقُ مَحْمُودٌ إِلاَّ مِنْهُمْ »[4] .

= ابن المغيرة « ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم... » ؛ وقال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة نمام » .

(١) الصدع : الشق ؛ صدع العصا : تفريق الجماعة ، أو الخروج على جماعة المسلمين ، قال كثير عزة :

لعمر أبي الواشين لا عَمْرُ غيرهم　　لقد كلفوني خطة لا أريدها
ولا يلبث الواشون أن يصدعوا العصا　　إذا هي لم يصلب على البرى عودها

(٢) الغواة : جمع غاو وهو الضال أو الخائب ؛ الأديم : الجلد ؛ كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج « والبيتان ينسبان إلى الإمام علي » :

ولا تُفْشِ سرّك إلا إليك　　فإنّ لكل نصيح نصيحا
فإني رأيت غواة الرجا　　ل لا يتركون أديما صحيحا

(٣) السعاة : جمع ساع وهو الماشي ، ثم غلب في العرف على من يذكر الناس بالسوء ويسعى بينهم بالوقيعة ؛ الأحنف بن قيس : سيد من سادات تميم ضُرب به المثل في الحلم والسؤدد والحكمة ، ومن حكمه : رب غيظ قد تجرعتُه مخافة ما هو أشد منه ؛ ثلاث ما أقولهن إلا ليعتبر معتبر : لا أخلف جليسي بغير ما أحضره به ، ولا أُدخِل نفسي فيما لا مَدْخَلَ لي فيه ، ولا آتي السلطانَ أو يرسل إلي . وسأله معاوية يوما في أمر بلغه عنه ، فأنكر الأحنف ، فقال معاوية : الثقة بلغني ، فقال الأحنف : الثقة لا يبلغ .

(٤) المعنى : الصدق رأس الفضائل ، والكذب أسوأ الرذائل ، ولكن الصدق في بعض المواطن وبال ؛ ولهذا يُستَحسَنُ الكذب في الصلح بين متخاصمين ، أو في الكيد للأعداء في ميادين القتال ، أو في دفع شر محقق عظيم النكال .

حَلَفْتُ فَلَمْ أُتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً   وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ](١)

وَاللهِ ما غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحةِ(٢)، وَلاَ انْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاغِيَةِ(٣)،

وَلاَ نَصَبْتُ لَكَ بَعْدَ التَّشَيُّعِ فِيكَ(٤)، [وَلاَ أَزْمَعْتُ يَأْساً مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ

تَكَفَّلَتْ بِهِ الثِّقَةُ عَنْكَ(٥)، وَعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ](٦)؛ فَفِيمَ

---

(١) البيت من قصيدة للنابغة الذبيانى يعتذر فيها للنعمان بن المنذر، ومعناه: لقد أقسمت لك على براءتى، فلم أدع لك مجالا للشك، وليس ثمت حكم نحتكم إليه بعد الله. وبعد هذا البيت بأبيات:

لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عنى خيانة   لَمُبْلِغُكَ الواشى أغش وأكذب

وما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب.

(٢) الغش: التدليس والتضليل؛ قال صلى الله عليه وسلم «من غشنا فليس منا».

(٣) الانحراف: الميل عن الشيء؛ الصاغية إلى الشيء: الميل إليه؛ قال تعالى: «إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما».

(٤) نصب له: عاداه؛ التشيّع: الميل إلى قوم والدخول فى أمرهم؛ والكاتب يقصد هنا: الناصبة وهم أعداء علىّ عليه السلام وأسرته من بعده، والشيعة وهم أنصاره وأنصار ذريته من بعده.

(٥) قال الخليـــل: أزمع فلانٌ على الأمر: ثبّت عزمه عليه؛ وقال الكسائى: يقال أزمعتُ الأمر ولا يقال أزمعت عليه؛ تكفل بشيء: ضمنه وتعهد بأدائه.

(٦) العهد: الوثق أو اليمين أو الوصية؛ قال تعالى: «وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسئولا»؛ وما بين القوسين لم يرد بالذخيرة ولا نهاية الأرب.

عَبِثَ الجُفَاةِ بِأَذِمَّتِي(١) ؟ وَعَاثَ الْعُقُوقُ فِي مَوَدَّتِي(٢) ؟ [وَتَمَكَّنَ الضَّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ وَلِمَ ضَاقَتْ مَذَاهِبِي ؟ وَأَكْدَتْ مَطَالِبِي(٣) ؟ وَعَلَامَ رَضِيتُ مِنَ الْمَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ(٤) ؟ بَلْ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ؟](٥) ، وأَنَّى غَلَبَنِي الْمُغَلَّبُ ؟ وَفَخَرَ عَلَيَّ الْعَاجِزُ الضَّعِيفُ(٦) ؟ وَلَطَمَتْنِي غَيْرُ ذَاتِ

---

(١) العبث : اللعب أو اللهو أو الإفساد ؛ الأذمة : جمع ذمام وهو الحرمة وصلة المودة أو القربى .

(٢) فى الذخيرة ونهاية الأرب « وعاث فى مودتى » وفى تمام المتون « فى مواتّى » المواتّ : جمع ماتّة وهى الحرمة أوالوسيلة ؛ عاث : أفسد ؛ العقوق : كفران النعمة ومنه عقّ الولد أباه إذا جحد فضله وأساء جزاءه .

(٣) المذاهب : الطرق ؛ أكدى : منع ، قال تعالى : « أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى » وأكدى الحافر : بلغ الكدية من الأرض فلم يستطع حفرها ، وأكدت الأرض : أبطأ نباتها ، وأكدى الرجل : قل خيره .

(٤) من الأمثال : « إرضَ من المركب بالتعليق » أى اكتف من الركوب بتعليق أمتعتك على الدابة أى اقنع من عظيم الأمر باليسير .

(٥) من الأمثال « رضى من الغنيمة بالإياب » قال امرؤ القيس :

وقد طوّفت فى الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

أى قنعت من الغنائم بسلامة الودة ، ومثله قول البحترى :

وكان رجائى أن أءوب مملكا ... فصار رجائى أن أءوب مسلما

وما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب .

(٦) فى الذخيرة « فخر على الضعيف » ؛ أنى ؟ : كيف ؟ ، المغلَّب : المغلوب ، قال امرؤ القيس :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ... ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغلَّب

سِوَارِ (١) ؟ وَمَالَكَ لَا تَمْنَعُ مِنِّي قَبْلَ أَنْ أَفْتَرِسَ ؟ وَتُدْرِكُنِي وَلَمَّا أُمَزَّقْ ؟ (٢)
أَمْ كَيْفَ لَا تَتَضَرَّمُ جَوَانِحُ الْأَكْفَاءِ حَسَدًا لِي عَلَى الْخُصُوصِ بِكَ (٣) ؟
وَتَتَقَطَّعُ أَنْفَاسُ النُّظَرَاءِ مُنَافَسَةً فِي الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ ؟ (٤)

---

(١) من الأمثال « لو ذات سوار لطمتنى !! » أى لو ظلمنى من كان كفئا لى لهان الأمر علىّ . ولكن ظلمنى من هو دونى وكانت العرب قلما تلبس الإماء السوار ، فهو يتألم من أن أمة لطمته ، ويروى أن قائل المثل حاتم الطائى وكان أسيرا فلطمته أمة فقاله ؛ ومثل هذا قول الشاعر :

ولو أنى بُليتُ بهاشميٍّ خئولته بنو عبد المدان
لهانَ علىّ ما ألقى ، ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

(٢) فى نهاية الأرب وتمام المتون والمواهب الفتحية « لم تمنع منى » وقد آثرنا رواية الذخيرة ؛ المعنى : مالك لا تدفع عنى قبل أن يدركنى الافتراس ؟ وتلحقنى قبل أن ينالنى التمزيق ؟ وقد نظر فى هذا إلى قول الممزق العبدى :

فإن كنتُ مأكولا فكن خيرَ آكلٍ وإلا فأدركنى ، ولما أمزّقِ

وقد تمثل بهذا البيت سيدنا عثمان فى رسالة كتبها وهو محاصر فى بيته إلى الإمام على .

(٣) تتضرم : تتوقد ؛ الجوانح : الأضلاع التى تحت الترائب مما يلى الصدر ؛ الأكفاء : جمع كفء وهو النظير أو الذى ينهض بالأعباء الجسيمة ، والكفاءة فى النكاح : هى المماثلة فى الحسب والنسب ، وهى واجبة عند الشافعية فلا يجوز تزويج المرأة من غير كفء إلا برضاها ، ويرى الحنابلة أن الكفاءة شرط فى صحة الزواج ؛ الخصوص : الاختصاص ؛ وفى المواهب الفتحية « كيف لا تضطرم .. » .

(٤) المعنى : كيف لا تخفت أنفاس الناظرين لى فى التنافس على بلوغ منزلتى الكريمة عندك ؟

فكيف](١)؟ وقد زانني رَسْمُ خدمتك(٢)، [وزهاني وَسْمُ نِعْمَتك](٣)، وأبليتَ البلاءَ الجميل في سماطك(٤)، وقمتُ المقامَ المحمود على بساطك(٥):

أنلتَ الموالي فيك غُرَّ قصائدٍ هي الأنجمُ اقتادتْ مع الليل أنجُما(٦)

ثناءٌ يظنُّ الروضَ منه منوَّرا ضحًى، ويُخال الوشيُ فيه منمنما(٧)

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب .

(٢) آثرنا رواية المواهب الفتحية ، وفى الذخيرة وتمام المتون ونهاية الأرب « اسم خدمتك » .

(٣) هذه الجملة ساقطة من الذخيرة ونهاية الأرب ؛ زها : تكبّر ، ومثله زُهِيَ ، وزهاه : استخفّه ؛ الوسم : العلامة .

(٤) فى الذخيرة « وقد زانني اسم خدمتك ، وأنلت الجسيم من سماطك » ؛ أبليت البلاء الجيل : صنعتُ الصنيع الحسن ، يقال أبلاه الله بلاءً حسنا ، وأبليته معروفا ؛ أوليته إياه ، قال زهير :

جزى الله بالاحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

أى صنع بهما خير الصنيع ؛ السماط : الجانب أو الصف ، والمقام بين السماطين من الناس من المواقف المعظمة ، قال الرستمى :

وما كنت لولا طيب ذكرك شاعرا ولا منشدا بين السماطين فى حفل

(٥) فى بعض نسخ تمام المتون « فى بساطك » .

(٦) البيتان من قصيدة للبحترى فى عتاب الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل ؛ وفى الذخيرة ونهاية الأرب « نظم قصائد » ولم يرد البيت الثانى فيهما فى صلب الرسالة ، ولكنه ورد بها فى تمام المتون والمواهب الفتحية ، ورواية الديوان له هى :

(٧) ثناء كأن الروض منه منورا ضحى ، وكأن الوشى فيه مسهما =

وَهَلْ لَبِسَ الصَّباحُ إلاّ بُرْدًا طَرَّزَتْهُ بِفَضائِلِكَ؟[1] وَتَقَلَّدَتِ الجَوْزاءُ إلاّ عِقْدًا فَصَّلَتْهُ بِمَآثِرِكَ؟[2] [وَاسْتَمْلَى الرَّبيعُ إلاّ ثَناءً مَلَأْتَهُ مِنْ مَحاسِنِكَ؟][3] وَبَثَّ المِسْكُ إلاّ حَديثًا أَذَعْتُهُ في مَحامِدِكَ؟[4] ما يَوْمُ حَليمَةَ بِسِرٍّ[5]؛ [وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَكْسُكَ سَليبًا، وَلاَ حَلَّيْتُكَ عُطْلاً،

= ومعنى البيتين: لقد واليتُ في الثناء عليك نظم القصائد التي أضاءت في ظلام الليل مع النجوم كالنجوم، بمدح إذا قرنته بالرياض رأيته قد غمرها بالأضواء الوهّاجة كالضحى، وإذا وازنته بالغلائل والأبراد وجدته مزخرفاً بأبهى الألوان.

(١) في الذخيرة ونهاية الأرب «بمحامدك»؛ التطريز: تزيين حواشي الثوب وقد يكون الثوب مطرزا بالذهب؛ المعنى: لقد صُغْتُ فيكَ من الثناء الخالد ما هو حلية للدهر وزينة للصباح.

(٢) آثرنا رواية تمام المتون ونهاية الأرب، وفي الذخيرة «بمشاعرك»؛ والمعنى: لقد نوّهتُ بمآثرك حتى جعلتها عقدا تتزين به كواكب الجوزاء.

(٣) لم ترد هذه الجملة في الذخيرة ونهاية الأرب؛ المعنى: لقد استمار الربيع بهجته مما نشرته على الدنيا من محاسنك.

(٤) في الذخيرة «وفَتّ المسك»، وفيها وفي نهاية الأرب «أذعته بمفاخرك»؛ فَتُّ المسك: سحقه؛ بث الحديث: نشره، وقد استعار الحديث لرائحة المسك؛ وشبيه بهذا قول ابن حيوس.

وطيب ثناء طبّق الأرض، فاكتست مشارقُها من عرفه والمغارب

(٥) في الذخيرة «وما يوم..»، ومن الأمثال «ما يوم حليمة بسر» يضرب للأمر المشهور الذي لا يمكن إنكاره، وحليمة هي بنت الحارث الأكبر بن أبي شمر ملك غسان، وكان أبوها قد وجه جيشا إلى المنذر بن ماء السماء وانتدب لاغتياله مائة من الأبطال المشهورين فأخرجت لهم بنته حليمة طيبا طيبتهم به، قال النابغة الذبياني يصف السيوف:

تخيرن من أزمان يوم حليمة   إلى اليوم قد جُرّبن كل التجارب

وَلاَ وَسَمْتُكَ غُفْلا[1] ، بَلْ وَجَدْتُ آجُرًا وَجِصًا فَبَنَيْتُ[2] وَمَكَانَ القَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ][3] وَحَاشَى لِلّهِ أَنْ أُعَدَّ مِنَ العَامِلَةِ النَّاصِبَةِ[4] ، وَأَكُونَ

---

(١) المعنى : لم أكسُك من ثنائى ما كنتَ منه عاريا ، ولاحليتك به وكنتَ عاطلا من الزينة ، ولم أميزك به وكنتَ مجردا من التميز ؛ وشبيه بهذا قول أبى تمام :

أنا من كساك ـ وما كساك لحلة ـ حُرَّ القصائد فُوِّفَتْ تفويفا .

وقول أبى الحسين بن الجزار :

ولقد كسوتك من قريضى حلة جلت عن التلفيق والترقيع

حسنت برقم من جلالك ، فاغتدت كالروض فى التسهيم والترصيع

(٢) الآجُرّ : الطوب المحروق المخصص للبناء ؛ الجص : الكلس ، ويستعمل لطلاء الجدران

(٣) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب ؛ المعنى : لم أخلعْ عليك من الثناء ما ليس فيك ، فقد وجدت أساسا أبنى عليه فبنيت ، ووجدت مكان القول واسعا فيك فقلت ؛ قال ابن الخازن :

ومن سقيا سحابك جاد طبعى ولولا الغيث لم ينبع قليب

وقال المتنبى :

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فان وجدت لسانا قائلا فَقُلِ

وقال ابن قلاقس :

ومنك وفيك تنتظم القوافى ومن وجد المقال الرحب قالا

(٤) آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب ؛ وفى تمام المتون والمواهب الفتحية « حاش لله » ؛ حاش لله ، وحاشى له : تنزيها له ؛ العاملة الناصبة : مأخوذة من الآية الكريمة « وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية » المقصود بها وجوه الكفار التى عملت فى الدنيا وتعبت دون أن تفوز بجزاء فى الآخرة ، قال تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

كَالذُّبَالَةِ الْمَنْصُوبَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ (وَهْيَ) تَحْتَرِقُ[1] ، [فَلَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ بِكَ — وَبِي فِيكَ — أَوْلَى][2] .

وفى فصل منها : [3]١١٨

وَلَعَمْرُكَ مَا جَهِلْتُ أَنَّ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ إِذَا بَلَغَتْنِي الشَّمْسُ ، وَنَبَا بِيَ الْمَنْزِلُ ؛[4] وَأَصْفَحَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ

---

(١) (وهى) : زيادة من الذخيرة ونهاية الأرب ؛ والمعنى : بمعاذ الله أن تمدنى فى مصاف الكبراء الذين يشقون ويكدحون دون فائدة ، أو تجعلنى كالشمعة المنصوبة التى تضىء للناس وهى تفنى وتذبل ، قال العباس بن الأحنف :

أحــرم منك ما أقول ، وقد نال به العاشقون ما عشقوا

صرت كأنى ذبالة نصبت تضىء للنــــاس وهى تحترق

وهو مأخوذ من الحديث الشريف « العالم بغير عمل كالمصباح يحرق نفسه ويضىء للناس » .

(٢) سقط ما بين القوسين من الذخيرة ونهاية الأرب ؛ المثل الأعلى : الصفة العليا ، قال تعالى « وله المثل الأعلى فى السموات والأرض » أى ليس كمثله شىء ؛ المعنى : والمثل الأعلى أولى بك ، وبى كذلك إذا كان فيك .

(٣) وردت هذه العبارة بالذخيرة ونهاية الأرب ، وهى تدل على أن الرسالة لم ترد كاملة .

(٤) فى الذخيرة ونهاية الأرب « ولعمرى ما جهلت أن الرأى فى أن أتحول » ؛ لعمرك : وحياتك ؛ صريح الرأى : الرأى الواضح السديد ، وهو مأخوذ من قول أبى تمام :

وإن صريح الرأى والحزم لامرئ إذا بلغته الشمس أن يتحولا =

الرِّجالِ[1] فَلاَ أَسْتَوْطِئُ الْعَجْزَ[2]، [وَلاَ أَطْمَئِنُّ إِلَى الْغُرُورِ][3] فَيُضْرَبَ بِي الْمَثَلُ[4] «خَامِرِي أُمَّ عامِرٍ»[5] وَإِنِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ أَنَّ الْجَلاءَ سِبَاءٌ[6] وَالتَّغَـلَةُ مُثْلَةٌ[7]:

= ونَبَـا بي المنزل: جفاني المنزل أو لم يستقر بي فيه قرار، قال عنترة:

احذر محل السوء، لا تَحْـلُلْ به   وإذا نبـا بك منزل فتحول

(١) في الذخيرة ونهاية الأرب «وأضرب عن المطامع»؛ ضرب عنه: أعرض، ومثله صفح عنه؛ المعنى: كثيرا ما يقود الطمع إلى الهلاك، قال البحتري:

طمعتَ بليلى أن تَرِيعَ، وإنما   تقطع أعناقَ الرجالِ المطامع

تَريع: ترجع وتعود، وقال أبو العتاهية:

تعالى الله يا سلم بن عمرو   أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال

(٢) في الذخيرة ونهاية الأرب «ولا أستوطىء العجز»، استوطأ المركب: وجده وطيئا ليِّنا سهلا، وفي الأمثال «العجز وطيء» أي سهل.

(٣) مابين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب.

(٤) في تمام المتون والمواهب الفتحية «ومن الأمثال المضروبة».

(٥) من الأمثال «خامري أم عامر»، خامري: استتري، أم عامر: كنية الضبع، والمثل يضرب لمن يعرف أن الدنيا غدارة ثم يغترّ بها مثل الضبع يقال لها خامري فتهدأ وتسكن حتى يدخل عليها الصائد فيصيدها، قال البهاء زهير:

يا هـــذه لا تغتـــلطي   والله مالي فيك خاطرْ

خدعوك بالقول المحـــال، فصح أنك أم عامر

(٦) الجلاء: الرحيل عن الوطن، السباء والسبي، الأسر؛ وفي الذخيرة ونهاية الأرب «بأن الجلاء».

(٧) المُثْلة: التنكيل، يقال مَثَّـل به: مزق جثته وأذاقه الوبال، قال الصفدي: وقد قلت أنا «النوى توى (أي الفراق هلاك)، والغربة كربة، والسفر سقر، والشتات ممات، والافتراق احتراق»، قال الشاعر: =

وَمَنْ يَنْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ : مَجَرًّا وَمَسْحَبَا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ ، وَإِنْ يُسِئْ
يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارَ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا[1]

لَعَارِفٌ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَطَنُ الَّذِي لَا يُخْشَى فِرَاقُهُ، وَالْخَلِيطُ الَّذِي لَا يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ، وَالنَّسَبُ الَّذِي لَا يَخْفَى ، [وَالْجَمَالُ الَّذِي لَا يَخْفَى[2] ، ثُمَّ مَا قَرَانُ

= ما من غريب وإن أبدى تجلُّده إلا سيذكرُ عند الغربة الوطنا

وقال شوقي :

وطني لو شُغِلتُ بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

(١) لم يرد هذان البيتان بالذخيرة ولا نهاية الأرب ، وينسبان لعروة بن الورد، وقيل هما للأعشى وهو الأصح ؛ ومعناهما : إن المتغرب عن وطنه لا يزال يواجه المهالك في شتى صورها . وإذا أحسن أنكر الناس إحسانه ، وإذا أساء أعلنوا كل إعلان إساءته ؛ (كبكب : جبل عال بعرفات) وشبيه بهذا قول الشاعر :

إن يسمعوا الخير يخفوه ، وإن سمعوا شرا أذاعوا ، وإن لم يسمعوا كذبوا

وقول الآخر :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا مني، وما سمعوا من صالح دفنوا

(٢) آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب وإن كانت عبارة نهاية الأرب « لا يتوقع زواله » ، وفي تمام المتون والواهب الفتحية « عارف بأن الأدب الوطن لايخشى فراقه ،والخليط لايتوقع زياله،والنسيب لايجفى،والجمال لا يُحَفَّى » ؛ والمعنى : وإني — مع علمي بما في الجلاء من أهوال — لعارف بأن لي من أدبي وطناً عظيماً ؛ فالأدب وطن لا يَخشَى صاحبُه فراقه، وعشير لا يتوقع زواله، ونسب ظاهر لا يمكن إخفاؤه ، وجمال فتان لا سبيل لمقته ، وشبيه بهذا قول البارودي :

أنا ابن قولي ، وحسبي في الفخار به وإن غدوت كريم العم والخال

السَّعْدِ لِلْكَوَاكِبِ أَبْهَى أَثَرًا ، وَلاَ أَسْنَى خَطَرًا مِنَ اقْتِرَانِ غِنَى النَّفْسِ بِهِ ، وَأَنْتِظَامِهَا نَسَقَ مَعَهُ [١] ؛ فَإِنَّ الْحَائِزَ لَهُمَا الضَّارِبُ بِسَهْمٍ فِيهِمَا [٢] — وَقَلِيلٌ مَاهُمْ [٣] —] أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَدَ أَعْذَبَ مَنْهَلٍ [٤] ، وَحَطَّ فِي جَنَابِ قَبُولٍ

---

(١) اقتران الشيء بغيره وقرانه به : مصاحبته له ، وقران السعد للكواكب: مصاحبة الطالع الحسن لها ، وكان العرب يعتقدون أن للكواكب منازل سعود ومنازل نحوس ؛ أسنى خطرا : أرفع قدرا ؛ انتظامها نسقا : ترتيبها على وتيرة واحدة ، وثغر نسقٌ : أسنانه منضدة مستوية ، قال أبو الفتح البستي :

ما قران السعدين فى الجو أبهى منظرا من قران شكر وبرّ

والمعنى : ليس قران السعد للكواكب أحسن أثرا وأبهج منظرا من اقتران الأدب بغنى النفس ، قال الشاعر :

إن الغنيّ هو الغنيُّ بنفسه ولو انه عارى المناكب حافى
ما كلُّ ما فوقَ البسيطة كافيا فإذا قنعت فبعضُ شىء كافى

(٢) الضارب والضريب : الموكل بالقداح أو الذى يضرب بها ، وضرب فى الأمر بسهم : شارك فيه بنصيب ؛ وهو يومىء إلى أنه جمع بين الأدب البارع وغنى النفس وشارك فيهما بنصيب وافر .

(٣) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب ، وقليل ما هم : أى الجامعون بين الأدب البارع والنفس المفيئة قليلون ، والجملة مقتبسة من القرآن الكريم ، قال تعالى « وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » .

(٤) آثرنا رواية الذخيرة ، وفى بقية الأصول « ورد منهل بر » ؛ المنهل : مورد الماء .

وَمَنْ يَنْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ : مَجَرًّا وَمَسْحَبَا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ ، وَإِنْ يُسِئْ
يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارَ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا (١)
لَعَارِفٌ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَطَنُ الَّذِي لاَ يُخْشَى فِرَاقُهُ ، وَالْخَلِيطُ الَّذِي لاَ يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ ، وَالنَّسَبُ الَّذِي لاَ يَخْفَى ، [وَالْجَمَالُ الَّذِي لاَ يُخْفَى (٢) ، ثُمَّ مَا قَرَانٌ

= ما من غريب وإن أبدى تجلُّدَه إلا سيذكرُ عند الغربة الوطنا

وقال شوقى :

وطنى لو شُغِلْتُ بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

(١) لم يرد هذان البيتان بالذخيرة ولا نهاية الأرب ، وينسبان لعروة بن الورد ، وقيل هما للأعشى وهو الأصح ؛ ومعناهما : إن المتغرب عن وطنه لا يزال يواجه المهالك شتى صورها . وإذا أحسن أنكر الناس إحسانه ، وإذا أساء أعلنوا كل إعلان إساءته ، (كبكب : جبل عال بعرفات) وشبيه بهذا قول الشاعر :

إن يسمعوا الخير يخفوه ، وإن سمعوا شرا أذاعوا ، وإن لم يسمعوا كذبوا

وقول الآخر :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا منى ، وما سمعوا من صالح دفنوا

(٢) آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب وإن كانت عبارة نهاية الأرب « لا يتوقع زواله » ، وفى تمام المتون والمواهب الفتحية « عارف بأن الأدب الوطن لا يخشى فراقه ، والخليط لا يتوقع زياله ، والنسيب لا يجفى ، والجمال لا يخفى » ؛ والمعنى : وإنى — مع علمى بما فى الجلاء من أهوال — لعارف بأنى لى من أدبى وطناً عظيماً ؛ فالأدب وطن لا يخشى صاحبه فراقه ، وعشير لا يتوقع زواله ، ونسب ظاهر لا يمكن إخفاؤه ؛ وجمال فتان لا سبيل لمقته ، وشبيه بهذا قول البارودى :

أنا ابن قولى ، وحسبى فى الفخار به وإن غدوت كريم العم والخال

السَّعْدِ لِلْكَوَاكِبِ أَبْهَى أَثَراً ، وَلَا أَسْنَى خَطَراً مِنْ اقْتِرَانِ غِنَى النَّفْسِ بِهِ ، وَانْتِظَامِهَا نَسَقَاً مَعَهُ[١] ؛ فَإِنَّ الْحَائِزَ لَهُمَا الضَّارِبُ بِسَهْمٍ فِيهِمَا[٢] — وَقَلِيلٌ مَا هُمْ[٣] —] أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَدَ أَعْذَبَ مَنْهَلٍ[٤] ، وَحَطَّ فِي جَنَابٍ قَبُولٍ

---

(١) اقتران الشيء بغيره وقرانه به : مصاحبته له ، وقران السعد للكواكب: مصاحبة الطالع الحسن لها ، وكان العرب يعتقدون أن للكواكب منازل سعود ومنازل نحوس ؛ أسنى خطرا : أرفع قدرا ؛ انتظامها نسقا : ترتيبها على وتيرة واحدة ، وثغر نسق : أسنانه منضدة مستوية ، قال أبو الفتح البستي :

ما قران السعدين فى الجو أبهى منظرا من قران شكر وبر

والمعنى : ليس قران السعد للكواكب أحسن أثرا وأبهج منظرا من اقتران الأدب بغنى النفس ، قال الشاعر :

إن الغنيّ هو الغنيّ بنفسه ولو أنه عارى المناكب حاف

ما كلُّ ما فوقَ البسيطة كافيا فإذا قنعت فبعضُ شيء كاف

(٢) الضارب والضريب : الوكل بالقداح أو الذى يضرب بها ، وضرب فى الأمر بسهم : شارك فيه بنصيب ؛ وهو يومىء إلى أنه جمع بين الأدب البارع وغنى النفس وشارك فيهما بنصيب وافر .

(٣) ما بين القوسين ساقط من الذخيرة ونهاية الأرب ، وقليل ما هم : أى الجامعون بين الأدب البارع والنفس المفيئة قليلون ، والجملة مقتبسة من القرآن الكريم ، قال تعالى « وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم » .

(٤) آثرنا رواية الذخيرة ؛ وفى بقية الأصول « وورد منهل بر » ؛ المنهل : مورد الماء .

فَنَزَلَ[1] ، وَضُوحِكَ قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ[2] ، وَأُعْطِيَ حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ[3] :

وَقِيلَ لَهُ : أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَبًا فَهَـذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَصَدِيقُ[4]

---

(١) عبارة « فنزل » زيادة عن بعض نسخ الذخيرة ؛ الجناب : الفناء او ما قرب من الساكن ؛ القبول : الرضاء ، وجناب القبول هو المكان الذى يجد فيه الإنسان من يقبل عليه ولا يدبر عنه .

(٢) ضوحك قبل إنزال رحله : قوبل بالبشر والترحاب لأول قدومه قبل إنزال متاعه ، قال حاتم الطائى :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ويخصب عندى ، والزمان جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

(٣) من كلام العرب: «نزلنا على فلان فجعل لنا حكم الصبى على أهله» أى أكرمنا غاية الإكرام ، لأن الصبىّ يلقى من أهله كل رعاية وعناية ومحبة على الرغم مما يجشمهم إياه من المتاعب والأهوال ، قال الشاعر :

ولا تحكما حكم الصبىّ ، فإنه كثير على ظهر الصديق مجاهله

وكان أبو سفيان إذا نزل به جار قال له : « يا هذا إنك قد اخترتنى جارا ، واخترت دارى دارا ، فجناية يدك علىّ من دونك ، وإن جنت عليك يدٌ فاحتكم حكمَ الصبىّ على أهله » .

(٤) فى بعض نسخ الذخيرة ، وبعض نسخ تمام المتون ، والمواهب الفتحية « ... مبيت صالح ومقيل » والبيت من نظم عمرو بن الأهتم ، قال أبو تمام :

يعطى عطاء المحسن الخضل الندى عفوا ، ويعتذر اعتذار المذنب
ومرحّب بالزائرين ، وبشره ينبيك عن أهل لديه ومرحب

غَيْرَ أنَّ الوَطَنَ مَحْبُوبٌ[1] ؛ وَالْمَنْشَأَ مَأْلُوفٌ ؛ وَاللَّبِيبَ يَحِنُّ إِلَى وَطَنِهِ .

(حَنِينَ النَّجِيبِ إِلَى عَطَنِهِ[2]) ؛ وَالْكَرِيمَ لَا يَجْفُو أَرْضًا بِهَا قَوَابِلُهُ ،

وَلَا يَنْسَى بَلَدًا فِيهِ مَرَاضِعُهُ[3] ؛

أَحَبُّ بِلَادِ اللهِ مَا بَيْنَ مَنْعِجٍ إِلَيَّ وَسَلْمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا[4]

---

(١) آثرنا رواية نهاية الأرب لمطابقة المنشأ للوطن . وفى باقى الأصول « الوطن » .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى نهاية الأرب ؛ وفى بعض نسخ الذخيرة « حنين الناب » والناب : الناقة المسنة ؛ النجيب : الفحل الكريم ؛ العطن : مبرك البعير عند الماء ؛ قال ابن الروى فى الحنين إلى بغداد :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد

فإذا تمثل فى الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

(٣) القوابل : جمع قابلة وهى التى تباشر ولادة النساء « الداية » .

(٤) البيتان وردا فى الأمالى (جـ ١ ص ٨٣) مصدرَيْن بالعبارة الآتية : « أنشدنا عبد الله بن نفطويه ، قال أنشدنا أحمد بن يحيى النحوى ثعلب » وهذه العبارة لا تقطع باسم قائلهما ؛ وأوردهما ياقوت فى معجم البلدان وقال إنهما لبعض الأعراب ، وقد أورد لسان العرب البيت الثانى منهما فى مادة (نوط) ونسبه إلى رقاع بن قيس الأسدى ؛ وللبيتين أول ذكره الصفدى هو :

ألم تعلمى يا دار بلحاء أننى إذا أخصبت أو كان خصبا جنابها

منعج : واد يأخذ بين حفر أبى موسى والنبـاج ويدفع فى بطن فلج (ياقوت) ؛ سلمى : جبل لطىء شرقىّ المدينة (تاج العروس) ؛ يصوب سحابها : ينزل مطرها .

بِلَادٌ بِهَا عَقّ الشَّبَابُ تَمَائِمِى وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِى تُرَابُهَا[1]

هَذَا إِلَى مُغَالاتِى بِعَقْدِ جِوَارِكَ[2]؛ وَمُنَافَسَتِى فِى الْحَظِّ مِنْ قُرْبِكَ[3]، وَاعْتِقَادِى أَنَّ الطَّمَعَ فِى غَيْرِكَ طَبَعٌ، وَالْغِنَى مِنْ سِوَاكَ عَنَاءٌ[4]، وَالْبَدَلَ

---

(١) فى الأمالى ومعجم البلدان « حل الشباب تمائمى » وفى لسان العرب مادة (نوط) « بلاد بها نيطت على تمائمى » ؛ عق : شق ؛ التمائم : جمع تميمة ، وهى عوذة تعلق على الطفل لتقيه الحسد ، وقد تكون خرزة أو صحيفة بها أدعية وطلاسم أو غير ذلك ، وفى الحديث « من علّق تميمة فلا أتم الله له » ، وقال أبو ذؤيب الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمة لا تنفع

والمعنى : لقد نشأت فى هذه البلاد ولما بلغت بها سنّ الشباب أزلت عنى التمائم ، وهى أول أرض لمس جلدى ترابها ، ومثله قول الشاعر :

ذكرت بلادى فاستهلت مدامعى لشوقى إلى عهد الصبا المتقادم

حننتُ إلى أرض بها اخضرّ شاربى وحُلّت بها عنى عقود التمائم

(٢) فى الذخيرة « مع مغالاتى بعلو جوارك » وفى نهاية الأرب « فى تملق جوارك » .

(٣) فى تمام المتون والتوابع الفتحية « فى لحظة من قربك » وقد آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب .

(٤) الطبَع : الدنس ، قال الشاعر :

لا خير فى طمع يدنى إلى طبَع وغُفّة من نعيم العيش تكفينى

الغُفّة : الزاد القليل يتبلغ به الجائع إلى حين ؛ العناء : التعب والمشقة .

مِنْكَ أَعْوَرُ[1] وَالْعِوَضَ لَفَاءُ[2]

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي ضَنًّا بِهِ نَظَرِي إِلَى الْأُمَرَاءِ[3]

وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا[4] ، وَفِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ ،

وَاسْتَمْجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ[5] ، فَمَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ

---

(١) فى الذخيرة «عوز» ، من الأمثال «بدلٌ أعور» وسببه ـ كما فى مجمع الأمثال للميدانى ـ أن يزيدَ بن المهلب صُرف عن ولاية خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلى ، وكان شحيحاً أعور ، فقال الناس هذا بدل أعور ، وقال فيه بعض الشعراء :

كانت خراسانُ أرضاً إذْ يزيدُ بها وكلُّ باب من الخيرات مفتوح
حتى أتانا أبو حفص بأسرته كأنما وجهه بالخل منضوح

(٢) اللفاء : الخسيس الحقير ، أو التراب ، أو هو ما دون الحق ، يقال فلان رضى من الوفاء باللفاء ، وفى الأمثال «أعطانى اللفا غير الوفا» يضرب لمن يبخسك حقك .

(٣) البيت لعدى بن الرقاع ، ومعناه : يزيدنى اعتزازاً بأميرى ما أرى عليه بقية الأمراء من نقص وضعف وهوان .

(٤) «كل الصيد فى جوف الفرا» مثل مشهور . الفرا : الحمار الوحشى ، وأصل المثل : أن ثلاثة خرجوا للصيد فاصطاد الأول أرنبا ، والثانى ظبيا ، والثالث حمارَ وحش ؛ فتطاول الأولان على الثالث فقال : «كل الصيد فى جوف الفرا» . واستأذن أبو سفيان على النبى ﷺ فحجبه قليلا ، وعاتبه أبو سفيان فقال له : «يا أبا سفيان أنت كما قيل : كل الصيد فى جوف الفرا» معناه : إذا حجبتك قنع كل محجوب .

(٥) استمجد : استكثر ، المرخ : شجر يطول ويتفرع حتى يُستظَلّ به ، ويؤخذ منه الزناد الذى يقتدح به ؛ العفار : شجر خوار يؤخذ منه الزناد أيضا ==

يَتَوَلاَّكَ ؟[1] وَالْمَيْلُ عَمَّنْ يَمِيلُ إِلَيْكَ[2] ؟ وَهَلاَّ كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فِيكَ !! وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ !!

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ وِجْدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ[3]

أُعِيذُكَ وَنَفْسِى مِنْ أَنْ أَشِيمَ خُلَّباً ، وَأَسْتَمْطِرَ جَهَاماً[4] ، وَأُكْدِمَ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ[5] ، وَأَشْكُوَ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعِقْبَانِ

= قال أبو زياد : ليس فى الشجر كله أورى زنادا من المرخ ، والزند الأعلى يكون من العفار والأسفل من المرخ ، قال الأعشى :

زنادك خير زناد الملوك خالط فيهن مرخٌ عفارا

والجلتان مثل لمن يكثر العطاء طلبا للمجد .

(١) فى نهاية الأرب « ممن تولاك » ؛ تولاه : أصبح مواليا له متعلقا به .

(٢) آثرنا رواية الذخيرة ونهاية الأرب ، وفى تمام المتون والمواهب الفتحية « ممن لا يميل عنك » .

(٣) البيت للمتنبى فى عتاب سيف الدولة ، وبليه :

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة !! لو أن أمركم من أمرنا أممُ

إن كان سرَّكمُ ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكمُ ألمُ

(٤) فى الذخيرة « أعيذك ونفسى أن أشيم » ، شام البرقَ : نظر إلى سحابته متطلعا أين تمطر ، الخُلَّب : البرق الذى لا سحاب معه كأنه خدّاع ، الجَهام : السحاب الذى لا ماء فيه ، قال عمرو بن معديكرب :

لا يكن بَرقُك بَرقًا خُلَّبا إن خير البرق ما الغيث معَهْ

(٥) فى بعض نسخ الذخيرة : « وأكدم غير مكدم » وفى بعض نسخ تمام المتون ونسخ الذخيرة « وأكرم غير مُكرَم » وهو مأخوذ من قول زهير بن أبى سلمى : =

وَالرَّخَم (١)؛ فَمَا أَبْسَسْتُ لَكَ إِلاَّ لِتَدِرَّ (٢)، وَمَا حَرَّكْتُ لَكَ الحُوَارَ إِلاَّ لِتَحِنَّ (٣)، وَمَا نَبَّهْتُكَ إِلاَّ لِأَنَامَ (٤)، وَمَا سَرَيْتُ إِلَيْكَ إِلاَّ لِأَحْمَدَ السُّرَى لَدَيْكَ؛ (٥)

= ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرّم نفسه لا يكرّمِ

ومن الأمثال « كدمتَ غير مَكْدَمٍ » أى عضضتَ غير موضع العض، يُضرَبُ لمن يطلب شيئا فى غير مطلبه .

(١) مقتبس من قول المتنبي :

ولا تَشْكُ إلى خلق فتشمتهم شكوى الجريح إلى العقبان والرخم

الرَّخم : جمع رخمة من جوارح الطير تشبه النسر فى الخلقة ؛ والمعنى : إن جوارح الطير تفترس الجريح، فكيف يشكو إليها ما يلاقيه من جروحه ؟ وهذا مثل قولهم « كالمستجير من الرمضاء بالنار » .

(٢) الإبساس : أن يقول الحالب للناقة « بُس ، بُس » لتسكن وتدر اللبن .

(٣) الحوار : ولد الناقة ، ولا يزال حواراً حتى يفصل عن الرضاع ، وفى الأمثال « حَرِّكْ لها حوارها تحن » أى أظهره للناقة لتستثير حنانها .

(٤) مأخوذ من قول بشار :

إذا أيقظتْك حروبُ العدا فنبهْ لها عمرا ، ثم نَمْ

(٥) السرى : السفر ليلا . وفى الأمثال : « عند الصباح يحمد القوم السرى » قاله خالد بن الوليد من أرجوزة منها :

عند الصباح يحمد القوم السرى وتنجلى عنهم غيابات الكرى

وفى الذخيرة ونهاية الأرب « وإنما أبسست لك لتدر، وحركت لك الحوار لتحن ، ونبهتك لأنام ، وسريت إليك لأحمد ... » وفى نهاية الأرب « ليحمد السرى إليك » .

بَعْدَ الْيَقِينِ مِنْ أَنَّكَ إِنْ سَنَّيْتَ عَقْدَ أَمْرِى تَيَسَّرَ (١) ، وَمَتَى أَعْذَرْتَ
فِى فَكِّ أَسْرِى لَمْ يَتَعَذَّرْ (٢) ، وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمَرَةُ النِّعْمَةِ (٣) ،
وَالشَّفَاعَةَ زَكَاةُ الْمُرُوءَةِ (٤) وَفَضْلَ الْجَاهِ ـ تَعُودُ بِهِ ـ صَدَقَةٌ (٥) .
وَإِذَا امْرُؤٌ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً   مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ (٦)
لَعَلِّىَ أُلْقِى الْعَصَا بِذَرَاكَ . وَتَسْتَقِرُّ بِىَ النَّوَى فِى ظِلِّكَ ، (٧) (فَتَسْتَلِذُّ

(١) آثرنا رواية نهاية الأرب وفى الذخيرة « بعد اليقين أنك » ، وفى تمام المتون والرواهب الفتحية « وإنك إن سنَّيتَ » وفى بعض نسخ تمام المتون « متى سنيت » وفى نهاية الأرب « إن شئت » ؛ سنيت : سهلت ، قال بشار :

فبالله ثق إنْ عزَّ ما تبتغى ، وقل   إذا الله سنَّى عقد أمرٍ تيسرا

(٢) أعذَرَ : طلب العذر أو بالغ فى طلبه ، لم يتعذر : لم يصعب .

(٣) المعروف : ضد النكر ؛ والمعنى : من أحسن الله إليه وجب أن يقدم معروفا إلى الناس ليكون ثمرة نعمة الله عليه ؛ وفى نهاية الأرب « وعلمك يحيط »

(٤) المعنى : إن الشفاعة لدى الرؤساء فى قضاء الحاجات يؤديها الإنسان زكاة عما رزقه الله به من جاه عند الحكام .

(٥) الجاه : القدر والمنزلة ، يعود به : ينفع به .

(٦) البيت لأبى تمام من قصيدة كتبها إلى إسحق بن ربعى كاتب أبى دلف ، ومعناه : إذا نفعك امرؤ بجاهه فكأنما نفعك بماله .

(٧) الذَّرى كلُّ ما استترت به . يقال : أنا فى ظلِّ فلان وذراه أى فى كنفه وستره ، والعرب تكنى عن الاستقرار والسكون بإلقاء العصا لأن المسافر إذا ألقى عصاه عن كتفه فقد قرّ قراره ، قال المتمد بن أوس بن حماد :

وألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينا بالإياب المسافر =

جَنَى شُكْرِى مِنْ غَرْسِ عَارِفَتِكَ ، وَتَسْتَطِيبَ عَرْفَ ثَنَائِى مِنْ رَوْضِ صَنِيعَتِكَ] (١) وَأَسْتَأْنِفَ التَّأَدُّبَ بِأَدَبِكَ (٢) وَالاِحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ (٣) فَلَا أُوجِدَ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لَحْظَةٍ وَلَا (أَدَعَ) لِلْقَادِحِ مَسَاغَ لَفْظَةٍ (٤) وَاللّٰهُ مُيَسِّرُكَ

= وقد تداول الشعراء هذا المعنى ، قال الحسين بن ابراهيم الكاتب :

ألا ليت شعرى هل أقولن مرة وقد سكنت مما أجن الضمائرُ

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

(١) ورد ما بين القوسين فى الذخيرة ونهاية الأرب ، وسقط من تمام المتون والمواهب الفتحية ؛ الجَنَى : الثمر الغض ؛ العارفة : المعروف ؛ العَرْف : الريح طيبة كانت أو خبيثة ، والشهور الأول ؛ الصنيع والصنيعة : الإحسان ، وهو صنيعى وصنيعتى أى اصطنعته لنفسى ورييته وخرَّجته ؛ والمعنى : عسى أن أستقر فى ظلك فتجنى من شكرى ما غرسته نعماؤك ؛ وتستطيب من ثنائى ما أنبته روضُك .

(٢) فى الذخيرة ونهاية الأرب «فأستأنف التأدب بك » ؛ المعنى : أعود إلى ما اتبعته من التخلق بأخلاقك والاقتداء بآدابك .

(٣) الاحتمال والتحمل : الارتحال ؛ والمعنى: لعلى أعود إلى التخلق بأخلاقك ، والسير على مذهبك ، واتباع طريقتك ؛ وفى الذخيرة « والاحتيال على مذهبك » ؛ وشبيه بهذا قول أبى سعيد الرستمى « من شعراء اليتيمة » :

إذا وردوا ماء وردتُ ، وإن طووا طويتُ ، وإن قالوا تحولتُ قائلا

وإن نصبوا للحَرّ حُرَّ وجوههم تمثلتُ حِرْباءً على الجذل ماثلا

يظنون أنى سائلٌ فضلَ زادهم ولولا الهوى ما ظنني الركبُ سائلا

(٤) «أدع» زيادة من الذخيرة؛ الحاسد: من يتمنى زوال نعمة غيره ؛ القادح: العائب ، ساغ الشراب سوغا ومساغا: سهل دخوله فى الحلق؛ وفى تمام المتون والمواهب الفتحية =

مِنْ إطلاَبي بِهٰذِهِ الطَّلِبَةِ[1] وإشْكَائي مِنْ هٰذِهِ الشَّكْوَى، بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ الصنع[2] وَيَدٍ تَسْتَوْدِعُهَا أَحْفَظَ مُسْتَوْدَعٍ[3]، حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ، وَأنا مِنْكَ حَرِيٌّ بِهِ[4]، فَذَلِكَ بِيَدِكَ وَهَيِّنٌ عَلَيْكَ[5].

* * *

=«لحظه ... لفظه» والمعنى: لا أدع الحاسد فرصة ليصوب إلى سهام عينيه، ولا للعائب مجالا للتشهير بي.

(١) فى الذخيرة «والله شهيدك من إطلابي بهذه الطلبة» وفى تمام المتون والواهب الفتحية «والله مبشرك» وقد آثرنا رواية نهاية الأرب؛ إطلابي: إسعافي، الطَّلِبة: ما رجوته من أمر.

(٢) أشكيته: أزلت شكواه، الصنيعة: الإحسان، الصنع والصنيع: المعروف، قال الشاعر:

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى تصيب بها مكان الصنع

وفى الذخيرة ونهاية الأرب «لصنيعة تصيب بها طريق الصنع».

(٣) آثرنا رواية نهاية الأرب، وفى الذخيرة «وقد تستودعها» وفى تمام المتون والواهب الفتحية «وتستودعها»؛ اليد: النعمة والإحسان، المعنى: ونعمة تضعها فى خير مكان يحفظها ويصونها.

(٤) حسبما: بقدر ما؛ خليق به: جدير به؛ ومثله حرىٌّ به أى جدير به وأهل له، المعنى: إنك جدير بالإحسان، وأنا أهل له منك.

(٥) آثرنا رواية الذخيرة، وفى بقية الأصول «وذلك بيده وهيّن عليه»؛ وماورد بعد هذا ساقط من نهاية الأرب، وبدلا منه قال: «وشفعها بأبيات فقال:

الهوى فى طلوع تلك النجوم والمُنَى فى هبوب ذاك النسيم»

وأورد القصيدة ثم التعقيب عليها.

وَلَمَّا تَوَالَتْ غُرَرُ هَذَا النَّثْرِ ، وَأَتْسَقَتْ دُرَرُهُ[1] ، فَهَزَّ عِطْفَ غُلَوَائِهِ ، وَجَرَّ ذَيْلَ خُيَلَائِهِ[2] عَارَضْتُ النَّظْمَ مُبَاهِياً ، بَلْ كَايَدْتُهُ مُدَاهِياً[3] حِينَ أَشْفَقْتُ مِنْ أَنْ يَعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُهُ ، وَيَمِيلَ بِنَفْسِكَ إِلْطَافُهُ[4] ، فَاسْتَحْسَنَ الْفَائِدَةَ مِنْهُ ، وَأَعْتَدَّ بِالْفَائِدَةِ لَهُ[5] وَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذِّهْنَ الْعَلِيلَ ، وَالْخَاطِرَ الْكَلِيلَ[6] حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ مِنْهُ عَرُوساً تَجْلُوهُ فِي أَثْوَابِهَا[7]

---

(١) في الذخيرة « واتسمت درره » ؛ توالت : تتابعت ، الغُرَر : جمع غُرة وهي أول كل شيء أو أكرمه ؛ اتسقت : انتظمت في نظام بديع .

(٢) العِطف : الجانب ، وعطفا الرجل : جانباه من لدن رأسه إلى وركيه ؛ الغلواء : سرعة الشباب أو أوله أو المغالاة ، وهزَّ عطف غلوائه : افتخر بشبابه ومال به تيها وعجبا ؛ الخيلاء : الكبر والتيه ، وجرَّ ذيل خيلائه : جرَّر ذيله تيها وكبرا .

(٣) مباهيا : مفاخرا ؛ كايده : كاد له ومكر به ؛ مداهيا : لعلها مأخوذة من دهاه يدهاه دهيا إذا عابه وتنقصه ، فتكون مداهيا بمعنى مبادلا إياه ذكر العيوب والنقائص .

(٤) في بعض نسخ الذخيرة « حين أشفق » ؛ أشفق : خاف وحذر ؛ يعطفك : يثنيك ويجذبك إليه ؛ إلطافه : بره وعطفه .

(٥) الفائدة : العطف والنفعة ؛ اعتدَّ : عدَّ ؛ المعنى : آثر الشعر أن يكون هو صاحب الفضل في جذبك إلى العفو والغفران .

(٦) في الذخيرة « وما زال يستكره » ؛ يستكد : يجهد ؛ الكليل : غير الحاد أو الضعيف .

(٧) في الذخيرة « حتى زف إليك عروسا ... » جلاء العروس على بعلها واجتلاؤها : عرضها عليه مصقولة مزينة .

مَنْصُوصَةً بِحَلْيِهَا وَمَلَابِهَا [١]، [وَهَا هِيَ الْأَبْيَاتُ] [٢] —

الْهَوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ وَالْمُنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ

... القصيدة [٣]

هَا كَهَا — أَعَزَّكَ اللَّهُ — يَبْسُطُهَا الْأَمَلُ، وَيَقْبِضُهَا الْخَجَلُ [٤] لَمَّا ذَنْبُ التَّقْصِيرِ، وَحُرْمَةُ الْإِخْلَاصِ [٥]؛ فَهَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ، وَاشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ [٦]، لِيَتَأَتَّى لَكَ الْإِحْسَانُ مِنْ جِهَاتِهِ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ طُرُقَاتِهِ [٧]، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى [٨].

---

(١) نصّ العروسَ: جلاها على المنصة، الملاب: الزعفران أو الطيب مطلقاً.

(٢) هذه الجملة زائدة من الذخيرة ولم ترد فى غيرها.

(٣) راجع القصيدة ص ٢٧٨ فى باب الشكوى والعتاب.

(٤) فى الذخيرة «وبعد تمام هذه القصيدة: ها كها..» المعنى خذها — أعزك الله — ينفسح لها الأملُ فتقبل عليك مطمئنة، ويصدها الخجل فتتقبض فى حياء؛ فكأنها يدنيها الأمل ويصدها الخجل.

(٥) المعنى: لها ذنب التقصير عن إيفائك حقك من الثناء ولكنها تمت إليك بحرمة الإخلاص لك، والتعلق بك.

(٦) شفع نعمة بنعمة: ضم إلى النعمة مثيلا لها؛ المعنى: اعف عن ذنب التقصير إكراما لحرمة الوفاء.

(٧) يتأتى: يتهيأ؛ وفى الذخيرة «لتأتى الإحسان من جهاته، وتسلك إلى الفضل طرقاته» وفى المواهب الفتحية «لتأتى بذلك الإحسان من جهاته وتسلك إلى أفضل طرقاته».

(٨) هذه الجملة لم ترد فى تمام المتون ووردت ببقية الأصول وكلمة «تعالى» ساقطة من الذخيرة.

الرسالة البكرية

« كتب ابن زيدون هذه الرسالة إلى أستاذه وصديقه أبي بكر مُسَلَّم بن أحمد بن أفلح النحوي ، عتبا وآملا وشارحا موقفه ، وقد أتبعها بقصيدة مؤثرة أوردناها بالديوان ص ٢٨٥[1] وقد عرضنا لها لمحاكمة ابن زيدون وسجنه فى كتابنا عنه : ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه ص ١٨٠ — ٢٠١ » .

يا سَيِّدِي ٱلَّذِي كُنْتُ أَرَاهُ أَعَدَّ عُدَدِي لِأَبَدِي[2]، وَأَخَصَّ جُنَنِي مِنْ

---

(١) وردت هذه الرسالة موجزة بالذخيرة ج ١ ص ٣٠٥ مصدرة بالعبارة الآتية : « وكتب إلى الأديب أبى بكر بن مسلم (الصحيح أنه أبو بكر مسلَّم ابن أحمد بن أفلح النحوى كما صححناه فى كتابنا عن ابن زيدون ص ١١٨ — ١٢٠) وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن رقعة يقول فيها : » ؛ ثم وردت فى الكتاب نفسه ج ١ ص ٣٤٤ مصدرة بالعبارة الآتية : « وله من رسالة حذف أبو الحسن رحمه الله هنا أكثرها ، ولم يذكر منها إلا قطرة من وابل ، أو نفثة من سحر بابل ، وها أنا مثبتها على تواليها ، إشادة بحسن معانيها واستفادة من سنى آدابه فيها ، وهى : » ؛ ويظهر أن المؤلف أبا الحسن على بن بسام أوردها موجزة ، فأضاف أحدُ تلاميذه أو الدارسين لكتابه الرسالة مفصلة إلى الكتاب ؛ ومع هذا لم ترد كاملة فى النص الأخير بدليل قوله فى خلال الرسالة « وفى فصل منها » ولكن هذا الأديب أسدى إلى الأدب يدا مشكورة ، فإن أبا الحسن اختصرها فى صفحة وبضعة أسطر — وأوردها الأديب فى نحو عشر صفحات ، وقد اعتمدنا على النص الأخير مع الأشارة إلى إختلاف نسخ الذخيرة وسميناها الرسالة البكرية نسبة إلى كنية المرسل إليه .

(٢) أعدّ : خير ما أعده ؛ العدد : ما يعده الإنسان لحوادث الدهر من المال =

زَمَنِي[1] ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ فِي أَصْلَحِ الْأَحْوَالِ ، وَأَفْسَحِ الْآمَالِ .

أَبْدَأُ مِنْ كِتَابِ إِلَيْكَ بِشَرْحِ الضَّرُورَةِ الْحَافِزَةِ إِلَى مَا صَنَعْتُ[2] إِذْ بَلَغَنِي أَنَّكَ صَدْرُ اللَّائِمِينَ لِي عَلَيْهِ[3] ، وَأَوَّلُ الْمُسَفِّهِينَ لِرَأْيِي فِيهِ ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : « وَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ »[4] وَ « هَانَ عَلَى الْأَمْلَسِ مَا لَاقَى الدَّبِرُ »[5] .

= والسلاح والأصدقاء ؛ الأبد : الدهر ؛ المنى : ياسيدى الذى أدخره خير عدة لى مدى الحياة .

(١) الجنن : جمع جُنَّة وهى ما يستتر به الإنسان من سلاح أودرع أو مِغْفَر .

(٢) حفزه : دفعه من خلفه ، والليل يحفز النهار أى يسوقه ؛ الضرورة الحافزة : أى الملحة الدافعة ؛ وفى الصيغة الوجزة « ابدأ أولا بشرح الضرورة ... »

(٣) فى بعض النسخ « مما بلغنى انك أحد اللائمين ... » ؛ صدر كل شىء : أوله ؛ المسفهين : المخطئين ، من سفّهه إذا نسبه إلى السفه وهو الطيش والنزق .

(٤) الشجىّ : الحزين ؛ الخلىّ : الخالى من الهموم ؛ قال أبو الأسود الدؤلى :

ويل الشجىّ من الخلىّ ، فإنه ... نَصِبُ الفؤادِ لشجوه مغموم

وسبب مضرب المثل فيما يزعم العرب : أن رجلا اسمه شجىّ كانت له زوجة أحبت رجلا آخر اسمه خلى ، فدبرت حيلة للفرار من زوجها ؛ ورآها لقمان الحكيم فقال : « ويل للشجىّ من الخلى » ؛ وفى رواية أخرى : أن أكثم بن صيفى دعا قومه إلى الدخول فى الإسلام ، فقال مالك بن نويرة لقد خرف شيخكم ، فقال أكثم : « ويل للشجى من الخلى » .

(٥) الأملس : الصحيح الظهر ؛ الدَّبِر : الذى أصابت ظهره الدَّبَرة وهى القرحة ؛ والمعنى : إن السالم لا يشعر بمرض المريض ، والمثل يضرب لسوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه ، وفى بعض النسخ « ما يلقى الدبر » .

وَأَوْسَطُهُ بِمُعَاتَبَتِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ انْفِصَالِكَ عَنِّى ، وَبَرَاءتِكَ أَبَدَ المِحْنَةِ مِنِّى[1] ، وَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ فِي وِرْدٍ وَلَا صَدَرٍ مِنْ مُشَارَكَتِي فِيهَا[2] ، وَلَا كَانَتْ لَكَ نَاقَةٌ وَلَا جَمَلٌ فِي مُظَاهَرَتِكَ لِي عَلَيْهَا[3] ، مَعَ القُدْرَةِ بِكَ عَلَى تَهْوِينِ خَطْبِهَا ؛ وَتَذْلِيلِ صَعْبِهَا ، وَتَلْيِينِ شَدِيدِهَا ، وَتَقْرِيبِ بَعِيدِهَا[4] .

فَأَرَى صِدْقَكَ الحَدِيثَ ، وَمَا ذَا كَ لِبُخْلٍ عَلَيْكَ بِالإِغْضَاءِ
أَنْتَ عَيْنِى ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِى غَضُّ أَجْفَانِهَا عَلَى الأَقْذَاءِ[5]

---

(١) فى الصيغة الموجزة « وأعاتبك على انفصالك عنى ، وبراءتك ... »

(٢) الورد : ورود الماء ، والصَّدَر : الصدور عنه ؛ يقال «فلانٌ ليس له ورد ولا صدر من هذا الأمر» : أى ليس له بهأى إلمام قال الشاعر :

وأحزم الناس مَنْ لومات من ظمأ لا يقربُ الوِرْدَ حتى يعرف الصَّدَرا

(٣) « لاناقتى فى هذا ولا جمل » أى لاشأن لى بهذا الأمر ، وهو مثل قاله الحارث بن عباد وقد اعتزل الحرب بين بكر وتغلب ؛ قال الراعى :

وما هجرتُكِ حتى قلت معلنة لاناقةٌ لِىَ فى هــذا ولا جملُ

والمظاهرة : المعاونة ؛ والظهير : المعين،قال تعالى « والملائكة بعدذلك ظهير » .

(٤) المعنى : تبرأتَ من التهمة الملصقة بى مع قدرتك على تهوين مصابها ، وتسهيل صعبها ، وإضعاف شدتها،وتقريب ما بعد منها .

(٥) البيتان لابن الرومى من قصيدة طويلة يعاتب فيها صديقه أبا القاسم

يا أبا القــاسم الذى كنتُ أرجو هُ لِدَهرى ، تعاشتَ سَنَّنَ الرجاءِ

لا أجازيك من غـــرورك إيَّا ىَ غرورا ، وُقيتَ سوءَ الجزاءِ =

وَإِنَّمَا يُعَاتَبُ الْأَدِيمُ ذُو الْبَشَرَةِ[1]، وَالْمَثَلُ السَّائِرُ: « وَيَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ »[2]، وَقَالَ الْأَوَّلُ[3]:

أَبْلِغْ أَبَا مِسْمَعٍ عَنِّي مُغَلْغَلَةً وَفِي الْعِتَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أَقْوَامِ[4]

= بل أرى صدقك الحديث، ومأذا لك لبخل عليك بالإغضاء

المعنى: إنى أصارحك بما نفسى من عتاب؛ وليس هذا خروجاً منى على ما يجب على الصديق من الإغضاء على هفوة الصديق، فإنك بمنزلة عينى، والواجب ألا يغمض الإنسانُ عينه علما بما يؤلمها ويعرضها من الأقذاء.

(١) الأديم: الجلد، والبشرة: ظاهرة، والأدَمَة: باطِنُه؛ المعاتبة: المعاودة، والمثل « إِنَّمَا يُعَاتَبُ الأَدِيمُ ذو البَشَرَةِ » معناه: إنما يراجع من تصلح مراجعته، ويعاتب من الإخوان من لا يحمله العتاب على اللحاج، فيأ كره منه وعوتب عليه؛ وأصله: أن الجلد إذا لم تَصلُحه الدبغة الأولى أعيد فى الدباغ إذا كان ذا قوة ومسكة، وتُركَ إذا كان ضعيفا لئلا يزيد ضعفا، وشبيه بهذا قول الشاعر:

وليس عتابُ المرء للمرء نافعاً إذا لم يكنْ لِلْمَرْءِ لُبٌّ يعاتبه

(٢) هذا عجز بيت هو:

إذا ذهب العتاب فليس وُدٌّ ويبقى الوُدُّ ما بَقِيَ العتابُ

(٣) هو تَمَّامٌ الرقاشى، ويلى هذا البيت ثلاثةُ أبيات وردت فى البيان والتبيين هى:

قَدَّمْتَ قبلى رجالا، لم يكن لهمُ فى الحقّ أن يلجوا الأبوابَ قُدّامى
لو عُدّ قبرٌ وقبرٌ كنت أكرمهم قبرا وأبعدهم من منزل الذام
حتى جعلتُ إذا ما حاجة عرضتْ ببابِ دارك أدلوها بأقوام

(٤) مغلغلة: محمولة من بلد إلى بلد، والمعنى: أبلغ أبا مسمع رسالة سائرة فى عتابه لأن فى العتاب حياة المودة والصفاء.

وَأَخِيفُهُ بِتَكْلِيفِكَ مَا كَانَ سَبَبَ الْكِتَابِ ، وَالدَّاعِيَ إِلَى الْخِطَابِ ، حَسَاكَ أَنْ تَتَلَافَى عَوْداً مَا ضَيَّعْتَ بَدْءاً[1]، وَتَهْتَبِلَ آخِراً مَا أَغْفَلْتَ أَوَّلاً[2] ، فَيَعُودَ غَيْثُهُ عَلَى مَا أَفْسَدَ[3] ، وَإِنْ كُنْتُ فِي ذَلِكَ « كَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ »[4] فَمَنْفَعَةُ الْغَوْثِ قَبْلَ الْعَطَبِ[5].

---

(١) تلافى : تتدارك ؛ المعنى : عساك تصلح آخراً ما أهملت أولا ؛ وفى بعض النسخ « ... ما أضعت بدءاً » .

(٢) اهتبل : اغتنم ، واهتبل الفرصة : انتهزها ، قال ذو الرمة :

ومطعم الصيد هبَّالٌ لبغيته ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب

(٣) المعنى : لعلك تنقذ ما ضيعته منى ، كما يصلح الغيث الأرض الجدباء التى طال هجره إياها .

(٤) حَلِمَ الأديمُ : فسد الجلد ، والمعنى : إنك فى محاولة إصلاح أمرى مثل من تدبغ الجلد وقد كاد يتمزق، أو أنى فى محاولة استدرار عطفك علىّ كمن يحاول استعطاف من لا يعطف ؛ والمعنى مأخوذ من قول الوليد بن عقبة محرضاً معاوية على حرب علىّ عليه السلام من أبيات : —

ألا أبلغ معاويةَ بن حرب فإنك من أخى ثقة مليمُ

قطعت الدهر كالسَّدِم المعنَّى تهدد فى دمشق ولا تريم

فإنك والكتابَ إلى علىّ كدابغة ، وقد حَلِمَ الأديمُ

لك الويلاتُ أوردنا عليه وخيرُ الطالب الترة الغشوم

(٥) فى الأصول « فمنفعة القوت ... » ولعل الصواب ما أثبتناه؛ وهو عجز بيت للمتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ويذكر صنع الدمستق قائد الروم بعد أن أوقع ببعض رعايا سيف الدولة ؛ ويشرح كيف أنقذهم سيف الدولة من قبضته ، يقول منها :

وَخَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعَا[1]

وَفِي عِلْمِكَ أَنِّي سُجِنْتُ مُغَالَبَةً بِالْهَوَى ، وَهُوَ أَخُو الْعَمَى[2] ، وَقَدْ نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنِ اتِّبَاعِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ مُضِلٌّ عَنْ سَبِيلِهِ ، إِذْ يَقُولُ : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ[3] » :

وَقَالَ الشَّاعِرُ :[4]

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى ، قَادَكَ الْهَوَى
إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ[5]

= سبقت اليهم منايام ومنفعة الغوث قبل العطب
فخروا لخالقهم سجدا ولو لم تُغِث سجدوا للصلب
وكم ذُدت عنهم ردى بالردى وكشّفت من كُرَب بالكرب

(١) البيت للقطامي من قصيدة يمدح فيها زفر بن الحارث يقول فيها :
ومعصية الشفيق عليك مما يزيدك مرة منه استماعا
وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه اتباعا

والمعنى : إذا عصيت الشفيق عليك ندمت وعدت إلى استماع نصحه ، وخير الأمور ما أتى إليك عفواً دون مشقة أو إلحاح في الطلب .

(٢) يشير إلى الحديث الشريف « حبُّكَ الشيءَ يعمى ويُصِم » ، قال عبد الله بن معاوية الطالبي :
ولستَ براءٍ عيبَ ذي الود كله ولا ناظر فيه وإنْ كنتَ رائيا
وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

(٣) سورة ص الآية ٢٦ .

(٤) ذكر المبرد في كتابه (الكامل) أنه هشام بن عبد الملك .

(٥) إذا اتبعت هواك وانقدت إلى شهواتك وقعت فيما يوجب عليك اللوم .

دُونَ تَأَنٍّ تُدْرِكُ بَعْضُ الحَاجَةِ بِهِ ، أوِ اسْتِثْبَاتٍ يُؤْمِنُ مُوَاقَعَةَ الزَّلَلِ مَعَهُ [(١)] ، بَلْ :

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ ، وَسَعْدٌ مُشْتَمِلْ ما هكَذَا تُورَدُ يا سَعْدُ الإِبِلْ [(٢)]

وَشَهِدَ ابْنُ العَطَّارِ المُشَارُ العَارِي عَنِ الثِّقَةِ وَالأَمَانَةِ ، البَعِيدُ مِنَ الرِّعَايَةِ وَالصِّيَانَةِ [(٣)] ، النَّاشِرُ لأُذُنَيْهِ طَامِعاً ، الآكِلُ بِيَدَيْهِ جَشِعاً ، فَكَانَ ... وَكَانَ القَوْلُ ما قَالَتْ حَذَامِ [(٤)] ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَنْ أَلْحَقَ

---

(١) المعنى : لقد أُلْقِيتُ بالسجن دون تأن أو تثبت رجاء إدراك بعض الحاجة أو خشية الوقوع فى الأخطاء ، ويشير بهذا إلى قول القطامى :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

(٢) هـذا البيت مثلٌ يضرب للرجل إذا قصر فى الأمر إيثارا للراحة ؛ مشتمل : ملتفٌ بكسائه ، قال هذا المثلَ مالكُ بن زيد مناة بن تميم حين رأى أخاه سعداً أورد إبله،ولم يحسن القيام عليها؛بل تركها واشتمل بثوبه .

(٣) لم نجد فيما بين يدينا ترجمة لابن العطار هذا ، ولعله كان جابياً للزكاة فإن من معانى المشار جابى الزكاة ، وفى بعض النسخ « العارى من الثقة . » ، وفى جميع الأصول « البعيد من الرّعية .. » ولعلها الرّعيا أو الرُّعوى بمعنى رعاية العهد أو النزوع عن الجهل ، وقد تكون الرّعوة أو الرُّعوة أى الازدجار والاتعاظ ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٤) آثرنا رواية الصيغة الوجزة ، وفى الصيغة المطولة « الآكل بيديه جشعا ، فكان القول ... » ، ويشير الكاتب هنا إلى قول لجيم بن صعب فى صدق زوجته « حذام » :

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام

بالشُّهُودِ وَهُوَ وَاوُ عَمْرٍو فِيهِمْ [١]، وَنُونُ الْجَمْعِ الْمُضَافِ مِنْهُمْ [٢]، دُونَ أَنْ يُلْحَقَ بِخُزَيْمَةَ ذِي الشَّهَادَتَيْنِ [٣]، وَيَنُوبَ مُنْفَرِدًا عَنِ اثْنَيْنِ [٤]

---

(١) من نظام القضاء فى الأندلس ألا يتولى إنسانٌ أمر الشهادة أو الفتوى « حتى يطاول اختباره وتعقد له مجالس المذاكرة ويكون ذا مال » ، ويلزم القاضى « أن يكون أول ما يبتدىء به الكشف عن الشهود والوثقين فيتعرف حال من لا يعرف حاله منهم ، ويفحص عن عدالتهم ، فمن كان عدلا أثبته ، ومن كان فيه جُرْحَة أسقطه ، وأراح المسلمين من أذيته » ، وهو نظام يشبه نظام المحلفين فى المحاكم الفرنسية ، ولعل الفرنسيين اقتبسوه من مذهب مالك وهو مذهب الأندلسيين « راجع كتابنا : ابن زيدون حياته وعصره وأدبه ص ١٩٠ » والكاتب هنا يشير إلى أنَّ ابن العطار دخيلٌ على الشهود كما زيدت الواو فى اسم عمرو دون أن تكون من حروفه ، قال أبو نواس : فى أشجع السلمى

أيها المدعى سليما سفاها لستَ منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت من سليم كواو ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

(٢) المعروف أن نون الجمع تحذف عند الإضافة مثل : معلمو المدينة ومهندسوها حاضرون .

(٣) هو خزيمة بن ثابت الأنصارى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذا الشهادتين » وذلك أن يهودياً أتاه فقال : يا محمد أقضنى دينى ، فقال عليه السلام : أو لم أقضك ؟ قال : لا ، فقال : إن كانت لك بينة فهاتها ، وقال لأصحابه : أيكم يشهد أنى قضيتُ اليهودى ماله ؟ فأمسكوا جميعاً ، فقال خزيمة : أنا يا رسول الله أشهد أنك قضيته ، قال : وكيف تشهد بذلك ولم تحضره ولم تعلمه ؟ فقال : يا رسول الله نحن نصدقك على الوحى من السماء فكيف لا نصدقك على أنك قضيته ؟ فأنفذ عليه السلام شهادته وسماه ذا الشهادتين لأنه قام مقام شاهدين .

(٤) المعروف أن الشهادة لا تتم إلا بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين من العدول .

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدِ(١)

وَأَيْتَنِي - مَعَ مَنْ لاَ يَجِلُّ قَوْلُهُ عَلَيَّ - أُعْذِرَ فِي شَهَادَتِهِ إِلَيَّ(٢)!! وَلَمْ يَقْتَرِنْ الْحَشَفُ مَعَ سُوءِ الْكِيلَةِ(٣) وَتَنْتَقِضُ لِي الْغُدَّةُ إِلَى الْمَوْتِ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ، (٤) خُطَّتَا خَسْفٍ!! لَمْ أَرَ النَّجَاءَ مِنْهُمَا إِلاَّ أَنْ رَكِبْتُ الْحَوْلِيَّ الأَشْهَبَ، وَرَأَيْتُ خُرَاسَانَ مَكَانَ السُّوقِ أَوْ هِيَ أَقْرَبُ(٥)، وَكَانَ

---

(١) البيت لأبي نواس « سبق شرحه وإيراد مناسبته ص ٢٥٦٢ »

(٢) الإعذار : اصطلاح فقهي وهو إعطاء المتهم فرصة الدفاع عن نفسه . وفي هذا يقول ابن فرحون : « كل من قامت عليه بينة بحق من معاملة أو نحوها أو دعوى بفساد أو غصب أو تعد فلابد من الإعذار إليه قبل الحكم عليه .... » أي إعطاؤه الفرصة للدفاع عن نفسه قبل إدانته « راجع كتابنا عن ابن زيدون ص ١٩٠ » .

وفي النص الوجيز « وليت مع قبول من لا تجهل شهادته عليّ ، بعد رقيه إليّ ولم يقرن الحشف .... »

(٣) الحشف : أردأ التمر ، والعبارة مثل يضرب لمضاعفة الغبن بالبضاعة الرديئة المصحوبة بتطفيف الكيل .

(٤) الإشارة إلى المثل « غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية !! » ، وسببه أن عامر بن الطفيل أنذر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحرب فدعا عليه ، فبرزت له غدة كبيرة وهو نازل في بيت امرأة من سلول « وقد ذكرنا القصة بالتفاصيل ص ١٨٦٧٤ » .

(٥) الحوليّ : كل ذي حافر أو خف مرت عليه سنة . الأشهب : الأبيض الشرب بنوع من السواد ، ويطلق على الأسد ، أو الأمر الصعب ، أو العام الجديب ، والكاتب يشير إلى قصة ضابيء بن عميرة البرجمي حينما وفد على ابن نهية =

الْمُتَوَلِّي سِجْنِي بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ إِنْفَاذِهِ ، لَهُ مَجْلِسُ حَضْرَةٍ تُشْهَاهُ الْحَضْرَةُ وَمَنْ أَعْلَمَ بِسِيَاهُمْ[(1)] وَجَرَى فِي غِشْيَانِ الْحُكَّامِ مَجْرَاهُمْ ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ اتَّهَمَنِي بِالْغَيْبِ[(2)] ذَلِي عَهْدِ الْمُتَوَفَّى مَوْلَايَ ـ كَانَ ـ نَقَعَ اللهُ صَدَاهُ ، وَبَلَّ ثَرَاهُ[(3)] ؛ وَثَبَتَ عِنْدَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنِّي مِمَّنْ تَعَلَّقَهُ التُّهَمُ ، وَلَا تَرْتَفِعُ

= صاحب الشرطة بالبصرة ، فأغراه به أحد أعوانه ، وذكَّره أنَّ ضابئاً دخل على عثمان بن عفان عند مقتله فوطأ ضلعين من أضلاعه ، فأمر ابنُ نُهية بقتله ، ففرَّ ضابئ هارباً من بلد إلى بلد ، وفي ذلك يقول عبد الله بن الزَّبير الأسدي :

تجهَّز ، فإما أن تزور ابنَ ضابئ ... عُمَيْراً ، وإمَّا أن تزور المُهَلَّبا
هما خطتا خسف اا نجاؤكَ منهما ... ركوبُكَ حوليّاً من الثَّلج أشهبا
فأضحى ، ولو كانت خراسانُ دونه ... رآها مكانَ السوق أو هي أقربا

والماء في (دونه) عائدة على المهلب ؛ (راجع القصة في الكامل للمبرد ج ١ ص ١٨٣) .

(١) حضرة الرجل : قربه أو فناؤه ، أنشد الليث :

فشُلَّتْ يداه يوم يحمل راية ... إلى نهشل ، والقوم حضرة نهشل

والحضرة تطلق في الاصطلاح على مكان الرئيس أو العاصمة وهي العاصمة ؛ والسِّيماء : العلامة ؛ وكان للفقهاء زي خاص لا يلبسه سواهم يتميزون به هو القلنسوة والرداء (راجع كتابنا عن ابن زيدون ص ٥٧ ، ٥٨) .

(٢) في الأصول « اتهمني بالغيب » ولعل الأصح ما ذكرناه ، قال تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » أي يؤمنون بما لم يشاهدوه أو يدركوه بحواسهم ؛ واتهمه بالغيب : رماه بذنب دون أن يعلم صدوره عنه .

(٣) نقع الغليل : أذهب العطش ، وفي المثل : « الرشفُ أنقع » أي أقطع للعطش ؛ الصَّدَى جثمان الميت بعد دفنه ؛ والمعنى أدعو الله أن يسقيَ ضريحه =

عَنْهُ الظَّنَّ(١) ، فَكُلُّهُمْ أَفْتَى بِالْإِعْذَارِ إِلَيَّ ، فِيمَا شُهِدَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ عَلَيَّ ، ثُمَّ سِجْنِي إِنْ لَمْ آتِ بِمَدْفَعٍ ، أَوْ أَصْدَعْ مِنَ الْحُجَّةِ بِمُقْنِعٍ(٢) ؛ فَاحْتَاطَ وَاجْتَهَدَ ، وَتَحَرَّى وَاقْتَصَدَ ، وَصَالَحَنِي مِنْ هَذِهِ الْفُتْيَا عَلَى النِّصْفِ ، بِتَأْخِيرِ الْإِعْذَارِ وَتَقْدِيمِ السِّجْنِ(٣) !! وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ(٤) . ثُمَّ أَظْهَرْتُ إِلَيْهِ عَقْدًا كَانَ الْمُتَوَفَّى ـ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ ،

= وأن يمطره بالرحمات ، ومن عادة العرب أن يدعوا للميت بالسقيا لأن المطر كان خير نعمة تمنحها لهم السماء ، قال الحسين بن مطير الأسدى فى رثاء معن بن زائدة :

ألما على معن ، وقولا لقبره سقتك الغوادى مربعاً ثم مربعا

(١) من قواعد القضاء فى مذهب الإمام مالك (مذهب أهل الأندلس) أن القاضى يجب أن يُعْذِر إلى المتهم قبل الحكم عليه ـ أى يعطيه فرصة الدفاع عن نفسه ـ « إلا أن يكون من أهل الفساد الظاهر أو من الزنادقة المشهورين بما ينسب إليهم » ويظهر أن الحاكم أراد النكاية بابن زيدون فعدّه من أهل الفساد الظاهر ، الذين تصدق فيهم التهم ، وتتحقق فيهم الشكوك .

(٢) لم يقتنع الفقهاء بما سمعوه ، وأفتوا بالإعذار إلى ابن زيدون أى بإعطائه فرصة الدفاع عن نفسه قبل الحكم عليه ، فإذا لم يستطع الدفاع عن نفسه بدليل يدفع عنه التهمة ، أو حجة مقنعة فللحاكم أن يحكم بسجنه .

(٣) عكس الحاكم النصيحة فقدّم نصفها الأخير وهو السجن ، وأخّر نصفها الأول ، وهو تمكين المتهم من الدفاع عن نفسه ؛ فقلب الأوضاع قلباً غريبا يدل على سوء النية والإصرار على الظلم والإجحاف .

(٤) فى الحديث الشريف : « الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالا » وقد اقتبسه عمر بن الخطاب فى رسالته الجامعة لأحكام القضاء التى وجهها إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما .

الْمُتَوَلِّي سِجْنِي بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ إِنْفَاذِهِ ، لَهُ مَجْلِسُ حَضْرَةٍ فُقَهَاءُ الْحَضْرَةِ وَمَنْ أَعْلَمَ بِسِيَامُهُمْ[1] وَجَرَى فِي غِشْيَانِ الْحُكَّامِ مَجْرَاهُمْ ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ اتَّهَمَنِي بِالْغَيْبِ[2] عَلَى عَهْدِ الْمُتَوَفَّى مَوْلَايَ ـ كَانَ ـ نَقَعَ اللَّهُ صَدَاهُ ، وَبَلَّ ثَرَاهُ[3] ؛ وَثَبَتَ عِنْدَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنِّي مِمَّنْ تَعْلَقُهُ التُّهَمُ ، وَلَا تَرْتَفِعُ

= صاحب الشرطة بالبصرة ، فأغراه به أحد أعوانه، وذكره أن ضابئا دخل على عثمان بن عفان عند مقتله فوطأ ضلعين من أضلاعه ، فأمر ابنُ نهية بقتله ، ففرَّ ضابىء هارباً من بلد إلى بلد ، وفى ذلك يقول عبد الله بن الزَّبير الأسدى .

تجهَّز ، فإما أن تزور ابنَ ضابىء ... عُمَيْراً ، وإمَّا أن تزور المهلَّبا

هما خطتا خسف ال نجاؤكَ منهما ... ركوبُكَ حولياً من الثَّلج أشهبا

فأضحى ، ولو كانت خراسانُ دونه ... رآها مكانَ السوق أو هى أقربا

والهاء فى (دونه) عائدة على المهلب ؛ (راجع القصة فى الكامل للمبرد جـ ١ ص ١٨٣) .

(١) حضرة الرجل : قربه أو فناؤه ، أنشد الليث :

فشُلَّتْ يداه يوم يحمل راية ... إلى نَهشلٍ ، والقوم حضرة نَهشلْ

والحضرة تطلق فى الاصطلاح على مكان الرئيس أو الحاضرة وهى العاصمة ؛ والسيماء : العلامة ؛ وكان للفقهاء زى خاص لا يلبسه سواهم يتميزون به هو القلنسوة والرداء (راجع كتابنا عن ابن زيدون ص ٥٧ ، ٥٨) .

(٢) فى الأصول « اتهمنى بالغيب » ولعل الأصح ما ذكرناه ، قال تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » أى يؤمنون بما لم يشاهدوه أو يدركوه بحواسهم ؛ واتهمه بالغيب: رماه بذنب دون أن يعلم صدوره عنه .

(٣) نقع الغليل : أذهبَ العطشَ ، وفى المثل: « الرشْفُ أنقع » أى أقطع للعطش ؛ الصَّدَى جثمان الميت بعد دفنه ؛ والمعنى أدعو الله أن يسقى ضريحه =

عَنْهُ الظَّنَّ[1] ، فَكُلُّهُمْ أَفْتَى بِالْإِعْذَارِ إِلَيَّ ، فِيمَا شُهِدَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ عَلَيَّ ، ثُمَّ سِجْنِي إِنْ لَمْ آتِ بِمَدْفَعٍ ، أَوْ أَصْدَعْ مِنَ الْحُجَّةِ بِمَقْنَعٍ[2] ؛ فَاحْتَاطَ وَاجْتَهَدَ ، وَتَحَرَّى وَاقْتَصَدَ ، وَصَالَحَنِي مِنْ هَذِهِ الْفُتْيَا عَلَى النِّصْفِ ، بِتَأْخِيرِ الْإِعْذَارِ وَتَقْدِيمِ السِّجْنِ[3] !! وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ[4] : ثُمَّ أَظْهَرْتُ إِلَيْهِ عَقْداً كَانَ الْمُتَوَفَّى ـ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ ،

= وأن يمطّره بالرحمات ، ومن عادة العرب أن يدعوا للميت بالسُّقيا لأن المطر كان خير نعمة تمنحها لهم السماء ، قال الحسين بن مطير الأسدى فى رثاء معن بن زائدة :

ألمّا على معن ، وقولا لقـــبره   سقتك الغوادى مربعاً ثم مربعا

(١) من قواعد القضاء فى مذهب الإمام مالك (مذهب أهل الأندلس) أن القاضى يجب أن يُعْذِر إلى المتهم قبل الحكم عليه ـ أى يعطيه فرصة الدفاع عن نفسه ـ « إلا أن يكون من أهل الفساد الظاهر أو من الزنادقة المشهورين بما ينسب إليهم » ويظهر أن الحاكم أراد النكاية بابن زيدون فعدّه من أهل الفساد الظاهر، الذين تصدق فيهم التهم ، وتتحقق فيهم الشكوك .

(٢) لم يقتنع الفقهاء بما سمعوه ، وأفتوا بالإعذار إلى ابن زيدون أى بإعطائه فرصة الدفاع عن نفسه قبل الحكم عليه ، فإذا لم يستطع الدفاع عن نفسه بدليل يدفع عنه التهمة ، أو حجة مقنعة فللحاكم أن يحكم بسجنه .

(٣) عكس الحاكم النصيحة فقدّم نصفها الأخير وهو السجن ، وأخّر نصفها الأول ، وهو تمكين المتهم من الدفاع عن نفسه ؛ فقلب الأوضاع قلباً غريبا يدل على سوء النية والإصرار على الظلم والإجحاف .

(٤) فى الحديث الشريف : « الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالا » وقد اقتبسه عمر بن الخطاب فى رسالته الجامعة لأحكام القضاء التى وجهها إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما .

وَنَوَرٌ ضَرِيحُهُ — وَقَدْ أَشْهَدَ فِيهِ أَلاَّ مَالَ لَهُ ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا تُحِيطُ بِهِ الدَّارُ الَّتِى تُوُفِّىَ بُعَيْدَ هَذَا الإِشْهَادِ فِيهَا ، إِنَّمَا هُوَ لِلْغَانِيَةِ الَّتِى فِى عِصْمَتِهِ[1] — حَاشَا دَقَائِقَ بَيَّنَهَا وَمُحَرَّرَاتٍ عَيَّنَهَا — وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَشْهَدَ بِهَذَا عَلَى نَفْسِهِ ، وَتَقَيَّدَ إِلَى مِثْلِهِ مِنْ أَمْثَالِهِ ، فَمُحَالٌ أَنْ يُخَلِّفَ عَهْداً أَوْ يَهْلِكَ عَنْ وَصِيَّةٍ[2] ؛ وَسَأَلْتُهُ الشُّورَى فِيمَا أَثْبَتُّهُ مِنْ هَذَا الْعَقْدِ ، فَلَمْ يُجِبْنِى إِلَى ذَلِكَ[3] ؛ وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الشُّورَى مِنْ أَدَبِ اللهِ — إِذْ يَقُولُ : « وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ[4] » — لَوَجَبَ

(١) فى بعض النسخ « .. هو للملاءة التى فى عصمته » ؛ الغانية : المرأة الجميلة التى غنيت بحسنها وجمالها عن التزين ، أو الزوجة التى غنيت بزوجها عن الرجال ؛ والكاتب يذكر هنا أنه قدم عهداً مكتوباً من المتوفى أشهد فيه على نفسه أنه لامال له ، وأن الدار المتنازع عليها ليست ملكا له ، وإنما هى ملك لزوجته ، إلا بعض المتاع الذى ذكره ، ويظهر أن ورثة المتوفى — غير زوجته — ادعوا على الكاتب أنه اغتصب الدار من مورثهم ؛ فأثبت لهم أنها لم تكن من ملكه .

(٢) يظهر أن الورثة يدعون أن مورثهم عهد إليهم بداره أو أوصى لهم بها ؛ مع أن العقد الذى أظهره الكاتب يناقض هذه الدعوى بأجلى بيان .

(٣) اج الحاكم فى عناده فطلب إليه الكاتب أن يستشير فى أمره الفقهاء ؛ ومن الشروط الواجبة فى القاضى فى مذهب الإمام مالك أن يكون « .. حليما مستشيراً لأهل العلم والرأى » وكان للقضاة فى الأندلس مشاورون كى لايصدروا إلا عن آراء ناضجة ، وهذا يشبه إلى حد ما نظام المحلفين فى العصر الحديث (راجع كتابنا عن ابن زيدون ص ٥٧) .

(٤) الآية « فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر » سورة آل عمران ١٥٩

أنْ يَتِمّ أنها لِقاحُ لِعَقْلٍ، وَرائدُ الصَّوابِ [١]. وأنَّ المُشاوِرَ إحْدى الحُسْنَيَيْنِ: صَوابًا يَفُوزُ بِحَمْدِهِ، أوْ خَطَأً يُشارِكُ فِي مَذَمَّتِهِ [٢]؛ قَالَ الشّاعِرُ:

وَلاَ تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً فَإنَّ الخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ [٣]

قَدْ قُرِعَتْ لَهُ العَصا [٤]، وَنُبِّهَ عَلَى [أنَّ] [٥] الَّذِي دَعَوْتُهُ إلَيْهِ، لاَ يَسُوغُ لِي دَفْعُهُ عَنْهُ، وَلاَ يَجُوزُ مَنْعِي مِنْهُ، فَحِينَئِذٍ عَلَّقَنِي بِمَوَاعِيدَ « كَانَتْ

---

(١) اللقاح: اتصال الذكر بالأنثى للتناسل؛ ولقاح العقل: أى إن الشورى مثيرة للعقل دافعة إياه إلى التفكير النّاضج الحكيم؛ رائد الصواب: دليله

(٢) المعنى: إذا أصاب المستشيرُ فقد استحقّ الحمد والثناء، وإذا أخطأ فقد وجد من يحتمل معه نتيجة الخطأ؛ فهو ظافر على الحالين بإحدى الحسنيين.

(٣) البيتُ لبشار بن برد من أبيات يقول منها:

إذا بلغَ الرأيُ الشورةَ فاستعن برأيِ نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليكَ غضاضة فإنّ الخوافى قوةٌ للقوادم

وما خير كف أمسك الغُلُّ أختها وما خير سيف لم يؤيد بقادم

الخوافى: مادون الريشات العشر من مقدم الجناح، القوادم عشر ريشات فى مقدم الجناح؛ والمعنى: لاتستنكف من مشورة الحكماء، فإن ضم رأى إلى رأى ينير أمامك الطريق، كما أن قوادم الجناح وخوافيه تعطيه قوة على الطيران. —

(٤) معناها نُبِّهَ على ماينبغى له أن ينتبه إليه، وفى الأمثال « إن العصا قرعت لذى الحلم » وسببه أن أحد حكماء العرب طعن فى السنّ فأوصى بنيه أن يقرعوا له العصا إذا خلط فى كلامه لينتبه، وقد تحدثنا عن هذا بالتفصيل ص٣٨٦٧٦

(٥) زدنا حرف التوكيد «أنّ» لأن السياق يقتضيه.

مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً [1] » ، « إِذَا قَطَمْنَ عَلَمًا بَدَا عَلَمْ [2] » ، وَكَانَ آخِرُهَا الَّذِى نَسَخَ بِهِ مَا قَبْلَهُ أَنْ تُدْرَجَ الشُّورَى لِوِزَارَتِهِ ، فَتَوَيْتُ أَرْقُبُ هَـذَا الحِينَ ، وَأَرْجُو أَنْ يَحِينَ ، « كَمَا يَرْجُوا أَخُو السَّنَةِ الرَّبِيعَا [3] » ، وَ « كَمَا فِى بُطُونِ الحَامِلاتِ رَجَاءٌ [4] » .

(١) يقال إن عرقوب رجل من خيبر وعد أخاه بثمر نخلة ثم أخلفه ما وعده، فضرب به المثل فى الكذب والخلف ، قال كعب بن زهير :

فلا يغرّنك ما منّت وماوعدت إن الأمانيّ والأحلام تضليلُ
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيلُ
فليس تنجز ميعاداً إذا وعدت إلا كما تمسك الماءَ الغرابيلُ

(٢) العلَم : الجبل ؛ والبيت مقتبس من أرجوزة لجرير يقول منها :

أقبلن من جنبيّ فتاخ وأضمْ على قلاص مثل خيطان السلَمْ
إذا قطعْنَ علما بدا علمْ حتى تناهيْنَ إلى باب الحكَمْ

(٣) السنة : العام أو الجدب والقحط ؛ صاحب السنة : الذى يشكو الفقر والقحط ، وقد اقتبس الكاتب شطرا من أبيات رواها ابن دريد يقول فيها :

ألا يا كاسُ قد أفنيت قولى فلستُ بقائل إلا رحيما
ولستُ بنــائم إلا بهمٍّ ولا مستيقظا إلا مَرُوعا
أؤمل أن ألاقى آل كأس كما يرجو أخو السنة الربيعا
وإنك لو نظرت فدتك نفسى إلى كبدى وجدت بها صدوعا

(٤) المعنى : أرجو تحقيق وعده كما ترجى الولادة أثناء الحمل ، وقد اقتبس الكاتب هذا الشطر من أبيات قالها محرز بن المكعبر الضبي يقول منها : =

فَكُنْتُ وَإِيَّاهُ سَحَابَةَ مُمْحِلٍ   رَجاها ، فَلَمَّا جاوَزَتْهُ اسْتَهَلَّتِ [١]

وَفِي فصلٍ مِنْها : [٢]

وَلَمْ أَقُصَّ عَلَيْكَ يا سَيِّدِي مِمّا اجْتَنَبْتُهُ إِلّا ما شُهِرَ شُهْرَةَ الاسْمِ ، وَعُرِفَ مَعْرِفَةَ النَّسَبِ ، وَ « ما يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسِرٍّ » ؛ [٣] وَكُنْتُ أَوَّلَ حَبْسِي قَدْ وُضِعْتُ مِنَ السِّجْنِ فِي مَوْضِعٍ جَرَتِ العادَةُ بِوَضْعِ مَسْتُورِي

= وإنى لراجيكم على بطء سعيكم   كما فى بطون الحاملات رجاءُ !!
فهلاّ سعيتُمُ سعى عصبة مازنٍ !!   وهل كفلائى فى الوفاء سواء ؟
«راجع القصيدة ومناسبتها فى ديوان الحماسة» .

(١) البيت لكثير من قصيدته التائية المشهورة يقول منها :
وإنى وتهيامى بعزة بعدما   تخليتُ مما بيننـــا وتخلت
لكا لمرتجى ظلّ الغمامة ، كلما   تبوأ منها للمقيل اضمحلت
فكنتُ وإياها سحابة ممحل   رجاها ، فلما جاوزته استهلت
المحل : المجدب ؛ والمعنى : كنتُ أرقب الخير منه ، ففاتنى خيره ، كالرجل المجدب الذى رأى سحابة فترقب مطرها ، فلم تمطر إلا بعد أن جاوزته .

(٢) تدل هذه العبارة على أن الرسالة وصلت إلينا ناقصة .

(٣) وجه الحارث بن أبى شمر الغسانى جيشاً لقتال المنذر بن ماء السماء ، وندب مائة رجل ليحتالوا على المنذر ويأخذوه على غرة ، فأخرجت لهم ابنته حليمة طيبا طيّبتهم به ، فاشتهر هذا اليوم ؛ وقال فيه المبرد : هو أشهر أيام العرب . ويضرب مثلا لكل أمر متعارف مشهور ؛ وقد تحدثنا عن هذا المثل بالتفصيل ص ٥٧٠١ ه

النّاسِ وَذَوِى الْهَيْئَاتِ فِيهِ ، وَفِى الشَّرِّ خِيارٌ (١) ؛ وَبَعْضُهُ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ (٢) ، فَمُنِيتُ مِنْ مُطَالَبَةٍ بَعْضَ مَنْ يَأْتَمِرُ النّاظِرُونَ فِى السِّجْنِ لَهُ ، وَيَسْتَدُونَ مِنْهُ ، بِمَا اقْتَضَى تَقَلِّى إِلَى حَيْثُ الْجُنَاةُ الْمُفْسِدُونَ ، واللُّصُوصُ الْمُقَيَّدُونَ (٣) [وَمُنِعَ مِنِّى عُوَّادِى] (٤) ، وَشَكَوْتُ ذَلِكَ إِلَى الْحَاكِمِ الْحَابِسِ لِى فِى الْيَوْمِ الَّذِى مَضَى ذِكْرُهُ ، بِمَشْهَدٍ مَنْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُ ، فَانْتَفَى مِنَ الرِّضَى بِهِ (٥) ، وَأَظْهَرَ الامْتِعَاضَ مِنْهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُوَكَّلِ بِالسِّجْنِ فِى اخْتِيارِ مَجْلِسٍ أَبَايِنُ فِيهِ مَنْ لَا تَلِيقُ بِى مُلابَسَتُهُ (٦) ، وَأَنْتَبِذُ عَمَّنْ

---

(١) يشير إلى المثل المشهور « إن فى الشر خياراً » .

(٢) يشير إلى قول طرفة بن العبد حين أوجس شرا من النعمان :

أبا منذر أفنيت ا فاستبق بعضنا حنانيك ! بعضُ الشرِّ أهونُ من بعض

(٣) فى النص الموجز « ثم نُقِلتُ بعدُ إلى حيث الجنـــاةُ المفسدون واللصوص المقيدون » .

(٤) زيادة من النص الموجز ، ويؤيدها ماذكره الشاعر فى قصيدته الملحقة بالرسالة الجدية (ص ٢٨٣) حيث يقول — :

سقم لا أعاد فيه ، وفى العـــا ئد أنسٌ يفى ببرء السقيم

نارُ بغىٍ سرى إلى جنة الأمـ ـن لظاها ، فأصبحتْ كالصريم

(٥) فى النص الموجز : « فشكوتُ إلى الحاكم الحابس لى فعمَّ عنى » .

(٦) الملابسة : المخالطة ، يقال : لابس الرجل فلانا : خالطه ، أو عرف باطنه . . .

لا تُرْضَى لِي مُجالَسَتُهُ (١) ، ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أنْ أَحْضَرَهُ مَجْلِسَ نَظَرِهِ، (٢) وَأَمَرَ بِتَأْدِيبِهِ عَلَى امْتِثالِهِ فِي مَا أَمَرَهُ بِهِ (٣)، وَانْتِهائِهِ إِلَى مَا حَدَّ لَهُ؛ وَاسْتَأْنَفَ العَهْدَ فِي التَّضْيِيقِ عَلَيَّ ، وَمَنَعَ مَن اعْتادَ صِلَتِي مِنَ الوُصُولِ إِلَيَّ؛ فَأُصْعِدْتُ إِلَى غُرْفَةٍ فِي السِّجْنِ أَفْنَتْنِي بِهَا مَعَ خَسَاسَتِهَا ، وَأَسْلانِي عَن الصُّحْبَةِ بِالسُّكُونِ فِيهَا عَلَى مَضَاضَتِهَا ، انْفِرادِي مِنْ لَفِيفِ الأَخْلاطِ ، وَمَنْ ضَمَّهُ السِّجْنُ مِنَ السَّفَلَةِ وَالأَسْقاطِ (٤) ؛ فَحِينَ اشْتَقْتُ إِلَيْهَا، عَهِدَ بِعَطْفِي إِلَيْهِمْ ، وَخَلْطِي بِهِمْ ، وَوَضْعِي بَيْنَهُمْ ، فَنُقِلْتُ فِي نَفْسِي ثَلاثَ نُقَلٍ (٥)،

(١) انتبذ : ذهب ناحية ، وانتبذ عن قومه : تنحى عنهم ، وفى الحديث أنه ﷺ « مرّ بقبر منتبذ عن القبور ... » أى منفرد عنها .

(٢) مجلس النظر : مجلس الحكم .

(٣) امتثل أمره : احتذاه أو أطاعه .

(٤) المضاضة : وجع المصيبة قال طرفة بن العبد :

وظلمُ ذوى القربى أشد مضاضةً   على المرء من وقع الحسام المهند

الأخلاط : جمع خِلط وهو الأحمق ، ورجل خِلْطٌ مِلْطٌ : مختلط النسب ، والمراد هنا الأوشاب ؛ الأسقاط : جمع سَقَط والسقط هو ردئ المتاع ومثله الوغد الدنئ من الناس .

(٥) وُضِعَ الشاعرُ فى مكان بالسجن يناسب منزلته ومكانته ، ثم نُقِل إلى حيث الأوغاد والسفلة ، ثم نقل إلى غرفة حقيرة أنفرد بها ، ثم أعيد مرة ثانية إلى حيث يقيم المجرمون والرعاع ، فالشاعر أمام بثلاثة مواضع فى سجنه

ذَلِّ أَقْبَحِ النُّصْبِ، وَأَسْوَإِ الرُّتَبِ (١)؛ وَدَخَلَ إِلَيَّ فِي هَذِهِ الْحَالِ مَنْ أَبْلَغَنِي عَنِ ابْنِ أَخِي الْحَكَمِ رِسَالَةً جَامِعَةً مِنَ السَّبِّ الْفَاحِشِ لِفُنُونٍ، مُشْتَمِلَةً مِنَ الْوَعِيدِ الْمُرْهِبِ عَلَى ضُرُوبٍ؛ فَلَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي (٢)!! وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ، وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ (٣) فَلَمْ أَسْتَطِعْ صَبْرًا، وَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ أَبْلَيْتُ عُذْرًا (٤)، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَعْذِرَنِي لَبِيدٌ، وَكَادَ (٥)!! وَرَأَيْتُ أَنَّ الْعَاجِزَ مَنْ لَا يَتَقَيَّدُ (٦)، فَلَمْرُهُ

---

(١) النُّصْب والنَّصَب والنُّصُب: الداء أو الشر أو البلاء، ومنه قوله تعالى: «واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنُصْب وعذاب».

(٢) «لو ذات سوار لطمتني» مثل يضرب لشدة الهوان، يقال إن حاتماً الطائي لطمته أمة وهو أسير، فقال هذه العبارة فصارت مثلا، كأنه جعل السوار علامة الحرية، وروى «لو غير ذات سوار لطمتني» أى لو ضربني رجل لانتقمت منه أشد انتقام.

(٣) البيت لامرئ القيس ومعناه: من البلية أن يفخر عليك الضعيف ويغلبك المغلوب.

(٤) أبليته عذرا: أديته إليه فقبله.

(٥) يشير إلى قول لبيد حين أحس دنو منيته:

يسر ابنتى أن يعيش أبوهما   وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟
فإن حان يوماً أن يموت أبوكما   فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
إلى الحول، ثم اسم السلام عليكما   ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

(٦) فى الصورة الوجيزة «وعلمت أن العاجز» يشير إلى قول عمر بن أبى ربيعة=

يَعْجِزُ لَا الْمَحَالَةُ (١) ، وَلَمْ أَسْتَعْجِزْ أَنْ أَكُونَ ثَالِثَ الْأَذَلَّيْنِ : الْعَيْرِ وَالْوَتِدِ (٢) ؛ وَذَكَرْتُ أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الظُّلْمِ ، وَالْهَرَبَ مِمَّا لَا يُطَاقُ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ (٣) ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ (٤) » ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

لَا عَارَ لَا عَارَ فِي الْفِرَارِ ، فَقَدْ فَقَدْ فَرَّ نَبِيُّ الْهُدَى إِلَى النَّارِ (٥)

= ليتَ هنداً أنجزتنا ما تعــد وشفت أنفسنا مما تجــدْ

واستبدتْ مرة واحــدة إنما العاجز منْ لا يستبد

(١) فى الصورة الوجزة « والمرء يعجز ... » ، المحالة : الحيلة ؛ والجملة مثل معناه : لا تضيقُ الحِيَلُ ومخارجُ الأمور إلا على العاجز الضعيف ؛ قال مجاعة ابن مرارة الحنفى :

حاولتُ حين صرمتني والمرء يعجز لا المحــاله

والدهر يلعب بالفــتى والدهر أروغ من ثعــاله

والعبــد يُقرعَ بالعصا والحر تكفيه المقــاله

(٢) العَيْر : الحمار ، قال المتلمس :

ولا يقــيم على ضيم يراد به إلا الأذلانِ : عَيْرُ الحى والوتدُ

هــذا على الخسف مربوط برمته وذا يُشجّ فلا يرثى له أحــد

(٣) فى الصورة الوجزة « مما لا يطاق من سُنَن المسلمين ، وقد قال تعالى »

(٤) سورة الشعراء آية ٢١ .

(٥) البيت لأبى عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجاج من أبيات يقول فيها :

هربت من موطــنى إلى بلد قد صفّر الجوعُ فيه منقارى —

يقول قوم : فرَّ الخسيسُ ، ولو كان فتًى كان غــير فرّار

لا عيبَ لا عيبَ فى الفرار ، فقد فرّ نبي الهــدى إلى النار

وَنَظَرْتُ فِي مُفَارَقَةِ الْوَطَنِ ، وَالْبَيْنِ عَنِ الْأَحِبَّةِ ، فَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ إِيحَاشَ نَفْسِي بِإِينَاسِ أَهْلِي[1]، وَقَطْعَهَا فِي صِلَةِ وَطَنِي ، غَبْنٌ فِي الرَّأْيِ ، وَخَوَرٌ فِي الْعَزْمِ[2]؛ وَوَجَدْتُ الْحُرَّ يَنَامُ عَلَى الثُّكْلِ ، وَلَا يَنَامُ عَلَى الذُّلِّ[3] وَأَذِنْتُ إِلَى قَوْلِهِمْ : لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْبِلَادِ نَسَبٌ[4]، فَخَيْرُهَا مَا حَمَلَكَ ، وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فَتَحَوَّلْ[5].

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحْدَثِينَ[6]

---

(١) البَيْنُ : الفراق ؛ الإيحاش : كثرة الوحشة وهي الخلوة والهم والانقطاع عن الناس وبعد القلوب عن المودات ، وأوحش المكانُ : خلا من الأنس .

(٢) الغبن : النقص أو الغش أو الخسارة ؛ الخَوَرُ : الضعف .

(٣) الثُّكْل والثَّكَل : الموت والهلاك ، أو فقدان الحبيب أو الولد

(٤) أذِنَ : استمع ، قال قَعْنَبُ بن أم صاحب :

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا مِنِّى ، وما أذنوا من صالح دفنوا
صمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكِرْتُ به وإن ذُكِرْتُ بشر عندهم أذِنوا

(٥) نبابه المنزلُ: لم يوافقه ، والعبارة عَجُزُ بيت ينسب إلى عنترة حيث يقول:

احذر محل السوء لا تحلل به وإذا نبا بك منزلٌ فتحولِ

أو ينسب إلى عبد قيس بن خفاف البرجمي حيث يقول :

وصِل المواصلَ ما صفا لك وُدُّه واحذر حبال الخائن المتبذلِ
واترك محل السوء لا تحلل به وإذا نبا بك منزل فتحول

(٦) الأبيات لعبد الصمد بن المعذل من أبيات يقول فيها :

أُمَنُّ على المجتدى وما أتبع المنَّ منّ =

أَرَى النَّـاسَ أُحْـدُوثَةً   فَـكُونِى حَدِيثًا حَسَنْ [1]

كَأَنْ لَمْ يَزَلْ مَا أَتَى   وَمَا قَدْ قَضَى لَمْ يَكُنْ [2]

إِذَا وَطَـــنٌ رَابَنِى   فَكُلُّ مَـكَانٍ وَطَنْ

وَلَمْ أَسْتَغْرِبْ أَنْ أَسَامَ مِثْلَ هٰذَا الْخَسْفِ فِى مَسْقِطِ رَأْسِى [3]، وَمَمَقّ تَمَائِمِى [4] وَأَوَّلِ أَرْضٍ مَسَّ تُرَابَهَا جِلْدِى [5]، فَقَدِيمًا ضَاعَ الْمَرْءُ الْفَاضِلُ

= أرى الناس أحـــدوثة . . . (الأبيات الثلاثة)

إذا عـــزَّ يوماً أخـــو - ك فى بعض أمر فهُـن

(١) فى نهاية الأرب « فكونوا حـديثاً حسن » وفى الـكامل للمبرد « فـكونى حديثا حسن » والخطاب هنا لنفسه .

(٢) فى نهاية الأرب « كأن لم يكن ... وما قد مضى ... » : وفى الـكامل « كأن لم يزل ... وما قد مضى » . والمعنى : كأنّ الحاضر لن يفارق، وكأنّ الماضى لم يقـم .

(٣) أسامه الخسفَ : أولاه الذل والهوان ، مَسْـقَـطُ رأسى : موضع ولادتى.

(٤) ممق التمائم : مكان شقّ التعاويذ التى تعلق على الطفل ، ويكون قطعها إيذاناً بانتهاء عهد الطفولة ، والمراد أن هذه الأرض مولده ومنشؤه .

(٥) قال رقاع بن قيس الأسدى :

أحب بلاد الله مابين منعج   ـإلىّـ وسلمى أن يصوب سحابها

بلادٌ بها عق الشباب تمائمى   وأول أرض مس جلدى ترابها

والمراد أن هذه الأرض حبيبة إلى نفسه لأنها مولده وموضع نشأته .

فِى وَطَنِهِ ، وَكَسَدَ العِلْقُ النَّبِيطُ فِى مَدِينِهِ [1] ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ :

أُضِيعُ فِى مَعْشَرِى ! ! وَكَمْ بَلَدٍ يُعَدُّ عُودُ الكِبَاءِ مِنْ حَطَبِهْ [2]

فَاسْتَخَرْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ [3] [فِى إِنْفَاذِ العَزْمِ] [4] وَاضِحَ وَجْهِ العُذْرِ ، ثَابِتَ قَدَمِ الحُجَّةِ ، عِنْدَ مَنْ غَضَّ عَيْنَ الهَوَى ، وَخَزَنَ لِسَانَ التَّعَسُّفِ [5] ، وَاللهُ يُصِيبُ غَرَضَ الصَّوَابِ بِرَأْيِى ، وَيُقَرِّبُ آيَةَ النَّجَاحِ عَلَى سَعْيِى ، حَسْبًا فِى عِلْمِهِ [6] أَنِّى مَظْلُومٌ مَبْغِىٌّ عَلَيْهِ ، مَنْسُوبٌ مَا لَمْ آتِهِ إِلَىَّ ، فَهُوَ المُؤَمَّلُ بِذَلِكَ ، وَالمَرْجُوُّ لَهُ .

---

(١) العلق : الغالى النفيس ؛ فى الأصول النبيط ؛ والنبيط هو الرحل ، أوالأرض المطمئنة ، أومسيل الماء فى الوادى ؛ وهى معان لا تتفق مع السياق ؛ ولعله العبيط ؛ ومعناه : الثوب المشقوق ، أو السمين ، ولحم عبيط : طرىّ ، وكذلك الدم والزعفران ؛ وعبط الحارُ التراب بحوافره أثاره : فالتراب عبيط ؛ ولعل المعنى : تضيع الجواهر الثمينة فى مواطنها فتدوسها الأقدام .

(٢) الكِبَاء : عود يستعمل فى البخور ؛ والمعنى : لقد ضِعْتُ فى بلدى ولم أنل فيه تقديراً كما تحتقر أخشاب البخور فى مواطنها فتعد أنواعاً من الحطب .

(٣) فى النص الموجز « واستخرتُ اللهَ » .

(٤) زيادة عن النص الموجز .

(٥) المعنى : اعتزمت الفرار ، ووجهُ عذرى فيه واضح ، وحجتى فيه ثابتة القدم ، عند من يفحص موقفى بعين بعيدة عن الهوى ، ويتناوله بلسان منصف بعيد عن التكلف والتعسف . والكاتب هنا يردّ على من يلومونه على الفرار .

(٦) فى بعض النسخ « حسبنا ذلك » .

وَلَعَمْرُكَ يَا سَيِّدِي إِنَّ سَاحَةَ الْعُذْرِ لَتَضِيقُ عَنْكَ، وَمَا تَكَادُ تَتَّسِعُ لَكَ، فِي إِسْلَامِكَ تِلْمِيذَكَ[1] وَابْنَ جَارِكَ وَشُيَيْخِكَ، الَّذِي لَمْ تَزَلْ مُتَوَفِّراً عَلَيْهِ، آخِذاً مِنْهُ، مُقْتَبِساً مِنْهُ، مَعَ إِكْثَارِكَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا وَالاعْتِدَادِ بِهِ، وَادِّعَاءِ الْحِفْظِ لَهُ، وَقَدْ رَوَيْتَ أَنَّ «حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ[2]»، وَسَمِعْتَ الْمَثَلَ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً[3]»، فَالْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ،

---

(١) في بعض النسخ «إسلامك لتلميذك».

(٢) «حسنُ العهد من الإيمان» حديث شريف؛ فقد أقبل النبي ﷺ على امرأة عجوز، فقالت السيدة عائشة: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز كل الإقبال؟ فقال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسنَ العهد من الإيمان».

(٣) «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قال العسكري في جمهرة الأمثال «كان مذهب أهل الجاهلية أن ينصروا أقرباءهم وجيرانهم وأصدقاءهم، محقين كانوا أو مبطلين، وعلى هذا المذهب يقول الراجز:

إن أخا الصدق الذي يسعى معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ضُرُّ زمان صدّعك ... شتّت أمر نفسه ليجمعك

وإن غدوت ظالماً غدا معك

وقد رُوِيَ هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإن كان صحيحاً إسناده فمعناه انصر أخاك مظلوماً، وكُفّه عن ظلمه إن كان ظالماً». والمعروف أن الجاهلي كان يلبي دعوة الداعي القريب، وينصره ويفتخر بهذا؛ قال قريط ابن أنيف:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

وزاد رواة الحديث فيه: «إن يك ظالماً فاردده عن ظلمه، وإن يك مظلوماً فانصره».

وَلاَ أَقَلَّ مِنَ اسْتِعْمَالِ الْجِدِّ ، وَاسْتِغْرَاقِ الْجُهْدِ .

* فَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ *[1]

* وَلاَ لَوْمَ فِي أَمْرٍ إِذَا بَلَغَ الْعُذْرُ *[2]

وَلَكِنْ مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ[3] ؟ وَأَيْنَ الشَّرِيكُ فِي الْمُرِّ أَيْنَا[4] ؟ وَبَعْدَ مَا مَرَّ بِي فَالْقَضَاءُ غَالِبٌ ، وَمَا حُمَّ وَاقِعٌ[5] وَلاَ حَذَرَ مِنْ قَدَرٍ ،

---

(١) هذا عجز بيت، معناه: أن من اجتهد وأبلى عذراً فهو مثل الناجح فى قصده، وهو من قول عروة بن الورد حيث يقول :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا   من المال يطرح نفسَهُ كلَّ مَطْرَحِ

ليبلغ عــذراً أو ينـال رغيبة   ومبلغ نفس عذرها مثـلُ منجح

(٢) هذا عجز بيت، معناه: لا وجه لملامة امرئ بذل غاية الجهد وأبلى أحسن البلاء ، والبيت هو :

إذا ما شفيتُ النفسَ أبلغتُ عذرَها   ولا لومَ فى أمْرٍ إذا بلغَ العُذْرُ

(٣) من لك بأخيك كله؟ : مثل يضرب فى عز الإخاء ، وهو من قول أبى الدرداء الأنصارى ، أى من يكفل ويضمن لك محبة أخيك كلها ؛ قال أبو تمام :

ما غبن المغبونَ مثـلُ عقـله   من لك يوماً بأخيك كله ؟

(٤) المعنى : أين الصديق الذى يشاركك فى الضراء كما يشاركك فى السراء ؛ قال بشار بن برد من قصيدة :

خيرُ إخوانك المشاركُ فى المـ   ـرِّ ، وأين الشريك فى المرِّ أينا ؟

الذى إن شهدتَ سرك فى الحَىِّ ، وإن غبتَ كان أذنا وعينا

ما أرى للأنام وداً صحيحاً   عاد وُدُّ الأنام زوراً ومينا

(٥) المعنى : ما قدّره الله لابد من وقوعه .

وَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلَ[1]، وَتَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِي مَا جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ[2]، وَأَنَا الْآنَ بِحَيْثُ أَمِنْتُ بَعْضَ الْأَمْنِ، إِلَّا أَنَّ رِزًّا[3] مِنْ وَعِيدٍ سَقَطَ إِلَيَّ بِأَنَّ السَّعْيَ لَمْ يَرْتَفِعْ، وَأَنَّ مَادَّةَ الْبَغْيِ لَمْ تَنْقَطِعْ، وَأَنَّ الْبَصِيرَةَ[4] مُسْتَحْكِمَةٌ فِي اسْتِرْجَاعِي مِنَ الْأُفُقِ الَّذِي أَحُلُّ بِهِ، وَالْجَنَابِ[5] الَّذِي أَحُطُّ فِيهِ؛ وَأَكَّدَ ذَلِكَ فِي ظَنِّي مَا كَانَ أَشَارَ إِلَيْهِ بَعْضُ مَنْ كُنْتُ آوِي إِلَى الثِّقَةِ بِعَهْدِهِ، وَأَبْنِي عَلَى الْوَثَاقَةِ مِنْ عَقْدِهِ، مِنَ الْفُقَهَاءِ الْمَوْسُومِينَ بِالْأَثَرَةِ عِنْدَ الْحَكَمِ الْمَذْكُورِ[6] وَالْمَكَانَةِ مِنْهُ؛ وَقَدْ عَاتَبْتُهُ عَلَى تَأَخُّرِهِ عَنْ مُظَافَرَتِي، وَتَقْصِيرِهِ فِي مُوَازَرَتِي، فَاعْتَذَرَ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، وَلَا مَنْفَذَ لِلْحِيلَةِ فِيهِ، إِذِ الْمُحَرِّضُ عَلَيَّ لَا تَتَأَتَّى مُعَارَضَتُهُ، وَلَا يَتَهَيَّأُ الِاسْتِبْدَادُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ وَصَمَنِي بِالْبَذَاءِ[7]، وَعَابَنِي

---

(١) سبق السيف العذل: مثلٌ قاله ضبة بن أدّ لما لامه الناس على قتل قاتل ابنه في الحرم، ويقال: إنه لخزيم بن نوفل الهمداني؛ والعذل: اللوم.

(٢) المعنى: مأخوذ من الحديث الشريف: « واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، جفت الأقلام وطويت الصحف » أي أن ما قدّره الله للانسان لابدّ من وقوعه.

(٣) الرِّزُّ: الصوتُ تسمعه من بعيد، أو صوت الرعد أو هدير الفحل.

(٤) البصيرة: عقيدة القلب أي العزيمة.

(٥) الجناب: الفناء أو الناحية، وقد أطلق اصطلاحا على بلاط الملوك.

(٦) الموسومون: المتميزون؛ الأثرة: المكرمة المتوارثة.

(٧) البَذَاء: الفحش، يقال: بذا على القوم يبذو إذا سفه وأفحش في منطقه وإن كان كلامه صدقاً، فهو بذيّ.

بالتَّسلُّطِ عَلَى الْأَعْرَاضِ ؛ وَوَاللهِ مَا اسْتَجَزْتُ هَذَا بَعْدَ أَنْ هَتَكَ مِنْ سِتْرِي مَا هَتَكَ ، وَانْتَهَكَ مِنْ حُرْمَاتِي مَا انْتَهَكَ[1] ، إِذْ كُنْتُ أَقُولُ مَعْذُوراً ، وَأَنْفُثُ مَصْدُوراً[2] ، فَكَيْفَ قَبْلَ ذَلِكَ إِذْ لَمْ يَحْدُثْ سَبَبٌ ، وَلاَ عَرَضَ مُوجِبٌ

* وَمَالِي وَإِهْدَاءَ الْخَنَى ثُمَّ مَالِيَا ! *[3]

وَ « سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »[4] ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ بِبِكْرٍ مِنَ النَّمَائِمِ الَّتِي دُخِلَ بِهَا بَيْنَ الْعَصَا وَلِحَائِهَا[5]

وَإِنِّي رَأَيْتُ غُوَاةَ الرِّجَا لِ لاَ يَتْرُكُونَ أَدِيماً صَحِيحاً[6]

---

(١) هتكُ الستر : تمزيقه وكشف ما وراءه ، والمراد به فضح الأسرار ؛ انتهاكُ الحرمة : تناولها بما لا يحل .

(٢) أنفث مصدورا : أنبذ ما بصدرى من أقذاء كما ينفث المريض بصدره ما فيه من إفرازات .

(٣) فى الأصول « ... وهذا المجتنى ... » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ والخنَى : الفُحش ؛ وهو عجزبيت من أبيات نظمها صخر بن عمرو أخو الخنساء فى رثاء أخيه معاوية ، وقد حرضه قومُه على هجاء قاتليه فقال :

وقالوا : ألا تَهجو فوارسَ هاشم ؟ وما لى وإهداء الخنَى ؟ ثم ماليا ؟

أبى الهجوَ أنى قد أساءوا كريمتى وأن ليس إهـــداء الخنَى من شماليا

(٤) اقتباس من الآية الكريمة « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشَهِدُوا خلقهم ؟ستُكْتَبُ شهادتُهم ويسألون» سورة الزخرف الآية ١٩

(٥) من الأمثال « لا تدخل بين العصا ولحائها » أى قشرتها ، قال أبو عبيد : إذا أرادوا أن صاحب الرجل موافق له لا يخالفه فى شىء قالوا : بين العصا ولحائها .

(٦) كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج :

ولا تفش سرك إلا إليك فإن لكل نصيح نصيحاً =

وَمَنْ يَأْذَنْ إِلَى الْوَاشِينَ تُسْلَقْ مَسَامِعُهُ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادِ[1]

وَيَا سَيِّدِى :

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلْقِى شَرِقٌ كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِى[2]

وَوَاللهِ مَا تَوَهَّمْتُ أَنِّى أُوتَى مِمَّنْ زَعَمَ أَنِّى أُتِيتُ مِنْهُ[3]، مَعَ اتِّصَالِى بِهِ، وَانْقِطَاعِى إِلَيْهِ، وَاتِّسَاعِى[4] بِالتَّأْمِيلِ لَهُ، وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهِ.

= فإنى رأيتُ غواةَ الرجا لِ لا يتركون أديماً صحيحاً

وينسب البيتان إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والمعنى : لايترك الغاوون الفاسقون جلداً صحيحاً إلا مزقوه ، ولا أمراً صالحاً إلا أفسدوه .

(١) البيت ختام قصيدة لأبى تمام فى مدح أحمد بن أبى دؤاد يقول فيها واصفاً قصيدته :

منزهة عن السرق الورى مكرمة عن المعنى المعاد

تنصّل ربُّها من غير جرم إليك سوى النصيحة والوداد

ومن يأذَنْ إلى الواشين تسلق مسامعه بألسنة حداد

(٢) البيت لعدىّ بن زيد ؛ الغصان : من أصابته غصة ؛ أعتصر النصانُ بالماء : شربه قليلا قليلا لنزيل الغصة ، والمعنى : لقد غصصتُ بالماء ولو كانت غصتى بغيره لأزلته به .

قال الشاعر :

من غُصّ داوى بشرب الماء غصته فكيفَ يصنع من قد غُصّ بالماء ؟

(٣) يشير بهذا إلى ما قيل من أن المحرض عليه هو الأمير كما قال قبل هذا : « إذ المحرض علىّ لا تتأتى معارضته ، ولا يتهيأ الاستبداد عليه » .

(٤) اتّساى : تميّزى مأخوذ من الإِسْم وهو العلامة المميزة .

* إِنَّ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النُّهَى ذِمَمُ (١) *

وَلَكِنْ:

إِذَا كَانَ غَيْرُ اللهِ لِلْمَرْءِ عُدَّةً   أَتَتْهُ الرَّزَايَا مِنْ وُجُوهِ الْفَوَائِدِ (٢)

لَقَدْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الشِّيَمِ، وَشُرُوطِ الْمُرُوءَةِ وَالْكَرَمِ، أَنْ يَهَبَ لِي مَا أَنْكَرَ لِمَا عَرَفَ، وَيَغْفِرَ مَا أَسْخَطَ لِمَا أَرْضَى (٣)، وَيَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (٤)، وَيُؤْثِرَ الَّذِي هُوَ أَجْمَلُ وَأَرْفَقُ، وَيَتَوَقَّفَ عِنْدَمَا نُصَّ لَهُ مِنْ سِعَايَةٍ، وَزُفَّ إِلَيْهِ مِنْ وِشَايَةٍ (٥) فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا أَلْغَاهُ، وَفَضَحَ

---

(١) هذا عجز بيت للمتنبي من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة يقول فيها :

يا من يعزّ علينا أن نفارقهم   وجداننا كلّ شيء بعدكم عدمُ

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا   فما لجرح إذا أرضاكمُ ألمُ

وبيننا ـ لو رعيتم ذاك ـ معرفة   إنّ المعارف فى أهل النّهى ذمم

أى إنّ المودات مرعية عند أصحاب العقول.

(٢) المعنى : إذا استعان الإنسانُ بغير خالقه دهمته المصائبُ من حيث يتوقع الفوائد، والبيت لأبى فراس الحمدانى من قصيدة له وهو مأسور فى بلاد الروم يقول فيها :

صبرتُ على اللأواء صبرَ ابنِ حرة   كثير العدا فيها قليل المساعد

إذا كان غير الله للمرءِ عُدّةً   أتته الرزايا من وجوه الفوائد

(٣) فى بعض نسخ الذخيرة « ما سخط لما رضى »

(٤) يشير إلى الآية الكريمة « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفعْ بالتى هى أحسن، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنّه ولى حميم » سورة فصّلت آية ٣٤

(٥) فى بعض النسخ « زُفّ عليه » نصّ له : رُفِعَ إليه، من نصّ الحديث إليه إذا رفعه، ونصّ فلاناً : استقصى مسألته عن الشىء ؛ السعاية : الوشاية.

الْمُخْبِرَ الْمُتَقَرِّبَ بِهِ وَأَقْصَاهُ ؛ وَإِنْ كَانَ حَقًّا صَبَرَ صَبْرَ الْحَلِيمِ ، وَأَغْضَى إِغْضَاءَ الْكَرِيمِ ، وَقَبِلَ إِنَابَةَ الْمُعْتِبِ(١)، وَاقْتَصَدَ فِي مُؤَاخَذَةِ الْمُذْنِبِ ، فَقَدَّمَ التَّوْقِيفَ قَبْلَ التَّثْقِيفِ(٢)، وَالتَّأْنِيبَ قَبْلَ التَّأْدِيبِ

* فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابُ *(٣)

وَ * الْحُرُّ يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ *(٤)

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ ؟(٥)

---

(١) الإنابة : التوبة والإقبال على الله ، المُعْتِب : الذى يصفح ويرضى بعد العتاب ، والمُعْتَب : المرضيُّ عنه بعد ما عاتب ؛ ولعلها المستعتب أى طالب العُتْبى أى الرضى ، قال تعالى « وإن يستعتبوا فما هم من المعْتَبين » .

(٢) التوقيف عن الشىء : الإمساك عنه ، التثقيف : إقامة المعوج ؛ والمعنى : أمسكْ عن العقوبة وتأنَّ فى إنزالها قبل أن يبادر بها دون تثبت .

(٣) عجز بيت للمتنبى فى مدح سيف الدولة ، من قصيدة وصف فيها غزوته لبنى كلاب ، حيث يقول :

ترفَّق أيها المولى عليهم فإنَّ الرِّفقَ بالجانى عتابُ
فإنهمُ عبيدك حيث كانوا إذا تدعو لحادثة أجابوا

(٤) يُلحَى يُلامُ ، والبيت من أرجوزة لبشار بن برد يقول فيها :

الحر يُلحَى ، والعصا للعبدِ وليس للملحف مثل الردّ

(٥) لَمَّهُ على شعث : ضمّه على تفرّق ؛ والبيت للنابغة الذبيانى ، ومعناه : لا تستطيع أن تستبقى مودّة إنسان إذا لم تقبلْه على ما فيه من عيوب ؛ فلن تجد إنساناً كاملا .

وَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ أَنَّ بِالْحَضْرَةِ قَوْمًا لاَ يَحْصُرُهُمُ الْعَدُّ[1] تَحْتَمِسُ سَنْطَاتُهُمْ ، وَتُغْتَفَرُ هَفَوَاتُهُمْ ، وَتُقَالُ عَثَرَاتُهُمْ[2]

وما شَرُّ الثَّلاَثَةِ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكِ الَّذِي لاَ تُصْبِحِينَا[3]

وَمَا أَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُدْلُونَ بِوَسِيلَةٍ لا أَشَارِكُهُمْ فِيهَا ، وَلاَ يَمُتُّونَ بِذَرِيعَةٍ يَنْفَرِدُونَ دُونِي بِهَا[4]

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّى يَكُونَ الْيَوْمُ الْيَوْمِ سَيِّدَا[5]

---

(١) الحضرة والحاضرة والحضارة : خلاف البادية ، وحضرة الرجل : قربه أو فناؤه أو مشهده ، والمقصود هنا بلاط الأمير .

(٢) أقال عثرته : أنهضه من كبوته .

(٣) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة إذ يقول :

صددتِ الكأسَ عنّا أمَّ عمرو وكان الكأسُ مجراها اليمينا

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

ويقال إن هذين البيتين لعمرو ابن أخت جذيمة الأبرش ، وذلك لما وجده مالك وعقيل فى البرية ، وكانا يشربان ، وأم عمرو الساقية تصد عنه الكأس ، فقال هذين البيتين ، فسقياه وحملاه إلى خاله جذيمة .

(٤) أدلى بحجته : احتج بها ، وأدلى برحمه : متّ بها ، وأدلى بما له إلى الحاكم : دفعه إليه ، ومنه قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » ؛ الذريعة : الوسيلة ؛ وتذرّع بذريعة : توسّل بوسيلة .

(٥) البيت للمتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويهنئه بعيد الأضحى يقول فيها : =

فَإِنْ كَانَتْ مُسَاهَمَتُهُمْ لِسَابِقَةٍ سَلَفَتْ ، فَقَدْ أَحْرَزْتُ مِنْهَا الْحَظَّ الْأَعْلَى ،
أَوْ لِكَمَالِ أَدَبٍ فَقَدْ ضَرَبْتُ فِيهِ بِالْقِدْحِ الْمُعَلَّى[1] ، أَوْ لِلُطْفِ تَوَدُّدٍ
فَمَا قَصَّرْتُ فِي الْاجْتِهَادِ ، غَيْرَ أَنِّي حُرِمْتُ التَّوْفِيقَ
وَالْأَمْرُ لِلَّهِ !! رُبَّ مُجْتَهِدٍ ... مَا خَابَ إِلَّا لِأَنَّهُ جَاهَدْ[2]

* * *

فَإِنْ كَانَ ذَنْبِي أَنَّ أَحْسَنَ مَطْلَبِي ... أَسَاءَ ، فَفِي سُوءِ الْقَضَاءِ لِيَ الْعُذْرُ[3]
وَاللَّهِ لَقَدْ أَظْهَرْتُ مِدْحَهُ ، وَأَضْمَرْتُ نُصْحَهُ ، وَتَمِمْتُ عَلَى الصَّاغِيَةِ لَهُ[4] ؛

= فذا اليومُ في الأيامِ مثلكَ في الورى ... كما كنتَ فيهم واحداً كان أوحدا
هو الجَدُّ حتى تفضلَ العينُ أختَها ... وحتى يكون اليومُ لليوم سيدا

أى أن الحظوظ تقدم الشبيه على شبيهه، فترفعه فوقه دون مبرر .

(١) القدح المعلى : السهم السابع من سهام الميسر وهو أوفرها حظاً .

(٢) البيت للمتنبي، ومعناه : الحكم لله وحده ، وحكمته فوق مستوى الأذهان، فكم من مجتهد جنى عليه اجتهادُه وأصابه بالحرمان .

(٣) البيت لأبي تمام ، من قصيدة قالها فى الافتخار بقومه عند انصرافه من مصر ؛ ومعناه : إذا كان خير ما قدمته من حسنات يُحسب عليّ فى الإساءات فمغفرى أنّ أحكام القضاء نافذة ، ولابد لى فيا تمضيه من أحكام ، ويلى هذا البيت قوله :

قضاء الذى ما زال فى يده الغنى ... ثنى غربَ آمالى ، وفى يدىَ الفقرُ
رضيت ، وهل أرضى إذا كان مسخطى ... من الأمر ما فيه رضا من له الأمر ؟

(٤) الصاغية : الميل ، قال تعالى : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما » .

وَجَرَيْتُ مِلْءَ العِنَانِ إِلَى الأَعْتِلَاقِ بِهِ[1] ، أَسْقِيهِ السَّائِغَ مِنْ مِيَاهِ وُدِّي ، وَأَكْسُوهُ السَّابِغَ مِنْ بُرُودِ حَمْدِي[2] ، وَأَجْنِيهِ الغَضَّ مِنْ ثَمَرَاتِ شُكْرِي ، وَأُهْدِي إِلَيْهِ العَطِرَ مِنْ نَفَحَاتِ ذِكْرِي ، لَا يُفِيدُنِي التَّحَبُّبُ إِلَيْهِ إِلَّا ضَيَاعًا لَدَيْهِ ، وَلَا يَزِيدُنِي التَّقَرُّبُ مِنْهُ إِلَّا بُعْدًا عَنْهُ

كَأَنِّي أَسْتَدْنِي بِهِ ابْنَ حَنِيَّةٍ إِذَا النَّزْعُ أَدْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدَا[3]

وَالَّذِي أَحْبَبْتُهُ مِنْكَ وَأَثِقُ فِي المُسَارَعَةِ إِلَيْهِ بِكَ ، لِقَاؤُهُ مُجَارِيًا ذِكْرِي ، مُفَاوِضًا فِي أَمْرِي ، مُمْلِيًا لَهُ بِمَا لَا يَذْهَبُ عَنْهُ ، مِنْ أَنَّ الَّذِي أَخْتَرْتُهُ لِنَفْسِي غَايَةُ مَا يُسِيءُ العَدُوَّ بِهِ[4] ، وَيُسَاءُ المَوْلَى مِنْهُ ، فَالْبَلَاءُ أَخُو القَتْلِ ،

---

(١) اعتلق الرجل امرأة وعلقها وتعلقها : أحبها ، قال الأعشى :
علقتها عرضا ، وعلقت رجلا غيرى ، وعلق أخرى غيرها الرجل

(٢) المعنى : أسقيه من ودى أعذب شراب ، وأخلع عليه من ثنائى أغلى رداء .

(٣) قال ابن الرومى فى عتاب صديق له :

توددت حتى لم أدع متوددا	وأفنيت أقلامى عتابا مرددا
كأنى أستدنى بك ابن حنية	إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

ابن الحنية : السهم ؛ النزع : المد ؛ والمعنى : كلما دنيته منى نأى عنى بعيداً ، مثل السهم تجذبه فى وتر القوس قريباً من الصدر فينطلق بعيداً نحو هدفه ومرماه .

(٤) فى جميع الأصول « ما يسىء الغروبة » ، والعروبة : المتحببة إلى زوجها أوالعاصية له أو العاشقة له أو الضحاكة ؛ أو يوم الجمعة ؛ والعروبة : الانتماء إلى العرب ؛ ولعل الصواب ما أثبتناه ، ومعناه : إن التغريب ، وأقسى عقاب ينزله الخصم بأعدائه

وَالْغُرْبَةَ أَحَدُ السِّبَاءَيْنِ[1] قَالَ تَعَالَى : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ »[2] وَقَالَ الشَّاعِرُ[3] :

وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ دَارِهِ لاَ يَزَلْ يَرَى
مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجَرًّا وَمَسْحَبَا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ ، وَإِنْ يُسِئْ
يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارَ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا[4]

---

(١) السباء : الأسر ؛ وشبّه الغريب عن وطنه بمن وقع فى أسر الأعداء .

(٢) سورة النساء الآية ٦٦ .

(٣) هو الأعشى (ميمون بن قيس) من أشهر شعراء الجاهلية أدرك الإسلام واعتزم أن يعتنقه ، فصرفه زعماء قريش عنه ، وهذان البيتان من قصيدة له فى هجاء عمرو بن المنذر .

(٤) أصل البيتين فى ديوان الأعشى ثلاثة أبيات هى :

متى يغترب عن قومه لا يجدْ له ... على من له رهطٌ حواليه مغضبا
ويحطم بظلم لا يزال يرى له ... مصارع مظلوم مجرا ومسحبا
وتدفن منه الصالحات وإن يُسِىء ... يكنْ ما أساءَ النار فى رأس كبكبا

والمعنى : إنّ الغريب يكون وحيداً مستوحشا يستقبل الظلم فلا يستطيع له دفعاً، ويتعرض لمواطن الهلاك جذباً وسحباً ، وإذا أحسن طُوِيَت معالم إحسانه ، وإذا أساء ذاعتْ معالم إساءاته، كأنها نار مشتعلة على قمة جبل كبكب، أو بالعبارة المأثورة « كأنها علم فى رأسه نار » .

وَقَدْ هَجَرْتُ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ ظَئْرِي[1]، وَالدَّارَ الَّتِي كَانَتْ مَهْدِي، وَغِبْتُ عَنْ أُمٍّ أَنَا وَاحِدُهَا، تَمُدُّ أَنْفَاسَهَا شَوْقًا إِلَيَّ، وَتَنْفُضُ أَجْفَانَهَا حُزْنًا عَلَيَّ، وَاللهُ يَرَى بُكَاءَهَا، وَيَسْمَعُ لِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي نِدَاءَهَا، فَالِاسْتِجَابَةُ مَضْمُونَةٌ لِلْمُخْلِصِ وَالْمَظْلُومِ، وَقَدْ حَمَلْتُ السِّمَتَيْنِ[2]، وَاسْتَوْجَبْتُ الصِّفَتَيْنِ، وَلَكِنْ بُغْيَتَكَ الَّتِي تَدَّخِرُهَا عَلَيْهَا كَلِمَةُ تَأْمِينٍ، وَإِشَارَةٌ إِلَى تَأْنِيسٍ وَتَسْكِينٍ، تُرَاجِعُنِي بِهَا، فَأَظْهَرُ بِحَيْثُ أَنَا آمِنًا، وَأُلْقِي الْعَصَا مُطْمَئِنًّا[3]، فَإِنْ وَجَدْتَ حَزَّ الشَّفْرَةِ فَالْعَوَانُ لَا تُعَلَّمُ الْخِمْرَةَ[4]، وَإِنْ -

---

(١) الظِّئْر: الناقة تعطف على ولد غيرها، ومنه قيل للمرأة الأجنبية تحضُن ولد غيرها ظِئر، وللرجل الحاضن ظئر أيضا، والجمع أظآر، والمراد الوطن الذى ضمنى وحَنَا علىّ حُنُوّ المرضعات على الفطيم.

(٢) السِّمَتَيْن: العلامتين المميزتين «الإخلاص، ووقوع الظلم».

(٣) ألْقى العصا مطمئناً: استقرّ وادعا آمناً، وقد نظر فيه إلى قول عبد ربه السلمى (وينسب إلى معاقر بن حمار البارقى أو سُلَيم بن ثمامة الحنفى):

تذكرت من أم الحويرث بعدما مضت حجج عشر وذوالشوق ذاكرُ

وحدثها الرواد: أن ليس بينها وبين قرى نجرانَ والشام كافر

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

(٤) الشفرة: السكين العريضة العظيمة، وشفرة السيف: حدّه؛ حزّ الشفرة: مكان الحزّ؛ العَوَان: النَّصَفُ من النساء؛ الخِمْرة: طريقة وضع الخمار على الرأس، العوان: لا تعلم الخِمْرة: أى لا تحتاج إلى تعليم، وهو مثل يضرب للرجل المجرب الخبير، العارف بدقائق الأمور؛ والمراد إذا وجدت مجالاً للقول فقل.

-أَشْبَهَتْ اللَّيْـلَةُ البَارِحَةَ أَعْلَمَتْنِي بِذَلِكَ[١]، فَطَلَبْتُ الأَمْنَ فِي مَظَانِّهِ، وَتَقَرَّيْتُ السَّلَامَةَ فِي مَوَاطِنِهَا[٢]، وَصَبَرْتُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ لِي، وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ[٣]، «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»[٤]، وَمَعَ اليَوْمِ غَدٌ[٥] وَلِكُلِّ حَالٍ مُعْقِبٌ، وَرُبَّمَا أَجْلَى لَكَ المَكْرُوهُ عَمَّا تَحْمَدُ[٦]

---

(١) أشبهت الليلة البارحة : لم تتغير الحالة ، والمعنى مقتبس من قول طرفة ابن العبد :

كل خليل كنتُ خاللتُه لا ترك الله له واضحهْ
كلهمُ أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة

(٢) تقرا الباحثُ الأمورَ واقتراها وتقرَّاها : تتبعها أمراً أمرا وبحثها بحثاً دقيقا ليدرك بواطنها ويحل مشكلاتها .

(٣) الجملة مقتبسة من قوله تعالى : فى قصة يوسف عليه السلام على لسان أخيه الأكبر : « ... فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى، أو يحكم الله لى، وهو خير الحاكمين » ، سورة يوسف الآية ٨٠ .

(٤) مقتبسة من الآية الكريمة « يسأله من فى السموات والأرض، كلَّ يوم هو فى شأن » سورة الرحمن الآية ٢٩ .

(٥) مع اليوم غدا : مثلٌ يُضرَب لترقب انفراج الأمور بعد ضيقها ، قال ابن طباطبا :

يا من يخاف أن يكو نَ ما يكونُ سرمدا
أما سمعت قولهم : إن مع اليوم غدا ؟

(٦) البيت لعلى بن الجهم من قصيدة له وهو فى السجن يمدح بها الخليفة المتوكل يقول فيها :

عيرُ الليالى بادئاتٌ عُوَّدٌ والمال عارية يفاد وينفد ==

وَلَكَ يَا سَيِّدِي – فِي انْتِدَابِكَ لِمَا نَدَبْتُكَ إِلَيْهِ – الْفَضْلُ [1]، وَالْأَيَادِي قُرُوضٌ [2]، وَالصَّنَائِعُ وَدَائِعُ [3]

* لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ [4] *

وَالتَّحِيَّةُ الطَّيِّبَةُ، وَالسَّلَامُ الْمُرَدَّدُ عَلَى سَيِّدِي .

= ولكل حال معقب ، ولربما أجلى لك المكروه عما تحمد

لا يؤيسنك من تفرج كربة خطب رماك به الزمان الأنكد

ومعنى البيت : لكل أمر نهاية ، ولكل حال تغير ، وربما انكشف الضيق عن فرج قريب وختام محمود .

(١) ندبه للأمر وانتدبه إليه : دعاه لأدائه .

(٢) فى الأصول « والأيادى فروض » ولعلّ الصواب ما أثبتناه ؛ والمعنى : الإحسان دينٌ واجب الأداء ، يؤديه المحسَن إليه ولو بعد حين .

(٣) الصنائع : جمع صنيعة وهى الإحسان ، والمعنى : إنّ المعروف وديعة لابد أن يردّها المودع عنده ، قال لبيد .

وما المالُ والأهلونَ إلاّ ودائعٌ . ولابدّ يوماً أن تُردّ الودائع

(٤) المعنى: الإحسان لا يضيع عند الله إن ضاع عند الناس ، وقلما يضيع عندهم؛ وهو عجز بيت للحطيئة من قصيدة له فى هجاء الزبرقان يقول فيها :

دع المكارمَ لا ترحل لبغيتها واقعد فإنّكَ أنتَ الطاعم الكاسى

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العُرفُ بين الله والناس

الرسالة المظفرية

« كتبها ابن زيدون إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر ابن الأفطس أمير بطليوس مستشفعاً متوددا [(١)] » .

لَمَّا لَبِسَ الْحَاجِبُ — أَعَزَّهُ اللهُ — رِدَاءَ الْمَجْدِ مُعْلَمًا [(٢)]، وَحَمَلَ لِوَاءَ الْحَمْدِ مُعْلَمًا ، فَاسْتَطَارَ بَارِقُ فَجْرِهِ ، وَاسْتَضَاعَ نَافِحُ ذِكْرِهِ [(٣)]، وَشُهِرَتْ مَحَاسِنُهُ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ ، وَسَارَتْ مَآثِرُهُ مَسِيرَ الشَّمْسِ بِكُلِّ مَكَانٍ ، لِمَا سَوَّغَ مِنْ كَرَمِهِ ، وَأَسْبَغَ مِنْ نِعَمِهِ ، وَوَطَّأَ لِلْآمِلِينَ مِنْ

---

(١) لم ترد هذه الرسالة إلا في الذخيرة ، وقد أثبتنا ما بين نسخها من اختلاف ، وقد صدّرها ابن بسّام بهذه العبارة : « وكتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر ابن الأفطس من رقعة ، وضمنها قصيدة أولها :

أبيض الطلى ولسود اللمم بعقلي — مذبن عنى — لم » .

راجع القصيدة: ص ٤٠٦ — ٤١٧ .

(٢) أعلمتُ الثوبَ فهو معلم : جعلت له علما يعرف به من طراز ونحوه ، والمعنى : لبس الأمير ثوب المجد متميزاً به عن سواه .

(٣) استطار الفجر : انتشر، ضاع المسك وتضوع وتضيع : تحرك فانتشرت رائحته ، قال عبد الله بن نمير الثقفي :

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت به زينب فى نسوة خفرات

وقد استعمل الكاتب الفعل «استضاع» ، ولم نجد له ذكراً فيا بين يدينا من كتب اللغة .

أَكْنَافِهِ(١)، وَهَزَّ إِلَى الرَّاغِبِينَ مِنْ أَعْطَافِهِ(٢)، وَرَفْرَفَتْ أَجْنِحَةُ الأَهْوَاءِ عَلَيْهِ، وَاهْتَزَّتْ جَوَانِحُ الآمَالِ إِلَيْهِ، وَكَثُرَ التَّغَايُرُ عَلَى تَفَيُّؤِ ظِلِّهِ(٣)، وَالتَّنَافُسُ فِي الاعْتِلَاقِ بِحَبْلِهِ(٤)، وَكُلٌّ اسْتَفْرَغَ جُهْدَهُ، وَتَوَسَّلَ عَلَى حَسَبِ مَا عِنْدَهُ؛ وَلَا غَرْوَ أَنْ يُسْتَمْطَرَ الغَمَامُ، وَيُؤَمَّلَ الكِرَامُ، وَيَكْثُرَ فِي المَشْرَبِ العَذْبِ الزِّحَامُ(٥).

وَمَا زِلْتُ أَبْقَى اللهُ الحَاجِبَ أَتَلَقَّى مِنْ مَسَاعِيهِ المَشْكُورَةِ، وَيَقْرَعُ سَمْعِي بِمَآثِرِهِ المَأْثُورَةِ، مَا هُوَ أَنْدَى مِنْ بُلُوغِ الأَمَلِ(٦)، وَأَشْهَى مِنَ

---

(١) رجل موطأ الأكناف: سهل دمث مضياف، أو باسط حاجته وأمنه على من يلوذ به.

(٢) الأعطاف: الجوانب؛ واهتزاز الأعطاف للراغبين: كناية من الارتياح للكرم والندى، قال أبو وباط:

وتأخذه عند المكارم هزة كما اهتز تحت البارح الغصنُ الرطب

(٣) المعنى: كثر الاختلاف إلى حماه، والتسابق إلى الاستظلال بنعمائه.

(٤) الاعتلاق: الحب؛ الحبل: العهد والذمة والأمان أو الوصال، والمعنى: تنافس الراغبون في حبه، والتمسك بقربه.

(٥) في بعض النسخ « ولا غرو في أن » المعنى: بذل كلّ راغب في قربه أقصى جهده، واتخذ إليه الوسائل والأسباب وليس عجيباً أن يسأل السائلون المطر من الغمام، ويؤملون سخاء الكرام، ويتكاثر الواردون على المنهل العذب الزلال، قال الشاعر:

يزدحم النـــاسُ على بابه والشرب العذب كثير الزحامُ

(٦) أندى: أكثر خيرا.

اخْتِلاسِ القُبَلِ[1]، وَأَغَضَّ مِنْ جَنِيِّ الزَّهرِ[2]، وَأَلْطَفَ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ[3]، حَتَّى انْقَادَتْ نَفْسِي فِي زِمَامِ التَّأْمِيلِ وَالْمَوَدَّةِ[4]، وَنَازَعَتْ إِلَى الْأَخْذِ بِحَظٍّ مِنَ الْاعْتِلاقِ وَالْمَازَجَةِ[5]، وَنَظَرَتْ إِلَى مَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْبُعْدِ الْمَانِعَةِ، وَامْتِدَادِ الْبِلادِ الْمُعْتَرِضَةِ، فَقَضَضْتُ طَرْفَ الْخَيْبَةِ، وَطَوَيْتُ كَشْحًا عَلَى الْيَأْسِ مِنْ دَرَكِ الْأُمْنِيَّةِ[6]، إِلَى أَنْ نَدَبَنِي الْأَدِيبُ أَبُو فُلانٍ إِلَى مُخَاطَبَتِهِ، وَحَرَّضَنِي عَلَى مُكَاتَبَتِهِ، وَنَبَّهَنِي عَلَى مَا فِي التَّثَاقُلِ عَنْ مُدَاخَلَتِهِ[7]، مِنَ التَّضْيِيعِ الصَّرِيحِ، وَالتَّقْصِيرِ الْبَيِّنِ الصَّحِيحِ، إِذْ هِيَ أَسْنَى عِلْقٍ غُولِيَ بِهِ[8]، وَأَنْفَسُ ذُخْرٍ نُوفِسَ فِيهِ، فَطَرِبْتُ إِلَى ذَلِكَ

---

(١) الاختلاس: الأخذ فى نهزة ومخاتلة؛ والاختلاس أسرع من الخلْس، وفى الأمثال: «الفرصة خلسة».

(٢) الثمر الجنِيّ: الغضُّ الذى يُجتنَى من ساعته، ومثله الزهر الجنيّ.

(٣) السحَر: قبيل الصبح.

(٤) التأميل: الرجاء؛ والمعنى: اندفعت نفسى إليه مقودة بعنان الرجاء.

(٥) نازع: اشتاق؛ الاعتلاق: الحب؛ المازجة: الفاخرة؛ والمعنى: اشتاقت نفسى إلى الأخذ بنصيب من مودته، والفاخرة بقربه.

(٦) اعترض الشئُ: وقف حائلا كالخشبة المعترضة فى النهر؛ الكشْح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلْف، وطوى فلان على كشحه: قطعنى؛ وطوى كشْحَه على الأمر: أضمره وستره؛ الدَّرْك: اللحاق؛ الأمنيّة: واحدة الأمانى وهى الآمال؛ والمعنى: أضمرت بين جوانحى اليأس من بلوغ الرجاء بقربه.

(٧) المداخلة: الامتزاج أو المخالطة.

(٨) العلق: النفيس الثمين من كل شىء، جمعه: أعلاق.

«كما طَرِبَ النَّشْوانُ مالَتْ بِهِ الخَمْرُ»(١)؛ وَاهْتَزَزْتُ لَهُ «كما اهْتَزَّ تحتَ البارِحِ الغُصْنُ الرَّطْبُ»(٢) وَرَأَيْتُ مِن شُكْرِ يَدِ العَلْيَاءِ فِيما حَقِّي إِلَيْهِ، وَحَضِّي عَلَيْهِ، مِمَّا فِيهِ حِلْيَةُ الفَخْرِ، وَمَكْرُمَةُ الدَّهْرِ، أَنْ أَسْتَفْتِحَ بابَ المُكاتَبَةِ بِالشَّفاعَةِ، وَأَنْهَجَ طَرِيقَ المُخاطَبَةِ فِي العِنايَةِ بِهِ، وَبَيْنَنا بَعْدُ مِن ذِمامِ الطَّلَبِ، وَحُرْمَةِ الوُدِّ وَالأَدَبِ، ما أَسْتَقْصِرُ نَفْسِي مَعَهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ فِي خِدْمَةِ رَغْبَتِهِ قَلَمِي، وَقَدْ تَأَخَّرَتْ قَدَمِي(٣)، وَيَبْدُ لاقْتِصارِ بُغْيَتِهِ كِتابِي، دُونَ أَنْ أَزُمَّ إِلَيْهِ رِكابِي(٤)؛ وَهُوَ فَتًى نامَ جَدُّهُ، وَاسْتَيْقَظَ

---

(١) اقتبس الكاتب ما اقتبسه بديع الزمان الهمذانى فى رسالته إلى أبى بكر الخوارزمى حيث يقول : «أنا لقرب الأستاذ — أطال الله بقاءه — [كما طرب النشوان مالت به الخمر] ... ومن الابتهاج بمرآه [كما اهتز تحت البارح الغصنُ الرطبُ] » .

(٢) هذا عجز بيت من أبيات وجهها أبو رباط لابنه حيث يقول :

رأيت رباطاً حين تمّ شبابه	وولّى شبابى ليس فى برّه عتبُ
إذا كان أولادُ الرجالِ مرارة	فأنت الحلالُ الحلو والبارد العذبُ
لنا جانبٌ منه أنيقٌ ، وجانب	شديدٌ على الأعداءِ ، مركبُهُ صعبُ
وتأخذه عند المكارم هزّةٌ	كما اهتزّ تحت البارح الغصنُ الرطب

والبارح : الريح الحارة فى الصيف ، ومن الصيد ما مرّ من مياسرك إلى ميامنك .

(٣) فى الأصول «أن أتقدم» ، ولعلّ الصوابَ ما أثبتناه ؛ وقد نظر الكاتب إلى ما صاغه بديع الزمان الهمذانى من رسالة يقول فيها : «يعز علىّ — أطال الله بقاء الشيخ الرئيس — أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى دون وصولى ، ويرد شرعة الأنس به كتابى قبل ركابى ...» .

(٤) فى بعض النسخ « لاقتصار غيبته كتابى دون أن أزم لذلك ...»==

حَدُّهُ(١) ، فَتَنَكَّرَ الزَّمَانُ لَهُ ، واعترَتْ الأيَّامُ بِهِ(٢) ، بَيْنَ ذِئَابٍ بِمَايَةٍ عَوَتْ عَلَيْهِ ، وَعَقَارِبِ وِشَايَةٍ دَبَّتْ إِلَيْهِ ، وَأُصْلِيَ بِنَارِ حَرْبٍ لَمْ يَجْنِهَا وَأَعْدَتْهُ مَبَارِكُ جُرْبِ التَبَسَ بِهَا(٣) ، وَآلَ بِهِ الأَمْرُ إِلَى فِرَاقِ أَحِبَّتِهِ ، وَالبُعْدِ عَنْ مَسْقِطِ رَأْسِهِ ، وَمَعَقِّ تَمَائِمِهِ(٤) ، عَلَى ضِيقِ حَالِهِ ، وَضَعْفِ إِحْسَانِهِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزِدْ الحَاجِبَ إِلَّا وَلَاءً ، وَعَلَيْهِ إِلَّا ثَنَاءً(٥) .

= وقد تكون « لاختصار غيبته » ؛ الاقتصار على الشيء : عدم مجاوزه والاكتفاء به ؛ البُغْيَة : الطلب أو الحاجة المنشودة ؛ ولعل صحة العبارة « لاقتضاء بُغْيَته » فالاقتضاء : الطلب ؛ والبغى : النظر إلى الشيء لتعرُّف خوافيه ؛ فيكون المعنى : أن ينشد كتابى النظرَ إليه ، أزمّ إليه ركابى : أشد إليه رحالى .

(١) جَدُّهُ : حظّهُ ؛ حدُّه : عزمه أو ذكاؤه أو مضاؤه .

(٢) اعترّ به : تعرّض له راجياً نواله دون أن يسأله ؛ والمعنى . ألمَّتْ به الأيام فاستنفدتْ ما عنده من ثراء .

(٣) المبارك : جمع مَبْرَك ، وهو مكان إناخة الجمال ، يقال : « فلان ليس له مبرك جمل » أى لا شئ له ، الجُرْب : جمع أجرب وهو من أصابه داء الجرب ؛ التبس بها : اختلط بها ، والمعنى : إنه تعرض للريبة وسوء الظن لإحاطة الأشرار به من حيث لا يحتسب .

(٤) فى بعض النسخ « وأُبْعِدَ عن مسقط رأسه » ؛ مسقط الرأس : مكان الولادة ؛ معق التمائم : المكان الذى تشقّ فيه التعاويذ المعلّقة على الأطفال إيذاناً بانتهاء عهد الطفولة (راجع ص ٧٣٨) .

(٥) المعنى : إنّه على الرغم مما لاقاه فإنه ازداد إخلاصه وولاؤه للحاجب ، وبالغ فى الثناء عليه والإطراء له .

وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ يُعِيدُ شُكْرَهُ وَيُبْدِيهِ، وَيَنْشُرُ[1] حَمْدَهُ وَيَطْوِيهِ؛ وَالْحَاجِبُ — أَدَامَ اللهُ إِعْزَازَهُ — وَلِيُّ إِعْدَائِهِ عَلَى زَمَنِهِ الْمَشْئُومِ، وَأَمْلَأُ بِإِنْصَافِهِ مِنْ دَهْرِهِ الظَّلُومِ[2] بِإِلْبَاسِهِ مِنْ جَمِيلِ رَأْيِهِ مَا عُرِّيَ مِنْهُ، وَإِرَادَةِ مِنْ شَرِيعَةِ رِضَاهُ مَا حُلِّئَ عَنْهُ[3]، وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأُفُقِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ كَوْكَبُ سَعْدٍ إِلَّا فِيهِ، وَلَا تَلَقَّى نَسِيمَ حَيَاةٍ إِلَّا مِنْهُ، فَإِنَّهُ — مِمَّا يُولِيهِ مِنْ إِحْسَانِهِ، وَيَأْتِيهِ مِنَ الْفَضْلِ فِي شَأْنِهِ[4] — مُسْتَجْزِلٌ شُكْرَ مَنْ أَنْهَضَهُ لِسَانٌ، وَاسْتَقَلَّ بِهِ بَيَانٌ[5]، وَهُوَ أَهْلُ الْفَضْلِ، وَالْمَعْهُودُ مِنْهُ كَرَمُ الْفِعْلِ؛ وَاللهُ يُبْقِيهِ وَيُمْلِيهِ؛ وَهُوَ حَسْبُهُ وَحَسْبِي فِيهِ.

وَلَمَّا أَطْرَدَ هَذَا النَّثْرُ لِحُسْنِ اتِّسَاقِهِ؛ وَلَذَّ مَسَاقِهِ[6]؛ هَزَّتِ النَّظْمَ

---

(١) في الأصول « ويثر » ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٢) ولي إعدائه على دهره المشئوم : كفيل بإعانته على دهره الظالم ؛ أملأ : أجدر ، وملؤ الرجل : صار ثقة فهو مليء ؛ ولعل العبارة « أولى بإعدائه ... وأملأ بإنصافه ... » .

(٣) حُلِّئ عنه : مُنِعَ منه وأُبْعِدَ عنه .

(٤) في جميع النسخ « نسيم حياء » ولعل الصواب ما أثبتناه ؛ وفي بعض النسخ « مما يؤلفه من إحسانه » ، والمعنى : إن الحاجب عامِنحه من الإحسان ، ويقوم به من الأنعام كفيل باستثارة القرائح للاشادة بذكره والتنويه بمجده .

(٥) مستجزل : مستكثر ؛ أنهضه لسان : رفعه لسانُه وسما به بيانُه ؛ استقلّ الطائر في طيرانه : نهض وارتفع في الهواء ، واستقلّ به بيان : نهض وارتفع به أدبُه .

(٦) الاتساق : التناسق والانتظام ؛ اللذ : اللذيذ ، المساق : التتابع والأطراد .

أَرْيَحِيَّةٌ جَذَبَ لَهَا بِعِنَانِهِ ، وَعَارَضَهَا فِي مَيْدَانِهِ[١]، وَأَبَتْ أَنْ يَنْفَرِدَ النَّفْرُ بِلِقَاءِ الحَاجِبِ وَمُشَافَهَتِهِ ، وَيَسْتَبِدَّ بِأَنْ تَلْمَحَ غُرَّتَهُ ، وَتَخْدُمَ بِالحُضُورِ حَضْرَتَهُ ، فَأَثْبَتُّ مِنْهُ ، مَا إِنْ أَنْهُ عِنْدَ تَصَفُّحِهِ بِالصَّفْحِ عَنِ الزَّلَلِ يَعْرِضُ فِيهِ ، وَالخَلَلِ يَبْدُو مِنْهُ ، وَصَلَ النِّعْمَةَ بِمِثْلِهَا وَقَرَنَ المَارِقَةَ بِشَكْلِهَا[٢].

لِبِيضِ الطُّلَى وَلِسُودِ اللِّمَمْ بِعَقْلِي - مُذْ بِنَّ عَنِّي - لَمَمْ[٣]

... ...

هَذَا - أَعَزَّ اللهُ الحَاجِبَ - مَا اقْتَضَتْهُ القَرِيحَةُ مَعَ اقْتِضَائِهَا[٤] ، وَأَجَابَتْنَا بِهِ البَدِيهَةُ عِنْدَ اسْتِدْعَائِهَا ، وَالذِّهْنُ عَلِيلٌ ، وَالطَّبْعُ كَلِيلٌ ، وَالرَّوِيَّةُ فَاسِدَةٌ ، وَسُوقُ الأَدَبِ - إِلَّا عِنْدَهُ - كَاسِدَةٌ ؛ وَلَوْ أَنِّي أُوتِيتُ

---

(١) الأريحية : النشاط والارتياح .

(٢) المازفة : المعروف ؛ والمعنى . أثبتُّ من الشعر نفحة ، أرجو أن يصفح عما قد يكون فيها من زلة عارضة ، أو نقص عارٍ ، فتكون بذلك نعمه مضاعفة عليّ وإحسانه مزدوجاً إليّ .

(٣) راجع القصيدة بتمامها ص ٤٠٦ — ٤١٧ .

(٤) اقتضى دَيْنَه : أخذه ، أو طالب به ، واقتضى الأمرُ الوجوبَ : دلّ عليه ؛ والمعنى : هذا ما سمحت به القريحةُ بعد أن استوحيتُها : ولعلّ الجملة « ... هذا ما اقتضته القريحة ... » .

فِي النَّثرِ غَزَارَةَ عَمْرٍو[1] ، وَبَرَاعَةَ ابْنِ سَهْلٍ[2] ، وَأَمْدَدْتُ فِي النَّظْمِ بِطَبْعِ الْبُحْتُرِيِّ[3] ، وَصِنَاعَةِ الطَّائِيِّ[4] ، لَمَا رَدَدْتُ إِلَى الْحَاجِبِ إِلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْهُ ، وَلاَ أَوْرَدْتُ عَلَيْهِ غَيْرَ مَاصَدَرَ عَنْهُ ، وَلَمَا أَنْفَذْتُ مَاأَنْفَذْتُ إِلا بَيْنَ أَمَلٍ يَبْسُطُ ، وَخَجَلٍ يَقِيضُ ، فَرَأْيُهُ مُوَفَّقًا فِي أَنْ يَمْنَحَ مَا بَعَثَ الْأَمَلَ إِسْعَافًا ، وما أَوْجَبَ الْخَجَلَ إِغْضَاءً[5] لِيَأْتِيَ الْإِحْسَانَ مِنْ جِهَاتِهِ ، وَيَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ طُرُقَاتِهِ ، وَمُرَاجَعَتُهُ لِي عَنْ كِتَابِي بِعَهْدِ كَرَمِهِ ،

---

(١) عمرو بن بحر الجاحظ أشهر كتّاب العربية وإمام من أئمة الدين والعلوم عند العرب ، ومن أشهر مؤلفاته : البيان والتبيين ، والحيوان ، والبخلاء … توفى سنة ٢٥٥ هـ .

(٢) المقصود سهل بن هرون، وكان قيّماً على خزانة الحكمة للخليفة المأمون، وكان واسع الثقافة غزير المادة قوى الحجة ، ألّف كتباً عديدة ضاعت ولم يبق منها إلا بعض رسائل ونبذ، رواها لنا الجاحظ فى ثنايا كتبه ، وأوسعها رسالته فى تفضيل البخل ، نقلها الجاحظ فى كتابه « البخلاء »؛وتوفى سهل سنة ١٧٣هـ .

(٣) البحترى: أرق شعراء العربية ديباجة،وأروعهم موسيقى، وأبرعهم صياغة، توفى سنة ٢٨٤ هـ .

(٤) الطائى : أبو تمام حبيب بن أوس أستاذ البحترى والمتنبى فى الشعر ، وهو أبرع من صاغ بديعاً فى شعره ، وأدق الشعراء الثلاثة فكراً ، وأعمقهم غوصا على المعانى؛ وله غيرشعره ديوان الحماسة جمع فيه نخبة صالحة من خير ما صاغه الشعراء السابقون توفى سنة ٢٣١ هـ ولم تنيّف سنه على الأربعين .

(٥) المعنى : أرجو أن يمنحنا الأمير من إسعافه ما يلائم آمالنا فيه ، ومن إغضائه عن تقصيرنا ما يصد عنا الخجل والحياء .

يَكُونُ كُحْلاً لِعَيْنِ الرِّضَى بِوَجْنَةِ الْقَبُولِ (١)، أَثِقُ بِهِ مِنْ تَوَالِي النِّعَمِ عَلَيْهِ ، وَانْتِظَامِ الْأَحْوَالِ بِالصَّلَاحِ لَدَيْهِ ، عَلَى مَا تَبْتَهِجُ لَهُ نَفْسِي ، وَيَنْتَظِمُ مَعَهُ عِقْدُ أُنْسِي (٢) ، يَدُ عِنْدِي جَنَاهَا شَهْدٌ ، وَشَذَاهَا عَنْبَرٌ وَوَرْدٌ (٣) ، أَرْفَلُهَا الشُّكْرُ الْجَزِيلُ ، وَأَتْبَعُهَا الثَّنَاءُ الْجَمِيلُ (٤)، إِنْ شَاءَ اللهُ ، وَأُبَلِّغُ مِنِّي سَــلَامًا يُهْدِي إِلَيْهِ نَفْسَهُ ، وَتَحِيَّةً آخِرُهَا عِنْدِي ، وَأَوَّلُهَا عِنْدَهُ .

---

(١) لعلها « بوجه القبول » والمعنى : أرجو أن يجيبنا الأميرُ إلى رغبتنا بعهد كريم يزين به عينَ رضاه عنا بوجه إقباله علينا .

(٢) المعنى : إذا تفضّل الأميرُ بعهده الكريم على هذا الأديب — الذى استشفع بى — فإن نفسى ستبتهج، وغبطتى ستنتظم وتتسق، لاطمئنانى إلى توالى نعم الأمير عليه، وانتظام أحواله الصالحة تحت ظلال رضاه وعطفه العظيم .

(٣) الجَنَى : الثمر الغض ، الشذا : الرائحة الطيبة ؛ والمعنى : سيكون عهد الأمير يداً أسداها إلىّ، وجميلاً خلعه علىّ، له مذاق العسل، وطيب العنبر، ونفحة الورد.

(٤) لعل العبارة « أرفدها الشكر » أى أمنحها ، أرفل الرجُل ثوبه : أرسله ؛ والترفيل : التسويد والتعظيم ، يقال : رَفَّلْتُ الرجلَ إذا عظَّمْتُهُ وملَّكْتُهُ ، قال ذو الرمة :

إذا نحن رفَّلنا امرأً ساد قومه . وإن لم يكن من قبل ذلك يذكر

الرسالة العامرية

« كتب ابن زيدون هذه الرسالة من قرطبة إلى صديقه أبي عامر بن مَسْلَمَة بإشبيلية »[1].

يا سَيِّدِي ، وَأَرْفَعَ عُدَدِي ، وَأَوَّلَ الذَّخَائِرِ فِي عَدَدِي ، وَأَخْطَرَ عِلْقٍ تَلَأْتُ مِنْ أَقْتِنَائِهِ يَدِي[2] ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ فِي عِيشَةٍ بَارِدَةِ الظِّلَالِ ؛ وَنِعْمَةٍ سَابِغَةِ الْأَذْيَالِ ؛ قَدْ تَنَاصَرَ الثَّنَاءُ عَلَيْكَ ، وَتَوَالَى الْحَدِيثُ الْحَسَنُ عَنْكَ ، حَتَّى حَلَلْتَ مَحَلَّ الْأَمَانَةِ[3] وَكُنْتَ مَوْضِعَ تَعْلِيقِ الْوَطَرِ[4] . وَإِثْبَاتِ الطَّوِيَّةِ[5] ؛ وَاللهُ يُمَتِّعُكَ بِمَا حَازَهُ لَكَ مِنَ الْخَيْرِ ، وَوَفَّرَهُ عَلَيْكَ مِنْ طِيبِ الذِّكْرِ .

---

(١) اعتمدنا فى تحقيق هذه الرسالة على ما بين يدينا من نسخ الذخيرة ، فإنها لم تصلنا إلا عن طريقها ، وقد ذكر ابنُ بسّام أنّ ابن زيدون أرسل هذه الرسالة من قرطبة إلى إشبيلية قبل تحوله إليها ، راجع الرسالة » بالذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٤٠ — ٣٤٢ .

(٢) العلق : الثمين من كل شيء .

(٣) محل الأمانة : هو القلب عند العرب ، وهو كذلك محل الانفعالات جميعها عندهم .

(٤) الوطر : الحاجة التى يهتمُّ بها الإنسان ويعنى بها أتم العناية ، وموضع تعليق الوطر : مكان تعليق الآمال .

(٥) الطويّة والطيّة : الضمير أو النية ؛ المعنى : كنتَ ثابتاً فى أعماق القلب راسخاً فى الضمير .

فِي عِلْمِكَ — أَعَزَّكَ اللهُ — مَا تَقْتَضِيهُ الْمُطَاَلَةُ مِنْ إِظْلَامِ الْخَاطِرِ ، وَصَدَإِ النَّفْسِ ، وَيَجْنِيهِ طُولُ الْمُقَامِ مِنْ إِخْلَاقِ الدِّيبَاجَةِ ، وَإِرْخَاصِ الْقَدْرِ [١] ؛ وَقَدْ آنَ أَنْ أَجْتَنِيَ ثَمَرَةً مِنْ آدَابٍ أَطَلْتُ الْاعْتِنَاءَ بِهَا ، وَأَخْلَاقٍ أَدَمْتُ رِيَاضَةَ الْأَنْفُسِ عَلَيْهَا ، وَلَمَّا مَخَضْتُ الْمُلُوكَ [٢] وَجَدْتُ عَمِيدَهُمُ الَّذِي أَنْسَى السَّالِفَ قَبْلَهُ ، وَتَقَدَّمَ الرَّاهِنَ مَعَهُ ، وَأَتْعَبَ الْغَابِرَ بَعْدَهُ [٣] ، الْحَاجِبَ فَخْرَ الدَّوْلَةِ مَوْلَايَ ، وَمَنْ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ ، وَكَبَتَ أَعْدَاءَهُ لِمَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ مِنْ سَنَاءِ الْهِمَمِ [٤] ، وَسَمَاحَةِ الشِّيَمِ ؛ وَانْتِظَامِ أَسْبَابِ الرِّيَاسَةِ ، وَكَمَالِ آلَاتِ السِّيَاسَةِ ؛ وَاجْتِمَاعِ الْمَنَاقِبِ الَّتِي أَفْرَدَتْهُ مِنَ النُّظَرَاءِ [٥] ، وَأَعْلَتْهُ عَنْ مَرَاتِبِ الْأَكْفَاءِ ؛ فَرَأَيْتُ قَبْلَ أَنْ أُحِلَّ

---

(١) الديباج ثوب سداه ولحمته الحرير ؛ والديباجتان : الخدّان ؛ إخلاق الديباجة : استعمال مجازى معناه ذهاب الروعة والبهاء ، قال الشاعر فى هذا المعنى :

وطول مقام المرء فى الحى مخلقٌ لديباجتيه ، فاغترب تتجدد

فإنى رأيتُ الشمسَ زيدتْ محبة إلى الناس أن ليستْ عليهم بسرمد

(٢) مخض اللبن : حركه ليستخرج ما فيه من زُبْدٍ ؛ والمعنى : إننى فحصت الملوك فلم أر فيهم خيراً من ابن عباد .

(٣) الغابر : الباقى ، قال الزبيدى غبر غبوراً : مكث ، وقد يستعمل بمعنى مَضى فيكون من الأضداد ؛ وفى لغة : غبر للماضى ، وغبر للباقى .

(٤) سناء الهمم : علوُّها .

(٥) المناقب : جمع مَنْقَبَة وهى الفعل الكريم .

اِنْغِيرِهِ نِعْمَةً (١)، أَوْ أَوْسِمَ مِمَّنْ سِوَاهُ بِصَنِيعَةٍ (٢)، أَنْ أَعْرِضَ نَفْسِي مَمْلُوكَةً عَلَيْهِ عَرْضَ مَنْ لاَ يُؤَهِّلُهَا لإِجَارَتِهِ إِلاَّ بِالاسْتِجَازَةِ (٣)، وَلاَ يَطْمَعُ لَهَا فِي قَبُولِهِ إِلاَّ مَعَ الْمُسَامَحَةِ (٤)، فَلَوْ كُنْتُ الْوَلِيدَ بْنَ عُبَيْدٍ بَرَاعَةَ نَظْمٍ (٥)، وَجَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى بَلاَغَةَ نَثْرٍ (٦)، وَإِبْرَاهِيمَ بْنَ الْمَهْدِيِّ طِيبَ مُجَالَسَةٍ، وَإِمْتَاعَ مُشَاهَدَةٍ (٧)، ثُمَّ حَضَرْتُ مَجْلِسَهُ الْعَالِيَ لَمَا كُنْتُ مَعَ سَعَةِ إِحَاطَتِهِ إِلاَّ فِي جَانِبِ التَّقْصِيرِ (٨)، وَتَحْتَ عُهْدَةِ النُّقْصَانِ ، غَيْرَ

---

(١) فى بعض نسخ الذخيرة « أحتمل لغيره » .

(٢) الوسم : العلامة المميزة ؛ الصنيعة : الخير المصنوع لإنسان .

(٣) فى بعض النسخ « لإجارته إلا بالاستجارة » ، أجاره من الظلم : حماه منه أو أنقذه وأعاذه ؛ استجار : طلب الحماية والإنقاذ ؛ استجاز : طلب الإجازة أى الإذن ؛ واستجزته فأجاز : سق أرضك أو ماشيتك بما فاض من مائه ؛ والمعنى : أعرض نفسى عليه راجيـا حمايته أو الفوز بنواله مستجيراً به أو مستمنحاً إيّاه .

(٤) فى بعض النسخ « إلا بالمساعة » .

(٥) الوليد بن عبيد : هو البحترى الشاعر المشهور، وهو أبرع الشعراء فى جودة الصياغة وحسن التنسيق والتنميق توفى سنة ٢٨٤ هـ .

(٦) جعفر بن يحيي البرمكي: وزير الرشيد كان مشهوراً ببلاغة الإيجاز وبخاصة فى التوقيعات ؛ قتله الرشيد سنة ١٨٧ هـ .

(٧) أخو هرون الرشيد وقد برع فى الغناء، وحسن المنادمة وطيب المؤانسة ، ادعى لنفسه الخلافة بعد الأمين، ثم خلعه المأمون وصفح عنه؛ وتوفى سنة ٢٢٤هـ .

(٨) فى بعض النسخ « بسعة إحاطته » ؛ والمعنى : مهما أوتيت من المواهب فإننى لم أبلغ مداه .

أَنَّهُ لَمْ يَعْدَمْ فِي نَجَابَةِ غَرْسِ اليَدِ[1]، وَإِصَابَةِ طَرِيقِ المُصْطَنَعِ[2]، مِنْ وِلاَيَةِ أَخْلَصِهَا، وَنَصِيحَةٍ أَمْحَضُهَا، وَشُكْرِ أَجْنِيهِ الغَضِّ مِنْ زَهَرَاتِهِ[3]، وَثَنَاءٍ أَهْدِي إِلَيْهِ العَطِرَ مِنْ نَفَحَاتِهِ، فَفَوَّضْتُ إِلَيْكَ هَذِهِ السِّفَارَةَ، وَاعْتَمَدْتُكَ بِتَكْلِيفِ النِّيَابَةِ لِوُجُوهٍ، مِنْهَا: حُظْوَتُكَ لَدَيْهِ، وَمَكَانَتُكَ مِنْهُ، سَوَّغَكَ اللهُ المَوْهِبَةَ فِي ذَلِكَ[4]، وَأَنْهَضَكَ بِأَعْبَاءِ الشُّكْرِ لَهَا؛ وَمِنْهَا: سَرْوُ مَذْهَبِكَ[5]، وَكَرَمُ سَجِيَّتِكَ، وَصِحَّةُ مُشَارَكَتِكَ لِمَنْ لَمْ يَسْتَوْجِبْهَا اسْتِيجَابِي، وَلاَ اسْتَدْعَاهَا بِمِثْلِ أَسْبَابِي، مِنْ تَدَانِي الجِدَارِ، وَتَصَافِي السَّلَفِ، وَالانْتِمَاءِ إِلَى أُسْرَةِ الأَدَبِ[6]؛ فَإِنْ وَافَقَتِ السَّانِحَةُ الإِرَادَةَ فَحَظٌّ أَقْبَلَ، وَعَبْدٌ بَلَغَ مِنْ قَبُولِ سَيِّدِهِ مَا أَمَّلَ[7]، وَإِلَّا أَقُلْ:

---

(١) فى بعض النسخ « لم يعدم منى » ؛ والمعنى : إنه سيجد فىّ موضعا طيباً لإسداء النعم .

(٢) فى بعض النسخ « طريق الصنع » والصنع هو الإحسان ، والصنع مصدره البدىء .

(٣) أمحضها : أخلصها ؛ الغض : الطرىّ .

(٤) سوّغك : أعطاك .

(٥) السرو : المروءة والسخاء .

(٦) يسرد الكاتبُ مسوِّغات الشفاعة وهى حُظْوة الشافع عند الأمير ، ثم مروءته وإكرامه لمن هو أقلّ من الكاتب استحقاقاً ، هذا إلى حرمة الجوار وصداقة الآباء والأجداد ، وصلة الآداب .

(٧) المعنى : إذا وافقتْ الفرصةُ السانحةُ توفيقَ الله وإرادته فقد بلغتُ ما أمّلته .

« عَمْرَكَ اللهَ !! » كما قيل في النَّجْمَيْنِ[1]، بل قلتُ : « وَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ »[2] ؛ وَإِنْ عَاقَ حِرْمَانٌ عَادَتَهُ أَنْ يَعُوقَ عَنِ الظَّفَرِ، وَيَعْتَرِضَ دُونَ الأَمَلِ ، فَأَعْلِمُهُ — أَيَّدَهُ اللهُ — أَنِّي فِي حَالِ الْعُطْلَةِ مَعَ غَيْرِهِ وَالتَّصَرُّفِ ، وَيَوْمَيِ الإِبْطَانِ وَالتَّطَوُّفِ ، كَالْمُهْتَدِي بِالنَّجْمِ حِينَ عَدِمَ ذُكَاءً ، وَمُتَيَمِّمِ الصَّعِيدِ إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ[3].

فَإِنْ أَغْشَ قَوْمًا غَيْرَهُ أَوْ أَزُرْهُمُ
فَكَالْوَحْشِ يُدْنِيهِ مِنَ الأَنَسِ الْمَحْلُ[4]

---

(١) يشير إلى قول عمر بن أبي ربيعة [راجع ص ٦٦٢]
أيها المنكحُ الثريا سُهَيلاً   عَمْرَكَ الله كيف يلتقيان

(٢) يشير إلى قول قيس بن الملوح (مجنون ليلى) :
وقد يجمعُ الله الشتيتين بعدما   يظنّان كلّ الظنّ ألاّ تلاقيا

(٣) في بعض النسخ «حين لم يجد الماء» ؛ المعنى : إذا حال الدهرُ بيني وبين الفوز بقربه — ومن شيمة الدَّهْر أن يحرم الراغبين — فأعلمُه أنني سواء كنتُ عاملا لغيره أو عاطلا ، وسواء كنت مقيما أو راحلاً فليس هذا انصرافاً عنه ، وإنما شأني شأنُ من يهتدي بالنجم إذا غابت الشمس ، ويتيمم بالتراب إذا لم يجدِ الماء .

(٤) البيت لمسلم بن الوليد في مدح بني خالد ومعناه : إنني ألجأ إلى غيرهم مضطراً كما يضطر الوحش إلى القرب من الناس لما يصيب موطنه من قفر وإجداب ؛ وقد ورد البيتُ والبيتُ السابق له في الديوان بهذه الصيغة :

ثناء كعرف الطيب يهدى لأهله   وليس له إلا بني خالدٍ أهلُ
فإن أغش قوماً بعدهم أو أزرهمُ   فكالوحش يستدنيه للقنص المحل

القنص : الصيد ، والمحل هو الجدب والإقتار .

وَاللهُ يَتَوَلَّاهُ بِالْفُسْحَةِ فِي عُمُرِهِ ، وَالْإِعْلَاءِ لِأَمْرِهِ ، وَيَصْرِفُ الْأَقْدَارَ مَعَ إِيثَارِهِ ، وَيَصْرِفُ وُجُوهَ التَّوْفِيقِ إِلَى اخْتِيَارِهِ[1] .

وَلَكَ يَا سَيِّدِي فِي انْتِدَابِكَ لِمَا نَدَبْتُكَ لَهُ ، مَا لِلسَّاعِي الْمُنْجِحِ مِنَ الشُّكْرِ ، وَلِلْمُجْتَهِدِ الْبَالِغِ مِنَ الْعُذْرِ[2] ؛ وَمِلَاكُ الْأَمْرِ تَقْدِيمُ الْمُرَاجَعَةِ بِالْإِيجَابِ ، فَأَسْكُنَ إِلَيْهَا ، وَالْجَوَابِ فَأَعْتَمِدَ عَلَيْهِ[3] ، وَأُهْدِي إِلَيْكَ نَدِيَّ الْفَضْلِ النَّاضِرِ مِنْ سَلَامِي ، وَالْأَرِجَ الْعَاطِرَ مِنْ تَحِيَّتِي .

---

(١) المعنى : أدعو الله أن يطيل عمره ، ويرفع منزلته ، ويصيِّر الأقدار متصرفة بما يرضيه ، ويجعل التوفيق مصاحباً لاختياره .

(٢) المعنى : إذا وُفِّقْتَ يا سيدى لإنجاز طلبى ، فلك ما للساعى الناجح من الشكر ، وإذا عاقتك العوائق ، فلك ما للمجتهد المخفق من العذر ، وهو يشير بهذا إلى قول عروة بن الورد :

ومن يك مثلى ذا عيالٍ ومقترا   من المال يطرحْ نفسَه كلَّ مَطرَحِ
ليبلغ عُـــذراً أو ينال رغيبة   ومبلغُ نفسٍ عذرها مثل مُنْجِح

وإلى قول الآخر :

إذا ما شفيت النفسَ أبلغتُ عُذرَها   ولا لومَ فى أمْرٍ إذا بَلَغَ العُذْرُ

(٣) مِلاك الأمر ومَلاكه : ما يقوم به ، يُقال : القلبُ ملاكُ الجسد ؛ والمعنى : قوام الأمر أن تخبرنى بالنتيجة فأطمئن إليها وأن ترسل إلىّ خطابا أعتمد عليه فى انجاز شئونى والرحلة إلى الأمير .

الرِّسَالَةُ العَبَّادِيَّةُ

— ١ —

كتب ابن زيدون هذه الرسالة إلى المعتضد بن عباد[١]:

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ الحَاجِبِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ مَوْلاَيَ وَسَيِّدِي ، وَمَوْلَى المَنَاقِبِ الجَلِيلَةِ ، وَالضَّرَائِبِ النَّفِيسَةِ[٢] ، فِي أَكْمَلِ مَا تَكَمَّلَ لَهُ بِهِ مِنْ عُلُوِّ القَدْرِ ، وَنَفَاذِ الأَمْرِ ، وَخَصَّهُ مِنَ النِّعَمِ بِأَسْبَغِهَا سِرْبَالاً[٣] ، وَأَبْرَدِهَا ظِلاَلاً ، وَأَحْمَدِهَا مَآلاً .

كُنْتُ — أَعَزَّ اللهُ الحَاجِبَ مَوْلاَيَ — قَدْ كَتَبْتُ إِلَى الوَزِيرِ أَبِي عَامِرٍ عَبْدِهِ بِمَا أَيْقَنْتُ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَيْهِ ، وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ[٤] ، فَكَتَبَ الوَزِيرُ إِلَى بَعْضِ أَسْبَابِهِ[٥] بِمَا يَقُومُ مَقَامَ المُرَاجَعَةِ لِي[٦] بِمَا يَرْتَفِعُ عَنْ قَدْرِي ، وَلاَ تَتَّسِعُ لَهُ سَاحَةُ شُكْرِي ، لِعِلْمِي أَنَّهُ عَنِ الحَاجِبِ

---

(١) أرسل الكاتبُ هذه الرسالة عقب الرسالة السابقة كما ذكر ابن بسام في مقدمتها حيث يقول : « وكتب إثر ذلك إلى المعتضد رقعة يقول فيها : » وقد اعتمدنا في تحقيقها على نسخ الذخيرة فإنها لم ترد إلا بها .

(٢) المنقبة : الفعل الكريم ؛ الضرائب : الطبائع .

(٣) في بعض النسخ «أكمل ما تكمل له به» ؛ أسبغها : أوسعها ؛ سربالا : قميصا .

(٤) اشتمل عليه : أحاط به .

(٥) الأسباب : جمع سبب وهو صلة القرابة .

(٦) في بعض النسخ « مما يرتفع عن قدرى »

– أَيَّدَهُ اللهُ – صَدَرَ ؛ وَبِإِذْنِهِ نَفَذَ ، وَالَّذِي عَدَانِي[1] عَنْ أَنْ يَكُونَ الكِتَابُ فِي ذَلِكَ إِلَى الحَاجِبِ – أَبْقَاهُ اللهُ – التَّأَدُّبُ بِآدَابِ حُصَفَاءِ[2] العَبِيدِ فِي الإِجْلَالِ وَالإِعْظَامِ ، وَتَرْكُ التَّبَسُّطِ وَالإِقْدَامِ[3] ، وَقَلَّمَا اسْتَغْنَتْ أَوَائِلُ مَطَالِبِ الأَتْبَاعِ بِحَضْرَةِ[4] المُلُوكِ عَنْ وَسَائِطَ تُمَهِّدُ لَهَا ، وَتَعْتَمِدُ أَوْقَاتَ الإِمْكَانِ بِهَا ، لَا أَنِّي اتَّخَذْتُ إِلَى الحَاجِبِ – أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ – غَيْرَ سِيَادَتِهِ ذَرِيعَةً[5] ؛ أَوِ التَمَسْتُ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ نَفَاسَةِ نَفْسِهِ شَفَاعَةً ؛ وَأَنَّى مَنْدَلٌ لِيَنْثَنِي عَنْ تَفَيُّؤِ ظِلَالِهِ[6] ، وَالاعْتِيَادِ بِحَبْلِهِ[7] ؛ وَصِنَاعَةُ الأَدَبِ كَاسِدَةٌ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَطَرِيقُ الأَمَلِ مُوحِشَةٌ إِلَّا إِلَيْهِ ؛ وَلَمْ يَدْعُنِي إِلَى اسْتِطْلَاعِ مَا قِبَلَهُ شَكٌّ فِي كَرَمِهِ ، وَلَا سُوءُ ظَنٍّ بِسَمَاحَةِ شِيَمِهِ ؛ بَلْ لُزُومُ الطَّرِيقَةِ فِي التَّوْطِئَةِ لِلْمَطْلَبِ[8] ؛ وَالتَّدَرُّجُ إِلَى

---

(١) عداه وعدّاه : صرفه وشغله .

(٢) حصفاء العبيد : حكماؤهم ، من الفعل (حصُف) : استحكم عقله .

(٣) ترك التبسّط : الاحتشام .

(٤) في بعض النسخ « بحضرة الملوك من » ؛ المعنى : إنني أعتذر عن كتابتي إلى الأمير الحاجب كتابة غير مباشرة عن طريق وزيره أبي عامر بن مسلمة لأن حكماء الأتباع يحرصون على أن يوسّطوا بينهم وبين سادتهم وسطاء يمهدون لهم السبل ، ويتخيرون الأوقات المناسبة إجلالا منهم لسادتهم واحتشاما .

(٥) الذريعة : الوسيلة ، وتذرّع فلان بذريعة : توسّل بوسيلة .

(٦) مَنْدل : مصرف ؛ تفيّأ : تظلّل .

(٧) الحبل : الرباط أو العهد أو الذمة أو الأمانة أو الوصال .

(٨) التوطئة : التمهيد .

إِحْرَازِ الْأَرَبِ[١] ؛ وَحَسْبِي أَنَّ أَمَلِي قَدْ ارْتَادَ الْجَنَابَ الرَّحْبَ[٢] ، وَالْمَشْرَبَ الْعَذْبَ[٣] ، وَلَعَلَّ الْحُظُوظَ سَتُكْشَفُ ، وَالنَّوَائِبَ سَتُصْرَفُ[٤] ، إِلَى أَنْ أَبْلُغَ إِلَى أَبْعَدِ غَايَاتِ الْأَمَلِ ، مِنْ مُشَاهَدَةِ حَضْرَتِهِ الْعَلْيَاءِ ، وَالنَّظَرِ إِلَى غُرَّتِهِ الزَّهْرَاءِ[٥] ؛ فَوَاللَّهِ مَا يَنْصَرِفُ فِكْرِي ، وَلَا يَنْصَرِمُ حِينٌ مِنْ عُمْرِي[٦] إِلَّا فِي الذِّكْرِ لَهُ ، وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ ، وَتَصَوُّرِ الْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ[٧] وَأَنَا أُقَدِّمُ الِاعْتِذَارَ مِنْ مَهَابَةٍ تَسْتَمْلِكُ جَنَانِي[٨] ، وَحَصَرٍ يَكَادُ يَقْطَعُ فِي أَوَّلِ الْمُشَافَهَةِ لِسَانِي[٩] ؛ فَإِنْ حَدَثَ ذَلِكَ ، فَمُذْرِي عُذْرُ الْفَضْلِ ابْنِ سَهْلٍ ، وَقَدْ انْقَطَعَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ فَرَاهَةِ الْعَبْدِ أَنْ تَمْلِكَ قَلْبَهُ مَهَابَةُ سَيِّدِهِ[١٠].

---

(١) الأرب : الحاجة المرغوب فيها .

(٢) ارتاد الرجلُ الشيءَ : طلبه ، الجناب : الفناء أو ما قرب من محلة القوم .

(٣) المشرب العذب : الورد السائغ ؛ قال الشاعر :

يزدحم النـــاس على بابه والمشرب العذب كثير الزحام

(٤) المنى : امل الآمال ستظهر والهموم تنصرف .

(٥) حضرة الرجل : قربه أو فناؤه ، وكلّمه بحضرة فلان : بمشهد منه ؛ الزهراء : البيضاء المشرقة .

(٦) ينصرم : يزول أو ينقطع .

(٧) مثل بين يديه مثولا : انتصب قائمًا أمامه .

(٨) تستملك جناني : تستولى على قلبي .

(٩) الحَصَرُ : العيّ أو ضيق الصدر . المشافهة : المخاطبة فمًا إلى فم .

(١٠) فى بعض النسخ « فقال له » . الفراهة : الحذق أو الحسن والصباحة .

وسَيُفضِي ذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللهِ إلَى مَا يَسْتَجِيزُهُ الحَاجِبُ مَوْلَايَ مِنْ إمْتَاعٍ (١)، وَيَقْبَلُهُ مِنْ شَاهِدٍ (٢)، وَيَسْتَطْرِفُهُ مِنْ أدَبٍ (٣)، وَيَسْتَطْلِعُهُ مِنْ إجْمَالِ طَلَبٍ، وَجَمَالِ مَذْهَبٍ (٤)؛ كَمَا أنّي أطْمَعُ أنّي سَأَصِلُ إلَى مَا لَمْ أعْهَدْ مِثْلَهُ مِنْ بَهَاءِ مَنْظَرٍ، وَسَنَاءِ مَخْبَرٍ (٥)، وَرِفْعَةِ شَانٍ، وعِظَمِ سُلْطَانٍ.

وَلَعَلَّ السَّعَادَةَ أنْ تُهَيِّئَ لِي مِنَ الحَظِّ مَا أُثْبِتُ بِهِ مَا ادَّعَيْتُهُ لِنَفْسِي مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ، وَأُنْجِزُ مَعَهُ مَا قَدَّمْتُ عَنْهَا مِنْ هَذِهِ العِدَاتِ (٦)، فَحَوْلُ اللهِ فِي ذَلِكَ كَفِيلٌ (٧)، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الوَكِيلُ (٨).

زَادَ اللهُ الحَاجِبَ مَوْلَايَ مِنْ سَنِيِّ قِسَمِهِ (٩)، وَهَنِيِّ نِعَمِهِ؛ وَبَلَّغَهُ النِّهَايَةَ مِنْ آمَالِهِ؛ وَصَرَفَ بِعِزَّتِهِ غِيَرَ الزَّمَانِ عَنْ كَمَالِهِ (١٠)

---

(١) أفضى إلى الشيء: وصل إليه؛ المعنى: سينتهي اتصالي بسيدي إلى ما يسرّه إن شاء الله فيرى في شمائلي من الإمتاع والمؤانسة ما يبيحه طبعه ويلتئم مع ميوله.

(٢) الشاهد: اللسان أو ما يشهد على جودة الفرس من جريه.

(٣) يستطرفه: يراه بديعا.

(٤) في بعض النسخ « يستطلعه ».

(٥) السناء: الرفعة؛ المخبر: يقابل المنظر؛ والمعنى: أعتقد أنني سأجد عنده ما لم أجد في حياتي له مثيلا من حسن منظر وطيب خبر.

(٦) العدات: جمع عِدة وهي الوعد.

(٧) الحول: القوة؛ كفيل: ضامن.

(٨) مقتبسة من الآية الكريمة « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ».

(٩) سَنِيّ: رفيع؛ القِسَم: جمع قِسْمَة وهي الحظ والنصيب.

(١٠) غير الزمان: أحداثه ونوائبه.

الرسالة العبادية

— ٢ —

وجه الكاتب هذه الرسالة إلى المعتضد بن عباد بعد أن غادره إلى قرطبة [١].

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ مَوْلَاىَ لِلنِّعَمِ يُطَوِّقُهَا [٢] ، وَالْآمَالِ يُصَدِّقُهَا ، وَالْمِنَنِ يُقَلِّدُهَا [٣] ، وَالْأَحْرَارِ يَسْتَعْبِدُهَا ؛ يَعْلَمُ الَّذِى أَسْأَلُهُ إِعْزَازَ مَوْلَاىَ وَإِعْلَاءَ أَمْرِهِ ، وَصِلَةَ تَأْيِيدِهِ ، وَتَمْكِينَ نَصْرِهِ [٤] ؛ أَنِّى لَمْ أَزَلْ مُنْذُ فَارَقْتُ حَضْرَتَهُ الْجَلِيلَةَ ، حَضْرَةَ الْمَجْدِ وَالسِّيَادَةِ [٥] ، وَمَحَلَّ الْإِقْبَالِ وَالسَّعَادَةِ ، لَهِجَ اللِّسَانِ بِمَا أَجْنَانِى مِنْ ثِمَارِ الْحِكْمَةِ وَالنِّعْمَةِ [٦] وَأَفَادَنِى

(١) اعتمدنا فى تحقيق هذه الرسالة على نسخ الذخيرة ، فإنها لم ترد إلا بها وقد صدرها ابن بسام بهذه العبارة : « وكتب إليه بعد أن صدر عن حضرته إلى قرطبة رقعة يقول فيها » مما يدل على أن الكاتب عاد إلى قرطبة ليرتب شئونه قبل الالتحاق بخدمة المعتضد .

(٢) طوقه بنعمته : قلده إياها .

(٣) المنن : النعم .

(٤) المعنى : يعلم الله الذى أدعوه أن يعز مولاى ويعلى شأنه ، ويديم تأييده ويثبت فوزه أنى ...

(٥) حضرة الرجل : قربه أو فناؤه . وكلمه بحضرة فلان أى بمشهد منه .

(٦) لهج بالشىء : أولع به فثابر عليه ، أجناه : منحه الجنى أو سهل له جنيه

مِنْ عُقَدِ الأَدَبِ وَالنَّشَبِ⁽¹⁾ ، فَمِنْ كَبِدِ حَاسِدٍ تَصَدَّعَتْ ، وَأَنْفَاسِ مُنَافِسٍ تَقَطَّعَتْ ، وَنَاعِمِ البَالِ كَسَفَتْ بَالَهُ ، وَمُتَمَنٍّ لِحَالِي طَالَمَا تَمَنَّيْتُ حَالَهُ ، وَقَلَّ لِمَنْ نَالَ أَدْنَى مَكَانَةٍ مِنْهُ ، وَرَقِيَ أَوَّلَ دَرَجَةٍ مِنَ الخُصُوصِ بِهِ⁽²⁾ أَنْ تَحْسُدَهُ الكَوَاكِبُ فِي إِشْرَاقِهَا ، وَتَتَحَشَّدُ إِلَيْهِ الأَمَانِي مِنْ أَطْرَافِهَا⁽³⁾ ، وَاللهُ يُبْقِيهِ لِعَبِيدِهِ الَّذِينَ أَنَا آخِرُهُمْ فِي الخِدْمَةِ ، وَأَوَّلُهُمْ فِي شُكْرِ النِّعْمَةِ ، وَيَرْفَعُ مِنْ هِمَمِهِمْ مَا انْخَفَضَ ، وَيَبْسُطُ مِنْ آمَالِهِمْ مَا انْقَبَضَ ، وَلاَ يَعْدِمُهُمُ التَّقَلُّبَ فِي نِعَمِهِ ، وَالاعْتِلاَقَ بِأَسْبَابِ ذِمَمِهِ⁽⁴⁾ ، بِمَجْدِهِ وَكَرَمِهِ .

وَكَانَتْ مِنْ مَوْلاَيَ — أَعَزَّهُ اللهُ — إِشَارَةٌ ، بَلْ عِبَارَةٌ ، أَعُدُّهَا طَلِيعَةً لِسُعُودٍ تَتَوَالَى طَلَقًا⁽⁵⁾ ، وَمُقَدِّمَةً لِمَسَرَّاتٍ تَتَوَالَى نَسَقًا⁽⁶⁾ ، فَلَمَّا لَحِقَ الجِسْمُ

---

(١) العُقَد : جمع عُقْدة وهى الولاية ؛ النشب : العقار ؛ وقيل المال والعقار

(٢) الخصوص : الاختصاص .

(٣) احتشد القومُ وتحشَّدوا وأحشدوا : اجتمعوا ، ولم نر الفعل «تحشد» المطاوع للفعل « حشد » فيما رجعنا إليه من كتب اللغة .

(٤) اعتلق وتعلّق بامرأة : أحبها ؛ وقد استعمل الكاتبُ هنا الاعتلاق بمعنى التعلّق ؛ ولم نجده فى كتب اللغة ؛ والمعنى : أسأل الله ألا يحرمهم من التمتع بنعمه ، والتمسك بحبال مودته ورعايته .

(٥) الطَّلَقُ : جريُ الفرس إلى هدفه دون تعويق ، أو الشوط ؛ تتوالى طلَقاً : يتكامل ورودها طائفة بعد طائفة ؛ وفى بعض نسخ الذخيرة « ستتوالى طلقاً » .

(٦) تتوالى نسقا : تتوافد متتابعة فى نظام دقيق ؛ وفى بعض نسخ الذخيرة ستتوالى سبقا .

بَعْدَ تَزَكِّي النَّفْسِ لَدَيْهِ، وَالْبَرَاءَةِ مِنْهَا إِلَيْهِ، بِالْوَطَنِ الَّذِي أَسْلاَنِي عَنْهُ وَأَسْنَى لِي الْعِوَضَ مِنْهُ[1]، تَأَتَّيْتُ مِنْ طَاعَتِهِ الْمُقْتَرِنَةِ بِطَاعَةِ اللهِ فِي نَفْسِي مَمْلُوكَتِهِ لِمَا أَنَا مُهِمٌّ بِهِ[2]، مُنَافِسٌ فِيهِ، وَسَاعَفَتِ الْمَآرِبُ، وَأَسْمَحَتِ الْمَطَالِبُ[3]، وَلَمْ يَرِبْنِي تَعَذُّرُ وَجْهٍ حَاوَلْتُهُ، وَلاَ عَدَانِي تَيَسُّرُ أَمْرٍ تَنَاوَلْتُهُ[4]، وَلَمْ تَبْقَ عِلَّةٌ تُسَوِّغُ بِاعْتِرَاضِهَا الاعْتِذَارَ إِلاَّ مَا يَتَرَاخَى، رَيْثَمَا يُعَاوِدُ أَمْرُهُ[5] وَيَتَجَدَّدُ فِي الْحَرَكَةِ إِذْنُهُ، وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ لأَنَّ الإِذْنَ بَعُدَ عَهْدُهُ، وَأَنَّ الْمِيعَادَ لَمْ يُحْكَمْ عَقْدُهُ[6]، بَلْ تَجَنَّبْتُ أَنْ أُدِلَّ بِتَرْكِ الْمُشَاوَرَةِ، أَوْ أُخِلَّ بِرَسْمِ الْمُؤَامَرَةِ[7] فَلَوْلاَ الطَّوْلُ فِي أَمْرِ الْوَاسِطَةِ

---

(١) أسنى: رفع؛ والمعنى: أجزل لي العوض عن مفارقة وطني.

(٢) تأتَّى له الأمرُ: تسهّل وتهيأ، وتأتَّى في أمره: ترفّق.

(٣) أسمحت الطالبُ: أجابت الرغائب.

(٤) لم يربني: لم يحملني على الشك؛ ولا عداني: ولا صرفني.

(٥) علّة: سبب؛ تسوّغ: تسهّل؛ والمعنى: لم يبق لي مسوّغ للاعتذار عن اللحاق به إلا ترقبي أن يعاود الإذنُ لي بالوفود إليه بعد أن طال العهد على إذنه الأول.

(٦) المعنى: لم أستأذنه في المثول بين يديه، لأنّ الإذن الأول بعد عهده ولم يحدّد وقته.

(٧) المؤامرة: المشاورة.

عَبْدِهِ[١] ، بِمُرَاجَعَةٍ أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا ، وَأَجْتَهِدُ فِي الانْتِبَاهِ إِلَيْهَا ، وَأَنَّهُ يُبَلِّغُنِي الأَمَلَ مِنْ وَتْغَةٍ بِحَضْرَتِهِ ، وَنَظْرَةٍ إِلَى غُرَّتِهِ ، وَتَقْبِيلٍ لِرَاحَتِهِ[٢] ، وَتَصَرُّفٍ فِي سَاحَتِهِ ، فَهُوَ الْمَالِكُ لِذَلِكَ ، وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ[٣] .



(١) الطَّوْلُ : المَنُّ .

(٢) الراحة : الكَفُّ .

(٣) في بعض النسخ « القادر عليه » .

ليلة نعيم

وصف الكاتب فى هذه القطوعة ليلة طواها مع ولادة فى نعيم ثم فى عتاب أشبه بالنعيم[1]

كُنْتُ فِي أَيَّامِ الشَّبَابِ ، [وَغَمْرَةِ التَّصَابِ][2] ، هَائِماً بِغَادَةٍ ، [تُدْعَى وَلَّادَةَ][3] ، [أَرَى الْحَيَاةَ مُتَعَلِّقَةً بِقُرْبِهَا ، وَلَا يَزِيدُنِي امْتِنَاعُهَا إِلَّا اغْتِبَاطًا بِهَا][4] ؛ فَلَمَّا قَدَّرَ اللِّقَاءُ ، وَسَاعَدَ الْقَضَاءُ[5] كَتَبَتْ إِلَيَّ :

---

(١) اعتمدنا فى تحقيق هذه القطوعة على نسخ الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٧، ٣٧٨ ، وتحفة العروس لأبى عبد الله محمد بن أحمد التيجانى ص ٢٠٢ ، وقد قدم لها بالعبارة الآتية : « ومن كلام ابن زيدون مخبراً من أول اجتماعه بها مما لم يثبت فى الذخيرة.» مع أن هذه القطوعة وردت بالذخيرة كاملة على العكس من تحفة العروس .

(٢) غمرة كل شىء : حدته ، يقال هو يضرب فى غمرة اللهو : إذا كان منهمكا فيه ؛ التصابى مأخوذ من الصبوة وهى الميل إلى جهلة الفتوة ؛ يقال تصبت المرأة الرجل : شاقته ، وتصبّاها : دعاها إلى الصبا أو خدعها وفتنها ؛ أنشد ابن الأعرابى :

لعمرك لا أدنو لأمر دنيئة ولا أتصبى آصرات خليل

وغمرات التصابى : غفلات الفتوة والجهالة والانقياد للشهوات ؛ والعلما « غرة التصابى » ، ولم ترد هذه الجملة فى تحفة العروس .

(٣) زيادة عن الذخيرة .

(٤) زيادة من تحفة العروس .

(٥) فى تحفة العروس « فلما ساعد القضاء وآن اللقاء » ؛

تَزَفُّ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ زِيَارَتِي   فَإِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَكْتَمَ لِلسِّرِّ

وَبِي مِنْكَ : مَا لَوْ كَانَ بِالشَّمْسِ لَمْ تَلُحْ

وَبِالْبَدْرِ لَمْ يَطْلُعْ ، وَبِالنَّجْمِ لَمْ يَسْرِ (١)

فَلَمَّا طَوَى النَّهَارُ كَافُورَه ، وَنَشَرَ اللَّيْلُ عَبِيرَه (٢) ، أَقْبَلَتْ بِقَدِّ كَالْقَضِيبِ ، وَرِدْفٍ كَالْكَثِيبِ (٣) ، وَقَدْ أَطْبَقَتْ نَرْجِسَ الْمُقَلِ ، عَلَى وَرْدِ الْخَجَلِ (٤) ، فَمِلْنَا إِلَى رَوْضٍ مُدَبَّجٍ ، وَظِلٍّ سَجْسَجٍ (٥) ، قَدْ قَامَتْ رَايَاتُ أَشْجَارِه ، وَفَاضَتْ سَلَاسِلُ أَنْهَارِه (٦) ، وَدُرُّ الطَّلِّ مَنْثُور ، وَجَيْبُ الرَّاحِ مَزْرُور (٧) ؛ فَلَمَّا شَبَبْنَا نَارَهَا ، وَأَدْرَكَتْ مِنَّا ثَارَهَا (٨) بَاحَ كُلٌّ مِنَّا

(١) آثرنا رواية تحفة العروس ؛ وفى الذخيرة

« ... لو كان بالبدر ما بدا   وبالليل ما أدجى ... »

(٢) العبير : الرائحة الطيبة ، وفى بعض نسخ الذخيرة « ونشر الليل عنبره » أى سواده .

(٣) فى تحفة العروس « فى ردف » . والمعنى : أقبلت بقوامها المعتدل المشوق وعجزها المتلىء المرتج مثل كثيب الرمال .

(٤) المعنى : أطبقت عينيها الشبيهتين بالنرجس على خديها الوردين .

(٥) مدبّج : مرقش مزيّن ؛ سجسج : لا حرٌّ فيه ولا برد .

(٦) فى تحفة العروس « وامتدت سلاسلُ أنهاره » .

(٧) جيب القميص : فتحته عند النحر ؛ والمعنى : كان الطل منثوراً كاللآلى على الأزهار ، وأوانى الخمر مغلقة فى انتظار الشاربين والسُّمَّار .

(٨) فى الذخيرة « وأدركت فينا » ، المعنى : لما أفرغنا كئوس الراح أشعلت فينا جذوة الهيام ، وأخذتْ منا بثأرها فى إراقة دمها ، كما قال الشاعر :

والخمرُ تعرفُ كيفَ تأخذُ ثأرها   إنى أمالُ إناءها فأمالنى

بِجُبِّهِ ، وَشَكَا أَلِيمَ مَا بِقَلْبِهِ(١) وَبِتْنَا بِلَيْلَةٍ نَجْنِي أُقْحُوَانَ الثُّغُورِ(٢) ، وَنَقْطِفُ رُمَّانَ الصُّدُورِ(٣) ؛ وَلَمَّا نَشَرَ الصُّبْحُ لِوَاءَهُ ، وَطَوَى اللَّيْلُ ظَلْمَاءَهُ ، وَدَّعْتُهَا ، وَأَنْشَدْتُهَا(٤) :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ ... ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكْ

يَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ ... زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَا إِذْ شَيَّعَكْ(٥)

يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنًا ... حَفِظَ اللهُ زَمَانًا أَطْلَعَكْ(٦)

إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكَمْ ... بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكْ(٧)

قَالَ أَبُو الْوَلِيدِ : وَكَانَتْ عُتْبَةُ(٨) قَدْ غَنَّتْنَا :

---

(١) فى تحفة العروس « ... وشكا ما بقلبه » .

(٢) فى تحفة العروس « نجتنى » . الأقحوان : زهر طيب الرائحة ، وسطه أصفر ، وأوراقه بيضاء ، جمعه أقاح ، قال الشاعر :

تحيّر فى الرياض ، فليس يدرى ... أيجنى الورد أم يجنى الأقاحا ؟

والمعنى : طوينا ليلتنا نتبادل القبلات كأننا نجنى من الأفواه أطيب الأزهار —

(٣) فى تحفة العروس « ونقتطف » .

(٤) فى الذخيرة « فلما انفصلتُ عنها صباحا ، أنشدتها ارتياحا » وقد آثرنا رواية تحفة العروس .

(٥) يقرع السن : يندم .

(٦) السناء : الرفعة ؛ السنا : الضوء .

(٧) راجع ص ١٦٧ من الديوان ؛ وإلى هنا انتهت رواية تحفة العروس واعتمدنا فيما بقى من المقطوعة على نسخ الذخيرة .

(٨) عتبة : وصيفة ولادة .

أَحِينُنَا إِنِّي بَلَغْتُ مُؤَمِّلِي وَسَاعَدَنِي دَهْرِي وَوَاصَلَنِي حِبِّي [١]
وَجَاءَ يُهَنِّينِي الْبَشِيرُ بِقُرْبِهِ فَأَعْطَيْتُهُ نَفْسِي،وَزِدْتُ لَهُ قَلْبِي [٢]

فَسَأَلْتُهَا الإِعَادَةَ ، بِغَيْرِ أَمْرٍ وَلَاَدَةَ ؛ فَخَبَا مِنْهَا بَرْقُ التَّبَسُّمِ ، وَبَدَا عَارِضُ التَّجَهُّمِ [٣]

وَعَاتَبَتْ عُتْبَةَ ، فَقُلْتُ :

وَمَا ضَرَبَتْ عُتْبَى لِذَنْبٍ أَتَتْ بِهِ وَلَكِنَّمَا وَلَّادَةُ تَشْتَهِي ضَرْبِي
فَقَامَتْ تَجُرُّ الذَّيْلَ عَاثِرَةً بِهِ وَتَمْسَحُ طَلَّ الدَّمْعِ بِالْعَنَمِ الرَّطْبِ [٤]

فَبِتْنَا عَلَى الْعِتَابِ ، فِي غَيْرِ اصْطِحَابٍ ؛ وَدَمُ الْمُدَامِ مَسْفُوكٌ [٥] ، وَمَأْخَذُ اللَّهْوِ مَتْرُوكٌ ؛ فَلَمَّا قَامَتْ خُطَبَاءُ الأَطْيَارِ ، عَلَى مَنَابِرِ الأَشْجَارِ [٦] ؛ وَأَنِفَتْ مِنَ الاعْتِرَافِ ، وَبَاكَرَتْ إِلَى الانْصِرَافِ [٧] ؛ وَشَتْ بِمِسْكِ

---

(١) الحِبُّ : الحبيب .

(٢) راجع ص ١٢٠ من الديوان .

(٣) خبا الضوء : انطفأ ؛ التجهُّم : العبوس .

(٤) راجع ص ١٧٥ من الديوان ؛ تَجُرُّ الذيلَ : تسحبه ؛ العنم : شجرٌ لَيِّنُ الأغصان تُشَبَّهُ به أصابعُ الحسان ؛ والمعنى : إنها مسحت مدامعها الشبيهة بالطل بأصابعها الشبيهة بالعنم الطرى .

(٥) المعنى : بِتْنا فى عتاب دائم ، تفزع فيه إلى سكب الخمر فى الكئوس ورشفها فراراً من الجفوة القائمة .

(٦) المعنى : فلما أصبح الصباح ، وغرَّدت الطيورُ على ذوائب الأغصان ...

(٧) المعنى : صرفها الغضب والدلال عن الاعتراف بخطئها فبادرتْ إلى الانصراف .

الأَنْقَاس[١] عَلَى كَافُورِ الأَطْرَاس[٢] :

لَوْ كُنتَ تُنْصِفُ فِي الْهَوَى مَا بَيْنَنَا ... لَمْ تَهْوَ جَارِيَتِي ، وَلَمْ تَتَخَيَّرِ

وَتَرَكْتَ غُصْناً مُثْمِراً بِجَمَالِهِ ... وَجَنَحْتَ لِلْغُصْنِ الَّذِي لَمْ يُثْمِرِ[٣]

وَلَقَــــدْ عَلِمْتَ بِأَنَّنِي بَدْرُ السَّمَا

لَــكِنْ دُهِيتُ لِشِقْوَتِي بِالْمُشْتَرِي[٤]

---

(١) وشّى : زيّن . الأنقاس : جمع نِقس، وهو المداد ؛ والمعنى : كتبتُ بالمداد الشبيه بالمسك .

(٢) الكافور : نوع من الطيب أبيض اللون ، يؤخذ من شجره الضخم ؛ الأطراس : جمع طرس ، وهو الصحيفة ؛ والمعنى: كتبت بالمداد المعطر على الصحائف البيضاء الشبيهة بالكافور .

(٣) جنح : مال .

(٤) المعنى : إنني بدرٌ مُشرِقٌ في صفحة السماء زاحمه نجمُ المشترى والمقصود به جاريتها عُتبة .

إلى ولّادة

كتبتْ ولّادةُ إلى ابن زيدونَ[1] :

ألاَ هَلْ لنَا مِنْ بَعْدِ هَـــذا التفرُّقِ
سَبِيلٌ ؟ فَيَشْكُو كُلُّ صَبٍّ بِمَا لَقِي

وَقَدْ كُنتُ أَوْقَاتَ التَّزَاوُرِ في الشِّتَا — أَبِيتُ عَلَى جَمْرٍ مِنَ الشَّوْقِ مُحْرِقِ

فَكَيْفَ ؟ وَقَدْ أَمْسَيْتُ في حَالِ قطعةٍ — لَقَدْ عَجَّلَ المِقْدَارُ مَا كُنتُ أَتَّقِي

تَمُرُّ اللَّيَالي ، لاَ أَرَى البَيْنَ يَنْقَضِي — وَلاَ الصَّبْرَ مِنْ رِقِّ التَّشَوُّقِ مُعْتِقِي

سَقَى اللهُ أَرْضاً قَدْ غَدَتْ لَكَ مَنْزِلاً
بِكُلِّ سَكُوبٍ هَاطِلِ الوَدْقِ مُغْدِقِ[2]

فأجابها بقوله :

لَحَا اللهُ يَوماً لَسْتُ فِيـــهِ بِمُلتَقٍ
مُحَيَّاكِ مِنْ أَجْـــلِ النَّوَى وَالتَّفَرُّقِ

وَكَيْفَ يَطِيبُ العَيْشُ دُونَ مَسَرَّةٍ ؟
وَأَيُّ سُرُورٍ لِلْكَئِيبِ المُؤَرَّقِ ؟

وكتب في أثناء كلام بعد الشعر : « وَكُنتِ رُبَّمَا حَنَقْتِني عَلَى أَنْ أُنَبِّهَكِ عَلَى مَا أَجِدُ فِيهِ عَلَيْكِ نَقْدًا ، وَإِنِّي انتَقَدْتُ عَلَيْكِ قَوْلَكِ :

---

(1) نقلا عن نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ .

(2) راجع صفحة ٣٣ ، ١٧٤ .

* سَقَى اللهُ أَرْضًا قَدْ غَدَتْ لَكَ مَنْزِلاً * فَإِنَّ ذَا الرُّمَّةِ قَدِ انْتُقِدَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ :
مَعَ تَقْدِيمِ الدُّعَاءِ بِالسَّلَامَةِ :

أَلاَ - يَا اسْلَمِي - يَا دَارَ مَيَّ عَلَى الْبِلَى
وَلاَ زَالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

إِذْ هَذَا أَشْبَهُ بِالدُّعَاءِ عَلَى الْمَحْبُوبِ مِنَ الدُّعَاءِ لَهُ، وَأَمَّا الْمُسْتَحْسَنُ
فَقَوْلُ الْآخَرِ (١) :

فَسَقَى دِيَارَكِ - غَيْرَ مُفْسِدِهَا - صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي (٢)



(١) البيت لطرفة بن العبد .

(٢) سبق العسكريُّ إلى هذا النقد فى كتابه الصناعتين ص ٣٧٩ ، وقد أورده ابن رشيق فى كتابه العمدة جـ ٢ ص ٤١ .

من كتاب التبيين

ذكر المقّري فى نفح الطيب[1] أنّ ابنَ زيدون ألّف كتاباً جامعاً فى تاريخ خلفاء بنى أميّة بالأندلس سمّاه التبيين على منزع التبيين فى خلفاء المشرق للمسعودى[2] ؛ وقد ضاع الكتاب، ولم تبق منه إلا مقطوعتان حفظهما لنا نفح الطيب، هما :

— ١ —

ذَكَرَ ابْنُ زَيْدُونَ : « أَنَّ الدَّاخِلَ أَلْقَى عَلَى قَضَاءِ الْجَمَاعَةِ بِقُرْطُبَةَ يَحْيَى بْنَ يَزِيدَ الْيَحْصُبِيَّ ، فَأَقَرَّهُ حِيناً ؛ ثُمَّ وَلَّى بَعْدَهُ أَبَا عَمْرٍو مُعَاوِيَةَ ابْنَ صَالِحٍ الْحِمْصِيَّ ، ثُمَّ عَمْرَو بْنَ شُرَحْبِيلَ ، ثُمَّ عَبْدَ الرَّحْمٰنِ ابْنَ طَرِيفٍ .

وَكَانَ جِدَارُ بْنُ عَمْرٍو يَقْضِي فِي الْعَسَاكِرِ ؛ وَكَانَ الدَّاخِلُ يَرْتَاحُ لَمَّا اسْتَقَرَّ سُلْطَانُهُ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى أَنْ يَفِدَ عَلَيْهِ فَلُّ بَيْتِهِ بَنِي مَرْوَانَ بِهَا حَتَّى يُشَاهِدُوا مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ ، وَتَظْهَرَ يَدُهُ عَلَيْهِمْ ؛ فَوَفَدَ عَلَيْهِ مِنْ بَنِي هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَخُوهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ ، وَابْنُ عَمِّهِ عَبْدُ السَّلَامِ ابْنُ يَزِيدَ بْنِ هِشَامٍ[3] » .

(١) جـ ٢ ص ١٢٣ .

(٢) ضاع كتاب المسعودى كما ضاع كتاب ابن زيدون ؛ على منزع : على منهج .

(٣) نفح الطيب جـ ٢ ص ٣١ . فَلُّ بيته : بقايا أسرته المنهزمة بالمشرق .

— ٢ —

فِي وَصْفِ عَبْدِ الرَّحْمنِ الدَّاخِلِ: « أَنَّهُ كَانَ أَصْهَبَ، خَفِيفَ الْعَارِضَيْنِ،
بِوَجْهِهِ خَالٌ، طَوِيلَ الْقَامَةِ، نَحِيفَ الْجِسْمِ، لَهُ ضَفِيرَتَانِ، أَعْوَرَ أَخْشَمَ
— وَالْأَخْشَمُ الَّذِي لَا يَشَمُّ — وَكَانَ يُلَقَّبُ بِصَقْرِ قُرَيْشٍ، لِكَوْنِهِ تَغَرَّبَ
وَقَطَعَ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ وَأَقَامَ مُلْكاً — قَدْ أَدْرَ وَحْدَهُ[1] » .



---

(١) نفح الطيب جـ١ ص ٢١٤ . أصهب : أشقر الشعر ؛ خفيف العارضين
أى خفيف شعر جانبي الوجه .



الأعلام

الذين وجّه إليهم الشاعر قصائده أو رسائله، وقد تحدثنا عن صلاتهم بالشاعر فى كتابنا « ابن زيدون »[1] .

— — —

باديس بن حبوس[2] :

« الديوان ص ٣٣٥ » — : ينتمى إلى صنهاجة القبيلة البربرية المشهورة ، ورث إمارة غرناطة عن أبيه، فوسّع حدودها، وبسط سلطانه على الأقاليم المجاورة. ودارت بينه وبين المعتضد بن عباد حروب طاحنة تداولا فيها النصر ، وكان باديس جباراً قاسياً لا يرحم، كاد يفتك بالعرب جميعاً فى إمارته ، ولـكنه كان حسن السياسة، منصفاً حتى من أقاربه ، توفى سنة ٤٦٧ هـ .

أبو بكر بن ذكوان[3] :

« الديوان ص ٥٣٠ » — : انحدر من سلالة بيت كريم ، ودرس علوم اللغة والدين ، وعكف على التأمل والنظر حتى كان الحذاق يتباهون بمجالسته ، فأصبح نسيج وحده فى فضله وعلمه ومعرفته، كما يقول ابن بسام .

ولى الوزارة فى سن العشرين، ثم خطة المظالم الخاصة، ثم أجمع أهل قرطبة على توليته القضاء ، فنهض به خير نهوض ، وكان صلب القناة، حمى الأنف ، أبى أن

---

(١) أما مئات الأعلام الذين ذكرهم الشاعر فى خلال قصائده ورسائله فقد أشرنا إليهم أثناء الشرح بهامش الصفحات ، وقد رتبنا الأعلام فى هذا الثبت بحسب الترتيب الأبجدى، مع إغفال « أبو ... وابن ... » وقد أشرنا بالهامش إلى مصادر تراجمهم ليراجعها من شاء التوسع .

(٢) راجع ترجمته فى أعمال الأعلام ص ٢٣٠ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٤ وتاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٠ والمغرب ج ٢ ص ١٠٧ .

(٣) راجع ترجمته فى المغرب ج ١ ص ٧٠ ، وترتيب المدارك ج ٢ ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، والذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٥٨ ، ٢ ص ج ١٥ .

يستجيب للأمير فى أخذ مال الأوقاف، واعتزل القضاء حتى توفى سنة ٤٣٥ هـ دون الأربعين .

أبو بكر بن القُطينى[1]:

« الديوان ص ٢٠٠ » — : أديب شاعر من بيت علم وأدب وجلال ، وكان إلى هذا عالماً بالطب ، ولى الوزارة وتوفى سنة ٤٦١هـ — دارت بينـــه وبين الشاعر مطارحة شعرية ص ٢٠٠ ، ولكن ابن خاقان ذكر فى المطمح أن هذه المطارحة دارت بين ابن زيدون وأبى مروان عبد الملك بن الطبنى[2] — ابن عم أبى بكر — وكان من أهل الحديث واللغة والأدب، وصفه الحجّارى بأنه كان إماماً فى الحديث، ولـكنه كان شديد التقتير على أهله، حتى قتله جواريه سنة ٤٥٧ هـ .

أبو بكر بن القصيرة[3] :

« الديوان ص ٢٠٩ » — : من أهل أشبيلية، برع فى الـكتابة وتفنن فيها ، قال فيه ابن بسّام : « هو فى وقتنا جمهور البراعة، وقدوة أهل الصناعة » ، ولـكنه كان منطوياً على نفسه ، بعيداً عن السلطان ، حتى تولاه ابن زيدون وقدّمه إلى المعتضد ودفعه إلى الصدارة ؛ فـكان سفيراً للمعتضد ، ثم وزيراً للمعتمد إلى أن نُـكِبَ معه وحمل إلى المغرب منفياً معه ، وتقدمت به السنّ حتى خرف قبيل موته ، وتوفى سنة ٥٠٨ هـ .

أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى[4]:

« الديوان ص ٢٨٥ ، والرسائل ص ٧١٨ » : من رجال الأدب والنحو المشهورين. قال فيه ابن بشكوال : إنه « كان رجلا جيّد الدين، حسن العقل، متصاوناً لين العريكة

(١) الصلة ج ١ ص ٩٦ جذوة القتبس ص ١٤٩ .

(٢) جذوة القتبس ص ٢٦٥ ، الصلة ج ١ ص ٣٤٣ ، والمطمح ص ٥٠ وبغية الوعاة ص ٣١٢ .

(٣) التزيين ج ١ ص ٣٥٠ ، القلائد ص ١٠٤ ، إعتاب الـكتاب ص ٨٤ الذخيرة ق ٢ ص ١٤٢ ، الصلة ج ٢ ص ٥٣٩ .

(٤) الصلة ج ٢ ص ٥٩١ .

واسع الخلق مع نبله وبراعته ، وتقدمه فى علم العربية واللغة،راوية للشعر،وكتب الآداب ، وكان لتلاميذه كالأب الشفيق ، والأخ الشقيق ، مجتهداً فى تبصيرهم ، متنطفاً فى ذلك سَنيّـاً ورعاً ، وافر الحظ من علم الاعتقادات ، سالكاً فيها طريق أهل السنة ، يقصر اللسان عن وصف أعماله الصالحة ، وكان إمام مسجد السقاء توفى سنة ٤٣٣ هـ .

أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم[1] :

« الديوان ص ٢١٩ ، ٢٢٠ » جد الشاعر لأمه،ورث حب العلوم والآداب عن أبيه ، ولى القضاء بمدينة سالم ثم أحكام الشرطة والقضاء بقرطبة ، وكان من أهل الصرامة فى أحكامه ، وكان ذا عناية بالعلوم والآداب ، توفى سنة ٤٣٢هـ.

أبو الحزم بن جهور[2] :

« الديوان ص ٢٤٧ — ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٣٢٤ — ٣٣٧ ، ٥٢٣ ؛ الرسائل ص ٦٨٠ » — : قضى أهل قرطبة على الخلافة الأموية ونادوا بابن جهور حاكماً لهم،فقبل الحكم بعد إلحاح ، ولم يتحول عن دار التواضعة ، ولم يقبل أن يكون بيت المال تحت إمرته ، وكان حاكماً ، مصلحاً جم التواضع ، يشهد الجنائز ، ويعود المرضى ، ويؤذن بمسجد بالربض الشرقى ، توفى سنة ٤٣٥ هـ .

أبو حفص أحمد بن برد[3] :

« الديوان ص ١٩٨ ، ٢٧٣ » : ورث الأدب عن جدّه أبى حفص أحمد ابن برد الأكبر . وبرع فى النظم والنثر ، وبلغ مرتبة الوزارة ، وقد حفظ لنا

---

(١) الصلة جـ ٢ ص ٤٩٤ .

(٢) المغرب جـ ١ ص ٥٦ ، أعمال الأعلام ص ١٤٧ ، الذخيرة ق ١ جـ ٢ ص ١١٥ ، المطمح ص ١٤ ، الحلة السيراء ص ١٦٨ ، جذوة المقتبس ص ٢٧ ، المعجب ص ٥٩ ، الصلة جـ ١ ص ١٣٠ .

(٣) المغرب جـ ١ ص ٨٦ ، والذخيرة ق ١ جـ ٢ ص ١٨ ، ٤٣٥ جذوة المقتبس ص ١٠٧ ، المطمح ص ٢٤ .

ابنُ بسّام طائفة صالحة من رسائله، وباقة يانعة من شعره ، وكان مقرّباً إلى الملوك أثيراً عند الحكام . ذكر الحميدى أنه رآه بالمرية بعد سنة ٤٤٠ ﻫ .

أبو طالب محمد بن مكى[1] :

« الديوان ص ٥٩٥ » — : وَلِىَ أحكامَ الشرطة والسوق بقرطبة مع الأحباس وأمانة الجامع ، وكان محموداً فيا تولاه من أحكامه ، وكان له حظ وافر من الأدب، وكان حسن الخط جيِّد التقييد، ولد سنة ٤١٤ ﻫ وتوفى سنة ٤٧٤ ﻫ .

أبو عامر أحمد بن عبدوس[2] :

« الديوان ص ٥٨٢ ، والرسائل ص ٦٣٤ » — : ولِىَ الوزارة بقرطبة ، ونافس ابن زيدون فى حب ولّادة ، وصبر حتى استطاع آخر الأمر أن يظفر بمودتها ، وكان يدّعى حفظ الشعر وقرضه ، ولكنْ ما بقىَ من شعره ركيك . توفى سنة ٤٧٢ ﻫ ، وقد جاوز الثمانين .

أبو عامر بن مسلمة[3] :

« الديوان ص ٢٠٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ؛ والرسائل ص ٧٦٣ » — : من سلالة بيت كريم ، ولِىَ أجدادُه الوزارة ، وقد بزّهم جميعاً بمنصبه وشعره وأدبه ؛ هجر قرطبة إلى إشبيلية لأملاك قديمة كانت له فى البلد ، وعاش فى كنف المعتضد بن عبّاد، وألف له كتاب (الارتياح فى حقيقة الراح) ، ويقول ابن خاقان : إن المعتضد اغتاله ، ولكن الحجّارى وابن بسام وابن سعيد نفوا هذه الرواية ؛ وقد أورد له ابن بسام فى القسم الثانى من الذخيرة طائفة صالحة من الشعر .

---

(١) الصلة ج ٢ ص ٥٢٣ .

(٢) تكملة التكملة ص ٢٥٧ ، رايات المبرزين ص ٣٨ ، مسالك الأبصار ج ٩٠ ورقة ٢٣١ .

(٣) المغرب ج ١ ص ٩٦ ، جذوة المقتبس ص ٦١ ، المطمح ص ٢٣ ، بغية الملتمس ص ٨٠ ، الذخيرة ق ٢ ص ٥٨ ، مسالك الأبصار ج ١٠ ورقة ٢٣١ .

أبو العباس أحمد بن أبي حاتم بن ذكوان[1] :

« الديوان ص ١٩٩ » — : من بيت جلالة وأدب ووقار ، ولكنه مال إلى المجون ، فجاء فيه كما يقول ابن بسام — : « طرفاً ليست وراءه غاية ، يصور القلوب برقة ظرفه ، وحرارة نادرته ؛ لا يكاد أحد يمكنه من أذنه إلا أخذ بفؤاده رقة وحلاوة ، ويشوبها ببعض الهزل عند انبعاث النادرة » وله في ذلك أخبار مشهورة ، وملحه في الأدب غزيرة ، شاهدة له بقوة الطبع ، وخفة الروح .

أبو عبد الله بن عبد العزيز[2] :

« الديوان ص ٢٠١ » : هو الوزير الكاتب المشهور محمد بن مروان ابن عبد العزيز ، وزر لبني عبد العزيز أمراء بلنسية ، وكان من أعلام الكتاب البارزين وذوى الرأى السديد ، والتدبير المحكم ، والثروة الطائلة .

أبو عبد الله بن القلاس :

« الديوان ص ٥٧٨ » — : لم نجد له ذكراً بين آلاف التراجم الأندلسية التي رجعنا إليها ؛ وقد نافس ابن زيدون في حب ولادة حتى زجره عنها فازدجر .

أبو العطاف بن حيّ :

« الديوان ص ٢٠٦ » — : كان مولعاً برواية الأشعار وجمعها ، توسل إلى ابن زيدون بالمعتمد بن عباد ليقدم إليه طائفة من شعره ؛ ولم نجد له ذكراً في كتب التراجم الأندلسية .

أبو القاسم بن رفق :

« الديوان ص ٢٣٠ » عاتبه ابن زيدون بقصيدة رقيقة ولم نجد له ذكراً في كتب الأندلسيين . —

(١) الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) الحلة السيراء ص ١٩١ ، أعمال الأعلام ص ٢٠١ ، المطمح ص ١١ .

مجاهد العامرى(١) :

« الديوان ص ٢٣٦ » — : أسس إمارة قوية فى إقليم دانية ، وضم إليها جزر البحر الأبيض القريبة منها : ميورقة ومنورقة ويابسة ، وأسس لنفسه أسطولا عظيما هدد به شواطئ فرنسا وإيطاليا ، وغزا جزيرة سردينية ، وكان عالما محبا للعلماء والأدباء والفقهاء ، فألفوا له المصنفات الجليلة ، وبخاصة فى العلوم القرآنية . توفى سنة ٤٣٦ هـ .

المظفر بن الأفطس(٢) :

« الديوان ص ٤٠٦ — ٤٣٧ ؛ والرسائل ص ٧٥٤ » — : ورث إمارة بطليوس عن أبيه ، وكان فاضلا عالما ، وشجاعا فارســـا ، ألف كتاباً جامعا سماه المظفرى فى خمسين مجلدا ، وقيل مائة ، وذكر الحميدى أنه أعرف أهل الأندلس قاطبة باللغات والأخبار ، ومعانى الأشعار ؛ وقد دارت بينه وبين المعتضد بن عباد حروب طاحنة حفلت بها كتب التاريخ ، وتوفى سنة ٤٦٠ هـ فى سن السبعين .

المعتضد بن عباد(٣) :

« الديوان ص ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٣٠٥ ، ٤٢٨ — ٥٠٣ ، ٥٤٩ ، ٥٥٩ ، ٥٩٢ ؛ والرسائل ص ٧٦٩ ، ٧٧٣ » — : ورث حكم إشبيلية عن أبيه سنة ٤٣٣ هـ فوسع رقعتها حتى أصبح أعظم أمير من ملوك الطوائف ، وكان قاسيا غليظ القلب ، ولكنه كان شاعراً يجزل العطاء ، ويكرم الشعراء ، توفى سنة ٤٦١ هـ .

---

(١) أعمال الأعلام ٢١٧ ، البيان المغرب جـ ٣ ص ١٥٥ ، وتاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٦٤ ، جذوة المقتبس ص ٣٣١ ، والمغرب جـ ٢ ص ٤٠١ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٨٣ ، البيـــان المغرب جـ ٣ ص ٢٣٦ ، والصلة جـ ٢ هامش ص ٤٥٣ .

(٣) الذخيرة ق ٢ ص ١٠ ، أعمال الأعلام ص ١٥٥ ، جذوة المقتبس ٢٧٧ ملوك الطوائف ص ٩٥ وما بعـدها ، البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٠٤ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٥٦ .

المعتمد بن عبّاد[1] :

« الديوان ص ٢١١ — ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٣٠٦ — ٢٣١ ، ٥٠٤ — ٥٢١ ، ٥٦٣ ، ٥٩٦ — ٦٣٦ » — : ورث إمارة إشبيلية عن أبيه المعتضد فوسّع رقعتها وضم إليها إمارة قرطبة . وكان شاعراً مجيداً، فتح بلاطه للشعراء ، وأغدق عليهم الأموال، فاجتمع في ظله منهم ما لم يجتمع في بلاط خلفاء الأندلس وأمرائها ؛ أسرهُ يوسف بن تاشفين ، ومات أسيراً عنده بالمغرب سنة ٤٨٨ هـ .

أبو الوليد بن جهور[2] :

« الديوان ص ٢٤٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٣٨ — ٤٠٥ ، ٥٢٣ ، ٥٣٩ » — : ورث حكم قرطبة عن أبيه أبي الحزم بن جهور سنة ٤٣٥ هـ وكانت بينه وبين ابن زيدون مودة وثيقة منذ طفولتهما، ولكنّ الوشاة عكروا صفو هذه الصداقة أخيراً ؛ وكان أبو الوليد بن جهور كريماً أريحياً تقياً ورعاً عالماً محباً للعلماء ؛ وكان سهلاً متسامحاً رقيقاً يعطف على الناس ويفسح لهم صدره ، ويسالم جيرانه من الملوك والأمراء ، ولما تقدمت سنه فوض لولديه : عبد الرحمن وعبد الملك تدبير شئون الحكم فأساءا استعماله ، وأتاحا للمعتمد بن عباد الاستيلاء على قرطبة فنفى أبا الوليد ابن جهور وأسرته إلى جزيرة شلطيش فمات بها سنة ٤٦١ هـ .

ولادة بنت المستكفى[3] :

« الديوان ص ١٢٠ — ١٩٦ ، والرسائل ص ٧٧٧ ، ٧٨٢ » — : سليلة بيت الخلافة الأموية نشأت على خلاف أخلاق أبيها الخليفة المستكفى بالله الأموى ، فكانت شاعرة أديبة ، ومحدثة بارعة ؛ ماهرة في الموسيقى والغناء إلى جمال فتان ، وقد أنشأت لها ندوة أدبية (صالونا) يتسابق إليه الوزراء والأدباء ، وشغف بها كثير منهم وبخاصة ابن زيدون ، ولكنها آثرت أن تظل عانسا حتى توفيت سنة ٤٨٤ هـ وقد قاربت المائة .

(١) أعمال الأعلام ص ٧ ، ٢١ ، الذخيرة ق ٢ ص ٢٣ ، القلائد ص ٤ ، ديوان المعتمد (المقدمة) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٩ ، ٢٧٣ .

(٢) أعمال الأعمال ١٤٨ ، المغرب ج ١ ص ٥٦ ، الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ١١٧ ، الصلة ج ٢ ص ٥١٦ البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٤ جذوة المقتبس ٤٣ .

(٣) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٦ ، الصلة ج ٢ ص ٦٥٧ ، بغية الملتمس ص ٥٣١ ، نزهة الأبصار ونزهة الأسماع ص ١٠ ، محاسن النساء ص ١٠٩ .

تنبيهات

أولا : على الرغم من الدقة فى التصحيح وقعت بعض هنات مطبعية لم نر داعياً لسردها ، لأن من السهل على القارىء إدراكها .

ثانيا : رجعنا إلى مئات المراجع فى تحقيق آثار الشاعر ، ولم نشر إلى طبعاتها ومؤلفيها اكتفاء بوصفنا لها فى كتابنا ابن زيدون ، واقتصرنا هنا على ذكر الصفحات ؛ أما كتب اللغة ودواوين الشعراء والأمثال فاكتفينا بذكرها لأنها مرتبة على القوافى أو أوائل الكلمات أو أواخرها .

ثالثا : يجد الباحث فى كتابنا « ابن زيدون » ذكر البواعث التى أوحت إلى الشاعر بآثاره الأدبية ، كما يجد فيه الأجواء التى سبقت فنّه بما صبغته من أضواء وظلال وألوان .

استدراك

قلنا فى هامش صفحة ٤٥٥ من الديوان عند تعليقنا على هذا البيت :

فكأنّنى طالعتُهم بوفادة لم يستطعها عروة الوفاد

لعله يقصد عروة بن الورد ، وقد اتضح لنا أخيرا — بعد البحث — أن المقصود هو « عروة بن عتبة بن جعفر من بنى عامر بن صعصعة » ؛ ويعرف بعروة الرّحال لرحلته إلى الملوك ، وهو من أردافهم — الذين يقومون مقامهم عند غيبتهم — وكان من ذوى العقل والشهامة والسداد .

تعهد للنعمان بن المنذر بحماية قافلته التجارية من أهل نجد وتهامة ، فاغتاله البرّاض وضُرب بمصرعه المثل فقيل : « أفتك من البراض » وبسببه قامت حزب الفجار .

فهرس الموضوعات

فهرس القوافي والبحور[1]

(١) ما بين القوسين ليس من نظم الشاعر وإنما كان موجهاً إليه من آخرين ليجيب عنه .

صدر	قافية	بحر	صفحة
ألا	واجدُ	طويل	١٧٢
أجَلْ	أشدُّ	طويل	٣٥١
[الحاجبُ	العَضُدْ]	كامل مجزوء	٥٩٦
[ياسيدى	المُدَدْ]	كامل مجزوء	٥٩٧
لو أنَّ —	بِصَدْ	كامل مجزوء	٥٩٧
هَلْ	البعيدْ	كامل مجزوء	٢٢٣
أتاك	العذارَى	وافر	٢١٩
يا مخجل	نظرا	بسيط	١٧٤
يا مَن	والفِكرَا	بسيط	١٧٢
يا ليلُ	قِصَرَكْ	كامل مجزوء	١٨٢
ما جالَ	بالأثَرِ	بسيط	٢٥٠
عذْرى	يبْذرِ	خفيف	٢٣٠
أفدْتَنِى	الفِكَرِ	منسرح	٢٠٦
ورامشة	النشرِ	طويل	١٣٢
هزَّ	بشطرِ	خفيف	١٢٠
كأنا	كالزُّهْرِ	طويل	٢٤٤
[تباعدنا	المزارِ]	وافر	٢٠٤
هواى	الجوارِ	وافر	٢٠٥
أكرِمْ	وعطّارِ	بسيط	١٩٦
بَنَيْتَ	تُبْرِى	طويل	٢٩٤
[شعرٌ مَنْ	— طيره]— —	خفيف مجزوء	٦٠٨
أيها الماجد	خَيرِه	خفيف مجزوء	٦٠٨
[أبا الوليد	زوّارِ]	بسيط	٢٠٠

(١) مطلع هذه القصيدة مكرر مع القصيدة السابقة .



رقم الايداع ٨٠/٥٥٢٤

الترقيم الدولى : ٨ - ٢٣٢ - ٢٨٦ - ٩٧٧ ISBN

